آرثر غولدن

جيشا

رواية

www.rewity.com
^RAYAHEEN^

ترجمة عدنان محمد

WWW.REWITY.COM

جيشا

في اليابان، قبل الحرب العالمية الثانية، باع صياد سمكٍ بسيطٍ ابنته سايوري، وهي لمّا تتجاوز التاسعة من عمرها، إلى بيتٍ للّذة في كيوتو.

سرعان ما فهمت تلك الفتاة الصغيرة، وهي تمتلك عينين زرقاوين ساحرتين، كيف تستفيد من هذه المَلَكَة، وأخذت تغرف من العلوم التي تجعل منها جيشا حقيقية: فنون الزينة، وتصفيف الشعر، طقس تقديم الشاي، وعلوم الغناء والرقص والحب.

شيئاً فشيئاً، أخذت سايوري ترتقي إلى مصاف الجيشاوات الأكثر شهرة في تلك المدينة، وأخذ الأغنياء وأهل السلطة يتنازعون لكسب ودّها. أخيراً استطاعت أن تنتصر على أحقاد غريمة لها، وتقع صريعة الحب...

لهذه القصة المكتوبة على شكل مذكرات دقّة وثيقةٍ غير عادية، ونَفَس رواية عظيمة. إنها تنقلنا وسط عالم غرائبي تمتزج فيه الإثارة بالانحراف، القسوة بالترف، والإغراء بالغموض.

إنها رواية اليابان الأولى، وهي من أكثر الروايات مبيعاً في العالم، وقريباً، سيحول المخرج العالمي الكبير «ستيفن سبيلبرغ» هذه الرواية إلى فيلم سينمائي بعنوان: «مذكرات جيشا».

الناشر

www.rewity.com
ARAYAHEEN
WWW.REWITY.COM

العنوان الأصلي للكتاب:
Memoirs of a geisha

ولد آرثر غولدن Arthur Golden في تينيسي. حاز على دبلوم في تاريخ الفن الياباني من جامعة هارفارد. درس وعمل في طوكيو وبكين. وهو اليوم يدرّس الأدب وتقنيات الكتابة في بوسطن. وقد ترسّخ اسمه بوصفه من الروائيين الأكثر موهبةً بين كتّاب جيله. يعيش الآن في ولاية ماساشوستس مع زوجته وولديه.

قريباً، سيحوّل ستيفن سبيلبرغ رواية جيشا إلى فيلم سينمائي بعنوان: مذكرات جيشا.

WWW.REWITY.COM

إلى زوجتي ترودي
وولديّ هايس وتِس

WWW.REWITY.COM

مقدّمة

ذات مساءٍ من ربيع عام 1936 ذهبت مع أبي لمشاهدة عرضٍ للرقص في كيوتو. كنتُ في الرابعة عشرة من عمري. واليوم، تذكّرني تلك السهرة بأمرين: أولهما، إني وأبي كنا الغربيَّين الوحيدَين في الصالة. كنا قد وصلنا من هولندة، بلدنا الأصلي، قبل أسبوعين، ومايزال ذلك المنفى الثقافي يثقل عليّ. وثانيهما، إني صرت أخيراً قادراً، وبعد دراسة مكثّفة للغة اليابانية، على فهم نتفٍ من الأحاديث التي أسمعها هنا وهناك. أما بالنسبة إلى الفتيات اليابانيات اللواتي كنّ يرقصن أمامي على المسرح، فلم أحتفظ عنهنّ بأية ذكرى ما خلا انطباعاً عن الكيمونوهات(*) كثيرة الألوان. ما كنتُ أعتقد أن إحداهنّ ستصبح صديقتي بعد خمسين عاماً في نيويورك، وأنها ستملي عليّ قصة حياتها غير العادية.

بصفتي مؤرخاً، طالما عددتُ المذكّرات نصوصاً مرجعية. ففي المذكّرات لا يُكشَف المؤلف بقدر ما يُكشَف عالمه. فالمذكّرات تختلف عن السيرة لأن كاتب المذكرات لا يتمتع بداهةً بالمسافة التي لكاتب

(*) الكيمونو: Kimono ثوب تقليدي ياباني طويل، مكوّن من قطعة واحدة (وأحياناً) من قطعتين: سترة وبنطال، والكمّان فيه واسعان وفضفاضان وهما جزء منه وليسا مخيّطين إليه. يرتديه اليابانيون رجالاً ونساءاً، وتزيّنه رسوم وأشكال تتدرّج جمالاً وإتقاناً بحسب الغاية التي يُلبس من أجلها الكيمونو (مدرسة، عمل، زيارة) وبحسب الطبقة الاجتماعية لمن يلبسه. م.

www.rewity.com
WWW.REWITY.COM

السيرة. والسيرة الذاتية، إن وُجِد أمرٌ كهذا، فهي كأنما نسأل أرنباً عما يُشبهُ وهو يقفز على عشب المرعى. من ناحية أخرى، إذا ما أردنا تفصيلات عن هذا المرعى، لا أحد يفضله في تفصيل ذلك ما خلا بعضَ الأشياء التي يعجز عن ملاحظتها.

أقول ذلك بثقة الجامعي الذي بنى عمله على تفصيلاتٍ كهذه. ومع ذلك، عليَّ أن أعترف أن مذكّرات صديقتي العزيزة نيتا سايوري دفعتني إلى مراجعة وجهة نظري. لقد جعلتنا ندلف إلى هذا العالم المجهول الذي عاشت فيه ـ الحقل الذي يراه الأرنب، إذا أحببتم. وقد لا توجد شهادة أفضل من شهادتها عن حياة الجيشا، ويا له من وجود غريب! سايوري تتدفّق هنا كل التدفّق. إنها ترسم لنا لوحة أدقّ وأبلغ من كل ما يمكن أن نكون قد قرأناه في ذلك الفصل اللامتناهي عن«درر اليابان الوضّاءة»، أو في المجلات المختلفة التي نشرت عنها مقالات ومقالات عبر السنين. وأودّ أن أقول إنه فيما يخصّ أصالةً كهذه، لا أحد يعرف الشخصية الرئيسة كما تعرفها المؤلفة نفسها.

مسألة ارتقاء سايوري لسلم الشهرة هي في جوهرها مسألة حظ. فثمة نساءٌ أخريات عشن حياةً شبيهة، قد تكون الجيشا الشهيرة كاتو يوكي ـ جيشا غزت قلب جورج مورغان، ابن أخت ج. بييربونت، وغدت خطيبته من الطرف الآخر للعالم طوال العقد الأول من هذا القرن ـ قد عاشت حياة أغرب من حياة سايوري. لكن سايوري وحدها هي التي صورت لنا حياةً بهذا الغنى، حياتها. لطالما ظننتُ أن ذلك محض مصادفة. لو أن سايوري بقيت في اليابان فقد كانت حياتها أحفل من أن تستطيع كتابتها في مذكرات. ومع ذلك فقد هاجرت إلى الولايات المتحدة في العام 1956 بعد عدة أحداث جرت في حياتها. وطوال السنوات الأربعين التي عاشتها بعد ذلك، أقامت في «أبراج وولدورف» في نيويورك حيث أدارت جناحاً يابانياً أنيقاً في الطابق الثاني والثلاثين. هناك، عاشت حياةً مضطربة وغشى جناحها فنانون يابانيون ومثقّفون ومشاهير من

عالم الأعمال، وحتى وزراء وقطاع طرق. تعرفتُ بسايوري في العام 1985 عندما عرّفنا ببعضنا صديق مشترك. وبوصفي مختصّا في اليابان، فقد صادفت اسم سايوري لكني لم أعرف شيئاً ذا بالٍ عن صاحبته. وعلى مرّ السنين قامت بيننا علاقة صداقة حقيقية، وزوّدتني بالمزيد من أسرارها. ذات يوم سألتها إن كانت تقبل أن تروي لي قصتها فقالت:

ـ أقبل بشرط أن ترويها أنت يا جاكوب ـ سان.

وهكذا بدأنا مشروعنا. فضّلت سايوري أن تملي مذكّراتها على أن تكتبها بنفسها. لقد كانت معتادة على المسارّة إلى درجة أنها كانت تحسّ بالاضطراب إذا لم يكن هناك من يسمعها. لقد أملت عليّ مذكّراتها خلال ثمانية عشر شهراً. كانت تتكلم بلهجة كيوتو ـ حيث غالباً ما تتنادى الجيشاوات باسم «جيكو»، ويسمّين الكيمونو «أوبيبي». بتساؤلي عن الطريقة التي سأحول بها هذه اللهجة إلى ترجمتي فهمت دقائقها كلها. منذ البداية أسرني عالم سايوري. كنا نلتقي مساءً ماخلا بعض الاستثناءات ، فذلك هو الوقت الذي يكون ذهنها فيه أكثر تفتّحاً. وفي معظم الأحيان كانت تفضّل العمل في جناحها في «أبراج وولدورف»، ولكننا كنا نلتقي بين الفينة والأخرى في صالون خاص في مطعم ياباني اعتادت على ارتياده في بارك آفنيو. كانت جلساتنا تدوم ساعتين أو ثلاث ساعات، وكنا نسجلها. ومع ذلك فقد كانت سكرتيرة سايوري حاضرة لتسجّل ما تقوله بكل أمانة. لكن سايوري لم تكن تتحدّث لا إلى آلة التسجيل، ولا إلى سكرتيرتها، بل إليّ أنا. وعندما كانت تتعثّر في حديثها، كنتُ أساعدها. كنت أعدّ نفسي قاعدة المشروع وبإحساس يتملكني أن قصتها ما كانت لتروى لو لم أنل ثقتها. والآن، أخذتُ أفكر أن الحقيقة قد تكون أمراً آخر تماماً. لقد اختارتني سايوري كناسخ، ولكن بلا أدنى شكّ كانت تستطيع انتظار المرشّح المثالي منذ البداية.

من هنا يأتي السؤال: لماذا أرادت سايوري أن تُروى قصتها؟

WWW.REWITY.COM

إذا لم تتمسك الجيشاوات بالصمت فإنهن لن يوجدن إلا في ذلك المبدأ الياباني الغريب: لا علاقة للأمور التي تجري صباحاً في المكتب بتلك التي تجري مساءً خلف أبواب مغلقة، يجب أن تبقى متباعدة. لا تتحدّث الجيشاوات عن تجاربهن، تماماً كما تفعل المومسات، نظيراتهن في طبقة أدنى. إنهن يعرفن تفصيلات خاصة عن شخصيات عامة. هناك إذاً ضمانة كتمان صامت، مما يشرّفهن بكل تأكيد. والجيشا التي تخون تلك الثقة تجد نفسها في وضع مستحيل. استطاعت سايوري أن تروي قصتها لأنها كانت تجد نفسها في وضع خاص. فلم يعد لأحد في اليابان من سلطة عليها. لقد قطعت كلّ صلة لها مع بلادها. ألهذا لم تعد تحسّ بضرورة تمسكها بالصمت؟ ربما. ولكن هذا لا يفسّر رغبتها في الكلام. أحببت ألا أطرح هذا السؤال في حضورها. كنت أتساءل: ماذا يحدث لو أنها أحسّت فجأة بالندم وغيّرت رأيها؟ حتى بعد أن انتهى المخطوط، لم أجرؤ على طرح هذا السؤال. وعندما تلقّت سلفة من الناشر، قدّرت أني لن أتعرّض للخطر بعد الآن، وسألتها: لماذا أرادت أن تجعل من حياتها وثيقة؟ فأجابت:

ـ فيم سأشغل وقتي الآن؟

هل أسبابها أبسط من ذلك، أم لا؟ على القارئ أن يحكم.

ورُغمَ أن سايوري كانت توّاقة لأن ترى سيرتُها النور، فقد وضعت بعض الشروط على النشر: ألّا ينشر المخطوط إلا بعد وفاتها ووفاة بضع شخصيات لعبت دوراً حاسماً في حياتها. قد يسبقونها جميعاً إلى الموت، لكنها لم تكن تريد أن تحرج أحداً. كلما كان ذلك ممكناً كنت أغفل تلك الأسماء حتى لو أن سايوري لم تكشف هوية بعض الأبطال، حتى إليّ أنا، وذلك تمشّياً مع العرف المشترك بين الجيشاوات بأن يذكرن زبائنهن بألقاب. وسوف يصادف القارئ أمثلة على ذلك، مثل السيد «ندف الثلج» الذي سمّي كذلك بسبب القشرة في شعره. وإذا أحس، هذا القارئ نفسه، بأن سايوري تحاول أن تكون مضحكة فقط، فقد أخطأ في فهم نيّتها الحقيقية.

وعندما طلبت إلى سايوري أن تأذن لي باستخدام آلة تسجيل أردت فقط أن أحتاط ضد أي خطأ محتمل في الكتابة من قِبَل سكرتيرتها. ومع ذلك فقد تساءلت منذ وفاتها في العام الماضي ما إذا كان لديّ من سبب آخر: أن أحتفظ بتسجيل لصوتها المعبّر. في معظم الأحيان كانت تتحدّث بصوت ناعم، كما يجدر أن نتوقّع من امرأة كانت مهنتها التحدّث إلى الرجال. ولكن عندما كانت تعيد تمثيل مشهد من حياتها كان صوتها يوهمني أن في الغرفة سبعة أشخاص أو ثمانية. بين وقتٍ وآخر قد أعيد سماع الأشرطة في مكتبي مساءً، فأحسّ بعناء في تصديق أن هذه المرأة لم تعد في عالمنا.

جاكوب هاآروبس

آرنولد روزوف أستاذ تاريخ اليابان

جامعة نيويورك

WWW.REWITY.COM

1

تخيّل: أننا جالسين، أنتَ وأنا، في حجرة تُطلّ على الحديقة، نتحدّث بهدوء ونرتشف الشاي الأخضر، نسترجع حدثاً ماضياً وأقول لك:«بعد الظهر التقيت بفلان... كان أجمل بَعْدَ ظُهْرٍ، وأسوأه في آن معاً» بكل تأكيد، سوف تضع كأسك وتقول:«في النهاية يجب أن نعرف، أهو الأسوأ أم الأجمل؟ لأنه لا يمكن أن يكون الاثنين معاً!». لا بدّ أني أضحك من نفسي، وأنت على حق. ولكن الحقيقة أن بعد الظهر الذي قابلت فيه السيد تاناكا إيشيرو كان حقاً الأسوأ والأجمل في حياتي. كنت أجده جذّاباً جداً، حتى رائحة السمك على يديه كانت عطراً. لو لم ألتقِ بهذا الرجل لما أصبحت جيشا قَطّ.

أصلي وتربيتي لم يكونا يؤهلاني لأن أصبح جيشا في كيوتو. حتى إني لم أولد في كيوتو. فأنا ابنة صياد من مدينة صغيرة اسمها يورويدو على بحر اليابان. لم أبُح بذلك إلا لقليل من الناس: يورويدو، بيت طفولتي وأمي وأبي وأختي الكبرى. ولم أحدّث أحداً كيف أصبحت جيشا، أو ما معنى أن تكون المرأة جيشا. كان معظم الناس يفضّلون الاحتفاظ بهذا الوهم عن فتاة صغيرة كانت أمها وجدّتها جيشاوَين ، تعلّمتا الرقص منذ نعومة أظفارهما.إلخ. في الواقع، منذ سنين طويلة كنت أقدم كأساً من الساكي(*) لرجل قال إنه

(*) الساكي: مشروب كحولي يُحصل عليه من تخمير الأرز، ويُسمّى أيضاً بيرة الأرز. يُشرب فاتراً أو ساخناً. م.

WWW.REWITY.COM

ذهب إلى يورويدو في الأسبوع السابق. انتابني إحساس الطائر الذي يجتاز المحيط ثم يقع على مخلوق يعرف عشه. كنت مضطربة إلى درجة أني كرّرتُ مراراً:

- يورويدو! ولكنه المكان الذي ترعرعت فيه!

المسكين! غزَت وجهَه كافةُ التعبيرات الممكنة. واغتصب ابتسامةً لم يكن فيها كثيرٌ من الإقناع لأنه كان مندهشاً ولم يستطع أن يخفي اندهاشه، وقال:

- يورويدو؟ هذا مستحيل!

منذ زمنٍ كنتُ قد اصطنعتُ ابتسامة مدروسةً جداً أسميتها: «نو»، لأنها تذكّرُ بقناع مسرح النو ذي التعابير الجامدة. الفائدةُ هي أن الرجال يفسرونها كما يطيب لهم. تصوّرْ عدد المرات التي استطعتُ فيها استخدامها ـ ذاك اليوم، على سبيل المثال، سارت الأمور كما أريد بكل تأكيد. نفخ نفخةً كبيرة، ثمَّ شرب قدح الساكي الذي قدّمته له، وغاص في ضحكةٍ كبيرة، كانت ضحكة ارتياح في رأيي. قال:

- يا لها من فكرة! أنتِ نشأتِ في جحرٍ مثل يورويدو! ذلك كمن يحضر الشاي في مبولة!

ضحك من جديد، ثمَّ أضاف:

- لهذا السبب أستمتع معكِ بهذا القدر يا سايوري ـ سان، أحياناً بالكاد أعي أنكِ تمزحين.

لا أحبُّ كثيراً أن أُشبَّهَ بالشاي الذي يُصنع في المبولة، ولكن هذا الكلام صحيح بطريقةٍ ما. فأنا ترعرعتُ حقاً في يورويدو، ومن يجرؤ على القول إنه مكانٌ عظيم؟ لا أحد يزوره عملياً. أمّا بالنسبة إلى الناس الذين يعيشون فيه، فليس لديهم الفرصة للسفر. وأنا، كيف تسنّى لي أن أغادر ذلك المكان؟ هنا تبدأ القصةُ.

* * *

في قريتنا الصغيرة، يورويدو، قرية الصيادين، كنتُ أعيشُ في

ما أسميه «البيت السكران»، كان يقع بجانب ريفٍ صخري تهبُّ عليه ريحُ المحيط باستمرار. في صغري كنتُ أظن أن البحرَ مصابٌ بالزكام لأنه كان يصدرُ صفيراً صاخباً. وفي بعض الأحيان كان يعطسُ عُطاساً مدوّياً ـ هبةُ ريحٍ محمّلةٍ بالرذاذ. خلاصة القول إن بيتنا الصغير كان يعاني من العطاس الذي يبصقه المحيط في وجهه؛ فراحَ ينحني إلى الخلف هرباً منه. لابدَّ أنه كان سينهارُ لو لم يدعّمه أبي برافدةٍ انتزعها من أحد القوارب. وهكذا كان بيتنا يشبه رجلاً عجوزاً ثملاً يتوكأ على عصاه. في هذا البيت السكران عشتُ حياةً بائسة لأني منذ صغري كنتُ أشبه أمي شبهاً رهيباً، وقليلاً ما شابهتُ أبي أو أختي الكبرى. وذلك لأننا، برأي أمي، خُلقنا متشابهتين ـ أنا وهي ـ وبالفعل، فهي تملك عينين لا يملكهما أحدٌ في اليابان. فبدلاً من أن تكونا عسليتين غامقتين كعيني الآخرين، فقد كانتا رماديتين شفافتين، وعيناي مثلهما تماماً. في صغري كنتُ أقول لأمي لابدَّ أن أحدهم ثقبَ ثقباً في عينيها وأن الحبر كله قد سال منهما، فكانت تجدُ كلامي مضحكاً جداً. قالت العرّافات إن عينيها شاحبتان لأن فيهما كثيراً من الماء، كثيراً من الماء إلى حدٍّ أن العناصر الأربعة الأخرى غير موجودة لديها تقريباً ـ ولهذا السبب، برأيهنَّ، كانت ملامح أمي قليلة الانسجام. وكان أهل القرية يقولون: يجب أن تكون رائعة الجمال لأن أبويها كانا جميلين. دُرّاقةٌ طيبةُ المذاق بكل تأكيد كنبتة فطرٍ، ولكن لا يمكن جمعهما. وكان ذلك هو المقلب الذي لعبته الطبيعةُ مع أمي. كان فمُها صغيراً كثير اللحم كأمها، ولكن كان فكّاها بارزين كفكّي أبيها، مما جعلها تبدو كلوحةٍ ناعمة في إطارٍ ثقيلٍ وبائس. كما إن لعينيها أهداباً كثيفةً، لابدَّ أنهما كانتا جذابتين عند أبيها، لكنهما لم تعطيا أمي إلاّ مظهراً مضطرباً.

لطالما قالت أمي إنها تزوجت من أبي لأن لديها كثيراً من الماء وهو لديه كثير من الخشب. والناس الذين كانوا على معرفة بأبي كانوا يفهمون مباشرة ما كانت ترمي إليه أمي، فالماء يجري بسرعة من مكان إلى آخر ويجد دائماً شقاً ينفذ منه. أما الخشب،

www.rewity.com
ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

فعلى العكس، سرعان ما يجد جذراً في الأرض. وفي حالة أبي فإن الأمرَ جيد لكونه صياد سمك. فبالنسبة لرجلٍ، العنصر الأساسي عنده هو الخشب، فإنه يجد نفسه مرتاحاً على الماء. في الواقع، يجد نفسه على سطح الماء أكثر منه في أي مكان آخر، ولم يبتعد عنه قط. كانت تفوح منه رائحة البحر حتى بعد أن يستحم.

عندما لا يصطاد كان يجلس في مدخل البيت المعتم ويصلح شبكته. ولو كانت الشباك حيوانات نائمة لَما أيقظها، نظراً للإيقاع الهادئ الذي كان يخيطها به. كان يقوم بكل أعماله بمنتهى البطء حتى لو أنّ الأمر يتعلّق باستنشاق الهواء، فبوسعك أن تخرج إلى الخارج وتفرغ ماء الحمام قبل أن يستردّ نفسه. كان وجهه كثير الغضون وفي كل غضن يخبّئ همّاً، بحيث إن ذلك لم يعد وجهاً حقيقياً، بل شجرة مليئة بالأعشاش في جميع الأغصان. لابدّ أنه كان يستمتع بتركها في مكانها، مما يعطيه دوماً هيئةً متعبة.

في السابعة، عرفتُ أمراً عن أبي كنت أجهله. سألته ذات يوم:

ـ لماذا أنت عجوز يا أبي؟

رفع حاجبيه عندما سمع سؤالي، فشكّلا مظلتين صغيرتين نصف مفتوحتين فوق عينيه. تنهّد بعمق ثم قال:

ـ لا أعرف.

التفتُّ إلى أمي، فرمقتني بنظرة كأنما لتقول لي: سأشرح لكِ فيما بعد. في الغد، ودون أن تنبس بكلمة، تناولت يدي ونزلنا الهضبة باتجاه القرية. سلكنا طريق المقبرة في الغابة. قادتني إلى أمام ثلاثة قبور في زاوية وعليها ثلاثة أوتاد. كانت الأوتاد أطول مني تحمل كتابات بخط أسود فاحم يتجه من أعلى إلى أسفل. على كل حال، لقد تركت مدرسة القرية منذ زمن، فعجزت عن معرفة أين تبدأ الكلمات وأين تنتهي. أشارت إليها أمي بإصبعها، ثم قالت:

ـ «ناتسو، زوجة ساكاموتو مينورو»

ساكاموتو مينورو كان اسم أبي.

ـ «توفيت في الرابعة والعشرين، في السنة التاسعة عشرة من عصر الميجي».

أرتني الوتد التالي:«جينيشيرو، ابن ساكاموتو مينورو، تُوفِّيَ في سن السادسة، في السنة التاسعة عشرة من عصر الميجي»، ثم الوتد الثالث، مثل سابقه، ما عدا الاسم، ماساو ، والسن ثلاث سنوات. احتجتُ لبعض الوقت لكي أفهم أن أبي كان متزوجاً منذ زمن طويل، وأن أفراد أسرته كلهم ماتوا. عدت إلى المقبرة بعد وقت قصير واكتشفت، وأنا واقفة أمام القبور، أن الحزن شيءٌ تدوم وطأته إلى مالا نهاية. كان جسدي أثقل بمرتين مما كان منذ دقيقةٍ مضت، كما لو أن هذه القبور تشدّني نحوها إلى الأسفل.

* * *

كان حرياً بهذا الماء كله وهذا الخشب كله أن يشكّلا زوجاً متوازناً وينجبا أولاداً تتوافر لديهم العناصر الخمسة بنسب متناسقة. لقد كانت من دون شك مصادفة بالنسبة لأبي وأمي أن يوجدا مع ابنة لكل منهما. فأنا ورثت كل شيء عن أمي حتى عينيها الغريبتين، كذلك فلأختي ساتسو ملامح أبي كلها. ساتسو تكبرني بست سنوات، وبما أنها الكبرى فبإمكانها القيام بأمور محرّمة عليَّ. ومع ذلك فقد ملكتُ خصلةً نادرة: فهي تعطي انطباعاً بأنها تنجحُ في كل أمرٍ دون جهدٍ أو إرادة. قد تطلب منها على سبيل المثال أن تأخذ قِدراً عن الموقد وأن تقدّم طبقاً من الحساء، فإنها تقوم بذلك بحيث يعتقد المرء أنه لمن الحظ حقاً أن ينزلق الحساءُ في الطبق! ذات يوم، جرحت نفسها بسمكة، لم يكن ذلك بسكين وهي تنظف سمكةً، لا، إنما بسبب انزلاقها وهي تنزل الهضبة أثناء عودتها من القرية وهي تحمل سمكةً فجرحتها إحدى زعانفها.

كان بإمكان أبي وأمي أن ينجبا أطفالاً غيري أنا وأختي، إذ طالما أحب أبي أن يكون له ابنٌ يصطاد معهُ، ولكن عندما كنت في السابعةِ مرضت أمي مرضاً خطيراً ـ بكل تأكيد، سرطان في العظام رُغمَ أنه لم يكن لديَّ آنذاك أيةُ فكرة عن مرضها. كان المخفف الوحيد لمرضها هو النوم الذي أخذت تغرق فيه بصورة شبه

WWW.REWITY.COM

مستمرة، وبعد عدة أشهر صارت تنام طوال الوقت تقريباً، وما تلبث أن تئن عندما تصحو. فهمتُ أن تغيراً كبيراً يجري داخلها، ولكن مع كل هذا الماء في شخصيتها لم يبدُ ذلك مخيفاً. أحياناً، كان جسمها ينحلُ في ظرف شهرين ليعود ويسمن في المدة نفسها. ولكن في سن التاسعة، بدأت عظام وجهها تبرز ولم تسمن بعد ذلك قطُ. لم أفهم أنها كانت تنفرغ من مائها بسبب مرضها، تماماً كالطحالب التي هي مليئة بالماء عادةً ولكنها تصبح هشةً عندما تجفُ، كانت أمي تفقدُ كل يوم قليلاً من وقودها الحيوي.

ذات ظهيرة، كنت جالسة على الأرض غير المنبسطة في غرفتنا، في الظلام، أغني لجرادة وجدتها في الصباح، عندما انطلق صوتٌ عند الباب:

ـ صباح الخير! أنا الدكتور ميورا، افتحوا الباب!

كان الدكتور ميورا يأتي مرة كل أسبوع إلى قريتنا، قرية الصيادين. ومنذ أن مرضت أمي آلى على نفسه أن يصعد إلى أعلى الهضبة لكي يزورها. كان أبي في البيت يومذاك لأن عاصفة هوجاء كانت تستعدّ للهبوب. كان جالساً على الأرض في مكانه المعتاد ويداه في شبكة للأسماك كعنكبوتين ضخمين. لكنه نظر إلي ملياً ثم رفع إصبعه لكي أفتح الباب.

كان الدكتور ميورا رجلاً في غاية الأهمية ـ على الأقل هذا ما كنا نظنه في قريتنا. درس في طوكيو، ويقال إنه يعرف الحروف الصينية أكثر مما يعرفها أيٌّ منا. وبالتأكيد، هو أكبر من أن يعير انتباهاً لمخلوقة مثلي. فتحت له الباب. خلع حذاءه ودخل البيت دون أن ينظر إليّ. قال لوالدي:

ـ آه يا ساكاموتو ـ سان، كم أحب أن أعيش مثلك: طوال يومك في البحر، تصطاد، كم هذا رائع! وفي الطقس السيء ترتاح. أرى أن زوجتك ما تزال نائمة، يا للخسارة! كنت أود أن أعاينها.

ردّ أبي:

ـ أوه؟

ـ لن أكون هنا في الأسبوع القادم. هل بإمكانك أن توقظها؟

احتاج أبي لبعض الوقت لكي يخرج يديه من الشبكة، لكنه نهض أخيراً وهو يقول لي:

ـ قدّمي كأساً من الشاي للدكتور يا شيو ـ شان.

كان اسمي شيو آنذاك، ولم أُعرَف باسم سايوري، وهو اسمي كجيشا، إلا بعد سنوات طويلة.

ذهب الدكتور وأبي إلى الغرفة الأخرى حيث كانت أمي ترقد على فوتونها. حاولت أن أتنصّت عبر الباب، لكني لم أسمع سوى أنين أمي، ولم أسمع كلمة مما قالوه. تشاغلت بإعداد الشاي، وما لبث الدكتور أن عاد وهو يفرك يديه ووجهه مربدٌّ. جلس الرجلان إلى طاولة في وسط الغرفة. قال الدكتور ميورا لأبي:

ـ لم أعد أقوى على كتمان الحقيقة يا ساكاموتو ـ سان. يجب أن تذهب لرؤية إحدى نساء القرية، السيدة سوجي، مثلاً، واطلب إليها أن تخيط لزوجتك ثوباً جديداً.

قال أبي:

ـ ليس لدي مال يا دكتور!

ـ إننا جميعاً فقراء جداً هذه الأيام، ولكن أنت مدين لزوجتك بذلك، فمن المحزن أن تموت بهذا الثوب المهلهل.

ـ إذاً هل ستموت قريباً؟

ـ قد تعيش عدة أسابيع أخرى. ولكنها تتألم ألماً فظيعاً، وسيكون الموت خلاصاً لها.

منذ تلك اللحظة لم أعد أسمع كلمة من حديثهما، إذ أصبحت أذناي تخفقان كجناحي طائر مجنون، وربما كان ذلك قلبي، لم أعد أعرف. هل سبق لك أن رأيت طائراً سجيناً في بهو معبد يبحث يائساً عن مخرج؟ حسنٌ، هكذا كان عقلي. فقد ظننتُ أن أمي ستتابع حياتها مريضة هكذا إلى ما لا نهاية. وأعترف أني تساءلت أحياناً عما قد

WWW.REWITY.COM

يحدث إن هي ماتت، ولكن بقي ذلك خارج حدود المحتمل، كأن يجتاح بيتنا زلزال. قد تستمر الحياة بصعوبة بعد حادث كهذا.

- أعتقد أني سأموت قبلها.

- أنت عجوز يا ساكاموتو - سان، ولكنك في صحة جيدة. وقد تعيش أربع أو خمس سنوات. سوف أترك لك بضع ظروف صغيرة لزوجتك. يمكنك أن تعطيها ظرفين دفعةً واحدة إذا لزم الأمر.

تكلما قليلاً عن الظروف ثم ذهب الدكتور ميورا. بقي أبي جالساً لوقت طويل دون أن يقول شيئاً وهو يدير ظهره إليّ. لم يكن يلبس قميصاً فبدا جلده متهدّلاً. كلما نظرتُ إليه، بدا لي تشكّل تجمّع معقّد من النُسُج والأشكال. كان عموده الفقري طريقاً مليئاً بالحدبات، ورأسه يشبه ثمرةً فاسدة بمناطقه حائلةِ اللونِ، وذراعاه كغَضوين مغطاتين باللحم القديم ومعلّقتين بكرتين. كيف سأعيش هنا معه إذا ماتت أمي؟ لا أريد أن أنفصل عن أبي، ولكن، سواءٌ أكان هنا أم لا، فإن البيت سيصبح خاوياً تماماً بعد أن تغادره أمي.

أخيراً لفظ أبي اسمي في تمتمة فأتيت وجثوت إلى جانبه. قال:

- شيءٌ هامٌ جداً.

بدا وجهه أكثر انهياراً عما قبل، وأخذت عيناه تدوران في محجريهما كما لو أنه لا يستطيع التحكّم بهما. ظننتُ أنه يبذل جهداً جباراً في أن يعترف لي بأن أمي ستموت، لكنه اكتفى بالقول:

- انزلي إلى القرية وأحضري البخور للهيكل.

كان هيكلنا البوذي الصغير موضوعاً على صندوق كبير بجانب مدخل المطبخ. وهو الشيء الوحيد المهم في بيتنا السكران. أمام نحتٍ تقريبي لأميدا، بوذا الجنة الغربية، انتصبتْ لوحاتٌ جنائزية سوداء تحملُ الأسماء البوذية لأجدادنا.

- ولكن، أما من شيء آخر يمكن فعله، يا أبي؟

كنتُ آمل أن يجيب، لكنه اكتفى بحركةٍ من يده تقول لي أن أذهب.

* * *

كان الطريق المنطلق من بيتنا يماشي الريف الصخري قبل أن يدورَ في الأراضي نحو القرية. كان المشي على ذلك الطريق في مثل هذا الطقس عسيراً؛ ومع ذلك أذكر أني أحسستُ بالامتنان لتلك الريح الغاضبة التي كانت تبعدُ أفكاري عن الأمور التي تقلقني، كان البحر هائجاً وأمواجه كحجارةٍ مقطوعة حادةً وقاطعة. بدت لي حال العالم شبيهةً بحالتي. هل كانت الحياةُ غير عاصفةٍ لا تكف عن جرف كل ما يقف في طريقها لتترك وراءها منظراً بائساً ومخيفاً؟ لم أملك آنذاك أفكاراً كهذه، ولكي أهرب منها نزلت الدرب راكضةً حتى ظهرت لي القرية في النور المنعكس. كانت يورويدو مدينةً صغيرةً جداً في جوف ذراع للبحر. يشكلُ الصيادون عادةً نقاطاً صغيرة على سطح الماء، أما اليوم فإني أرى بعض القوارب تدخل إلى الميناء. لقد ذكرتني ككل مرةٍ بمسامير صغيرة تطفو على سطح المحيط. ها قد وصلت العاصفة، وإني أسمع هديرها، والصيادون على ذراع البحر أخذوا يختفون خلف ستار المطر، ثم يختبئون تماماً. سقطت أولى قطرات المطر عليّ، كأنها بيض طائر السُماني وخلال بضع ثوانٍ صرتُ مبللةً كأني سقطتُ في البحر.

لم يكن في يورويدو سوى طريق واحد يؤدي مباشرة إلى مدخل «الشركة اليابانية لثمار البحر». على طول الطريق، تحوّلت الغرف الأمامية في البيوت، إلى مخازن. اجتزتُ الطريق جرياً وأنا أقصد بيت أوكادا حيث يباع القماش. هناك حصل لي أمر معين - من تلك الأحداث البسيطة ذات النتائج الهائلة، كالتعثُر والسقوط تحت القطار. كان المطر يهطل، والطريق الطيني زَلِقاً: سرعان ما انثنت قدماي تحتي وسقطت إلى الأمام على جانب وجهي. لا بدّ أني كنت مرهقة، وأذكر أني أصبتُ بنوع من الخَدَر مع رغبة في بصق شيء ما من فمي. سمعت أصواتاً وأحسست أنهم يقلبونني على ظهري. أنهضوني وحملوني، عرفت أنهم أدخلوني إلى داخل «الشركة

www.rewity.com
AHEENA
WWW.REWITY.COM

اليابانية لثمار البحر»، لأن رائحة السمك غزتني. سمعت اصطفاقاً لأنهم ألقوا على الأرض دفعة واحدة نتاج صيد موضوع على طاولة خشبية. مددوني على الوجه المتَّسِخ. أعلم أني كنت مبلَّلة بالمطر، مدمّاة، قذرة، حافية، وأني كنت أرتدي ملابس فلاحة. ولكني لم أدرك أن هذه اللحظة ستكون حاسمة بالنسبة إليّ، لحظة رفعت عينيّ إلى السيد تاناكا.

كنت قد رأيت السيد تاناكا في قريتنا عدة مرات، والذي يسكن مدينةً أكبر من مدينتنا بكثير في الجوار، لذلك يأتي يومياً إلى يورويدو لأن أسرته كانت تملك «الشركة اليابانية لثمار البحر». لم يكن يرتدي لباس فلاحٍ كالصيادين، بل كيمونو رجّالي مع بنطاله كما في بعض الصور للساموراي. كان جلده ناعماً ومشدوداً كجلد الطبل، وخداه هضبتين صغيرتين لامعتين كالجلد المطقطق لسمكةٍ مشوية. لطالما وجدته رائعاً. لو أني كنت ألعب في الشارع بالكرة مع أطفالٍ آخرين ورأيت السيد تاناكا يخرج من مستودع السمك لتوقفتُ للنظر إليه.

كنت ممددةً على تلك الطاولة المتسخة بينما راح السيد تاناكا يتفحص شفتي. سحبها إلى الأسفل بأصابعه، أمالَ رأسي جانباً، ثم إلى الجانب الآخر، رأى عينيَّ الرماديتين، عينيَّ المثبتتين عليه بإعجاب. فهم أني لم أكف عن التفرس في وجهه، لكنه لم يبدُ منزعجاً كما لو أنه وجدني وقحةً. لم يحول عينه عن عينيَّ وكأنه يقول: إن ما تنظر إليه هذه الفتاة، وما تفكر به ليس له أية أهمية. نظرنا إلى بعضنا البعض طويلاً، إلى درجة أني أحسستُ بانتعاش رُغمَ أن الطقس ثقيلٌ في مستودع الأسماك. قال أخيراً:

ـ عرفتك، أنتِ ابنة العجوز ساكاموتو الصغرى.

رُغمَ صغر سني، فقد عرفتُ أن السيد تاناكا كان يرى الحقيقة بدون رتوش، ولم يكن يبدو دائم الانزعاج كحال والدي. ونما لديّ انطباع أنه كان يرى النسغ وهو يسيل في جذوع أشجار الصنوبر، وهالة الشمس المضيئة من خلف السحاب. كان يعيش في العالم المرئي حتى لو أنه لم يكن يقدّر كثيراً وجوده فيه. كنت أعرف أنه

كان يلاحظ وجود الأشجار والطين والأطفال في الشارع، ولكن لم يكن لديّ قطُّ أيّ سبب للاعتقاد بأنه تنبّه لوجودي مرةً، أنا شيو.

ألهذا صعد الدمع إلى عينيّ حرَاقاً عندما حدّثني؟

أمسك بي السيد تاناكا من كتفيّ وأجلسني على الطاولة. ظننتُ أنه سيأمرني بالذهاب، ولكنه قال:

ـ لا تبلعي هذا الدم يا صغيرتي، إلا إذا أحببتِ أن تجدي حجراً في معدتك! لو كنتُ مكانكِ لبصقته.

قال أحد الرجال:

ـ دم فتاة يا سيد تاناكا! في هذا المستودع؟

الصيادون متطيّرون(*) إلى حدّ رهيب. فهم يكرهون أن تتدخل النساء من قريب أو من بعيد بأمور الصيد. ذات صباح، ضبط السيد ياماورا، وهو أحد رجال قريتنا، ابنته تلعب في قاربه فضربها بالعصا ونظّف القارب بالساكي، ثم مسحة بخرقة حتى زالت ألوانه في بعض الأماكن. ولم يكتفِ بذلك ، بل إنه أتى براهب الشنتو لكي يبارك القارب. كل ذلك لأن الفتاة لعبت في مكان توضع فيه الأسماك! وها هو السيد تاناكا يقول لي أن أبصق الدم على أرض القاعة التي ينظّفون فيها الأسماك. أضاف:

ـ إذا خفتم أن تُفسِد بصقتُها أحشاء الأسماك فخذوها، إذ لدي كثيرٌ منها.

ـ ليس بسبب أحشاء الأسماك يا سيدي.

ـ برأيي، إن دمها أنظف ما لامس هذه الأرض منذ ولادتي أو ولادتكم.

ثم وجّه السيد تاناكا كلامه إليّ قائلاً:

ـ هيا! ابصقي الدم!

كنتُ جالسة على تلك الطاولة المتّسخة لا أعرف بالضبط ماذا أفعل. فلقد بدا لي عصيان السيد تاناكا أمراً صعباً. ومع ذلك لم أكن

(*) تطيّر: من الشيء وبالشيء، والاسم (الطيّرة): ما تُشاءم به من الفال والرديء.

WWW.REWITY.COM

واثقة من أني سأجد الشجاعة لأبصق لو لم يُمِلْ أحد الرجال رأسه جانباً ويسند إصبعه على أحد منخريه لكي يتمخّط أرضاً. بعد أن رأيت ذلك لم أعد أطيق أن أبقي شيئاً في فمي، وبصقت الدم كما أمرني السيد تاناكا أن أفعل. ابتعد الرجال جميعاً مشمئزّين ما عدا السيد سوجي، معاون السيد تاناكا الذي أمره بأن يذهب ويأتي بالدكتور ميورا.

قال سوجي محتجّاً وهو لا يريد، باعتقادي، أن يكلَّف بذلك:

- لست أدري أين هو.

قلتُ للسيد تاناكا إن الدكتور كان في بيتنا منذ بضع دقائق فقط.

فسألني:

- أين بيتكِ؟

- إنه البيت الصغير السكران الذي يقع على الريف الصخري.

- كيف ذلك... البيت السكران؟

- ذلك الذي يميل جانباً وكأن الخمرة أسكرته.

يبدو أن هذا التوضيح حيّر السيد تاناكا فقال:

- حسنٌ يا سوجي، اسلك الطريق الذي يذهب إلى بيت ساكاموتو وابحث عن الدكتور ميورا، فلن تجد عناءً في إيجاده، وما عليك إلا أن تسمع أنين المرضى.

كنتُ أظن أن السيد تاناكا سيعود إلى عمله بعد أن يذهب سوجي، لكنه بقي واقفاً إلى جانب الطاولة ناظراً إليّ. صعد الدم إلى خدّيّ. وأخيراً قال لي شيئاً ألفيته ينمّ عن ذكاء حادّ:

- لديك باذنجانة في وجهك يابْنَة ساكاموتو الصغرى!

ذهب ليتناول مرآة صغيرة من درجه لكي أتمكّن من رؤية وجهي. كانت شفتيّ زرقاء ومنتفخة كما قال لي. ثم أضاف:

- ولكن ما أريد أن أعرفه هو ماذا فعلتِ لكي تحصلي على هاتين العينين غير العاديتين؟ ولماذا لا تشبهين أباك؟

- إنهما عينا أمي، أما بالنسبة إلى أبي فإنه متغضّن إلى درجة أني لا أعرف أين رأسه.

- وأنتِ أيضاً ستتغضّنين ذات يوم.

- ولكنّ بعض هذه الغضون تشكّل جزءاً من ملامحه. مؤخرة رأسه ملساء كبيضة ومع ذلك فهي عجوز مثل مقدمته.

- ليس من الاحترام في شيء أن تتكلمي هكذا عن أبيكِ. ولكني أتصوّر أن كلامكِ صحيح.

ثم قال شيئاً أخجلني إلى حدّ أن شفتيّ أصبحتا صفراوين:

- كيف نجح رجلٌ متغضّن ورأسه كبيضة في أن ينجب فتاة بجمالك؟

وبعد ذلك، لم أعدّ المرات التي قيل لي فيها إني جميلة.

ومع ذلك، دائماً ما يقولون للجيشاوات إنهنّ جميلات وقد يكنّ عكس ذلك. لم يكن لديّ آنذاك أية فكرة عما تكونه الجيشا. كذلك إني بالكاد صدّقتُ السيد تاناكا عندما ساق لي ذلك الإطراء.

* * *

بعد أن داوى الدكتور ميورا شفتي، اشتريت البخور الذي أرسلني أبي لجلبه، وعدتُ إلى البيت في حال من الاضطراب لا يمكن أن تفوقها مملكة نمل في أوج نشاطها. كان من الأسهل عليّ أن أحسّ بمشاعر من هذا النوع، ولكنّ الأمور لم تكن بهذه السهولة. نما لديّ انطباع بأني قشة في مهبّ الريح. المشاعر المختلطة حول صحة أمي، وألم شفتي، وتلك الفكرة الجميلة التي تداعب مخيلتي ولا أعرف كنهها، وهي تتعلّق بالسيد تاناكا. وقفت على الريف الصخري ونظرت إلى البحر. ما تزال الأمواج تشبه حجارة مقطوعة حتى بعد العاصفة، واتخذ البحر لون الطين. تأكّدت من أن أحداً لا يسمعني؛ ضممتُ البخور إلى صدري، ولفظتُ اسم السيد تاناكا مرةً بعد مرة في الريح الهادرة، حتى سمعت كل مقطع من مقاطعه يرنّ في أذنيّ. أعرف أن ذلك كان يبدو مضحكاً، وقد كان كذلك بالفعل. ولكني لم أكن إلا مجرّد فتاة صغيرة تائهة.

www.rewity.com
WWW.REWITY.COM

بعد أن أنهينا العشاء وذهب والدي إلى القرية ليرى الصيادين وهم يلعبون بالغو، رتّبنا المطبخ أنا وساتسو دون أن ننبس بكلمة. حاولت أن أستعيد الحالة التي أدخلني إليها السيد تاناكا، ولكن في صمت البيت وبرده لم أستطع أن أسترجع ذلك الإحساس. أحسست برعب متجمّد وأنا أفكّر بمرض أمي. فاجأت نفسي وأنا أتساءل: ترى كم تبقّى من الوقت حتى أدفن أمي مع أسرة أبي الأخرى؟ وماذا سيحلّ بي فيما بعد؟ ما إن تموت أمي حتى تأخذ ساتسو مكانها. ها إني أرى أختي تبحث عن طنجرة الفونط حيث طبخنا حساءنا. ولكن، رغم أن ساتسو كانت تنظر إلى الطنجرة التي أمامها تماماً؛ فإنني أدركت أنها لم تكن تراها. تابعت أختي فرك الطنجرة رغم أنها نظيفة. قلتُ لها أخيراً:

ـ إني لستُ على ما يرام يا ساتسو ـ سان!

ـ اذهبي إلى الخارج وخذي حماماً ساخناً.

قالت ذلك وهي تحاول إبعاد خصلتي شعر من أمام عينيها بيدها المبلّلة.

ـ لا أريد أن آخذ حماماً يا ساتسو. إن أمي ستموت.

ـ هذه الطنجرة مشقوقة، انظري.

ـ إنها ليست مشقوقة، فهذا الخط موجود منذ البداية.

ـ والماء الذي تسرّب، ماذا فعل لكي يمر؟

ـ لقد قلبتِها، إني رأيتك.

خلال بضع لحظات، كانت ساتسو فريسة لإحساس فظيع، ما لاح على ملامحها حيرةٌ قصوى كأن عدداً من المشاعر يتنازعها. بكل بساطة، حملت الطنجرة عن الموقد واتجهت إلى الخارج لتضعها هناك.

2

في صباح اليوم التالي، ولكي أطرد أفكاري السوداء ذهبتُ

WWW.REWITY.COM

لأسبح في المستنقع القريب من بيتنا. كان هذا المستنقع منحشراً في غابةٍ صغيرةٍ من الصنوبر تمتدّ في عمق الأراضي. يذهب إليه أطفال القرية صباحاً عندما يسمح الطقس بذلك. وساتسو تذهب إليه بين وقتٍ وآخر بثياب الحمام الخشنة التي صنعتها من ثياب الصيد القديمة لأبي. لم يكن هذا المايوه ناجحاً، فهو ينفتح على صدرها عندما تنحني، ويصرخ أحد الأولاد:«انظروا! إننا نرى جبل فوجي!» ومع ذلك فهي تلبسه.

عند الظهر ، قررت أن أعود إلى البيت لآكل.

ذهبت ساتسو منذ بعض الوقت مع الفتى ابن سوجي معاون السيد تاناكا. كانت تتصرف معه ككلب. ما إن يذهب حتى ينظر إليها نظرة مواربة، وهذا يعني لساتسو أن تتبعه. وتتبعه، لم أكن أصدق أني سأراها قبل الغداء، ولكن عندما اقتربتُ من البيت رأيتها، عن بُعد، على الطريق. كانت مستندة إلى جذع شجرة. لا بد أنكَ فهمتَ بسرعة ما يجري. ولكني لم أكن سوى فتاة صغيرة. كانت ساتسو قد رفعت ثوب الحمام حتى كتفيها، وكان الفتى سوجي يتحسس «جبل فوجي»، كما كان يسميه الأطفال.

منذ بداية مرض أمي بدأتْ أختي ساتسو تتكور، كان شعرها متمرداً ونهداها ناريين. شيء غريب أن هذا الجانب المنفلت هو الذي يبهر الفتى سوجي. كان يخرج نهديها بسهولة بين يديه ويدفعهما جانباً لكي يعودا إلى مكانهما على صدر ساتسو. كنتُ أعرف أنه ما كان يجب عليَّ أن أتجسس عليهما، ولكني لم أعرف ما أفعله من شيء آخر لأنهما كانا يسدّان طريقي. سمعت فجأة صوت رجل خلفي:

ـ ماذا تفعلين وأنت لاطية هنا خلف الشجرة يا شيو ـ شان!

لكوني فتاة في التاسعة عائدة من مستنقع سبحت فيه، لم يكن لدي ما أخفيه... وكان من السهل معرفة الزي الذي كنت أرتديه.

التفتُّ ـ وأنا ما أزال لاطية على الطريق وأنا أخفي عريي

بذراعيَ قدر استطاعتي ـ ورأيت السيد تاناكا. لكَ أن تتصور مقدار ارتباكي. قال:

ـ لابد أن ذلك البيت هناك هو بيتك السكران. وهناك يبدو الفتى سوجي. يبدو لي في غاية الانشغال. من هي تلك الفتاة التي معه؟

ـ إنها أختي، يا سيد تاناكا. إني أنتظر أن يذهبا لكي أمرَّ.

وضع السيد تاناكا يديه حول فمه، كمكبر صوت، وصرخ، فاختفى الفتى سوجي. لابد أن أختي قد هربت هي الأخرى. السيد تاناكا قال لي إن بإمكاني أن أذهب إلى البيت وأرتدي ثيابي، ثم أضاف:

ـ عندما ترين أختك، أعطيها هذا.

ناولني علبة مغلفة بورق أرز بحجم رأس سمكة، ثم قال:

ـ هذه نباتات صينية. إذا قال لك الدكتور ميورا إنها لا تنفع في شيء فلا تصدّقيه. اطلبي من أختك أن تعدَّ الشاي لأمك من هذه النباتات لتخفيف الألم، إنها غالية جداً، فانتبهي لئلا تسرفي في استخدامها.

ـ من الأفضل أن أعدّها أنا بنفسي في هذه الحالة، فأختي لا تحسن إعداد الشاي.

ـ أمك مريضة جداً، وأبوك عجوز جداً، وتقولين لي إنه لا يمكن الاعتماد على أختك حتى في إعداد الشاي! ماذا سيحل بك يا شيو ـ شان؟ وحتى في الوقت الحاضر، من الذي يهتم بك؟

ـ أنا، على ما أعتقد.

ـ سأكلمك عن رجل أعرفه. إنه أكبر سناً الآن، ولكن عندما كان في سنك فَقَدَ والده، وفي السنة الثانية توفيت أمه، ثم ذهب أخوه البكر إلى أوساكا، فوجد نفسه وحيداً. هذا يجعلني أفكر بك.

نظر إليَّ السيد تاناكا نظرة بدا لي أنها تعني: آمل ألاّ تجرؤين على قول عكس ذلك. ثم أضاف:

ـ هذا الرجل يدعى تاناكا إيشيرو. نعم، أنا. رُغمَ أن اسمي في تلك الفترة كان مختلفاً: موريهاشي إيشيرو. لقد تلقفتني أسرة تاناكا في سن الثانية عشرة. وبعد أن تقدمت في السن قليلاً زوَّجوني من الفتاة وتبنوني. واليوم أنا أعينهم على إدراة شركة ثمار البحر. لقد سارت الأمور أخيراً على ما يرام معي. ربما يكون لكِ هذا الحظ.

بقيتُ لحظات أنظر إلى شعر السيد تاناكا الأشيب وغضون جبينه التي بدت كخطوط محفورة في قشرة شجرة. كان بالنسبة إلي الرجل الأكثر ثقافةً وذكاءً في العالم. ولن أصل أبداً إلى هذا المستوى من الذكاء، فكرت أيضاً، إني لن أبلغ هذه الأناقة أبداً، أو ألبس كيمونو يضاهي ذاك الذي يلبسه جمالاً. كنت مقرفصة، عارية أمامهُ، على الطريق الترابي وكان شعري متشابكاً ووجهي متسخاً ملطخاً. فقلت:

ـ أظن أن لا أحد يريد أن يتبناني.

ـ حسن! أنتِ فتاة ذكية مع ذلك. كونك قلتِ عن بيتك إنه سكران، وإن رأس أبيك يشبه البيضة!

ـ ولكنه يشبه البيضة حقاً.

ـ وإلا لما كانت تلك ملاحظة. والآن اذهبي يا شيو ـ شان. أنتِ جائعة. أليس كذلك؟ إذا كانت أختك تتناول الحساء، فيمكنك أن تتمددي تحت الطاولة وتلعقي ما ستسقطه.

* * *

منذ تلك اللحظة أخذ الحلم يداعبني في أن السيد تاناكا سوف يتبنّاني. كنتُ أنسى أحياناً كم تعذّبت طوال هذه الحقبة. بكل تأكيد سأتعلّق بأي شيء لكي أطمئن. غالباً، عندما أكون جزينةً، تعاودني صورة أمي، الصورة نفسها دائماً، قبل أن تأخذ بالأنين في الصباح من شدة الألم. كنت آنذاك في الرابعة، في أثناء مهرجان «الأوبون»، في قريتنا، في تلك السنة التي نستقبل فيها أرواح موتانا بيننا. خلال أمسيات عديدة ومتوالية كنا نحتفل بذكرى الأموات في المقبرة ونضع على عتباتنا مشاعل لكي ندلّ الأرواح على طُرُقِ بيوتنا.

WWW.REWITY.COM

اجتمعنا في آخر أمسية من المهرجان في معبد الشنتو السامق فوق الصخور، والمشرف على ذراع البحر. كانت هناك فسحة بعد البوابة مزيَّنة في تلك الليلة بمصابيح من الورق الملون ومدلّاة بحبال بين الأشجار. رقصنا، أنا وأمي بين بقية القرويين على صوت المزمار والطبول. ولكني تعبتُ في النهاية، وجلست أمي عند طرف الفسحة فاندسستُ على ركبتيها. فجأةً، أخذت الريح تصفر فوق الجروف الصخرية فاشتعل أحد المصابيح ورأينا اللهب يلتهم الحبل والمصباح يتهاوى، فتحمله الريح، ثم يدور متجهاً نحونا راسماً خلفه ذيلاً مذهَباً، ليحطّ أخيراً على الأرض وكأنه أنهى دورانه. ولكن سرعان ما حملته الريح ووجّهته نحونا مباشرة. تركتني أمي وانجردت نحو الكرة النارية واضعة ذراعيها في اللهب لكي تخنقه، ووجدنا أنفسنا تحت وابل من الشرر. ثم تفرقت قطع الورق بين الأشجار قبل أن تنطفئ، ولم يُصَب أحد، ولا حتى أمي.

* * *

بعد نحو أسبوع، كانت أحلامي أقوى من أي وقت مضى، دخلت إلى البيت بعد الظهر، فوجدت السيد تاناكا جالساً إلى طاولتنا الصغيرة مقابل أبي. أيقنت أنهما يتناقشان في أمر جلل، لأنهما لم يرياني وأنا أجتاز عتبة البيت. تجمدت في مكاني أسمع حديثهما.

ـ ما رأيك إذاً باقتراحي يا ساكاموتو؟

ـ لا أعرف يا سيدي، لا أستطيع تصور أن ابنتيَّ تعيشان بعيدتين عني.

ـ أفهمك. ولكن هذا أفضل لك ولهما. رتِّب أمورك بحيث تنزلان غداً بعد الظهر إلى القرية.

عند ذلك نهض السيد تاناكا لكي يذهب. تظاهرتُ بأني وصلت توّاً لكي ألتقيه على العتبة. قال:

ـ كنتُ أكلّم والدكِ عنكِ يا شيو ـ شان. أنا أسكن في الجهة الأخرى من الهضبة في سنزورو. إنها مدينة أكبر من يورويدو، أعتقد أنها ستعجبكِ . ويمكنكِ أن تأتي إليها أنتِ وساتسو غداً بعد

الظهر. ستريان بيتي وستتعرّفان إلى ابنتي، وقد تبقيان حتى المساء، أو تمضيان ليلةً هناك وبعدها سأصحبكما إلى هنا. ما قولكِ في ذلك؟

أجبتُ بأني سأكون في غاية السعادة. واجتهدتُ في التظاهر بالفرح، وكأنه لم يقترح عليّ أمراً غريباً. ولكن نما لديّ انطباع بأن دماغي سينفجر. لم تكن أفكاري إلا قطعاً مبعثرة وجدتُ عناءً في جمعها. جزءٌ مني لا يتمنّى سوى شيء واحد: أن يتبنّاني السيد تاناكا بعد وفاة أمي. ولكنّ هذه الفكرة نفسها كانت تخيفني كثيراً، كما إني خجلتُ من تجرّؤي على التفكير بالعيش في مكان آخر غير البيت السكران. بعد ذهاب السيد تاناكا، حاولت أن أنشغل في المطبخ، ولكن بالكاد كنتُ واعيةً لما أفعل، كأختي. بعد لحظة سمعت أبي يشخر فاستنتجتُ أنه كان يبكي، فاحمرّيتُ خجلاً. وعندما وجدتُ أخيراً الجرأة في النظر إليه؛ رأيته يضع يده في إحدى الشباك ليرفعها. ولكنه كان في مدخل الغرفة الداخلية التي ترقد فيها أمي تحت أشعة الشمس، والشرشف ملتصق بها وكأن لها جلداً ثانياً.

* * *

في اليوم التالي، استعدّيتُ للموعد في قرية السيد تاناكا: غسلتُ رسغيّ، وأمضيتُ وقتاً في مغطسنا ـ مرجل قاطرة قديمة مهجورة في يورويدو، نُشر جزؤها العلوي ونُجِّد الخشب في داخلها. بقيت جالسةً في المغطس برهةً أنظر إلى البحر. انتابني شعور بالاستقلال، لأني كنتُ على وشك أن أرى، لأول مرة في حياتي، شيئاً آخر غير قريتنا الصغيرة.

عندما وصلت وساتسو إلى الشركة اليابانية لثمار البحر؛ رأينا الصيادين ينزلون أسماكهم على الرصيف، وبينهم أبي الذي كان يمسكُ الأسماك بيديه بارزتي العظام، ثمَّ يرميها في السلال. في لحظةٍ ما، نظر نحونا، ثمَّ مسح وجهه بكم قميصه. بدا لي وجهه أكثر تعباً من السابق. حملَ الرجال السلال إلى عربة السيد تاناكا، وهي عربةٌ يجرها حصانٌ، ووضعوها في الخلف. صعدتُ على العجلة لكي أنظر. كانت للأسماك عيونٌ ثابتة وزجاجية، ولكن بين وقتٍ

WWW.REWITY.COM

وآخر راحت إحداها تحركُ فمها، وهو ما فسرتُهُ صرخةً صغيرة تعبر عن الضيق. فسعيتُ إلى طمأنتها قائلةً:

ـ سوف تذهبين إلى سنزورو أيتها الأسماك الصغيرة. وكل شيءٍ سيجري على ما يرام.

لم أعرف ما يسبّبه لها الاعتراف بالحقيقة.

أخيراً خرج السيد تاناكا، وطلب إلينا أن نصعدَ إلى مقعد العربة بجانبه. جلستُ في الوسط قريبةً جداً منه حتى أنني أحسستُ بقماش كيمونوه على يدي، ما جعلني أحمرُّ. نظرتْ ساتسو إليَّ في تلك اللحظة تماماً، لكنها لم تلحظ شيئاً. فقد بدتْ حائرةً كعادتها.

على الطريق، نظرتُ إلى الأسماك وهي تتحرك في السلال خلفاً. وعندما اقتربنا من الشاطئ ونحن نتركُ يورويدو خلفنا؛ مرت عجلة العربة فوق حجر، فمالت جانباً. إحدى القاروسات انقذفت من سلتها واستقرت على الأرض بقوةٍ حتى عادت إلى الحياة. رأيتها تقفزُ فأثارني منظرها وأخذتُ ألهثُ. وعندما جلستُ من جديد مقابل العجلة صعد الدمع إلى عينيَّ. حاولتُ أن أخفيه عن السيد تاناكا لكنه لاحظ أني كنتُ أبكي. تناول القاروسة وتابعنا طريقنا. بعد ذلك سألني عمّا بي فهمهمتُ:

ـ يا للسمكة المسكينة!

ـ أنتِ كزوجتي! عندما أناولها الأسماك وهي ميتة على الأغلب، أو عندما تحضّر سرطاناً أو أية سمكةٍ ما تزال حيّةً؛ فإن الدمع يصعد إلى عينيها وتغني لها أغاني.

علمني السيد تاناكا تلك الأغنية ـ وهي تشبهُ الصلاة ـ لابدَّ أن زوجته ألفتها. كانت تغنيها للسرطانات، لكننا حورّناها إلى القاروسة:

أيتها القاروسة الصغيرة، آه أيتها الصغيرة أسرعي

وانضمّي إلى بوذا!

ثمَّ علمني السيد تاناكا أغنية أخرى، عديّةً لم أكن أعرفها،

غنيناها لسمكة ترس كانت ترقد أو تجثم وحيدةً في سلةٍ منخفضة الحواف في مؤخرة العربة. بدت عيناها كفتحتي حذاء تدوران بجنونٍ في محجريهما على جانبي رأسها:

نَمْ أيها الترسُ الصغير الطيبُ

فالناس جميعاً نيام

حتى العصافير والخراف

في الحدائق وفي المراعي

هذه النجوم ستنثرُ هذا المساء ضياءً

في الغرفة

وصلنا إلى قمة الهضبة بعد عدة لحظات، وبدت لنا مدينة سنزورو في النور المنعكس. كان نهاراً حزيناً مائلاً إلى الرمادي. وكان ذلك أول مرة أخرج فيها من يورويدو، أرى فيها العالم. وأحسستُ بأني لم أفقد شيئاً مهماً. وفي الجهة الأخرى لمحتُ بيوتاً من القش تحيط بها هضابٌ حزينة. وبعد البيوت ظهر المحيط بلونه المعدني تشقه كسرات الخزف. وفي الأراضي بدا المنظرُ جميلاً لو لم تشوههُ الخطوط الحديدية.

كانت سنزورو مدينةً قذرةً وعفنة، وحتى المحيط كانت رائحته مخيفةً كما لو أن كل الأسماك فيه تعفّنت. حول أوتاد الرصيف تعوم طحالب خضراء، كالمدسوسات في جويتنا الصغير، والقوارب مخدوشة وخشبها متشققٌ كأنها مهترئة.

بقيتُ أنا وساتسو لبعض الوقت جالستين على المكسر، ثمَّ نادانا السيد تاناكا لكي نوافيه إلى الشركة اليابانية لثمار البحر. مشينا في ممرٍ طويل تفوح منه رائحةُ أحشاء السمك حتى لظننا أنفسنا داخل سمكةٍ ميتة، ولكن في نهايته فوجئتُ بوجود مكتب ألفيته جميلاً وأنا ابنة السنوات التسع. بقينا أنا وساتسو لبعض

WWW.REWITY.COM

الوقت على عتبة الغرفة حافيتين على الأرض المتسخة، وأمامنا درجةٌ تقود إلى مصطبةٍ وضعت عليها تاتاميات(*). لابدَّ أن تلك المصطبة هي التي أثرت فيَّ أكثر: فالأرض المرتفعة تبدي كلَّ شيءٍ أكبر. كانت تلك الحجرة بلا منازع أجمل ما رأيت في حياتي ـ رُغمَ أنَّ التفكيرَ اليوم في أن مكتب تاجر أسماك بالجملة في تلك المدينة الصغيرة في بحر اليابان يمكنها أن تترك كل هذا الانطباع الكبير عند أيٍ كان، هذه الفكرةُ أضحكتني.

على المصطبة، جلست امرأةٌ عجوز على أريكةٍ. نهضت عندما رأتنا، ثم أتت لتجثو على حافة المنصة. بدت تائهةً، دائمة الحركة. وعندما لا تمسَدُ كيمونوها، تزيلُ قذىً من زواية عينها، أو تحكُ أنفها وتتنهد باستمرار كما لو أن حركتها تتعبها. قال لها السيد تاناكا:

ـ هذه شيو ـ شان وأختها الكبرى ساتسو ـ سان.

انحنيتُ قليلاً نحو السيدة بوجوت التي ردّت على سلامي بهزةٍ صغيرةٍ من رأسها، ثمَّ ندتْ عنها تنهيدةٌ عميقة، هي الأعمق منذ وصولنا. أخذت تنزع الجلد المتقشر على عنقها. كم أحببتُ أن أنظر إلى مكانٍ آخر! لكنَّ عينيها كانتا مثبتتين عليَّ. قالت:

ـ حسنٌ! أنت ساتسو ـ سان، أليس كذلك؟

كانت تتابع النظر إلى عينيَّ مباشرةً. أجابت أختي:

ـ نعم هذه أنا.

ـ ما تاريخ ولادتكِ؟

بدت ساتسو وكأنها ما تزالُ لا تعرفُ إلى من منا توجه السيدة بوجوت كلامها. أجبتُ بدلاً منها:

ـ إنها من عام العجل.

مدت العجوز يدها وداعبتني بأصابعها بطريقةٍ مضحكة، وهي

(*) التاتامي: بساط أو فراش ياباني يغطي الأرض. م.

تضربُ على فكي. وكنتُ أعرف أنها تداعبني، لأنها بدت في غاية الطيبة.

ـ هذه أجمل أليس كذلك؟ عيناها غير معقولتين! ثمَّ سرعان ما نلاحظ أنها ذكية، انظر إلى جبينها!

هنا التفتت من جديد إلى أختي، وقالت:

ـ لِنَرَ قليلاً. سنة العجل. خمسة عشر عاماً. كوكب الزهرة. ستة، هُمْ. اقتربي قليلاً.

فعلت ساتسو ما طُلبَ منها وأخذت السيدة بوجوت تفحصُ وجهها ليس فقط بعينيها، بل وبرؤوسِ أصابعها. أمضت وقتاً طويلاً في دراسة أنفها من عدة زوايا، ثمَّ أذنيها. قرصت الشحمتين عدة مرات، ثم أصدرت همهمةً لتدلَّ على أنها انتهت من ساتسو، والتفتت نحوي، قائلةً:

ـ أنتِ من سنة القرد، ذلك بادٍ على وجهك ، ما كلُّ هذا الماء! ثمانية، أبيض. كوكب زُحل. ثم أنتِ جميلة جداً. اقتربي!

فتحت السيدة بوجوت قميص ساتسو الفلاحي ثم نزعته عنها. حركت النهدين لبعض الوقت، ونظرت تحت إبطيها، ثم قلبتها وفحصت ظهرها. كنتُ محتارة، بالكاد تمكنتُ من النظر. لقد رأيت سابقاً أختي عارية ولكن الطريقة التي رفعت بها ثوبها للفتى سوجي بدت لي أكثر لياقة من هذا التدقيق الذي انبرت إليه السيدة بوجوت. وكما لو أنها لم تكتفِ بما فعلت، فقد أنزلت بحركة واحدة بنطال ساتسو حتى عقبيها، وتفحصتها من الأعلى إلى الأسفل، ثم قلبتها وتفحصت وجهها من جديد. ثم قالت:

ـ انزعي هذا البنطال من قدميك.

منذ زمن طويل لم أرَ ساتسو بهذه الحيرة، لكنها تركت بنطالها على الأرض الحجرية المتسخة. أمسكت بها السيدة بوجوت من كتفيها، ثم أجلستها على المصطبة. كانت ساتسو عارية تماماً، ولم تكن تعرف أكثر مني لماذا وجب عليها أن تجلس هناك. ولكن لم يكن لديها الوقت للتساؤل لأن السيدة بوجوت باعدت في لحظة بين

WWW.REWITY.COM

ساقيها، وبدون تردد مدت يدها بينهما. بعد ذلك لم أستطع متابعة النظر. لابد أن ساتسو مانعت لأن السيدة بوجوت صرخت بها. بعد ذلك سمعت صوت صفعة. صفعتْ العجوزُ ساتسو على ساقها، بدليل العلامة الحمراء التي رأيتها بعد ذلك على جلدها. في دقيقة انتهت العجوز من ساتسو، طلبت إليها أن ترتدي ثيابها. وأثناء زلقها ملابسها راحت تحشرج بصوت قوي، وربما كانت تبكي. لم أجرؤ على النظر إليها.

التفتَتْ السيدة بوجوت إليَّ، وخلال ثانيتين أنزلت بنطالي حتى ركبتيَ، ونزعت عني قميصي كما سبق وفعلت مع ساتسو. لم يكن لدي نهدان لتتحسسهما، لكنها نظرت تحت إبطي، ثم قلبتني أنا أيضاً قبل أن تجلسني على المصطبة وتنزع بنطالي. لقد خفت من الآتي خوفاً فظيعاً عندما حاولتْ أن تباعد بين ساقي، وأنا أيضاً صفعتني على ساقي. حَبَسْتُ دموعي، وأحسست بحرقة في بلعومي. وضعت إصبعاً بين ساقيَّ، أحسست وكأنها تقرصني بقوة حتى صرخت. وعندما طلبت إليَّ أن أرتدي ثيابي شعرتُ أنني مثل سدٍّ يحجز نهراً كاملاً. لكني خفت أن يأخذ عنا السيد تاناكا فكرة سيئة إذا ما رآنا نبكي كطفلتين.

قالت للسيد تاناكا عندما عاد إلى الغرفة:

- الفتاتان سليمتان. إنهما مناسبتان تماماً. الاثنتان لم تمسّا. الكبرى لديها كثير من الخشب، أما الصغرى فلديها كثير من الماء، كذلك هي جميلة، ألا ترى ذلك؟ تبدو أختها كفلّاحة بجانبها !

- أرى أنهما رائعتان هما الاثنتان، كلٌ على طريقتها. ويمكننا الحديث عن ذلك وأنا أوصلكِ. يمكن للفتاتين أن تنتظراني هنا.

خرج السيد تاناكا وأغلق الباب خلفه. التفتُّ، فرأيت أختي جالسةً على حافة المصطبة تنظر إلى السقف، وبسبب بنية وجهها؛ فإن دموعها شكّلتْ بركتين عند قاعدة منخريها. وعندما رأيتها مرتبكة رحتُ أبكي. شعرتُ أني مسؤولة عما جرى. جففت دموعي بطرف قميصي الفلاحي. سألتني:

- من هذه المرأة الرهيبة؟

- لابد أنها مبشِّرة المغامرات السعيدة. من المحتمل أن السيد تاناكا يريد أن يستعلم عنا أكثر ما يمكن.

- ولكن لماذا فحصتنا بهذه الطريقة؟

- ألم تفهمي إذاً يا ساتسو - سان؟ أن السيد تاناكا ينوي أن يتبنّانا.

عندما سمعتْ كلامي، أخذت تغمز بعينيها كما لو أن حشرة دخلت فيهما، ثم قالت:

- ماذا تقولين؟ لا يمكن للسيد تاناكا أن يتبنّانا.

- أبي عجوز جداً، وأمي مريضة. أعتقد أن السيد تاناكا قلق علينا، ويتساءل عمّا سيحلّ بنا.

عندما علمت ساتسو ذلك، اضطربت أكثر وهَمَّتْ بالنهوض. رأيتها تطبق عينيها بقوة، وفهمتُ ما يجري بداخلها: كانت تحاول أن تقنع نفسها بأن شيئاً لن ينتزعنا من بيتنا السكران. وكما يُعصر الماء من إسفنجة، حاولت أن تفرغ قلبها من كل ما قلته لها. أخيراً انفرجت أساريرها، وجلست من جديد على حافة المصطبة. وبعد لحظات أخذت تجيل بصرها في أرجاء الغرفة متناسية، وكأن ذلك الحديث لم يدر بيننا.

* * *

يقع بيت السيد تاناكا في نهاية طريق عند ظاهر المدينة، ينتصب وسط فسحة مزروعة بأشجار الصنوبر ذات الرائحة القوية. وقد ذكّرني ببيتنا على الجروف الصخرية، وبرائحة المحيط القوية. المحيط ! فهمتُ أنني كنتُ سأقايض رائحته برائحة أخرى. فأحسست بفراغ هائل يجب أن أنتزع نفسي منه، كما يبتعد المرء عن حافة شاهقة بعد أن ينظر إلى الأسفل. كان بيتاً رائعاً لا مثيل له في يورويدو. له شرفات كبيرة كمعبد قريتنا. اجتاز السيد تاناكا عتبة بيته، خلع حذاءه، ودعا خادمةً أن تضعه على أحد الرفوف. ولم نكن، أنا وساتسو، ننتعل حذاءين.

WWW.REWITY.COM

لحظة كنتُ سأدخل إلى البيت، تلقّيتُ شيئاً على قفاي. سقط كبش صنوبر على الأرض بين قدميّ. التفتُّ، فرأيت فتاة من سنّي، شعرها قصير تُسارِعُ للاختباء خلف جذع شجرة. أمالت رأسها للحظة، ثم ابتسمت لي، فلمحتُ ثقباً مثلثاً بين أسنانها الأمامية، ثم هربت بعد أن ألقت نظرةً خاطفة باتجاهي لكي تتأكد من أني سوف أجري خلفها. قد يبدو ذلك غريباً، ولكنها أول فتاة ألتقي بها. بالطبع، كنتُ أعرف فتيات قريتنا، ولكننا كبرنا معاً دون أن «ألتقي» بإحداهنّ بالمعنى الحقيقي للكلمة. بدت كونيكو ـ هكذا كان اسمها ـ مرحة بصورة عامة، مما منحني بعض الجرأة : لربما تمكّنتُ أخيراً أن أعبر من عالم إلى آخر دون كثير من الألم.

كانت ثيابها أجمل من ثيابي بكثير، وكانت تنتعل زورياً. أما أنا، الفتاة القروية، فقد جريتُ خلفها حافية في الغابة. أدركتها أمام أحد الأكواخ المبنية من أغصان شجرة ميتة. كانت كونيكو قد وضعت حصى وأكباش صنوبر على الأرض لكي تحدّد الغرف المتعدّدة. في إحدى هذه الغرف، مثّلت أنها تقدّم لي الشاي في فنجان مثلوم. وفي قاعة أخرى، تناوبنا على هزّ كيس من القماش مليء بالتراب ـ دميتها ـ وهي صبي يدعى تارو. قالت كونيكو إن تارو يحب الغرباء لكنه يخاف كثيراً من ديدان الأرض. مصادفة غريبة! فكونيكو أيضاً تخاف منها. وعندما كانت تظهر دودة، تنتظر حتى أمسك بها بين أصابعي وأرميها بعيداً قبل أن تسمح لتارو الصغير أن يبكي.

كانت فكرةُ أن أتخذ من كونيكو أختاً لي تملؤني غبطةً. فبجانبها، بدت لي فجأة أشجار الصنوبر العملاقة، وحتى السيد تاناكا، بلا معنى. كان الفارق بين الحياة في بيت تاناكا والحياة في يورويدو هائلاً، كأن نقارن بين رائحةِ طبقٍ طُبِخَ على نار هادئة، ورائحةِ طبقٍ محروق.

في الليل غسلنا أيدينا وأرجلنا من البئر وعدنا إلى البيت. جلسنا أرضاً حول طاولةٍ مربعة. كانت الأطباق أمامنا يتصاعد منها البخار الذي يتابع طريقه حتى يختفي على حوامل سقف مرتفع جداً.

كانت ثرياتٌ تنير الغرفة بقوة، مما أثار استغرابي: فالكهرباء شيءٌ جديد بالنسبة إلي. لم تتأخر الخادمات: أسماك ترسٍ مقلية، وخضار صغيرة متبلة بالخل، وحساءٌ وأرزٌ مطبوخ على البخار. ولكن لحظة بدأنا الأكل انطفأت الأنوار. أخذ السيد تاناكا يضحك. غالباً ما يحصل ذلك بكل بساطة. أشعلت الخادمات مصابيحَ بترولية موضوعة على حوامل خشبية وموزعة في أرجاء القاعة.

أكلنا صامتين. تصورت أن تكون السيدة تاناكا امرأةً تنضحُ سحراً وجمالاً، لكنها لم تكن إلاّ نسخةً أكبر سناً من ساتسو ـ إلاّ أنها تبتسم كثيراً. بعد العشاء بدأت تلعبُ الغو مع أختي. نهض السيد تاناكا وطلب من إحدى الخادمات إحضار سترة كيمونوه. وبعد قليلٍ خرج. ما هي إلاّ لحظاتٌ حتى أشارت كونيكو إليّ أن أوافيها إلى الباب. انتعلت زورياً مصنوعاً من القش وأعارتني زوجاً آخر، فسألتها إلى أين ستذهب، فقالت:

ـ صه! سنقتفي أثر أبي. إني أتبعه في كل مرةٍ يخرج، وهذا سر.

مشينا في الطريق، ثمّ استلمنا الطريق الرئيس، طريق سنزورو. كنا نتبع السيد تاناكا على مسافة معقولة، وبعد دقائق وصلنا إلى المدينة وسط البيوت. أمسكت كونيكو بذراعي وأوصلتني إلى زقاق. مشينا في طريقٍ مبلط بين بيتين، وعندما وصلنا إلى نهاية الممر وقفنا أمام نافذة. كانت الستائر الورقية مرفوعةً، والضوء يتسرب من الداخل. ألصقت كونيكو عينيها على ثقبٍ ـ بمستوى نظرنا ـ أُحدثَ في إحدى الستائر. راحت تنظر إلى داخل البيت، ورحت أسمع صدى الضحكات والأحاديث، وراح أحدهم يغني على نغمات الشاميزن. تركت لي كونيكو مكانها، لكنّ ساتراً مطوياً كان يُخفي نصف القاعة ومع ذلك فقد رأيت السيد تاناكا جالساً على تاتامي مع رجالٍ آخرين، وإلى جانبه عجوزٌ يحكي قصة رجلٍ يُسندُ سلّماً لامرأةٍ شابة ويتلصصُ على مفاتنها السفلية. ضحك الجميعُ ما عدا تاناكا الذي كانت عيناه موجهتين نحو زاويةٍ من القاعة لم أستطع تبينها. حملت له امرأةٌ عجوز قدحاً وصبّت له البيرة. بدا لي السيد تاناكا كجزيرة تائهة وسطَ المحيط. في الواقع، لقد أمتعت تلك القصة

WWW.REWITY.COM

الحاضرين جميعاً ـ حتى تلك السيدة العجوز التي كانت تقدم البيرة ـ لكنَّ السيد تاناكا بقي يمعن النظر في الطرف الآخر من الطاولة. توقفتُ عن النظر إلى القاعة لأسأل كونيكو عن هذا البيت، فقالت:

ـ إنه بيتٌ للشاي. هنا تستقبلُ الجيشاواتِ الرجال. وأبي يأتي إلى هنا كل مساء تقريباً، ولستُ أدري لمَ كلُ هذا الإعجاب. تقدم النساء الشراب، ويحكي الرجال القصص، أو يغنون الأغاني. وفي نهاية السهرة يثمل الجميع.

نظرتُ في الثقب من جديد، فرأيت ظلاً يتحرك على الجدار، ثم ظهرت امرأةٌ وغصنٌ طريٌّ من الصفصاف أوراقه خضراء جميلة يزين ضفيرتها الملتفة حول رأسها. كانت تلبس كيمونو زهرياً شاحباً عليه رسومُ أزهارٍ بيضاء تبدو بارزةً، وكان الأوبي(*) العريض الذي ينعقد حول خصرها برتقالياً وأصفر. لم أرَ في حياتي ثياباً بهذه الأناقة. كانت قمة الأناقة في يورويدو عبارة عن كيمونو من القطن أو الكتان وعليه رسمٌ بسيط نيلي اللون. ولكن المرأة، بعكس كيمونوها، لم تكن جميلةً قط، فأسنانها تتقدم إلى حدٍّ أن شفتيها لم تستطيعا سترها كلياً. ونظراً لنحول خصرها، تساءلتُ ما إذا كانت قد وضِعَتْ بين لوحين خشبيين عند ولادتها. قد يبدو لك هذا الوصف عنيفاً، ولكني استغربتُ أن يسمَرَ السيد تاناكا نظره على هذه المرأة القبيحة، فقد كانت كممسحةٍ فوق خطّاف. بقي تائهاً يتأمل تلك المرأة، بينما راح الآخرون يضحكون. جَثَتْ إلى جانبه، سكبت له مزيداً من البيرة في قدحه، ثمَّ رفعت رأسها لتنظر إليه نظرةً تفضح تواطؤاً حقيقياً.

أخذت كونيكو دورها خلف الثقب. وبعد ذلك عدنا إلى البيت، وجلسنا معاً في الحمَّام عند مدخل غابة الصنوبر. كانت السماء مليئة بالنجوم ما خلا النصفَ الذي تغطيه أغصان الأشجار فوق رأسي. أحسستُ بالغبطة لبقائي طويلاً في الحمّام أتأمل الأحداث المختلفة لذلك النهار، والتغيرات التي سأواجهها. لكنَّ كونيكو كادت

(*) الأوبي: زنار (حريري عموماً) طويل وواسع يتمنطق به اليابانيون فوق الكيمونو. م.

WWW.REWITY.COM

تغفو في الماء الحار، فسارعت الخادمات إلى إخراجنا من الحمّام.

عندما تمددتُ أنا و كونيكو على فوتوننا(*)، وتلامَسَ جسدانا، انزلقت ذراع كلٍّ منا تحت الآخر وكانت ساتسو تشخر. تصاعد في داخلي إحساسٌ بالحرارة وبالسعادة، وقلتُ لكونيكو بصوتٍ خافت: «أكنت تعرفين أني سآتي وأسكن هنا؟». ظننتُ أنها ستفتح عينيها استغراباً، بل وستجلس على فوتونها، لكنها لم تستيقظ. كانت تشخر. وبعد لحظاتٍ أحسستُ بنفسها حاراً ورطباً يتردد بإيقاعٍ منتظم، إيقاع النوم.

3

لدى عودتي إلى بيتنا تبيّن لي أن حالة أمي قد تدهورت خلال اليوم الذي غبته عنها. ولكني ربما نجحت فقط في نسيان إلى أية درجة هي مريضة. إذا كانت رائحة الصنوبر تفوح من بيت السيد تاناكا، فإن رائحة المرض تفوح من بيتنا إلى درجة أني أفضّل عدم الحديث عنه.

كانت ساتسو تشتغل في القرية بعد الظهر. كذلك أتت السيدة سوجي لتساعدني على استحمام أمي. حملناها إلى الخارج. بدا قفصها الصدري بارزاً إلى حدٍّ مخيف، وأصبح بياض عينيها رمادياً. لم أستطع تحمّل النظر إليها وهي في هذه الحالة، لأني تذكّرت الحمّامات التي كنا نأخذها معاً عندما كانت ما تزال في صحتها وقوتها. وعندما كنا نخرج من الحمام، كان البخار يتصاعد من جسدينا كأننا جزرتان مسلوقتان. عانيت في تصوّر أن هذه المرأة التي أفرك لها ظهرها بحجر، والتي بدا لي لحمها أقوى وأنعم من لحم أختي ساتسو، قد تموت قبل نهاية الصيف.

(*) الفوتون: فراش قطني تقليدي ياباني، يستخدم للنوم والجلوس. م.

ذاك المساء ، تمدّدت على فوتوني، أحاول النظر إلى هذا الوضع المروّع من الزوايا كافة، لكي أقنع نفسي بأن الأمور ستنتهي على خير. كيف سنتابع حياتنا من دون أمي؟ إذا ما بقينا على قيد الحياة، والسيد تاناكا تبنّانا، فهل ستبقى أسرتنا موجودة؟ وخلصتُ إلى نتيجة مفادها أن السيد تاناكا سوف يتبنّانا نحن الثلاثة: أبي وساتسو وأنا. من غير المعقول أن يفكر في أن يبقى أبي وحيداً! من النادر أن أنام قبل أن أقتنع بالأساس الصحيح لنظريتي. في تلك الأسابيع كنت أنام قليلاً، وفي الصباح أستيقظ مخبولة تماماً.

في أحد تلك الصباحات المضطربة، في عزّ الصيف، كنتُ عائدةً من القرية بعد أن اشتريتُ علبة شاي؛ سمعتُ أصواتاً خلفي، التفتُّ فرأيتُ السيد سوجي ـ معاون السيد تاناكا ـ يصعد المنحدر. لزمه وقت طويل ليستردّ أنفاسه بعد أن وصل إليّ. كان ينفخ كثور وهو يسند أضلاعه كما لو أنه ركض من سنزورو بلا توقّف. كان وجهه أحمر لمّاعاً كسرطان رُغمَ أن الشمس لم تكن قد ارتفعت بعد كثيراً في السماء.

قال أخيراً:

ـ السيد تاناكا يريد أن تأتي... مع أختك إلى القرية... في أسرع وقت ممكن.

استغربتُ عدم ذهاب أبي إلى الصيد ذلك الصباح، والآن فهمتُ لماذا. اليوم سنذهب. سألته:

ـ وأبي؟ هل قال السيد تاناكا شيئاً ما بصدده؟

ـ تأتين. هذا كل ما في الأمر يا شيو ـ شان. اذهبي وأحضري أختك!

لم أستبشر خيراً، ومع ذلك عدوتُ إلى البيت. وجدتُ أبي جالساً إلى الطاولة وهو يحاول أن ينزع بإصبعه ما انحشر بين قطعتين من الخشب. كانت ساتسو تضع قطعاً من الفحم في الموقد. بدا وكأنهما ينتظران حدثاً مخيفاً.

همستُ له:

ـ أبي! يريد السيد تاناكا أن نذهب إلى القرية، أنا وساتسو ـ سان.

خلعت ساتسو وزرتها وعلّقتها بمسمار، ثم خرجت. لم ينبس أبي بكلمة، بل غمز بعينيه عدة مرات، ثم نظر إلى عتبة البيت التي اجتازتها أختي. بعد ذلك خفض بصره إلى الأرض، ووافق بهزّة من رأسه. سمعتُ أمي تصرخ في نومها في الغرفة الداخلية. عندما أدركتُ ساتسو؛ كانت قد وصلت تقريباً إلى القرية. منذ أسابيع وأنا أتصوّر هذا اليوم العظيم، ولكني لم أفكر قطُ بأني سأخاف إلى هذا الحد. أما ساتسو فلم يبدُ عليها أنها تدرك ما يحصل. كانت تتجه إلى القرية بذهولها المعتاد. حتى إنها لم تتجشّم عناء غسل يديها الملطّختين بالفحم. وعندما رَدَّتْ خصلةً نافرة من شعرها، لطّخَتْ خدّها بخطّ أسود. لم أشأ أن يراها السيد تاناكا وهي على هذه الحال. حرصتُ على أن تنظّف وجهها كما كانت أمي تفعل، ولكنها أبعدت يدي بمعصمها.

أمام الشركة اليابانية لثمار البحر، انحنيت وحييت السيد تاناكا. توقّعتُ أن يسرّ لرؤيتنا، ولكنه أبدى برودة غريبة. كان يجب عليّ أن أرى في ذلك أول علامة على أن الأمور لن تسير كما تخيّلتها. قادنا إلى عربته، فظننتُ أنه سيأخذنا إلى بيته لكي تكون زوجته وابنته حاضرتين عندما سيعلن نيّته في تبنّينا.

لكنه قال:

ـ سيركب السيد سوجي في الأمام معي. ومن الأفضل لكِ أن تركبي في الخلف مع شيزو ـ سان.

لقد قال: شيزو ـ سان! وجدته فظاً في لفظ اسم أختي هكذا. لكنّ ساتسو لم يبدُ عليها أنها لاحظت شيئاً، بل صعدت إلى مؤخرة العربة وجلست وسط سلال السمك الفارغة. بسطت يدها على اللوح الخشبي المتّسخ، ثم طردت ذبابة من أمام عينيها باليد نفسها، تاركةً على خدّها لطخة واضحة. بعكس ما فعلت، لم أشأ أن ألمس تلك الأشياء الدّبقة. فكرت بالرائحة التي ستفوح منها، وأحببتُ أن أغسل يديّ.

WWW.REWITY.COM

ولربما نويتُ أن أغسل ملابسي عندما أصل إلى بيت السيد تاناكا.

على الطريق، بقيت ساتسو صامتة، وكذلك أنا. ولكن عندما بلغنا قمة الهضبة المشرفة على سنزورو، قالت ساتسو:

ـ قطار!

بحثت عن القطار بعينيَّ حتى رأيته في البعيد. كان متَّجهاً إلى المدينة والدخان يلتف فوق سطحه وكأنه أفعى، أردتُ أن أشرح لساتسو صورتي المفضّلة هذه، غير أنها لم تكن مكترثة. كان السيد تاناكا سيُعجب بهذا التشبيه، قلتُ لنفسي، وكذلك كونيكو. قررتُ أن أقوله لهما عندما نصل إلى بيت السيد تاناكا.

ولكني أدركتُ أننا لم نكن نسير في طريق بيت تاناكا.

بعد عدة دقائق توقّفت العربة على مربع من الطين المرصوص في ظاهر المدينة. كان عدد من الناس ينتظرون القطار، وحقائبهم وسلالهم القصبية إلى جانبهم. في طرف الرصيف رأيت السيدة بوجوت تقف إلى جانب رجل بالغ النحول يرتدي كيمونو سميكاً. كان شعره أسود ناعماً كَوَبَرِ الهر. يحمل في يده حقيبة قماشية مغلقة بخيط. بدا لي غريباً وسط كل هؤلاء الناس. كان هناك مزارعون وسمّاكون مع سلالهم، وامرأة محدّبة الظهر وعلى ظهرها سلة مليئة بالإنيام. قالت السيدة شيئاً ما للرجل ذي الكيمونو، فالتفت ناظراً إلينا، وسرعان ما أخافني.

قدّمه لنا السيد تاناكا. اسمه بيكو. لم يقل السيد بيكو أية كلمة، تأملني بإمعان، وبدا مغتاظاً من ساتسو.

قال له السيد تاناكا:

ـ لقد صحبتُ سوجي من يورويدو، فهل تريد أن يرافقكم؟ إنه يعرف الفتيات، وبإمكاني الاستغناء عنه ليوم أو يومين.

أجاب بيكو بحركة من يده وكأنه يطرد طفلياً:

ـ لا،لا.

حقاً لم أكن أتوقّع أمراً كهذا. سألت إلى أين نذهب، فبدا أن أحداً

لا يسمعني. كذلك وجدتُ بنفسي جواباً على سؤالي: لم تُعجِبْ ملاحظات السيدة بوجوت عنا السيدَ تاناكا. وهذا الرجل النحيل، السيد بيكو ينوي أن يأخذنا إلى مكانٍ يحدّثوننا فيه عن مستقبلنا بالتفصيل. وبعد ذلك سيعيدوننا إلى السيد تاناكا.

هكذا حاولت أن أُطمئِن نفسي. نَحّتنا جانباً السيدة بوجوت التي كانت تبتسم ابتسامةً ساحرة. وعندما أصبحنا بعيداتٍ لئلا يسمعنا الآخرون طارت ابتسامتها، وقالت:

ـ اسمعاني! الآن أنتما فتاتان سيئتان!

التفتت حولها لتتأكد من أن أحداً لا ينظر إلينا. ثم ضربتنا على رأسينا. لم تؤلمني، ومع ذلك صرختُ من المفاجأة.

تابعت قائلةً:

ـ إذا فعلتما ما يُحرجني سأدفِّعكما الثمن! السيد بيكو رجلٌ قاسٍ جداً، وعليكما أن تسمعا كل ما يقوله لكما. فإذا أمركما أن تندسّا تحت مقعد القطار؛ يجب أن تطيعاه. مفهوم؟

نظراً لتعبير السيد بوجوت أحسستُ أنّ من مصلحتي الرد على سؤالها وإلاّ ضربتني. لكني كنتُ مندهشةً ولم أستطع أن أنطق بكلمة. وتأكدت مخاوفي: مدت السيدة بوجوت يدها وقرصتني في عنقي، وكان الألم رهيباً: نما لدي انطباع بأني سقطت في مغطسٍ مليء بمخلوقات تعضني في كل مكان من جسدي. أخذت أبكي. سرعان ما ظهر السيد تاناكا إلى جانبنا وسأل:

ـ ماذا يجري؟ إذا كان لديك شيء آخر تقولينه للفتاتين فقوليه الآن، أمامي. ليس هناك أي مبررٍ لأن تعامليهما بهذه الطريقة.

ـ ما يزال لدينا أمور كثيرة نقولها، إني متأكدة من ذلك. ولكن القطار أتى.

وكان كلامها صحيحاً، فقد ظهرت القاطرة من مفترقٍ على بعد عدة مئات من الأمتار.

رافقنا السيد تاناكا حتى الرصيف. حمل المزارعون والنساء

WWW.REWITY.COM
RAYAHEENA

العجائز أشياءهم. وقف القطار أمامنا، واندسّ السيد بيكو بيني وبين ساتسو. أمسك بنا من مرفقينا وأصعَدَنا إلى العربة. سمعت السيد تاناكا يتكلم، لكني كنت ساهمةً تائهةً، ولم أفهم ما قاله. لم أكن متأكدةً من أني سمعتُ جيداً. ربما قال:

ـ ماتا يو! «سنلتقي!».

أو أيضاً:

ـ ماتي يو! «انتظِروا!».

وحتى:

ـ ما... ديو! «حسنٌ... هيا!».

نظرتُ عبر الزجاج. مضى السيد تاناكا إلى عربته، ومسحت السيدة بوجوت يديها على كيمونوها.

وبعد قليلٍ قالت أختي:

ـ شيو ـ شان!

غرستُ وجهي بين يدي. كنتُ مرعوبةً. ولو استطعتُ لغصتُ عبر أرض القطار. الطريقة التي لفظت بها أختي اسمي كانت كافية. لم تكن بحاجةٍ إلى قول المزيد. لكنها سألتني:

ـ أتعرفين إلى أين نذهب؟

كل ما كانت تريده هو أن تسمع «نعم» أو «لا»، فبتصوّري لم يكن مصيرنا يهمها كثيراً ـ طالما أني كنت أعرف ما يجري، ولكني كنت أجهله بكل تأكيد. طرحت السؤال على السيد بيكو، فلم يعرني انتباهاً، بل بقي ينظر إلى ساتسو كما لو أنه لم يرَ في حياته فتاةً مثلها. أخيراً طفح وجهه بالاشمئزاز، وقال:

ـ السمك! ما رائحتكما أنتما الاثنتان؟

أخرج مشطاً من محفظته، وشرع في تمشيط ساتسو وهو يشدُّ كمجنون. لابد أنه آلمها، لكن الأكثر إيلاماً بالنسبة إليها كان رؤية الريف يتلاشى عبر الزجاج. ندت عنها حركةٌ طفولية وأخذت تبكي.

تَشَنَّج وجهُها تحت الدموع، فآلمني ذلك أكثر مما لو أنه ضربني أو صرخ بي. كان الخطأ خطأي. اقتربت فلاحةٌ عجوز كشفت ابتسامتها عن لثتها. دنت من ساتسو ومعها جزرة. وبعد أن أعطتها إياها، سألتها إلى أين تذهب. فأجاب بيكو:

ـ إلى كيوتو.

انتابني الهلع، حتى إني لم أعد أستطيع النظر إلى عيني ساتسو، فقد كانت سنزورو نهاية العالم بالنسبة إليّ... فما بالك بكيوتو! إنها كنيويورك أو هونغ كونغ ـ لقد سمعت الدكتور ميورا يتحدث ذات مرة عن نيويورك ـ وفي طوكيو، بحسب ما سمعت، يسمّنون الأطفال لكي يصبحوا طعاماً للكلاب.

بقينا ساعات في هذا القطار دون أن نأكل شيئاً. أخيراً أخرجَ بيكو من محفظته ورقة لوتس مطوية وفتحتها. في داخلها كان يوجد كرة من الأرز مرشوش عليها بعض حبات السمسم. أمسكها بيد بارزة العظام، وأدخلها بصعوبة في الفم البائس. كان الأمر فظيعاً في نفسي! توقف القطار أخيراً في مدينة كبيرة، ونزلنا. ظننت أننا وصلنا إلى كيوتو، ولكن بعد لحظات ركبنا قطاراً آخر. توقّفَ على الرصيف نفسه، ثم أوصلنا إلى كيوتو. كان مكتظاً بالركاب حتى اضطررنا إلى الوقوف طوال الطريق. عند وصولنا كنت منهكة، مقطوعةً كصخرة انسكب عليها ماءُ شلالٍ طوال النهار.

لم أرَ كثيراً من المدينة ونحن نقترب من محطة كيوتو. وباستغراب رأيت سطوحاً حتى أسفل الهضاب في البعيد. لم أتصور في حياتي أني سأرى مدناً كبيرة بهذا الحجم. حتى اليوم، عندما أرى أبنية وشوارع عبر زجاج قطار؛ أتذكر خوفي وذلك الشعور من الفراغ الشاسع الذي أحسست به في ذلك اليوم الغريب الذي غادرت فيه بيتنا أول مرة.

في تلك الحقبة من العام 1930 ، كان ما يزال يوجد كثير من الريكشوات(*) في كيوتو. رأيت خطأً منها أمام المحطة، وظننت أن

(*) الريكشو: عربة خفيفة لها عجلتان يجرها رجل ماشياً أو راكباً على درّاجة. م.

WWW.REWITY.COM

الناس جميعاً في هذه المدينة يتنقلون في الريكشو، ولم أكن على حق. حوالى عشرين من هذه العربات تستريح على ذراعيها وسائقوها على طرفها يدخنون أو يأكلون وهم مقرفصون. وبعضهم الآخر ينام متكوراً على نفسه في الشارع المتسخ.

أمسك بيكو بمرفقينا من جديد كما لو أنه يحمل دَلْوَيَّ بئرٍ. لابد أنه كان يظن أني سأهرب إذا ما تركني لحظة واحدة. كان مخطئاً. فقد كنت أفضّل أن أذهب حيث يأخذني، إلى أي مكان، على أن أجد نفسي مقذوفة وسط هذه الأبنية وهذه الشوارع التي لم آلفها، وكأنها قاع البحر.

صعدنا إلى ريكشو، وانحشر السيد بيكو بيننا على المقعد. تحت هذا الكيمونو يجثم رجل عظامه بارزة أكثر مما ظننت. أحسستُ بهَزةٍ خفيفة إلى الخلف، فقد رفع السائق ذراعي الريكشو. قال له السيد بيكو:

ـ إلى جيون يا تومينا غارشو.

لم يجب السائق، بل دفع العربة دفعة لكي تسير، ثم أخذت تسير ببطء. جمعتُ أشتات جرأتي بعد عدة مئات من الأمتار، وسألت السيد بيكو:

ـ أتسمح وتقول لنا إلى أين نذهب؟

من نظري لرأسه ظننت أنه لن يجيب، لكنه قال بعد حين:

ـ إلى بيتكما الجديد.

عندما سمعت ذلك امتلأت عيناي بالدموع. كذلك بكت ساتسو الجالسة إلى يمينه. كنت سأبكي أنا الأخرى عندما ضربها السيد بيكو، فخنقت دموعها. عضضت على شفتي وخنقت دموعي بسرعة، فتوقف مجراها على خدي فجأة. انعطفنا في شارع واسع بدا لي أوسع من قريتنا. بالكاد رأيتُ في الجهة الأخرى الناسَ والدراجات والعربات والشاحنات. لم أكن قد رأيت السيارات في حياتي إلاّ في الصور. ومع ذلك أذكر أني فوجئت «بقسوتها» فخفت منها، كما لو أنها صُمّمت لكي تؤذي الإنسان، لا لكي تنفعه. كانت حواسي كلها

متوفزة. مرت بقربنا شاحنات تزأر، حتى إني شممت رائحة الكاوتشوك المحروق، وسمعت أزيزاً مروّعاً، فقد توقف أحد الترامويات وسط الشارع الواسع.

عند حلول الليل أصبت بالهلع، وتركتني أنوار المدينة فاغرة الفم. لم يبهرني شيء في حياتي بقدر رؤية مدينة مُنارة. ولم أرَ في حياتي إنارة بالكهرباء إلا تلك الليلة التي أمضيتها في بيت السيد تاناكا. هنا، رأيت صفوفاً من النوافذ المضاءة في الطوابق العليا والأرضية للبيوت. وعلى الأرصفة يجلس الناس وسط دوائر من النور الأصفر. ورأيت الأنوار الصغيرة حتى نهاية الشارع الواسع. انعطفنا في شارع آخر، ورأيت لأول مرة مسرحَ ميناميزا على الطرف الآخر من جسرٍ يبعد مئات الأمتار. كان سطحه الجميل المغطّى بالقرميد يُبديه كقصر.

أخيراً انعطفت الريكشو في زقاق. كانت البيوت الخشبية على جانبي الطريق متقاربة، حتى بدت وكأن لها الواجهة نفسها، وهذا ما أوحى لي من جديد بأني تائهة. كانت بعض النساء اللواتي يرتدين الكيمونوهات يعبرن الزقاق مسرعات. وجدتهنّ أنيقات رُغمَ أن معظمهن خادمات كما عرفتُ فيما بعد.

توقفنا أمام باب أحد المنازل. طلب إليّ السيد بيكو أن أنزل قبل أن يتبعني على الرصيف. ثم، وكما لو أن هذا النهار لم يكن قاسياً علينا بما يكفي، فقد حدث الأسوأ: عندما همّت أختي بالنزول بدورها، التفت إليها السيد بيكو ودفعها إلى داخل الريكشو بيده الطويلة، ثم قال:

ـ ابقي هنا. أنتِ ستذهبين إلى مكان آخر.

نظرتُ إلى ساتسو ونظرتْ إليّ. ربما كانت تلك المرة الأولى التي نتفاهم فيها حقاً. ولكنّ ذلك لم يدم أكثر من لحظة لأن عينيّ امتلأتا بالدموع ولم أرَ بعدها شيئاً. أحسستُ وكأن السيد بيكو يشدّني إلى الخلف، وسمعت أصوات نساء وجلبةً. كنت سأرمي

WWW.REWITY.COM

بنفسي في الشارع عندما فتحت ساتسو فمها صارخةً، فقد رأت شيئاً ما خلفي.

كنتُ في ممر صغير لأحد البيوت، وإلى جانبي بئر صغيرة وبضع نباتات على الجانب الآخر. سحبني السيد بيكو إلى تحت شرفة البيت، ثم أوقفني. هناك، على الدرجة الأولى من المدخل ظهرت امرأة جميلة منتعلةً زورياً مبرنقاً ومرتديةً كيمونو فاخراً. لم أتصور في حياتي أن أرى شيئاً بهذا الجمال. لقد أعجبني سابقاً الكيمونو الذي كانت تلبسه الجيشا القبيحة في قرية السيد تاناكا، أما هذا الكيمونو فقد كان لونه أزرق مع خطوط حلزونية عاجية تصوّر دوّارات نهر وأسماك ترويت لامعة تسبح في التيار وأشجار تنتصب على الضفتين. وكان هناك دائرة صغيرة مذهّبة في كل نقطة تماس بين الأوراق الخضراء الناعمة والماء. لم أشكّ لحظة في أنّ الكيمونو من الحرير، وكذلك الأوبي المطرّز بألوان الباستيل الأصفر والأخضر. كان هذا الكيمونو غريباً، تماماً كالمرأة التي تلبسه.

كان وجهها مزيناً باللون الأبيض، أبيض ناصع كجوف غمامة فتنتها الشمس. وكانت تسريحتها فلقتين سوداوين لامعتين لمعانَ اللّكّ الداكن، مزينة بحلي من العنبر المنحوت، وبقلنسوة تتدلى منها صفيحات صغيرة مفضّضة تتلألأ عند كل حركة.

تلك أول صورة أخذتها عن هاتسومومو، فقد كانت آنذاك من أشهر الجيشاوات في جيون، وهذا ما كنت أجهله بكل تأكيد. كانت فتاة قصيرة القامة، أعلى نقطة في تسريحتها تصل إلى كتف السيد بيكو. بهرني جمالها حتى نسيت كل أدب في التصرف ـ هذا إذا كان لدي آداب التصرف ـ وأخذت أنعم النظر إليها. ابتسمت لي ولكن بطريقة غير محببة، ثم قالت:

ـ هل يمكنك أن تهتم بالقمامة في وقت لاحق يا سيد بيكو؟ أريد أن أخرج.

لم يكن من قمامة في المدخل ـ كانت تقصدني إذاً. وردّ عليها السيد بيكو بأن هناك مكاناً لتمر. لكنها قالت:

ـ ربما لا يزعجكم «أنتم» الاقتراب منهن. أما أنا فعندما أرى قذارة إلى جانب الشارع؛ فإني أجتازه إلى الجانب الآخر.

ظهرت خلفها في المدخل امرأة عجوز طويلة القامة، ودقيقة الجسم بِرفع غصن البامبو، وقالت:

ـ إني أتساءل كيف يتصرف الناس ليتحملوك يا هاتسومومو ـ سان!

رُغمَ ذلك أشارت إلى السيد بيكو أن يعود إلى الشارع معي، وأطاعها. بعد ذلك مشت المرأة عدة خطوات في المدخل وهي تعرج؛ أحد ردفيها كان نافراً بشكل فظيع، مما كان يزعجها في المشي. توقفت أمام قطعة أثاث وأخرجت منها نوعاً من الصوّان وحجراً مستطيلاً كالذي يستخدمه الصيادون لشحذ سكاكينهم.

بعد ذلك وقفتْ خلف المرأة الجميلة، وقدحتْ الحجر على الصوانة، ما أحدث شرراً تطاير على ظهر هاتسومومو. لم أفهم شيئاً من هذا الطقس، ولكن يجب أن تعلم أن الجيشاوات أكثر تَطَيُّراً من الصيادين. فالجيشا لاتخرج مساءً إلا بعد أن يُقدح الشرر في ظهرها ليجلب الحظ.

ثم ذهبت هاتسومومو بخطىً صغيرة حتى بدت وكأنها تنزلق على الطريق، وأسفل كيمونوها يتطاير بخفة خلفها. كنت أجهل أنها جيشا لأن فارقاً شاسعاً كان بينها وبين تلك المخلوقة التي رأيتها في سنزورو منذ بضعة أسابيع. قلت لنفسي لابد أنها ممثلة أو مغنية. رأيناها تبتعد وهي تتقافز على البلاط. ثم سلمني السيد بيكو للعجوز التي بقيت واقفة في المدخل. صعد إلى الريكشو حيث كانت أختي تنتظره، ثم رفع السائق ذراعي العربة، لكنْ لم أرهم حين ذهبوا، لأني بكيت بدموع حرّى وأنا منكمشة على الأرض.

لابد أن العجوز أشفقت عليّ لأني بقيت ممددة على الأرض لبعض الوقت، أبكي مأساتي دون أن يزعجني أحد. بل إنها أمرت إحدى الخادمات التي وصلت تواً بأن تتكلم بصوت خافت.

www.rewity.com
ARAYAHEEN
WWW.REWITY.COM

أخيراً، أعانتني على النهوض، ثم جففت وجهي بمنديل أخرجته من كم كيمونوها البسيط ذي اللون الرمادي وقالت:

- هيا أيتها الصغيرة. لا داعي للبكاء، فلن يأكلك أحد.

كان لها لكنة السيد بيكو وهاتسومومو نفسها. الناس في قريتي كانوا يتكلمون لغة يابانية مختلفة جداً عن هذه التي عانيتُ كثيراً في فهمها. ومع ذلك لم يقل لي أحد كلمة بهذا اللطف طوال النهار. لذا قررت أن أسمع نصيحتها. نظرتْ إلي ملياً، ثم قالت بصوتٍ خرج من حلقها:

- يا لهاتين العينين يا إلهي! إن جمالكِ مضحك! لابد أن الأم ستسَر بك أيمَا سرور.

سرعان ما فكرت أن أم هذه المرأة لا بدّ أن تكون عجوزاً شمطاء. في الواقع، كان شعر تاتي الملفوف في كعيكة صغيرة فوق نقرتها أشيب كلياً تقريباً.

اجتزت وتاتي عتبة البيت إلى ممر ضيق من الطين المرصوص يفضي إلى باحة بين بنائين: أحدهما صغير بائس كبيتنا في يورويدو - غرفتان أرضيَّتهما من الطين المرصوص - وبدا أنه جناح للخادمات؛ أما البناء الآخر فعبارة عن بيت صغير أنيق يقوم على حجارة، بحيث إن قطاً يمكنه أن ينزلق فوقه، وكان الممر بين البنائين غير مسقوف. وعندما نظرت إلى السماء في تلك الليلة، خامرني شعور بأني في قرية صغيرة وليس في بيت، كلما رأيت المزيد من الأبنية في الباحة. لقد كان مسكناً نموذجياً في ذلك الجزء من كيوتو، وهذا ما كنت أجهله آنذاك. أما بالنسبة إلى البيوت الصغيرة في آخر الباحة؛ فلم تكن أماكن للسكن كما ظننت، بل مستودعاً من طابقين، له سلم خارجي مع حجرة صغيرة تستخدم كمرحاض. يشغل مجموع هذه الأبنية مساحة أصغر من بيت السيد تاناكا، ولا يسكنه إلا ثمانية أشخاص، أو بالأحرى تسعة بعد أن أتيت.

بعد أن راقبت هذا الترتيب الخاص في كل هذه الأبنية؛ لاحظت

أناقة المسكن الرئيس. في يورويدو كانت الأبنية الخشبية رمادية أكثر منها بنية يتآكلها الملح الجاثم في الهواء، أما هنا فالعوارض والألواح الخشبية تلمع تحت نور المصابيح الكهربائية. على جانب الممر رأيت أبواباً منزلقة تنفتح على دَرَج يؤدي إلى الطابق الأعلى على ما يبدو. كان أحد هذه الأبواب مفتوحاً فلمحت قطعة أثاث خشبية صغيرة مع هيكل بوذي، فهذا البيت الجميل مخصص لسكن الأسرة - ولهاتسومومو، حتى لو أنها لم تكن من بين أفراد الأسرة كما تبين لي فيما بعد. لكي يذهب أفراد الأسرة إلى الباحة، فإنهم لا يسلكون الممر في الطين المرصوص كما تفعل الخادمات، بل يسلكون رواقاً من الخشب المصقول يمتد على جانبٍ كامل من البيت. حتى إن هناك مرحاضين - كلٌ منهما في مكانٍ - مرحاض في الطابق العلوي للأسرة، وآخر في الأسفل للخدم.

ومع ذلك، لم أكتشف معظم هذه الأمور إلا بعد مضي يوم أو يومين. بقيتُ في هذا الممر لبعض الوقت خائفةً مرعوبة لا أدري أين أنا، غابت تاتي في المطبخ، وسمعتها تتحدثُ مع أحدٍ ما بصوتٍ أجش. أخيراً، ظهرت فتاة من عمري هي التي كانت تتحدث إليها تاتي، تحمل سطلَ ماءٍ ثقيلاً انسكب نصفه على الأرض. بدا جسمها بالغ النحول متطاولاً، ووجهها مستديراً يشكّلُ دائرةً كاملة. سرعان ما بدت لي كبطيخةٍ فوق عصاً. كانت تبذل جهوداً هائلة لحمل السطل، وبدا لسانها المدبب من بين شفتيها تماماً كساقٍ على يقطينةٍ، وسرعان ما اكتشفتُ أنها عادةٌ لديها. كانت تخرج طرف لسانها عندما تخلط الحِساءَ بالميزو، وعندما تتناول الأرز، أو عندما تعقد زنار كيمونوها. كان وجهها ممتلئاً وناعماً مع هذا اللسان المنحني كساق يقطينةٍ حتى إني لقبتها بعد عدة أيام «بومبكين»، وصار الجميع ينادونها بهذا اللقب - بمن فيهم زبائنها - بعد عدة سنوات عندما أصبحت جيشا في جيون.

عندما وضعت السطل بجانبي أدخلت لسانها ثم حشرت خصلةً متمردةً من شعرها خلف أذنها وهي تقيسني من رأسي حتى قدميَّ. ظننتُ أنها ستكلمني، لكنها تابعت النظر إليَّ كما لو أنها كانت جائعةً

WWW.REWITY.COM

وأنا قطعة كاتو تريد أن تأخذ منها لقمةً. أخيراً، انحنت عليَّ، وهمست في أذني:

ـ من أين أتيتِ؟

هل أقول إني أتيتُ من يورويدو؟ لا، لأن لها لكنةَ الأخريات نفسها، وهي بكل تأكيد لن تعرف اسمَ قريتي. قلت لها إني وصلتُ تواً فقالت:

ـ كنت أظن أني لن أجد أبداً فتاةً من عمري، ولكنْ، ما بهما عيناك؟

عند ذلك خرجت تاتي من المطبخ وطردت بومبكين. حملت السطل وممسحةً وقادتني إلى الباحة ـ باحةٌ جميلة مع رغوةٍ على البلاط ـ التي تؤدي إلى مدخل مستودع. للأسف كانت رائحته فظيعةً، إذ إن هناك مرحاضاً في حجرةٍ صغيرة على أحد جوانب الباحة. أمرتني تاتي أن أخلع ثيابي، وخشيتُ أن تذيقني الإذلال نفسه الذي عرفته مع السيدة بوجوت، ولكنها اكتفت بصب الماء على كتفيَّ وفرك جسمي بالممسحة. بعد ذلك أعطتني كيمونو قطنياً عادياً مع رسم بسيط بلونٍ أزرق. لم ألبس بحياتي لباساً بهذه الأناقة، وظهرتْ في الممر امرأةٌ عجوز ـ عرفت فيما بعد أنها الطباخة، ومعها عجائز أخريات أخذن ينظرن إليَّ، فقالت لهن تاتي إن بإمكانهن أن ينظرن إليَّ كما يحلو لهن في وقت آخر، ثم طردتهن من حيث أتين. قالت لي:

ـ والآن اسمعيني جيداً أيتها الصغيرة، أنا لا أريد حتى أن أعرف اسمك الآن. الأم وغراني لم يحبّا آخر فتاةٍ أتت، لم تبقَ إلا شهراً واحداً. وأنا عجوزٌ ولا طاقة لي بحفظ أسماءٍ جديدة. سأعرف اسمكِ عندما تقرران استبقاءك.

سألتها:

ـ وماذا سيجري إذا لم تُبقياني؟

ـ من الأفضل أن تُبقياكِ.

ـ هل لي أن أسألك يا سيدتي: ما هذا المكان؟

WWW.REWITY.COM

ـ إنه أوكيا(*). هنا تعيش الجيشاوات. وإذا عملتِ بجدّ، فستصبحين أنت نفسكِ جيشا. ولكنكِ لن تتجاوزي الأسبوع إذا لم تسمعي بانتباه ما سأقوله لكِ. الأم وغراني لن تتأخرا في النزول لرؤيتك، ومن الأفضل لكِ أن تعجبيهما. ستحترمينهما بالانحناء إلى أسفل بأقصى ما يمكن ولا تنظري في وجهيهما؛ الأكبر سناً، تلك التي سمّيناها غراني لم تحبَّ أحداً في حياتها. لذا لا تعيري اهتماماً لكلامها. إذا طرحت عليكِ سؤالاً فلا تجيبيها بحق السماء! دعيني أُجِب بدلاً عنكِ. والمرأة التي ستؤثرين عليها هي الأم، إنها ليست شريرة، ولكن بالنسبة إليها هناك أمرٌ فوق كل الأمور.

لم أستطع أن أعرف ما تقصده، لأن الألواح الخشبية طقطقت في الردهة، وسرعان ما ظهرت المرأتان في الرواق تمشيان بخطىً قصيرة كما لو أنهما تنزلقان على الأرض. لم أجرؤ أن أنظر إليهما صراحةً، بل من زوايةِ عيني. وما رأيتهُ جعلني أفكر بالكرتين الحريريتين المرفرفتين فوق نهرٍ. بعد ثانيتين، تمايلتا بخفةٍ أمامي، وجثتا في الرواق تاركتين كيمونويهما في حضنيهما. صاحت تاتي:

ـ أوميكا ـ سان، وكان ذلك اسمُ الطباخة، اجلبي الشاي لغراني.

أجاب صوتٌ شرسٌ:

ـ لا أريد الشاي.

وقال صوتٌ أخشن هو صوت الأم على ما أظن:

ـ غراني، أنتِ لستِ مضطرةً لشرب الشاي. كل ما تريده تاتي هو أن تطمئن إلى أن شيئاً لا ينقصك، وأنك مرتاحة.

ـ كيف تريدين أن أكون مرتاحةً مع هذا الروماتيزم؟

شهقت لتقول كلاماً آخر، لكن تاتي قاطعتها قائلةً:

ـ هذه هي الفتاة الجديدة أيتها الأم.

(*) الأوكيا هو مكان مخصص لتربية الجيشاوات منذ طفولتهنّ، ومكان سكنهن بعد أن يبدأن العمل. م.

ثم دفعتني بهدوء. علامة الاحترام بكل تأكيد. جثوت وانحنيتُ إلى أقصى ما يمكن حتى شممتُ رائحة العفن الآتية من تحت البيت. سمعتُ صوت الأم من جديد:

- انهضي واقتربي لكي أراك جيداً!

اقتربتُ وأنا واثقةٌ من أنها ستقول شيئاً آخر، لكنها تناولت غليوناً من أوبيها؛ فرنه من المعدن أسطواني الشكل، وله أنبوبٌ طويل من البامبو. وضعته إلى جانبها، ثم أخرجت من كمها كيساً حريرياً مغلقاً بخيط، حَفنتْ منه حفنةً من التبغِ، ثم حشتها في الغليون ببنصرها الأصفر الغامق كأنه إنيام مشوي. وضعت الغليون بين شفتيها، ثم أشعلته بعود ثقاب أخذته من علبة معدنية صغيرة.

بعد ذلك نظرت إليَّ بانتباهٍ لأول مرة وهي تسحب من الغليون. وإلى جانبها كانت العجوز تتنهدُ. كنت أعرف أنه لا ينبغي لي أن أنظرَ إلى الأم، ولكن نما لديَّ انطباعٌ بأن الدخان يخرج من وجهها كما يخرج من حفرةٍ عميقة. كنت متحرقةً لرؤية رأسها إلى حد أن عينيَّ أخذتا تتحركان في كل مكان، كأن إرادةً ذاتية تحركهما. كلما تقدمتُ في الامتحان؛ ازددتُ إعجاباً. فقد كانت الأم ترتدي كيمونو أصفرَ مع رسوم ناعمة لأغصان تتفتح عليها أزهارٌ خضراء وبرتقالية. كان هذا الكيمونو من الشفُ الحريري؛ نسيجه دقيقٌ مثل شبكة العنكبوت. وكان أوبيها يسحرني. فهو من نسيجِ كيمونوها نفسه، وإن كان أقل نعومةً، بألوانٍ بنيةٍ وصهباء، وهو محوك بخيوطٍ مذهبة. وكلما نظرتُ إلى ثوبها نقص إدراكي بأني هنا في هذا الممر من الطين المرصوص، ونقص قلقي على أختي وأهلي ومستقبلي.

كل تفصيل جديد من كيمونو هذه المرأة أخّاذٌ، حتى إنه أنساني همومي كلها، وكدت أصرخ: وجه الأم قليل التناسق مع ثوبها! داهمتني صورةُ هرٍّ له رأس بيلدوغ. كان قبح الأم فظيعاً رُغمَ أنها أقل سناً من تاتي وهذا ما فاجأني. فقد تبين أنها أختها الصغرى - رُغمَ أنهما تتناديان بـ«الأم» و «تاتي» ككل من في الأوكيًا. في

الواقع، لم تكونا أختين حقيقيتين كحالي أنا وساتسو، ولم تولدا في العائلة نفسها، بل إن غراني هي التي تبنتهما.

ذُهلتُ. تدفقت عليّ الأفكار حتى إني فعلت الشيء الوحيد الذي أمرتني تاتي ألاّ أفعله. النظر إلى عيني الأم. وعند ذلك رأيتها تخرج الغليون من فم كالمغارة. ورُغمَ معرفتي بأنه يجب عليّ أن أطأطئ رأسي، فقد وجدت عينيها ببشاعة صادمة، حتى إني لم أتمكن من تحويل بصري عنهما. فبدلاً من أن يكون بياضهما نقياً أو مزرقاً، فقد ظهر أصفر بفظاعة كمرحاض مُتَبَوَّلٍ فيه للتو. وكانت أجفانها قوية وفي أسفل عينيها سائل مائل إلى الرمادي والتجاعيد تحيط بعينيها.

نظرت إلى فمها الذي ما زال مفتوحاً، يا لهذا التجمع الغريب للألوان! طرفا جفنيها أحمران، لثتها ولسانها رماديان. ولإكمال الصورة فداحةً، فقد بدا كل سن لديها مغروساً في بركة من الدم؛ نتيجة نقص غذائي تعرضت إليه في صغرها. وقد عرفت ذلك فيما بعد.

على كل حال لم أستطع أن أمنع نفسي من تشبيهها بشجرة بدأت تفقد أوراقها. صدمني ذاك المنظر، حتى تراجعت خطوة أو أطلقت صيحة مفاجأة، لأنها سرعان ما قالت لي بصوتها الأجش:

- إلامَ تنظرين؟

قلت:

- اعذريني يا سيدتي. إني أنظر إلى كيمونوك، أظن أني لم أرَ أجمل منه في حياتي.

يجب أن يكون ذلك أفضل جواب، إذ كان هناك أفضل جواب. لأن الأم ضحكت ضحكةً رنت وكأنها سعال، ثم سألتني وهي تتابع سعالها أو ضحكها:

- إذاً هو يعجبك، آه؟ ألديك فكرة عن كلفته؟

- لا يا سيدتي.

- أغلى منك على أية حال.

WWW.REWITY.COM

أتت خادمة تحمل الشاي. وبينما هي تقدمه، استغليت الفرصة وألقيت نظرة سريعة إلى غراني التي تميل إلى السمنة بأصابعها الملفوفة ورقبتها السمينة، ذابلة مغضنة. كانت بعمر أبي وربما أكبر، وتعطي انطباعاً بأنها أمضت حياتها في بؤرة من الشر المركز. ذكرني شعرها الأشيب بخيوط حريرية مشعثة لأني رأيت جلد رأسها من خلاله. حتى جلد رأسها هذا كان يفصح عن الشر بسبب حبوب الشيخوخة الحمراء والبنية. لم تكن تعقد حاجبيها حقاً، ولكن فمها بدا متجمداً في تعبير عن عدم الموافقة.

تنهدت بعمق مستعدة للكلام، ثم أخرجت الهواء وهدرت:

ـ ألم أقل إني لا أريد شاياً؟

ثم تنهدت وهزت رأسها، وسألتني:

ـ كم عمرك أيتها الصغيرة؟

أجابت تاتي بدلاً عني:

ـ إنها من عمر القرد.

فقالت غراني:

ـ تلك الطباخة الغبية قرد.

قالت الأم:

ـ تسع سنوات، ما رأيك فيها يا تاتي؟

وقفت تاتي أمامي وقلبت رأسي إلى الخلف لترى وجهي، ثم قالت:

ـ إنها كثيرة الماء.

قالت غراني:

ـ أنا أرى أنها غبية. على كل حال يكفينا قرد واحد في البيت.

قالت تاتي:

ـ أنتِ محقة تماماً. ربما أحسنت الحكم عليها. أما أنا فأرى أنها ذكية ولينة الطباع، وهذا واضح من شكل أذنيها.

قالت الأم:

ـ مع هذا الماء ستكون قادرة بأن تشم رائحة النار حتى قبل أن تندلع. ستكون جيدة، ألست معي يا غراني؟ لن يشغلنا التفكير بعد الآن بأن مستودعنا سوف يحترق مع كل الكيمونوهات التي فيه.

عرفتُ فيما بعد أن غراني تعيش هاجس الحريق.

أضافت الأم:

ـ مهما يكن من أمر فهي جميلة، أليس كذلك؟

أجابت غراني:

ـ هناك كثير من الفتيات الجميلات في جيون. ما يلزمنا هو فتاة ذكية وليس فتلة جميلة. هاتسومومو جميلة، ولكن انظري كم هي غبية!

عند ذلك نهضت غراني بمساعدة تاتي وسلكت طريق البيت على طول الرواق. ونظراً لعَرَج تاتي ـ بسبب ذلك الردف الناتئ بفظاعة ـ كان من الصعب تمييز من منهما تعاني في مشيتها. سمعت صوتَ بابٍ سحاب ينفتح في الردهة، ثم ينغلق. لقد عادت تاتي.

سألتني الأم:

ـ هل لديكِ قمل؟

ـ لا.

ـ عليكِ أن تتعلّمي الكلام بطريقة ألطف من ذلك. تعطّفي يا تاتي وقصّي لها شعرها قليلاً كي نرتاح.

نادت تاتي إحدى الخادمات، وطلبت إليها أن تحضر مقصاً كبيراً.

قالت الأم:

ـ حسنٌ أيتها الصغيرة، أنتِ الآن في كيوتو، وعليكِ أن تتعلّمي

www.rewity.com
^RAYAHEEN^
WWW.REWITY.COM

حسن التصرف وإلا ستؤدَّبين. غراني هي المختصّة بالتأديب هنا. وستقدرين مأساتك. وإليكِ النصائح: اعملي بجدّ، لا تخرجي من الأوكيًا أبداً من دون إذن، افعلي ما يُطلب منكِ، ولا تسببي المتاعب. فمن الآن وحتى شهرين أو ثلاثة، قد تبدئين بتعلّم الفنون التي تتعلّمها الجيشاوات. أنا لم آتِ بكِ إلى هنا لتكوني خادمة. إذا لم تفعلي ما نصحتكِ به، فسوف أطردك.

سحبت الأم من غليونها، وبقيت عيناها مثبّتتين عليّ. لم أجرؤ على الإتيان بحركة قبل أن تأذن لي. تساءلتُ ما إذا كانت أختي تقف هي الأخرى أمام عجوز متسلّطة في بيت آخر في مكانٍ ما من هذه المدينة الرهيبة. فاجأتني ذكرى أمي المريضة وهي ترفع جسمها على مرفقها على فوتونها لكي ترى أين نحن. لم أشأ أن تراني الأم وأنا أبكي، ولكنّ دموعي صعدت إلى عينيّ دون أن أستطيع كبحها. عبر دموعي أخذ كيمونو الأم الأصفر يشحب شيئاً فشيئاً، حتى بدا لي قماشه لامعاً، ثم أطلقتْ نفثة دخان واختفى كيمونوها عن ناظري.

4

بعد أن أمضيتُ عدة أيام في هذا المكان الغريب انتابني يأسٌ عميق حتى إني قلتُ لنفسي لو أنهم بتروا لي ساقيّ وذراعيّ بدلاً من انتزاعي من أسرتي وبيتي لما كان أسوأ مما أنا فيه. وكنتُ أعلم أن حياتي ستكون مختلفة بعد الآن. تملّكني الغضب، ورحتُ أتساءل متى سأرى ساتسو. لم يعد لديّ أب، ولا أم، ولا حتى الثياب التي طالما لبستها. بعد أسبوعين استغربتُ بقائي على قيد الحياة. أذكر مرة أني كنتُ أمسح أواني الأرز في المطبخ، وفجأةً أحسستُ بنفسي تائهة إلى حدّ أني انفصلتُ عمّا أنا فيه وعانيت في تصديق أن هذه الفتاة التي تمسح أواني الأرز هي أنا.

إذا ما عملتُ بجدّ وأحسنتُ التصرف؛ فقد يبدأ تعليمي بعد عدة أشهر، قالت لي الأم. وشرحت لي بومبكين أني سأذهب إلى المدرسة في الجهة الأخرى من جيون. وسآخذ دروساً في الموسيقى والرقص، وأتعلّم تفصيلات حفلة الشاي. والفتيات اللاتي يتلقين إعداداً ليصبحن جيشاوات يتردّدن جميعاً على هذه المدرسة، حيث سألتقي بساتسو بلا شك. ولكن يجب أن يؤذن لي أولاً أن أذهب إليها. لذلك فقد قررت منذ الأسبوع الأول أن أكون وديعة كالحمل أملاً في أن ترسلني الأم مباشرة إلى المدرسة.

معظم المهام التي أوكلت إليّ كانت سهلة. في الصباح أرتب الفوتونات، وأنظّف غرف البيت المختلفة، وأكنس الممر ذا الطين المرصوص... وأحياناً يرسلونني إلى الصيدلية لكي أشتري مرهماً لمداواة جرب الطباخة، أو إلى المخزن الكائن في جادة شيجو لكي أشتري بسكويتاً بالأرز تحبّه تاتي. ولحسن الحظ، كانت المهامُّ الصعبة ـ كتنظيف المرحاض ـ توكل إلى إحدى الخادمات العجائز. ولكن رُغمَ عملي الشاق، أملاً في أن أثير الإعجاب، لم أستفد شيئاً. في الواقع، ومن الناحية الإنسانية، لم يكن من الممكن إنجاز كل الأعمال التي كنت أكلَّف بها. كما إن غراني أخذت تكلفني بمهامَ أصعب.

لم يكن الاهتمام بغراني من بين المهام التي أوكلت إليّ، على الأقل بحسب ما رسمتها لي تاتي، ولكن عندما كانت تستدعيني لم يكن في مقدوري التجاهل، لأنها الأكبر سناً والأرفع مقاماً في الأوكيًا. ذات يوم، على سبيل المثال، كنت سأصْعِد بالشاي للأم عندما سمعتها تصرخ:

ـ أين تلك الفتاة؟ أرسلوها إليّ!

وجب عليّ أن أضع صينية الشاي وأهرع إلى الغرفة التي تتناول فيها غراني غداءها. بادرتني بعد أن جثوت أمامها:

ـ ألا ترين أن الطقس حار جداً هنا؟ يجب عليك أن تفتحي هذه النافذة.

WWW.REWITY.COM

ـ اعذريني يا غراني. لم أكن أعرف أنك حرّانة جداً.

ـ ألا يبدو عليّ أني حرّانة جداً؟

كانت تأكل الأرز وقد بقيت بضع حبات على شفتها السفلى. تبين لي أن رأسها رأس امرأة شريرة أكثر منه رأس امرأة حرّانة. فتحتُ النافذة، فدخلت ذبابة وأخذت تطنُّ قرب طبق غراني، فسألتني وهي تطرد الذبابة بمروحتها:

ـ ما بك؟ الخادمات الأخريات لا يسمحن للذباب بأن يدخل عندما يفتحن النافذة.

اعتذرتُ وقلت إني سأبحث عن مذبة. فقالت:

ـ وستسقطين الذبابة في طبقي وأنت تقتلينها؟ لا، أبداً ستبقين هنا، بينما أتابع طعامي لتمنعيها من الاقتراب مني!

وجب عليّ أن أبقى بجانب غراني وهي تأكل، وأسمعها تتحدث عن إيشيمورا أوزايمون الخامس عشر ـ ممثل الكابوكي الشهير الذي أمسك بيدها طوال احتفال البدر ـ عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها. وعندما سمحت لي بالذهاب؛ كان الشاي قد برد ولن أستطيع تقديمه إلى الأم. لابدَّ أن أُسْخِطَ الأمَّ والطباخةَ. لقد استبقتني غراني طويلاً لئلا تبقى وحيدة. حتى عندما تريد الذهاب إلى المرحاض كانت ترغم تاتي على انتظارها أمام الباب، والإمساك بيدها لتحتفظ بتوازنها في وضعية القرفصاء. كانت الرائحة كريهة، بحيث كانت تاتي توشك أن تكسر عنقها من فرط إرجاعه إلى الخلف لتحاشي الرائحة. وأنا لم يكن لدي من مهمة أصعب من هذه، ومع ذلك فقد كانت غراني تدعوني لتدليكها وهي تنظف أذنيها بملعقة صغيرة. إن تدليكها عملية أصعب بكثير مما يمكنك أن تتصوره. فقد كدت أن أتقيأ أول مرة عندما فكّت كيمونوها وعرّت كتفيها. كان جلدها أصفر ومحبباً كجلد الفروج الذي نتف ريشه للتو. وعرفت لماذا فيما بعد. عندما كانت جيشا استخدمت كريماً للمكياج مصنوعاً من الرصاص يسمى «صلصال الصين»، وتبين أن هذا الصلصال سامٌّ، وهذا يفسر قليلاً طبيعة غراني الفظة. وفي صباها ـ

كانت تستحم في الينابيع الحارة شمال كيوتو، ولم يكن ذلك ذا تأثير سيء لو أنها لم تضع ذلك الماكياج المصنوع من الرصاص. فبقايا هذا الكريم تفاعلت مع مادة كيميائية موجودة في الماء فأتلفت جلدها. ولم تكن غراني هي الوحيدة التي حلّ بها ذلك. فحتى بداية الحرب العالمية الثانية كانت ما تزال تُشاهدُ في شوارع جيون عجائز أعناقهن مغضنة وصفراء.

* * *

ذات يوم، بعد ما يقارب الأسابيع الثلاثة من وجودي في الأوكيًا صعدتُ إلى الطابق الأول، متأخرة عن عادتي، كي أرتّب غرفة هاتسومومو، تلك الجيشا التي ترعبني. على كل حال، قلما كنت أصادفها بسبب برنامجها المثقل. كنت أتحاشى أن أجْعَلَها تلاقيني وحيدة في غرفتها، فأحاول أن أرتب غرفتها بعد أن تذهب إلى درس الرقص. لسوء الحظ، ذلك الصباح، استبقتني غراني حتى الظهر. كانت غرفة هاتسومومو هي الأوسع بين غرف الأوكيًا ـ أوسع من بيتي في يورويدو. ولم أكن أفهم لماذا تسكن كل هذه الغرفة الفسيحة وحدها. فسرت لي ذلك إحدى الخادمات العجائز قائلة: إن هاتسومومو هي الجيشا الوحيدة حالياً في الأوكيًا: في الماضي كانت ثلاثة جيشاوات يَنَمْنَ في غرفة هاتسومومو، ثم أصبحن أربع جيشاوات، لكنَّ هاتسومومو تنشر الفوضى بقدر الأربع مجتمعاتٍ، رُغمَ أنها وحيدة.

ذلك اليوم، بالإضافة إلى المجلات الملقاة في كل مكان، والفراشي الملقاة على التاتاميات بجانب طاولة المكياج الصغيرة، وجدت في غرفتها بقايا تفاحة، وزجاجة ويسكي فارغة تحت الطاولة. كانت الغرفة مفتوحة، ولابد أن الريح قد أسقطت الإطار الخشبي الذي كانت تعلق عليه كيمونوها في الليلة السابقة ـ إلاّ إذا كانت هي التي أسقطته قبل أن تنام بسبب سكرها، ولم تكلف نفسها عناء تعليقه. كانت تاتي ستعلقه، فهي المكلفة بالحفاظ على الملابس في الأوكيًا. ومع ذلك، لسبب أو لآخر لم تفعل ذلك. رفعتُ الإطار

WWW.REWITY.COM

الخشبي عندما انزلق الباب فجأة. التفتُّ فرأيتُ هاتسومومو واقفة على عتبة الغرفة، قالت:

ـ آه، هذه أنتِ! ظننت أني سمعت فأراً. أرى أنك رتبت غرفتي. أأنتِ التي تغيّرين باستمرار مواقع كريماتي؟ لماذا تصرين على فعل ذلك؟

ـ اعذريني يا سيدتي، لقد كنت أزيل الغبار عنها فقط.

ـ ولكنك تلمسينها، وستأخذ من رائحتك، وسيقول لي الرجال:«لماذا رائحتك نتنة كجاهلة صغيرة يا هاتسومومو، كأنك آتية مباشرة من قرية الصيادين؟» أتفهمين ما أقوله لك؟ أعيديه على مسامعي، إني لست متأكدة. لماذا لا أريد أن تلمسي مكياجي؟

عانيتُ قول ذلك، لكني قلته في النهاية:

ـ لأنه سيأخذ رائحتي.

ـ عظيم. وماذا سيقول الرجال؟

ـ أوه يا هاتسومومو ـ سان، إن رائحتك كرائحة ابنة صيادين.

ـ هم... م. لا أحب اللهجة التي تتكلمين بها. ولكني سأكتفي بذلك. لست أدري لماذا تكون رائحة الفتيات اللواتي يأتين من قرى الصيادين كريهة إلى هذا الحد؟ لقد أتت أختك الرهيبة منذ عدة أيام وكانت تبحث عنك، وكانت رائحتها كريهة كرائحتك.

حتى تلك اللحظة كانت عيناي مخفضتين، ولكن عندما سمعت هاتسومومو تتكلم عن أختي؛ نظرتُ مباشرةً إلى عينيها لكي أعرف ما إذا كانت تقول الحقيقة، فاستغربتْ فعلتي، قائلة:

ـ تبدين مفاجَأة. ألا تعرفين أنها أتت. لقد أرادت أن أعطيك عنوانها، لكي تذهبي لرؤيتها. طبعاً، لكي تتمكنا من الهرب معاً.

ـ هاتسومومو ـ سان!

ـ تريدين أن أقول لكِ أين هي؟ عظيم. ولكنك ستكونين مدينة لي. أعلم أنك تستطيعين أن تكوني أهلاً لذلك سأخبرك. والآن اذهبي!

لم أستطع عصيان أمرها. ولكن قبل خروجي من الغرفة كان لديَّ أمل في أن أستطيع إقناعها. قلت:

ـ هاتسومومو ـ سان! أعرف إنك لا تحبينني، ولكن إذا قلتِ لي ما أريده، فإني أعدك بألاّ أزعجك أبداً.

ابتسمت هاتسومومو لدى سَماعي. اقتربت مني ووجهها باشّ. مرةً أخرى يبهرني جمالها. طالما حدث أن بعض الرجال كانوا يتوقفون في الشارع للنظر إليها بعد أن يأخذوا سيجارة بين إصبعيهم وهم يدخنون. ظننت أنها ستنحني علي لتهمس في أذني شيئاً ما، لكنها تابعت ابتسامتها، ثم ارتدت يدها إلى الخلف وصفعتني، قائلة:

ـ قلت لكِ أن تخرجي من الغرفة، أليس كذلك؟

أعجزني اضطرابي عن أية ردة فعل. لا بد أني تعثرت أثناء خروجي من الغرفة لأني وجدت نفسي ملقاة على الأرض، على أخشاب الممر ويدي على خدي. بعد لحظات انفتح باب الأم في الممر وهو ينزلق ثم قالت وهي تساعدني على النهوض:

ـ هاتسومومو! ماذا فعلتِ لشيو؟

ـ كانت تتكلم عن الهرب أيتها الأم، فرأيت من المناسب أن أصفعها. ظننت أنك منشغلة عن القيام بذلك.

نادت الأم خادمة، وطلبت إليها أن تحضر بعضاً من قطع الزنجبيل الطازج، ثم قادتني إلى غرفتها، وأجلستني إلى الطاولة حتى أنهت مكالمتها الهاتفية، الهاتف الوحيد في الأوكيًا الذي يتصل بخارج جيون. كان مثبتاً على جدار غرفتها، ولم يكن من حق أي أحد آخر استخدامه. كانت قد تركت السماعة على الرف. حملتها من جديد إلى أذنها، وشدّت عليها بأصابعها المتورمة، حتى خفت أن تسيل أخلاطها على التاتامي.

قالت في السّماعة بصوتها الأجش:

ـ اعذروني، ولكن ها قد عادت هاتسومومو تضرب الخادمات.

طوال الأسابيع الأولى لإقامتي في الأوكيًا كنت أحسُّ بالعرفان

WWW.REWITY.COM

تجاه الأم ـ ما تحسه السمكة للصياد الذي يسحب الصنارة من حلقها. لا بدّ أن ذلك لأني لا أراها إلاّ بضع دقائق يومياً عندما أرتب غرفتها. فهي تمضي حياتها في هذه الغرفة جالسةً إلى طاولتها وأمامها دفتر حسابات في معظم الأحيان. كانت تضع تلك الدفاتر الصغيرة في مكتبة أمامها تبقى أبوابها مفتوحة، وتستخدم منحنى بيانياً وتزلق اللآلئ العاجية بنقفة من إصبعها. ربما تمسك حساباتها، ولكن في مجالات أخرى كانت الأم أكثر تشوشاً من هاتسومومو. في كل مرة تضع الغليون على الطاولة تُسقط الرماد وبقايا التبغ التي تبقى في مكانها لأنها لا تنظفها. ومن ناحية أخرى لم تكن تحب أن يلمس أحد فوتونها، حتى إن الغرفة كلها تفوح منها رائحة الوساخة، والستائر الورقية صار لونها مائلاً إلى الاصفرار ما دامت تدخن، مما يعطي غرفتها لوناً أخضر مزرقاً.

بينما كانت الأم تتكلم في الهاتف، أتت إحدى الخادمات حاملة شرائح من الزنجبيل الطازج، فوضعتها على وجهي في المكان الذي صفعتني عليه هاتسومومو. أيقظ الصوت الذي أصدرته الخادمة عند فتح الباب وإغلاقه تاكو، كلب الأم الصغير، وكان كلباً سيء الطباع أفطس الخطم. يبدو أن ليس له في الحياة إلا ثلاث رغبات: النباح والشخير وعض كل من يحاول أن يداعبه، بعد أن خرجت الخادمة أتى تاكو وتمدد خلفي، وكانت تلك إحدى حيله، فهو يحب أن يقعي في مكان بحيث أوشك أن أدوسه من غير قصد لكي يعضني ما إن أضع قدمي عليه. وهكذا كنت في موقعي بين الأم وتاكو كفأر محشور في مجرى باب منزلق. أخيراً أنهت الأم المكالمة وأتت لتجلس إلى الطاولة. نظرت إليَّ بعينيها الصفراوين، ثم قالت:

ـ والآن، اسمعيني أيتها الصغيرة. ربما تكونين قد سمعتِ هاتسومومو تكذب سابقاً. وإذا كان ذلك لا يؤذيها، فإن الأمر مختلف بالنسبة إليك... لماذا صفعتكِ؟

ـ كانت تريد أن أخرج من غرفتها، أيتها الأم، وأنا آسفة حقاً.

جعلتني الأم أكرر كلامي بلهجة كيوتو، وقد عانيتُ كثيراً في ذلك. وعندما أرضاها كلامي قالت:

ـ لا أعتقد أنكِ فهمتِ دورك هنا في الأوكيا. همنا الأكبر أن نساعد هاتسومومو في عملها كجيشا. حتى غراني تعمل من أجلها. قد تظنين أنها سيدة عجوز صعبة، ولكنها تمضي وقتها بحثاً عن وسائل تكون نافعة لهاتسومومو.

حقاً لم أفهم ما ترمي إليه الأم. على كل حال، إنها عاجزة عن إقناع جزمة قديمة بأن غراني يمكنها أن تكون مفيدة في شيء لكائن من كان.

ـ إذا كانت غراني نفسها تعمل من الصباح إلى المساء لتسهيل عمل هاتسومومو، فعليك أن تفكري بكل الجهود التي ستبذلينها في سبيل ذلك.

ـ نعم، أيتها الأم، سوف أتابع عملي بجد.

ـ لا أريد أن تزعجي هاتسومومو بعد الآن. الفتاة الصغيرة الأخرى تحاول عدم إزعاجها، وعليك أن تحذي حذوها.

ـ نعم، أيتها الأم، ولكن قبل أن أخرج، هل لي بطرح سؤال؟ تساءلتُ ما إذا كان هناك من أحد يعرف أين أختي. كم أود أن أرسل لها بضع كلمات!

لِفَم الأم خصوصية معينة، فرُغمَ كونه كبيراً جداً بالنسبة إلى وجهها، فإنه يبقى مفتوحاً باستمرار، لأن فكها السفلي متدل. ولكنها قامت بحركة لم أرها تفعلها من قبل: أرتني أسنانها. وهذه طريقتها في الابتسام، حتى لو أني لم ألاحظ ذلك إلا عند السعال، وكذلك هي طريقتها نفسها في الضحك. سألتني:

ـ ولماذا أقول لك ذلك؟

بعد ذلك، بقي على وجهها آثار ضحك، ثم أشارت إليَّ بيدها أن أخرج.

كانت تاتي تنتظرني في الممر. أعطتني سطلاً ثم أصعدتني إلى السطح على سلم موضوع في فتحة. رأيت خزاناً لماء المطر، يزود المرحاض الذي بجانب غرفة الأم. في الواقع لم يكن هناك من

WWW.REWITY.COM

تمديدات صحية حتى في المطبخ. لم يهطل المطر في الآونة الأخيرة فبدأت رائحة المرحاض تنتن. كان عليَّ أن أسكب الماء في الخزان لتستطيع تاتي القيام بأعمال التنظيف.

كان القرميد محرقاً في عز الظهر. وأنا أسكب الماء من السطل، أتذكر الماء البارد الذي كنا نسبح فيه في قريتنا على شاطئ البحر. منذ عدة أسابيع فقط كنت أسبح فيه. أما هنا، فأنا معلّقة على سطح الأوكيا، بدا لي ذلك من الماضي البعيد. قالت لي تاتي أن أنتزع الأعشاب من بين مفاصل القرميد قبل النزول. نظرت إلى الضباب الناتج عن الهجير وهو يرفرف فوق المدينة المحيطة بنا كأسوار سجن. لابد أن أختي تحت واحد من هذه السقوف تشتغل مثلي. فكرت بها وأنا أضرب الخزان بلا قصد، فسال الماء على السطح قبل أن يسقط إلى الشارع.

* * *

بعد ما يقارب الشهر من وصولي إلى الأوكيا قالت لي الأم إنَّ الوقت قد حان لأبدأ دراستي. سوف أذهب إلى المدرسة اعتباراً من الغد مع بومبكين، وسيقدمونني للمعلمات! ثم ستأخذني هاتسومومو إلى مكان يسمى «مكتب التسجيل»، ولم أكن أعرف ما هذا المكتب. بعد الظهر رأيت هاتسومومو تضع مكياجها، ثم تلبس كيمونوها. في اليوم الذي تبدأ الفتاة الصغيرة دروسها عليها أن تحضر استعدادات الجيشا الأكبر منها سناً في الأوكيا كما يقتضي التقليد.

عندما علمت بومبكين أنها ستصحبني في الغد إلى المدرسة؛ اضطربت فجأة، ثم قالت:

ـ عليكِ أن تستعدي منذ استيقاظك. وإذا تأخرت فمن الأفضل لكِ أن تلقي بنفسك في المجرور.

في الفجر، كنتُ أرى بومبكين تُسرع خارجةً وعيناها بلون الرمل، غالباً ما تبدو على وشك البكاء وهي ذاهبةٌ إلى المدرسة. وعندما كانت تمرُّ من أمام نافذة المطبخ، تطقطقُ بقبقابها، مما جعلني أظنُ أنها تبكي أحياناً، فأمورها في المدرسة لم تكن على ما

يرام، بل لم تكن على ما يرام قطُّ. لقد أتت إلى الأوكيا قبلي بفصلٍ واحد، ولكنها لم تبدأ دروسها إلا بعد أسبوع أو أسبوعين من قدومي. وفي معظم الأحيان، عندما كانت تعود من المدرسة ظهراً، تتجه مباشرةً إلى غرفة الخادمات، فهي لم تُرِدْ أن يراها أحدٌ حزينةً أو قلقة.

في صباح اليوم التالي استيقظتُ أبكر من العادة، لبستُ لأول مرة ذاك الكيمونو الأزرق والأبيض الذي تلبسه الطالبات. كان لباساً بسيطاً من القطن غير مبطنٍ مع رسم هندسي لأطفال. بكل تأكيد لم أَبْدُ أكثر أناقةً من زبونة حانةٍ تذهبُ إلى الحَمّام. لكني لم ألبس قط ثوباً يليق بجسمي كذاك.

كانت بومبكين تنتظرني في المدخل بادية القلق. كنت سأنتعل حذائي عندما نادتني غراني. تريدُ أن آتيها إلى غرفتها. قالت بومبكين متذمرةً، وقد بدا وجهها كشمعٍ يذوب:

ـ أوه، سوف أتأخر من جديد. لنتظاهر أننا لم نسمع شيئاً، وهيا بنا!

كنتُ أودُّ أن أتبع نصيحتها، لكنَّ غراني ظهرت في مربع الباب وهي تنظر إليَّ نظرة مستاءة. لم تستبقني أكثر من ربع ساعة، ولكن ذلك كان كافياً لإبكاء بومبكين. وعندما انطلقنا أخيراً، أخذتْ تحثُّ الخطى حتى وجدتُ عناءً في اللحاق بها. قالت:

ـ هذه العجوز سيئةٌ حقاً، لا تنسي أبداً أن تغمري يديك بالملح بعد أن تفركي لها رقبتها.

ـ لماذا؟

ـ لطالما قالت لي أمي:«المرضُ ينتشر بين الناس باللمس.» وأعرف أن ذلك صحيحٌ، لأن أمي لامست شيطاناً على الطريق ذات صباح فماتت. وإذا لم تُطهّري يديك فستُصبحين فجلةً قديمةً مجعدة مثل غراني.

نظراً لأني أنا و بومبكين كنا في سنٍ واحدة وفي الوضع نفسه، كان علينا بكل تأكيد أن نتكلم في معظم الأحيان كلما سنحت

WWW.REWITY.COM

الفرصة، ولكنَّ أشغالنا شغلتنا إلى درجة أننا بالكاد كنا نجد وقتاً للأكل، ثم إن بومبكين كانت تتناول طعامها قبلي بسبب أقدميتها في الأوكيَا. ورغم معرفتي بأنها سبقتني بفصل، وقد قلت ذلك، لكني لم أكن أعرف أشياء أخرى مهمةً عنها. سألتها:

ـ هل أنت من كيوتو يا بومبكين؟ هذا ما يبدو من لهجتك.

ـ لقد ولدتُ في سابّورو، وفقدتُ أمي في الخامسة، ثم أرسلني أبي إلى هنا، إلى عند عمي. وفي العام الماضي انهارت تجارته، فوجدتُ نفسي في الأوكيَا.

ـ ولماذا لا تهربين؟ يمكنك أن تعودي إلى سابّورو.

ـ لقد كان أبي ضحية لعنةٍ فمات في السنة الماضية، ولا أستطيع أن أهرب، إذ ليس لديَّ أي مكانٍ أذهب إليه.

ـ عندما ألتقي بأختي فإن بإمكانك المجيء معنا وسنذهب معاً.

نظراً للصعوبات التي كانت تلاقيها بومبكين في المدرسة، ظننت أن اقتراحي سيجعلها في أسعد حال، لكنها لم تُجب عليّ. وصلنا إلى جادة شيجو، وقطعناه بصمتٍ، ذلك الشارع الواسع الذي وجدته مزدحماً يوم وصلنا أنا وأختي مع السيد بيكو. أما الآن وفي هذا الصباح الباكر، فلم أرَ إلا شخصين أو ثلاثة يركبون الدراجات والترمواي. ما إن وصلنا إلى الجهة الأخرى منه حتى صرنا في زقاقٍ. توقفت بومبكين ـ وكانت تلك المرة الأولى منذ أن غادرنا الأوكيَا ـ قالت:

ـ كان عمي لطيفاً جداً، وإليكِ آخر كلمةٍ قالها لي قبل أن يرسلني إلى الأوكيَا: «بعض الفتيات ذكيات، وبعضهن الآخر غبيات. أنتِ فتاةٌ لطيفة ولكنكِ غبية. لن تعيشي وحيدةً في هذا العالم، وسأرسلك إلى مكانٍ سيقول لك الناس فيه ماذا تفعلين. أطيعيهم، وسيهتمون بك دائماً». فإذا أحببتِ أن تذهبي يا شيو ـ شان أنتِ حرّة، أما أنا فقد وجدتُ مكاناً أُمضي فيه حياتي. سأعمل بجدٍ ونشاط لكي يستبقوني. إني أفضّل أن ألقي بنفسي عن جُرفٍ صخري من أن أضيع الفرصة في أن أصبح جيشا مثل هاتسومومو.

سكتت بومبكين، ونظرت إلى شيءٍ ما على الأرض خلفي، ثم أضافت:

ـ أوه، يا إلهي ألا يشعرك هذا بالجوع يا شيو ـ شان؟

التفتُّ، وكنا أمام مدخل الأوكيَا. تحت الباب وعلى أحد الرفوف كان ينتصب معبد شنتو مصغّر مع قربان ـ كاتو الأرز. تساءلتُ ما إذا كانت قطعة الكاتو هذه هي التي تقصدها بومبكين، ولكن عينيها كانتا تنظران إلى الأرض. كان هناك سراخسُ وطحالبُ على طول الممر المبلط المؤدي إلى باب البيت. لم أرَ أي شيءٍ آخر، وفجأةً وقعت عيني عليه: في بداية الممر وعند حدود الشارع رأيت بقايا حبّارٍ مشوي، مفحّمٌ تماماً ومشكوكٌ في سيخ، يبيع منه باعةٌ متجولون في المساء. كانت رائحةُ الصلصة المحلاة تشكّل تعذيباً بالنسبة إليَّ، لأن الخادمات، مثلنا، لم يكنّ يأكلن إلا الأرز والخضار المتبلةَ بالخل، كذلك زبديةٌ من الحساء مرّةً كل يوم، وبعض قطع صغيرة من السمك المجفف مرتين كلَّ شهر. ومع ذلك لم أجد أيةً شهيةٍ لهذا الحبّار الملقى أرضاً، وكانت ذبابتان تحومان حوله بحرية وكأنهما تتنزهان في حديقة.

كانت بومبكين من الفتيات اللواتي يسمنَّ بسهولة بمجرد أن يأكلن قليلاً. وعندما تجوع تقرقر معدتها وكأنها بابٌ منزلق. ومع ذلك لم أصدق أنها كانت تنوي حقاً أن تأكل ذلك الحبّار. ثم نظرتُ إلى جهتي الشارع لتتأكد من أن أحداً لم يأتِ. قلتُ لها:

ـ إذا كنتِ جائعةً يا بومبكين خذي كاتو الأرز عن الرف بحق السماء، فلقد نهشت الذبابتان الحبّار!

ـ إني أقوى منهما، ثم إنه حرامٌ أن آكل كاتو الأرز، فهو قربان.

عند ذلك انحنت، وتناولت الحبّار.

لقد ترعرعتُ في مكانٍ يأكل الأطفال فيه دواباً صغيرة من باب الفضول. فأنا أقبل فكرة أني أكلت ذات يوم جرادةً عندما كنت في الرابعة أو الخامسة من عمري. أما أن أرى بومبكين مع قطعة الحبّار هذه في يدها، وبعض الحصى الصغيرة عالقةً عليها،

WWW.REWITY.COM

والذباب يدور حولها...! نفخت الحبّار لكي تطرد الذبابتين، لكنهما اكتفتا بحركةٍ صغيرة لئلا تفقدا توازنهما. قلتُ لها:

ـ لا يمكنكِ أن تأكلي من هذا يا بومبكين، فكأنك تلحسين البلاط!

ـ وما به هذا البلاط؟

ثم جثت على ركبتيها ـ لم أكن لأصدقها لو لم أرها بأم عينيَّ ـ مدّت لسانها ومررته على الأرض، فبقيتُ فاغرة الفم. وعندما نهضت، بدت هي نفسها مستغربةً هذا التصرف. مسحت لسانها براحة يدها، وبصقت مرةً أو مرتين، ثم عضّت على الحبّار وانتزعته من السيخ. لابدَّ أن الحبّار قاس، لأن بومبكين ظلت تمضغه طوال الطريق، حتى قمة الهضبة. لم تبلّعه إلا عندما وصلت إلى أمام بوابة المدرسة الخشبية. دخلتُ، كانت الحديقةُ جميلةً! ملأت الرائحةُ حلقي، إذ رأيت حراجاً أوراقها دائمة، وأشجارَ صنوبر ذات جذوعٍ متعرجة تحيط بحوضٍ للزينة تسبح فيه سرطانات الماء. ومن الجهةِ الأخرى للحوض، في الجزء الضيق، وجُدَ حجرٌ مربع تقف عليه امرأتان ترتديان كيمونوين، وتحملان مظلةً مبرنقةً لتحميهما من شمس ذلك الصباح. أما بالنسبة إلى الأبنية، فقد كنتُ أجهل فائدتها، ولكني أعرف الآن أن جزءاً صغيراً فقط من هذا المجمع كان يحوي مدرستنا. أما البناء الكبير في العمق، فكان مسرح كابورنجو؛ حيثُ تقدّم الجيشاوات في جيون مشهداً كلَّ ربيع: «رقصات العاصمة القديمة».

اتجهت بومبكين مسرعةً إلى مدخل بناءٍ خشبي طويل ظننته جناح الخادمات، ولكن تبين أنه مدرستنا. ما إن دخلته حتى عرفتُ الرائحةَ المميزةَ لورق الشاي المخمّر والمجفف على فحم الخشب. حتى اليوم ما تزال معدتي تتقلص عندما أتذكرُ تلك الرائحة كما لو أني سأدخل من جديد إلى ذلك الصف. خلعتُ حذائي ووضعته في الخزانة الأقرب إليَّ. لكنَّ بومبكين طلبتْ إليَّ أن أحمله من جديد، فقد كانت هناك قاعدةٌ مرعية تقول إنَّ من يصل أخيراً يضع حذاءَه في الأعلى. لا بدَّ أن بومبكين كانت تتسلقُ هذه الخزانات كأنها تصعد سلّماً لكي تضع حذاءها في الأعلى. وبما أني كنت في يومي الأول،

وبومبكين تمتاز عني ببعض القِدم، فقد استخدمتُ الخزانة الأعلى من خزانتها. قالت لي:

ـ انتبهي ألاّ تقفي على الأحذية الأخرى وأنت تصعدين، فإذا ما مشيت فوقها ورأتك إحدى الفتيات، فسوف تُفرك أذنك حتى الاحمرار.

بدا لي داخل المدرسة أقدمَ وأغبرَ من بيتٍ مهجور. ففي نهاية ممرٍ طويل رأيتُ مجموعةً من خمس أو ست فتيات. أحسستُ بشعورٍ قوي، وأنا أقترب منهن، أنَّ أختي ساتسو قد تكون إحداهنَّ. ولكنْ عندما نظرنَ إلينا خاب أملي كثيراً. كانت لهنَّ التسريحة نفسها ـ «الوارشينبو» للجيشاوات المتدربات ـ وقد بدَونَ أكثر انطلاقاً بالنسبة إليَّ وإلى رفيقتي.

دخلنا إلى غرفة صفٍّ تقع على نصف ارتفاع الممر، وكانت فسيحةً على الطراز الياباني التقليدي. على طول أحد جدرانها لوحةٌ كبيرة مع كلاّبات عُلِّقتْ بها لوحات خشبية صغيرة كُتِبَ اسمٌ على كلٍّ منها بخط اليد العريض وباللون الأسود. لم أمتلك وقتها أسرار القراءة والكتابة، ففي يورويدو كنت أذهبُ إلى المدرسة صباحاً، ومنذ أن أصبحتُ في كيوتو صرتُ أُمضي ساعةً بعد الظهرِ في الدراسة مع تاتي. ومع ذلك من بين تلك الأسماء كلها لم أستطع أنْ أهجئ سوى قليلٍ منها. ذهبت بومبكين إلى السبورة حاملةً لوحةً كُتبَ عليها اسمها في علبةٍ موضوعةٍ على التاتامي، ثم علّقتها على أول كلاّبٍ فارغ. بدت تلك اللوحةُ مصوَّبةً نحونا.

ثم ذهبنا إلى عدة صفوفٍ أخرى كان لبومبكين فيها دروسٌ وفعلنا الشيء عينه، فلديها أربعة دروسٍ في ذلك الصباح: شاميزن(*) ورقص وحفلة شاي وغناء ـ لونٌ من الغناء يسمى «الناغوتا». بعد ذلك غادرنا المدرسة لتناول الفطور في الأوكيّا. كانت بومبكين تشدُّ حزام كيمونوها وهي قلقةٌ من فكرة الوصول متأخرةً إلى كل درسٍ من دروسها. ولكن لحظةَ وضعنا أرجلنا في

(*) الشاميزن: آلة موسيقية يابانية شبيهة بالغيتار الغربي. م.

www.rewity.com
RAYAHEEN
WWW.REWITY.COM

أحذيتنا، اجتازت فتاةٌ أخرى من عمرنا الحديقة وشعرها طائرٌ، فأحست بومبكين ببعض الارتياح عندما رأت تلك الفتاة المتأخرة.

* * *

لعقنا زبدية الحساء، وعُدنا إلى المدرسة بأسرع ما يمكن لكي تتمكن بومبكين أن تجثوَ داخل الصف وتحمل شاميزنها. إذا كنتَ لاتعرف الشاميزن فهو آلةٌ تبدو غريبةً، وقد يسمى أحياناً الغيتار الياباني ولكنه عملياً أصغر من الغيتار بكثير. له زندٌ خشبي ضيق مع ثلاثة مساند في نهايته. وجسم الشاميزن عبارة عن صندوقٍ خشبي شدَّ عليه جلدُ قطٍ من الأعلى وكأنه طبل. يمكن فكّه ووضعه في محفظة أو في صندوق، هكذا يسهل نقله. تناولت بومبكين الشاميزن وأخذت تدوزنه وطرف لسانها ظاهرٌ بين شفتيها. للأسف لم تكن أذنها موسيقيةً كثيراً، فراحت العلامات الموسيقية تصعدُ وتنزلُ كقارب تتخاطفه الأمواج العاتية. غصّ الصف بالطالبات، كلٌ منهنَّ تحمل آلتها وقد جلسنَ على مسافاتٍ متساوية كقطع شوكولا في علبة. كانت عيني معلقةً على الباب وكلي أملٌ أن أرى ساتسو قادمةً، لكنها لم تأتِ.

بعد عدة لحظات دخلت المدرِّسة، امرأةٌ عجوز، ضئيلة الجسم، حادة الصوت، تدعى ميزومي، هكذا كنا ندعوها في حضورها، ولكنَّ هذا الاسم ميزومي قريبٌ جداً من نيزومي ويعني فأر، أما في غيابها فندعوها السيدة نيزومي، أي السيدة فأرة.

جثت السيدة فأرة على وسادةٍ أمام الصف، ولم تبذل أي جهدٍ لتبدو محببةً. انحنت الطالبات أمامها في حركةٍ واحدة، قائلاتٍ: صباح الخير، فنظرت إليهنَّ نظرةً مستاءة دون أن تنبس بكلمة. أخيراً نظرت إلى اللوحة ونادت الطالبة الأولى.

بدت تلك الفتاة معتدةً بنفسها، وبعد أن اقتربت كبجعةٍ حتى الصف الأول؛ انحنت أمام المدرِّسة وراحت تعزف. بعد دقيقةٍ أمرتها المدرسة أن تتوقف، ثم وجهت إليها طائفةً من الانتقاداتِ حول طريقتها في العزف، ثم أغلقت مروحتها بحركةٍ سريعة، وحرّكتها

باتجاه الفتاة لتصرفها. شكرتها الطالبةُ، وانحنت من جديد، ثم عادت إلى مكانها. فنادت المدرِّسة طالبةً أخرى.

استمرَّ الأمر هكذا لأكثر من ساعة عندما نادت المدرِّسة بومبكين، التي بدتْ متوترةً، وما إن بدأت العزف حتى ساءت الأمور وأمرتها السيدة فأرة أن تتوقف. أمسكت بآلتها لتعيد دوزنتها بشكلٍ صحيح، ثم بذلت بومبكين محاولةً أخرى. نظرت الطالبات إلى بعضهن البعض ولم تفهم أيٌّ منهنَّ أيةَ معزوفةٍ تنطحت بومبكين لعزفها. ضربت السيدة فأرة ضربةً قوية براحة يدها على الطاولة، ثم ضبطت الإيقاع بمروحتها المطوية لكي تساعدَ بومبكين على العزف، لكنَّ ذلك لم ينفع في شيء. كما أن السيدة فأرة علّمتها كيفية مسك الريشة، فظننتُ أنها تفتل أصابعها إصبعاً بعد الآخر لكي تُرغِمَها على مسكها بطريقةٍ صحيحة، ولكنها تراجعت أخيراً ورمت الريشةَ على التاتامي مشمئزةً، فتناولتها بومبكين وعادت إلى مكانها دامعة العينين.

وعندما وقفت الفتاة التي رأيناها تركض وشعرها متشابكٌ أمام السيدة فأرة وانحنت؛ فهمتُ لماذا كانت بومبكين تخاف كثيراً أن تكون الأخيرة.

نقّت السيدة فأرة، قائلةً لها:

ـ لا تُضيعي وقتكِ في محاولة إبداء الاحترام لي! لو لم تنامي متأخرة هذا الصباح لربما وصلتِ في الوقت المناسب وتعلّمْتِ شيئاً ما.

اعتذرت الفتاة، وبدأت العزف، لكنَّ المدرِّسة لم تسمعها، بل اكتفت بالقول:

ـ تستيقظين متأخرةً جداً في الصباح، فكيف تريدينَ أن أعلمكِ أيَّ شيءٍ كان إذا لم تُكلفي خاطركِ وتأتي في الوقت المناسب كبقية الفتيات؟ عودي إلى مكانك، لا أريد أن أراكِ.

هنا انتهى الدرس، وصحبتني بومبكين إلى السيدة فأرة، فانحنيتا أمامها، ثم قالت بومبكين:

WWW.REWITY.COM

- هل لي أن أسمح لنفسي بأن أقدمَ لكِ شيو أيتها المدرسة؟ وأن أطلبَ منكِ أن تكوني متسامحةً معها لأن مواهبها محدودة؟

لم تكن بومبكين تهينني عندما قالت ذلك، بل كانت تلكَ طريقتها في أن تبدوَ لطيفةً في تلك الفترة. ولو أن أمي مكانها لما صاغت طلبها بطريقةٍ مختلفة.

نظرت إليَّ السيدة فأرة طويلاً، ثم قالت:

- أنتِ فتاةٌ ذكية. هذا واضحٌ مباشرةً. وربما يمكنكِ أن تساعدي أختك الكبرى على التدربِ على الشاميزن.

لابدَّ أنها كانت تقصد بومبكين بقولها. ثم أضافت:

- حاولي أن تضعي اسمكِ في اللوحة في أقرب وقتٍ ممكن، صباحاً. ولا تتكلمي خلال الدروس، فلن أتسامحَ مع أية ثرثرة! وانظري أمامكِ دوماً. إذا فعلت كل هذا فسأعلمكِ العزف على الشاميزن بأفضل ما أستطيع.

بعد ذلك صَرَفَتنا.

في الممراتِ، بين الدروس كنتُ أفتحُ عينيَّ متابعةً البحثَ عن ساتسو. ولم أجدها فبدأتُ أقلقُ وقلت لنفسي إني ربما لن أراها أبداً. بدوتُ ساهمةً إلى درجةِ أن إحدى المدرّسات طلبت الصمت قبل بدء درسها، وقالت لي:

- أنتِ، هناك! ما الذي يشغلك؟

- كلُّ شيءٍ على ما يرام يا سيدتي. كل ما في الأمر إني عضضتُ شفتي دون قصدٍ.

ولأن الفتيات من حولي أخذن ينظرن إليَّ، فقد عضضت شفتي حتى أدميتها.

لحسن الحظ سارت الدروس التالية دونما عائق. في درس الرقص، على سبيل المثال، أخذت الطالبات يتحركن حركةً جماعية جميلة، ولم تجذب أيٌّ منهنَّ الانتباه إليها. لم تكن بومبكين أسوأ راقصةٍ بينهن، بل بدت جيدةً في حركتها. وكان درس الغناء قبيلَ

الظهر إشكالياً بالنسبة إليها، لأن أذنها غير موسيقية، ولكن بما أن الفتيات كنَّ يغنين غناءً جماعياً؛ فقد كان بإمكانها أن تخفيَ نشازَ صوتها بتحريكِ شفتيها كثيراً، وبالغناء بصوتٍ خافت.

في نهاية كل درس كانت تقدمني للمدرّسة. ومرةً قالت لي إحداهنَّ:

- أنتِ تعيشينَ في الأوكيّا نفسه الذي تعيش فيه بومبكين، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدتي، في أوكيّا نيتا.

كان نيتا هو اسم الشهرة لغراني والأم وتاتي.

- إذاً أنت تسكنين مع هاتسومومو - سان.

- نعم، إن السيدة هاتسومومو هي الجيشا الوحيدة في أوكيانا الآن.

- سأبذل جهدي في أن أعلمكِ الغناء، إذا ما نجحتِ في البقاء على قيد الحياة!

وانفجرت المدرّسةُ ضاحكةً كما لو أنها قالت نكتةً مضحكةً جداً، ثم صرفتنا.

5

بعد ذلك الظهر أخذتني هاتسومومو إلى مكتب التسجيل في جيون. توقعتُ شيئاً مهماً، ولكن تبين أن ذلك المكان يحوي عدة غرفٍ مظلمة فقط في الطابق الثاني من مدرستنا. كان هناك تاتاميات ومكاتب ودفاتر حسابات. ورائحة سجائر كريهة تملأ الجو. رفع أحد الموظفين عينيه نحونا عبر غمامةٍ من الدخان، وأشار إلينا أن ندخل إلى الغرفة الصغيرة في العمق. هناك، وأمام طاولةٍ مغطاة بالأوراق، جلس أضخم رجلٍ أراه في حياتي. كنت أجهل أنه سومو،

WWW.REWITY.COM

لو أنه ارتمى بكل ثقله على البناء لربما انهارت هذه المكاتب كلها على التاتاميات. لم يكن سومو جيداً لكي يغير اسمه بعدما أحيل على التقاعد كما يفعل بعضهم، ولكنه كان يحبُّ أن يتابع الناس مناداته باسمه كسومو: أوا جيومي. وبعض الجيشاوات الظريفات كنَّ ينادينه أواجي.

ما إن دخلنا حتى بدت هاتسومومو مهرَجةً، وكانت تلك أول مرةٍ أراها فيها تتصرف بهذه الصورة. قالت:

ـ أواااجي ي ـ سااا ن ن ن ن ن ن!

فوجئتُ بأنها تستطيع لفظ اسمه كاملاً دون أن ينقطع نفسها. بدت وكأنها توبخه. وعندما سمعَ صوتها أفلت قلم الرصاص من يده، وصعد خداه الضخمان نحو أذنيه، كانت تلك طريقته في الابتسام. قال:

ـ أم م م هاتسومومو ـ سان! إنكِ تزدادين جمالاً، انتبهي لنفسك!

كان صوته همساً صائحاً لأن مصارعي السومو غالباً ما يتلفونَ شريان الرغامى وهم يلقون بأنفسهم بكل ثقلهم على حنجرة خصمهم.

كان لأواجيومي وجه فرس النهر، لكنه كان بالغ الأناقة، فكيمونوه ذو أقلامٍ ناعمة، ويرتدي بنطالَ كيمونو. كان أواجيومي يضبطُ حركة المالِ في جيون لئلاّ يتكوّمَ في أي جيب. قليلٌ من هذا المال كان ينتهي إلى جيبه، ليس لأنه لم يكن شريفاً، لكن هذا ما يقتضيه النظام. ونظراً لصلاحية أواجيومي الكبيرة، فإنَّ من مصلحة أية جيشا أن يكون صديقها. كما أن مصارع السومو مشهورٌ في أنه يمضي وقتاً من غير ثيابٍ بقدر ما يمضيه لابساً ثيابه الجميلة.

تحدثت هاتسومومو مع أواجيومي لبعض الوقت، ثم قالت له إنها أتت لتسجيلي في مدرسة الجيشاوات. التفت إليَّ أواجيومي برأسه التيتاني، وما لاحظ وجودي حتى الآن تقريباً. بعد عدة لحظات، نهض وفتح إحدى الستائر الورقية لكي يرى بشكل أفضل، ثم قال:

ـ أعتقد أني لم أرَ بشكل جيد. كان عليكِ أن تقولي لي قبل ذلك إنك اصطحبت معكِ فتاة جميلة. فعيناها بلون المرآة.

ـ مرآة! المرآة ليس لها لون يا أواجي ـ سان.

ـ بالطبع بلى. للمرايا لون رمادي لمّاع. عندما تنظرين إلى مرآة فلا ترين إلا نفسك، أما أنا فإني أرى لوناً جميلاً عندما أنظر إليها.

ـ نعم! أنا لا أراها كثيرة الجمال. ذات يوم رأيت جثة انتشلت من أحد الأنهار. كان لون لسانها بلون عيني شيو.

ـ ربما كنتِ أجمل من أن تري جمال الآخرين.

فتح دفتر حسابات، ثم تناول قلم الرصاص، وقال:

ـ لنسجل هذه الفتاة. حسنٌ يا شيو، أهكذا اسمكِ؟ قولي لي اسمكِ كاملاً يا شيو، ومكان ولادتك.

ما إن سمعت كلامه حتى تصورت ساتسو ترفع عينيها إليه مرعوبة مضطربة. لابد أنها أتت إلى هنا في وقتٍ ما. فإذا كان عليّ أن أسجل اسمي، فلابد أنها سجلت اسمها أيضاً. قلت:

ـ اسم عائلتي ساكاموتو، ولدت في يورويدو، هل سمعتَ بها ياسيدي من ساتسو، أختي الكبرى؟

ظننت أن هاتسومومو ستغضب مني، ولكني استغربت تماماً سرورها من طرحي لهذا السؤال. قال أواجي:

ـ إذا كانت أكبر منكِ، فلا بد أنها سجلت، لكني لم أرها. لا أظن أنها في جيون.

فهمت لماذا ابتسمت هاتسومومو، فقد عرفت أن أواجيومي سيجيبني هكذا. ولم أشك في أنها رأت أختي، فهناك أحياء أخرى للجيشاوات في كيوتو رُغمَ معرفتي الضئيلة بهذا الشأن. إن ساتسو في إحدى هذه الأحياء، وقد قررتُ أن ألتقي بها.

* * *

عندما عدت إلى الأوكيّا كانت تاتي بانتظاري لتأخذني إلى الحمّام في آخر الشارع، فقد ذهبت إليه سابقاً، ولكنْ مع الخادمات.

www.rewity.com
KRAYAHEEN
WWW.REWITY.COM

كن يضعن عليّ منشفة وقطعة صابون صغيرة، ثم يقرفصن على الأرض المبلّطة ليغتسلن وأنا مثلهن. كانت تاتي أكثر انتباهاً، فقد قرفصت خلفي لتفرك لي ظهري، فوجئت في أنها لم تخجل من أن تلوح بثدييها إلى اليمين وإلى اليسار، بل إنها كانت تلامسني بهما من غير قصد.

بعد ذلك أعادتني إلى الأوكيَا، وألبستني كيمونو حريرياً، أول كيمونو في حياتي. كان لونه أزرق فاتحاً مع قطع من العشب عند فتحته السفلية وأزهار صفراء على الكُمَّيْن والصدر. ثم أخذتني إلى الطابق الأول، إلى غرفة هاتسومومو. وقبل أن تدخلني، نظرت إليّ نظرة قاسية: عليَّ ألا ألهي هاتسومومو بأي شكل، أو أفعل أي شيء يثير غضبها. لم أفهم معنى هذا التحذير بادئ ذي بدء. أما الآن فقد عرفت تماماً سَبَبَ قلق تاتي. عندما تستيقظ الجيشا في الصباح فقد يكون وجهها منتفخاً أو نَفَسها كريهاً كأية امرأة أخرى. لقد احتفظت بتسريحتها الجميلة من الليلة السابقة، وإلا كانت امرأة مثل الأخريات وليست جيشا، لا تصبح جيشا إلا عندما تجلس أمام مرآتها. لا أريد أن أقول إنها تبدأ تشبه الجيشا، بل تبدأ التفكير كجيشا.

ما إن صرنا في الغرفة حتى قيل لي أن أجلسَ خلف هاتسومومو على بعد خمسين سنتمتراً تقريباً لكي أرى وجهها في المرآة الصغيرة لطاولة المكياج. كانت جاثيةً ترتدي لباس حمّام قطنياً مثبتاً على الكتفين، وفي يدها نصف دزينةٍ من الفراشي من حجوم مختلفة، بعضها على شكل شبه منحرف كالمراوح، وبعضها الآخر متطاول مع حزمةٍ من الأشعار في طرفها. التفتت إليّ أخيراً وأرتني إياها، ثم قالت:

ـ هذه فراشيَّ، هل تذكرين هذا؟

أخرجت من درج الطاولة إناءً زجاجياً يحوي مستحضر مكياج لونه أبيض لامع، وحرّكته بطرف ذراعها لكي تريني إياه، ثم أضافت:

ـ هذا هو المستحضر الذي قلتُ لكِ ألا تلمسيه أبداً.

ـ لم ألمسه.

نفخت الإناء المغلق عدة نفخات، ثم قالت:

ـ لا، عملياً يبدو أنكِ لم تلمسيه.

وضعت الإناء على الطاولة، وتناولت ثلاثة أعواد من الصباغ وضعتها في راحة يدها لتريني إياها. وقالت:

ـ إنها لرسم الظّل. يمكنكِ أن تنظري إليها.

أمسكتُ أحد هذه الأعواد، وكان بحجم إصبع طفل صغير لكنه كان قاسياً وأملس كحجر، بحيث إنه لم يترك أيَّ أثرٍ على جلدي. وكان أحد طرفيه مغلفاً بورقٍ مفضض بدأ بالانفصال من فرط تحريكه.

استعادت هاتسومومو العود، ثم ناولتني قطعةً خشبية محروقة في طرفها، وقالت:

ـ إنه عودٌ جميل من الباولونيا المجفف لرسم الحاجبين، وهذا من الشمع.

تناولت قطعتين من الشمع المغطى بالورق، وناولتني إياهما لكي أراهما، ثم سألتني:

ـ برأيك، لماذا أريتكِ كل هذه الأشياء؟

ـ لكي أعرفَ كيف تستخدمين المكياج.

ـ يا الله، لا! لكي تري أنه ليس هناك من شيءٍ سحري. هذا محزنٌ لكِ لأن هذا يعني أن المكياج وحده لن يكفي ليجعل من شيو المسكينة جيشا جميلة!

التفتت هاتسومومو من جديد إلى المرآة، وكانت تدندنُ وهي تفتحُ علبة كريم أصفر شاحب مصنوع من براز العندليب ـ أمرٌ غريب ولكنه صحيح. في تلك الفترة كانت عدةُ فتياتٍ من الجيشا يستخدمن هذا المزيج ككريم للوجه لأنه يجدد الجلد. ومع ذلك، كان هذا

WWW.REWITY.COM

المستحضر غالياً جداً. وضعت منه هاتسومومو كميةً قليلة حول فمها وعينيها. انتزعت قطعةً صغيرةً من الشمع مزجتها بإصبعها لتلينها. ووضعتها على وجهها وعنقها وصدرها، ثم مسحت يديها بخرقةٍ نظيفة، وبللت إحدى الفراشي المسطحة في إناءٍ مليءٍ بالماء، ثم دورتها في إناء المكياج حتى حصلت على عجينةٍ ذات مظهر طباشيري. ثم وضعت هذا الكريم الأبيض على وجهها وعنقها دون أن تلمس عينيها ولا المنطقة المحيطة بشفتيها وأنفها. لو أنكَ رأيتَ طفلاً يقطع ورقةً يصنع منها قناعاً لأخذتَ فكرةً عن رأس هاتسومومو. ولكن هذا لم يدم طويلاً. فقد غطّست بضع فراشٍ صغيرة في مستحضرٍ أبيض، وقامت بالوصل. بدت وكأنها سقطت على رأسها على كومةٍ من دقيق الأرز. كانت تشبه شيطاناً بوجهها البيضوي الأبيض بلون الطيف، وهو ما كانته. ومع ذلك فقد خنقني الخجلُ والغيرةُ. لأني كنت أعرف أنه خلال ساعة سيتأمل الرجالُ هذا الوجه وهم في غاية الفرح. وأنا سأبقى هنا في هذا الأوكيّا بهذه السحنة، سحنة فتاةٍ تتصببُ عرقاً.

بللت هاتسومومو أعواد الصباغ واستخدمتها لتضع الأحمر على خديها. كنت قد رأيتها ممكيجةً منذ أول شهرٍ لي في الأوكيّا. لم أفوّت فرصةً في النظر إليها، ولكني لم أبدُ مزعجةً. فقد لاحظت أنها تستخدم أنواعاً متعددةً من أصبغة الخدود تنسجم مع ألوان كيمونوها، وما ظهر ذلك غريباً. ولكن بعد عدة سنوات علمتُ أن هاتسومومو كانت تستخدم صباغاً للخدود أكثر احمراراً من بقية الجيشاوات. لم أرَ أي سبب لذلك: تذكير الناس بلون الدم. ولكنَّ هاتسومومو ليست غبية، فقد عرفت كيف تبرز جمالها.

وضعت صباغ الخدود، لكنها لم تلون شفتيها وحاجبيها بعد. لم تلمس وجهها، ذاك القناع الأبيض الغريب. طلبت إليّ تاتي أن تُزين لها نقرتها. ففي اليابان الرقبة العارية مثيرةٌ جداً. إذا كان الذكر الغربي ينظرُ إلى سيقان النساء؛ فإن الياباني ينظرُ أولاً إلى نحورهنَّ ورقابهنَّ. كذلك تلبسُ الجيشاوات كيمونوهات مقوّرةً على الظهر، بحيث يُرى نتوء الفقرات الظهرية الأولى. فاليابانية التي

تُظهرُ نقرتها هي كالباريسية التي ترتدي الميني جوب. رسمتْ تاتي شكلاً يسمى «سامبون ـ آشي» ـ ثلاثُ سيقان ـ على نقرة هاتسومومو. كان ذلك مميزاً جداً، فقد أعطت انطباعاً إلى الناظر بأنه يرى الجلد العاري من خلال النقاط المنسلة من القناع الأبيض. فيما بعد، فهمتُ الأثر المثير لهذا الرسم ولكن بمعنى ما هذا كامرأةٍ تنظر بين أصابعها المتباعدة، فالجيشا تترك دائماً طرفاً من الجلد العاري عند منبت شعرها مبرزةً الجهة الاصطناعية من مكياجها، وهذا يشبه أقنعة مسرح نو. فإذا رأى الرجل الجالس إلى جانبها قناعاً فسوف يفكر أكثر بالجلد العاري الذي تحته.

نظرت هاتسومومو إلى انعكاس صورتي في المرآة وهي تغسلُ الفراشي، ثم قالت أخيراً:

ـ أعرف فيما تفكرين. أنتِ تقولين لنفسك إنكِ لن تبلغي جمالي أبداً. وأنتِ على حق في هذا التفكير.

قالت تاتي:

ـ لتعلمي، إنّ بعض الأشخاص يَرون شيو ـ شان بالغة الجمال.

ـ وبعضُ الأشخاص يُحبون رائحة السمك المتفسخ.

قالت هاتسومومو ذلك، ثم دعتنا إلى الخروج لتتمكن من ارتداء لباسها الداخلي.

خرجتُ وتاتي إلى السُفرة، فالتقينا بالسيد بيكو. لم يتغير منذ اليوم الذي انتزعني فيه أنا وساتسو من بيتنا. ولكنَّ مهمته الحقيقية ليست قائمةً على فصل الفتيات الصغيرات عن أسرهن كما فكّرتُ طوال أول أسبوعٍ لي في كيوتو، بل إنه مُلبِسٌ يأتي إلى الأوكيّا كل يوم ليساعد هاتسومومو على ارتداء كيمونوها، ذلك اللباس اللائق بها.

كان الكيمونو الذي لبسته ذاك المساء معلّقاً في خزانتها بجانب المرآة . مسّدته تاتي براحة يدها حتى بدت هاتسومومو في لباسٍ داخلي بنيّ أصهب مع رسم لأزهارٍ صفراء غامقة. ما حدث فيما بعد بدا لي غير مفهوم. الكيمونو لباسٌ غامضٌ ومحيّر بالنسبة لمن لا

WWW.REWITY.COM

يلبسونه. ولكنَّ طريقة ارتدائه منطقيةٌ جداً يكفي أن أسوقها إليكَ.

أولاً، اعلم أن المرأةَ في منزلها والجيشا لا ترتديان الكيمونو بالطريقة ذاتها. فعندما تلبسُ ربةُ منزلٍ الكيمونو، فإنها تستخدم كل أنواع الحشوات لئلا يتقوس على جسمها بطريقةٍ غير جميلة. وفي النهاية تُصبح شبيهةً بأسطوانةٍ، أو بعمودٍ خشبي على مدخل أحد المعابد. تبدأ ربة المنزل والجيشا بخلع لباس الحمّام بعد المكياج، وربط شريط حريري حول الردفين «الكوشي ماكي» - غطاء الردفين. ثم ترتديان قميصاً قصير الكُمَّيْن مُفصّلاً بحسب الجسم، ثم تضعان حشوات تشبه وسائد صغيرة، زواياها مستديرة مع أربطةٍ لتثبيتها. لم تستخدم هاتسومومو الحشوات لأنها ناعمة ورشيقة، وهي ترتدي الكيمونو منذ عدة سنوات.

حتى الآن لم تلبس إلاّ أشياءً تبقى مخبئةً تحت الكيمونو. ولكنَّ العنصر التالي، اللباس الداخلي، ليس لباساً داخلياً حقيقياً. فعندما ترقصُ على المسرح، وتمشي في الشارع؛ فإنها قد ترفعُ أسفل كيمونوها بيدها اليسرى لكي تتحرك بسهولةٍ أكثر، فيبدو لباسها الداخلي في الجزء الموجود بين الرسغين وأسفل ركبتيها. فعلى رسم اللباس الداخلي وقماشه أن يذكّرا برسوم الكيمونو وقماشه، وقبة اللباس الداخلي تتجاوزه كقبة قميص رجلٍ يرتدي بدلة. كان يترتب على تاتي، من ضمن مهام أخرى، أن تخيطَ يومياً قبةً حريرية على اللباس الداخلي الذي تنويً هاتسومومو أن تلبسه، ثم تفتقها. تلبس الجيشاوات المتدربات قباتٍ حمراء، أما هاتسومومو فقبتها بيضاء لأنها ليست متدربة.

خرجت هاتسومومو من غرفتها مرتديةً الثياب التي وصفتها، رُغمَ إمكانية رؤية لباسها الداخلي مشدوداً إلى جسمها بخيوط. وكانت ترتدي جوارب بيضاء تسمى «تابي» وتزرِّر جانباً من جهة الرسغ وتنسجم كل الانسجام مع الشكل. عملُ السيد بيكو قائمٌ على إلباسها الكيمونو. ولو أنك رأيته لعرفت مباشرةً سببَ الحاجة إلى مساعدته. فللكيمونوهات جميعها الطول نفسه مهما بلغ طول المرأة التي تلبسه، فإذا كانت قصيرةً يُطوى تحت الأوبي. شمّر السيد بيكو،

القماش حتى الخصر، ثم ثبته بخيوط دون أن يطويه. ولكي يزيل أي انتفاخ محتمل مسّد القماش، فاتخذ الكيمونو شكله الصحيح، وبدا متناسقاً ومنسجماً مع جسم هاتسومومو.

لكنَّ المهمة الأساسية للسيد بيكو، بوصفه مُلبساً، كانت تقوم على ربط الأوبي، وذلك أمرٌ أعقد مما يبدو. فالأوبي الذي ترتديه هاتسومومو يصل طوله حتى ثلاثة أمتار ونصف وعرضه حتى خمسين سنتمتراً يُلف من عظم القصّ حتى السُرة، ويعتقد الأغرار بصورةٍ عامة أن الأوبي ينعقد على الظهر كخيطٍ، وذلك خطأٌ كبير. فهناك نصف دزينة من الخيوط والمشابك الضرورية لتثبيتها في مكانها، كذلك فإن حشوات مختلفة تُعد ضروريةً لإعطاء العقدة شكلها المناسب. أمضى السيد بيكو بضع دقائق في ربط أوبي هاتسومومو، وعندما انتهى لم يكن القماش الثقيل والسميك يشكل أية طية.

في ذلك اليوم فاتني جزءٌ كبير من ذلك الطقس، فلقد عقد السيد بيكو الخيوط، وثبّت القماش بسرعةٍ جنونية كما بدا لي. وهاتسومومو تنظرُ إلى صورتها في المرآة وهي تفردُ ذراعيها. أثارت تلك الصورة غيرتي، فهي ترتدي كيمونو من البروكار البني والمذهب، وتحت خصرها أيائل بنيةٌ صهباء تمسحُ خطم بعضها البعض، وفي الخلفية نقاطٌ حمراء ومذهبة تمثل أوراقاً متساقطةً على أرض الغابة. كان الأوبي بلون الإجاص معرقاً بخيوط فضية. في تلك الآونة، كنت أجهل أن لباس هاتسومومو يجب أن يعادل في قيمته الدخل السنوي لشرطي أو لموظفٍ مبتدئ. ومع ذلك عندما يراها المرء أمام المرآة، فإنه يعتقدُ أن كل مال العالم لا يكفي ليصنع امرأة بهذا الجمال.

لم يبقَ لها إلا أن تضع اللمسات الأخيرة لمكياجها، وتضع زينةً في شعرها. عدتُ أنا وتاتي مع هاتسومومو إلى الغرفة. كانت جاثيةً أمام طاولة الزينة، ثم أخرجت علبةً مبرنقة تحوي أحمر الشفاه. لكي تضعه استخدمت فرشاةً رفيعة. وتستدعي الموضة في تلك الآونة وضع الأحمر على شفتها السفلى فقط، فتبدو أكثر انتفاخاً.

www.rewity.com
RAYAHEEN
WWW.REWITY.COM

والمكياجات البيضاء تعطي كثيراً من الإيحاءات. وإذا ما وضعت الجيشا الأحمر على فمها كله، فإن شفتيها تبدوان كشريحتين من الطون. كذلك فإن معظم الجيشاوات يفضلن الهيئة العابسة التي تذكّر ببنفسجةٍ مزهرة، أما إذا لم تملك الجيشا شفاهاً حردةً، وتلك حالةٌ نادرة، فإنها تعمد إلى إعطاء شفتيها شكلاً دائرياً. ولكن كما قلت، فقد جرت العادةُ آنذاك على تلوين الشفة السفلى فقط، وهذا ما فعلته هاتسومومو.

تناولت عودَ الباولونيا الذي أرتني إياه منذ قليل، ثم أشعلته بعود ثقاب. وبعد أن احترق لعدة ثوانٍ نفختُه، ثم بردّت طرفه بإصبعيها. التفتت إلى مرآتها ورسمت حاجبيها بفحم الخشب: خطان مائلان بلونٍ رمادي ناعم. ثم ذهبت لتختار من إحدى الخزائن زينات لشعرها، فاختارت إبرةً في طرفها لآلئُ وزينةً من حراشف السلحفاة. وعندما ثبّتتها في شعرها، وضعت بضع قطراتٍ من العطر في أسفل جيدها على الجلد العاري، ثم دسّت آنية العطر في أوبيها، فقد تكون بحاجةٍ إليه. كما أنها وضعت منديلاً في كمها الأيمن. التفتت ونظرت إليّ وابتسمت تلك الابتسامة الغامضة التي رأيتها من قبل. حتى تاتي تنهدت: إنَّ هاتسومومو في غاية الجمال.

6

مهما كان رأينا في هاتسومومو، فهي إمبراطورة في الأوكيا؛ كنا جميعاً نعيش من دخلها. ولكونها إمبراطورةً، فهي لا تحب أن ترى قصرها مطفأً وخدمها نائمين عندما تعود في المساء. كذلك عندما تعود متعتعةً من السُكر، فإنها تحتاج إلى أحدٍ ما ليفكّ لها جواربها. وعندما تكون جائعةً فهي بكل تأكيد لا تُحضر ما ستأكله ـ كانت «الأوميبوشي أوشازوكي» مثلاً وجبتها المفضلة في تلك الحالة، وهي بقايا أرز وإجاص متبلٍ بالخل يوضع عليه الشاي ـ

الساخن. لم تكن تلك عادةً خاصة في أوكيانا، «فالشرانق» ـ تلميذات الجيشا ـ عليهنَّ أن ينتظرن كبارهنَّ وينحنين أمامهن عندما يرجعن في المساء. ومنذ أن بدأت دراستي كجيشا؛ أصبحتُ أصغر شرنقةً في الأوكيا، أما بومبكين والخادمتان العجوزان؛ فإنهن ينمن باكراً جداً. في منتصف الليل ينمن بعمقٍ على فوتوناتهن على بعد مترٍ من المدخل. أما أنا فيجب عليَّ أن أبقى جاثيةً أمام الباب نصف نائمة حتى الساعة الثانية صباحاً أحياناً. أما غراني التي تقع غرفتها بجانب المدخل، فتنام ونور غرفتها مضاءٌ والباب مواربٌ.

ذلك المساء، عندما رأيت خيطاً من النور يجتاز فوتوني، عادتني ذكرى: ذات يوم في يورويدو، قبل أن ينتزعونا من بيتنا أنا وأختي، كنتُ قد ألقيتُ نظرةً على الغرفة الداخلية لكي أرى أمي النائمة. وقد خاط أبي الشباكَ مع الستائر الورقية لكي يحمي أمي من الشمس بصورةٍ أفضل. بدا لي ذلك محزناً، وفتحتُ إحدى النوافذ ودخل شعاع الشمس مائلاً على فوتون أمي وأضاء وجهها الشاحب بعظامه البارزة. والآن، بعد أن رأيت ذلك النور الأصفر على فوتوني، رحتُ أتساءل ما إذا كانت أمي ما تزال على قيد الحياة. بكل تأكيد، لو أنها ماتت لشعرتُ بذلك، لأني نسخةٌ كاملةٌ عنها. لكني لم أستشعر أي شيءٍ لا في هذا الاتجاه ولا في ذاك.

ذات مساءٍ بارد، قرب نهاية الخريف جلستُ بجانب الجدار وسمعتُ الباب الخارجي ينزلق، ثم ينفتح. ستغضبُ هاتسومومو إذا ما رأتني نائمةً. لذلك سعيتُ إلى أن أبقى يقظةً. ولكنْ يا للمفاجأة! فقد دخل من الباب رجلٌ يرتدي سترةَ عاملٍ تنغلق على ردفيه، وبنطالَ فلاحٍ، ولم يكن يُشبه العاملَ ولا الفلاح. كان شعره مزيتاً ومسرَّحاً إلى الخلف جرياً على موضة تلك الأيام. ويرتدي عقداً رفيعاً، مما أعطاه هيئة مثقفٍ. انحنى عليَّ وأمسك رأسي بين يديه لينظر إليَّ ثم قال بصوت خافت:

ـ أنتِ جميلةٌ جداً، ما اسمكِ؟

كنت متأكدةً من أنه عامل، ولكني استغربتُ قدومه في أواخر الليل. خفتُ أن أكلمه، لكني أفلحتُ في أن أقول له اسمي. ثم بلل

WWW.REWITY.COM

إصبعه بطرف لسانه ووضعه على خدي لينتزع شعرة من جفني على ما يبدو. سألني:

ـ أما تزال يوكو هنا؟

يوكو هي المرأة الشابة التي تمضي فترات بعد الظهر والأماسي في غرفة الخادمات. في ذلك العهد، كانت الأوكيّات وبيوتات الشاي مربوطة فيما بينها بشبكة هاتفية خاصة. وربما كانت يوكو هي الشخص الأكثر انشغالاً في أوكيّانا. تتكلم على الهاتف وتأخذ مواعيد هاتسومومو، وقد تدعى أحياناً إلى ولائم وحفلات استقبال ستُقام بعد ستة أشهر أو عام. بصورة عامة، لم يكن برنامج هاتسومومو ينتهي قبل الصباح. وهكذا، في المساء، تستقبل يوكو اتصالات بيوتات الشاي التي يتمنى زبائنها أن يروا هاتسومومو إذا سمح وقتها بذلك. ولكن ذاك المساء لم يرن الهاتف كثيراً، ولا بدّ أن يوكو قد نامت مثلي. لم ينتظر الرجل جوابي، بل أشار إليّ أن أصمت، ثم سار في الممر المؤدي إلى جناح الخادمات.

سمعتُ يوكو تعتذر ـ فقد كانت نائمة، ثم تكلمت طويلاً بالهاتف، لا بدّ أنها تكلمت مع كثير من بيوتات الشاي قبل أن تعثر على هاتسومومو وتترك لها الرسالة التالية: ممثل الكابوكي أونوي شيكان كان في المدينة. لم أعرف ما إذا كان ذلك شيفرة وأن أونوي شيكان ليس له وجود.

فعلت يوكو ذلك دون أن تقلق لوجود رجل وحيداً في جناح الخادمات. قررتُ ألا أبوح بذلك لأحد. وكان ذلك حدساً جيداً، لأن هاتسومومو ظهرت بعد عشرين دقيقة، ووقفت في المدخل، وقالت لي:

ـ لم أقسُ عليك كثيراً حتى الآن. ولكن إذا سوّلت لكِ نفسك وتكلمتِ لأيٍّ أحد أن رجلاً أتى إلى جناح الخادمات، أو أني عدتُ قبل نهاية الليل، فستندمين كثيراً!

كانت هاتسومومو قد انحنت عليّ وهي تكلمني. فَتَّشَتْ في كمّها وأخرجَتْ شيئاً. رُغمَ الظلام الدامس في المدخل، فقد رأيتُ أنه

ساعديها مُحْمَرَّان. ذهبتُ إلى جناح الخادمات وأغلقت الباب خلفها. سمعتُ حديثاً قصيراً بصوت خافت، ثم غاص الأوكيّا من جديد في الصمت. وبين الفينة والأخرى كنت أسمع أنيناً أو همهمة خفيفة، ولم أدرك حقاً ما يفعلان في تلك الغرفة، ولكن مرت في خاطري صورة أختي وهي ترفع ثوب الحمام لكي يتمكّن الفتى سوجي مداعبة نهديها. شعرت بالفضول مشوباً بالاشمئزاز، فلم أذهب لرؤية ما يحدث حتى لو أني تمكّنتُ من ذلك.

* * *

مرة في الأسبوع تقريباً، كانت هاتسومومو تأتي بعشيقها إلى الأوكيّا، وكان طباخاً في مطعم صغير في الحي، وتنفرد به في غرفة في جناح الخادمات. وقد يحدث أن يلتقيا في مكان آخر في أوقات أخرى، لأنه غالباً ما كان يُطلب إلى يوكو أن تنقل رسائل أفاجاً بمحتوياتها. جميع الخادمات يعرفن ما تفعله هاتسومومو. وبما أن أحداً لا يخبر الأم أو غراني أو حتى تاتي، فذلك له مدلوله: لهاتسومومو سلطة علينا جميعاً. طبعاً ستعاني من بعض المشكلات إذا ما افتضح أمرها، ومع ذلك فهي تأتي بعشيقها إلى الأوكيّا، مما كان يؤزم المشكلة. وهو لا يدفع لها أجراً، والأدهى من هذا أنه يمنعها من الذهاب إلى الحفلات التي تنظمها بيوتات الشاي وتستطيع أن تكسب منها. ومن ناحية أخرى، فإن أي رجل غني ينوي أن يقيم علاقة طويلة الأمد معها، ما يعني كثيراً من المال، ويعلم بأنها تعاشر طباخاً في مطعم صغير، سرعان ما سيغيّر رأيه.

ذات مساء، وأثناء عودتي بعد تناول كأس من الماء من البئر الموجودة في الباحة، سمعتُ الباب الخارجي ينفتح، ثم ينصفق بقوة، وسمعتُ أحدهم يقول بصوت أجش:

ـ ستوقظين الناس جميعاً يا هاتسومومو ـ سان!

ما عرفتُ حقاً لماذا تخاطر هاتسومومو وتأتي به إلى الأوكيّا، مع أني أخمّن أن ذلك كان يثيرها أكثر. ولكنها تحرص عادةً على ألا

WWW.REWITY.COM

تحدث ضجة. سارعتُ إلى الجثو، وبعد لحظات مشت في الممر وفي يدها علبتان ملفوفتان بورق الحرير، ثم ظهرت جيشا أخرى، وهي طويلة القامة، لأنها انحنت لتدخل من الباب المنخفض أصلاً. انتصبت الغريبة ونظرت إليّ. لم تكن جميلة قَطُّ. ففمها بالغ الكبر في وجهها المتطاول. قالت هاتسومومو:

ـ هذه غبيتنا الصغيرة. الأصغر. أتصور أن لها اسماً، ولكن يمكنكِ أن تناديها «الغبية الصغيرة».

قالت الأخرى:

ـ أيتها الغبية الصغيرة، ليتكِ تأتينا بما نشربه.

عرفت الصوت الأجش الذي كنت قد سمعته عند الباب. لم يكن إذاً صوت صديق هاتسومومو.

كانت هاتسومومو تحب أن تشرب «الأماكوشي» وهو ساكي حلو وخفيف، ولكنه لا يُصْنَع إلا في الشتاء، ولم يعد لدينا منه، فقدّمتُ إليهما البيرة. اقتربت وصديقتها من الباحة. مشتا في الممر الطيني وكانتا ثملتين. بدت قدما الصديقة كبيرتين على القبقاب الذي أعارتها إياه هاتسومومو. لم تستطع أن تنتقل خطوة دون أن تنفجر ضاحكة. وضعت هاتسومومو العلبتين على منصة تحاذي جانباً من البيت، وراحتْ تهمّ بفتحهما عندما وصلتُ حاملةً البيرة، فقالت:

ـ لا رغبة لي في البيرة!

ثم انحنت، وسكبت كأسي البيرة على الأرض.

قالت صديقتها:

ـ كنت سأشربها. لمَ صببتِ كأسي؟.

ـ يا لكِ من قوية يا كورين! لقد شربتِ ما فيه الكفاية. انظري ماذا في الداخل. ستطيرين من الفرح عندما تعرفين!

فكّت هاتسومومو خيوط أول علبة، وأخرجت كيمونو رائعاً بلون أخضر مغبرّ مع رسوم لأوراق عنب حمراء. إنه من الحرير الفاخر، لكنه خفيف جداً على هذه البرودة الخريفية. ألفته كورين

في غاية الجمال بحيث إنها اختنقت بلعابها دهشةً وإعجاباً، مما جعلهما تغرقان في الضحك من جديد. أردتُ أن أنحني احتراماً وأستأذن، لكن هاتسومومو قالت:

ـ لا تذهبي أيتها الغبية الصغيرة!

التفتت إلى صديقتها وقالت:

ـ آن الأوان لنتسلّى قليلاً يا كورين ـ سان، احزري لمن هذا الكيمونو!

سعلت كورين، وبعد أن أفلحت في الكلام، قالت:

ـ كم أودّ أن يكون لي!

ـ إنه ليس لكِ، بل هو للجيشا التي نمقُتُها أشدّ المقت.

ـ أوه... إنكِ عبقرية يا هاتسومومو! ولكن كيف فعلتِ لتحصلي على كيمونو ساتوكا؟

ـ إني لا أتكلم عن ساتوكا...: بل عن الآنسة اكتمال!

ـ من هذه؟

ـ الآنسة:«أنا ـ أفضل ـ منكِ بكثير». تلك هي!

بعد صمت طويل قالت كورين مستغربةً:

ـ مامها! يا إلهي، إنه كيمونو مامها، ولم أعرفه! ولكن كيف فعلتِ لسرقته؟

ـ منذ يومين أو ثلاثة، كنتُ قد نسيت أشيائي في مسرح كابورنجو حيث نتدرّب، وعندما ذهبتُ لأخذها؛ تصورتُ أني سمعتُ أنيناً تحت الدرج، فقلت لنفسي:«لا، هذا غير ممكن! سيكون الأمر مضحكاً جداً!». نزلتُ على رؤوس أصابعي، وأشعلت النور، احزري من رأيت هناك كحبتي أرز ملتصقتين ببعضهما البعض؟

ـ لا يمكنني أن أصدّق، مامها؟

ـ لا تتحامقي! إنها أرفع من هذا بكثير. لقد رأيتُ خادمتها مع الحارس الليلي. وكنتُ أعرف أنها تفعل أيَّ شيء لئلا أتكلم. لذا

WWW.REWITY.COM

ذهبتُ إليها بعد ذلك بقليل، وقلتُ لها إني أريد أحد كيمونوهات مامها. وعندما عرفت أيُها أقصد، أخذت تبكي.

ـ وتلك العلبة، ماذا تحوي؟

ـ تلك العلبة تحوي كيمونو، قلت للفتاة أن تشتريه من مالها الخاص، وهو الآن لي.

ـ من مالها الخاص! أية خادمة لديها مال لتشتري كيمونو؟

ـ لا أريد أن أعرف كيف تدبّرت أمرها. على أية حال، ستذهب الغبية الصغيرة لتضعهما في المستودع.

سارعتُ إلى القول:

ـ ليس لي الحق في الدخول إلى المستودع يا هاتسومومو ـ سان.

ـ إذا أردتِ أن تعرفي أين هي أختكِ، فلا تجعليني أكرر كلامي مرتين. لديّ مشاريع لكِ. وبعد ذلك سيكون لكِ الحق في أن تسأليني سؤالاً وسأردّ عليه.

لم أصدّقها. ومع ذلك فهي قادرة على أن تجعل حياتي جحيماً باستحضار خيالاتها الشيطانية. اضطررتُ لطاعتها، ولم يكن لديّ من خيار.

وضعت الكيمونو الملفوف بالحرير على ذراعيّ، ورافقتني حتى المستودع في الباحة. شغّلت قاطعاً صغيراً بحركة سريعة. رأيتُ رفوفاً تكدّست عليها شراشف ووسائد. كما رأيت عدة صناديق مغلقة بالمفتاح وفوتونات. أمسكت بي من ذراعي، وأشارت إلى سلم على جدار خارجي، ثم قالت:

ـ الكيمونوهات في الأعلى.

ما إن وصلتُ إلى الأعلى، حتى فتحتُ باباً جراراً. تحت السقف لم يكن هناك من رفوف كما في الطابق الأرضي. وجدتُ علباً مبرنقةً، مكدّسة على طول الجدار حتى السقف، مكوّنة جدارين بالكاد يمكن المرور بينهما. عند طرفي غرفة المؤونة هناك فتحتان ـ

للتهوية مع ألواح ناعمة. والإنارة كانت أقوى من الطابق الأرضي بكثير. كما إني تمكنتُ من قراءة الأحرف السوداء المحفورة على مقدمة كل علبة:«كاتا ـ كومون ـ رو» ـ رسوم للمرسام، شفّ من الحرير، نسيج ظاهر؛ و«كيرومونتسوكي، أوازي» ـ «كيمونو تقليدي مع شعار وبطانات». لم أفلح في فك رموز هذه الطلاسم كلها، ولكني نجحتُ في إيجاد العلبة التي تحمل اسم هاتسومومو. كانت موضوعة في الأعلى، وقد عانيتُ في إنزالها، ولكني استطعتُ أخيراً أن أضع الكيمونو فيها فوق الكيمونوهات الأخرى الملفوفة بورق الحرير. أعدتُ العلبة إلى مكانها. ومن باب الفضول كنتُ أرفع أحياناً أغطية العلب الأخرى قليلاً لأرى ما في داخلها، وكنت أرى ما يقارب الخمسة عشر كيمونو في كل علبة. ونظراً لأهمية المخزون فهمت لماذا يتملّك غراني رُهَابُ الحريق. لا بدّ أن مجموعة الكيمونوهات هذه تعادل ضعف قيمة الكيمونوهات الموجودة في سنزورو ويوروبيدو مجتمعين. وعلمت فيما بعد أن الكيمونوهات الثمينة مخزّنة في مكان آخر، وهي مخصّصة للجيشاوات المتدربات. بما أن هاتسومومو لم تعد تلبسها، فقد وضعت في صندوق في البنك. وسوف يتمّ إخراجها عندما تدعو الحاجة.

عندما عدتُ إلى الباحة كانت هاتسومومو قد صعدت إلى غرفتها لتحضر حجراً للتحبير وعصا حبر وريشة للكتابة. ربما أرادت أن تكتب كلمةً، ثم تزلقها في كُمّ كيمونوها قبل أن تطويه. وضعتْ قليلاً من ماء البئر على حجر الكتابة، وهي جالسة على الحاجز، وغطست عصا الحبر في الماء. وعندما أصبح الحبر أسود كفايةً، غطست ريشة فيه ومرّرت طرفها على الحجر، لكي تمتص الريشة الحبر كله، ولئلا يقطر الحبر؛ وضعت الريشة في يدها ومررت يدها على الكيمونو الجميل، ثم قالت لي:

ـ تدرّبي على الخط يا شيو الصغيرة.

بدا كيمونو مامها تحفةً فنية، وهي سيدةٌ لا أعرف عنها كل شيء آنذاك، مع رسم رائع لداليةٍ عذراء، يمتدُ من الفتحة السفلية وحتى الخصر. كانَ رسماً بخيوطٍ لمّاعة مجدولةٍ ومخيطةٍ على

WWW.REWITY.COM

القماش. بدت لي تلك الدالية حقيقيةً لدرجة أني ظننتُ أنه بالإمكان فصلها عن القماش كما يُنتزع العشب من التربة. بدت الأوراق وقد فقدت ألوانها، وانكمشت قليلاً، كأوراق الخريف، بل إنها بدت مصفرّةً.

قلتُ:

ـ لا أستطيع يا هاتسومومو ـ سان.

قالت صديقتها:

ـ يا للحزن، يا قلبي الصغير! لأنكِ إذا جعلتِ هاتسومومو تكرر ما قالته لكِ، فلن تعرفي طريقاً لأختك.

ـ يا لها من عنيدة يا كورين! إنَّ شيو تعرفُ جيداً أنه يجب عليها أن تطيعني. اكتبي أي شيءٍ على القماش أيتها الغبية الصغيرة. اكتبي ما تريدين، فالأمر سيان عندي.

بدت كورين مستثارةً، حتى إنها في اللحظة التي مسَّت فيها الريشة الكيمونو، صرخت صرخةً أيقظت إحدى الخادمات العجائز، فأطلَّتْ برأسها إلى الباحة وقطعةٌ من القماش فوقه، وهي غائصةٌ في قميص نومها. ضربت هاتسومومو الأرض بقدمها، وقامت بحركةٍ مباغته إلى الأمام كقط، فكانت كافيةً لطردِ الخادمة التي عادت إلى فوتونها. يبدو أن الخطوط القليلة الحائرة التي لطختُ بها الحرير الأخضر الشاحب لم ترضِ كورين. كذلك أشارت إليَّ هاتسومومو أن ألطِّخ الكيمونو وماذا أكتب. ما كتبته كان بلا معنى، فهاتسومومو تتفننُ على طريقتها. وعندما انتهيت، أعادت الكيمونو إلى ورقته الحريرية، وعقدت الخيوط حوله. رافقتُ الجيشاوين إلى الباب. لبستا زورييهما المبرنقين، وفي لحظة الخروج طلبت إليَّ هاتسومومو أن آتي، فقلتُ لها:

ـ إذا خرجتُ من الأوكيًا بلا إذن يا هاتسومومو ـ سان، فسوف تغضب مني الأم.

ـ سوف أعطيك الإذن. يجب أن نُعيد هذا الكيمونو إلى صاحبته أليس كذلك؟ وأنتِ لا تنوين بطبيعة الحال أن تجعليني أنتظر.

لم أملك خياراً. لبست حذائي وتبعتها في الزقاق، ثم في الشارع المحاذي لنهر شيراكاوا الصغير. في تلك الآونة كانت أزقة جيون وشوارعها مبلطةً بحجارة جميلة جداً. مشينا مسافة خمسمئة متر تحت ضوء القمر بجانب أشجار الكرز الباكية التي كانت أغصانها تلامس مياه النهر اللامعة تحت ضوء القمر، ثم قطعنا جسراً خشبياً محدّباً يؤدي إلى جزء من جيون لم أكن أعرفه. كانت حافة النهر ـ من الحجارة مغطاة بالطحالب الخضراء. على طول الضفة، خلف الأوكيّات وبيوتات الشاي المتلاصقة ـ تُشكل جداراً طويلاً. وستائر من القصب ترسم حزوزاً على ضوء النوافذ الأصفر. كما فكرت بفجلة صفراء مغطسة قطّعتها الطباخةُ إلى شرائح في ذلك اليوم. سمعتُ ضحكات رجال وجيشاوات. لابدَّ أنهم في غاية الانبساط في أحد بيوتات الشاي، لأنهم يضحكون ضحكاً يزداد قوةً. توقف الضحك ولم نعد نسمع شيئاً إلاّ الصوت الكريستالي لشاميزن في بيتٍ آخر. على ما يبدو، يمضي بعضهم أوقاتاً سعيدة. تساءلتُ ما إذا كانت ساتسو بينهم، رُغمَ أن أواجيومي قال لي في مكتب التسجيل إنها ليست في جيون.

توقفت كورين وهاتسومومو أمام أحد الأبواب الخشبية، ثم قالت لي الثانية:

ـ ستصعدين الدرج وتعطين الكيمونو للخادمة. وإذا فتحت لكِ السيدة اكتمال بنفسها، فاعْطيها إياه، ولا تقولي شيئاً، اعْطِيها إياه وحسب. وسنبقى هنا ننتظرك.

وضعت الكيمونو بين ذراعيَّ، وفتحت كورين الباب السّحاب، وبدت في الظلمة درجات خشبية. خفتُ حتى إني توقفتُ في وسط الدرج، فبادرتني كورين بصوتٍ خافت:

ـ تابعي أيتها الفتاة الصغيرة، فلن يأكلك أحد إلا إذا رجعت حاملةً الكيمونو. في تلك الحالة فقط يمكن أن نأكلك، أليس كذلك ياهاتسومومو ـ سان؟

أطلقت هاتسومومو تنهيدةً بمثابة الجواب. ورَفَّت كورين

WWW.REWITY.COM

عينيها في الظلمة محاولةً أن تراني. وكانت هاتسومومو التي لاتصل إلا إلى كتفها تعضُ ظفرها دون أن تعيرني أي اهتمام. حتى في تلك اللحظة التي كنت أرتعش فيها خوفاً أسرني جمالها. ربما ظهرت أعنف من عنكبوت، لكنها بدت في ضوء القمر وهي تعض ظفرها أجمل من جيشاواتٍ يبتسمن لعدسة مصور. كان الفارق بينها وبين صديقتها كورين كالفارق بين حصاةٍ وحجرٍ كريم. لم تكن كورين مرتاحةً في تلك التسريحة التقليدية والزينات المتعددة. وبدا كيمونوها يزعجها في الحركة، في حين أن كيمونو هاتسومومو كان بمثابة جلدٍ ثان لها.

عندما وصلت إلى السفرة في أعلى الدرج، جثوتُ في الظلام وقلتُ:

ـ هل من أحد هنا؟

انتظرت. لم أسمع شيئاً.

قالت كورين:

ـ نادي بصوتٍ أقوى، فهنّ لا ينتظرن تشريفك.

ناديت من جديد:

ـ هل من أحد هنا؟

أجابني صوت:

ـ انتظري لحظة!

انفتح بابٌ سحَاب بعد عدة ثوانٍ. كانت الفتاة الجاثية من الناحية الأخرى لا تقلّ عمراً عن أختي ساتسو، وكانت بنحول عصفور وحيويته. ناولتها الكيمونو في ورقته الحريرية. بدت مفاجأة ومذهولة في آنٍ معاً. تناولت الكيمونو مني على عجل. ثم سمعتُ صوتاً يسأل من الداخل:

ـ من هذا يا أسامي ـ سان؟

من خلال الباب المفتوح، رأيتُ مصباحاً من الورق موضوعاً ـ

على طاولة صغيرة قديمة بجانب فوتون نظيفٍ جداً، للجيشا مامها، لأن الشرشف كان منشّى، والغطاء من الحرير، والوسادة وسادة جيشا أو «تاكاماكورا». والتاكاماكورا لا تشبه حقيقةً الوسادة، بل مقعداً مع حامل محشوّ من أجل الرقبة. وتلك الطريقة الوحيدة للجيشا لكي تبقى تسريحتها سليمةً وهي نائمة.

لم تجب الخادمة على السؤال، بل فتحت الورقة الحريرية التي تغلّف الكيمونو بطريقة سرية وأمالته إلى الضوء، وعندما رأت لطخات الحبر شهقت، ثم وضعت يدها على فمها، واغرورقت عيناها بالدموع.

عاد الصوت يسأل:

ـ من بالباب يا أسامي ـ سان؟

ـ لا أحد يا آنسة.

جفّفت دموعها بِكُمّها. أحسستُ بالشفقة عليها. وعندما نهضت لتغلق الباب لمحت سيدتها للحظة، وسرعان ما فهمتُ لماذا تدعوها هاتسومومو «الآنسة اكتمال». فوجهها بيضوي الشكل تماماً كوجه لعبة، وبشرتها ناعمة نعومة قطعة من البورسلين حتى من دون مكياج. خطَتْ مامها عدة خطوات نحو الباب وحاولت النظر إلى الدرج، ثم اختفت لأن الخادمة أغلقت الباب.

* * *

في اليوم التالي وجدتُ غراني والأم وتاتي يتشاورن في صالون الطابق الأرضي. عرفت أنهن يتكلمن عن الكيمونو. وما إن أتت هاتسومومو حتى ذهبت إحدى الخادمات لتبلغ الأم التي سرعان ما نزلت وأوقفت الجيشا التي كانت تتأهب لصعود الدرج. قالت لها:

ـ لقد زارتنا مامها وخادمتها هذا الصباح.

ـ آه أيتها الأم، أعرف عما ستتكلمين، عن الكيمونو! إني حقاً آسفة. لقد حاولتُ أن أمنع شيو من وضع الحبر عليه ولكن كان

WWW.REWITY.COM

الأوان قد فات. لا بدّ أنها ظنت أنه لي! لطالما كرهتني تلك الصغيرة. لست أدري لماذا أتلفت كيمونو بهذا الجمال، لتجرحني فقط!

خرجت تاتي إلى الممر وهي تعرج، ثم صرخت بها:

ـ ماتا ماشيتا!

ما يعني: «لقد انتظرناكِ»! لم أفهم ما تقصده تاتي بذلك. على أية حال، كانت ملاحظة في مكانها: تلك هي العبارة التي يرددها الجمهور عندما يدخل ممثل إلى مسرح الكابوكي.

ـ أتثبتين أني مسؤولة عن هذا الأمر يا تاتي؟ ولِمَ سأفعل أمراً كهذا؟

ـ الجميع يعرفون أنكِ تكرهين مامها. فأنتِ لا تتحملين النساء اللواتي ينجحن أكثر منكِ.

ـ هل يعني هذا أنه يجب عليّ أن أبجّلكِ لأنكِ معاقة؟

تدخلت الأم قائلةً:

ـ هذا يكفي يا هاتسومومو! والآن اسمعيني: لا تظني أننا غبيات إلى حدّ تصديق أكذوبتك. هذا موقف غير مقبول، حتى من ناحيتك. إني أكنّ لمامها احتراماً كبيراً، ولا أريد أن يتكرر هذا العمل. أما بالنسبة إلى الكيمونو فيجب أن يعوضه أحدٌ ما. لا أعرف ما حدث بالأمس، لكني لا أشك في هوية من قام بالإمساك بالريشة. لقد رأت الخادمةُ الصغيرةَ تكتب عليه، فعلى الصغيرة أن تدفع.

عند ذلك وضعت غليونها في فمها. خرجت غراني من الصالون ونادت إحدى الخادمات وطلبت إليها أن تحضر عصا من البامبو.

قالت تاتي:

ـ على شيو من الديون ما يكفيها، ولست أدري لماذا يجب أن تدفع ديون هاتسومومو أيضاً!

قالت غراني:

ـ انتهى الحديث! يجب تأديب هذه الصغيرة وإرغامها على دفع ثمن الكيمونو. أين عصا البامبو؟

قالت تاتي:

ـ سوف أؤدبها بنفسي. لا أريد أن تلتهب مفاصلك من جديد ياغراني. تعالي يا شيو!

انتظرت تاتي حتى أتت الخادمة بالعصا، ثم أخذتني إلى الباحة. كانت في غاية الغضب حتى بدا منخراها متباعدين، وحدقتاها كقبضتين صغيرتين. منذ قدومي إلى الأوكيّا حرصت على ألا أقترف ما يستوجب العقوبة. أحسست بالحر فجأةً. نظرت إلى الحجارة التي كنتُ أمشي عليها، زاغ بصري فجأةً. ولكن بدلاً من أن تضربني تاتي، فقد أسندت العصا إلى الجدار، ثم انحنت عليّ وسألتني بصوت ناعم:

ـ ماذا فعلتِ لهاتسومومو؟ إنها تحاول أن تدمّركِ. لا بدّ أن هناك سبباً، فما هو؟

ـ إنها تعاملني هكذا منذ وصولي إلى الأوكيّا. لست أدري حقاً ما فعلتُ لها.

ـ ربما عاملتها غراني كغبية، ولكنّ هاتسومومو ليست غبية، صدّقيني. إذا أرادت أن تهدم ما تفعلين فستستطيع. مهما فعلتِ من أمر يغضبها فلا تعودي إلى ذلك.

ـ لن أفعل شيئاً يا تاتي، أعدك.

ـ لا تأمني لهاتسومومو أبداً، حتى لو عرضت عليكِ مساعدة. ها قد جعلتكِ مَدينةً بهذا المبلغ من المال، حتى إنكِ لن تسدّديه أبداً.

ـ لا أفهم... مامعنى مدينة؟

ـ لقد عملت لكِ هاتسومومو مقلباً مع هذا الكيمونو، ألا تتصورين ما سيكلفكِ ذلك؟

ـ ولكن كيف سأدفع؟

WWW.REWITY.COM

ـ عندما ستبدئين عملكِ كجيشا ستسدّدين ثمن الكيمونو مع الديون الأخرى: أثمان وجباتك، دروسك، طبابتك إذا ما مرضتِ. أنتِ من سيدفع كل هذا. برأيكِ، لماذا تُمضي الأم معظم وقتها في كتابة الأرقام في دفترها؟ كما إن عليكِ أن تدفعي المال الذي دفعناه للحصول عليكِ.

لطالما فكرتُ بذلك منذ قدومي إلى جيون. قلتُ لنفسي لا بدّ أن بعض البنّات قد دُفعت قبل أن نُنتزع، أنا وساتسو، من بيتنا. تذكرت ذلك الحديث الذي دار بين أبي والسيد تاناكا. ثم قالت السيدة بوجوت إن ساتسو وأنا يمكن أن نكون «مناسبتين». تساءلتُ ما إذا كان السيد تاناكا قد كسب بعض المال وهو يساعد أبي على بيعنا، وكم كلّفْنا. ولكني لم أتصوّر قَطُّ أني سأقوم بنفسي بدفع ذلك المبلغ.

ـ لن تستطيعي دفع هذا المبلغ كله إلا بعد أن تشتغلي كجيشا. ولن تستطيعي دفع ثمن الكيمونو إذا ما خسرتِ عملكِ مثلي. أترين مستقبلكِ؟

في تلك اللحظة كان مستقبلي لم يعد يهمني .

ـ إذا أردتِ أن تفسدي عملكِ في جيون فثمة عشرات الطرق لذلك. يمكنكِ أن تحاولي الهرب. إذا حاولتِ ذلك فستنظر إليكِ الأم على أنكِ استثمار سيء. إنها لن تخسر يناً واحداً على فتاة يمكنها أن تختفي في أية لحظة. وهذا يعني إيقاف دروسك مباشرةً ، وبدون الإعداد لن تصبحي جيشا أبداً. وتصبحين غير مرغوبة في عيني مدرساتك اللائي يكففن عن الاهتمام بك. وقد تصبحين فتاةً ذات جسم مشوه مثلي. لم أكن قبيحة عندما اشترتني غراني من أهلي، بل أصبحتُ كذلك بعد أن كبرت، وبسبب ذلك أخذت غراني تكرهني. ذات يوم، ضربتني بشدة لذنب اقترفته فكسرت لي وركي. منذ تلك اللحظة لم أعد جيشا. لذلك سوفَ أضربكِ بالعصا بنفسي، ولا أريد أن ترفع غراني يدها عليكِ.

قادتني إلى الرواق وبطحتني على بطني. لم أهتم كثيراً بكونها كانت تضربتني أم لا، بل رحتُ أفكر بما يمكن أن يؤزّم موقفي. كلما

لامستني العصا أننتُ قليلاً، ولكني تخيّلْتُ هاتسومومو منحنيةً عليّ وهي تسخر. بعد أن انتهت تاتي من ضربي تركتني في الرواق أبكي. أحسست بالأرض تميد من تحتي. جلستُ. كانت هاتسومومو قبالتي. قالت:

ـ سأكون ممتنّةً لكِ يا شيو إذا ما ابتعدتِ من طريقي.

ذكّرتها قائلةً:

ـ لقد وعدتِني أن تقولي أين أختي يا هاتسومومو.

ـ فعلاً!

مالت عليّ، وكان وجهها قريباً من وجهي، ظننتُ أنها تريد أن تقول إني لم أفعل ما يكفي لإرضائها، ولكن خاب ظني.

ـ أختكِ في «جورو ـ يا»، التاتسويو، في حي مياغاوا ـ شو، جنوب جيون.

بعد أن قالت لي ذلك، رفستني بقدمها وأبعدتني عن طريقها.

7

ما عرفتُ معنى «جورو ـ يا». في صباح اليوم التالي، ساعدتُ تاتي في تنظيف خيوط الخياطة التي وضعتها على أرض المدخل. استفدتُ من تلك الفرصة وسألتها:

ـ ما معنى «جورو ـ يا» يا تاتي؟

تابعتْ لَفَّ الخيوط على بكرة دون أن تجيب، فسألتها من جديد:

ـ تاتي؟

ـ إنه نوعٌ من الأمكنة ستنتهي إليه هاتسومومو إذا حصلت على ما تستحق.

WWW.REWITY.COM

لم يبدُ أنها أرادت قولَ المزيد في تلك اللحظة، ولكني لم أستطع أن أسمح لنفسي بالإلحاح في السؤال.

لم تجبني تاتي. ومع ذلك أحسستُ أن أختي تتألم أكثر مني. ووجب عليَّ أن أجد تلك التاتسويو عندما تسنح لي الفرصة، ولكن كيف سأتصرف؟ السؤال لايُطرح لأنهم منعوني من الخروج من الأوكيا لمدة خمسين يوماً لأني أتلفتُ كيمونو مامها. كان بإمكاني الذهاب إلى المدرسة إذا رافقتني بومبكين، ولكن لا أملك الحق في الذهاب إلى السوق. بكل تأكيد كان بإمكاني أن أخرج متى أريد، لكني رأيتُ الامتناع عن ذلك. أولاً، فأنا أجهل أين يوجد التاتسويو. والأدهى من ذلك، ما إن يتنبهوا لغيابي حتى يُرسَلَ السيد بيكو أو أي شخص آخر للبحث عني. منذ شهرين فَرَّتْ خادمةٌ صبية من الأوكيا المجاور، فألقي القبض عليها في اليوم التالي، وضُرِبَتْ ضرباً مبرحاً طوال ثلاثة أيام، مُطلِقةً صيحاتٍ مفزعة حتى إني أخذت أسدُّ أذنيَّ لئلا أسمعها.

قررت أن أنتظر خمسين يوماً، وبعدها سوف يُسمح لي بالخروج من جديد. خلال ذلك الفاصل اجتهدت في ايجاد وسائل متنوعة للانتقام من قسوة غراني وهاتسومومو. وجدت تلك الأخيرة كريم الوجه ممزوجاً بزرق الحمام الذي كنتُ أجمعه عن بلاط الباحة في كل مرةٍ أذهب لتنظيفه. كان هذا الكريم يحوي إفرازات العندليب كما قلت سابقاً. لم أفعل لها شيئاً مؤلماً، وقد جلب لي ذلك بعض الرضى. أما بالنسبة إلى غراني، فقد انتقمتُ منها بتمريري مكنسة المرحاض في داخل قميص نومها. ولقد سررتُ لرؤيتها تنفخ ذلك القميص وهي حائرةٌ دون أن تبدله. وسرعان ما اكتشفتُ أن الطباخة عدّت عقوبتي خفيفةً جداً: فقد قلصت نصيبي نصف الشهري من السمك المملح بمبادرةٍ ذاتية منها. ولم أجد أيةَ طريقةٍ لأجعلها تدفع الثمن حتى أتى اليوم الذي رأيتها فيه تطارد فأراً في الممر. فحتى لو كانت هرّةً لما عادت الفئران إلى ذلك الحد. فذهبتُ وبحثتُ عن بعر الفئران من تحت البيت، ونثرته في أرجاء المطبخ. وذات مرة وصلتُ

إلى حدِّ ثقبِ زوايةِ كيس الأرز بحربةٍ. وهكذا كانت الطباخة مضطرةً إلى إفراغ محتويات الخزائن كلها لترى ما فعلت الفئران فيها.

* * *

ذات يوم، بينما كنت سهرانة أنتظر عودة هاتسومومو، سمعتُ رنين الهاتف. وبعد قليل صعدت يوكو إلى الطابق الثاني، ثم نزلت حاملةً العلبة المبرنقة التي يُنْقَلُ فيها شاميزن هاتسومومو، وفي داخلها كانت الآلة مفكوكةً. قالت لي:

ـ عليك أن تحملي هذا إلى بيت شاي ميزوكي. فقد خسرت هاتسومومو رهاناً، وعليها أن تعزف لحناً على الشاميزن. وعرض البيت أن يعيرها آلةً من عنده، لكنها رفضت. لست أعرف ماذا بها، إنها تؤخر أوان العزف على ما أظن، لأنها لم تلمس هذه الآلة منذ سنوات.

على ما يبدو لم تكن يوكو تعرف أني ممنوعة من مغادرة الأوكيا، وهذا ما لم يفاجئني. فنادراً ما كان يسمح لها بالخروج من جناح الخادمات لئلا يفوتها اتصال هاتفي هام. كما أنها لا تشارك في الحياة في الأوكيا. تناولتُ الشاميزن الذي ناولتني إياه. لبست يوكو معطفها استعداداً للخروج. علّمتني أين يوجد بيت الشاي ميزوكي. انتعلتُ حذائي وأنا قلقة من فكرة أن يفاجئني أحد. كان الجميع نياماً، الخادمات وبومبكين وغراني والأم وتاتي. كانت يوكو ستذهب خلال بضع دقائق. تملكني إحساس أني أمسك أخيراً بالحظ، وسيمكنني أن أبحث عن أختي.

سمعت قصف الرعد، وفاحت من الهواء رائحة المطر. حثثتُ الخطا في الشوارع وأنا أمر من أمام رجال وجيشاوات. نظر إليّ بعض الأشخاص نظرة سخرية لأنه كان ما يزال هناك حَمَلة شاميزن في تلك الحقبة، ولكن من المسنين وليس من الأولاد. لا بدّ أن بعضهم ظنَّ أني سرقتُ الشاميزن، وأني هاربة به.

عندما وصلت إلى بيت الشاي ميزوكي بدأ المطر يهطل. كان المدخل في غاية الأناقة، حتى إني بالكاد تجرأتُ على وضع قدمي

WWW.REWITY.COM

فيه. فلمحت ستارةً في مربع الباب خلفها جدراناً برتقالية اللون ملبَّسة بخشب داكن. وفي نهاية ممر مبلّط بالحجارة الملساء، رأيت مزهرية ضخمة فيها أغصان من القيقب متعرّجة ما تزال تحتفظ بأوراقها الخريفية الحمراء الصارخة. أمسكتُ جرأتي بيديّ ودخلت من طرف الستارة الصغيرة. إلى يمين الباحة انفتح رواق أرضه من الغرانيت المشوب. لم يكن الممر ـ الذي وجدته بالغ الفخامة ـ مدخلَ بيت الشاي، بل مجرد الطريق المؤدي إليه. كان هذا الرواق عظيمَ الروعة، وليس ذلك بغريب لأني دخلتُ إلى أكبر بيوتات الشاي في اليابان. وبيت الشاي ليس مكاناً يُشرب فيه الشاي، بل إن الرجال يأتونه للاستمتاع وسط الجيشاوات.

ما إن وضعتُ قدمي في المدخل، حتى انفتح بابٌ سحّاب أمامي، فرأيتُ خادمة يافعة جاثية على مصطبة مرتفعة أخفضت بصرها نحوي. لا بدّ أنها سمعت طقطقة قبقابي وأنا أمشي على الأرض الحجرية. كانت ترتدي كيمونو جميلاً أزرق غامقاً مع رسم بسيط رمادي اللون. قبل عام، كنتُ سأظنها سيدة هذا البناء الفخم، أما الآن، وبعد أن أمضيتُ عدة أشهر في جيون، أدركتُ أن كيمونوها ليس بجمال كيمونوهات الجيشاوات أو ربات بيوتات الشاي. كذلك لم تظهر تسريحتها معتنى بها. على أية حال، كانت أكثر أناقةً مني وهي تنظر إليّ من الأعلى.

قالت لي:

ـ ادخلي من الباب الخلفي!

ـ لقد طلبت هاتسومومو أن...

ـ ادخلي من الخلف!

ثم أغلقت الباب السحّاب في وجهي دون أن تترك لي وقتاً للإجابة.

الآن، المطر يهطل أقوى من ذي قبل. جريتُ في الممر على طول بيت الشاي. انفتح الباب الخلفي منسحباً عند وصولي، ووجدت

الخادمة نفسها جاثية هناك تنتظرني. لم تنبس بكلمة، بل اكتفت بأخذ العلبة التي كنت أحملها. تمتمتُ:

ـ هل لي أن أسألكِ أيتها الآنسة؟.أين هو حي مياغاوا ـ شو؟

ـ ولماذا تريدين الذهاب إليه؟

ـ لدي غرض هناك سآخذه.

نظرت إليّ نظرةً ساخرة، ثم قالت إنَّ عليَّ أن أمشي بمحاذاة النهر، وبعد أن أتجاوز مسرح ميناميزا أصل إلى مياغاوا ـ شو.

قرّرتُ أن أبقى تحت شرفات بيت الشاي حتى يتوقّف المطر. وبما أني كنتُ هناك أتفحّص ما حولي، فقد تمكنت من رؤية جناح من البيت عبر السياج إلى يساري. ثبّتُّ عينيّ على المنور، فرأيت حديقة غنّاء، في نهايتها نافذة مضاءة، وفي الداخل رأيت حجرة جميلة فيها تاتاميات تغوص في نور برتقالي. وحول طاولة مغطاة بكؤوس الساكي وأقداح البيرة، رأيتُ رجالاً وجيشاوات. لاحتْ هاتسومومو هناك إلى جانب رجل عجوز رميص العينين بدا يحكي لها قصة، بينما راحت تتسلّى بأمر معين، ولكن ليس بحديث العجوز. كانت عيناها تنظران إلى جيشا أخرى لم أرَ منها إلا ظهرها. تذكرتُ المرة التي تلصّصتُ فيها على روّاد أحد بيوتات الشاي مع كونيكو ابنة السيد تاناكا. ونابني ذلك الإحساس بالثقل الذي عرفته وأنا أزور قبر زوجة أبي وأولادهما وكأن الأرض تحاول ابتلاعي. لازمتني بقوةٍ فكرة لدرجة أني لم أستطع طردها، كالريح وهي لا تستطيع الامتناع عن الهبوب. تراجعتُ ثم تهاويت على درجة حجرية في المدخل وظهري إلى الباب، ورحتُ أبكي. لم أستطع الامتناع عن التفكير في السيد تاناكا. لقد انتزعني من حضن أبي وأمي، وباعني كأَمَةٍ، وباع أختي لمآرب أكثر دناءة. وأنا التي ظننته رجلاً لطيفاً وناعماً ومثقفاً، كم كنتُ غبية! قررتُ ألا أعود إلى يورويدو أبداً، وإذا عدت إليها، فلكي أقول للسيد تاناكا كم أكرهه.

عندما نهضتُ أخيراً ومسحتُ عينيّ بكيمونوي المبلل، كان المطر قد تحول إلى رذاذ ناعم. كان بلاط الشارع يلمع في الزقاق

www.rewity.com
AKRAYAHEEN
WWW.REWITY.COM

تحت نور المصابيح. عدتُ على أعقابي واجتزتُ حي توميناغا ـ شو، ومشيتُ حتى مسرح ميناميزا، وعرفت السطح القرميدي الذي ظننته سطح قصرٍ يومَ أتى بنا السيد بيكو إلى جيون. لقد قالت لي خادمة بيت الشاي ميزوكي أن أحاذي النهر حتى أصل إلى مسرح ميناميزا. على كل حال، إن الطريق الذي يحاذي النهر يتوقف عند المسرح. سلكتُ الشارع خلف المسرح، وبعد عدة مئات من الأمتار وجدت نفسي في منطقة غير مُنارة وخالية من البشر تقريباً. لم أعرف آنذاك أن الشوارع تكاد تخلو بسبب انهيار الثلاثينات. في أي وقت آخر سيكون حي مياغاوا ـ شو مضاءً ومكتظاً حتى أكثر من جيون. ولكني وجدت ذلك الحي محزناً ذلك المساء ، ولقد كان دائماً كذلك على ما أعتقد. كانت الواجهات الخشبية تشبه واجهات جيون ولكن من دون أشجار ولا مداخل جميلة. كما إن شيراكاوا، ذلك النهر الجميل، لا يخترق مياغاوا ـ شو. الأنوار الوحيدة كانت تأتي من الحبابات الكهربائية على مداخل البيوت المفتوحة أبوابها. نساء عجائز يجلسن على كراسٍ مرتفعة تحت شرفات برفقة امرأتين أو ثلاث يقفن في الشارع. ظننتُ هاته النساء جيشاوات، فهن يرتدين كيمونوهات وشعورهن مزدانة، على أنهن كنّ يعقدن أوبياتهن من الأمام وليس على الظهر. وذلك شيء لم أكن قد رأيته في حياتي ولم أفهم معناه، ولكنه كان العلامة المميزة للمومسات. إن امرأةً تضطرّ إلى خلع أوبيها وارتدائه عدة مرات في السهرة، لا يمكنها أن تضيع وقتها كل مرة في عقده على ظهرها.

شرحت لي إحدى النساء كيف أذهب إلى التاتسويو الذي يقع في زقاق مسدود بعد ثلاث بنايات فقط. كان لكل بيت لوحة بجانب الباب تدل على اسمه. ما أحسستُ به وأنا أقرأ اسم «تاتسويو» كان عصياً على التعبير. أحسستُ بنمال يسري في جسدي كله كما لو أني سأنفجر. على مدخل التاتسويو جلست امرأة على كرسيٍّ طويل القوائم تتحدث مع امرأة أصغر منها سناً تجلس هي الأخرى على كرسيٍّ مشابه في الجهة المقابلة من الزقاق. أو ربما تحدث نفسها أمامها. كانت العجوز مستندة بظهرها إلى صدغ الباب، كيمونوها

الرمادي مفتوح قليلاً، وقدماها تخرجان من زوريها المصنوع من القش سيء النسج، كما يمكن أن نصادف مثله في يورويدو، بعكس الزوريات الفخمة التي تنتعلها هاتسومومو. وبدت تلك العجوز حافية ولا ترتدي تابياً من الحرير. ورُغمَ ذلك، فقد أظهرتْ قدميها ذات الأظافر سيئة القص كما لو أنها فخورة بها وتريد أن تتأكد من أنكَ رأيتها.

قالت:

ـ أكثر من ثلاثة أسابيع وبعدها سأتوقف. المعلّمة تظن أني سأكمل، ولكنها واهمة. زوجة ابني ستهتم بي. هي غبيةٌ بعض الشيء لكنَّ العمل لايخيفها. هل التقيت بها؟

أجابت المرأة الشابة من الجهة الأخرى من الشارع:

ـ لاأذكر. هناك فتاةٌ صغيرة تريد أن تكلمك، ألا ترينها؟

نظرت إليَّ العجوز لأول مرة، ولم تقل شيئاً بل هزت رأسها مما يعني أنها مستعدةٌ لسماعي. قلتُ:

ـ من فضلكِ يا سيدتي، ألديكِ فتاةٌ هنا تسمى ساتسو؟

ـ ليس لدينا ساتسو هنا.

تركني هذا الجواب صامتةً من الدهشة، لكنَّ العجوز بدت وكأنها صحت فجأةً، لأن رجلاً مرَّ من أمامي ودخل إلى البيت. نهضت وانحنت عليه عدة مرات، ويداها على ركبتيه، ثم قالت:

ـ أهلاً وسهلاً.

بعد أن دخل، عادت وجلست على كرسيها، وأخرجت قدميها من جديد. سألتني:

ـ لماذا تبقين هنا؟ لقد قلتُ لكِ ليس لدينا فتاةٌ تدعى ساتسو في هذا البيت.

قالت المرأة الشابة:

ـ بلى، يوجد ساتسو في البيت. إن يوكيو تدعى ساتسو، أنا أتذكر ذلك.

WWW.REWITY.COM

- ربما كان لدينا ساتسو، ولكن ليس من أجل هذه الفتاة الصغيرة على أية حال. لاأريد أن أجلب لنفسي المتاعب.

لم أفهم مباشرةً ما قصدته بقولها. ثم إن المرأة الشابة قالت إني لاأملك سناً واحداً معي، وهذا صحيح. وهنا فهمت. السن هو جزءٌ من مئة جزء من الين، وهو ما يزال متداولاً في تلك الآونة؛ حتى لو أنه لم يكن يكفي لشراء فنجانٍ فارغ من الشاي من بائع متجول. منذ وصولي إلى كيوتو لم أحصل على أية قطعة نقدية في يدي. وعندما كنت أذهب لشراء الحاجات، فإني كنت أطلب أن يسجل الحساب باسم أوكيّا نيتا. قلتُ:

- إذا كان المال هو ما تريدين، فإن ساتسو ستدفع.

- ولماذا ستدفع مقابل الكلام مع فتاة مثلك؟

- أنا أختها الصغرى.

أشارت إليَّ المرأة أن أقترب، ثم أمسكت بي من ذراعي وأدراتني حول نفسي. ثم سألتْ المرأةَ الجالسةَ في الطرف الآخر من الشارع:

- هل رأيتِ هذه الفتاة؟ هل يبدو عليها أنها أختُ يوكيو الصغيرة؟ لو أن يوكيو جميلةٌ مثلها لأصبح بيتنا أكثر البيوت ارتياداً في هذه المدينة! أنتِ كاذبةٌ ليس إلا.

ثم دفعتني بلطفٍ في الزقاق. أعترف أني خفت، ولكن كان تصميمي أكبر من خوفي. لقد أتيتُ إلى هنا، ولا أريد أنْ أذهب فقط لأن هذه المرأة لاتصدقني! التفتُّ إليها وانحنيتُ احتراماً، ثم قلت:

- سامحيني إذا ما بدوت كاذبةً يا سيدتي. ولكني أقول الحقيقة، يوكيو هي أختي. وإذا تكرمتِ وقلت لها إن شيو هنا، فسوف تعطيك المال الذي تريدينه.

لابدَّ أن ذلك هو ما كان يجب أن يقال، لأنها التفتت أخيراً إلى المرأة الشابة في الجانب الآخر من الزقاق، وقالت:

- عليكِ أن تصعدي بدلاً عني. إنكِ لاتقومين بعملٍ هام هذا

المساء. ثم إن رقبتي تؤلمني، وسوف أبقى هنا وأبقي عينيَّ على هذه الفتاة.

نهضت المرأة الشابة عن كرسيها طويل القوائم، واجتازت الزقاق، ودخلت في التاتسويو. سمعتها تصعد الدرج، ثم عادت، وقالت:

- يوكيو لديها زبون. وعندما تنتهي سيخبرونها بأن تنزل.

أمرتني العجوز أن أقرفص في الجهة الأخرى من الباب في الظلمة، لئلا يراني أحد. لاأعرف كم بقيتُ هناك، لكني خفتُ خوفاً شديداً من أن يُكتشف غيابي عن الأوكيّا. لديَّ عذرٌ لمغادرة البيت، ولكن ليس لديَّ عذرٌ لأن أبقى كل هذا الوقت خارجه. لابد أن الأم ستغضب مني. أخيراً ظهر رجلٌ ينظفُ أسنانهُ بعودٍ صغير. نهضت العجوز لتحييه. شكرته على قدومه. عند ذلك سمعتُ أجمل كلامٍ سمعته منذ وصولي إلى كيوتو:

- كنتِ تريدين رؤيتي يا سيدتي؟

كان صوت ساتسو.

قفزتُ وركضتُ نحو أختي الواقفة بالباب. بدت لي بشرتها رماديةً، ربما كان ذلك بعكس لون كيمونوها، وهو ثوبٌ بلونين أحمر وأصفر صارخين. كانت تضع أحمر شفاه فاقع، مثل الأم. وتعقدُ الأوبي من الأمام كالنساء اللواتي صادفتهن وأنا قادمة. أحسستُ بارتياحٍ لرؤيتها. ولم أشأ أن أكبح نفسي عن معانقتها. أطلقت صرخةً، ووضعت يدها على فمها. قالت العجوز:

- ستغضب المعلمة مني.

أجابتها ساتسو:

- سأعود حالاً.

دخلت إلى التاتسويو وبعد دقيقة نزلت. وضعت بضع قطعٍ نقدية في يد المرأة التي أشارت إليها أن تأخذني إلى الغرفة الفارغة في الطابق الأول، ثم أضافت:

WWW.REWITY.COM

- إذا سمعتني أسعل، فهذا يعني أن المعلمة قد أتت. اذهبي الآن.

تبعتُ ساتسو في المدخل الكئيب للتاتسويو. كان النور بنيّاً أكثر منه أصفر، ورائحة العرق تفوح من الهواء. تحت الدرج كان هناك بابٌ سحاب وقد خرج عن سكّته. سحبته ساتسو لتفتحه، ثم أمضت بعض الوقت في إغلاقه. كنا في غرفةٍ صغيرة فيها تاتاميات ونافذةٌ واحدة مزودةٌ بستارةٍ من الورق. سمح لي النور المتسرب من الخارج بأن أميّزَ خيال ساتسو، وليس وجهها. قالت:

- أوه، يا شيو.

حملت يدها إلى وجهها لتحكه، أو على الأقل ظننتُ ذلك لأني لم أكن أرى كثيراً. فهمتُ أخيراً أنها تبكي، فما عادت لدي قدرةٌ على كبح دموعي.

- سامحيني يا ساتسو، فالخطأ خطأي.

اقتربنا من بعضنا في الظلام، ثم تعانقنا. وجدتها بالغة النحول. داعبت شعري كما كانت تفعل أمي، ففاضت الدموع في عينيَّ، وغرقتا بماءٍ مالح كما لو أني غصتُ في المحيط. هَمَسَتْ:

- اسكتي يا شيو - شان!

كان وجهها قريباً جداً من وجهي، فشممتُ نَفَسها، كان نفَساً كريهاً عندما كلمتني قائلةً:

- المعلّمةُ ستضربني إذا علمت بقدومك. لماذا تأخرت كثيراً؟

- آه يا ساتسو سامحيني! أعرف أنك أتيت إلى الأوكيا...

- كان ذلك منذ عدة أشهر.

- المرأة التي رأيتِها متوحشة. لقد انتظرت أسابيع حتى أعطتني رسالتك.

- سأهرب يا شيو. لم أعد أتحمّل هذا المكان.

- سآتي معكِ!

- لديَّ مواعيد القطار وقد خبأتها تحت التاتامي في الأعلى.

وقد سرقتُ بعض المال كلما كانت تسنح لي الفرصة. لديَّ ما يكفيني لأدفع للسيدة كيشينو. إنهم يضربونها في كل مرةٍ تهرب فيها فتاة. وهي لن تتركني أذهب إذا لم أعطها بعض المال.

- السيدة كيشينو... من هي؟

- العجوز التي على الباب، إنها سترحل، وأنا لاأعرف من سيحل محلها. لم أعد أطيق الانتظار! الحياة مرعبةٌ هنا. يجب ألا تنتهي في مكانٍ كهذا يا شيو! اذهبي الآن، فقد تصل المعلمة في أية لحظة.

- انتظري. متى سنهرب؟

- لاتتحركي. لاتصدري أي صوت. يجب أن أصعد للحظة.

فعلتُ ما قالته لي. وفي أثناء غيابها سمعتُ العجوز تحيي رجلاً في المدخل. ثم سمعت خطوات الرجل المتثاقلة وهو يصعد الدرج فوق رأسي. وسرعان ما نزل الدرج أحدٌ ما، فُتح الباب. عشت لحظة من الرعب. لم تكن إلا ساتسو، وكانت بالغة الشحوب. قالت:

- سوف نهرب يوم الثلاثاء في وقت متأخر من المساء، بعد خمسة أيام. يجب أن أعود إلى فوق يا شيو. لقد أتاني رجل.

- انتظري يا ساتسو! أين سنلتقي؟ وفي أية ساعة؟

- لا أعرف... في الساعة الواحدة صباحاً، ولكن لستُ أدري أين.

اقترحتُ مسرح مينا ميزا، فرأته ساتسو خطراً: يمكننا أن نجد بعضنا. قررنا أن نلتقي مقابله تماماً، على الضفة الأخرى من النهر. ثم أضافت:

- يجب أن أذهب الآن.

- ولكن يا ساتسو... إذا لم أستطع الخروج؟ أو إذا لم نلتقِ؟

- كوني هناك يا شيو! لن تسنح لي فرصةٌ أخرى. ولن أجرؤ على الانتظار لفترة طويلة. اذهبي الآن قبل أن تعود المعلمة. إذا ضبطتْكِ هنا معي، فقد لا أتمكّن من الهرب أبداً.

WWW.REWITY.COM

كان لديّ كثير من الأمور لأخبرها بها، لكنها سحبتني معها إلى الممر، وأغلقت الباب بقوة. كنت سأراها تصعد الدرج لو لم تمسك بي العجوز من ذراعي وتدفعني دفعاً إلى الشارع المظلم.

* * *

ركضتُ الطريق كله. وكم أحسستُ بالارتياح لأني وجدت الأوكيًا غارقاً في السكون كما تركته! اندسستُ فيه بخفة، ثم جثوتُ في المدخل قليل الإنارة. مرّرتُ كفَّ كيمونوي على رقبتي وجبيني لكي أمسح العرق وأنا أجتهد في التقاط أنفاسي. أخذت أستعيد هدوئي لأن أحداً لم يتنبّه لدخولي. ولكن عندما وجدتُ باب جناح الخادمات مواربا تجمد الدم في عروقي. فهذا الباب يبقى مغلقاً إلا في أيام الصيف. ظننت أني سمعت أصواتاً في الداخل. إما أن يكون ذلك صوت جرذ، أو صوت هاتسومومو من جديد مع عشيقها. ندمتُ لأني ذهبتُ إلى مياغاوا ـ شو. نهضتُ وتسحّبتُ في الممر والقلق ينهشني وقد جف حلقي وغدا كجلد ماعز قديم. وصلتُ أخيراً إلى أمام باب جناح الخادمات، ونظرتُ من شق الباب فلم أرَ شيئاً. في بداية السهرة أشعلت يوكو ناراً في الكانون لتطرد البرد، لكن الفحم لم يعد يعطي إلا ضوءاً ضئيلاً، وفي تلك الظلمة رأيتُ شيئاً صغيراً شاحباً يتحرك. كدتُ أصرخ عندما رأيته. كان جرذاً بلا أدنى شك. رأسه يتقدم ويتراجع وكأنه يقضم شيئاً. والأدهى من هذا أني سمعته يصدر صوتاً رطباً. كان يرتفع عن الأرض بقليل، لكني لم أتبيّن على أيّ شيءٍ يجثم. رأيتُ أنبوبين ضخمين ممدودين نحوي، إنهما بكل تأكيد لفّتان من القماش، والجرذ يحاول أن يشق طريقه بينهما وهو يقضم القماش ويباعدهما عند مروره. كان يأكل بعض الطعام الذي سقط من يوكو. كنتُ سأغلق الباب خشية أن يتبعني في مروره، عندما سمعت امرأة تئنّ. رأيتُ رأساً يرتفع خلف الجرذ، ثم نظرت هاتسومومو إلى عينيّ مباشرةً. قفزتُ وتراجعتُ خطوة. كانت لفّتا القماش فخذيها. أما الجرذ فلم يكن سوى يد صديقها الشاحبة خارج كمّه.

قال صوت الصديق الصغير:

ـ ماذا هناك؟ هل من أحد؟

همست هاتسومومو:

ـ لا أحد.

ـ بلى، هناك أحدهم.

ـ لا. لا يوجد أحد. أنا أيضاً ظننتُ أني سمعتُ صوتاً لكني أخطأت.

لقد رأتني هاتسومومو، لاريب في ذلك. ولكنها لم تشأ أن يعلم عشيقها بذلك. بسرعة عدتُ إلى المدخل، وجثوت فيه مهزوزةً كما لو أنني انقلبتُ من ترامواي. طوال بضع دقائق سمعتُ همهماتٍ، وأناتٍ في جناح الخادمات، ثم توقفت تلك الأصوات. أخيراً خرجا. عندما وصلا إلى الممر، حدجني صديق هاتسومومو بنظرةٍ، ثم قال:

ـ الفتاةُ في المدخل. لم تكن هنا عندما وصلت.

ـ أوه لا تُعِرها اهتماماً، فقد أساءت التصرف هذا المساء. لقد خرجت من الأوكيًا بغير وجه حق، وسأحاسبها فيما بعد.

ـ إذاً كان هناك من يتلصّص علينا، فلمَ كذبتِ عليّ؟

ـ إنكَ في مزاج سيء هذا المساء يا كويشي ـ سان!

ـ لم تفاجئي لرؤيتها. إنكِ تعرفين منذ البداية أنها هناك!

توجه صديق هاتسومومو نحو المدخل بخطىً سريعة. توقف أمامي، ونظر إليّ نظرةً سيئة. بقيتُ خافضة البصر، لكني أحسستُ بالخجل. مرّت هاتسومومو من أمامي مسرعةً، ثم سارعت إلى مساعدة صديقها على انتعال حذائه. سمعته يحدثها بصوتٍ لم أعرفه من قبل، صوت متباكٍ تقريباً. قالت له:

ـ من فضلك يا كويشي ـ سان، لاأعرف ما حلَّ بك هذا المساء. عُدْ غداً...

ـ لا.

ـ لا أحبُّ أن تجعلني أنتظر طويلاً. سألقاك حيثما تريد، حتى في قاع النهر!

WWW.REWITY.COM

ـ ليس لدي أي مكان ألقاكِ فيه. إن زوجتي تراقبني منذ زمنٍ.

ـ إذاً عُد إلى هنا. لدينا غرفة الخادمات.

ـ نعم، إذا أحببتِ أن تدخلي سرّاً إلى البيوت وتختبئي! دعيني أذهب يا هاتسومومو. أريدُ أن أعودَ إلى البيت.

ـ لا تغضب مني يا كويشي ـ سان. لاأعرف لماذا أنتَ في هذه الحال! قل لي إنكَ ستعود حتى لو لم يكن ذلك غداً.

ـ يوماً ما، لن أعود. لقد قلتُ لكِ ذلك منذ البداية.

سمعتُ الباب الخارجي ينفتح، ثم ينغلق. وبعد لحظةٍ عادت هاتسومومو إلى المدخل، وبقيتْ هناك تراقب الممر أمامها. أخيراً التفتت إليَّ ومسحت دموعها، ثم قالت:

ـ حسنٌ يا شيو الصغيرة. لقد ذهبتِ لرؤية أختك الرهيبة أليس كذلك؟

ـ أرجوك يا هاتسومومو ـ سان.

ـ ثم عدتِ إلى هنا لتتجسَّسي عليَّ!

كانت تتكلم بصوتٍ عالٍ، فأيقظت إحدى الخادمات العجائز التي ارتفعت على مرفقيها لتنظر إلينا. قالت لها هاتسومومو:

ـ عودي إلى النوم أيتها العجوز الغبية!

هزّت الخادمةُ رأسها، ثم عادت للتمدد على فراشها.

قلتُ لها:

ـ سأفعلُ كل ما تريدين يا هاتسومومو ـ سان. ولاأريدُ إثارةَ المتاعب مع الأم.

ـ بكل تأكيد ستفعلين كل ما أريد! ليست تلك هي المسألة، فأنتِ في وضعٍ سيّءٍ.

ـ لقد خرجتُ لأوصل لكِ الشاميزن.

ـ كان ذلك منذ أكثر من ساعة. ولقد ذهبتِ لرؤية أختك ،

ووضعتما خطةً للهرب. هل تظنينني غبية؟ ثم عدت إلى هنا لتتجسسي عليَّ!

ـ سامحيني أرجوكِ. لم أكن أعرف أنكِ كنت هنا! كنتُ أظن أنه...

جرذ، كنتُ سأقول. ولكنها كانت ستسيءُ الفهم.

رمقتني بنظرةٍ غاضبة طوال بضع لحظاتٍ، ثم صعدت إلى غرفتها. وبعد أن نزلت من جديد كانت تشدُّ على شيءٍ في قبضتها. قالت لي:

ـ تريدين أن تهربي مع أختك أليس كذلك؟ أعتقدُ أنها فكرةٌ جيدة. كلما أسرعتِ في مغادرة الأوكيا، كان ذلك أفضل بالنسبة إليَّ. بعضهم يظن أني بلا قلب، ولكنهم مخطئون. إنه لأمرٌ مؤثر أن أتصوركِ أنتِ وهذه البقرة الضخمة، وأنتما تحاولان أن تبقيا على قيد الحياة في هذا العالم السفلي! كلما أسرعتِ في الذهاب، فذلك أفضل بالنسبة إليَّ. انهضي!

نهضتُ وأنا أتساءلُ عمّا ستفعله. ماذا في يدها؟ مهما كان، فستضعه تحت حزامي. تقدمت نحوي، فتراجعتُ خطوةً. قالت:

ـ انظري.

فتحت يدها، فظهرت الأوراق النقدية مطويةً. لم أستطع أن أعرف مقدارها بالضبط، ولكني لم أرَ في حياتي هذا المبلغ من المال. أضافت:

ـ لقد ذهبتُ وجلبتُ لكِ هذا المبلغ من غرفتي. لا حاجة لكِ لشكري. خذيه وغادري كيوتو. والطريقة الوحيدة لتسديده إليَّ هي ألا أراكِ أبداً.

قالت لي تاتي: لا تأمني لهاتسومومو أبداً حتى لو عرضت عليكِ مساعدةً. ثم تذكرتُ إلى أي حدّ كانت تكرهني، وفهمتُ أنها لم تكن تساعدني في الواقع، بل كانت تساعد نفسها بالتخلُّص مني. مدت يدها نحوي فلم أتحرّك. دسّت الأوراق تحت حزامي. أحسستُ

WWW.REWITY.COM

بأظافرها المبرنقة تدغدغ جلدي. أدارتني على نفسي، وأحكمت شدّ الثوب لئلا يسقط المبلغ. ثم فعلت شيئاً لا يصدَّق: أدارتني من جديد إلى مواجهتها، وأخذت تداعب خدي بتعبير من الأمومة تقريباً. فكرة أن تعاملني هاتسومومو بلطف فكرة لا تُصدَّق! أحسستُ وكأن أفعى سامة انتصبت على ذيلها لتتمسَّح بي كهرٍّ. وفجأةً صرّت بأسنانها كجنيّة، وأمسكت أكبر قبضة ممكنة من شعري، وأخذت تشدها بعنف حتى إني سقطت على ركبتيّ وأخذتُ أبكي. لم أفهم ما حدث. لكنّ هاتسومومو أوقفتني. جرّتني إلى الدرج وهي تتابع شدّ شعري في هذا الاتجاه وفي ذاك، وتصرخ بي مهتاجة، وأنا أبكي وأنشج بأقصى قوة حتى استيقظ الشارع كله.

عندما وصلنا إلى فوق، أخذت تدقّ بيدها باب الأم، وتصرخ بها أن تفتح. فتحت الأم بسرعة وهي تعقد حزامها على خصرها ووجهها مربدّ. قالت:

ـ ما بكما أنتما الاثنتان؟

ـ جواهري! هذه الغبية، هذه الفتاة الغبية!

أخذت تضربني. احتميتُ بالأرض متكوِّرةً على نفسي، وأنا أصرخ بها أن تتوقف. أخيراً نجحت الأم في كبح جماحها. وفي ذلك الحين وصلت تاتي إلى السفرة. قالت هاتسومومو:

ـ أيتها الأم، بينما كنتُ عائدةً إلى الأوكيّا رأيت هذه الصغيرة تتحدّث مع رجل في نهاية الشارع. لم أهتمّ لذلك، لأني لم أصدّق أنها هي. فهي لايحقّ لها أن تغادر الأوكيّا. ثم صعدتُ إلى غرفتي ووجدتُ علبة جواهري مقلوبةً رأساً على عقب، ونزلتُ في الوقت المناسب لأراها تعطي الرجل شيئاً. حاولتُ أن تهرب، لكني لحقتُ بها!

بقيت الأم صامتةً تنظر إليّ. لكنّ هاتسومومو تابعت:

ـ انسحب الرجل. لكن لا بدّ أن شيو باعت بعض الجواهر لتحصل على المال، فهي تريد أن تهرب من الأوكيّا بعد كل ما فعلناه من أجلها!

قالت الأم:

ـ حسنٌ جداً يا هاتسومومو، هذا يكفي. اذهبي إلى غرفتك مع تاتي، وتفحَّصي لتعرفي النقص.

كنتُ ما أزال على الأرض، وعندما انفردتُ بالأم، رفعتُ عينيّ إليها، وقلت:

ـ غير صحيح، أيتها الأم! لقد كانت هاتسومومو في جناح الخادمات مع عشيقها. أمرٌ ما أغضبَها، فأرادت أن تنتقم مني. وأنا لم أسرق لها شيئاً!

لم تجب الأم. حتى إني لم أتأكّد من أنها سمعتني. لم تتأخر هاتسومومو في الخروج من جديد من غرفتها، ثم قالت إن المشبك الذي اعتادت أن تضعه على أوبيها غير موجود. أضافت وهي تتباكى كممثلة جيدة:

ـ مشبكي ذو الزمردات، أيتها الأم! لقد باعته إلى ذلك الرجل الشنيع! لقد كان «مشبكي»، فكيف تجرأت وسرقت شيئاً كهذا!

قالت الأم:

ـ فتشيها!

ذات يوم، عندما كنت في الخامسة أو في السادسة من عمري أذكر أني نظرت إلى عنكبوتٍ تحيك شبكتها في زاوية البيت. وقبل أن تنهي عملها سقطت بعوضةٌ في الشبكة. في البداية لم يعرها العنكبوت أي اهتمام، بل تابع عمله بكل هدوء، وبعد انتهائه اقترب من البعوضة وأفرغ سمّه في جسمها. وأنا جالسةٌ على الأرض نظرتُ إلى هاتسومومو وهي تمدُّ إليّ أصابعها الدقيقة، ووجدتُ نفسي سجينةً في الشبكة التي حاكتها حولي. كيف أفسّرُ وجود المال المخبأ تحت حزامي؟ استعادت هاتسومومو الأوراق النقدية. أخذتها الأم من يدها وعدّتها، ثم قالت لي:

ـ إنكِ حقاً حمقاء لتبيعي المشبك ذا الزمردات بثمنٍ بخس كهذا لاسيما أنكِ ستدفعي غالياً لتعويضه.

دسّت الأم المال تحت حزامها، ثم قالت لهاتسومومو:

WWW.REWITY.COM

ـ هل أدخلتِ صديقك الصغير إلى الأوكيّا هذا المساء؟

بقيت هاتسومومو صامتةً، لكنها قالت بعد حين:

ـ من الذي أعطاكِ هذه الفكرة أيتها الأم؟

ران صمتٌ طويل، ثم قالت الأم لتاتي:

ـ ثبّتي ذراعيها.

وقفت تاتي خلف هاتسومومو، وأمسكت ذراعيها خلف ظهرها لتثبيتها. فكّت الأم كيمونو هاتسومومو عند فخذها. ظننتُ أن الجيشا ستقاوم، ولكنها تركتها تفعل. نظرت إليَّ نظرةً باردة. عندما رفعت الأم «الكوشي ماكي» وباعدت بين الركبتين، أدخلت يدها بين ساقي هاتسومومو، وعندما أعادتها كانت أصابعها مبللةً. خلال لحظة مررت إبهامها على طرف أصابعها وشمتها، ثم أرجعتْ يدها إلى الخلف وصفعت هاتسومومو تاركةً أثراً رطباً على خدها.

8

في صباح اليوم التالي لم تكن هاتسومومو وحدها غاضبةً مني، بل وجب عليَّ أن أتحمل ضغينة الخادمات. في الواقع لقد حرمتهن الأم من السمك المجفف لمدة ستة أسابيع، لأنهن تسامحن في شأن حضور صديق هاتسومومو إلى الأوكيّا. لا أعتقد أن الخادمات كنّ سيحقدن علي أكثر لو أني أخذت الأرز من أطباقهن. أما بالنسبة إلى بومبكين فقد أخذت تبكي وهي تعرف العقوبة الصادرة عن الأم. نظرن إليَّ نظراتٍ سوداء. كما تحتم عليَّ أن أسدد ثمن مشبكٍ من الزمرد لم أمسّهُ بيدي قطّ، بل إني لم أره في حياتي، هذا بالإضافة إلى بقية الديون. ومع ذلك لم أهتم بالقدر الذي تتصوره. فأيُّ حدثٍ يجعل حياتي أصعب؛ كان يقوي عزيمتي على الهرب.

هل صدّقت الأم حقاً أني مسؤولةٌ عن السرقة؟ بالتأكيد لا. ومع ذلك، فقد فرحت بشراء مشبكٍ جديد لهاتسومومو على حسابي، لكي تهدّئ من روع الجيشا. وبالمقابل، فإن الأم لاتشك لحظةً في أني خرجتُ من الأوكيا: فلقد أكدت لها يوكو ذلك. وعندما علمتُ أن الأم أعطت الأمر بإقفال باب المدخل لمنعي من الخروج، أحسستُ بالانهيار. فكيف سأهرب الآن؟ وحدها تاتي لديها مفتاح، وهي تحفظه حول عنقها حتى في الليل. ومن ناحيةٍ أخرى، أخذت بومبكين مهمة الانتظار مساءً في الردهة، وإيقاظ تاتي عندما تعود هاتسومومو.

كنتُ ممددةً على فوتوني أحاول أن أضع الخطط. ولكن حتى يوم الإثنين، عشية اليوم الذي حددته لي ساتسو للهرب، لم أكن قد وجدتُ بعدُ السبيل للخروج من الأوكيّا. كنتُ منهارةً حتى إني خَلَوتُ من كل رغبةٍ في العمل. وبّختني الخادمات لأني مرَّرتُ الممسحة على الأرضية الخشبية التي كان يجب عليَّ أن ألمعها. وكنستُ الممر الذي كان يجب عليَّ أن أغسله. وبعد ظهر الإثنين، بقيتُ بعضَ الوقت في الباحة أتظاهر بنزع بعض الأعشاب الضارة. وفي الواقع كنتُ مقرفصةً هناك مستسلمةً لأفكاري الحزينة. ثم طلبت إليَّ إحدى الخادمات أن أغسل الأرض في جناحهن، فحدث أمرٌ غريب. كنتُ أعصرُ الممسحةَ فوق الأرض، ولكن بدلاً من أن يسيل الماء في خطٍّ نحو الباب كما توقعت، فإنه انحرف إلى زواية الغرفة، فصرختُ:

ـ انظري يا يوكو الماء يصعد!

طبعاً لم يكن الماء يصعدُ، بل كان ذلك مجرد انطباع. أدهشتني تلك الظاهرة. عصرت الممسحة من جديد لكي أرى الماء يسيل في الاتجاه نفسه، ومن باب تداعي الأفكار وجدتُ نفسي «أسيل» أنا أيضاً حتى على سفرة الطابق الثاني. ومن هناك أصعدُ إلى أعلى السلّم من فتحة السقف، ثم إلى السطح، إلى جانب خزان ماء المطر.

السطح! أدهشتني تلك الفكرة إلى درجةٍ أني نسيتُ مَن حولي كلياً. وعندما رنَّ الهاتف على طاولة يوكو كدتُ أصرخ. لم أكن

WWW.REWITY.COM

أعرف حقاً ما أفعل عندما أصعدُ إلى السطح، ولكن إذا ما نجحتُ في النزول عنه، فلربما أصلُ في الوقت المناسب إلى الموعد مع ساتسو.

* * *

في مساء اليوم التالي، وأنا آوي إلى فراشي، تثاءبت قدر استطاعتي، ورميت بثقلي على فوتوني وكأني كيس أرزٍ. من يراني سيظن أني سأنام على الفور، في حين أني كنت متيقظةً تماماً. بقيتُ ممددةً لمدةٍ طويلة، أفكر ببيتي السكران. تساءلت عمّا سيكونه رأس أبي عندما يرفع عينيه عن الطاولة ويراني واقفةً على العتبة. ستمّحي الجيوب التي تحت عينيه ويأخذ بالبكاء. أو أن فمه سيتخذ ذلك الشكل الغريب عندما يبتسم. لم أسمح لنفسي أن أتمثل أمي بتلك الحدة. وبمجرد أن خطرت فكرتها ببالي امتلأت عيناي بالدموع.

أخيراً رقدت الخادمات على فوتوناتهن إلى جانبي، وجثت بومبكين في المدخل لتنتظر عودة هاتسومومو. سمعتُ غراني تلهج بالدعاء وتغني السوترا، ما تفعله كل مساء قبل أن تأوي إلى فراشها. نظرتُ إليها وهي تخلع ملابسها من الباب نصف المفتوح. وقفت إلى جانب فوتونها وخلعت كيمونوها. ما رأيتها قبل الآن كاملة العري، فأرعبني ذلك. ليس بسبب ذلك الجلد الأصفر والمحدب عند رقبتها وعلى كتفيها فذكّرني بفروجٍ منتوف فحسب، بل لأن جسمها كله بدا كثوبٍ مهترئ. رأيتها تتلمس ما حولها لتفتح قميص النوم الذي تناولته عن الطاولة. وفجأةً، أثارت شفقتي. فكلُ ما في جسمها متهدلٌ حتى ثدياها اللذان يتدليان كرأسَي إصبعين. وكلما نظرتُ إليها؛ قلت لنفسي لابدَّ أنها تتناقش في خاطرها المعكر كامرأةٍ عجوزٍ مع أفكارٍ تتعلق بأهلها. لابد أنهم باعوها كأَمَةٍ عندما كانت صغيرة. ربما أضاعت أختاً لها، هي الأخرى. لأول مرةٍ أُحسُ بالشفقة على غراني. وفاجأتُ نفسي وأنا أتساءل ما إذا كانت طفولتها تشبه طفولتي. ولأنها امرأةٌ عجوز شريرة، وأنا فتاة صغيرة تناضل للخروج؛ فإن ذلك لايغير شيئاً من المسألة. هل ستنتهي فتاةٌ قاسيةٌ جداً بأن تجعلك شريراً حتماً؟ تذكرتُ يوماً في يورويدو عندما دفعني أحد الصبيان في حرجٍ من الأشواك بجانب

المستنقع، فَفَرَرْتُ منه بعد أن خرمشته، وتراكم في داخلي غضبٌ يكفي لأعض شجرةً. فإذا كانت عدة دقائق من الألم كافيةً لتجعلني سيئةً بهذا القدر، فما بالك بسنواتٍ من الآلام المتراكمة؟ حتى الحجارةُ تستسلم تحت هجمات المطر المتكررة.

لو أني لم أقرر سابقاً أن أهرب، لأرعبتني فكرة الآلام التي تنتظرني في جيون. تلك الحياة ستجعل مني امرأةً عجوزاً شريرة مثل غراني من دون شكٍ. لحسن الحظ، وبدءاً من اليوم التالي، سأتمكن من نسيان حياتي في جيون. أنا أعرف كيف أصل إلى السطح. أما بالنسبة إلى النزول في الشارع، فلم أحاوله بعد. ينبغي لي أن أجرب حظي في الظلام. حتى لو وصلت إلى الأسفل دون أن أجرح نفسي، فابتداءً من هناك ستبدأ متاعبي. مهما كانت الحياة في الأوكيّا صعبةً، فماذا ستكون عندما أصل إلى الخارج؟ العالم قاسٍ جداً. كيف سأتابع حياتي؟ بقيتُ ممددةً على فوتوني لبعض الوقت يقتلني القلق، وأتساءل ما إذا كانت لدي حقاً الشجاعة في تجربة حظي في مكانٍ آخر... ولكن ساتسو تنتظرني، وهي تعرف ماذا تفعل.

مر بعض الوقت قبل أن تنام غراني. الخادمات يشخرن بقوة الآن. تظاهرتُ بالعودة إلى فوتوني لكي ألقي نظرةً على بومبكين الجاثية على الأرض غير بعيدةٍ عني. لم أرَ وجهها بشكلٍ جيد، ولكني تصورت أنها غافية. قررت أن أنتظر حتى تنام، ثم أمضي، ولكن ليس لدي أية فكرةٍ عمّا تكونه الساعة. ثم إنَّ هاتسومومو قد تعود في أية لحظة. جلستُ على فوتوني بصمتٍ مطبق. إذا رأوني أنهض، فيمكنني أن أذهب إلى المرحاض، ثم أعود إلى النوم. ولكنَّ أحداً لم يعرني أي انتباهٍ. كيمونو نظيف ومطوي يرقد إلى جانب فوتوني. تناولته واتجهت مباشرةً نحو الدرج.

عندما وصلت إلى الأعلى، توقفتُ أمام باب الأم، وأصختُ بسمعي. هي لاتشخر عموماً وهذا الصمتُ لم يعلمني بأي أمرٍ هام، ما خلا أنها لاتتجول في غرفتها، ولا تتكلم بالهاتف. ومع ذلك لم تكن الغرفة غارقةً في الصمت تماماً، لأن كلبها الصغير تاكو يتنفس

WWW.REWITY.COM

تنفساً صفيرياً. وكلما أصغيتُ؛ نما لدي انطباعٌ بأني أسمع اسمي في هذا النفس الربوي:«شي ـ يو! شي ـ يو!». ولكني لم أشأ أن أغادر الأوكيًا دون أن أتأكد من أن الأم نائمة. فقررتُ أن أسحب الباب قليلاً، وألقي نظرةً إلى الداخل، فإذا كانت مستيقظةً سأقول لها إني ظننتها تناديني. كانت تنام ومصباحها مضاء مثل غراني. فتحت الباب قليلاً، ورأيتُ أسفل قدمها الجافة يتجاوز الفوتون. كان تاكو ممدداً بين ساقيها وصدره يصعد ويهبط مُصدِراً ذلك الصوت الصافر، وهو يذكر بمقطعَيْ اسمي.

أعدتُ إغلاق الباب، ثم بدلّتُ ملابسي في الممر. ما يزال يلزمني حذاءٌ ـ لم أتصور أبداً أن أهرب دون حذاء ـ وذلك دليلٌ على أني قد تغيّرتُ منذ الصيف. لو ما جَئتُ بومبكين في المدخل لاستطعتُ أخْذَ قبقابها، ذلك الذي يُلبس لاجتياز الممر المرصوف بالطين المرصوص. في الساحة أخذت الحذاء الذي يستخدم في المرحاض في الأعلى. كان من نوعيةٍ سيئة مع سُيُورٍ من الجلد فوقه ليبقيه في مكانه. ثم إنه أكبر من مقاس قدمي، ولكن ما من خيار آخر لدي.

بعد أن أغلقت باب السقف من دون ضجة خلفي وضعتُ قميص نومي تحت خزان الماء. تأهبت للتسلق على حافة السقف والجلوس فوقه. أحسستُ بالخوف. بدت أصوات الناس في الشارع وكأنها تأتي من بعيد. ولكن وجب عليَّ أن أسيطر على خوفي، لأنه في كل لحظة قد تستيقظ الأم أو تاتي أو إحدى الخادمات وتظهر لي من فتحة السقف. وضعت يدي في حذائي كي لاأتركه، ثم تقدمت على حافة السطح، ما بدا لي أصعب مما ظننت. كان القرميد ثخيناً جداً، ويشكّل ما يشبه الدرجة في المكان الذي يتراكم فيه. ثم إنه أخذ يُصدر أصواتاً كلما تحركتُ، إلا إذا مشيتُ ببطء. كل الأصوات التي أحدثتها كانت تصل إلى السطوح المجاورة. لزمتني بضع دقائق حتى وصلت إلى الطرف الآخر من الأوكيًا. كان سطح البيت المجاور ينخفض بحوالى عشرين سنتيمتراً عن سطحنا. نزلتُ عليه، ثم توقفتُ للحظةٍ لكي أبحث عن منفذٍ يفضي إلى الشارع. لم أرَ إلا امتداداً أسود

بلون الحبر رُغمَ ضوء القمر. كان السطح عالياً لدرجة أني لاأستطيع أن أخاطر بالانزلاق عليه. ولم أكن على ثقةٍ بأن السقف التالي يمكن استخدامه. بدأت أشعر بالخوف، ومع ذلك تابعتُ التقدمَ من سطح إلى سطح. وصلت تقريباً إلى نهاية البيوت عندما رأيت باحةً في النور المنعكس. لو أني أستطيع الوصول إلى المزراب لانزلقتُ عليه حتى أصل إلى سقف أحد المستودعات، وقد بدا لي أنه حمّام. ما إن أصل إلى هناك حتى أتمكّن بكل يُسرٍ من النزول إلى الباحة.

إن فكرة النزول في باحة بيتٍ آخر لاتبدو مغريةً. إنه أوكيًا بكل تأكيد ـ لايوجد إلا الأوكيات في الجوار. والشخص الذي ينتظر عودة الجيشاوات لابد أنه سيمنعني من المرور، وربما كانت أبواب المداخل مقفلة بالمفتاح كما في أوكيًانا. لو أن لدي خياراً لما تصورت قطُّ أن أمرَّ من هناك، ولكن، لأول مرة منذ صعودي، أعتقد أني وجدت طريقاً لأسلكه.

بقيت جالسةً لبعض الوقت على حافة السطح أرصد أية نأمة في الباحة. سمعت أناساً يضحكون ويتكلمون في الشارع. لم أعرف أين سأنزل، ولكني وجدت من الأفضل أن أتصرف قبل أن يتنبّهَ أحد لغيابي عن الأوكيًا. لو أني عرفتُ مسبقاً نتائج ما قمت به، لقمت مباشرةً بنصف دورة، لكني لم أكن أعرف شيئاً عن رهانات المستقبل. لم أكن إلا طفلةً ملقاةً في مغامرة كبرى.

تعلّقت كيفما اتفق بحافة السطح، ومرَّرتُ ساقي من فوق حرف البيت، فوجدت نفسي معلّقةً أمام الجدار. حاولتُ أن أصعد من جديد ولكن المنحدر كان أقسى مما ظننت. لم أستطع التعلق بحافة السطح بسبب حذاء المرحاض الذي كان في يدي. لقد تحدّد مصيري: لم أعد أستطيع التراجع. وإذا أفلتُّ يديَّ فسأنزلق دون أن أستطيع التوقف. كل تلك الأفكار كانت تعذبني.

ومع ذلك، لم يكن لديَّ الوقت للإفلات من حافة السطح، فهو الذي أفلتني. وانزلقتُ ولكن بسرعة أقل مما تصورت، مما أعطاني الأمل في أن أستطيع التوقف في الأسفل علىّ الشرفات. ثم أزاحت قدمي إحدى القرميدات التي تزحزحت مع فرقعة قبل أن تنكسر في

www.rewity.com RAYAHEEN
WWW.REWITY.COM

الباحة في الأسفل. وسرعان ما انزلقت من يدي إحدى فردتي الحذاء، مرت بجانبي واستقرت في الأسفل مع ضجيج أصم. وثمة أمر مقلق: لقد سمعتُ أصواتَ أقدام في الممر تتقدّم نحوي.

كنتُ قد رأيت ذبابات جامدة على جدار أو على سقف، فتساءلتُ كيف يمكن أن تتمَّ هذه الظاهرة. هل تلتصق أرجلها بالجدار أم إن هذه الذبابات خفيفة إلى درجة أنها لا تسقط؟ عندما سمعتُ وَقْعَ الأقدام تتجه نحوي؛ قررتُ أن أتمسّك بحافة السطح كذبابة، وإلا انسحقتُ في الأسفل. حاولت أن أسند أصابع قدميَ إلى السطح، ثم مرفقيَ ثم ركبتيَ. وفي محاولة أخيرة للبقاء ملتصقة بالسطح، قمتُ بعملٍ بالغ الحماقة: أخرجتُ يدي الثانية من فردة الحذاء، وحاولتُ أن أوقف نزولي. للأسف، لا بدّ أن يدي كانت مبللة، لأنها بدلاً من أن تكبح نزولي، فقد عجّلتْ به، ورأيتُ نفسي أنزلق بصوتٍ صافر، ولم يعد من سطح تحت يديّ.

خلال بضع لحظات، وجدت نفسي غارقةً في صمت مطبق كما لو أني سقطت في الفراغ، وتشكلتْ صورة في خيالي: خرجت امرأة إلى الباحة، وأخفضت رأسها لترى القرميدة المكسورة على الأرض، ثم رفعت عينيها نحو السطح تماماً في الوقت الذي رأتني فيه أسقط من السماء عليها. ولكن بكل تأكيد، لم يحدث هذا. لقد دار جسمي على نفسه وهو يسقط، وسقطتُ على بطني. كان فعلي المنعكس أني رفعت يدي لأحمي رأسي، ورُغمَ ذلك فقد سقطتُ بكل ثقلي، وأغمي عليّ. لا أعرف أين كانت تلك المرأة، أو ما إذا كانت في الباحة عندما سقطتُ. ولكن لا بدّ أنها رأتني وأنا أسقط عن السطح، لأني سمعتها تقول وأنا ممددة على الأرض ساكنة تماماً:

- يا إلهي ! السماء تمطر فتيات!

كان من الأفضل لي أن أهرب، ولكني لم أستطع أن أنهض. وجزء كامل من جسمي كان يؤلمني بشدة. أدركتُ أخيراً أن امرأتين جثتا، وانحنتا عليّ. قالت إحداهما كلاماً لم أستطع تبيّنه. تابعتا كلامهما، ثم أنهضتاني وأجلستاني على بقعة من الطحالب في الممر. لم أتذكر إلا جزءاً من حديثهما:

- أؤكد لكِ يا سيدتي، أنها سقطت عن السطح.

- ولكن لماذا تحمل حذاء المرحاض في يديها؟ هل صعدتِ إلى الأعلى لتستخدمي المرحاض أيتها الصغيرة؟ أتسمعينني؟ إنه لعمل خطر جداً! حظكِ كبير أنكِ كاملة!

- إنها لن تسمعك يا سيدتي. انظري إلى عينيها.

- ولكنها تسمعني بكل تأكيد. قولي شيئاً أيتها الصغيرة!

كنت عاجزةً عن لفظ أية كلمة، لأن فكرةً كانت تسيطر عليّ: ستنتظرني ساتسو على ضفة النهر. ستنتظرني بلا طائل.

* * *

أُرسِلَت الخادمة لتدقَّ على أبواب أوكيات الشارع حتى تعرف من أي أوكيًا أتيت. في تلك الأثناء بقيتُ مكوّمةً على الأرض في حالة صدمة. كنت أبكي دون أن أذرف الدموع، وأمسكُ بذراعيّ اللتين تؤلمانني ألماً فظيعاً. فجأةً أوقفوني وصفعوني. وقال أحد الأصوات:

- أيتها الغبية! الغبية الصغيرة!

كانت تاتي تقف أمامي والغضبُ يفقدها صوابها. سحبتني إلى خارج الأوكيًا، ثم إلى الشارع خلفها. وعندما وصلنا إلى أوكيًانا، أسندت ظهري إلى الباب الخشبي وصفعتني مرةً أخرى، ثم قالت:

- أتعرفين ماذا فعلت؟

كنتُ عاجزةً عن الرد، فتابعت كلامها قائلةً:

- ماذا تظنين؟ لقد أفسدتِ مستقبلك كله... لن تستطيعي أن تفعلي أسوأ من ذلك أيتها الغبية!

لم أتصور قط أن تاتي يمكنها أن تغضب هذا الغضب كله. سحبتني إلى الباحة ورمتني على الأرض، على بطني. رحتُ أبكي، وهذا ما استطعتُ فعله في ذلك الوقت، لأني مدركةٌ ما ينتظرني. ولكن هذه المرة، بدلاً من أن تضربني تاتي من غير اقتناعٍ، سكبت سطل

WWW.REWITY.COM

ماءٍ على كيمونوي لكي أحسَّ بضربات العصا أكثر، ثم أخذت تضربني بعنفٍ حتى لم أعد أستطيع التنفس. وعندما انتهت من ضربي، وضعت العصا جانباً، ثم قلبتني على ظهري، وقالت:

ـ لن تصبحي جيشا أبداً. لقد قلت لكِ سابقاً ألا تقترفي هذا الخطأ ! لأن أحداً لايستطيع الآن أن يفعل شيئاً من أجلك، ولا حتى أنا!

لم أسمع ما قالته بعد ذلك لأن غراني أخذت تضرب بومبكين لأنها لم تراقب الباب جيداً، فأخذت المسكينة تبكي.

* * *

تبين أني كسرتُ ذراعي عند سقوطي على الأرض. وفي صباح اليوم التالي أتى طبيبٌ ليفحصني وأخذني إلى عيادةٍ قرب الأوكيًا. ولم يُعدني إلا بعد الظهر والجبس على يدي. كنت ما أزال أتألم بشدة. ومع ذلك استدعتنني الأم إلى غرفتها. بقيتُ جالسةً تتأملني طويلاً. تداعب تاكو بيدٍ، وتمسك الغليون الذي في فمها باليد الأخرى. قالت أخيراً :

ـ أتعرفين كم دفعتُ لأحصل عليكِ؟

ـ لا يا سيدتي! ولكن ستقولين لي بكل تأكيد إني لاأعادل الثمن الذي دفعته من أجلي.

لم يكن ذلك جواباً مهذباً. بل إني ظننتُ أن الأم ستصفعني على وقاحتي، فالأمر عندي سيان. وقد بدا لي أن كل شيءٍ سيكون سيئاً من الآن فصاعداً. صرّت الأم بأسنانها وضحكت، أو بالأحرى سعلت مرتين أو ثلاث مرات، وقالت:

ـ أنتِ على حق! إنكِ لاتساوين نصف ينٍّ. لقد ظننتُ أنكِ ذكية، ولكنكِ لست ذكيةً ما يكفي لكي تعرفي مصلحتك.

تابعت السحب من غليونها لبعض الوقت، ثم أضافت:

ـ لقد كلفتني خمساً وسبعين يَنّاً، إذا أردت أن تعرفي. ثم جعلت أحد الكيمونوهات غير صالح للاستخدام، ثم سرقت مشبكاً، والآن

كسرت ذراعك. إذاً يجب عليَّ أن أضيفَ تكاليفَ طبيةً إلى ديونك. وهناك طعامك ودروسك، وهذا الصباح قالت لي معلمة التاتسويو في نياغاوا ـ شو إن أختك الكبرى قد هربت. والمعلمة لم تدفع لي بعد ماهي مدينةٌ لي به. واليوم أعلنت أنها لن تدفع. إذاً سأضيف هذا إلى دَينكِ. ها أنتِ مدينةٌ لي من المال بما لن تستطيعي تسديده أبداً!

وهكذا هربت ساتسو. أمضيتُ سحابة يومي أطرح السؤال على نفسي، وفي النهاية حصلت على الجواب. كنت أحبُّ أن أفرح من أجلها، لكني عجزتُ. تابعت الأم:

ـ أفترض أنكِ ستستطيعين أن تسددي ديونك بعد أن تعملي كجيشا عشر سنوات أو خمس عشرة سنةً، وعليكِ أن تكوني ناجحةً. ولكن من يستثمر يناً واحداً على فتاةٍ حاولت الهرب؟

لم أكن أعرف ماذا أجيبها. قدمتُ اعتذاري للأم. كانت تكلمني حتى الآن بطيبةٍ، ولكن بعد أن اعتذرتُ وضعت الغليون على الطاولة ومدت فكها إلى الأمام بطريقةٍ مؤثرة ذكرتني بحيوان يتأهب للانقضاض. لا بدَّ أنها كانت في ذروة الغضب. قالت:

ـ أتعتذرين آه ؟ لقد كنتُ غبيةً عندما هدرتُ عليكِ هذا المال. من المحتمل أن تكوني أغلى خادمةٍ في جيون! إذا استطعتُ أن أبيع عظامكِ لتسديد بعض ديونك، فلن أتردد في تجريد لحمكِ!

عند ذلك، أمرتني أن أخرج من غرفتها، وأعادت غليونها إلى فمها.

كنت على شفا البكاء وأنا خارجةٌ من عندها، لأن هاتسومومو كانت على السُفرة، والسيد بيكو ينتظر ليعقد لها أوبيها وتاتي واقفة أمامها وتنظرُ في عينيها، وفي يدها منديل. قالت:

ـ لقد تمَّ ذلك. ولا أستطيع أن أفعل أفضل مما فعلت. عليكِ أن تبكي، ثم تعيدي مكياجك.

أدركتُ لماذا تبكي هاتسومومو، فصديقها الصغير لم يعد يأتيها منذ أن مُنعتْ من اصطحابه إلى الأوكيًا. عرفتُ ذلك منذ وقتٍ قصير، وكنتُ على ثقة من أنها ستجعلني مسؤولةً عن كل مصائبها.

WWW.REWITY.COM

أردتُ أن أنزل قبل أن تراني، ولكن الآوان فات. نزعت منديلها من يدي تاتي، وأشارت إليَّ أن أقترب. لم يكن لدي أية رغبة في أن أطيعها، ولكن ليس لدي من خيار. قالت لها تاتي:

ـ دعي شيو بأمان. عودي إلى غرفتك وانهي مكياجَكِ.

لم تجب هاتسومومو، بل سحبتني إلى غرفتها وأغلقت الباب خلفي، ثم قالت:

ـ لطالما بحثتُ عن طريقةٍ أُفسد بها مستقبلكِ، ولكنكِ تكفَّلتِ أنتِ بذلك لأنكِ حاولت الهرب! لست أدري ما إذا كان يجب عليَّ أن أفرح لذلك. كنت أريد أن أكسرك أنا بنفسي.

عند ذلك قمتُ بعملٍ مهين جداً: لقد انحنيتُ أمامها، ثم فتحت الباب وخرجتُ دون أن أجيب. كان يمكنها أن تصفعني، ولكنها اكتفت بأن تبعتني إلى الممر، وقالت لي:

ـ إذا كنتِ فضوليةً، وتريدين أن تعرفي ما معنى أن تبقي خادمةً طوال الحياة، فاسألي تاتي! على كل حال، إنكما متشابهتان كطرفي خيط. هي ردفها مكسور وأنتِ ذراعك مكسور. وربما أصبحت تشبهين رجلاً مثلها!

قالت تاتي:

ـ أيضاً يا هاتسومومو، إني أعترف بسحرها الخرافي، فالمرء لا يتعبُ منه أبداً.

* * *

في الخامسة أو السادسة من عمري كنت أعرف صبياً يدعى نوبورو يسكن في يورويدو، كان ولداً لطيفاً، لكن رائحته كريهة. ومن أجل ذلك كانوا يطردونه. وعندما يتكلم يتجاهله الأولاد، وكأنه ضفدع ينقّ، وغالباً ما يجلس نوبورو المسكين أرضاً ويبكي. وخلال الأشهر التي تلت محاولتي في الهرب، فهمتُ ما هو إحساسه. لأن أحداً لم يكلمني إلا ليعطيني الأوامر. ولقد عاملتني الأم بازدراء دائماً لأن لديها أموراً أهم في رأسها. أما الآن، فقد حذَت الخادماتُ والطبّاخةُ وغراني حذوها.

طوال ذاك الشتاء البارد والقاسي، أخذتُ أتساءل عما حلّ بساتسو، ثم بأمي وأبي. وعندما كنت أتمدد على فوتوني مساءً، تملّكني القلق. أحسستُ في داخلي بخواء هائل، كما لو أن العالم كله من حولي فسحة خاوية. ولكي أبعث الطمأنينة في نفسي، أغمضتُ عينيّ متخيلةً الدربَ على حافة الجرف الصخري في يورويدو. لم يخامرني أي عناء في التنزه هناك بأفكاري لأني أعرف طريقي جيداً. نما لديّ انطباع حقيقي أني هربتُ مع ساتسو وعدنا إلى بيتنا. رأيتُ نفسي أركض مع أختي نحو بيتنا السكران وأنا أمسك بيدها، رُغمَ أنها لم تمسك بيدي قط. لقد كنتُ متأكدةً من أني سألتقي بأبي وأمي بعد لحظات. ولكني ما وصلتُ إلى بيتي قطُ في حلمي. ربما كنتُ أخشى كثيراً ما كان ينتظرني في الداخل. وقبل هذا كله، كان المشي على الطريق هو الذي يهبني القوة. ولكنَّ صوتاً معيناً كان يوقظني دوماً من أحلامي: كأن تسعل إحدى الخادمات، أو تضرط غراني أو تشخر. فأكفّ عن تنشق الهواء البحري، وآخذ بالإحساس من جديد أن الفوتون تحت قدمي وليس الطريق. في لحظة الانطلاق، أجد نفسي مجردةً، غائصة في وحدتي.

* * *

حلّ الربيع، وأزهرت أشجار الكرز في حديقة مارويامـا. وفي كيوتو لم يعد من حديث إلا هذا. غالباً ما كانت هاتسومومو تخرج في النهار: كثيراً ما تدعى إلى احتفالات يُحتفى فيها بالكرز المزهر. كنتُ أراها تتزيّن، فأحسدها على حياتها المنفلتة. غادرني كل أمل في رؤية ساتسو تدلف إلى الأوكيا ذات مساء وتنتزعني من جحيمي، إلى أن أتى يوم نزلت في صباحه الدرج، فوجدت على أرض المدخل علبة بطول ذراعي مغطّاة بورق ثخين وملفوفة بخيط غليظ. بما أن أحداً لم يكن في الجوار، فقد سمحتُ لنفسي بقراءة الاسم والعنوان المكتوبين في أعلى العلبة بخط غليظ:

ليد نيتا كاكويو

مدينة كيوتو، محافظة كيوتو

WWW.REWITY.COM

وقفتُ مسمّرةً ويدي على فمي، وعيناي جاحظتان، فقد كان عنوانِ المرسِل هو عنوان السيد تاناكا. لم أعرف ما في داخل العلبة، ومع ذلك فإني عندما رأيتُ اسم السيد تاناكا ـ وقد تجد ذلك تافهاً ـ أملتُ أن يكون قد ندم وأرسل إليّ ما يسمح لي باسترداد حريتي. لا أفهم ما هو نوع الطرود التي يمكن أن تُخلِّص فتاة من عبوديتها ـ لقد عانيت في تخيل ذلك لحظتها. ولكني اعتقدتُ بصدق أنه عندما سيُفتح هذا الطرد، فلن تبقى حياتي على ما هي عليه.

قبل أن يتاح لي أن أفكر أكثر، نزلت تاتي الدرج وطلبت إليَّ أن أترك الطرد، رُغمَ أن اسمي مكتوبٌ عليه. أحببتُ أن أفتحه بيدي، لكنها طلبت سكيناً لتقطع الخيط.

بعد ذلك، تمهلت في نزع الورق الذي وُضع تحته قماش حقائب مخيط بخيوط الصيادين. وكانت رسالة مخيطة إلى الحقيبة من زاويتها مع مغلف يحمل اسمي. فصلت تاتي الرسالة، ثم مزقت القماش، فظهرتْ علبة من الخشب الغامق. في البداية، تشوَّقتُ لمعرفة ما بداخل العلبة، ولكن عندما رفعت تاتي غطاء العلبة، أصابني ذهول، لأني لمحت بين ثنايا الكتّان الأبيض الألواحَ الجنائزيةَ الصغيرةَ التي كنت أراها دائماً في هيكل أهلي في بيتنا السكران. رأيت منها اثنين حديثين على ما يبدو، يحملان أسماء بوذية لم أفهمها، ولم أفلح في فك رموزها. أرعبني مجرد التساؤل لماذا أرسلها السيد تاناكا.

تركت تاتي العلبة على الأرض مع الألواح المصفوفة بعناية في الداخل، أخرجتْ العلبة من المغلف وقرأتها، وبقيتُ واقفة أمامها أنتظر أن تفرغ من القراءة، عاجزة عن التفكير والخوف يتملّكني.

بدا لي أن الزمن توقف. أطلقت تاتي زفرة عميقة، ثم أمسكت بي من ذراعي وأخذتني إلى الصالون. جثوت قرب الطاولة، ووضعت يديَّ المرتعشتين على ركبتيَّ ـ لا بدّ أني كنت أرتعش من فرط الجهد في طرد الأفكار السيئة. حاولت أن أتشجع: ماذا لو كان ما أرسله

إليَّ السيد تاناكا فألاً حسناً؟ ماذا لو أن أسرتي أتت لتستقرّ في كيوتو؟... وقد نشتري هيكلاً جديداً نضع أمامه الألواح الجنائزية! ماذا لو أرسلت ساتسو تطلب أن يُرسلوا إليّ، لأنها عادت إلى كيوتو؟... قطعت تاتي حبل أفكاري فجأة، قائلةً بصوت أجش وبطيء:

ـ شيو! سوف أقرأ عليك رسالةً أرسلها إليكِ رجل يدعى تاناكا إيشيرو.

حبستُ أنفاسي طوال الوقت الذي فتحت فيه الورقة على الطاولة.

عزيزتي شيو،

هاقد مر فصلان على مغادرتك يورويدو. قريباً ستتفتح الأزهار على الأشجار، وستحلُ محل أزهار الفصل السابق. إنها تذكرنا أننا سنموت ذات يوم.

لكوني تيتمتُ منذ زمن طويل، كم يسوؤني أن أبلغكِ خبراً سيئاً! بعد ستة أسابيع من سفرك للعيش في كيوتو توقفت آلام أمك، وبعد عدة أسابيع فقط، غادر أبوكِ أيضاً هذا العالم. لكم يؤلمني هذا الموت الذي ألمّ بأهلك! ولكن اعلمي أن رفاتهما قد ووريت في مقبرة القرية. وحصل كل منهما على الخدمة الدينية في معبد هوكو ـ جي في سنزورو، وقد غنت نساء يورويدو السوترا. وإني، أنا الإنسان الذليل، على ثقة من أن أبويك يسكنان الآن الجنة.

إن مهنة الجيشا تتطلب إعداداً قاسياً. ومع ذلك، فإن الإنسان الذليل، الذي هو أنا، يمتلئ إعجاباً بالذين يعرفون كيف يحولون آلامهم إلى أفعال خلاّقة ويصبحون فنانين عظماء. منذ بضع سنوات، عندما زرتُ جيون، تشرفتُ برؤية «رقصات الربيع»، وبحضور أحد الاحتفالات في بيتٍ للشاي. لقد احتفظت بذكرى لاتمّحي عن تلك الزيارة. إن الذي يطمئنني بعضَ الشيء هو أنكِ

WWW.REWITY.COM

وجدتِ لنفسكِ بيتاً. أنتِ إذاً في منأى عن هذا العالم القاسي. لقد عاش الإنسان الذليل، الذي هو أنا ما يكفي ليرى أولاده يكبرون.

إنه يعرف كم من النادر أن تنجب عصافير عاديةٌ بجعاً! وطائر البجع الذي يبقى في شجرة أبويه يموت. لهذا يجب على الجميلين والموهوبين أن يشقّوا طريقهم بأنفسهم.

أختكِ ساتسو أمضت السنة الماضية في يورويدو، في نهاية الخريف الماضي. ولم تلبث أن هربت من جديد، هذه المرة مع ابن السيد سوجي. يأمل السيد سوجي أن يرى ابنه العزيز، ويسألكِ أن تخبريه فور حصولك على أخبار أختك.

تحياتي لكِ

تاناكا إيشيرو

قبل أن تنهي تاتي قراءة الرسالة، رحتُ أبكي بدموع حرّى. فقد كان قاسياً عليّ أن أعلم خبر وفاة أحد والديّ. لكن اكتشاف أن أمي وأبي قد قضيا، وأني وحيدة في هذا العالم، وأن أختي قد اختفت إلى الأبد... تهاويتُ في جزء من الثانية كمزهرية انكسرت. أحسست بالضياع حتى في هذا الصالون.

قد تجدني ساذجة إذ أعتقد أن أمي مازالت على قيد الحياة. ولكن الأشياء، التي وضعتُ أملي فيها كانت قليلة إلى حد أني تعلّقتُ بأي شيء. جاهدتُ لكي أتمالك نفسي. بَدَتْ تاتي متفهّمة، إذ لم تكفّ عن القول:

«لا تنهاري يا شيو. يجب أن تقاومي. ليس لدينا خيار في هذا العالم».

وعندما أصبحت قادرة على الكلام، طلبتُ إلى تاتي أن تضع الألواح في مكان لا أستطيع أن أراها فيه، وأن تصلّي بدلاً عني. كنت أحسستُ بكثير من العناء في القيام بذلك بنفسي. ولكنها رفضت، قائلةً:

- يجب أن تخجلي لأنك تريدين أن تنسي أهلك.

ساعدتني على وضع الألواح على رفّ في أسفل الدرج بحيث أستطيع أن أصلّي أمامها كل صباح. وأضافت:

- لا تنسيهما يا شيو - شان! فهؤلاء الأشخاص هم كل من بقي لك من طفولتك.

9

بعد قليل من عيد ميلادي الخامس والستين، أرسلت لي إحدى صديقاتي مقالاً عنوانه: «أعظم عشرين جيشا في جيون». أو ربما كان أعظم ثلاثين جيشا، لستُ أذكر. كان اسمي مدوّنٌ في القائمة. حتى كان هناك مقال صغير عني. قيل إني ولدتُ في كيوتو، وذلك خطأ طبعاً. كذلك لم أكن من بين أول عشرين جيشا في جيون. بعضهن يحبّ التزويق. وبعد، قبل أن يكتب إليّ السيد تاناكا ليخبرني بوفاة والديّ، وأني قد لا أرى أختي أبداً، كنتُ أمشي في طريق الجيشا - جيشا متواضعة وبائسة بكل تأكيد، ولكن كان ذلك موقف مميز.

كان بعد ظهر ذلك اليوم الذي قابلت فيه السيد تاناكا أفضل بعد ظهر وأسوأه في آن واحد. لقد سبق وقلت ذلك. هل لي أن أوضح لماذا هو أسوأ؟ بالطبع لا. ولكن كيف تسنّى لي أن أتخيّل أن لقاءً كهذا يمكن أن يكون سعيداً؟ حتى الآن، فإن السيد تاناكا بالنسبة إليّ هو مصدر للمتاعب. لكنه أيضاً قذفني إلى عالم آخر. حيواتنا تسيل كأنهار في سفح الجبل: إننا نسير في الاتجاه نفسه إلى أن يضطرنا عائق ما إلى أن ننفجر إلى ألف قطرة ونغيّر مجرانا. لو لم أقابل السيد تاناكا لَبَدَتْ حياتي كجدولٍ صغير ينحدر من بيتنا السكران إلى المحيط. غيّر السيد تاناكا هذا كله. لم ينتزعني من بيتي فحسب، بل قذفني إلى العالم الرحب. كنتُ في جيون منذ أكثر من ستة أشهر عندما تلقّيتُ رسالته. ولكني لطالما ظننت أن حياةً أرحم تنتظرني

www.rewity.com KRAYAHEEN

WWW.REWITY.COM

في مكان آخر مع جزء من أسرتي. وفيما تبقّى من الوقت كنتُ أحلم بالعودة إلى بيتنا. لذا يمكن أن تكون الأحلام أثمن: إنها تكمن كالنار، وأحياناً تستهلكك تماماً.

خلال نهاية الربيع، وطوال الصيف الذي تلا وصول الرسالة، أحسستُ بأني طفلة تائهة على ضفة بحيرة في يوم ضبابي. توالت الأيام متشابهة. أتذكر نتفاً من الأحداث فقط يلفّها شعور بالخوف الألم. ذات مساء شتوي بالغ البرودة بقيت وقتاً طويلاً في جناح الخادمات أتأمل الثلج وهو يتساقط في باحة الأوكيا. تخيلتُ أبي وهو يسعل وحيداً على الطاولة في ذلك البيت الخاوي، وأمي متمدّدة على فوتونها بالغة النحول حتى لا يكاد جسمها أن يترك أثراً على الشرشف. حَبَوْتُ في الباحة محاولةً الهروب من عذابي، ولكنّ المرء لا يستطيع الفرار من ألم بداخله.

في بداية الربيع، وبعد عام من تبلّغي ذلك النبأ الأليم عن أسرتي، حدث حادث غير متوقّع. لقد كنا في شهر نيسان، فترة إزهار الكرز، ربما بعد عام من وصول رسالة السيد تاناكا، باليوم تقريباً. كنت آنذاك في نحو الثانية عشرة من عمري، وبدأتُ أشبه المرأة رغم أن بومبكين ما زالت تحتفظ بهيئتها الطفلية. قاربت امتلاك قامتي كبالغة. بقي جسمي ناعماً وأعجر كغصن طوال سنة أو سنتين تاليتين، لكن وجهي كان قد فقد استدارته الطفلية. صار أوسع. والذقن والوجنتان أبرز، وأتخذت عيناي شكل لوزتين. حتى الآن، كان الرجال الذين يصادفونني في الشارع لا يتنبّهون إليّ أكثر من انتباههم لحمامة. ولكن منذ بعض الوقت، صاروا ينظرون إليّ عندما أمرّ. رأيتُ من الغرابة أن أكون موضع اهتمام بعد طول تجاهل.

ذات صباح نيساني، استيقظتُ باكراً بعد أن حلمتُ برجل ملتحٍ. حلم مضحك. كانت لحية هذا المجهول كثة إلى درجة أن ملامحه بدت غائمة وكأن صورته تعرّضت للرقابة. وقف أمامي، وقال لي كلاماً ما، لم أستطع تذكره عند استيقاظي، ثم فتح إحدى الستائر على نافذة بطقطقة. استيقظتُ وأنا أظن أني سمعتُ أصواتاً في

الغرفة. الخادمات يتنفسن في نومهن، وبومبكين تنام بهدوء ووجهها المدوَّر يستريح على الوسادة. لم يتغيّر شيء من حولي. ومع ذلك أحسستُ بأني اكتشفتُ عالماً مختلفاً عن الليلة الماضية ـ أني نظرتُ من النافذة التي فُتِحَتْ في الحلم.

كنتُ عاجزة عن تفسير ذلك الحلم، ولكنه تابع الإلحاح عليّ وأنا أكنس بلاط الباحة في ذلك الصباح، مما أسمعني طنيناً في أذنيّ: كانت تلك الفكرة تدور في رأسي كنحلة في حوجلة. وضعتُ المكنسة وذهبتُ للجلوس في الممر الترابي. أحسستُ بالحر، فتمتّعت بتيار الهواء البارد الآتي من تحت البيت لينعش ظهري. فجأة تذكرتُ أمراً لم أفكر به منذ أن أتيتُ إلى كيوتو.

ذلك إني بعد يومين من انفصالي عن أختي بعد تلك الظهيرة، أرسلوني إلى غسل الخِرق في الباحة. حطّت أرفيةٌ على ذراعي، طردتها بنقرة من إصبعي ظناً مني بأنها ستطير، ولكنها سقطت على الأرض كحصاة ولم تتحرك.

هل قتلتُ تلك الفراشة، أم هي ميتة منذ أن سقطت من السماء؟ لا يهم. لقد أدهشتني نعومتها والرسوم التي على جناحيها، ثم وضعتها في خرقة وخبّأتها تحت البيت خلف حجر كبير.

كنتُ قد نسيتُ تلك القصة تماماً، ولكن ما إن تذكرتُ الفراشة حتى سارعتُ إليها تحت البيت فوجدتها. أشياء كثيرة تغيرت! لم أعد فتاة صغيرة. ولكني عندما أخرجت الفراشة من كفنها، وجدت تلك المخلوقة الحبيبة التي وضعتها قبل عام. بدت لي وكأنها تلبس كيمونو في تلك الألوان البنية والرمادية الغامقة كذلك الذي تلبسه الأم لكي تلعب بالماه ـ جونغ مساءً. بدا لي كل شيء في تلك الفراشة جميلاً، كاملاً بلا تغيير. ثمة أمر لم يتغيّر منذ قدومي إلى كيوتو... مع تلك الفكرة أخذ دماغي يدور مسرعاً. هذه الفراشة وأنا كنا طرفين. فحياتي غير مستقرة كنهر. أما تلك الفراشة، فإنها ثابتة كحجر. أدنيت إصبعي منها لكي ألمس بشرتها الموبرة، ولكن ما إن لمستها حتى تحولت إلى كومة من الرماد دوَن أن أتمكن من رؤية تحولها. أطلقتُ صرخة وأنا مذهولة. توقفت مغامرتي فجأة.

www.rewity.com ^RAYAHEEN^
WWW.REWITY.COM

أحسستُ وكأني دخلتُ إلى عين الإعصار. تركت الكفن وكومة الرماد يسقطان أرضاً. أخيراً فهمتُ ما أربكني طوال الصباح: لقد هبّت الريح على الهواء الفاسد. لقد تفتت الماضي. لقد مات أبي وأمي ولم أعد أستطيع فعل شيء، ولكن لا بدّ أني متُّ أنا أيضاً بطريقة ما منذ نحو عام. بالنسبة إلى أختي، لقد رحلت... أما أنا، فإني ما أزال هنا. لستُ أدري ما إذا كنتَ تتابعني، ولكن كان لديّ انطباع بأن أنظر في اتجاه جديد، ليس إلى الماضي بل إلى المستقبل. وتساءلتُ: ما هو هذا المستقبل؟

في نفس اللحظة التي طرحت فيها السؤال، عرفتُ أني سأتلقّى علامة عن مصيري قبل نهاية النهار. لهذا فتح الملتحي النافذة في الحلم. قال لي:«انظري جيداً إلى ما يبدو لكِ. إنه مستقبلك.»

لم يكن لدي الوقت لمتابعة تفكيري، لأن تاتي نادتني:

ـ تعالي إلى هنا يا شيو!

* * *

عدتُ في الممر الترابي وأنا في حالة غير طبيعية. ماكان ليفاجئني لو أن تاتي قالت لي:«أتريدين أن تعرفي مستقبلك؟ إذاً، خذي...»، لكنها مدت إليّ شكلتين من تلك التي تضعها الجيشاوات في شعورهن، موضوعتين في مربع من الحرير الأبيض. قالت:

ـ خذي! الله وحده يعرف ما فعلته هاتسومومو مساء أمس. لقد عادت إلى الأوكيا وفي شعرها شكلات فتاة أخرى. لا بدّ أنها شربت كثيراً من الساكي. اذهبي إليها في المدرسة واسأليها لمن هذه الشكلات وأعيديها إلى صاحبتها.

أعطتني تاتي قائمة من المشتريات، وأمرتني أن أعود إلى الأوكيا فور شرائي المواد، وإعادة الشكلات.

إن عودة هاتسومومو إلى الأوكيا ومعها شكلة فتاة أخرى حدثٌ يبدو تافهاً. ولكن ذلك كان كما لو أنها تبادلت سروالها الداخلي مع صديقتها. فالجيشاوات لا يغسلن شعورهن كل يوم لأنهن لا يستطعن أن يسرّحنها بأنفسهنّ. كما إن الشكلات التي

يضعنها في شعورهن أدواتٌ حميمة. وتاتي لا تريد أن تلمسها، لذا وضعتها في مربع حريري وغلّفتها قبل أن تناولني إياها. بدت العلبة كالفراشة المخبأة في كفنها، وهي ما تزال في يدي حتى دقائق خلت. بكل تأكيد لا معنى لأية علامة ما لم تُفسَّر. بقيت واقفة أرقب العلبة في يد تاتي حتى قالت لي:«خذيها بحق السماء!»

بعد بضع دقائق، وأنا في طريقي إلى المدرسة، فتحتُ العلبة لأرى الشكلات من جديد. رأيتُ مشطاً من اللكّ الأسود على شكل شمس غاربة، وعلى حوافه رسوم لأزهار مذهّبة. كانت الشكلة الثانية عبارة عن عصية شقراء اللون، وعلى كل طرف من طرفيها لؤلؤة وبينهما في الوسط كرة صغيرة من العنبر.

وقفتُ أمام سور المدرسة أنتظر الجرس معلناً نهاية الدرس، وسرعان ما تهافتت الفتيات إلى الباب وهنّ يلبسن كيمونوهات باللون الأزرق والأبيض. رأتني هاتسومومو حتى قبل أن أراها، فاقتربت مني بصحبة جيشا أخرى، يمكن التساؤل عما تفعله في المدرسة. في الواقع، لقد كانت مغنية ناجحة، وتعرف كل ما يجب أن تعرفه الجيشا. اعلم أن الجيشاوات يجب أن يتعلّمن الرقص طوال فترة مزاولتهنّ للعمل. حتى المسنّات منهن يأخذن دروساً لرفع المستوى حتى سن الخمسين وربما الستين.

قالت هاتسومومو لصديقتها:

ـ انظري! لا بدّ أنها عشبة سيئة. عشبة سيئة تكبر بسرعة.

كانت تلك طريقتها في السخرية من قامتي. ومع ذلك، فإني الآن أطول منها بسنتيمترين. قلت لها:

ـ لقد أرسلتني تاتي يا سيدتي لكي تعرف ممن سُرقتِ هاتين الشكلتين مساء أمس.

تبدّدتْ ابتسامة هاتسومومو، واختطفت العلبة الحريرية من يدي وقالت:

ـ إنهما ليستا لي... أين وجدتهما؟

قالت الأخرى:

WWW.REWITY.COM

ـ أوه يا هاتسومومو ـ سان! ألا تذكرين؟ لقد تبادلتِ وإياها الشكلتين وأنتما تلعبان تلك اللعبة الغبية مع القاضي أوازومي. ستعود كاناكو إلى بيتها بشكلتكِ، وأنتِ ستعودين بشكلتها.

قالت هاتسومومو:

ـ هذا مقرف! متى غسلت كاناكو شعرها آخر مرة برأيك؟ ولكن أوكيّاها بجانب أوكيّاكِ؟ أتسمحين بالذهاب إليها بدلاً عني؟ قولي لها إني سآتي لآخذ الشكلات فيما بعد، وإن من صالحها أن تعيدها إليّ.

أخذت الأخرى الشكلتين، ثم قالت لي هاتسومومو:

ـ لاتذهبي يا شيو! أترين تلك الفتاة الصغيرة هناك، تلك التي تتجه نحو السور؟ إنها تسمى إيشيكيمي.

نظرت إلى إيشيكيمي. لا يبدو أنَّ هاتسومومو لديها ما تقوله عنها. تمتمتُ:

ـ أنا لاأعرفها.

ـ بالتأكيد أنت لاتعرفينها. ليس لديها ما هو غير عادي، إنها حمقاء، وشبه عاجزة. ولكني أريد أن تعرفي أنها ستصبح جيشا، أما أنتِ فلا.

هل كان بإمكان هاتسومومو أن تقول أقسى مما قالت؟ ها قد مرَّ عامٌ ونصف العام وأنا خادمة، محكومةٌ بعملٍ منحط. أحسستُ وكأن حياتي تمتد أمام عينيَّ كطريقٍ طويل لايؤدي إلى أي مكان. هل أردتُ أن أصبح جيشا؟ لا. ولكني ما أردتُ أن أبقى خادمة. خلال عدة دقائق نظرت إلى الفتيات اللواتي في سني وهنَّ يخرجنَ من المدرسة ويتحدثن. ربما كنَّ عائدات لتناول الغذاء، لكنهنَّ بدَون لي يعشنَ حياةً مثيرةً، في حين أنني سأعود إلى الأوكيّا لغسل البلاط في الباحة. خَلَت الحديقة ولم أتحرك ربما كان ذلك العلامة التي كنتُ أنتظرها: قد تذهب فتيات أخريات في جيون في طريقهنَّ، أما أنا فسأبقى خادمةً. أرعبتني تلك الفكرة وسرعان ما غادرت الحديقة. مشيتُ في جادة شيجو، وانعطفتُ باتجاه نهر كامو. تلك الظهيرة،

كانت اللوحات الضخمة لمسرح ميناميزا تعلن عن عرضٍ للكابوكي، عنوانه «شيباراكو». كانت تلك أهم المسرحيات التي منْ ذلك النوع، رُغمَ أني لاأعرف شيئاً عن الكابوكي في تلك الآونة. كان جمهورٌ غفير يصعدُ أدراج المسرح. على قماش الأرضية للبدلات الغامقة على الطراز الغربي، ظهرت عدة جيشاوات كيمونوهاتهنَّ ملونة كأوراق الخريف على مياه نهرٍ عكرة. مرةً أخرى أشهد حياةً مثيرةً أُقصيتُ عنها. سارعت إلى مغادرة ذلك الشارع، وسلكت زقاقاً عرضانياً يؤدي إلى نهر شيراكاوا. ولكن كان هناك شيءٌ غريب، حتى النهر كان يلمع فرحاً لأن لديه هدف هو أيضاً: الالتقاء بنهر كامو في خليج أوساكا، ثم بالبحر الداخلي. يبدو أن الرسالة نفسها أعطيت لي أينما حللتُ. ركضتُ حتى الجدار الحجري الصغير على ضفة النهر، ثم انفجرتُ باكيةً. لقد كنتُ جزيرةً مهجورةً بلا ماضٍ وبلا مستقبل. سرعان ما أحسست أني مقطوعةٌ عن كل إنسان عندما سمعت صوت رجلٍ يقول لي:

ـ أهكذا تبكين في نهارٍ جميل كهذا!

لم يكن الرجال ينظرون إلى الفتيات مثلي في شوارع جيون، فما بالك إذا كن يبكين. ولنفترض أن رجلاً لاحظ وجودي، فإنه لن يكلمني إلا ليطلب مني أن أبتعد عن طريقه. وذاك الرجل كلمني، وبلطفٍ أيضاً، كما لو أنني كنتُ صبيةً من مقامٍ اجتماعي رفيع ـ ابنة أحد أصدقائه مثلاً. بعد لحظة تخيلتُ عالماً، مختلفاً كل الاختلاف عن عالمي، أُعامَل فيه بإنصافٍ بل وبرحمةٍ ـ عالم لايبيع فيه الآباء بناتهم. توقفت جلبة تلك الحيوات المضطربة، أو على الأقل كففتُ عن سماعها. انتصبتُ لأنظر إلى الرجل الذي كلمني، فأحسست أني تركت كل المآسي خلفي على هذا الجدار الحجري.

أودُّ أن أصفه لك ولا أجد إلا طريقةً للقيام بذلك: أن أحدثك عن شجرته، على حافة الجروف في يوريودو، شجرة أصبحت لطيفةً كقطعة خشبٍ تتموَّج أمام هجمات الرياح. ذات يوم، وكنت إذ ذاك في الخامسة أو السادسة من عمري، لاح لي وجهُ رجلٍ على جذع شجرة. وبالتحديد رأيتُ منطقةً ناعمة بقطر طبقٍ مع انحنائين

WWW.REWITY.COM

زاويين على الجانبين يمثّلان الوجنتين. كانت تلك البوارز تعكس ظلالاً تذكر بمداراتٍ. وتحت هذه الظلال ظهرت حدبةٌ ناعمةٌ تشبه الأنف. كان هذا الوجه المائل قليلاً ينظر إليّ نظرةً مستفهمةً. إنه وجه رجلٍ وجد مكانه في هذا العالم كشجرةٍ. يظهر ذلك الصفاء! لقد كان أمامي وجه بوذا.

كان للرجل الذي حدّثني في ذلك الشارع وجهٌ منفرج الأسارير ومنفتح، وتقاسيمه منتظمة تعلوه مسحة صفاء. انتابني إحساس بأنه سيبقى واقفاً أمامي حتى يتبدد حزني. كان في الخامسة والأربعين من عمره تقريباً، وشعره أشيب مردود إلى الخلف. لكني لم أستطع أن أنظر إليه طويلاً، فقد بدا لي أنيقاً إلى درجة أني احمرّيت خجلاً، وحوّلتُ نظري عنه.

إلى يمينه وقف رجلان أصغر منه سناً، وإلى يساره إحدى الجيشاوات. سمعتها تقول له همساً:

- ماهي إلا خادمة! لا بدّ أنها تعثرت بشيء ما، وستجد من يساعدها، فلا تقلق.

- أريد أن يكون لي الإيمان نفسه بالكائن البشري يا إيزوكو - سان.

- سيبدأ العرض قريباً أيها الرئيس. وأنت لن تتأخر أكثر، برأيي...

كنت قد التقيت «بمدراء» و «نواب رؤساء» في جيون، أما الرؤساء فكانوا أقل عدداً وضُلّعاً عموماً، يسيرون في الشوارع متجهمين مع جيش من المساعدين الشبان. لا بدّ أن هذا الرجل يدير شركة أصغر لأنه كان مختلفاً جداً عن بقية الرؤساء. لقد أحسستُ ذلك بالفطرة، رُغمَ كوني فتاة صغيرة بلا أية تجربة. فرئيس شركة كبرى لا يتوقف أبداً في الشارع لكي يكلمني.

قال:

- أتظنين أن بقائي لمساعدتها مضيعة للوقت؟

WWW.REWITY.COM

- أوه لا! لقد تأخرنا، وربما فاتتنا بداية العرض.

- أوه يا إيزوكو - سان، أنا على ثقة بأنكِ، أنتِ أيضاً، قد عشتِ لحظات من اليأس. فليست حياة الجيشاوات رغيدة باستمرار. لن تخالفيني الرأي. أظن أنكِ، أكثر من أي شخص آخر...

- لو أني كنتُ «أنا» في هذه الحالة، فهل تقصد أيها الرئيس أني سألعب هذا المشهد في الشارع؟

لم يجب الرئيس، بل التفت إلى مرافقيه وطلب إليهم أن يسبقوه مع إيزوكو. انحنوا وتابعوا طريقهم. وبقي الرئيس بجانبي ينظر إليّ طويلاً وأنا لا أجرؤ على النظر إليه. تمتمتُ أخيراً:

- اعذرني يا سيدي! لكن الذي قالته صحيح. إني مضحكة... لا تتأخر من أجلي أرجوك!

- ارفعي رأسكِ!

لم أجرؤ على مخالفته رُغمَ أني لم أفهم ما يريد. أخرج منديلاً من جيبه ليمسح الحصى التي بقيت عالقة على جبيني. وأنا واقفة إلى جانبه استطعت شم رائحة البودرة على بشرته الناعمة. ذكّرني ذلك باليوم الذي أتى فيه ابن أخ الإمبراطور تايشو إلى قريتنا، فكل ما فعله أنه نزل من عربته وسار حتى نهاية شبه الجزيرة، ثم عاد وهو يحيّي الصيادين الذين جثوا على جانبي الطريق بهزة من رأسه. كان يرتدي بدلة على الزي الغربي، ذلك أول ما لاحظته. كما كان يطلق شاربيه بعكس رجال قريتنا الذين كانت لحاهم غير المشذبة تشبه النباتات المجنونة على جانبي الطريق. كانت تلك أول مرة تأتي فيها شخصية هامة إلى قريتنا. أتخيل أننا شُدهنا جميعاً بتلك الإطلالة النبيلة.

قد تحصل في الحياة أمور تتجاوز فهمنا لمجرد أننا نجهلها. أثّر فيّ ابن أخ الإمبراطور ذلك التأثير. والرئيس أيضاً، عندما جفف دموعي وأزال الحصى عن وجنتيّ. وضع يده تحت ذقني ورفع رأسي، قائلاً:

- كفى، أراكِ جميلة، وليس لديكِ أي مبرر لتخجلي، ومع ذلك

فأنتِ تخافين أن تنظري إليّ. لقد قسا عليك أحدهم، أو أن القدر هو القاسي.

كذبتُ قائلة:

ـ لستُ أدري يا سيدي.

ـ ما من أحد يجد كثيراً من اللطافة في هذا العالم.

رفّ بعينيه قليلاً كما ليحثّني على التفكير بالأمر.

كم أحببت أن أتأمل ذلك الوجه ذا البشرة الناعمة، وذلك الجبين، وتلك الأهداب التي بدت كغمدين من الرخام على عينيه الناعمتين. ولكن كان بيننا فارق اجتماعيّ معين! أخيراً تجرأتُ على النظر إليه، ثم سارعتُ إلى تحويل بصري من الخجل. وربما لم يعرف أنني نظرتُ إليه. كيف لي أن أصف ما رأيتُ في تلك اللحظة؟ كان ينظر إليّ كموسيقي ينظر إلى آلته قبل أن يبدأ العزف، كأنه يفهمها، وله سطوة كبرى عليها. نما لديّ انطباع بأنه كان يستطيع أن يرى فيّ كما لو أني جزء منه. كم أحببتُ أن أكون الآلة التي سيعزف عليها!

دسّ يده في جيبه وأخرج شيئاً، ثم قال:

ـ أتحبين الخوخ أم الكرز؟

ـ تريد أن تقول إذا كنتُ أحبُّ أن آكل منها؟

ـ منذ دقيقتين رأيتُ بائعاً متجولاً يبيع الفواكه. لم يكونوا يعطونني منها عندما كنتُ صغيراً، ولكني واثق من أنني كنتُ سأحبّ ذلك. خذي هذه النقود واشتري منها. وهذا منديلي أيضاً، خذيه، فإنك تستطيعين أن تمسحي وجهكِ فيما بعد.

وضع القطعة النقدية وسط المنديل، غلفها به وناولني إياه.

منذ اللحظة التي حدثني فيها الرئيس نسيتُ أني كنتُ أنتظر علامة قدر. ثم رأيتُ ذلك المنديل الملفوف في يده وفكرتُ بالفراشة في كفنها. أكانت تلك علامة القدر؟ أخذت المنديل، ثم انحنيتُ أمام الرئيس لكي أشكره، ثم حاولتُ أن أعبّر عن امتناني رُغمَ أن كلماتي لم تكن تستطيع أن تعكس مشاعري. لماذا كنتُ ممتنة له؟ ألأنه

أعطاني حبات الخوخ والكرز؟ أم لأنه توقف وكلمني؟ لا. لقد شكرته على أمر لستُ واثقة من أني أستطيع التعبير عنه حتى اليوم، بكل تأكيد لأنه أثبت لي بأنه مايزال هناك لطف في هذا العالم.

رأيته يبتعد وقلبي ثقيل، رُغمَ أنه ثقل محبب. بم أشيّه ذلك؟ كانكَ أمضيتَ سهرةً رائعة، وأنتَ حزين لأنها تميل إلى نهايتها، ولكنكَ فرحٌ لأنها تمت. بعد لقائي بالرئيس، كفَفتُ عن كوني فتاةً مهجورة، وجودها عبث، لأصبح فتاة لها هدف في الحياة. قد يبدو غريباً أن لقاءً قصيراً في الشارع مع شخص مجهول، يؤدّي إلى تغيير في وجودي. ولكن الأمر هكذا أحياناً. لو أنكَ كنتَ في الشارع بدلاً عني، لو أنكَ رأيتَ ما رأيتُ، ولو أنكَ أحسستَ بما أحسستُ، فقد يحصل لكَ ما حصل لي.

بعد أن غاب الرئيس عن ناظري، رجعتُ في الشارع بسرعة باحثةً عن بائع الفواكه المحببة. لم يكن الطقس قائظاً ولم يكن بي رغبة خاصة إلى الحلوى، لكنّ الأكل منها يمدّد لقائي بالرئيس. كذلك اشتريتُ مخروطاً من الورق فيه بوظة مع شراب الكرز، وذهبتُ لأجلس على الجدار الحجري. لعقتُ الشراب، فألفيتُ طعمه مدهشاً وجديداً، بكل تأكيد لأن وجود ذلك الرجل شحذ حواسي. لو أني كنتُ جيشا مثل إيزوكو لاستطاع الرئيس أن يمضي معي وقتاً أطول. لقد أتى بي إلى كيوتو بهدف أن أكون جيشا. حسنٌ. ولكن حتى الآن، سأهرب بلا تردد عند أول سانحة. تبدّى لي فجأة هذا التفكير: لم تكن الفكرة أن أصبح جيشا، بل أن «أكون» جيشا... من أجل الدخول إلى شيء آخر. إذا لم أخطئ في سن الرئيس، فإن عمره يقارب الخامسة والأربعين. فجيشاوات كثيرات يصبحن شهيرات في سن العشرين. إيزوكو نفسها يجب أن يكون عمرها في الخامسة والعشرين، وأنا كنتُ ما أزال طفلة في الثانية عشرة من عمري. اثنتا عشرة سنة أخرى وأصبح جيشا. أما بالنسبة إلى الرئيس، فلن يكون أكبر سناً من السيد تاناكا الآن، أي ليس أكبر من ذلك.

لقد أعطاني الرئيس مالاً أكثر مما يجب لشراء الفواكه. وقد

WWW.REWITY.COM

بقي معي بعض الفراطة: ثلاث قطع مختلفة. فكرتُ أن أحتفظ بالقطع، ثم فطنتُ إلى أنها قد تنفع في غاية أخرى أساسية.

وصلت بسرعة إلى جادة شيجو، ثم ركضت حتى شرقي جيون حيث يقع معبد الشنتو. صعدتُ الدرج خائفةً من المرور في البوابة الكبرى مع سطحها الجملون، ودرتُ حولها. اجتزتُ الباحة المفروشة بالحصى، وصعدتُ جزءاً آخر من الدرج، واجتزت سور«توري» ودخلتُ إلى داخل المعبد. ألقيت القطع في صندوق التبرعات، وكان مبلغاً قد يكفيني لمغادرة جيون. ثم لفتُ انتباه الآلهة إليّ بعد أن صفقتُ بيدي ثلاث مرات وأنا أنحني. أغمضتُ عينيّ وضغطتُ يديّ إحداهما على الأخرى، ثم صليتُ من أجل أن يُسمح لي أن أصبح جيشا. سوف أهضم أي تعليم مهما كان صعباً، وسأتحمل أي حرمان، أملاً مني في إثارة اهتمام رجل مثل الرئيس.

فتحتُ عينيّ من جديد. سمعت أصوات العربات في جادة هيغاشي ـ أوجي. كانت الأشجار تتمايل مع الرياح كما كانت تفعل منذ قليل. لم يتغير شيء. هل سمعتني الآلهة؟ مستحيل أن أعرف. دسستُ منديل الرئيس في كم كيمونوي، ودخلتُ إلى الأوكيا.

10

بعد عدة أشهر، ذات صباح بينما كنا نرتب الألبسة الداخلية «رو» ـ وهي من الشف الحريري الخفيف من أجل الصيف ـ ونخرج «الهيتوي» ـ غير المبطن من أجل الخريف، غزت المدخل رائحة رهيبة. أحسستُ بالاختناق ورميتُ الألبسة الداخلية التي بيدي. كانت تلك الرائحة آتية من غرفة غراني. ركضتُ إلى الطابق العلوي لأخبر تاتي، فقد أحسستُ أن خطباً قد حصل. نزلت تاتي الدرج بأسرع ما سمح لها عرَجُها. دخلت الغرفة فوجدت غراني ممددة على الأرض بلا حراك. لقد ماتت العجوز بطريقة غريبة.

WWW.REWITY.COM

كانت الوحيدة في الأوكيا التي لديها جهاز تدفئة، تشغله كل مساء باستثناء الصيف. كنا في بداية أيلول، بالكاد بدأت غراني استخدام ذلك الجهاز، وهذا لا يعني أن الطقس بدأ يبرد. كنا نعتمد على الروزنامة لتغيير الملابس، وليس على درجة الحرارة في الخارج. لا بدّ أنَّ تاتي كانت تحرص على تشغيل التدفئة لأنها عانت كثيراً من البرد في حياتها.

في الصباح كانت تلفّ السلك حول الجهاز ثم تدفع هذا إلى الجدار، مع مرور الوقت أحرق المعدن الساخن عازل الوقاية على السلك، بحيث إنه أصبح على تماسّ مع الجهاز وأصبح ناقلاً. برأي الشرطة، لقد صعقت الكهرباء غراني عندما لمست الجهاز ذلك الصباح. ومن المحتمل أن تكون قد ماتت مباشرة وانزلقت على الأرض. كان وجهها قد لمس المعدن الحارق، فتصاعدت تلك الرائحة الرهيبة. لحسن الحظ أني لم أرها بعد وفاتها. رأيتُ ساقيها فقط وأنا أمرّ من أمام الغرفة. كانتا تشبهان غصني شجرة رفيعين مغلّفين بحرير مجعّد.

* * *

طوال الأسبوعين التاليين لوفاة غراني كنا مشغولين جداً، ليس بتنظيف البيت بأسره فحسب ـ لأن الموت في الديانة الشنتوية: هو أنجس مايمكن، بل أشعلنا الشموع، وأعددنا صواني الصدقات، وعلّقنا المصابيح على مدخل الأوكيا. وضعنا طاولاتٍ للزوار، عليها الشاي، إضافة إلى صوانٍ لكي يضع عليها هؤلاء صدقاتهم. اضطربنا إلى درجة أن إحدى الخادمات مرضت. استدعينا الطبيب، فتبيّن أنها لم تنم سوى ساعتين في الليل، وأنها لم تجلس طوال النهار، ولم تأكل إلا زبدية من المرق منذ أربع وعشرين ساعة. فوجئتُ بأن الأم كانت تنفق بغير حساب، وأنها سعت إلى أن تقترَ السوترا من أجل غراني في معبد شيونان، واشترت باقات من أزرار اللوتس لمتعهد الجنازة، كل ذلك إبان الانهيار. تساءلتُ: أكان ذلك بسبب تعلّقها بغراني؟ ولكني مالبثتُ أن فهمت سبب هذا الإخلاص: أهل جيون جميعاً أتوا إلى الأوكيا ليقدموا تعازيهم ويحضروا

الجنازة في نهاية الأسبوع، وعلى الأم أن تسيّر الأمور بحسب الأصول.

خلال عدة أيام مرت جيون كلها إلى الأوكيّا. قدمنا إلى زوارنا الشاي والكاتو. استقبلت الأم وتاتي مختلف معلمات بيوتات الشاي والأوكيات، وكذلك بعض الخادمات اللواتي كنّ يعرفن غراني، استقبلن التجار وباعة الباروكات والمزينين ومعظمهم من الرجال، وكذلك عشرات الجيشاوات. الأكبر سناً بينهنّ كن يعرفن غراني في أثناء عملها، أما حديثات السن فلم يسمعن بها، بل أتين احتراماً للأم، أو لأنهنّ كنّ مرتبطات بصداقة مع هاتسومومو بشكل أو بآخر.

كنتُ مكلفة بإدخال الزوار إلى الصالون حيث ستستقبلهم الأم وتاتي. كان الصالون على بعد خطوات قليلة من المدخل، ولكن كان يجب اصطحاب هؤلاء الأشخاص. وعلَيّ أن أتذكر صاحب كلّ زوج من الأحذية، التي عليّ أن أحملها إلى جناح الخادمات لئلا يزدحم بها المدخل، ثم أعيدها عندما يحين الأوان، مما سبّبَ لي بعض المتاعب في البداية. فليس بإمكاني أن أمعن النظر إلى الزوار دون أن أبدو قليلة التهذيب، ومن ناحية أخرى، لم تكن نظرة خاطفة كافية لأحفظ الوجوه، فميّزتها بوساطة الكيمونوهات.

في ظهيرة اليوم الثاني، فتحتُ الباب لأجمل كيمونو. بسبب الظرف، كان أسود مع شعار ورسوم لأعشاب خضراء ومذهبة عند الفتحة السفلى. تخيلتُ ذهولَ نساء يورويدو وفتياتها لدى رؤيتهنّ لكيمونو كهذا! كانت الزائرة مصحوبة بخادمتها. برأيي كانت سيدة بيتٍ للشاي أو أوكيّا، لأن قليلاً من الجيشاوات يمكنهنّ أن يبذخن باصطحاب خادماتهن. بينما كانت تنظر إلى معبد الشنتو المصغّر في مدخل الأوكيّا استغلّيتُ الفرصة واختلستُ النظر إليها. كان وجهها بيضوياً كاملاً ذكّرني بوجه إحدى نساء البلاط من عهد هيان على لوحة في غرفة تاتي، رُسِمَ بالحبر ويعود إلى القرن التاسع. لم يكن جمال تلك أخاذاً كجمال هاتسومومو، لكن ملامحها كانت كاملة! عند رؤيتها، أحسستُ بتفاهتي، وما لبثتُ أن عرفتها.

WWW.REWITY.COM

مامها، الجيشا صاحبة الكيمونو الذي أرغمتني هاتسومومو على إتلافه.

حقاً لم أكن مسؤولة عن ذلك الفعل الشائن، ومع ذلك كنت مستعدة لدفع أي شيء مقابل ألا أجد نفسي في مواجهة مامها. رافقتُ المرأتين حتى الصالون وأنا مطأطئة الرأس لئلا ترى مامها وجهي. ومع ذلك، فمن غير المحتمل أن تتعرّف إليّ: فخادمتها هي التي فتحت لي الباب عندما حملتُ إليها الكيمونو. وحتى لو أن مامها رأتني، فإن ذلك منذ عامين. أضف إلى أن الخادمة التي ترافقها هي غير تلك التي أخذت الكيمونو مني في ذلك المساء وقد طار صوابها. ومع ذلك، عندما أودعتهما في الصالون، وانحنيتُ راجعةً، أحسستُ بالارتياح.

بعد عشرين دقيقة ظهرت مامها وخادمتها من جديد في المدخل. ذهبتُ لأبحث عن حذائيهما ووضعتهما أمام الباب. حنيتُ رأسي من جديد قلقاً. فتحت خادمة مامها الباب، فظننتُ أن عذاباتي توشك أن تنتهي، ولكن للأسف! بدلاً من أن تخرج مامها، بقيت واقفة على العتبة. أحسستُ بالرعب، رفعتُ نظري إلى وجهها للحظة، كانت تنظر إليّ! سألتني بصوت وجدتُه فظاً:

ـ ماسمك أيتها الصغيرة؟

قلتُ لها إن اسمي شيو، فقالت:

ـ استقيمي يا شيو لأراكِ جيداً!

وقفتُ على رؤوس أصابع قدميّ كما أمرتني، ولكن لو كان بإمكاني أن أُدخل رأسي في رقبتي كسلحفاة، لفعلت.

ـ ارفعي رأسكِ لكي أراك، تبدين وكأنك تعدّين أصابع قدميك!

رفعتُ رأسي، لكني أبقيتُ عينيّ مخفضتين. أطلقتْ تنهيدة عميقة، ثم طلبت إليّ أن أنظر إليها. قالت بدهشة:

ـ يالهاتين العينين! إذاً أنا لم أحلم. أتقولين لي ما لونهما ياتاتسومي؟

عادت الخادمة من المدخل ونظرت إليّ، ثم قالت:

ـ رمادي ـ أزرق، ياسيدتي!

ـ ما سأقوله هو كم من الفتيات في جيون لهنّ هاتان العينان؟

لم أكن أدري ما إذا كانت مامها تتوجه إليّ، أم إلى تاتسومي. نظرت إليّ نظرة حالمة. بعد ذلك، ولحسن حظي، استأذنت وانصرفت.

* * *

تمّت جنازة غراني بعد أسبوع، في الصباح ـ كانت إحدى العرافات قد حددت ذلك الموعد. بعد ذلك أعدنا ترتيب الأوكيًا، ولكن مع إحداث بعض التغيير. سكنت تاتي في الطابق الأرضي في غرفة غراني. وبومبكين التي ستصبح بعد قليل جيشا متدربة، حلّت في الغرفة التي في الطابق الثاني وكانت تسكنها تاتي. في الأسبوع التالي وصلت خادمتان جديدتان إلى الأوكيًا. استغربتُ أن توظف الأم خادمات جديدات رُغمَ أننا أصبحنا أقل عدداً. ولكن في الواقع، لطالما شكا الأوكيًا من نقص في الخدم لأن غراني لم تكن تطيق كثرة الناس من حولها.

التغيير الأخير كان إعفاء بومبكين من مهامّها البيتية كافة لكي تتمكّن من إتقان كافة الفنون التي يجب أن تتقنها الجيشا. بصورة عامة، ليس للمتدربات كثير من الوقت للتدرُّب، لكنّ بومبكين المسكينة كانت تتعلّم ببطء. كم أشفقتُ عليها وأنا أراها تجلس كل ظهيرة في الممر لكي تتدرّب على الشاميزن لساعات طوال. كان لسانها يخرج حاداً من زاوية فمها وكأنها كانت تريد أن تلحس خدها. وعندما تلتقي نظراتنا كانت توجّه إليّ ابتسامة. كانت ساحرة، ومع ذلك كان عليّ أن أبدو صبورة، وأن أنتظر فرصة ـ قد لا تأتيني أو قد تكون فرصتي الوحيدة للخروج مما أنا فيه. وها أنا أرى سمسم يفتح لفتاة غيري. في بعض الأماسي، كنت آخذ منديل الرئيس وأشم رائحة التالك الزكية. كانت تعاودني صورة ذلك الرجل فأغوص في إحساسين: حرارة الشمس تلفح وجهي، وقساوة الجدار

WWW.REWITY.COM

الحجري على جبيني في اليوم الذي قابلته فيه. كان الرئيس بودهيزاتفايَ ذو الأذرع الألف، الرجل الذي سيساعدني. كيف؟ لا أعرف، ولكني كنتُ أصلي لكي يتدخّل في قدري.

ذات يوم، بعد نحو شهر من وفاة غراني، أخبرتني إحدى الخادمتين الجديدتين بأن لديّ زائرة. كان الطقس حاراً بصورة غريبة في ذلك اليوم التشريني. كنتُ أنضح عرقاً بعد أن نظّفتُ التاتاميات في غرفة بومبكين في الطابق الثاني بشفَاط يدوي. كانت بومبكين تُصعد إلى غرفتها أطباق الأرز خلسة، فأُضطَرُّ لتنظيف التاتاميات. مرّرت منشفة مبللة على وجهي، وأسرعتُ إلى الطابق الأرضي. وجدتُ شابة تقف في المدخل وهي ترتدي كيمونو الخادمات. جثوت أمامها وانحنيت. ثم نظرت إليها جيداً، فإذا بها خادمة مامها. لم تسرّني رؤيتها، فهي لن تحمل إليّ خبراً سعيداً. أومأت إليّ أن أخرج. انتعلتُ حذائي بسرعة وتبعتها إلى الشارع. سألتني:

ـ هل يرسلونكِ أحياناً إلى السوق يا شيو؟

مرّت ستة أشهر على محاولة هربي. وكنتُ ماأزال مضطرة لملازمة الأوكيًا. لم أفهم لماذا سألتني تلك المرأة هذا السؤال، ولكني قلتُ لها إنهنّ غالباً ما يرسلنني إلى السوق، فقالت:

ـ حسن، هيئي نفسك لتخرجي غداً في الساعة الثالثة لكي تجديني على الجسر الصغير فوق نهر شيراكاوا.

ـ نعم يا سيدتي، ولكن هل لي أن أعرف لماذا؟

قالت وهي تزمّ أنفها قليلاً كما لو أنها تغيظني:

ـ ستفهمين غداً. اتفقنا؟

* * *

لم تكن لديّ أية رغبة في اللحاق بخادمة مامها إلى حيث تقودني، لا شك إلى بيت سيدتها، التي ستوبّخني على ما فعلت. ومع ذلك، طلبت في اليوم التالي من بومبكين أن تجد لي ذريعة لترسلني

إلى السوق. خشيت أن تجلب لنفسها المتاعب، لكني وعدتها بأن أقدّر لها فعلتها. في الساعة الثالثة نادتني من الباحة:

ـ شيو ـ شان، هل تستطيعين أن تجلبي لي أوتاراً للشاميزن ومجلاتٍ للكابوكي؟

فقد نُصِحَتْ بأن تقرأ مجلات الكابوكي لكي تثقّف نفسها.

أضافت بصوت أقوى:

ـ أتوافقين يا تاتي؟

لم تجب تاتي لأنها كانت في قيلولتها في الطابق العلوي.

غادرتُ الأوكيا، ثم حاذيت نهر شيراكاوا حتى نقطة القوس التي تؤدي إلى موتويوشي ـ شو، في الطرف الآخر من جيون. كان الطقس رائعاً، وأخذ عدد من الرجال والجيشاوات يتنزهون ويتأملون أشجار الكرز التي تسقط أوراقها في الماء. على الجسر، رأيتُ بعض السيّاح الأجانب وقد أتوا ليزوروا حي جيون. لم يكونوا أول سياح أصادفهم في كيوتو، بل أثاروا دهشتي: النساء، بأنوفهن الكبيرة وشعورهن اللماعة، يرتدين أثواباً طويلة... والرجال طوال القامة، واثقون من أنفسهم، وكعوبهم تطقطق على الرصيف. أشار إليّ أحدهم بإصبعه، وهمس بلغة أجنبية، فالتفت الجميع نحوي، انزعجتُ إلى حدّ أني تظاهرت بالبحث عن شيءٍ ما على الأرض. وهكذا قرفصتُ لأهرب من نظراتهم.

وصلت خادمة مامها. اجتزنا الجسر، ثم سرنا على ضفة النهر حتى وصلنا إلى بيت سيدتها كما خشيتُ أن يحصل. عرفتُ البيت الذي أعطتني أمامه هاتسومومو وكورين الكيمونو، وأرغمتاني على صعود الدرج. وجدت من غير العدل أن تسبب لي تلك المغامرة السيئة مزيداً من المتاعب بعد هذا الوقت الطويل. فتحت الخادمة الباب السحّاب، وصعدتُ الأدراج. عندما وصلنا إلى الأعلى، خلعنا أحذيتنا، ثم دخلنا إلى الشقة. قالت الخادمة:

ـ شيو هنا يا سيدتي!

سمعت مامها تجيب من الغرفة الجوانية:

ـ حسن، شكراً يا تاتسومي!

قادتني المرأة الشابة إلى طاولة بجانب نافذة مفتوحة. جثوتُ على إحدى الوسائد واجتهدتُ في إبداء الهدوء. بعد قليل وصلت خادمة أخرى وفي يدها فنجان من الشاي وضعته أمامي، لأنه على ما يبدو لم يكن لمامها خادمة واحدة بل اثنتان. لم أتوقع أن يقدَّم إليّ الشاي. لم أعامَل هكذا منذ العشاء عند السيد تاناكا قبل عدة سنوات. انحنيتُ شكراً للخادمة، وجرعتُ بضع جرعات من الشاي، لم أشأ أن أبدو قليلة الأدب. بعد ذلك مضى وقت طويل بقيتُ خلاله جالسةً لا أفعل سوى النظر إلى مياه نهر شيراكاوا وهي تسيل.

كانت شقة مامها صغيرة، لكنها جميلة فيها تاتاميات جديدة لونها أصفر وأخضر، وتفوح منها رائحة القش. إذا ما تسنّى لكَ أن ترى تاتامية عن كثب، فسترى أنها محشوة عموماً بالقطن أو بالكتان. أما تلك فكان لها بريم حريري مع رسم أخضر أو مذهّب. في مخدع بقرب النافذة علقت لوحة مكتوبة بخط رائع تبيّن أنها هدية من الخطاط الشهير ماتسوديرا لمامها. على لوح المخدع كان هناك تشكيل من الأزهار: أغصان من شجرة قرانية في مزهرية غريبة من الأسود الغامق إلى الطلاء المبرنَق المجزَّع. وهي هدية من يوشيدا ساكوهي إلى مامها. كان ساكوهي معلم كبير في فن السيراميك «السيتوغورو»، ولقد أصبح هذا الرجل مفخرة وطنية إبان حياته في السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية.

خرجت مامها من غرفتها ساحرةً في كيمونوها الذي كان بلون الكريم مع رسوم لمويجات عند الفتحة السفلى. التفتُّ إليها وانحنيتُ على التاتامية وهي تدرج بخطى صغيرة نحو الطاولة. جثت مقابلي، وجرعت من فنجان الشاي الذي حملته إليها الخادمة. قالت:

ـ حسنٌ... يا... شيو، أهكذا؟ هلا شرحتِ لي كيف فعلتِ لكي تخرجي من الأوكيا! أنا واثقة من أن السيدة نيتا لا تحبّذ أن تخرج إحدى خادماتها إلى السوق بعد الظهر!

WWW.REWITY.COM

لم أتوقع سؤالاً كهذا. ولم أجد ما أقوله رُغمَ أني أعرف أن عدم الرد قلة ذوق. رشفت مامها الشاي وهي تنظر إليّ. بدا على وجهها البيضوي تعبير مرحَب. قالت أخيراً:

ـ لا تعدّي ذلك تعنيفاً. كل ما قصدتُه هو أن أتأكد من أنكِ لم تعاني في المجيء.

طمأنني كلامها، فقلت:

ـ لا يا سيدتي، من المفترض أني الآن أشتري مجلات كابوكي وأوتاراً للشاميزن.

ـ أوه، لديّ كثير من هذه المجلات.

نادت خادمتها وأمرتها أن تجلب بعض مجلات الكابوكي وتضعها على الطاولة أمامي. ثم قالت:

ـ ستأخذينها عند خروجك، وهكذا لن يسألك أحد أين كنتِ. والآن قولي لي، عندما كنتُ في تعزيتكم رأيتُ فتاة أخرى من سنك.

ـ لا بدّ أنها بومبكين، أكان وجهها مستديراً؟

أرادت مامها أن تعرف لماذا أدعوها بومبكين. ضحكت عندما قلتُ لها، ثم أضافت:

ـ وهذه البومبكين هل هي على وفاق مع هاتسومومو؟

ـ برأيي يا سيدتي، إن هاتسومومو لا تعيرها اهتماماً أكثر مما تعير لورقة ملقاة في الباحة.

ـ يا للشعر في كلامكِ! ورقة ملقاة في الباحة. وهل تعاملكِ هاتسومومو بالطريقة نفسها؟

فتحتُ فمي لأتكلم، لكني ترددتُ: هل يجب أن أقول الحقيقة؟ فأنا لا أعرف مامها كثيراً. كما إنه من غير اللائق الحديث بسوء عن هاتسومومو لشخص من خارج الأوكيا. بدت مامها وكأنها تحزر أفكاري لأنها قالت:

ـ لستِ مضطرة للإجابة. إني أعرف تماماً كيف تعاملك هاتسومومو: كأفعى تتأهب للانقضاض على فريستها.

ـ سأسمح لنفسي وأسألك: من قال لكِ؟

ـ لا شيء معقد في نفسية هاتسومومو: إنها تتصرف كقطٍّ. فالقط يبقى سعيداً مادام ممدداً في الشمس وحيداً. ولكن إذا ما فكر أن قطاً آخر سيلتهم طعامه... ألم يخبروكِ كيف طردت هاتسومومو الصبية هاتسووكي من جيون؟

أجبتها بلا، فقالت:

ـ كانت هاتسووكي فائقة الجمال، وكنا صديقتين. كانت أخت هاتسومومو، لأن الجيشا نفسها ربّتها: توميهاتسو، الجيشا العظيمة، وكانت عجوزاً في تلك الآونة. لم تحب هاتسومومو هاتسووكي قطّ. وعندما أصبحتا جيشاوين متدربتين، لم تطق هاتسومومو أن ترى في هاتسووكي غريمتها المحتملة. كما إنها روّجت إشاعة بأن هاتسووكي ضُبِطتْ في وضع مريب مع شرطي شاب ذات مساء في أحد الأزقة. بالطبع كان ذلك افتراءً، ولكن إليكِ طريقة هاتسومومو في التصرف: في كل مرة تجد نفسها مع شخص أفرط في الشراب، جيشا أو خادمة أو زائر لجيون، فإنها تحكي له قصة هاتسووكي. وفي اليوم التالي يكون هذا الشخص قد نسي من قال له ذلك. لم يلبث ذلك أن شوّه من سمعة هاتسووكي. مزيد من قلة الحذر من جانب هاتسووكي، وأبعدت هاتسومومو الجيشا الشابة من جيون.

أحسست ببعض الارتياح: فقد هاجمت هاتسومومو شخصاً غيري. أضافت مامها:

ـ إنها لا تطيق أن يكون لها منافِسة، لذا فهي تعاملك بهذه الطريقة.

ـ لا تستطيع هاتسومومو أن تعدّني منافسةً لها يا سيدتي، فليس للمحيط ما يخشاه من بركة ماء!

ـ ربما ليس في بيوت شاي جيون، بل في أوكيَاكم. ألا تجدين من المستغرب ألا تتبنّى السيدة نيتا هاتسومومو؟ فمن بين بيوت جيون الغنية، إن أوكيَا السيدة نيتا هو الوحيد الذي لم يعينّ وريثة.

www.rewity.com ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

فإذا تينّت السيدة نيتا هاتسومومو، لا تحل المشكلة فحسب، بل إن أرباح الجيشا كلها تعود إلى الأوكيا أيضاً. كما إن لهاتسومومو عملاً مزدهراً. بإمكان الجميع أن يفكروا بأن السيدة نيتا المغرمة بجمع المال ستتبنّاها بسرعة. وإذا لم تفعل ذلك، فإن هناك سبباً وجيهاً، ألا ترين ذلك؟

لم أفكر بذلك قط، ولكن بما أني أفكر فيه الآن، فأنا واثقة بأن لدي الجواب. قلت:

ـ إن تبني هاتسومومو يعني إطلاق النمر من قفصه.

ـ نعم، بلا أدنى شك. لا بد أن السيدة نيتا تدرك أي نوع من الفتيات المتبنيات ستكون هاتسومومو ـ من اللواتي يسارعن إلى طرد أمهاتهن. على أية حال، إن صبر هاتسومومو لا يزيد عن صبر الأولاد. إنها لن تكون قادرة على الاحتفاظ بجرادة في قفص من الصفصاف. بعد عام أو عامين ستبيع كيمونوهات الأوكيا وتتقاعد. لهذا السبب تكرهكِ هاتسومومو يا شيو الصغيرة. في حين أنها لاتخشى أن تتبنى السيدة نيتا بومبكين على ما أرى.

قلت:

ـ أنا واثقة يا مامها ـ سان أنكِ تذكرين ذلك الكيمونو الذي لُطِّخ بالحبر...

ـ أنتِ التي كتبتِ عليه.

ـ أوه يا سيدتي، إن هاتسومومو هي التي دبرت كل شيء، أتشكّين في ذلك؟ لكني أحبذ أن تسنح لي الفرصة يوماً، وأثبتَ لكِ كم هو أسفي كبيرٌ.

ـ يمكنكِ أن تعتذري إذا أردتِ.

تراجعتُ عن الطاولة وانحنيتُ إلى الأسفل على التاتاميات. ولكن قبل أن أتمكّن من قول أية كلمةٍ قاطعتني مامها قائلةً:

ـ سيكون احتراماً ساحراً لو أنكِ كنت فلاحةً تأتين إلى كيوتو لأول مرة. ولكن إذا أحببتِ أن تكوني راقيةً، فعليك أن تتصرفي ـ

هكذا. انظري إليَّ: تبتعدين أكثر عن الطاولة. جيدٌ جداً. تضعين ذراعيك أمامكِ، وتضعين أطراف أصابعك على التاتامي. أطراف الأصابع وليس اليد كلها! ولا تبعدي أصابعك. نعم ، جيد جداً، هكذا! هذا رائع. انحني إلى أقصى ماتستطيعين، ولكن أبقي رقبتك مستقيمةً، ولا تحني رأسك هكذا. وبحق السماء لا تستندي على يديكِ، فليس ذلك من فعل النساء! حسنٌ. حاولي مرةً ثانية.

انحنيتُ من جديد أمامها، وقلتُ لها كم أنا آسفةٌ لأني أتلفت كيمونوها الجميل.

ـ كان جميلاً أليس كذلك؟ حسنٌ لننسَ ذلك. أريد أن أعرف لماذا لم تعودي تذهبين إلى المدرسة. فقد قالت لي مدرساتكِ إنكِ موهوبةٌ كثيراً. وعليك أن تكوني قد بدأتِ عملاً مزدهراً كجيشا. لماذا قطعت السيدة نيتا دراستكِ؟

حدثتها عن ديوني، ومن بينها الكيمونو والمشبك الذي اتهمتني هاتسومومو بسرقته. وعندما انتهيت، تابعت مامها النظر إليَّ ببرودٍ. قالت أخيراً:

ـ ثمة شيءٌ لم تقوليه لي. بالنظر إلى أهمية ديونك، حريٌّ بالسيدة نيتا أن تكونِ أحرص على أن تراك جيشا. فبقائك خادمة لن تسددي ديونك أبداً.

أغضيت خجلاً لدى سماعي كلامها دون أن أدرك ذلك لأنها حزرت أفكاري فوراً.

ـ لقد حاولتِ الهرب، أليس كذلك؟

ـ نعم يا سيدتي! لقد كان لدي أختٌ، وانفصلنا عن بعضنا، وأخيراً التقينا. تواعدنا ذات مساءٍ لكي نهرب... ولكني سقطت عن السطح وكُسِرَتْ ذراعي.

ـ سقطتِ عن السطح! هذه دعابةٌ! هل صعدتِ إلى هناك لكي تري كيوتو لآخر مرة؟!

فَسَّرتُ لها لماذا فعلتُ ذلك قائلةً:

WWW.REWITY.COM

- أعرف أن ذلك حماقةٌ من ناحيتي. ولن تستثمر الأم يَنَّاً واحداً لتعليمي، خشية أن أهرب من جديد.

- ليس إلا ذلك. الفتاةُ التي تهرب، تعطي صورةً سيئةً عن معلمة الأوكيّا. «إنها لا تستطيع حتى أن تحافظ على خادماتها!» هذا ما سيقوله الناس. ولكن ماذا ستفعلين يا شيو؟ لا أظن أنك ستبقين خادمةً طوال حياتك.

- أوه يا سيدتي... سأفعل أي شيء لأصحح أخطائي! ها قد مرّ عامان الآن. لقد انتظرت بفارغ الصبر أن تأتيني الفرصة!

- الانتظار بفارغ الصبر ليس من شيمكِ. أرى أنك تملكين كثيراً من الماء. والماء لاينتظر. إنه يغير شكله، ويدور حول الموانع، ويجد طرقه التي لاتخطر ببال أحدٍ، ثقب السطح أو أسفل الصندوق. الماء هو الأكثر تغيراً بين العناصر الخمسة. إنه يستطيع أن يكنس كل شيءٍ في طريقه، ويطفئ النار، ويأكل قطعةً من المعدن ويحملها معه. وحتى الخشب، عنصره المكمل يحتاج إلى الماء لكي يبقى على قيد الحياة. وعلى كل حال، لم تستفيدي من هذه الأوراق لكي تتقدمي، أليس كذلك؟

- في الواقع يا سيدتي، إني عندما رأيت الماء يسيل خطرت ببالي فكرة الهرب عن طريق السطوح.

- أنتِ فتاةٌ ذكيةٌ يا شيو. ولكني لست متأكدةً أن هذه المحاولة للهرب هي أفضل محاولتك. إن الذين يملكون الماء في أجسادهم لايختارون الذهاب في اتجاهٍ بدلاً من آخر. إنهم يذهبون إلى حيث تقودهم الحياة، كالنهر الذي يتكيف مساره مع الأرض التي يعبرها.

- لا بدَّ أني نهرٌ يسده سدٌّ. سدٌّ اسمه هاتسومومو.

- إنها طريقةٌ في رؤية الأشياء. ولكنَّ الأنهار تقفز فوق السدود أحياناً.

عندما ذهبتُ إلى مامها، تساءلت لماذا استدعتني. وسرعان ما فهمتُ أن ذلك لم يكن بسبب الكيمونو. أخيراً تفتحت عيناي: تريد مامها أن تستخدمني للانتقام من هاتسومومو! إنهما غريمتان. وإلا

فلماذا أتلفت هاتسومومو كيمونو مامها قبل عامين؟ لا بدَّ أن هذه تنتظر فرصتها. تريدُ أن تستخدمني كعشبةٍ فاسدة تقتل كلَّ نباتٍ حولها. لم تكن ترغب أن تنتقم فحسب، بل أن تتخلص من هاتسومومو إذا لم أخطئ. قالت:

- على أية حال، لن يتطوّر الموقف مادامت السيدة نيتا تمنعك من متابعة دراستك.

- إني أستغرب أن يحصل ذلك. وأملي قليلٌ في إقناعها في هذا الاتجاه.

- لاتقلقي على إقناعها، بل على الفرصة السانحة لطلب ذلك.

لقد علمتني الحياة دروساً كبرى، لكنَّ الصبر لم يكن خصلتي الرئيسة. حتى إني لم أكن أفهم ما قصدته مامها بقولها «الفرصة السانحة». قلت لها إن علمتني ما سأقوله، فسوف أكون في قمة سعادتي حين أكلم الأم منذ الغد.

- تعلمين يا شيو أن السير في الحياة تعثُّراً ليس الطريقة الفضلى للتقدم. عليكِ أن تحسني التصرف في الوقت المناسب. فالفأر الذي يريد أن يخدع هراً لا يخرج من جحره في أي وقت. أتجيدين قراءة كتاب نجومك(*)؟

هل سبق لكَ أن رأيتَ كتاباً للنجوم؟ تلك الكتب مليئة بأحرف غامضة ولوحات معقدة. والجيشاوات متطيراتٌ جداً، وقد قلتُ ذلك. وقلما اتخذت الأم أو تاتي أو الطباخة أو الخادمات قراراً دون الرجوع إلى كتاب النجوم، حتى لو كان الأمر يتعلق بعمل عادي كشراء زوج من الأحذية. أما أنا فلم أستخدمه قَطُّ.

(*) كتاب النجوم: (Almanach) كلمة دخلت اللغات الغربية وأصلها عربي (المناخ)، وربما كانت سريانية، لان كلمة (مناخ) باللغة السريانية تعني: (قمر أو شهر). وكتاب النجوم هو تقويم مصحوب بملاحظات فلكية، وتوقعات حول الطقس، ونصائح عملية عن الأعمال التي يُنصح القيام بها (أو عدم القيام بها) في فترة محددة. وهذه الكتب هي ما قصده أبو تمام بقوله:

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حدّه الحد بين الجد واللعب

WWW.REWITY.COM

قالت مامها:

ـ لا أستغرب أن تكوني قد تعرَّضتِ لهذا الكم من المصائب. لقد حاولتِ الهرب دون أن تري ما إذا كان ذلك اليوم مواتياً أم لا. صحيح؟

قلتُ لها إن أختي هي التي حددت يوم هربنا. فسألتني إن كنتُ ما أزال أذكر تاريخ ذلك اليوم. تذكرته أخيراً وأنا أنظر إلى كتاب النجوم معها. كان ذلك في العام 1929 آخر ثلاثاء من تشرين الأول، بعد بضعة أشهر من انتزاعنا من بيتنا، أنا وساتسو.

طلبت مامها إلى خادمتها أن تحضر كتاب تلك السنة. بعد أن سألتني عن برجي، أمضت بعض الوقت في التحقق، ثم في إعادة التحقق من المعلومات عن اللوحات المختلفة، وكذلك عن المظاهر العامة المتعلّقة ببرجي في ذلك الشهر. وأخيراً قرأت لي التوقعات:

ـ «فترة غير مواتية، لا تستخدمي الإبر، لا تأكلي إلا الأكل العادي، لا تسافري.»

توقفت لتنظر إليّ، ثم قالت:

ـ أترين؟ السفر. بعد ذلك، هناك قائمة بالممنوعات... لنراها: الاستحمام في ساعة الديك، شراء الملابس، «الانخراط في مشروعات جديدة» ثم اسمعي هذا: «تغيير محل الإقامة».

بعد ذلك أغلقت مامها الكتاب، ثم نظرت إليّ وسألتني:

ـ هل حاذرتِ القيام بأيٍّ من هذه الأشياء؟

معظم الناس لا يصدّقون هذه التوقعات، ولكن لو أن معظم الناس يشكّون فيها، فإن برج ساتسو في الفترة نفسها كان سيمحو هذه الشكوك. بعد أن سألتني مامها عن برج أختي، راحت تدرس التوقعات الخاصة بها. قالت:

ـ حسن، هاكِ ما كُتب:«يوم مؤاتٍ لبعض التغيرات الصغيرة». ربما لا يكون اليوم المناسب للهرب، ومع ذلك فإنه أفضل يوم في ذلك الأسبوع وفي الأسبوع التالي».

بعد ذلك أتى خبر مفاجئ، إذ قالت مامها:

ـ «يوم مواتٍ للسفر باتجاه برج المعزة».

ذهبت لتبحث عن خارطة، فوجدت يورويدو، كانت قريتي في شمال غرب كيوتو، وذلك توجّه متعلّق ببرج المعزة. لقد استشارت ساتسو كتابها! ـ بكل تأكيد، في الوقت الذي تركتني خلاله وحيدة في تلك الحجرة تحت درج تاتسويو. لقد أحسنت التصرف لأنها تمكنت من الهرب، أما أنا فلا.

فهمتُ إلى أي حدّ كنتُ غير واعية، في كل شيء، وليس فقط في محاولتي للهرب. فهمتُ أخيراً ارتباط الأشياء، بالإضافة إلى تأثير الكواكب على القدر. إننا، نحن البشر، جزء صغير من كل كبير. عندما نضع أرجلنا على الأرض قد نسحق حشرة أو نثير تياراً صغيراً من الهواء يغيّر مسار ذبابة. والآن لنعتبر أننا نحن تلك الحشرة، ولنعط العالم الدور نفسه الذي كنا نلعبه. من البدهي أننا نتأثر يومياً بقوى تتجاوزنا، تماماً كما ترى الحشرة المسكينة، وهي عاجزة، قدمنا العملاقة تسحقها. ما العمل إذاً؟ استخدام الأساليب الممكنة كافة لفهم قوى الكون، والخضوع إليها بدلاً من السير في عكس التيار.

بحثت مامها في الكتاب من جديد لصالحي، اختارت بضع تواريخ وتغيرات هامة. هل يجب أن أحدّث الأم، متى يجب عليّ أن أكلمها بحسب رأيها؟ قالت:

ـ لا أرى أنه يجب عليكِ أن تكلمي السيدة نيتا بنفسك، إنها سترفض طلبكِ جملةً. ولو كنتُ في مكانها لطردتكِ فوراً، لأنه ما من جيشا في جيون كلها ترغب في أن تكون أختكِ الكبرى.

أحزنني ذلك الخبر، فقلت:

ـ في هذه الحالة، ماذا ينبغي لي أن أفعل يامامها؟

ـ ستعودين إلى أوكياكِ يا شيو، ولا تقولي لأحد أننا تكلمنا.

بعد ذلك نظرت إليّ نظرة تعني أن أنحني وأستأذن. وهذا

WWW.REWITY.COM

مافعلته. كنتُ مضطربة إلى درجة أنني نسيتُ مجلات الكابوكي وأوتار الشاميزن التي أعدّتها مامها لي. فلحقت بي خادمتها إلى الشارع وأعطتني إياها.

11

يجب عليّ أن أفسر ما قصدته مامها بقولها «أخت كبرى»، حتى لو أني لم أكن أملك كثيراً من المعلومات عن ذلك الموضوع. عندما تصبح فتاة جاهزة لتكون جيشا متدربة، عليها أن تعقد علاقة مع جيشا أكثر خبرة منها. لقد ذكرت مامها أخت هاتسومومو الكبرى، توميهاتسو الشهيرة، التي كانت قد أصبحت عجوزاً عندما أعدّت هاتسومومو. ولكن ليس بالضرورة أن تكون الأخوات الكبريات أكبر سناً من الجيشاوات اللواتي يعددنهن. فأية جيشا يمكنها أن تكون أختاً كبرى لأية جيشا أقل منها سناً. يكفي أن تكون أكبر منها بيوم واحد.

عندما تصبح فتاتان أختين، تقيمان احتفالاً شبيهاً باحتفال الزواج. بعد ذلك تصبحان قريبتين، وتُدْعيان «أخت كبرى» و «أخت صغرى»، كما هو الأمر في أسرة حقيقية. بعض الجيشاوات يمكنهن ألا يتحللن من المهام الواجبة عليهن، ولكن اللواتي يلعبن أدوارهن يصبحن الوجه الأكبر في حياة جيشا شابة. تعلم الأخت الكبرى أختها الصغرى كيف تتصرف إزاء دعابة ماجنة: بمزيج من السرور والخفر، وتقول لها أيّ شمع تختاره كأساس لمكياجها. ولكن دورها أكبر من هذا بالطبع. يجب أن تتأكد من أن المبتدئة ستعرف كيف تجذب انتباه الأشخاص الذين يهمها التعرف إليهم. وهكذا تصحب الأخت الكبرى أختها في جيون، وتقدمها إلى معلمات بيوتات الشاي اللواتي يحسن بها أن تعاشرهن، وإلى باعة الشعر المستعار، وأصحاب المطاعم الكبرى، إلخ.

وهذا يتطلب كثيراً من العمل. ولكن الأخت الكبرى لا تكتفي بأن تدور جيون نهاراً مع ربيبتها. فجيون نجم أكثر ما يشعّ في الليل. في المساء، تصحبها إلى بيوتات الشاي لكي تقدمها إلى زبائنها أو إلى حُماة آخرين، وتقول لهم:«أتعرفون فلانة، إنها أختي الصغرى؟ تذكروا جيداً هذا الاسم! ودعوها تراكم في المرة القادمة عندما تأتون إلى جيون». بالطبع، قليلون هم الرجال الذين يدفعون مبالغ طائلة ليمضوا سهرة مع فتاة في الرابعة عشرة من عمرها. من المحتمل ألا يطلب هذا الزبون أن يرى من جديد تلك الفتاة في المرة القادمة عندما يأتي إلى جيون. ولكن الأخت الكبرى ومعلمة بيت الشاي تتابعان امتداح مزايا المتدربة حتى يطلب الزبون رؤيتها من جديد. فإذا تبيّن أنها لم تعجبه لأي سبب كان فتلك مسألة أخرى، أما إذا أعجبته فقد يصبح أخيراً حاميها، ويعتز بصحبتها، تماماً كما تعجبه صحبة أختها الكبرى.

غالباً ما ينتاب الأخت الكبرى إحساس بأنها تنقل كيساً من الأرز عبر جيون، لأن الفتاة الصغرى لا تتعلق بالكبرى تعلّق الراكب بالقطار الذي يركبه فحسب، بل إن الصغرى، إذا ارتكبت خطأ، فإن المسؤولية تقع على عاتق الكبرى. والجيشا المشهورة وكثيرة الانشغال ستتحمل هذه المسائل كلها، لأنه عندما تنجح جيشا متدربة فإن المجتمع كله يستفيد من نجاحها. تستفيد المتدربة من النجاح لأنها ستتمكّن من تسديد ديونها، وبقليل من الحظ تستطيع أن تصبح عشيقة رجل غني. أما بالنسبة إلى الأخت الكبرى، فإنها تقبض جزءاً من أتعاب الصغرى، كذلك تفعل معلمات مختلف بيوتات الشاي التي تغشاها المتدربة. حتى بائع الشعر المستعار يستفيد من نجاح الجيشا الشابة، وصاحب المحل الذي يبيع حبكات الشعر التي تضعها الجيشاوات في شعورهن، وباعة الحلويات الذين تشتري منهم الجيشا هدايا لحاميها أحياناً. هؤلاء التجار لا يأخذون أية نسبة مما يبيعون للجيشا، لكن هذه تجلب زبائن جدداً إلى جيون، فتزدهر تجارتهم.

قدر كل جيشا مقبلة هو بين يديّ أختها الكبرى. ومع ذلك،

WWW.REWITY.COM

قليلات هن الجيشاوات اللائي يمكنهن أن يخترن الأخت الكبرى. فجيشا معروفة لا تعرّض سمعتها للخطر باتخاذ أخت صغرى تكون بليدة، أو من شأنها ألا تعجب حُماتها. ومن ناحية أخرى، فإن معلمة الأوكيا التي استثمرت مبلغاً كبيراً من المال لتعدّ متدربةً، لا تعهدها إلى جيشا خاملة الذكر. الجيشاوات المشهورات مطلوبات، وقد يرفضن بعض الطلبات، ولكن يجب عليهن أن يقبلن طلبات أخرى، مما يقودني إلى أن أشرح لكَ لماذا لم أكن مرشحة مرغوبة.

عندما أتيتُ إلى الأوكيا، لا ريب في أن الأم كانت تفكر في أن تجعل من هاتسومومو أختي الكبرى، وحتى لو كانت هذه عنيفة، فإن أية جيشا متدربة كانت ترغب في أن تكون أختها الصغرى. وفي جيون، أعدّت هاتسومومو جيشاوين مشهورتين. كانت تعاملني معاملة سيئة، نعم، ولكنها كانت تحسن التصرف مع أختيها الصغيرتين. فقد اختارت أن تعدّهن وقامت بذلك لمصلحتها. ومن ذلك، فإن الاعتماد عليها من أجل الاهتمام بي والاكتفاء ببضع الينّات الإضافية التي سيدرّها عليها إعدادي... كما لو يطلب إلى كلب أن يرافق هراً إلى زاوية الشارع دون أن يعضه في الطريق. بكل تأكيد، كان بإمكان الأم أن ترغم هاتسومومو على أن تصبح أختي الكبرى، ليس لأنها تسكن في الأوكيا نفسه فحسب، بل لأنها كانت تملك عدداً قليلاً من الكيمونوهات، إذاً كانت مرتبطة بمجموعة البيت. ومع ذلك، برأيي ما من شيء يرغم هاتسومومو أن تكون أختي الكبرى بضمير. ففي اليوم الذي سيُطلب إليها أن تأخذني إلى بيت شاي ميزوكي لكي تقدّمني إلى سيدته، ستأخذني إلى ضفة نهر كامو، وستقول:«أيها النهر، أتعرف أختي الصغرى؟». ثم ستلقي بي إلى الماء.

أما بالنسبة إلى تصور أن جيشا أخرى يمكنها الاهتمام بي، فهذا يعني تحدّياً لهاتسومومو. وقليلات هن الجيشاوات اللائي يجرؤن على ذلك.

* * *

ذات يوم، في الضحى، بعد عدة أسابيع من مقابلتي لمامها،

وبينما كنتُ أقدم الشاي للأم وإحدى ضيفاتها في الصالون، فتحت تاتي الباب، وقالت:

ـ اعذريني على إزعاجك يا كاكويو ـ سان.

كان كاكويو هو الاسم الحقيقي للأم، ولكن قلّما كان يستخدَم.

أضافت تاتي:

ـ أتساءل ما إذا كان بمقدورك أن تعتذري من ضيفتكِ وتتركيها بضع لحظات، فلدينا ضيفة.

ـ لا بدّ أنكِ سئمة يا تاتي لكي تعلني بنفسك عن قدوم الضيوف. لا يمكننا القول إن الخادمات منهكات من العمل، بل إنكِ تقومين بأعمالهن.

ـ قدّرتُ أنكِ تفضّلين أن أخبرك بنفسي، فالضيفة هي مامها.

كنتُ قد بدأت أظن أن لا شيءَ سيتمخّض عن مقابلتي لمامها، ولكن عندما علمت أنها هنا... احمرّيتُ خجلاً، كما لو أني حُبابةٌ أضيئت. بعد طول انتظار قالت ضيفة الأم:

ـ مامها ـ سان... لا شيء غير ذلك. سأنسحب، ولكن ستعدينني بأن تروي لي كل ما سيحدث.

استفدتُ من خروج تلك السيدة وانسحبتُ بدوري. ثم قالت الأم شيئاً أذهلني. لقد أفرغت غليونها في المنفضة التي أتت بها من الصالون، ناولتني إياها، ثم قالت:

ـ تعالي واضبطي لي تسريحتي من فضلك يا تاتي!

لم أرَها تهتمّ بمظهرها قط. كانت دائمة الأناقة بالتأكيد، ولكنّ باستطاعتها أن تتزين بأجمل الأقمشة، لكنَّ عينيها كانتا ترشحان كسمكة متعفنة. فهي كغرفتها: مهما حوت من أشياء جميلة تبقى بشعة، كما أن الأم كانت تهتم بشعرها اهتمام قطار بمدخنته. شيء في الأعلى لا أكثر.

بينما راحت الأم تدخل ضيفتنا، بقيتُ في جناح الخادمات

WWW.REWITY.COM

أنظف المنفضة. حاولتُ التقاط حديثهما بإنصات جعلني أسمع طنيناً في أذنيّ.

بدأت الأم حديثها قائلة:

- أعتذر لأني جعلتكِ تنتظرين، يا مامها - سان. تشرفنا بزيارتك.

- آمل أن تعذريني على هذه الزيارة المفاجئة يا سيدة نيتا.

استمر الحديث على هذا النحو بضع دقائق، أحسستُ خلالها بالإحباط كرجل يُصعد صندوقاً إلى أعلى الجبل بشق النفس لكي يكتشف في النهاية أنه مليءٌ بالحجارة.

غادرتا الردهة إلى الصالون. كنت مستميتة في معرفة ما ستقولان. تناولتُ خرقة من جناح الخامات، وأخذتُ أمسح المدخل. لم تكن تاتي لتسمح لي بتلطيخ الأرض أثناء وجود ضيفة عندنا، لكنها كانت أكثر شوقاً مني لسماع الحديث. خرجت الخادمة التي قدمت الشاي من الصالون. وقفتُ تاتي في زاوية ميتة، وتأكدت من أن الباب ما يزال مواربا. بدأ حديث تافه من جديد. أصغيتُ بانتباه جعلني أنسى مايحدث حولي. ما أكبر مفاجآتي عندما رفعتُ رأسي فرأيتُ نفسي في مواجهة بومبكين! كانت جاثية تمسح الأرض، رُغمَ أني مسحتُها تواً. سألتني هامسةً:

- أين هي مامها؟

لا بدّ أنها سمعت حديثاً بين الخادمات اللواتي كن متكتلات عند أول المدخل غير البعيد عنا.

قلت:

- إنها غريمة هاتسومومو. وعلى كيمونوها أرغمتني هاتسومومو على الكتابة بالحبر.

بدت بومبكين تريد أن تقول شيئاً معيناً، حين سمعنا مامها تقول:

- أرجو أن تسامحيني على تدخلي يا سيدة نيتا، ولكني أودّ أن أكلمكِ باختصار عن خادمتكِ شيو.

قالت بومبكين:

- أوه، لا!

بدت مستاءة من أجلي. لكن الأم قالت في تلك اللحظة:

- شيو مزعجة، أرجو ألا تكون قد أساءت إليكِ.

- لا، لا تقلقي! ولكنها لم تعد تأتي إلى المدرسة، ولم أعد أراها في الممرات! ظننتُ أنها مريضة مرضاً خطيراً! أعرف طبيباً جيداً. أتريدين أن أستدعيه؟

- هذا لطف منكِ. ولكن لا بدّ أنكِ خلطتِ بينها وبين فتاة أخرى. إذ لا يمكنكِ أن تكوني قد رأيتِ شيو في ممرات المدرسة. ومنذ سنتين لم تذهب إلى المدرسة.

- ألسنا نتكلم عن الفتاة نفسها؟ بارعة الجمال، تلك التي عيناها زرقاوان ورماديتان؟

- عيناها غريبتان، نعم. هناك إذاً فتاة أخرى في جيون عيناها زرقاوان ورماديتان.

- منذ عامين ولم أرها؟ من الصعب أن أصدّق ذلك. بكل تأكيد لأنها تركت لديّ انطباعاً قوياً... سأسمح لنفسي وأسأل يا سيدة نيتا: هل هي في صحة جيدة؟

- أوه، نعم! إنها فارعة كسنديانة غضة، وهي في حاجة لوصي.

- ومع ذلك، فإنها لا تذهب إلى المدرسة. هذا غريب!

- أنتِ فتية، وناجحة. ولا بدّ أنكِ تظنين أن الحياة سهلة في جيون. ولكن هذا الزمن صعب، وأنا لا أستطيع أن أستثمر مالاً على أية فتاة. عندما حصلتُ على رصيد شيو المتواضع...

- إذاً نحن لا نتكلم عن الفتاة نفسها. لا أصدّق أن سيدة أعمال مثلكِ يا سيدة نيتا يمكنها أن تقول إن شيو لديها رصيد متواضع...

- أأنتِ واثقة من أن اسمها شيو؟

www.rewity.com
ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

لم تلاحظ أيٌّ منا أن الأم غادرت الطاولة واجتازت الصالون وهي تقول ذلك. بعد ثانيتين، كانت تفتح الباب على أذن تاتي التي خطتْ خطوة إلى الخلف، وكأن شيئاً لم يكن. تظاهرت الأم بأنها لم ترَ شيئاً، وقالت لي:

ـ تعالي لحظة إلى الصالون يا شيو ـ شان!

بينما أغلقتْ الباب، وانحنيتْ على التاتامي احتراماً لمامها، كانت الأم قد عادت إلى مكانها عند الطاولة، وقالت:

ـ هذه هي شيو!

قالت مامها مندهشة:

ـ الفتاة التي تحدثتْ عنها! كيف حالكِ يا شيو ـ شان؟ إني سعيدة لأنكِ تبدين بصحة جيدة! كنتُ أقول للتو للسيدة نيتا إني بدأتُ أقلق عليكِ. ولكن ها أنتِ بكامل عافيتك.

قلت:

ـ نعم يا سيدتي! صحتي جيدة.

قالت لي الأم:

ـ شكراً يا شيو!

انحنيتُ أريد الخروج، ولكن قبل أن أتمكن من النهوض سمعتُ مامها تقول:

ـ تعرفين يا سيدة نيتا، إنها حقاً بارعة الجمال. غالباً ما فكرتُ أن أسألكِ ما إذا كنتِ تأذنين لي بأن أجعلها أختي الصغرى. ولكن بما أنها قطعت دروسها...

ترك هذا الكلام السيدة نيتا حائرة. بقيتْ جامدةً وكأس الشاي في يدها، ولم تفلح في وضعها على شفتيها إلا بعد أن غادرتُ الغرفة. وسمعتها تقول وأنا أجثو في المدخل:

ـ إن جيشا مثلكِ يا مامها... تستطيع أن تختار من تشاء من الجيشاوات المتدربات في جيون كلها.

ـ إني متطلبة، هذا حقيقي، ولكني لم أتخذ أختاً صغرى منذ عام. يمكن الاعتقاد، بسبب الأزمة، أن الزبائن قليلون. ولكن في الواقع، لم أعمل قَطُّ كعملي الآن. أعتقد أن المال يذهب إلى حيث يوجد المال حتى في الأوقات الصعبة.

ـ إنهم بحاجةٍ إلى التسلية، ولكنكِ قلتِ...

ـ نعم ماذا قلتُ؟ أوه، لا يهم، لا أريد أن أضايقكِ طويلاً، إني فرحة لأن شيو في صحة جيدة.

ـ في صحة جيدة جداً، نعم. ولكن ابقي أيضا بعض الوقت يامامها ـ سان، أرجوك، هل كنتِ تفكرين بأن تتخذي شيو أختاً صغيرة لكِ؟

ـ أوه، بما أنها لم تذهب إلى المدرسة منذ أكثر من عام... مهما يكن من أمر يا سيدة نيتا، لا بدّ أن لديكِ سبباً وجيهاً لاتخاذ هذا القرار. ولن أسمح لنفسي بالاعتراض على حكمك.

ـ رهيبة هي الخيارات التي نضطر إلى اتخاذها، في هذه الأيام الصعبة، هذا صعب جداً! لم يعد لدي الوسائل لإرسالها إلى المدرسة! ومع ذلك، يا مامها ـ سان، إذا كنتِ ترين أن لديها مؤهلات، فلا تترددي في الاستثمار عليها، ولن تندمي.

كانت الأم تسعى إلى الاستفادة من مامها، فالجيشا لا تدفع لتعليم أختها الصغرى.

ـ كنت آمل أن يكون هذا الأمر ممكناً، ولكنكِ ترين هذه الأزمة...

ـ قد يمكنني، رُغمَ كل شيء، أن أتدبر أمري. رُغمَ أن لشيو رأس بغلة، وأن ديونها كبيرة. إنها لن تستطيع أبداً أن تسددها في رأيي.

ـ فتاةٌ جميلة مثلها؟ إن ما سيفاجئني ألا تستطيع سدادها.

ـ على أية حال، ليس هناك إلا المال، أليس كذلك؟ إن فتاةً مثل شيو تستحق أن نفعل الكثير من أجلها. ربما استطعتُ أن أرى من يستثمر عليها... من أجل دروسها، ولكن إلى أين سيقودنا ذلك؟

WWW.REWITY.COM

ـ لا أشك في أن ديون شيو كبيرة. ومع ذلك، فإني واثقة من أنها ستسدّدها قبل عيد ميلادها العشرين.

ـ قبل سن العشرين! برأيي، ما من فتاة في جيون حققت هذا الإنجاز. وإذا أصبحتِ أخت شيو الكبرى، فإن ديونها ستزداد.

لم تكن الأم تتحدث عن نفقات دراستي فقط، بل عن المال الذي عليها أن تدفعه لمامها. فالجيشاوات من مقام مامها كن يأخذن أرباحاً على أخواتهن الصغيرات؛ نسبة مئوية أكبر من الأخريات.

ـ إذا كان لديكِ المزيد من الوقت يا مامها ـ سان، فإني سأسمح لنفسي باقتراح. إذا كانت مامها العظيمة تقول إن بإمكان شيو أن تسدد ديونها قبل عيد ميلادها العشرين، فلماذا أشك في ذلك؟ من المؤكد أن شيو لن تنجح إلا مع أخت كبرى مثلك. ولسوء الحظ، فإن أوكيّانا لا يملك في هذه الأيام أموالاً كثيرة. ولن أستطيع أن أناقشكِ في ظروف هي عادة ظروفك. كل ما أستطيع أن أعرضه عليك هو نصف ما تنتظرينه.

ـ لقد عُرضت عليّ عروض كثيرة في الآونة الأخيرة، عروض سخية جداً. وإذا قررتُ أن أتخذ أختاً صغرى، فلا أستطيع أن أتخلّى عن نصف أرباحي.

ـ لم أُنْهِ كلامي بعد يا مامها ـ سان. إليكِ عرضي: لن أستطيع أن أقدم لكِ إلا نصف ما يمكنكِ أن تأملين، حسن. ولكن إذا استطاعت شيو أن تسدّد ديونها قبل عامها العشرين كما قلتِ، فإني سأسدد لكِ الخمسين بالمئة الباقية، بالإضافة إلى ثلاثين في المئة. إلى أجل، وستكونين قد ربحتِ أكثر.

ـ وإذا لم تسدّد شيو ديونها قبل سن العشرين؟

ـ اعذريني على صراحتي. في تلك الحالة، سنكون قد استثمرنا استثماراً سيئاً أنا وأنتِ. إن الأوكيّا لن يتمكن من أن يسدد لك ما يتوجّب عليه.

فترة من الصمت. تنهدت بعدها مامها، وقالت:

ـ لستُ موهوبة في الأرقام يا سيدة نيتا، ولكن إذا فهمتُ ما قلتِه، فإنكِ تحمليننني مهمة قد تكون غير قابلة للتحقيق، مقابل ربح أقل بمرتين من الربح المعتاد. أخشى أن أضطر إلى رفض عرضك.

ـ أنتِ على حق، فثلاثون في المئة نسبة قليلة. إذا نجحتِ، فإني سأقدم لكِ الضعف.

ـ ولا شيء إذا أخفقت.

ـ لا شيء ليست الكلمة المناسبة تماماً. ستكونين قد جمعتِ بعض المال من شيو قبل أن تبلغ العشرين. ببساطة، لن يستطيع الأوكيّا أن يسدّد لكِ الخمسين في المئة الباقية.

كنتُ واثقة من أن مامها سترفض. قالت أخيراً:

ـ أود أن آخذ فكرة أفضل عن ديون شيو.

ـ سوف أجلب لكِ دفاتر الحسابات.

* * *

لم أعرف المزيد. ضجرتْ تاتي من رؤيتي أتنصّت إلى الأبواب، فأرسلتني إلى السوق. طوال بعد الظهر كنتُ مهزوزةً ككومة من الحجارة أثناء الزلزال، لأني بكل تأكيد لم أملك أية فكرة عن الطريقة التي ستسير بها الأمور. إذا لم تصل الأم ومامها إلى اتفاق، فسأبقى خادمة طوال حياتي، لا ريب في ذلك.

عندما عدتُ إلى الأوكيّا، كانت بومبكين جاثية في الممر مقابل الباحة. تخرج من شاميزنها أصواتاً ناشزةً. بدت سعيدةً برؤيتي. حيّتني، ثم قالت:

ـ جدي حجة للذهاب إلى الأم. لقد بقيتُ منعزلةً في غرفتها طوال فترة الظهيرة مع دفتر حساباتها. لديها خبر جديد لكِ، إني واثقة من ذلك، وبعد ذلك انزلي فوراً وأخبريني!

وجدت في كلامها فكرة حسنة. فقد كان عليّ أن أشتري مرهماً للجرب من أجل الطباخة. سألتُ عنه الصيدلي فلم أجده عنده. لذا سأذهب إلى الأم وأعتذر منها لأني لم أتمكن من جلبه. سيكون ذلك

WWW.REWITY.COM

سيان عندها، فهي بكل تأكيد لاتدري أني أُرسلتُ لهذه الغاية، ولكني بذلك سأملك حجةً للدخول إلى غرفتها.

كانت تستمع إلى تمثيلية إذاعية. عادةً، عندما أزعج الأم في وقت كهذا، فإنها تومئ إليّ أن أدخل، ثم تعود بسرعة إلى الاستماع إلى الراديو وهي تمعن النظر إلى دفاتر حساباتها وتسحب من غليونها. أما اليوم، يا للمفاجأة! فقد أطفأت الراديو، وأغلقت دفتر حساباتها بسرعة بمجرد أن رأتني. انحنيتُ أمامها، وذهبتُ لأجلس إلى الطاولة. قالت:

ـ رأيتكِ في المدخل عندما كانت مامها هنا. كنتِ تمسحين الأرض، وتصيخين السمع.

ـ لا يا سيدتي! كانت هناك خطوط على الأرض، كنا نزيلها أنا وبومبكين.

ـ أنتِ كاذبة أشِرة، ولكن أتمنى أن تصبحي جيشا جيدة.

ثم ضحكت دون أن تسحب الغليون من فمها، ونفخت فيه، فطار الرماد من فرنه، وسقطت شرارات ملتهبة على كيمونوها. وضعت الغليون على الطاولة، وأخذت تضرب على كيمونوها ضربات كبيرة حتى انطفأ كل شيء. قالت أخيراً:

ـ منذ أكثر من عام وأنتِ في الأوكيًا يا شيو.

ـ بل أكثر من عامين بقليل يا سيدتي!

ـ طوال هذا الوقت كله، بالكاد لاحظت وجودك. وها هي جيشا من مقام مامها تريد أن تجعل منكِ أختها الصغرى! أتفهمين شيئاً من هذا؟

برأيي، كانت مامها تودّ أن تؤذي هاتسومومو أكثر من أن تساعدني، ولكني لم أستطع أن أبوح بذلك إلى الأم. كنتُ سأقول لها إني لا أعرف لماذا اهتمّت مامها بي عندما فُتح الباب ودخلت هاتسومومو قائلةً:

ـ سامحيني أيتها الأم، لم أكن أدري أنكِ توبخين الخادمة!

WWW.REWITY.COM

ـ لم تعد خادمة. كانت عندنا اليوم ضيفة يمكنكِ أن تعدّيها هامة.

ـ نعم، أظن أني فهمتُ أن مامها قد أتت لكي تنتشل الفيرون من النهر.

تقدمت بخطى وئيدة وأتت لتجلس إلى الطاولة. انحشرت بيني وبين الأم لترغمني على الابتعاد.

ـ تعتقد مامها أن بإمكان شيو أن تسدّد ديونها قبل أن تصبح في العشرين.

كانت هاتسومومو تنظر إليّ كأم تنظر إلى ابنتها، لكنها قالت:

ـ ربما، أيتها الأم، إذا بعتِها إلى أحد المواخير.

ـ اخرسي يا هاتسومومو! لا أريد أن أسمع منكِ كلاماً كهذا. قولي لي فقط ماذا فعلتِ في الآونة الأخيرة لكي تثيري غضب مامها؟

ـ لا بدّ أني أفسدتُ نهارَ الآنسة بيغول بمروري بجانبها في الشارع. ما عدا ذلك، أنا لا أعرف.

ـ في ذهنها فكرة معينة، أحب أن أعرفها.

ـ ليس ذلك بعسير أيتها الأم. إنها تظن أنها تؤذيني باستخدام الغبية الصغيرة.

لم تجب الأم. بدت وكأنها تفكر بكلام هاتسومومو. قالت أخيراً:

ـ لربما فكّرَتْ أن شيو ستكون جيشا أفضل من بومبكين، وأرادت أن تجني بعض المال بفضلها. من يلومها على ذلك؟

ـ في النهاية أيتها الأم، ليست مامها بحاجة إلى شيو لجني المال! هل من باب المصادفة أن تختار مامها إضاعة وقتها مع فتاة تسكن معي في الأوكيًا نفسه؟ ستقيم مامها علاقة مع كلبكِ الصغير إذا رأت أن ذلك يجعلني أغادر جيون.

ـ هيا يا هاتسومومو، لماذا تريد أن تجعلكِ تغادرين جيون؟

- لأني أجمل منها! أليس ذلك أهم الأسباب؟ إنها تريد أن تذلّني بالقول إلى الناس جميعاً: «أقدّم لكم أختي الصغيرة الجديدة. إنها تعيش في أوكيًا هاتسومومو نفسه، ولكنها دُرّةٌ عُهد بها إليّ «أنا» لتربيتها».

- لن تتصرف مامها أبداً بهذه الطريقة.

- إذا كانت تظن أنها تستطيع أن تجعل من شيو جيشا أهم من بومبكين، فسيخيب أملها كثيراً. ولكني في قمة سعادتي عندما أراهم يُلبِسون شيو كيمونو وينزّهونها في كل مكان. إنها فرصة سانحة لبومبكين. هل رأيتِ يوماً هريرةً تنقضّ على كبة من الخيوط؟ ستكون بومبكين جيشا أفضل بكثير عندما ستشحذ أسنانها على تلك الكبة.

راقت هذه الفكرة للأم، فابتسمت قائلةً:

- لم أتخيل قطُّ أن هذا النهار سينتهي هكذا. عندما استيقظتُ هذا الصباح كان لديّ ابنتان عديمتا النفع في هذا الأوكيًا. أما الآن فلديّ متدربتان تتأهبان للنجاح، وذلك بمساعدة أكبر جيشاوين في جيون!

12

بعد ظهر اليوم التالي استدعتني مامها إليها. هذه المرة، وجدتُها جالسة إلى الطاولة تنتظرني عندما فتحت لي الخادمة الباب. حرصتُ على أن أؤدي احتراماً صحيحاً قبل الدخول إلى الغرفة. ثم ذهبت إلى الطاولة، وحييتها من جديد. قلت:

- لستُ أدري لماذا اتخذتِ قراراً كهذا يامامها - سان... ولكن لاأستطيع أن أقول لكِ إلى أي حدّ أنا ممتنة لكِ.

- انتظري قليلاً حتى تكوني ممتنة. لم يحدث شيء بعد. من

الأفضل لكِ أن تقولي لي ماذا كان تعليق السيدة نيتا بعد زيارتي.

- لقد فوجئت الأم باهتمامكِ بي، وأنا كذلك، والحق يقال.

كنتُ أودّ لو قالت مامها شيئاً، ولكنها صمتت.

- أما بالنسبة إلى هاتسومومو...

- لا تضيعي وقتكِ بالتفكير بما قالت. أنتِ تعرفين تماماً أنها ستسعد برؤية إخفاقاتك. تماماً كالسيدة نيتا.

- لست أدري لماذا تريد الام أن أخفق. إنها ستربح المزيد من المال.

- صحيح. ولكن إذا ما سدّدتِ ديونكِ قبل سن العشرين؛ فستدفع مبلغاً كبيراً من المال. لقد تراهنتُ معها أمس. ولكني لم أكن لأراهن هذا الرهان لو لم أكن واثقة من نجاحك. وبعد، إذا صرتُ أختكِ الكبرى، فاعلمي أن لديّ مبادئ صارمة.

انتظرتُ أن تعرضها عليّ، ولكنها نظرت إليّ نظرة سوداء، ثم قالت:

- حقاً يا شيو، كُفّي، بالله عليك، عن نفخ الشاي بهذا الشكل، وكأنكِ فلاحة! اتركيه على الطاولة حتى يبرد.

- اعذريني، لم أنتبه.

- لقد آنَ الأوان لكي تنتبهي. على الجيشا أن تعتني بصورتها. ثم إن لديّ مبادئ قاسية، وقد قلتُ لكِ ذلك، في البداية أريد أن تنفّذي ما أقوله لكِ دون أسئلة. أعرف أنكِ عصيتِ هاتسومومو والسيدة نيتا في بعض الأحيان. ربما قلتِ لي إن لديكِ أسباباً وجيهة. ولكن، برأيي، لو أنكِ كنتِ أكثر طاعةً لوفّرتِ على نفسكِ مصائب كثيرة.

كانت مامها عل حق. لقد تغيرت الأمور، ولكن في طفولتي، كانت الفتاة التي تعصي من هنّ أكبر منها، سرعان ما تنال جزاءها. قالت:

- منذ عدة سنوات اتخذتُ أختين صغيرتين، كانت إحداهما

WWW.REWITY.COM

واعية، أما الثانية فكانت مستهترة. استدعيتها إلى هنا ذات يوم، وقلتُ لها إني لن أتسامح مع هذا النوع من التصرفات طويلاً. بقيتْ مصارحتي بلا أثر. وفي الشهر التالي، قلتُ لها أنْ تَجِدَ لنفسها أختاً كبرى أخرى.

ـ لن تكون لكِ معي مشكلة كهذه يا مامها ـ سان، أعدكِ بذلك. وبفضلك أعود إلى الحياة، ولن أسامح نفسي إذا ما خيَّبتُ أملك.

ـ حسنٌ، ولكن لن يكفيكِ أن تعملي بجدٍّ، يجب عليكِ أيضاً أن تحبطي مؤامرات هاتسومومو. ولا تفعلي ما يثقل من ديونك. حتى إنكِ لا تستطيعين أن تكسري كأساً من الشاي!

وعدتُ ألا أكسر شيئاً. أما فيما يخص إحباط أحابيل هاتسومومو، فذلك شأن آخر.

أضافت مامها:

ـ أمر أخير. كل ما قلناه يجب أن يبقى سراً، حتى لو تكلمنا عن المطر والطقس الجميل. يجب ألا تنقلي شيئاً لهاتسومومو. وإذا سألتكِ عما تحدثت، فقولي لها: «مامها ـ سان لا تقول ما هو مهم! إنها أسأم شخص عرفته في حياتي!».

طمأنتُها بأن بإمكانها أن تعتمد عليّ، فقالت:

ـ هاتسومومو ناعمة جداً. ستفاجئين بها بما ستستخلصه من حديث تافه.

ثم التفتت إليّ، وقالت بصوت سيء:

ـ عمَّ كنتما تتحدثا أمس؟ لقد رأيتكما!

ـ عن لا شيء يا سيدتي!

نظرت إليَّ نظرة شريرة. كنتُ مضطربة، بحيث إني لم أجد ما أقوله لأنفي التهمة عني.

ـ كيف عن لا شيء؟ من الأفضل لكِ أن تعترفي أيتها الحمقاء الصغيرة، وإلا صببتُ الحبر في أذنكِ هذه الليلة، وأنتِ نائمة!

لزمني بعض الوقت حتى أدركتُ أن مامها كانت تقلِّد هاتسومومو، وكان تقليداً جيداً. وبعد أن عرفتُ قصدها، تمكَّنتُ من القول:

ـ أؤكد لكِ يا هاتسومومو ـ سان، إن مامها ـ سان لا تقول إلا التفاهات! إني لا أستطيع أبداً أن أتذكر قولها، إنه يذهبُ أدراج الرياح. هل أنتِ متأكدة من أنكِ رأيتنا معاً أمس؟ لأني لا أذكر أني كلمتها...

تابعنا تمثيليتنا لبضع دقائق، ثم قالت مامها إنها مسرورة مني، ولم أشاركها تفاؤلها. فأن أسأل من قبل مامها وهي تقلِّد هاتسومومو شيء، ومواجهة الجيشا مباشرة شيء آخر.

* * *

طوال العامين الذين أمضيتهما خارج المدرسة كنتُ قد نسيتُ أهمَّ ما تعلَّمته. ونظراً لحالتي الذهنية آنذاك، فإني لم أتعلم شيئاً ذا بال. لذا ألفيتُ نفسي، وأنا أعود إلى المدرسة، وكأني آتي إليها أول مرة.

في سن الثانية عشرة كنتُ بطول مامها تقريباً. وكوني أكبر سناً من الأخريات لم يكن ميزة، بعكس ما يمكن أن يُعتقَد. معظم الفتيات بدأن دراستهن في سنٍّ صغيرة، في بعض الحالات، في السن المطلوبة: الثالثة وثلاثة أيام. وهؤلاء كنّ بنات جيشاوات. كان الرقص وحفلات الشاي تشكِّل جزءاً من حياتهن اليومية، كما كانت السباحة في المستنقع بالنسبة إليَّ.

تحدثتُ عن درس الشاميزن مع السيدة فأرة. ومع ذلك، على الجيشا أن تتعلم فنوناً أخرى. الـ«جي» من كلمة جيشا، تعني: «فنون»، وكلمة «جيشا» تعني: «صاحبة الفنون» أو «الفنانة». بدأتُ الصباح بدرس «التسوتسومي»، وهو طبل صغير. قد تسألني: لماذا ينبغي للجيشا أن تتعلم الضرب على الطبل؟ عملياً، في الولائم، وفي أية سهرة في جيون، ترقص الجيشاوات على أنغام الشاميزن. وقد ترافقهن مغنِّيةٌ أحياناً. ولكن في المَشاهد المسرحية، مثل «رقصات

www.rewity.com ^RAYAHEEN^
www.rewity.com ^RAYAHEEN^
WWW.REWITY.COM

العاصمة القديمة» كل ربيع، تتألف الأوركسترا من نصف دستة من الشاميزنات، ومن الطبول المختلفة والمزمار الياباني المسمى «فوي». لذا ينبغي للجيشا أن تلمّ بالعزف على جميع هذه الآلات، حتى ولو أنها تخصّصت بآلة منها أو آلتين.

في الصباح، كنت أتعلّم التسوتسومي، طبل يُضرب عليه وهو على الركبة، ككل الآلات التي كنا ندرسها. وهو مختلف عن بقية الطبول: يُمسك بجانب الكتف، ويضرب عليه باليد. أما «الأوكاوا»، فهو أضخم من التسوتسومي ويوضَع على الفخذ. أما بالنسبة إلى «التايكو»، أكبر طبولنا، فإنه يوضع على حامل بجانب الضارب عليه، ويُضرب بعصيّ غليظة. كنتُ أتمرّن في المدرسة على هذه الآلات. قد يبدو الضرب على الطبل سهلاً، بل طفولياً، والحقيقة ليست كذلك. إذ لا تُضرب الطبول كلها بالطريقة نفسها. تضع التايكو إلى جانبك وتضرب عليه بالعصا بظاهر اليد، وتلك تقنية تُدعى «الأوشيكومي». أو إنك تخفض ذراعكَ لتضرب وترفع الآخر، وهذه الطريقة تسمى «الساراشي». ثمة تقنيات عديدة، كل واحدة تعطي صوتاً مختلفاً، ويأتي هذا بعد تدريب طويل. تعزف الأوركسترا أمام الجمهور، وعليكَ أن تمتلك حركات جميلة، على أن تبقى منسجماً مع الموسيقيين الآخرين. من المناسب الحصول على الصوت المرغوب، وتنفيذ الحركة بصورة صحيحة أيضاً.

بعد درس الطبل، أخذتُ درساً على الفلوت الياباني، ثم درساً على الشاميزن. كانت طريقة التعليم متشابهة تقريباً بالنسبة للآلات الثلاث. كانت المدرّسة تعزف مقطوعة يقوم الطلاب بعزفها بعدها. أحياناً تظهر النتائج مزرية. وفي معظم الأحيان، كانت المدرسات يحرصن على البدء بالأشياء الصغيرة. على سبيل المثال، في درسي الأول في الفلوت، عزفت المعلمة علامةً واحدة، ثم طلبت إلى الطالبات بأن يعزفنها، كل واحدةٍ بدورها. ورُغمَ سهولة هذا التمرين، فقد لقي كثيراً من تعليقات المدرسة.

- لا ترفعي إصبعكِ الصغير يا فلانة! وأنتِ يا علّانة، هل رائحة فلوتكِ كريهة؟ لا؟ إذاً، لماذا تزمّين أنفكِ هكذا؟

WWW.REWITY.COM

كانت تلك السيدة قاسية جداً كمعظم مدرّساتنا، وكنا نخشى أن نغضبها، فأحياناً تأخذ الفلوت من إحدى الطالبات وتضربها به على كتفها.

بعد الطبل والفلوت والشاميزن، كنتُ آخذ درساً في الغناء. إننا في اليابان نغني كثيراً في الأعياد، والناس يأتون إلى جيون من أجل أعيادها. والفتاة التي لا تملك أذناً موسيقية، يجب عليها أن تتابع دراسة الغناء حتى لو أنها لن تظهر أبداً أمام جمهور. عملياً، إن دراسة الغناء تساعدها على امتلاك فن الرقص. الرقصات كلها مجتمعة حول مقطوعة موسيقية خاصة غالباً ما تنفذها مغنية بمرافقة الشاميزن.

لقد درسنا خمسة أنواع مختلفة من الغناء، وهناك منها العشرات. أغانٍ شعبية، ومقطوعات مغنّاة مأخوذة من مسرح الكابوكي، وقصائد موسيقية قصيرة، لا أستطيع أن أصفها كلها. ولكني أجد معظم هذه المقطوعات الموسيقية جميلة، حتى ولو أن الأجانب يتنامى لديهم انطباع بأنهم يسمعون قططاً تموء في فناء المعبد أكثر من سماعهم لحفل موسيقي. إن الأغاني الشعبية اليابانية «مزقزِقة» جداً، أصوات من البلعوم تصدر من الأنف. وبعد، كل شيء يتعلق بما اعتادت أذنكَ عليه.

كانت الموسيقى والرقص يشكلان جزءاً من تعليمنا. فالفتاة التي تمتلك هذه الفنون لا تترك انطباعاً مؤثراً في حفل ما إذا لم يكن لديها الشكل المرغوب. لذا، فالمدرّسات خرِصْنَ دائماً على الأساليب الجيدة وعلى الإبقاء عليها. فلا يجدر بالفتاة أن تسارع إلى المرحاض مثلاً. وفي درس الشاميزن يُطلب منكَ أن تتكلم بأناقة، بلهجة كيوتو، وعدم جرّ القدمين. والفتاة التي أظافرها قذرة أو التي تخلّ باحترام زميلاتها؛ تُوبّخ بشدة أكثر من الفتاة التي تعزف عزفاً سيئاً على الشاميزن، أو التي نسيت كلمات الأغنية.

عندما كنتُ أحكي للأجانب عن إعدادي كجيشا، كانوا يسألونني:«متى كنتنّ تدرسن فن الأزهار؟»، والجواب: لم أدرس فن الأزهار قط. وإذا نسقتُ باقة من الأزهار أمام رجل، فقد ينام.

يجب ألا ننسى أن الجيشا هي قبل كل شيء فنانة تستطيع أن تظهر أمام الجمهور. إننا نقدّم الساكي للرجال ، ولكننا لا نبحث لهم عن طعام أبداً. خادماتنا يخدمننا إلى درجة أننا بالكاد نعرف كيف نلبس بمفردنا، أو كيف نرتّب غرفنا، فما بالكَ بتزيين غرفة، أو تنسيق باقة من الأزهار!

في نهاية الفترة الصباحية، كنتُ أدرس حفل الشاي. لقد كُتبت عدة كتب حول هذا الموضوع. هنا أيضاً لن أدخل في التفصيلات. زبدة القول، اعلم أن حفل الشاي تقيمه مُحتفلَةٌ واحدة، أو اثنتان تجلسان أمام ضيوفهما، وتُعدّان الشاي بالطريقة التقليدية. تستخدمان فناجين جميلة، وسياط من البامبو. حتى الضيوف يندمجون بالطقس، لأن هناك طريقة لمسك الفنجان، وأخرى لشرب الشاي. لا تظنّن أن المرء يجلس ليحتسي فنجاناً من الشاي. المقصود رقصة وتأمل يُمارسا جلوساً على الكعبين. الشاي، أوراق مطحونة، تضرب في الماء المغلي حتى تشكّل سائلاً أخضر مرغياً، أو «ماتشا» لا يقدّرها الأجانب كثيراً. هذا الشاي يشبه ماء الصابون الأخضر، وله طعم مر يجب الاعتياد عليه.

لحفل الشاي أهمية قصوى في دراسة الجيشا. ومن غير النادر أن يبدأ حفل الاستقبال عند أحد الخواص بحفل صغير للشاي. والناس الذين يشهدون رقصات الربيع في جيون، تقدّم إليهم الجيشاوات الشاي قبل بدء المشهد.

لم تكن المرأة التي علّمتني حفل الشاي جيشا جيدة، ولكنها كانت مولعة بحفل الشاي، وهو يتخذ بالنسبة إليها بعداً مقدّساً. لذا، ما لبثتُ أن اهتممتُ بهذه المادة. على أية حال، كان درس الشاي الدرس المثالي لاختتام الفترة الصباحية. طوال الدرس يخيم جو من الصفاء! حتى الآن ما يزال حفل الشاي يبعث فيّ السعادة، كسعادتي بليلةٍ من النوم.

على الجيشا المتدربة أن تتقن فنوناً متعددة، وذلك أمر ليس سهلاً. ومن ناحية أخرى، فإنها تعيش حياةً مضطربة. تمضي الفترة الصباحية في الدروس، وتعمل بعد الظهر والمساء في الأوكيّا، ولا

تنام أكثر من أربع أو خمس ساعات يومياً. لو كنتُ أمتلك موهبة كلية الحضور طوال سنوات إعدادي، لكنت منشغلة جداً، ولقدرتُ لهم إعفائي من مهام العمل المنزلي كبومبكين. ولكن نظراً للرهان الذي كان بين الأم ومامها، أشكّ في أن هذه قد فكرت في ذلك. بعض مهامّي عُهد بها إلى الخادمات، ومع ذلك فقد بقي لي كثير من الأمور لأقوم بها. كما كان يجب عليّ أن أتدرّب على الشاميزن ساعةً أو ساعتين يومياً. في الشتاء كنتُ أتمرّن وبومبكين ونحن نغمس أيدينا في الماء المتجمد حتى نبكي من الألم، قد يبدو ذلك قاسياً، ولكن هكذا كان هو العرف، ولقد ساعدتنا تلك الطريقة حقاً على العزف بطريقة جيدة. فالماء المتجمد يمنعك من الإحساس بيديك، كما إن ألَمَ الأصابع يصبح أقل إذا اعتدتَ على غمز أوتار الشاميزن بأصابعك المخدّرة.

كنتُ وبومبكين نتمرن على الشاميزن معاً بعد ظهر كل يوم بعد أن نأخذ درس القراءة والخط على يد تاتي. فقد كانت تدرسنا اللغة اليابانية منذ وصولي إلى الأوكيّا، وتطلب منا هنداماً معيناً. وبالمقابل، كنا نأخذ قسطاً من الراحة في حصة الشاميزن. وعندما كنا نفرط في الضحك، تتدخل تاتي أو إحدى الخادمات. أما عندما كنا نثرثر بصوت خافت، فإننا نمضي ساعة هنيئة، وهذه الساعة هي أفضل وقت من النهار لدينا.

ذات ظهيرة، وبينما كانت بومبكين تدرّبني على علامات بتقنية خاصة، ظهرت هاتسومومو أمامنا في الممر دون أن نتنبّه لقدومها. قالت:

ـ هي ذي الأخت الصغرى المقبلة لمامها!

قالت «المقبلة»، لأني ومامها سنصبح أختين رسمياً عندما أصبح جيشا متدربة. أضافت:

ـ كنتُ سأدعوكِ الغبية الصغرى، ولكن بعد أن سمعتُ عزفكِ، فإن بومبكين هي الغبية الصغرى!

وضعت بومبكين المسكينة آلتها على ركبتيها ككلبٍ يُدخل ذيله بين رجليه. سألتْ:

WWW.REWITY.COM

- ماذا فعلتُ من سوء؟

استشاطت هاتسومومو غضباً. عرفتُ ذلك دون حاجة للنظر إليها، وخفتُ مما سيحدث خوفاً شديداً. قالت:

- لا شيء أبداً! لم يخطر ببالي أنكِ محبة للغير بهذا الشكل!

- اعذريني يا هاتسومومو، فقط كنتُ أحاول مساعدة شيو...

- شيو ليست بحاجة إلى مساعدتك. إذا احتاجت إلى مساعدة، فستسأل مدرّستها. ألديكِ حبة حمص بدلاً من دماغكِ أم ماذا؟

عند ذلك قرصت هاتسومومو شفة بومبكين بقسوة، فانزلق شاميزنها إلى الممر حيث كانت جالسةً، وسقط أرضاً. قالت لها هاتسومومو:

- يجب أن نتحدّث على انفراد. اذهبي وعلّقي آلتك. سوف أنتظركِ هنا لئلا تقومي بحماقات.

تركتْ بومبكين، فأخذت آلتها وشرعت في فكها. نظرت إليّ نظرة غامضة، ظننتُ أنها ستهدأ، لكن شفتها أخذت ترتعش. ثم تبعها وجهها كله كالأرض قبل كل هزة أرضية. تركت مختلف أجزاء الشاميزن تسقط في الممر، وحملتْ يدها إلى شفتها التي كانت قد تورّمت. سالت الدموع على خدّيها. انفرجتْ أسارير هاتسومومو كما السماء بعد المطر، التفتت إليّ بابتسامة رضى، وقالت:

- عليكِ أن تجدي لنفسكِ رفيقة أخرى. بعد أن أكلم بومبكين، ستكون أذكى من أن تكلمك، أليس كذلك يا بومبكين؟

وافقت بهزّة من رأسها، فلم يكن لديها من خيار. لكني لاحظتُ مقدار حزنها. ولم نتدرّب معاً بعد ذلك على الشاميزن قطُ.

* * *

عندما رأيتْ مامها رويتُ لها ماحدث، فقالت:

- آمل أن تأخذي كلام هاتسومومو على محمل الجد. إذا لم تكلّمكِ بومبكين فلا تكلميها، فإنكِ تجلبين لها المتاعب. ومن ناحية

أخرى، ستكون مضطرة لنقل حديثكِ إلى هاتسومومو. إذا كانت تلك المسكينة جديرة بالثقة، فعامليها على أنها لم تعد أهلاً لها.

أحزنني ذلك الحديث، بحيث إني لم أستطع الكلام طوال عدة دقائق. ثم تساءلتُ:

- كيف يمكن البقاء في نفس الأوكيًا مع هاتسومومو؟ كيف لخنزير صغير أن يعيش في مسلخ؟

كنتُ أفكر ببومبكين وأنا أقول هذا، ولكن لا بدّ أن مامها ظنت أني أتكلم عن نفسي، إذ قالت:

- أنت فطِنة، ومهمتك الوحيدة أن تنجحي أكثر منها لكي تطرديها من الأوكيًا.

- ولكنها من الجيشاوات المرغوبات جداً على ما يبدو، فكيف لي أن أتجاوزها؟

- أنا لا أقول لكِ أن تصبحي مشهورة، بل أن تنجحي أكثر منها. لا يكفي أن تتواجد في جميع الاحتفالات. لديّ شقة وخادمتان ، في حين أن هاتسومومو التي تُشاهَد أكثر مني في الاحتفالات ما تزال تعيش في أوكيًا نيتا. وعندما أتحدّث عن النجاح، فإني أفكر بجيشا قد أصبحت مستقلة. إذا لم تجمع الجيشا مجموعتها الخاصة من الكيمونوهات، أو إذا لم يتبناها الأوكيًا، فلن تكون حرة أبداً. لقد رأيتِ بعضاً من كيمونوهاتي، كيف حدث وحصلتُ عليها برأيك؟

- هل تبنّاكِ أحد الأوكيًات قبل أن تسكني في هذه الشقة؟

- منذ خمس سنوات غادرت الأوكيًا الذي ترعرعتُ فيه، لكن معلمته لديها بنت طبيعية، فلم تكن قادرة على أن تتبنّى أيَّ شخص كان.

- أنتِ إذاً من اشترى هذه المجموعة من الكيمونوهات؟

- برأيكِ يا شيو كم تكسب الجيشا؟ إن خزانةً حقيقية لا تعني

WWW.REWITY.COM

ثلاثة كيمونوهات في كل فصل. بعض الرجال يمضون حياتهم في جيون، فهم يملّون من رؤيتكِ كل مساء تلبسين الكيمونو نفسه.

لا بدّ أني بدوتُ حائرة، لذا ضحكت مامها وهي ترى سحنتي، ثم قالت:

- اطمئني يا شيو - شان. هناك حل لهذا اللغز. إن «الدانّا» خاصتي - دانّايَ - رجل كريم جداً. فهو الذي أهداني معظم كيمونوهاتي. لهذا أنا أتمتع بنجاح أكثر من هاتسومومو. لديّ «دانّا»(*) غني، منذ سنوات وهاتسومومو ليس لديها دانّا.

* * *

منذ زمن طويل وأنا في جيون، ولم يكن لديّ أية فكرة عن معنى «الدانّا». فهكذا كانت تدعو النساء أزواجهنّ - على الأقل هذا ماعنته اللفظة آنذاك. الجيشاوات لا يتزوجن، أو عندما يتزوجن فإنهنّ يهجرن مهنتهن.

أحياناً، في نهاية احتفالٍ ما، يبقى الرجال الذين غازلوا الجيشاوات جائعين. بعضهم يذهب إلى أحياء ميّاغاوا - شو، يبذلون عرقهم في أماكن شبيهة بالمكان الذي وجدتُ فيه ساتسو. وبعضهم الآخر يجد الشجاعة في أن يضع عينيه الرميصتين على الجيشا ويسألها عن «تعرفتها». قد تقبل الجيشا ذات المنبت الوضيع هذا الحل، فبالنسبة إليها، كل فرصة تُعدّ طيبة. يمكن لهذا النوع من النساء أن يعددن أنفسهنّ جيشاوات وأن يتسجلن في مكتب تسجيل جيون. ولكن، انظر كيف ترقص وتعزف على الشاميزن، انظر ماذا تعرف عن حفل الشاي قبل أن تقرر ما إذا كانت تستحق لقب جيشا أم لا. إن الجيشا الحقيقية لا تلطّخ سمعتها بضرب بموعد مع رجل لكي تمضي ليلةً معه.

(*) الدانّا: هو الرجل الذي يتخذ الجيشا خليلة له، ويقوم بتغطية مصاريف سكنها وطعامها ودروسها ورسم تسجيلها ويُغدق عليها العطايا من جواهر وكيمونوهات، وعندما يمضي معها وقتاً ممتعاً، فإنه يدفع لها أكثر من التعرفة الإعتيادية لكي يبدي حسن نيته. م.

وبعد، فقد يحصل أن ترضخ إحدى الجيشاوات لرجلٍ يغريها، ولكنها تبقي علاقتها في السر. فالجيشاوات يعرفن الأهواء والزلات كبقية النساء. وينبغي للجيشا التي تعرّض نفسها لهذا الخطر أن تأمل ألا تثير حماقتها الوشوشات، فسمعتها في خطر؛ وكذلك سعة عيشها إذا كان لها «دانّا». كما إنها تثير غضب معلمة الأوكيّا. والجيشا المصممة على اتباع هواها لا تفعل ذلك لمصلحتها، بل لكسب المال فقط.

كما إنه لا يمكن في جيون دفع أجر ليلة لجيشا من طبقةٍ عليا. ومع ذلك، إذا كانت لرجلٍ ما مصلحة كبرى معها، وأراد أن يرتبط معها في علاقة طويلة المدى، وكان مستعداً ليعرض عليها عرضاً شريفاً، فإنها تقبل بفرح. الاحتفالات، والبقية، حسنٌ، ولكن لا يمكن للجيشاوات أن يكسبن المال حقاً إلا باتخاذ «دانّا». والجيشا التي بلا «دانّا»، مثل هاتسومومو، ليست إلا كقطٍّ تائهٍ ليس له من يطعمه.

يمكن أن نظنّ أن امرأةً بجمال هاتسومومو سيكون لديها كثيرٌ من العروض. ولا بدّ أن كثيراً من الرجال أرادوا أن يصبحوا «دانّاها». ولكنْ لسببٍ أو لآخر، أدارت ظهرها لعروض معلمة الميزوكي، بيت الشاي الذي تمضي فيه معظم سهراتها. وهكذا كان الردّ على الرجال الذين يخطبون ودّها أنها مشغولة، فيستنتجون بأن لديها «دانّاها»، رُغمَ أنها لم تكن كذلك. إن هاتسومومو قد اقترفت خطأً كبيراً بإساءة علاقتها مع بيت الشاي الذي تعمل فيه. الجيشا المرغوبة تكسب من المال ما يكفيها لكي ترضي الأم، أما الجيشا التي بلا «دانّا»، فهي لا تجد دخلاً كافياً ليجعلها مستقلةً وقادرة على مغادرة الأوكيّا إلى الأبد. ومن ناحية أخرى، لا يمكنها أن تغشى بيتاً آخر للشاي تكون معلمته مرتاحة إليها، وتساعدها على إيجاد «دانّاها». فمعلمات بيوتات الشاي في جيون يرغبن في إبقاء علاقاتهنّ طيبة مع الميزوكي.

ولكن، على العموم، الجيشاوات أدهى من ذلك. إنهن يمضين أوقاتهنّ في إغواء الرجال أملاً في أن يعرض أحدهم نفسه كـ«دانّا» بوساطة بيت الشاي. طلبات كثيرة لم تلقَ رداً. فبعد السؤال عن

WWW.REWITY.COM

الرجل، قد يُكتشَف أنه فقير جداً، أو شموسٌ عندما يُطلَب إليه أن يُبدي حسن نيَّته، كأن يقدّم كيمونو. وبالمقابل، إذا أدّت المباحثات إلى اتفاقٍ مُرضٍ، وقد تدوم أسابيع، فإن الجيشا و«دانّاها» الجديد يرتبطان باحتفال يشبه احتفال جيشاوين تصبحان أختين. في معظم الأحيان يدوم هذا الارتباط ستة أشهر، وقد يدوم أكثر، رُغمَ أن الرجال سرعانٍ ما يملّون المرأة نفسها. ينص الاتفاق على أن يسدد «الدانّا» جزءاً من ديون الجيشا، ويغطي معظم مصاريفها ومكياجها، وجزءاً من تكاليف دروسها، وحتى نفقات علاجها. رُغمَ الاتفاق، فإن «الدانّا» يستمر في دفع مبالغ طائلة للجيشا، التعرفة الساعية، كما يفعل زبائنها الآخرون عندما يمضون أوقاتاً معها. ولكن لا بدّ أنه يتمتّع ببعض «التميُّز».

ذلك هو الاتفاق بالنسبة إلى جيشا من الطبقة الوسطى، أما بالنسبة إلى جيشا من الطبقة العليا، يُوجَدُ منهن ثلاثون أو أربعون في جيون، فإن لديها الحق في أن تأمل في أمرٍ آخر. أولاً، هي لاتغامر بتلطيخ سمعتها مع سلسلة من «الدانّات». فليس لديها أكثر من اثنين أو ثلاثة طوال حياتها. لا يقوم «دانّاها» بتغطية مصاريفها كلها فحسب: رسم تسجيلها و دروسها وطعامها، بل إنه يعطيها المال، ويرعى من أجلها حفلات الرقص، ويقدم إليها الجواهر والكيمونوهات. وعندما يمضي وقتاً معها، يدفع أكثر من التعرفة الاعتيادية لكي يبدي حُسنَ نيّته.

كانت مامها جيشا من الطبقة العليا. وأكثر من ذلك، فإنها إحدى أشهر جيشاوين أو ثلاث في اليابان كلها. ربما سمعت بمامتوسكي، فقد كان لتلك الجيشا المشهورة علاقةٌ مع رئيس الوزراء الياباني قبل الحرب العالمية الأولى، وتلك قصة انتهت بفضيحة. لقد كانت مامتسوكي الأخت الكبرى لمامها، لهذا السبب لاسميهما الجذر نفسه «مام». فكثيراً يُشتَقُّ اسم الجيشا من اسم أختها الكبرى.

مجرد أن يكون لمامها أختٌ كبرى مثل مامتسوكي كان كافياً لأن يعطيها عملاً ممتازاً. فلابد أنها تمتعت بفرصة أخرى. ففي

بداية العشرينات «Japan travel Bereau» نظّم حملته الدعائية على النطاق العالمي. وعلى الملصق كان يُشاهَدُ أعلى معبد توجي في جنوب شرق كيوتو، شجرة كرز وجيشا متدربة جميلة تبتسم ابتسامة خجولة ورائعة، وتقاسيمها دقيقة. هذه الجيشا المتدربة هي مامها.

أصبحت مامها ذات شهرة عالمية، فقد شوهد ذلك الملصق في العواصم الكبرى كلها مع هذا الشعار:«تعالوا لزيارة بلاد الشمس المشرقة» باللغات الإنكليزية والألمانية والفرنسية والروسية، ولغات أخرى لاأعرفها. لم يتجاوز عمرها، آنذاك، أكثر من ستة عشر عاماً، لكنها كانت مرغوبةً من جميع رجال الدولة والارستقراطيين الإنكليز والألمان ومالكي المليارات الأمريكين الذين يأتون إلى اليابان. لقد قدمت الساكي للكاتب الألماني الكبير توماس مان الذي روى لها حكايةً طويلة مملة عن طريق مترجم. كذلك قدمت الشراب إلى شارلي شابلن وصان يات صن وهمنغواي الذي ثمل وقال لها:«شفتاك وسط وجهك الأبيض يذكرانني بالدم على الثلج». وفي السنوات التي تلت، رقصت مامها عدة مراتٍ على مسرح كابوكيزا في طوكيو، رئيس الوزراء وعدد كبير من الأعيان كانوا يحضرون تلك العروض فتزداد شهرتها.

وعندما أبدت مامها رغبتها في أن أكون أختها الصغرى كنت أجهل هذا كله، وكان ذلك أفضل لأنها كانت ستفقدني وسائلي كلها.

* * *

ذاك اليوم، حدّثتني مامها في شقتها عن ماضيها، ومهنتها كجيشا، ثم قالت:

ـ ستصبحين جيشا متدربة حين تبلغين الثامنة عشرة. بعد ذلك، يلزمكِ «دانّا» إذا ما أردتِ دفع ديونك. يلزمك «دانّا» غني. وتقوم مهمتي على أن أعرّف بكِ قبل نهاية تدريبك، وعليكِ أن تعملي بلا كلل لكي تصبحي راقصة ماهرة. إذا لم تبلغي الدرجة الخامسة في سن السادسة عشرة فلن أستطيع أن أخدمكِ في شيء، ستُشعد السيدة نيتا بأنها ربحت الرهان.

www.rewity.com ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

ـ ولكني لم أفهم يا مامها ـ سان ما صلة الرقص بذلك؟

ـ الرقص مفتاح نجاحك. انظري حولك وسترين أن أعظم الجيشاوات في جيون هنّ راقصات ماهرات.

* * *

من بين جميع الفنون التي تمارسها الجيشاوات يبقى فن الرقص الأكثر احتراماً. الأمر الذي يُغري الأجمل والأكثر موهبةً بينهنّ على أن يصبحن راقصات. حفل الشاي والرقص تقليدان لا مثيل لغناهما. ورقص مدرسة إنوي الذي تمارسه الجيشاوات في جيون، أصله في مسرح النو. والنو فن قديم جداً، ولطالما كان مقدّراً في العصر الإمبراطوري. كما إن راقصات جيون يعددن فنّهنّ أرقى من أسلوب الباليه الذي يُدَرَّس في قضاء بونتوشو، في الجهة الأخرى من النهر، لأن هذه الفنون مشتقة من الكابوكي. كثير من ممثلي الكابوكي في هذا القرن كانوا من أصدقائي. لكن الكابوكي فن حديث العهد نسبياً: بدأ في بداية القرن الثامن عشر، ثم بقي دائماً فناً مسرحياً أكثر شعبية من النو. وفن الباليه الذي يدَرَّس في بونتوشو لا علاقة له برقص مدرسة إنوي.

ينبغي للجيشاوات المتدربات جميعاً أن يتعلّمن هذا الفن، ولكن الأكثر موهبة وجمالاً بينهنّ، وقد قلتُ ذلك، هنّ من يلقَين التشجيع لكي يتخصّصن في هذا الفن أكثر من الشاميزن والغناء. كانت بومبكين تمضي وقتاً كبيراً جداً في التدرُّب على الشاميزن لأنها لم تكن ممن تمّ اختيارهن ليصبحن راقصات. أما بالنسبة إليّ، فلم أكن بارعة الجمال مثل هاتسومومو لكي أُختار لهذا الفن. بدت وسيلتي الوحيدة هي أن أظهر دأباً شديداً أمام مدرساتي.

ومع ذلك فقد بدأت بداية سيئة بسبب هاتسومومو. كانت مدرّستي للرقص سيدة تناهز الخمسين من عمرها ندعوها السيدة إلية، لأنه كان لذقنها المضاعفة شكل الإليتين. وكانت تكره هاتسومومو ككل من في جيون. وكانت هاتسومومو تدرك ذلك

WWW.REWITY.COM

جيداً. فماذا فعلت برأيك؟ لقد زارت مدرّستي ـ التي اعترفت لي بذلك بعد عدة سنوات ـ وقالت لها:

ـ هل لي أن أطلب منكِ خدمة أيتها المدرّسة؟ لقد عرفتُ فتاةً في صفك كثيرة الموهبة. أرجوكِ أن تقولي لي رأيكِ فيها. اسمها شيو، وأنا متعلقة بها كثيراً. وبقدر مساعدتكِ لها سأكون ممتنّةً لكِ.

كان ذلك كافياً. ولم تعد هاتسومومو في حاجة للتدخل بعد ذلك. فلقد حَبَتني السيدة إلية كل «المساعدة» المطلوبة. لم أكن طالبة سيئة، لكن المدرسة اتخذت مني كبش محرقة: أصبحتُ مثالاً لكل ما لا يجب أن يُفعل. ذات يوم، أوضحت لنا الحركة التالية: تمدّ الذراع اليسرى نحو اليمنى، ثم تضرب الأرض بقدمك، وكان المطلوب القيام بذلك بحركة موَحّدة، ولكننا كنا مبتدئات. ضربنا الأرض بأقدامنا: فكان الصوت كصوت كرات ثقيلة تتدحرج على الأرض! غيابٌ كامل للتزامن. ومع ذلك أتت السيدة إلية ووقفت أمامي وإليتها الصغيرة تتدلّى تحت ذقنها. ضربت مروحتها المغلقة على فخذها أربع أو خمس مرات، ثم رفعتها وضربتني بها على جانب رأسي، وقالت:

ـ لا تضربي قدمك على هواك، ولا تحرّكي ذقنكِ!

في رقصات مدرسة إنوي يجب أن يبقى الوجه بلا تعبير من أجل تقليد أقنعة مسرح النو. أما أن تأخذ عليّ أني حركتُ ذقني في الوقت الذي كانت فيه ذقنها تتأرجح غضباً! كنتُ على وشك البكاء لأنها ضربتني في حين أن الأخريات انفجرن ضاحكات. عدّتني السيدة إلية مسؤولة عن هذا الشغب، فأمرتني أن أغادر القاعة فوراً.

لا أعرف ما كان سيحلّ بي لو لم تذهب إليها مامها وتكلمها بشأني. ولقد ضاعفت تلك الحادثة من غضب السيدة إلية من هاتسومومو. فلقد خجلت مدرّسة الرقص من سوء معاملتها لي، وسرعان ما أصبحتُ من أفضل طالباتها.

* * *

لم يكن لديّ موهبة فطرية في الرقص، ولا في العزف على الشاميزن، ولكني كنتُ أكثر تصميماً من غيري على العمل بلا هوادة

للوصول إلى هدفي. منذ أن التقيتُ بالرئيس في الشارع، في ذلك الربيع، لم يعد لديّ من أمل إلا أن أصبح جيشا، وأجد مكاني في هذا العالم. أعطتني مامها فرصتي، فصممتُ على الاستفادة منها. ولكن بعد ستة أشهر، وجدتُ نفسي أفيض عملاً. عليّ أن أنجز كلّ دروسي ومهامّي المنزلية كلها وطموحاتي في الوقت نفسه! فوجدتُ وسائل لتوفير قواي. مثلاً، كنتُ أتدرّب على الشاميزن وأنا أدرس، وأدندن بأغنيةٍ وأنا أمرّرُ يدي اليسرى على ذراع الشاميزن، ويدي اليمنى تعزف على أوتاره بالريشة. وهكذا، عندما كنتُ أتمرّن على هذه الآلة، توصّلْتُ إلى عزف اللحن من المرة الثانية. ظنّ بعضهم أني أستطيع العزف دون أن أتمرّن، في حين أني بقيتُ أمارس العزف على الشاميزن في كل لحظة في زواريب جيون.

استخدمت حيلة أخرى لكي أتذكّر القصائد والأغاني التي تعلّمناها في المدرسة. كنتُ صغيرةً جداً وكنتُ أتذكر مقطوعة موسيقية تعلّمتها في الليلة السابقة. كذلك تعلّمتُ أن أسجّل كلمات أغنية على ورقة قبل أن أنام. وعند استيقاظي، أقرأ الأغنية حتى قبل أن أجلس إلى فوتوني بسبب صفاء ذهني. وكان ذلك كافياً بصورة عامة. مع الموسيقى، عانيتُ أكثر قليلاً. رحتُ أخترع لنفسي صوراً لكي أتذكّر العلامات الموسيقية، فغصنٌ ساقط من شجرة يذكرني بصوت الطبل، وساقية تسيل على صخرة تذكرني بعلامة حادة أحصل عليها بقرص وتر الشاميزن. لقد غدت الموسيقى نزهةً في منظر متخيَّل.

لكن الأهم بالنسبة إليّ كان الرقص. لقد حاولتُ طوال أشهر أن أستخدم «أشياءَ» اخترعتها لنفسي، ولكن فائدتها كانت قليلة. وذات يوم صببتُ الشاي على مجلة تقرؤها تاتي، فاستشاطت غيظاً، ولم أكنْ أكرهها. أحزنني ذلك الحادث. فكرتُ بأختي التي تعيش في مكانٍ ما من هذه البلاد من دوني، ثم بأمي، فتمنيتُ أن تنعم بالطمأنينة في الجنة. وأخيراً فكرتُ بأبي، لقد كان مستعجلاً لكي يبيعنا وينهي حياته وحيداً. ولّدت هذه الأفكار في نفسي انطباعاً ثقيلاً. صعدت إلى الغرفة التي أسكنها مع بومبكين، فقد أسكنتني الأم

فيها بعد زيارة مامها. ومع ذلك، بدلاً من أن أستلقي على التاتامي وأبكي، قمت بحركةٍ رشيقة من ذراعي وأنا أمررها على صدري. كنا قد درسنا هذه الحركة في الصباح ذاته ووجدتها مفعمة بالحزن. وعندما قمتُ بها كنتُ أفكر بالرئيس، فحياتي ستكون أجمل إذا اعتمدتُ على رجل مثله. كان في تلك الحركة حزن ورغبة، وإباء أيضاً كسفينة تنزلق على صفحة الماء وتصمد في وجه الأمواج الهائجة والرياح العاتية.

اكتشفتُ اكتشافاً في تلك الظهيرة: عندما كنتُ أحسّ بثقل، فإني أفكّر بإباء. وإذا تخيّلتُ أنّ الرئيس ينظر إليّ، فإن حركاتي ستكتسي قوة تعبيرية كنتُ أهديها إليه بأكملها. وإذا درتُ على نفسي ورأسي مُنْحَنٍ جانباً، فهذا يعني:«أين سنمضي نهارنا أيها الرئيس؟» هل أمد ذراعي وأفتح مروحتي؟ كنتُ أشكره على تشريفي بحضوره. وعندما أغلق مروحتي بعد قليل من رقصتي، كنتُ أقول له: لا شيء يهمّني أكثر من أن أعجبك!

13

في ربيع عام 1934، كان قد مضى عامان على ذهابي إلى المدرسة، قررت الأم وهاتسومومو أن تبدأ بومبكين عملها كجيشا متدربة. بالتأكيد، لم يحدّثني أحدٌ عن ذلك، فلقد تلقّت بومبكين الأوامر بألا تقول شيئاً. أما بالنسبة إلى الأم وهاتسومومو، فلم تفكرا بأن تخبراني. ذات مساء، عادت بومبكين وقد سرّحت شعرها كجيشا متدرّبة، مما أشعل فيّ نار الغيرة. بالكاد تجرّأتُ أن تنظر إليّ. هل خمّنتُ ما كنتُ أشعر به؟ في «مومواركا»، وهو كعيكة كبيرة على شكل «دراقة مشقوقة»، بدت بهيئة امرأة رُغمَ وجهها الذي يشبه الدمية. طوال سنوات كنا نغبط من هنّ أكبر منا سناً على

WWW.REWITY.COM

تسريحاتهن. والآن، ستصبح بومبكين جيشا، أما أنا فلا. والأدهى من ذلك أني لم أكن أستطيع طرح الأسئلة عن حياتها الجديدة.

أتى اليوم الذي ارتدت فيه بومبكين لباس الجيشا المتدرّبة، وذهبت مع هاتسومومو إلى بيت الشاي ميزوكي لكي تحتفلا ذلك الاحتفال الذي يجعل منهما أختين. صحبتهما الأم وتاتي ولم أُدْعَ. لكني انتظرتُ معهما في المدخل لكي نرى بومبكين وهي نازلة تساعدها الخادمات. كانت ترتدي كيمونو فخماً أسود مع شعار أوكيا نيتا وأوبياً بلون الخوخ والذهب. كان وجهها ممكيجاً بالأبيض لأول مرة، وشفتاها بالأحمر القاني، وفي شعرها شكلة. توقّع الجميع أن يروها مشرقة معتدّةً بنفسها، ولكنها بدت قلقةً أكثر منها أي شيء آخر. كانت تعاني في الحركة، فزينة الجيشا المتدرّبة مربكة! وضعت الأم آلة تصوير في يد تاتي، وطلبت إليها أن تخرج وتصوّر بومبكين، وهي تقدح شرراً في ظهرها أول مرة. انكمشنا في المدخل خارج الصورة. استندت بومبكين على الخادمات لكي تنتعل «الأوكوبو»، وهو حذاء كعبه خشبي تنتعله الجيشاوات المتدرّبات. وقفت الأم خلفها وأخذت الصورة، كما لو أنها ستقدح الحجر الناري، في حين أن تاتي أو إحدى الخادمات ستتكفّل بذلك. بعد الصورة مشت بومبكين عدة خطوات غير واثقة إلى الخارج، ثم التفتت. كانت الأخريات يتأهّبن ليتبعنها، لكنها كانت تنظر إليّ أنا، وكأنها تقول لي إنها آسفة لأن الأمور سارت على هذا النحو.

في نهاية النهار اتخذت بومبكين رسمياً اسم جيشا: هاتسوميو، مع «هاتسو» من هاتسومومو. ويجب أن يكون ذلك ورقةً رابحة بالنسبة إليها، لأن هاتسومومو كانت مشهورة في جيون. ولكن هذا لم يحدث، لأن الذين كانوا يعرفونها بهذا الاسم كانوا قلة. لقد ناداها معظم الناس بومبكين مثلما كنا نفعل دائماً.

* * *

كنتُ متشوّقة لأحكي لمامها عن بدايات بومبكين، ولكنها كانت كثيرة الانشغال في الفترة الأخيرة، حتى إني لم أرها طوال الأشهر

WWW.REWITY.COM

الستة الأخيرة. كما مرت ثلاثة أسابيع أخرى قبل أن تجد الوقت المناسب لتدعوني إليها. وعندما دخلتُ، أطلقت الخادمة صيحة مفاجأة، كذلك فعلت مامها عندما رأتني وهي تخرج من غرفتها بعد بعض الوقت. لم أفهم ما كان يحدث. جثوتُ ثم ملتُ على مامها، وقلتُ لها كم أنا سعيدة برؤيتها من جديد. لم تعرني أي اهتمام، بل قالت لخادمتها:

ـ يا إلهي ، هل مضى زمن طويل يا تاتسومي؟ إني بالكاد أعرفها!

ـ إني سعيدة لسماعكِ تقولين هذا الكلام يا سيدتي! أظنّ أني رأيت بصورة سيئة.

سرعان ما تساءلتُ عما تتكلمان. ولكني تغيّرتُ كثيراً خلال ستة أشهر دون أن أتنبّه لذلك. نظرت إليّ مامها نظرةً جانبية، ثم نظرة مواجِهة وصاحت:«يا إلهي إنها صبية الآن»! طلبتُ إليّ تاتسومي أن أنهض، ففاست خصري وردفي بيديها، ثم قالت مغتبطةً:«عليكِ أن تلبسي الكيمونو، إنه سيكون عليكِ كالقفاز»!

طلبتْ إليها مامها أن تأخذني إلى الغرفة الداخلية وتلبسني الكيمونو. كنتُ قد أتيت بكيمونوي القطني الأبيض والأزرق الذي ارتديته في الصباح لكي أذهب إلى المدرسة. ناولتني تاتسومي كيمونو من الحرير كحلي اللون عليه رسوم تمثّل عجلات عربة صغيرة بألوان صفراء وحمراء. نظرتُ إلى نفسي في المرآة التي تُظهر الطول الكامل. لم يكن أجمل الكيمونوهات، ولكني عندما رأيتُ تاتسومي تعقد الأوبي الأخضر الفاتح حول خصري؛ أحسستُ بالاعتزاز بنفسي: لولا تسريحتي البسيطة، لكنتُ تماماً كجيشا متدرّبة وهي ذاهبة إلى احتفال. انتظرتُ أن تطلق مامها صيحة إعجاب وهي تراني خارجةً من الغرفة، لكنّ شيئاً من هذا لم يحدث. نهضت، دسّت منديلاً في كُمّها، ثم مضت باتجاه الباب. انتعلت زوريها الأخضر المبرنق، ثم التفتت إليّ قائلةً:

ـ إيه؟ أتأتين؟

لم أكن أعرف إلى أين نذهب، لكن فكرة أن أمشي في الشارع

مع مامها كانت تثيرني أيما إثارة. كانت الخادمة قد أخرجت لي زورياً رمادياً فاتحاً. انتعلتُه، وتبعتُ مامها في الدرج سيء الإنارة، ثم خرجنا. أبطأت إحدى العجائز من خطوها لكي تسلّم على مامها، وبالحركة نفسها انحنت لي. لم أكن أعرف كيف أفسّر تلك الحركة لأن المارة لم يكونوا يعيرونني أي اهتمام. كانت الشمس في عينيّ فلم أستطع أن أميّز قسمات تلك المرأة أو أدرك إن كنتُ أعرفها. رددتُ التحية إليها، ثم تابعت طريقها. فكرتُ أنها قد تكون إحدى معلماتي. ولكن بعد عدة لحظات، تكرر الموقف نفسه مع إحدى الجيشاوات الصغيرات، ولطالما وجدتها جميلة، ولكنها لم تنظر إليّ قط.

مشينا في الشارع، فكان كل شخص نصادفه يتبادل بضع كلمات مع مامها أو يسلّم عليها، قبل أن يهزّ رأسه باتجاهي، أو ينحني نحوي، فأتوقف لأردّ تلك التحيات، وهكذا كنت أبتعد قليلاً عن مامها. وعندما رأت أني أعاني في اللحاق بها، أخذتني إلى زقاق جانبي، ثم علّمتني كيف أتصرف. لم أكن مضطرّة للتوقف من أجل السلام في كل مرة نصادف فيها أحداً. قالت لي:

- إن إبطاء الخطى دليل على الاحترام، فكلما أبطأتِ مشيتكِ؛ بدوتِ أكثر وقاراً. يمكنك الوقوف لتحية مدرّستكِ مثلاً، أما بالنسبة إلى الآخرين، فلا تبطئي كثيراً لأن أي جري بعد ذلك سيسبب الاصطدام بالآخرين. حاولي أن تمشي بخطى صغيرة لكي يتطاير طرف كيمونوك. يجب أن تذكّر مشية المرأة في الشارع بضربات الأمواج على رمال الشاطئ.

رحتُ أتدرب على المشي في الزقاق ذهاباً وإياباً، وعيناي مثبّتتان على قدميّ لأرى إن كان كيمونوي يتطاير. تابعنا سيرنا بعد أن اطمأنت مامها إلى حسن النتيجة.

ثمة طريقتان للتحية. تبطئ الجيشاوات الشابات من خَطْوِهِنّ، بل يتوقّفن قبل أن ينحنين إلى أقصى مايمكن أمام مامها، فتقول لهنّ هذه كلمات لبقة، وتوجّه إليهن هزة قصيرة من رأسها. وجّهت إلي الجيشا الشابة نظرة حائرة، ثم مالت إليّ قليلاً وهي متردّدة.

رددتُ تحيتها وأنا أنحني إلى الأسفل: فجميع النساء اللواتي صادفناهن أكبر مني سناً. وعندما كانت تأتي امرأة في الأربعين من عمرها أو عجوز، غالباً ما كانت مامها هي أول من تحيي، فتردّ المرأة التحية، ولكنْ دون الانحناء كثيراً. ثم ترمقني من رأسي حتى قدميّ، قبل أن توجّه إليّ هزةً من رأسها، فأردّ عليها بانحناءة كبيرة، ولكن دون أن أتوقّف.

في تلك الظهيرة، أعلنتُ لمامها أن بومبكين بدأت عملها. وخلال الأسابيع التي تلت كنتُ أتمنى بحرارة أن أسمع هذه الكلمات:«ستبدئين عملك». مر الربيع والصيف دون أن تذكر السؤال. أصبحت بومبكين تعيش حياةً مثيرة. أما أنا، فلم يكن لديّ سوى دروسي وأشغالي المنزلية. بعد الظهر، ومرات عديدة خلال الأسبوع كنت ألتقي بمامها، فتسدي لي بعض النصائح المتعلقة بعمل الجيشا. ولكنها في معظم الأحيان، تُلبسني كيمونو وتنزّهني في جيون. نتسوّق. نزور عرّافها أو مزينها. حتى عندما كان المطر يهطل، ولم تكن في حاجة للتسوق، فإننا نمشي تحت مظلاتنا المبرنقة. نتنقّل من محل إلى آخر، ونتقصّى الأخبار المتنوعة. هل وصلت البارفانات الجديدة من إيطاليا؟ هل وضِعت اللمسات الأخيرة على كيمونو معينّ؟ رُغمَ أن الموعد كان في الأسبوع التالي.

في البداية، ظننتُ أن مامها كانت تصحبني لكي تعلّمني العادات الحسنة وطريقة المشي ـ كانت تمضي وقتها في لكْزي بمروحتها في ظهري لكي أنصب قامتي. بدت وكأنها تعرف الناس جميعاً، فتبتسم أو تقول كلمة طيبة للناس الذين نقابلهم، بما فيهم الخادمات، وذلك لكي تعنى بصورتها. وذات يوم، بينما كنا خارجتين من أحد المحلات، فهمتُ خطتها: لم تكن حقاً ترغب في زيارة الكتبي أو المزين أو الورّاق، ومشترياتها لم تكن ضرورية، فبإمكانها تماماً أن ترسل إحدى خادماتها إلى هؤلاء التجار. كانت تتسوّق بهدف محدد: أن يرانا الناس معاً في شوارع جيون. لقد أخّرت بداياتي عن قصد، فقد أرادتْ أن يلاحظوا وجودي.

* * *

WWW.REWITY.COM

في ظهر أحد الأيام المشمسة من شهر تشرين الأول، خرجنا من بيت مامها، ومشينا على ضفة نهر شيراكاوا ونحن ننظر إلى أوراق الكرز وهي تتساقط في الماء. أناس كثيرون خرجوا مثلنا للسبب نفسه. كانوا جميعاً يحيون مامها كالعادة. وفي كل مرة تقريباً يحيونني بعد أن ينحنوا لمامها التي لاحظت:

ـ ها قد بدأ الناس يعرفونكِ.

ـ سينحني الناس لخروف إذا كان برفقة مامها ـ سان.

ـ خاصة الخروف، سيبدو ذلك في غاية الغرابة. ولكن أتعرفين أن الناس أخذوا يتحدّثون عن الفتاة ذات العينين الرماديتين. هم لا يعرفون حتى اسمكِ، ولكن ذلك غير مهم. فلن يدعوكِ شيو طويلاً على أية حال.

ـ أتريد مامها ـ سان أن تقول...

ـ لقد رأيتُ وازا ـ سان.

وازا هو عرّافها. أضافت:

ـ يقول إن الثالث من تشرين الثاني هو موعد مناسب لبدايتك.

توقّفت مامها لكي تنظر إليّ. لقد تجمّدتُ في مكاني وعيناي جاحظتان. غمرتني سعادة لم أستطع معها الكلام. انتهيتُ بأن انحنيتُ لمامها وشكرتها. فقالت:

ـ ستكونين جيشا جيدة. بل ستكونين جيدة جداً إذا تعلّمتِ كيف تستخدمين عينيكِ.

ـ كيف ذلك؟

ـ مامن شيء يعبّر كالنظرة، لاسيما نظرتكِ أنتِ. ابقي مكانكِ سأريكِ.

اختفت مامها في زاوية الشارع وقد تركتني وحيدةً في الزقاق. ثم ظهرت بعد بضع لحظات ونظرت إليّ نظرةً مواربة. بدت لي وكأنها خائفة من النظر إليّ، ثم قالت:

ـ ماذا ستفكرين لو أنكِ كنتِ رجلاً؟

ـ سأفكر بأنكِ تريدين تجنبي.

ـ ولكن كان بإمكاني النظر إلى الماء وهو ينبثق من المزاريب.

ـ حتى في تلك الحالة، إنكِ تريدين تجنُّب النظر إليّ.

ـ هذا ما أحاول أن أفهمكِ إياه. إن الفتاة التي تملك هذا الوجه الجميل يجب أن تعرف كيف تستخدمه بذكاء. سيلاحظ الرجال عينيكِ، وسيلاحظون فيها دعوات مبهمة. انظري إليّ مرة ثانية!

اختفت من جديد في زاوية الشارع، ثم عادت وهي تنظر إلى الأرض حالمةً. وصلت إلى محاذاتي، ونظرت إليّ نظرة خاطفة، ثم حوّلت عينيها بسرعة. أحسستُ بتفريغ كهربائي. لو أني كنتُ رجلاً لفكرتُ أنها فضحت عواطف عميقة خلال لحظة، عواطف كانت تجتهد في إخفائها. قالت:

ـ إذا استطعتُ إيصال مثل هذه الرسائل بعينيّ اللتين ليس فيهما ماهو استثنائي؛ فتخيّلي مايمكنكِ أنتِ أن تعبّري به. لا أفاجأ أن تؤدي برجل إلى الإغماء وسط الشارع.

ـ مامها ـ سان! لو أن لي هذه القدرة على الإيقاع برجل وسط الشارع لعرفتُ ذلك منذ زمن طويل.

ـ إن ما يدهشني هو أنكِ لم تفعلي ذلك بعد. أقترح عليكِ أمراً: ستبدئين عملكِ عندما ستكون رَفَّةُ جفنكِ كافيةً لإيقافِ رجلٍ في الشارع.

كنتُ أتحرّق لأبدأ. ولو أن مامها قالت لي أسقطي شجرة بنظرتكِ لحاولت. أتريدين أن ترافقني لأختبر نظراتي على الرجال؟ قبلت بفرح. كان أول رجل مرَّ عجوزاً نحيلاً وكأنه كيمونو مليء بالعظام. كان يمشي في الشارع بخطى وئيدة متوكئاً على عصاه، نظارته متّسخة حتى إني لم أستغرب أن أراه يدخل في الجدار. لم يلاحظ وجودي. تابعنا سيرنا حتى جادة شيجو. والتقينا برجلَي

WWW.REWITY.COM

أعمال يرتديان بدلتين، ولكن لم يكن لي عليهما أي تأثير. لا بد أنهما يعرفان مامها، أو أنهما رأيا أنها أجمل مني لأنهما لم يغادراها بعينيهما.

كنتُ سأنسحب عندما رأيتُ شاباً في العشرين من عمره. كان يحمل صينية عليها تكدست أطباق من البامبو. في تلك الأيام كانت مطاعم كثيرة في جيون ماتزال تسلّم الطعام، وبعد الظهر، يُرسلُ صبيٌّ لجمع الأطباق الخالية. عادةً كان الصبي يضع الأطباق في علبة يحملها تحت إبطه أو على حامل الأمتعة على دراجته. تساءلت لماذا يحمل هذا الشاب هذه العلب على الصينية.

كان على بعد عدة مئات الأمتار منا. نظرت إليه مامها، ثم قالت:

ـ اجعليه يقلب الصينية!

وقبل أن أتمكّن من معرفة ما إذا كانت تمزح أم لا؛ اختفت في شارع جانبي.

لم أفكر أن فتاةً في الرابعة عشرة من عمرها، ولا حتى امرأة، يمكنها أن تقلب شيئاً لشابّ بمجرد النظر إليه. إننا نرى هذا النوع من المشاهد في السينما وفي الروايات. كنتُ سأنسحب دفعة واحدة لو لم أشاهد شيئين. من ناحية، كان الشاب ينظر إليّ كقطٍّ ينظر إلى فأر، ثم إن لهذا رصيف، بعكس معظم شوارع جيون. كان الصبي يمشي على الطريق بجانب الرصيف. إذا مانجحتُ في جعله يخرج عن مساره، فسيتعثّر على الرصيف ويُسقِط صينيته. بدأتُ بخفض عينيّ، ثم جرّبت تلك النظرة الهاربة التي اختبرتْها مامها عليّ. رفعتُ نظري لحظةً إلى الشاب، ثم حولته بسرعة. ها هو الآن ينظر إليّ بتفحُّص حتى نسي صينيته والرصيف. وعندما أصبحت على بعد عدة أمتار منه، انحرفتُ نحوه قليلاً، لم يعد يستطيع المرور دون أن يصعد إلى الرصيف، كما تمنيت. سقط أرضاً وتناثرت العلب على الرصيف فلم أستطع الامتناع عن الضحك! وضحك الشاب أيضاً، مما أسعدني. ساعدته على لمّ العلب، وابتسمتُ له ابتسامة صغيرة

فحيّاني. لم يكن لرجل أن ينحني إلى الأسفل كما فعل، ثم تابع طريقه.

التقيت بمامها بعد لحظات، كانت قد رأت كل شيء. قالت:

ـ أعتقد أنكِ صرتِ جاهزةً للبدء.

اجتزنا الشارع. صحبتني إلى عرّافها، وازا ـ سان. طلبت إليه أن يجد بعض التواريخ المناسبة للبداية: الذهاب إلى معبد الشنتو لأعلن للآلهة عن نواياي، ثم أتزيّن للمرة الأولى وأرتبط بمامها باحتفال.

* * *

لم أنم تلك الليلة. فما كنتُ أحلم به منذ زمن طويل ها إني أراه يتحقق أخيراً! انربطت معدتي لذلك وترطّبت يداي. سأدخل إلى صالون سيكون فيه رجال وأنا ألبس كيمونو جميلاً! كلما فكرت بذلك؛ عَرَتني قشعريرة في كامل جسدي. كنتُ أرى نفسي في بيتِ للشاي. أفتح باب صالون فيدير الرجال الجالسون على التاتاميات رؤوسَهم للنظر إليّ. كان الرئيس بينهم. كنتُ أتخيّله أحياناً لابساً كيمونو يابانياً كالذي يرتديه الرجال مساءً في بيوتهم. كان وحيداً في الغرفة يحمل بين أصابعه الناعمتين، كخشب صقيل، كأساً من الساكي. كم أحبّ أن أقدّم له الساكي وأحسّ بعينيه عليّ!

في الرابعة عشرة كان يتملكني انطباع بأن لديّ حياتين: هاهو وجودي الجديد يكاد يبدأ، في حين أن حياتي السابقة قد تمّت منذ بعض الوقت. هاقد مرت بضع سنوات منذ أن عرفت تلك الأخبار السيئة عن أهلي. لقد تغيرت حالتي الروحية تغيراً جذرياً. نعرف أن منظراً للشتاء مع أشجار مغطاة بالثلج سوف يُنكَر في الربيع. ومع ذلك، لم أكن أستطيع أن أصدّق أن الأمر عينه صحيح بالنسبة للبشر. عندما عرفتُ أن أهلي توفّوا، كنتُ كأني غُمرتُ بطبقة من الثلج. ولكن مع الوقت ذاب ذلك الثلج، وظهر في مكانه منظر لم أره في حياتي ولا حتى تخيّلته. عشية بدايتي، كنتُ كحديقة تنمو فيها نباتات فتية. ما

WWW.REWITY.COM

من أحد يعرف ماذا ستكون. كنتُ أفيض إثارة، ووسط حديقتي المتخيَّلة كان ينتصب تمثال: تمثال الجيشا التي كنتُ أريد ان أكونها.

14

الفتاةُ التي ستبدأ حياتها كجيشا متدرِّبة هي يرقة ستصبح فراشة كما يُقال. الفكرة جميلة! وبعد، فقد تساءلتُ من الذي تجرّأ وأبدع تشبيهاً كهذا؟ ما على اليرقة إلا أن تدور في شرنقتها، ثم تغفو لبعض الوقت. أما أنا، فقد عشتُ أسبوعاً منهِكاً. كان عليّ أولاً أن أزيّن شعري، وأضع الكعيكة الضخمة التي تضعها الجيشاوات المتدربات أو «الدراقة المشقوقة». في ذلك العصر كان ثمة مزينون كثر في جيون. كان مزين مامها يعمل في غرفة صغيرة مليئة بالناس فوق مطعم يقدّم الأنقليس. ووجب عليّ أن أنتظر حوالى ساعتين حتى أتى دوري. كان هناك جيشاوات في كل مكان حتى على سفرة الدرج. تقتضي الصراحة أن أقول إن رائحة الشعر المتّسخ كانت تملأ الأمكنة. في تلك الآونة كان للجيشاوات تسريحات كبيرة جداً، وذلك يستدعي مصاريف ووقتاً وجهوداً. كما إنهنّ لا يسرّحن شعورهن إلا مرة واحدة في الأسبوع، فحتى العطر الذي يضعنه يصبح ذا رائحة بشعة.

وأخيراً، بعد أن أتى دوري أجلسني المزين فوق مغسلة كبيرة في وضع غير مريح: ظننتُ أنه سيقطع رأسي! صبَّ سطلاً من الماء الساخن على شعري وشرع يفركه بالصابون. «الفرك» ليس الكلمة الملائمة، فلقد انقضّ على جلدي المشعر بيديه كفلاح يقلب حقله. في النهاية عرفتُ لماذا. القشرة مشكلة بالنسبة إلى الجيشاوات. فالقشرة منفِّرة، إنها تعطي انطباعاً بأن الشعر قذر. ربما كان للمزين أفضل

الأسباب لكي ينقضّ على شعري هكذا، ولكنّ جلد رأسي أخذ يؤلمني حتى كدتُ أن أبكي. أخيراً كلّمني قائلاً:

ـ هيا! ابكي إذا أحببتِ! لماذا تظنين أني وضعتكِ فوق مغسلة كبيرة؟

لا بدّ أنه ظنّ نفسه يمزح معي لأنه انفجر ضاحكاً.

بعد أن تعب من حكّ جلدة رأسي بأظافره، أجلسني على التاتاميات ومرّر مشطاً خشبياً في شعري وهو يشدّ بقوة، حتى أخذت نقرتي تؤلمني، وأنا أقاوم شدّه. بعد أن أزال كل العقد في شعري صبَّ عليه زيت الكاميليا ما أكسبه بريقاً جميلاً. قلتُ لنفسي إن أسوأ ما في الأمر قد مضى عندما أخرج حاجزاً من الشمع. مهما استعمل زيت الكاميليا كمليّن ومطرٍّ للشمع مع مكواة حارقة، فإن الشمع والشعر لم يتفقا قطّ. هذا يدلّ دلالة بليغة على نوعيتنا بوصفنا متحضّرين، أن تترك صبيةٌ رجلاً يضع لها الشمع في شعرها دون أن تحتجّ، اللهم سوى بأنّاتٍ خفيفة. حاول أن تفعل ذلك مع كلبٍ؛ فإنه سيعضّك، ويجعل يديكَ مثقّبتين كغربال.

بعد أن أصبح شعري «مشمَّعاً» بطريقة موحَّدة، صنع منه المزيِّن كعيكة كبيرة على شكل كبة مليئة بالدبابيس. من الخلف كانت هذه الكعيكة مشقوقةً نصفين متساويين، ومن هنا أتى اسم «درّاقة مشقوقة» الذي يُطلَق على هذه التسريحة.

لقد سُرِّحَ شعري بهذه الطريقة طوال سنوات دون أن أدرك رمزيتها. حتى فسّر لي أحد الرجال ذلك بعد أن أصبحتُ جيشا. لصنع الكعيكة، التي شبّهتها أنا بكبّة مليئة بالدبابيس، يُلَفُّ الشعر على قطعة من القماش. وفي الخلف، عند شقّ الكعيكة، تُرى قطعة القماش. وقد تكون أية قطعة، ومن أي لون كان. أما بالنسبة لجيشا متدرّبة، لا سيما بعد مرحلة معيّنة في حياتها، يجب أن يكون القماش من الحرير الأحمر. قال لي رجلٌ ذات مساء:

ـ معظم هاته الفتيات البريئات ليس لديهنّ فكرة أن طريقة هذه التسريحات على شكل «دراقة مشقوقة» مثيرة جداً! تصوري! إنك

WWW.REWITY.COM

تمشين في الشارع خلف جيشا يافعة، وتفكرين بكل الأشياء غير الملائمة التي يمكنك أن تفعليها، وفجأةً ترين تلك الدراقة على رأسها بشقّها الأحمر... مالذي يخطر ببالك؟

قلت له لم يخطر ببالي أي شيء، فقال متعجباً:

ـ هيا! ألا تستخدمين خيالك!

في النهاية فهمت. احمرّيت، حتى انفجر ضاحكاً.

* * *

خرجت من عند المزين وجلدة رأسي تشبه صلصالاً قدّه إزميل النحات. لكني لم آبهْ لذلك، فعندما كنتُ أرى انعكاس صورتي على الواجهات كنت أحسّ بأهميتي. لم أعد فتاةً صغيرة بل صبية يافعة. وصلتُ إلى الأوكيّا. جعلتني تاتي أتّخذ عدة أوضاع لكي ترى تسريحتي من زوايا مختلفة، ولم تبخل عليّ بالمديح. حتى بومبكين لم تستطع مقاومة الرغبة في مشاهدتي بعدة أزياء وهي معجبة ـ رُغمَ أن هاتسومومو كانت ستغضب لو أنها عرفت بذلك. ماذا كانت ردّة فعل الأم برأيك؟ لقد وقفت على رؤوس أصابعها لكي ترى بصورة أفضل ـ وهذا لم ينفعها في شيء لأني كنتُ أصلاً أطول منها ـ ثم حشرجت، ففي رأيها أن عليّ أذهب إلى مزيّن هاتسومومو.

سرعان ما تكره الجيشا الشابة هذه التسريحة التي كانت في البداية مصدراً لفخرها، وذلك بعد يومين أو ثلاثة. فإذا عادت متعبة من عند المزين، وأرادت أن تستريح وتأخذ قيلولتها؛ فإن التسريحة ستنسحقُ مما يؤدي بها إلى العودة إلى المزين. كما إن على المتدربة أن تتعلّم كيف تنام في وضعية خاصة، وهي بهذه الكعيكة ذات «الدراقة المشقوقة». إن عليها أن تهجر وسادتها العادية إلى «التاكاماكورا» التي تكلمتُ عنها. إنها ليست وسادة بقدر ماهي مسند للنقرة. معظم «التاكاماكورات» محشوة بنخالة القمح، ولكن المرء يظن أنه يضع نقرته على حجر. أنت مستلقٍ على فوتونك، ورقبتك على التاكاماكورا، ورأسك في الفراغ، وتنام. حتى الآن كل شيء على ما يرام، ثم تستيقظ في الصباح ورأسك على الغطاء،

وشعرك قد انسحق. علّمتني تاتي أن أتجنب ذلك بوضع صينية من طحين الأرز بجانب شعري، كلما انزاح رأسي عن التاكاماكورا؛ تلوّثَ بالطحين الذي يبقى ملتصقاً على شعري لأنه مدهون بالشمع، فيجب عليّ أن أعيد تسريحتي. فقد رأيت بومبكين تمر في هذه المحنة، والآن دوري. لبعض الوقت كنتُ أستيقظ صباحاً وشعري أبيض تماماً. فكان عليّ أن أعود إلى المزين، وأنتظر حتى يتفضّل بإيلامي.

* * *

في كل بعد ظهر، طوال الأسبوع الذي سبق بدايتي، كانت تاتي تُلبسني مجموعة الألبسة الكاملة للجيشا المتدربة. جعلتني أذرع الممر من الطين المرصوص لكي أتدرّب على المشي بهذا الزي. في البداية كنتُ أمشي بصعوبة، خشيةً من أن أرتمي إلى الخلف. كانت الفتيات يلبسن ثياباً أكثر تكلّفاً من النساء: ألوان فاقعة، وأقمشة شفافة، أوبي أطول. كانت المرأة تلبس أوبيها وهو معقود على الظهر «عقدة الطبل»، وهي عقد على شكل علبة تُعقَد مع قطعة من القماش. أما الفتاة التي لم تتجاوز العشرين من عمرها، فهي على العكس، ترتدي أوبي مذهلاً، والجيشا المتدربة ترتدي أوبي يُسْحَبُ خلفها أو «دراري أوبي» ينعقد على مستوى لوح الكتف، وتُسْحَبُ أطرافه على الأرض تقريباً. وعندما تمشي إحدى الجيشاوات أمامك في الشارع فإنك لا ترى إلا أوبيها، إنه ساحر، ويغطي معظم ظهرها. ولكي ينجح هذا الذيل يجب أن يكون بطول الصالون. على أية حال، ليس طول الأوبي هو ما يجعله صعب اللبس، بل وزنه. فالأوبيات تصنع بصورة دائمة تقريباً من البروكار الثقيل. إن صعود الدرج به هو وحده الصعب، فتخيّل ماذا يعني ارتداؤه طوال النهار! هذا الشريط الطويل يلتفّ على جسمك كأفعى، وهذا البروكار الثقيل يُخلّ التوازن إلى الخلف، تصوّر أنك تمشي وفي ظهرك صندوق!

والأدهى من ذلك، أن الكيمونو نفسه ثقيل جداً مع كمّين طويلين متدليين. ولن أتكلم عن تلك الأكمام ذات الفتحات الواسعة جداً حتى

WWW.REWITY.COM

تلامس الأرض. وعندما تمدّ امرأة يدها وهي ترتدي الكيمونو، فإن قماش هذا الكم يشكّل جيباً واسعاً تحت معصمها. إن هذا الجيب أو «الفوري» الطويل جداً على كيمونو جيشا متدرّبة؛ قد يُجَرُّ على الأرض إذا لم تتنبّه الفتاة، وإذا رقصت فإنها تتعثّر بكمّها إذا لم تطوِه عدة طيات على ساعدها.

ذات مساء، بعد عدة سنوات أوصل لي أحد العلماء في جامعة كيوتو الملاحظة التالية، وهو سكران: «يقال إن القردوح في أفريقيا الإستوائية هو الأكثر برقشةً بين الرئيسات، ولكن برأيي أنه ليس أكثر من جيشا متدرّبة».

* * *

أتي اليوم الذي وجب علينا فيه، أنا ومامها، أن نضحّي تبعاً لذلك الطقس الذي يجعل منا أختين. استحممتُ منذ ساعة مبكرة، ثم أمضيتُ ساعات الصباح في ارتداء ملابسي. ساعدتني تاتي على وضع اللمسات الأخيرة على مكياجي والزينات الأخيرة على تسريحتي. هذا الشمع وهذا الأبيض على وجهي كانا يعطيانني انطباعاً بأني لم أعد أحسّ بوجهي، حتى بعد أن أضغط بأصابعي عليه. كررتُ هذه الحركة عدة مرات، بينما كانت تاتي تعيد ترتيب مكياجي. كلما نظرتُ إلى نفسي في المرآة؛ عَراني ذلك الانطباع الغريب. هل تلك الفتاة الجاثية أمام طاولة المكياج، والغريبة التي أراها في المرآة هما حقاً شخص واحد؟ مددتُ يدي لكي ألمس تلك الصبية الغريبة. كان مكياجها رائعاً كجيشا. كان الأحمر القاني الذي على شفتيها يقطع مع وجهها الأبيض، وكانت وجنتاها ملوّنتين بالزهري، وفي شعرها أزهار من الحرير وسنابل أرزّ بري. كانت ترتدي كيمونو تقليدياً أسود اللون مع شعار أوكيّا نيتا. نهضتُ وذهبتُ لأرى نفسي في مرآة الممر. كان تنين مطرزاً على كيموني وذيله يلتف بدءاً من الفتحة السفلية وحتى منتصف الفخذ. كان عرفه من الخيوط المبرنقة الحمراء ومخالبه وأسنانه المعوجّة مفضّضة، وعيناه مذهبة، من الذهب الحقيقي. أحسستُ بعينيّ مغشيتين بالبخار، فوجب عليّ أن أنظر إلى السقف لكي أمنع الدموع من

الانهمار. قبل أن أغادر الأوكيّا، دسستُ منديل الرئيس في أوبيّ كجالب للسعادة.

صحبتني تاتي إلى بيت مامها التي عبّرتُ لها عن امتناني، ووعدتها بأن أجلّها وأحترمها على الدوام. ثم مضينا نحن الثلاثة إلى معبد جيون. صفقنا بأيدينا، مامها وأنا، وأعلنّا أمام الآلهة أننا ننوي أن نكون أختين، وصلّيتُ كي أستفيد من فضل الآلهة في المستقبل، ثم أغمضتُ عينيّ وشكرتها على تحقيق النذر الذي نذرته قبل ثلاث سنوات ونصف السنة في أن أكون جيشا.

يجب أن يتمّ الحفل في بيت شاي إيشيريكي، أشهر بيت في اليابان. لهذا البيت تاريخ طويل، فقد التجأ إليه أحد الساموورايات في بداية القرن الثامن عشر. لربما سمعت بالرجال السبعة عشر الذين انتقموا لقتل معلمهم، ثم قتلوا أنفسهم بطريقة «السيبّوكو»، إن رئيسهم هو الذي التجأ إلى بيت شاي إيشيريكي، حيث حاك مؤامرة للانتقام لمعلّمه. في جيون، معظم بيوتات الشاي الكبرى لها مدخل سري. وبيت الإيشيريكي، بالمقابل ليس مجهولاً، إذ إنه يقع على زاوية مزدحمة في جادة شيجو، حيطانه الخارجية جميلة مطلية بلون مشمشي، وله سطح مغطى بالقرميد. أحسستُ وكأني أدخل إلى قصر.

لحقت بنا إلى الإيشيريكي أختان صغيرتان لمامها، كذلك فعلت الأم. اجتمعنا في الحديقة، ثم رافقتنا إحدى الخادمات إلى المدخل، ثم إلى غرفة صغيرة فيها تاتاميات في الجزء الخلفي من البيت. لم أدخل قط إلى بيت بهذه الروعة، فكل قطعة أثاث في هذا البيت ذات بريق أخّاذ، وبدا كلسُ جدرانه ذا بياض ناصع. وكانت الرائحة الناعمة لـ«الكورورياكي»، أو الفحم الأسود، تملأ أرجاء الغرفة. والكورورياكي عطر مصنوع من فحم الخشب. كان عطراً عفا عنه الزمن، حتى مامها التي تعدّ من الجيشاوات التقليديات كانت تفضّل العطور الغربية. والكورورياكي الذي وضعته أجيال من الجيشاوات يملأ المكان. ولقد كنت أحمل دائماً زجاجة من هذا العطر، إذ كلما تنفستُ يعيدني إلى أجواء ذلك النهار الخاص.

WWW.REWITY.COM

لم يدم الاحتفال الذي حضرته معلمة الإيشيريكي إلا عشر دقائق. حملت إحدى الخادمات صينية عليها بعض كؤوس الساكي. جرعت ثلاث جرعات من أحد الكؤوس، ثم ناولته لمامها التي شربت بدورها ثلاث جرعات. كررنا هذا الطقس مع بقية كؤوس الساكي، ثم انتهى كل شيء. منذ تلك اللحظة لم أعد أدعى شيو، وصار اسمي سايوري، جيشا مبتدئة. طوال الشهر الأول من التدرب تكون الجيشا «مبتدئة»، لا تستطيع أن ترقص علناً، ولا أن تسلّي الرجال إلا بحضور أختها الكبرى. لا تفعل إلا المراقبة والتعلّم. أما بالنسبة إلى الاسم، سايوري، فقد أنفقت مامها وقتاً طويلاً جداً على اختياره بمساعدة عرّافها. ليس جرْس الاسم هو المهم، بل معنى الأحرف هو الأهم، كذلك عدد ضربات الفرشاة اللازمة لكتابته، فبعض الأرقام يجلب السعادة، وبعضها الآخر مضرّ. واسمي الجديد يتكوّن من «سا»: ويعني معاً، و«يو»: برج الديك في الأبراج الصينية، لكي يوازن بين العناصر المختلفة لمعنى اسمي، و«ري»: الذي يعني الفهم. فقد رأى العرّاف أن جميع الاشتقاقات الممكنة من عناصر اسم مامها مضرّة.

أحببتُ اسمي الجديد كثيراً، ولكني استغربتُ ألا أدعى بشيو. بعد الاحتفال ذهبنا إلى غرفة أخرى لكي نتناول غذاءً من «الأرز الأحمر»، وهو مكوّن من الأرز ممزوجاً بالفاصولياء الحمراء. أكلتُ حبات قليلة، فقد كنتُ في غاية الاضطراب، وليس لديّ أية رغبة في أن أحتفل بهذا الحدث. طرحت عليّ سيدة البيت سؤالاً، وقد نادتني سايوري، وفهمتُ سبب اضطرابي. كان الأمر وكأن الفتاة الصغيرة التي كان اسمها شيو، والتي كانت تجري حافية القدمين في المستنقع قرب البيت السكران، قد كفّت عن الوجود، ونما لديّ انطباع بأن هذه الشابة، سايوري، ذات الوجه الأبيض والشفتين الحمراوين قد قضت عليها.

كانت مامها تريد أن تمضيَ بداية الظهيرة وهي تدور على بيوتات الشاي والأوكيّات التي تعرفها لكي تقدمني. ولكن بدلاً من الذهاب بعد الغذاء، جلسنا في أحد صالونات الإيشيريكي، بدقةٍ أكثر،

قرفصنا على أكعابنا، وعندما رأتني مامها أفعل ذلك، قامت بحركة تنم عن التجاهل، وأمرتني أن أبدأ من جديد. كان لباسي ضيقاً جداً ولم أستطع أن أجلس على الأرض إلا بعد عدة محاولات. أعطتني مامها زينةً على شكل بقطينة، وأرتني كيف أثبتها على أوبيّ. فاليقطينة فارغةٌ وخفيفةٌ ومن شأنها أن تحرر الجسم من ثقله، وكانت عدة متدربات يضعنها لكي يتجنبن السقوط.

تحدثت ومامها بضع دقائق، وعند الذهاب طلبت إليّ أن أقدم لها كأساً من الشاي. كان الإبريق فارغاً، لكنها أشارت إليّ أن أتظاهر بصب الشاي لكي ترى ماذا سأفعل بكمّي. ظننت أني عرفت مارمت إليه، قمت بالعمل بأحسن ماأستطيع، لكن ذلك لم يرضها، فقالت:

ـ الشيء الأول: لمن تقدمين الشاي؟

ـ لكِ!

ـ غير مهم، معي لاتشعرين بشيء. تخيلي أنك تقدمين الشاي إلى شخص آخر، رجل أم امرأة؟

ـ رجل.

ـ عظيم جداً، قدمي لي كأساً من الشاي.

امتثلت لها، فلَوَتْ عنقها لكي ترى كمّي بينما كنتُ أصبُّ الشاي في فنجانها.

ـ أرأيت كيف أفعل؟ هذا ما يجب أن يحصل مع الرجال، لو ترفعين ذراعك أكثر.

حاولت من جديد وأنا أخفض ذراعي قليلاً، وهذه المرة خنقت مامها تثاؤباً قبل أن تدير رأسها وتبدأ حديثاً مع جيشا متخيلة إلى يمينها.

قلتُ لها: هل أضجرتك؟ ولكن كيف يمكنني أن أكون مضجرةً وأنا أقدم كأساً من الشاي؟

ـ يمكنك ألا تَدَعيني أرى ذراعك، ولكن هذا ليس سبباً لكي تتخذي وضع الاحتشام! فالرجال لايهتمون إلا بشيءٍ واحد،

WWW.REWITY.COM

وستلاحظينه سريعاً. كما إنه لاشيء يمنعك من امتداح رجلٍ وأنت تدعينه يظن أنه يرى أجزاءاً من جسمك لايراها الآخرون. عندما تقدم المتدربة الشاي كما قدمتِه، وكما تقدمه الخادمةُ، يشعر الرجال بالخيبة. حاولي مرةً أخرى، ولكن أريني ذراعك أولاً.

تركتُ كمّي ينزلق حتى مرفقي، ومددتُ ذراعي لكي تراها. أَمْسَكَتْ بها، تفحَّصَتْها من الأعلى إلى الأسفل، ثم قالت:

ـ بشرتك جميلةٌ جداً، وذراعك جميلة. تصرفي بحيث يراها الرجال الذين يجلسون إلى جانبك مرةً واحدةً على الأقل.

تابعت تقديم الشاي، حتى قدّرت مامها أني أعرض ذراعي بالطريقة الطبيعية المطلوبة. لم يكن المقصود أن أشمر كمي حتى مرفقي فذلك مضحكٌ، بل المقصود إبعاد هذا الكم، بطلاقةٍ ومرحٍ والاستفادة من هذه الفرصة لإظهار بضع سنتمتراتٍ إضافية من الجلد. وبرأي مامها: إن الجزء الداخلي من الساعد هو الأكثر إثارةً، وكان عليَّ أن أتصرف بحيث يراه الرجال.

طلبت إليَّ أن أعيد الكرة وأنا أتخيل أني أقدم الشاي لمعلمة الإيشيريكي. كشفتُ عن ذراعي بالطريقة نفسها، فكشَّرت مامها قائلةً:

ـ إيه ياسايوري، أنا امرأة! لماذا تعرضين ذراعك هكذا؟ أتريدين أن تثيري غيرتي؟

ـ أن أثير غيرتك؟

ـ ماذا يمكنني أن أفكر غير ذلك؟ إنك تبينين كم أنت فتيةٌ وجميلة، بينما أنا عجوز فانية! هذا إلا إذا أردت أن تكوني مبتذلةً...

ـ مبتذلة؟

ـ لماذا ستعرضين ذراعك بهذا التباهي؟ يمكنك أيضاً أن تظهري أخمص قدمك أو باطن فخذك. إذا رأيتُ جزءاً من جسمك بالمصادفة فلا بأس في ذلك، أمّا أن تظهري لي ذراعك بهذه الطريقة المتباهية!

أعدت الكرّة مرتين أو ثلاث مرات حتى بدوت مرضيةً. عند ذلك قالت لي مامها إننا سنقوم بجولةٍ في جيون.

كنت ألبسُ ثياب الجيشا المتدربة منذ عدة ساعات. والآن عليَّ أن أمشيَ في جيون بـ«الأوكوبو» وهو حذاءٌ خشبي عالٍ جداً مع سُيُورٍ مبرنقة. إنها مدببةٌ وهذا ما يراه معظم الناس أكثر أناقة. ولكنني عانيت أشدَّ العناء في انتعاله، فقد ظننتُ وكأن قرميدتين ربطتا بقدميَّ.

توقفتُ ومامها في نحو عشرين من بيوتات الشاي والأوكيّات، بضْعَ دقائق في كل منها. غالباً ما كانت إحدى الخادمات تفتح لنا الباب، فتسأل مامها بتهذيب عن المعلمة، وعندما تأتي هذه، تقول لها مامها:«أود أن أقدم لكِ أختي الصغيرة الجديدة سايوري»، ثمَّ تنحني إلى أقصى ما تستطيع، وتقول:«كلي أملٌ في أن تكوني متسامحةً معها». كانت معلمات تلك الأمكنة يتحدثن قليلاً مع مامها، ثم نتابع طريقنا. في بيتين أو ثلاثة دعينا إلى تناول الشاي، ومكثنا وقتاً أطول. لكني كنت أفضل عدم شرب الشاي، وأكتفي بتبليل شفتيَّ. فقد كان أمراً عسيراً استخدام المرحاض مع هذا الكيمونو. لذا لم أكن متأكدةً من أني أتقنتُ دقائق هذا التمرين.

بعد ساعةٍ من التجول، أحسست بالإنهاك، وبالكاد كنت قادرةً على إخفاء لهاثي. لكننا تابعنا جولتنا بالوتيرة نفسها. في تلك الأيام كان في جيون ما يقارب الأربعين بيتاً للشاي من الدرجة الأولى، ومايقارب المئة من درجةٍ أدنى. بما أننا لم نستطع أن نزورها جميعاً، فقد زرنا نحو خمسة عشر من البيوتات التي كانت تغشاها مامها. ثم مررنا بست أوكيّات كانت مامها تعرف معلماتها، إذ كان في جيون مئات الأوكيّات.

نحو الساعة الثالثة أنهينا زياراتنا، ولم يكن لديَّ سوى رغبة واحدة: أن أنام. ولكنَّ مامها كانت قد أعدت مشاريع لي، وكان عليَّ أن أنفِّذ أول التزامٍ لي بوصفي مبتدئةً قبل هذا المساء. قالت لي:

ـ اذهبي واستحمّي. لقد تعرقت كثيراً وذهب مكياجك.

WWW.REWITY.COM

كان ذلك النهار نهاراً حاراً من نهارات الخريف، أكثرتُ فيه من الحركة.

* * *

في الأوكيًا، ساعدتني تاتي على تغيير ملابسي، ثم أشفقت عليَّ وتركتني أقيل نصف ساعة. لقد حزتُ من جديد على رضاها: فقد نسِيت حماقاتي، وبدا مستقبلي أكثر إشراقاً من مستقبل بومبكين. أيقظتني في نهاية قيلولتي، فأسرعتُ إلى الحمام. ونحو الساعة الخامسة كنتُ قد ارتديتُ ملابسي من جديد وأعدتُ مكياجي. كنتُ في غاية التأثّر كما يمكنكَ أن تتصوّر. منذ سنوات عديدة وأنا أرى هاتسومومو تخرج، بعد الظهر وفي الأماسي، وهي في كامل زينتها وبصحبتها بومبكين، والآن أتى دوري. كانت السهرة التي تنتظرني أولى سهراتي، وليمة في كانسي أنترناشيونال أوتيل. والولائم عبارة عن عشاءات متكلفة تقام في قاعة فيها تاتاميات، ويجلس الساهرون على شكل «U» وأمامهم أطباق مليئة بأصناف الطعام موضوعة على حوامل صغيرة.. وتتنقّل الجيشاوات المدعوات لتسلية الحاضرين داخل الـ «U» التي يشكّلها الساهرون. إنهنّ يمضين بضع دقائق جالسات مقابل كل مدعو ليتحدّثن ويقدّمن الساكي. لاشيء مثير في ذلك. بوصفي مبتدئةً، فإنّ دوري أقلّ أهمية من دور مامها، لذلك بقيتُ جالسةً إلى يمينها كظلها، كلما قدّمت نفسها أفعل مثلها، كنتُ أقول:«اسمي سايوري، أنا مبتدئة، وأرجوكم أن تتسامحوا معي». ثم لا أقول شيئاً، ولا يوجّه أحدٌ كلامه لي.

نحو نهاية المأدبة، تُفتح الأبواب ذات الزَّلّاقات على جانبي القاعة. ترقص مامها وجيشا أخرى. اسم المقطوعة التي رقصتا عليها «شيو نو تومو»، صديقات أبديات. إنها باليه جميلة جداً: تلتقي فيها امرأتان بعد طول فراق. كان معظم الساهرين ينظفون أسنانهم وهما ترقصان. كان هؤلاء الرجال موظفين في شركة كبيرة تصنّع صمّامات من الكاوتشوك، وقد أتو إلى كيوتو لحضور المأدبة السنوية التي تقيمها شركتهم. برأيي، ما من أحد منهم كان يميّز بين راقصة ورجل مسرنم. أما أنا فقد كنت سعيدة، فعندما

ترقص نساء جيون فإنهنّ يستخدمن مروحة لكي يُبدين حركات معينة. وقد كانت مامها خبيرة في هذه الرقصة. تبدأ بإغلاق مروحتها، ثم تحرّكها بهدوء وهي تدور على نفسها لتصوّر الماء الذي ينساب، ثم تفتحها لتصبح كأساً تصبّ فيه صديقتها الساكي. كانت رقصة جميلة جداً، وكذلك كانت الموسيقا التي عزفتها على الشاميزن إحدى الجيشاوات بالغة النحول، وعيناها الصغيرتان شاحبتان.

لاتدوم الوليمة التقليدية أكثر من ساعتين. وفي الساعة الثامنة خرجنا، التفتُّ نحو مامها لأتمنى لها ليلة سعيدة، فقالت لي:

ـ فكّرتُ أن أدعك تنامين، ولكنكِ تبدين مليئةً بالحيوية. إني ذاهبة إلى بيت شاي كوموريًا، تعالي معي وسترين كيف تكون سهرة مسترخية، وهكذا تبدئين الظهور في أسرع وقت ممكن.

لم أستطع أن أقول لها إني متعبة جداً، فابتلعتُ تعبي، ولحقتُ بها.

أعلمتني مامها أن مدير مسرح كيوتو الوطني هو من أقام هذا الاحتفال. لقد كان يعرف أشهر جيشاوات اليابان، وبلا أي شكّ سيكون لطيفاً معي. كان من غير المحتمل أن يتحدّث إليّ، ومع ذلك فقد طُلب إليّ أن أتجمّل وأن يكون مزاجي صافياً. قالت مامها:

ـ كيّفي نفسكِ بحيث تعطين انطباعاً طيباً.

وصلنا إلى بيت الشاي، وخفرتنا خادمةٌ حتى الصالون في الطابق الثاني. عندما جلست مامها وفتحت الباب، بالكاد تجرّأتُ على النظر إلى الداخل. ومع ذلك فقد لمحتُ سبعةً أو ثمانية رجال جالسين على طنافس حول إحدى الطاولات. انحنينا ثم دخلنا. جثونا على التاتاميات لكي ينغلق الباب خلفنا ـ هكذا يجب أن تدخل الجيشا إلى الصالة. حيّينا الجيشاوات أولاً، ثم المضيف الجالس في طرف الطاولة، ثم بقية المدعوين.

WWW.REWITY.COM

قالت إحدى الجيشاوات:

ـ مامها ـ سان! لقد وصلتِ في الوقت المناسب، ستحدّثيننا عن كوندا ـ سان، المزين.

ـ أوه، لم أعد أذكره!

ضحك الجميع، ولم أفهم لماذا. أخذتني مامها إلى الطرف الآخر من الطاولة، ثم جلست مقابل المضيف. وجلستُ إلى جانبها. قالت:

ـ سيدي المدير، اسمح لي بأن أقدّم لك أختي الصغيرة الجديدة.

كان عليّ أن أتصرّف، كنتُ سأنحني أمام ذلك السيد وأطلب إليه أن يتسامح معي... كان رجلاً بالغ العصبية، عيناه جاحظتان وعظامه هشّة. لم يعرني اهتماماً، بل نفض سيكارته في منفضة أمامه مليئة بالسجائر، وقال:

ـ من هو هذا المزين؟ لم تكف الفتيات عن الحديث عنه طوال السهرة ولكنّ أياً منهنّ لم تشأ أن تروي قصته.

قالت مامها:

ـ حقاً لا أعرف شيئاً عنه.

قالت إحدى الجيشاوات:

ـ اعلموا أن هذا يزعجها! أنا سأحكي القصة بدلاً منها.

بدا الرجل وقد قَبِلَ هذه المبادرة. وتنهّدت مامها، فقال الرجل:

ـ في هذه الأثناء، سوف أقدّم كأساً من الساكي لمامها.

وسط الطاولة، كان هناك إناء مليء بالماء لغسل كؤوس الساكي. غمس فيه المدير كأسه، ثم ناوله لمامها.

قالت الجيشا التي بادرت إلى قص حكاية المزين:

ـ هذا الكوندا ـ سان هو أفضل مزيّن في جيون. وهذا ما يقوله الناس على الأقل. وطوال سنوات عديدة كانت مامها تستعين

WWW.REWITY.COM

بخدماته، وهي تأخذ دائماً الأفضل. كان يكفي النظر إليها للاقتناع بذلك.

تظاهرت مامها بأنها مصدومة، فقال أحد المدعوين:

ـ إنها أفضل ممثلة أعرفها على أية حال.

ـ في أثناء المشاهد يبقى المزيّنون في الكواليس لكي يساعدوا الجيشاوات على تغيير ملابسهنّ. وغالباً ما يحدث في أثناء تغيير الملابس أن ينزلق ثوبٌ فيظهر نهد أو جزةٌ من الشعر. تحدث هذه الأمور، على كل حال.

قال أحد الرجال:

ـ أنا أعمل منذ سنوات في أحد البنوك. أريد أن أصبحَ مزيّناً!

قالت الجيشا:

ـ لن تفعل إلا البصبصة على النساء العاريات. مهما يكن من أمر، فإن مامها محتشمة، تقف دائماً خلف حاجز لكي تبدّل ملابسها.

قالت مامها:

ـ أريد أن أروي القصة، لئلا تعطي عني فكرة سيئة. ثم أنا لست امرأة محتشمة، فكوندا ـ سان لا يكفّ عن النظر إليّ كما لو أنه لا ينتظر إلا تبديل الملابس القادم. كما إني طلبتُ حاجزاً، ومن المستغرب أن كوندا ـ سان لم يُحدِث ثقباً فيه من فرط النظر إليه.

قال المدير:

ـ لماذا لا تدَعيه يرى ولو جزءاً صغيراً من جسمكِ بين الفينة والأخرى؟ ماالضير في ذلك؟ ألا تريدين أن تُرينا جزءاً مخبّأً من جمالك؟

ضحك الجميع، وعندما أخذت الأمور تهدأ، بدأ المدير اللعبة من جديد. نهض وأخذ يفك حزام كيمونوه، ثم قال:

ـ لا أفعل ذلك إلا إذا تركتِني أرى ما تحت كيمونوك.

أجابت مامها:

- لم أقترح عليكَ قطّ شيئاً كهذا.

- ليس هذا كرماً منكِ!

- ليست الجيشاوات كريمات، بل زبائنهنّ.

- للأسف!

جلس من جديد، وقد سرّني أنه عدَل عن مشروعه، ومهما كان الآخرون سيُسرّون بهذا، فإن ذلك سيزعجني.

قالت مامها:

- أين وصلتُ؟ نعم، طلبتُ حاجزاً وظننتُ أنه سيحميني من فضول كوندا - سان. ولكن، ذات يوم، وبينما كنتُ عائدةً من المرحاض، لم أره في أي مكان، خفتُ بسبب حاجتي الماسة إلى شعر مستعار من أجل اللوحة القادمة، سرعان ما وجدناه جالساً على أحد الصناديق، كان يبدو محموماً جداً وضعيفاً. ظننتُ أن يعاني من أزمة قلبية! رأيتُ شعري المستعار إلى جانبه. اعتذر، ثم ساعدني على وضعه. في نهاية الظهيرة، ناولني قصاصة ورق كان قد كتبها...

تركت مامها جملتها معلّقة، وأخيراً سألها أحد الرجال:

- حسنٌ، ماذا كتب؟

وضعت مامها يدها على عينيها. بدت منزعجةً ولا تريد أن تكمل وانفجر الجميع ضاحكين. أخيراً قالت الجيشا التي بدأت برواية الجزء الأول من القصة:

- سأقول لكم ما كتب، إنه شيء من قبيل:«أيتها العزيزة جداً مامها! أنتِ أجمل جيشا في جيون». إضافة إلى سلسلة من المدائح: «عندما تضعين شعراً مستعاراً أحبّه وأغرس رأسي فيه، أشمّ رائحة شعرك مراراً في كل يوم، أما اليوم، وبعد أن ذهبتِ إلى المرحاض فقد جعلتِني أعيش أشدّ لحظات حياتي، فبينما كنتِ فيه بقيتُ خلف الباب أسمع السقسقة الناعمة، لقد كان صوتها أجمل من صوت شلال...»

ضحك الرجال بقوة فاضطُرّت الجيشا إلى الانتظار حتى يسكتوا لكي تتمكّن من متابعة كلامها:

- « ... والسقسقة الناعمة التي كان صوتها أجمل من صوت شلال، جعلت العضو الذي كنتُ أسقسق بوساطته يتصلّب...»

صحّحت مامها قائلةً:

- لم يكتب هكذا، بل كتب:«سقسقتكِ الناعمة، الأجمل من صوت شلال، جعلتني أنبض من التأثر لفكرة عريك...».

قالت الجيشا الأخرى:

- بعد ذلك، لم يستطع النهوض من فرط إثارته. وانتهت الرسالة على هذا النحو:«كلي أمل أن أعيش من جديد لحظات مشابهة، مرة أخرى في حياتي».

ضحك الجميع، وتظاهرتُ بالضحك. لقد عانيتُ في تصديق أن هؤلاء الرجال الذين دفعوا غالياً لكي يكونوا هنا، بين هاته النساء اللائي يلبسن أبهى كيمونوهاتهن، يرغبون حقاً في سماع قصص طفلية إلى هذا الحد. كنتُ أخشى أن أقع على حديث فكري عن الأدب أو الكابوكي، لأن هناك سهرات من هذا النوع في جيون، وإذا بأولى سهراتي خفيفة على هذا النحو.

بينما راحت مامها تروي قصتها، كان الرجل الجالس إلى جانبي يفرك وجهه بيديه دون أن يسمع شيئاً، ثم نظر إليّ طويلاً، وسألني:

- مابهما عيناكِ؟ أم إني أفرطتُ في الشراب؟

لقد أفرط في الشراب، ولكن بدا لي من غير المناسب أن أقول له ذلك. قبل أن أتمكّن من الرد، تحرك حاجباه كأنما بتأثير عادة عصبية، ثم هرش رأسه بقوة حتى غطّى كتفيه وابل أبيض. فهو معروف في جيون باسم «السيد ندف الثلج» بسبب القشرة، وقد عرفتُ ذلك فيما بعد. بدا وكأنه قد نسي السؤال الذي طرحه عليّ، أو أنه لم يتوقّع مثل هذا الجواب قطُّ، لأنه سألني عن عمري، فقلتُ له أربعة عشر عاماً، فقال:

WWW.REWITY.COM

ـ لم أرَ في حياتي فتاة في الرابعة عشرة من عمرها بهذا الطول! خذي هذا.

ناولني كأس الساكي الفارغ، فقلتُ:

ـ أوه، لا يا سيدي! ما أنا إلا مبتدئة.

لم أفعل إلا تكرار ما نصحت لي مامها أن أقوله، ولكن السيد ندف الثلج لم يكن يصغي إليّ. حمل كأسه إلى تحت أنفي حتى أخذته ثم تناول زجاجة ساكي لكي يسكب لي.

لم أكن مستعدةً لشرب الساكي، لأنه على الجيشا المتدرّبة أن تحتفظ بجانب طفولي،، ناهيك عن الجيشا المبتدئة. ومع ذلك لم أستطع أن أعصي أمر هذا الرجل، فمددتُ إليه الكأس. هرش رأسه مرة أخرى قبل أن يسكب لي. رأيتُ بهلع أن جزءاً من القشرة سقط في الكأس. ملأه لي السيد «ندف الثلج»، وقال:

ـ اشربي الآن، هيا! ستكون هذه أول مرة في سلسلة طويلة.

ابتسمتُ له، وأدنيتُ الكأس من شفتيّ وأنا لا أعرف ما أفعل غير ذلك، عندها طارت مامها إلى نجدتي قائلةً:

ـ هذا أول أيامكِ في جيون يا سايوري. ليس من صالحكِ أن تسكري. بللي شفتيكِ به فقط.

أطعتها وبلّلتُ شفتيّ بالساكي. ضغطتهما بقوة على حافة الكأس حتى أحسستُ بالألم، ثم أملتُ الكأس حتى لامس الساكي شفتيّ، ثم وضعتُ الكأس على الطاولة، وقلتُ:«هم م م ، إنه لذيذ!» وأنا أخرج منديلي من كمّي. شعرتُ بالارتياح بعد أن جفّفتُ شفتيّ به، وهذا ما لم يره السيد ندف الثلج لأن نظره كان مثبّتاً على الكأس الموضوع على الطاولة أمامه. بعد قليل رفعه وجرعه دفعةً واحدة، ثم نهض واعتذر ليذهب إلى المرحاض.

على الجيشا المتدرّبة أن ترافق الرجل إلى المرحاض، ولكن لا يُطلب ذلك من مبتدئة أبداً. فإذا لم توجد المتدرّبة يذهب الرجل

بمفرده، أو ترافقه إحدى الجيشاوات. لكنّ السيد ندف الثلج بقي مسمّراً أمامي ينظر إليّ، ففهمتُ أنه يريد أن أذهب معه.

لم أكن أعرف بيت الشاي كوموريًا، في حين أنه بدا وكأنه في بيته. لحقتُ به في ممر طويل، ثم انعطف إلى اليمين. ابتعد عن الباب لكي أفتحه له. وبعد أن أغلقته خلفه، سمعت أحدهم يصعد الدرج. لم يلبث السيد ندف الثلج أن خرج، ومشينا من جديد عائدين إلى المجموعة. لقد وصلت إحدى الجيشاوات مع إحدى المتدرّبات. كانتا تديران ظهريهما إلى الباب، فلم أرَ وجهيهما إلا بعد أن درتُ حول الطاولة وجلستُ إلى جانب السيد ندف الثلج. أية صدمة عندما رأيتهما هنا أمامي! هاتسومومو تبتسم لي وإلى جانبها بومبكين.

تبتسم هاتسومومو عندما تكون سعيدة ككل البشر، ولكنها تكون في قمة سعادتها عندما تكون على وشك أن تُسيء لأحدهم. لهذا كانت تبتسم ابتسامة محببة عندما قالت:

ـ يا إلهي، ما هذه المصادفة! مبتدئة لا يمكنني حكاية بقية القصة لئلا أخجل هذه الصغيرة.

تمنيتُ أن تعتذر مامها وتأخذني، لكنها نظرت إليّ نظرة قلقة، لابدّ أنها استشعرت أمراً ما: إن ترك هاتسومومو مع هؤلاء الرجال يعادل أن تترك بيتاً للنار تلتهمه. البقاء أفضل من أجل التحكم بسير المصيبة.

قالت هاتسومومو:

ـ لا شيء أصعب من أن يكون المرء مبتدئاً، أليس كذلك يابومبكين؟

الآن أصبحت بومبكين متدرّبة مضرّسة. لقد كانت مبتدئة منذ

www.rewity.com ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

ستة أشهر خلت. نظرتُ إليها لأتفحّص مشاعرها، لكنها كانت تنظر بثبات إلى الطاولة ويداها على ركبتيها. ولأني أعرفها جيداً؛ أدرك أنها كانت منزعجة: لقد ظهر غضنٌ عمودي بين حاجبيها. قالت:

ـ نعم يا سيدتي!

تابعت هاتسومومو كلامها:

ـ إنها لحظة صعبة في حياة الجيشا، ما أزال أذكرها! ما اسمكِ أيتها المبتدئة؟

لم أستطع الرد، فتناولت مامها الحديث:

ـ أنتِ على حق يا هاتسومومو! إنها فترة صعبة، وخاصة عند بعض الفتيات. لقد كنتِ، أنتِ نفسكِ، خرقاء بما يكفي على ما أعتقد.

قال أحد الرجال:

ـ أودّ أن أعرف تتمة القصة.

فقالت هاتسومومو:

ـ وتخجل المبتدئة المسكينة التي وصلت تواً؟ عدني بألا تفكّر بها عندما سأرويها.

كانت هاتسومومو شيطاناً. الآن سوف يقارن الرجال بين البطلة وبيني.

قالت هاتسومومو:

ـ أين كنتُ؟ آه، نعم، المبتدئة في القصة... لا أستطيع أن أذكر اسمها. فيجب أن أعطيها اسماً لئلا تقاربوها مع هذه المسكينة. قولي لي ، ماسمكِ أيتها المبتدئة الصغيرة..؟

ـ سايوري، يا سيدتي!

كنتُ متوفّزة الأعصاب، حارّة الخدين حتى إني لن أفاجأ إذا ساح مكياجي وسال على ركبتي.

ـ سايوري! اسم جميل، ولكنه لا يناسبكِ كثيراً. أخيراً، لنسمّ مبتدئتنا مايوري. ذات يوم، بينما كنتُ أمشي في جادة شيجو مع

مايوري، وكنا ذاهبتين لزيارة أختها الكبرى في أوكيّاها، وكانت الريح عاتية تقتلع الأشجار، وكانت المسكينة بخفة الريشة، وهي معتادة على لبس الكيمونو، وكمّاها الطويلان امتلأا بالريح كشراعين. كنا سنجتاز الشارع عندما اختفت. سمعتُ صوتاً خفيفاً خلفي، أوه، صوت خفيف جداً:«آه..آه..»

التفتت هاتسومومو إليّ، وأضافت:

ـ ليس صوتي رفيعاً كصوتها. قوليها بدلاً عني: «آه..آه..».

ماذا يمكنني أن أفعل؟ لقد حاولتُ أن أقلّد ذاك الصوت.

ـ لا، كان الصوت أكثر حدّةً بكثير، المهم..!

التفتت إلى الرجل الذي كان جالساً إلى جانبها قائلةً بصوتٍ خافتٍ جداً:«ليست ذكية، أليس كذلك؟».

هزّت رأسها، ثم تابعت:

ـ عندما التفتُّ، رأيتُ المسكينة مايوري على ظهرها، ويداها وساقاها في الهواء، على بعد أكثر من خمسين متراً خلفي، لقد حملتها الريح! كانت تحرّك ساقيها ويديها كحشرة لا تقوى على الوقوف. ضحكتُ كثيراً! أوشكتُ أن أمزّق أوبيّ، ثم انزلقت عن الرصيف وصارت في وسط الشارع! لحظة مرور سيارة مسرعة، لحسن الحظ، فقد حملتها الريح إلى مقدمة السيارة، وكان ساقاها في الهواء... فقد ملأت الريح كيمونوها... ولستُ في حاجة لأقول لكم ما حدث.

هتف أحد الحضور:

ـ بلى، بلى، يجب أن تقوليه!

ـ أليس لديكَ أية قدرة على التخيل؟ لقد ارتفع كيمونوها، وانكشفت حتى خصرها، ولكي تقي نفسها من النظرات الفضولية؛ دارت، فوجدت نفسها منفرجة الساقين وأعضاؤها الحميمية ملتصقة على الزجاج الأمامي أمام عيني السائق...

WWW.REWITY.COM

ضحك الرجال بجنون، حتى المدير الذي ضرب الطاولة بكأس الساكي بإيقاع رشاش، وقال:

ـ لماذا لا تحدث معي مثل هذه القصص؟

قالت هاتسومومو:

ـ أنتَ تعرف يا أيها المدير! لم تكن الفتاة إلا مبتدئة، ولا شيء لديها يستحقّ أن تراه. أتتخيّل أعضاء سايوري الحميمية؟ إنها تشبه أعضاء طفلة!

قال أحد الرجال:

ـ قد يكون للفتيات شعر في سن الحادية عشرة.

سألتني هاتسومومو:

ـ كم عمركِ يا سايوري ـ سان؟

قلتُ بصوت اجتهدتُ في جعله مهذباً:

ـ أنا في الرابعة عشرة، ولكني ناضجة جداً بالنسبة إلى عمري.

أُعجِب الرجال بإجابتي، وتيبّست ابتسامة هاتسومومو على شفتيها، ثم قالت:

ـ الرابعة عشرة؟ كم هذا مثير! بالطبع ليس لديكِ شعر...

ـ بلى لديّ شعر، كثير من الشعر!

رفعتُ يدي إلى رأسي وربتُّ عليه. لا بدّ أني وجدتُ مخرجاً طيباً، لأني أضحكتُ الرجال أكثر من هاتسومومو. ضحكت هي أيضاً لئلا تحسّ بنفسها مستهدفة.

بعد أن هدأت الضحكات، استأذنّا أنا ومامها. ما كدنا نغلق الباب، حتى سمعنا هاتسومومو تعتذر، ثم تنسحب. لحقتُ بنا ومعها بومبكين على الدرج. قالت:

ـ لقد تسلّينا كثيراً يا مامها ـ سان. من المؤسف أننا لا نعمل سوية باستمرار!

ـ نعم، إنه لأمر مضحك! إني فرحةٌ مسبقاً وأنا أفكر بما ينتظرنا!

نظرت إليّ مامها نظرة ارتياح. لقد تخيّلت غريمتها مهزومة، فأحسّت بالفرح.

* * *

ذاك المساء، بعد أن استحممتُ وأزلتُ مكياجي، رويتُ لتاتي ما حصل معي في النهار. عندها وصلت هاتسومومو من الخارج وانتصبت أمامي. هي لا تأتي عادةً في هذا الوقت المبكر. ما إن رأيتُ وجهها حتى فهمتُ أنها أتت لكي تسوّي حساباتها معي. حتى إنها تخلّت عن ابتسامتها القاسية. زمّت شفتيها بطريقة تنمّ عن الكراهية. بقيت أمامي بضع لحظات، ثم صفعتني. قبل أن تصفعني رأيتها ترفع شفتيها حتى بانت أسنانها.

أطارت تلك الصفعة صوابي فلم أتذكّر ماجرى بعدها. لا بدّ أن هاتسومومو وتاتي تعاركتا بعدها، لأن الجيشا ما لبثت أن قالت:

ـ إذا سخرتْ مني هذه الفتاة مرة أخرى علناً، فسوف أصفعها ثانيةً على خدّها الآخر!

ـ «أنا» سخرتُ منكِ؟

ـ لقد جعلتِني مضحكة! إنه دَين سأردّه إليكِ يا شيو. لا تقلقي، فلن تنتظري طويلاً.

بدا غضب هاتسومومو يتهاوى، ثم خرجت من الأوكيا، وكانت بومبكين تنتظرها في الشارع، وانحنت عندما اقتربت منها.

* * *

نقلتُ ما حدث لمامها بعد ظهر اليوم التالي، فلم تستغرب، بل قالت:

ـ أين المشكلة؟ فتلك الصفعة لم تترك أثراً على خدّك، على أية حال، هل كنتِ تظنّنين أن هاتسومومو ستشكرك؟

WWW.REWITY.COM

- إن أكثر مايقلقني هو ما قد يحدث عندما سنلتقي بها في المرة القادمة.

- سأقول لكِ ما سيحدث. سنعمل «وراء دُرْ» وسنذهب. قد يستغرب مضيفنا مغادرتنا بعد خمس دقائق، ولكنّ هذا أفضل من منح هاتسومومو فرصةً أخرى لإهانتك. على أية حال، إذا التقينا بها فذلك أمر حسن.

- أمر حسن؟!

- إذا اضطرتنا للتنقّل من حفل إلى آخر، فتلك فرصة طيبة للتعرُّف إليكِ بصورة أسرع.

طمأنني هدوء مامها. وفجأةً، أخذتُ أرى الأمور بتفاؤل. السهرة المقبلة تبدو سعيدةً. في البداية، ذهبنا لحضور حفل يقام على شرف أحد ممثلي السينما الشباب. لا يبدو أنه تجاوز الثامنة عشرة، ولكنه كان بلا شعر ولا أهداب ولا حاجبين. ظروف وفاته بعد عدة سنوات ستجعله مشهوراً: لقد انتحر بالسيبّوكو بعد أن قتل خادمةً شابة في طوكيو. ألفيته غريب الأطوار، وهو يرمقني بنظراته. لقد جعلتني عيشتي المنعزلة في الأوكيا أستغرب اهتمامه. بقينا في هذا الحفل ما يقارب الساعة ولم تظهر هاتسومومو. قد أمضي سهرةً جميلة حقاً!

كانت المرحلة الثانية سهرة أقامها رئيس جامعة كيوتو. فتحت مامها حديثاً طويلاً مع شخص لم تكن قد رأته منذ بعض الوقت، تاركةً إياي لقدري. أخيراً، وجدتُ مكاناً بجانب رجلٍ مسنٍّ يرتدي قميصاً أبيض منقّطاً بدا متعطّشاً، فما كفّ عن حمل كوب البيرة إلى شفتيه، ولم يتوقف عن الشرب إلا ليتجشّأ. جلستُ بجانبه، وكنتُ سأقدّم نفسي إليه عندما انفتح الباب، ظننتُ أن خادمةً أتت حاملةً الساكي، وإذا بي أرى هاتسومومو وبوميكين جاثيتين أمام الباب.

سرعان ماقالت مامها لمحدّثها:

- أوه، يا إلهي، هل ساعتكَ مضبوطة؟

- بكل تأكيد، فأنا أضبطها كل يوم بعد الظهر على ساعة المحطة.

WWW.REWITY.COM

- في هذه الحالة، سوف نجافي التهذيب، أنا وسايوري، ونغادر لأنهم ينتظروننا في حفلٍ آخر منذ نصف ساعة!

غادرنا القاعة في اللحظة نفسها التي دخلت فيها هاتسومومو وبومبكين.

في الطابق الأرضي أخذتني مامها إلى غرفة مليئة بالتاتاميات. لم أرَ منها إلا بيضوية وجهها وكعيكتها الكبيرة. انتهزتُ فرصة وجودي في الظلمة، وبرطمتُ يائسةً: هل سأبقى أهرب من هاتسومومو إلى الأبد؟

سألتني مامها:

- ماذا قلتِ لتلك المرأة الشنيعة؟

- لا شيء يا سيدتي!

- كيف عرفتْ بمكاننا؟

- أنا نفسي كنت جاهلةً أننا سنأتي إلى هذا البيت، فكيف سأدلّها؟!

- خادمتي تعرف أين أنا، ولكنني لا أستطيع تصوّر أنها...أخيراً، يبقى ذلك الاحتفال، ولا أحد يعرف أنه سيقام. لقد عُيِّنَ ناغا تيروومي قائداً لأوركسترا طوكيو الهارمونية. وقد وصل إلى هنا بعد هذا الظهر لكي يُحتفى به. لا أرغب كثيراً في حضوره، ولكنّ هاتسومومو لن تحضره.

اجتزنا جادة شيجو وانعطفنا إلى زقاق تفوح منه رائحة الساكي والبطاطا الحلوة المشوية، وضحكات تنبعث من نافذة مضاءة بقوة. رافقتنا خادمة شابة إلى الطابق الثاني من بيت الشاي. دخلنا إلى الصالون الكبير، فوجدنا قائد الأوركسترا جالساً على تاتامي وشعره الأسود الملمّع مسرّح إلى الخلف. كان يداعب كأس الساكي بيده وهو سئم، والآخرون يلعبون لعبة «من يشرب أكثر» مع جيشاوين، إذ لم يشأ قائد الأوركسترا أن يشاركهم. تكلّم المضيف مع مامها لحظةً ثم طلب إليها أن ترقص. برأيي لم يكن يرغب حقاً

في أن يراها ترقص، ولكنه أراد أن يضع نهاية للعبة. جذب انتباه المدعوين إليه من جديد. ناولت الخادمةُ الشاميزن لإحدى الجيشاوين واتخذت مامها وضعية الرقص، وانفتح الباب المنزلق وظهرت هاتسومومو وبومبكين ككلبتين تقتفيان أثرنا.

من الطريقة التي تبادلت بها كلٌّ من مامها وهاتسومومو الابتسام يظن المرء أنهما شريكتان، في حين أن هاتسومومو تنعم بانتصارها الصغير. أما مامها، فكانت ابتسامتها تستر غضبها. كانت ترقص وفكها متشنّج، ومنخراها يرتعشان. وفي النهاية، لم تعد لتجلس، بل قالت لقائد الأوركسترا:

ـ إننا نشكرك على دعوتك، ولكني أخشى أن يكون الوقت قد تأخر...عليَّ أنا وسايوري أن نعتذر.

أوه، بدت هاتسومومو سعيدةً ونحن نغادر الحفل.

نزلنا الدرج. وبعد أن وصلنا إلى الدرجة الأخيرة، توقّفت مامها وأخذت تنتظر. سارعت إحدى الخادمات إلى المدخل لكي ترافقنا من جديد إلى المخرج، هي نفسها من رافقتنا لدى دخولنا. قالت لها مامها:

ـ إنه لأمر قاس أن تكوني خادمة! كثير من الحسد، وقليل من المال لتنفقيه. ولكن قولي لي، ماذا ستفعلين بالزيادة التي حصلتِ عليها؟

ـ أية زيادة يا سيدتي؟

رأيتُ لونها يتغيّر من التوتر العصبي: لقد كانت تكذب. لكنّ مامها أضافت:

ـ كم أعطتكِ هاتسومومو؟

أخفضت الخادمة عينيها، ففهمتُ مخاوف مامها. لقد رشّتْ هاتسومومو على الأقل خادمةً في كل بيت من بيوتات شاي جيون. كانت تتصل بيوكو، الفتاة التي تردّ على الهاتف في أوكيانا في كل مرة أصل ومامها إلى حفل. في تلك اللحظة كنا نجهل كل شيء عن

WWW.REWITY.COM

تواطؤ يوكو. ومع ذلك لم تكن مامها مخطئة، فخادمة هذا البيت قد أخبرت هاتسومومو بوصولنا.

لم تستطع الفتاة النظر إلى عيني مامها التي رفعت لها ذقنها، لكنها أصرّت على النظر إلى الأرض بعينيها الثقيلتين كرصاصتين. خرجنا، ولكنّ صوت هاتسومومو وصلنا عبر النافذة المفتوحة، فالأصوات ترنّ في الزقاق. كانت هاتسومومو تقول:

ـ نعم، ماسمها؟

أجاب أحد الرجال:

ـ سايوكو.

قال آخر:

ـ سايوري، وليس سايوكو.

ردّت هاتسومومو:

ـ أعتقد أن هذه هي الفتاة المقصودة. ولكن هذا مزعج لها... لا يجدر بي أن أقول لك! تبدو لطيفةً جداً...

ـ لم تترك لدي انطباعاً كبيراً، ولكنها جميلة جداً.

قالت إحدى الجيشاوات:

ـ إن لها عينين غريبتين!

ـ أتعرفين ماذا قال عنهما أحد الرجال في أحد الأيام: إنها بلون ديدان مسحوقة.

ـ ديدان مسحوقة!... يا للتشبيه!

تابعت هاتسومومو قائلة:

ـ حسن سوف أبوح لكم بسر، ولكن ستعدونني بعدم قوله لها. لديها مرض. إن مؤخرتها تشبه مؤخرة عجوز. إنها مجعّدة تماماً. أمر فظيع! لقد رأيتها في الحمام منذ بعض الوقت.

كنتُ ومامها قد توقفنا لنسمع ما قالته. ولدى سماعنا إياه

دفعتني مامها بلطف إلى الأمام. غادرنا الزقاق، وعندما صرنا في الشارع، قالت:

ـ أحاول أن أفكر في مكان نذهب إليه ولا تجده. فإذا وجدتنا هنا، فسوف تجدنا في أي مكان. من الأفضل لكِ يا سايوري أن تذهبي إلى أوكيّاكِ حتى أكون قد تدبّرتُ خطة.

* * *

ذات ظهيرة، إبّان الحرب العالمية الثانية، بعد عدة سنوات من الأحداث التي أرويها لكَ، كنتُ جالسةً تحت شجرة قيقب مع ضابط ياباني. كنا نحضر حفل استقبال. أخرج الضابط مسدسه من حامله، ثم وضعه على الغطاء الذي كان من القش لكي يؤثّر عليّ. أذكر أني تأثّرتُ بجمال السلاح: بمنحنياته المنسجمة، ولمعان المعدن الرمادي، والخشب على أخمصه. ثم حكى لي الضابط قصص الحرب، وفكرتُ بالاستخدام الحقيقي للسلاح فوجدته أكثر وحشية منه جمالاً.

مثل هاتسومومو، فبعد أن اعترضت بدايتي، لم تكن تلك المرة الأولى التي أجدها فيها متوحشة، لكني لطالما غبطتُها على جمالها. أما الآن، فإني لم أعد أغبطها، ولو حضرتُ كل يوم وليمة، أو ذهبتُ إلى خمسة عشر حفلاً. بقيتُ في الأوكيّا أمارس الرقص والعزف على الشاميزن كما كنتُ قبل بدايتي. كنتُ أصادف هاتسومومو في الممرات متزينةً للخروج: وجهها أبيض لامع، وكيمونوها غامق كالقمر يبرق في قبة السماء. حتى الأعمى كان سيجدها جميلةً. ولكني لم أكن أكنّ لها سوى الكراهية، وعند اقترابها مني كان الدم يصعد إلى أذنيّ.

في الأيام التالية، استدعتني مامها إلى بيتها عدة مرات، وفي كل مرة كنتُ أتمنّى أن تكون قد وجدت طريقةً ما لمخاتلة هاتسومومو. كانت ترسلني لشراء الأغراض التي لا تستطيع أن تعهد بشرائها إلى الخادمة. وذات مرة، سألتها إن كان لديها فكرة عما سيحلّ بي، فقالت:

ـ أنتِ منفية الآن يا سايوري ـ سان. أتمنى أن تكوني قد قرّرتِ أن تدمّري هذه المرأة. ولكن مادمتُ لم أجد بعد رداً على لعبتها الصغيرة، فليس من صالحكِ أن تخرجي.

كم خاب أملي لسماعي هذا الكلام! ولكن مامها كانت على حق. فأحابيل هاتسومومو ستسبب لي كثيراً من الضرر عند رجال جيون، ونسائها. فمن الأفضل لي أن أبقى في البيت.

وبعد، لقد كانت أختي الكبرى مليئةً بالموارد: كانت تجد أحياناً التزامات يمكنني أن أحييها بلا مخاطر. قد تكون هاتسومومو سدّت عليّ أبواب جيون، ولكنها لم تستطع أن تغلق عليّ العالم من حولي. عندما كان لمامها التزامات خارج جيون، فإنها تصحبني معها. أمضينا نهاراً في كوبي حيث دشّنت مامها أحد المصانع. وفي يوم آخر قمنا بجولة حول كيوتو ونحن نركب الليموزين مع رئيس شركة «نيبون تليفون آند تلغراف»، وقد أثّرت فيّ هذه الجولة أيما تأثير، فتلك هي المرة الأولى التي أخرج فيها من جيون، وأول مرة أركب سيارة. رأيتُ أن كثيراً من أفراد الشعب يعيشون حياة بؤس شديد: كانت بعض النسوة القذرات يمرجحن أطفالهن تحت أشجار الخط الحديدي، ورجالاً يقرفصون على الأعشاب وفي أرجلهم صنادل بالية. كنا نرى فقراء في جيون، ولكن لم نر رجالاً يعانون من سوء التغذية، أو معوزين إلى درجة أنهم لا يستطيعون الاستحمام، كهؤلاء الفلاحين. كانت تلك الجولة بالنسبة إليّ فرصة للوعي: رُغمَ أني ضحية هاتسومومو، فقد عشت حياة رحيمة في إبّان الانهيار.

* * *

ذات يوم، بعد عودتي من المدرسة، وجدتُ كلمةً أرسلتها لي مامها: عليّ أن أذهب إليها مع مكياجي. وعندما وافيتها، وجدتُ عندها السيد إيتشودا، وهو مُلبس مثل السيد بيكو، في الغرفة الداخلية. كان يربط أوبي مامها أمام المرآة الكبرى.

قالت لي :

WWW.REWITY.COM

ـ أسرعي في وضع مكياجك، لقد حضّرتُ كيمونو لكِ وهو في الغرفة الأخرى. بالإضافة إلى الغرفة الرئيسة، بطول ست تاتاميات، كان لمامها غرفة نوم كبرى ودريسينغ لنوم الخادمات. في الغرفة، تغيرت وجوه الفوتونات من أجلي. غيرتُ ملابسي، ثم لبستُ ثوب الحمام القطني، أتيتُ به من أجل المكياج. وأنا أفعل ذلك فكرتُ بالفوتون: الوجوه غُسلت تواً، وهي ذات بياض نقي، لم تكن هي نفسها التي نامت عليها مامها في الليلة السابقة. أحرجني ذلك، كنتُ سأضع مكياجي عندما فسرت لي مامها لماذا استدعتني.

ـ البارون في المدينة، وسيأتي للغداء. أريدكِ أن تتعرفي إليه.

لم تتح لي الفرصة بعد لذكر البارون ماتسونغا تسونيوشي، «دانّا» مامها. ليس لدينا في اليابان لا بارونات ولا كونتات، بل كان هناك أرستقراطيّو ماقبل الحرب العالمية الثانية. لقد كان السيد ماتسونغا أحد أهم النبلاء الأكثر غنًى في اليابان، فأسرته التي تملك أحد أكبر بنوك اليابان ذات تأثير كبير على الأوساط المالية. في الأصل، أخوه هو من ورث لقب بارون، ثم اغتيل عندما كان وزيراً للمالية في حكومة إينوكاي. وبما أن «دانّا» مامها كان قد أتمّ آنذاك الثلاثين من عمره، فلم يرث لقب البارون فقط، بل ورث أملاك أخيه الأكبر كلها بما فيها مزرعة واسعة في كيوتو بالقرب من جيون. كانت أعماله تضطره للبقاء في كيوتو معظم السنة، ولكن ليست أعماله فقط، فقد كان لديه عشيقة أخرى في حي الجيشاوات في آكاساكا، وقد علمتُ ذلك بعد عدة سنوات. قلة هم الرجال الذين أسعفهم الحظ واتخذوا لأنفسهم عشيقات من الجيشاوات، أما البارون فكانت لديه اثنتان.

ستمضي مامها الظهيرة مع «دانّاها»، لذا تراها غيرت الأغطية. لبستُ الملابس التي أعدّتها لي خادمة مامها: قميص داخلي أخضر شاحب، وكيمونو أصفر بلون الصدأ مع رسوم لأشجار صنوبر عند الفتحة السفلى. عادت إحدى خادمات مامها من مطعم قريب تحمل علبة كبيرةً مبرنقة تحوي غداء البارون. كانت أصناف الطعام في

زبادٍ وأطباق جاهزة للأكل كما في المطعم. كان الطبق الرئيس الموضوع بالتوازن على طبق كبير مكوّن من اثنين من «الأيوس» المملّح «واقفين» بالتوازن كما لو أنهما ينزلان النهر. وإلى جانب الطبق سرطانان صغيران مطبوخان على البخار يؤكلان كلهما، وشريط من الملح يمثّل مقعداً من الرمل تظهر عليه آثارهما المفترضة.

وصل البارون بعد بضع دقائق، رأيته من مفصل الباب المنزلق. وقف على السفرة منتظراً أن تفكَ له مامها حذاءه. لقد جعلني أفكّر بجوزة: كان قصير القامة وسميناً، يوحي شكله بالثقل، وبدا التعب في عينيه. درَجَ إطلاق اللحية في ذلك العصر، فكان الشعر على خدّيه طويلاً وناعماً يشبه خيوط الطحالب التي تزيّن بها أطباق الأرز، أكثر منه شعر اللحية.

قال:

ـ أوه يامامها! أنا منهك. إني أمقت السفر الطويل في القطار.

أخرج أخيراً قدميه من حذائه، واجتاز الغرفة بخطى صغيرة وعصبية. ذاك الصباح، أحضر مُلْبِسُ مامها مقعداً مغطّى وسجادة فارسية من خزانة عند المدخل، ووضعهما بجانب النافذة. جلس البارون في المقعد، أما بالنسبة لبقية الأحداث، فلم أشهدها لأن خادمة مامها دنت مني وانحنت لكي تعتذر، ثم دفعت الباب بهدوء لتغلقه إغلاقاً كاملاً هذه المرة.

بقيتُ نحو ساعة في دريسينغ مامها، بينما كانت الخادمة تعدّ الغداء للبارون. كنتُ أسمع أحياناً صوت أختي الكبرى، أو بالأحرى همسها، ولكن في معظم الوقت كان البارون هو المتكلّم. في وقتٍ ما ظننتُ أنه كان غاضباً من مامها. في الواقع، كان يشكو من رجل، التقى به في اليوم السابق، طرح عليه أسئلة مفضوحة، مما أثار أعصابه. بعد أن فرغا من الغداء قدّمت الخادمة الشاي، وطلبت مامها حضوري. ذهبتُ لأجثو أمام البارون وأعصابي متوفّزة، فلم

WWW.REWITY.COM

أكن قد قابلت في حياتي أحد الأرستقراطيين. انحنيتُ أمامه، ورجوته أن يكون متسامحاً معي. ظننتُ أنه سيقول لي شيئاً ما، ولكنه كان يتفحّص الشقة بنظره، وبالكاد تنبّه لحضوري. سال:

ـ ماذا حلّ باللوحة التي كانت في مخدع النوم يامامها؟ الرسم بالحبر، منظر على ما أظن، أفضل بكثير من هذا الشيء الذي حلّ محلّه.

ـ إن اللوحة التي تراها هناك أيها البارون هي قصيدة مكتوبة بخط يد ماتسوديرا كويشي، وهي في المخدع منذ أكثر من أربعة أعوام.

ـ أربعة أعوام؟! ألم يكن يوجد رسم بالحبر عندما أتيتُ إلى هنا منذ شهر؟

ـ لا، ولكن مهما يكن من أمر، فإن البارون لم يشرّفني بحضوره منذ أكثر من ثلاثة أشهر.

ـ ليس مستغرباً أن أكون بهذا الإنهاك! إني أقول دوماً إنه يجب عليّ أن أمضي بعض الوقت في كيوتو... ولكن الشيء يجرّ غيره. أريني اللوحة التي كلّمتكِ عنها. لا أستطيع أن أصدّق أني لم أرها منذ أربع سنوات.

نادت مامها الخادمة، وأمرتها أن تبحث عنها في الخزانة، ثم طلبت إليّ أن أفتحها. كانت يداي ترتعشان، وكادت أن تسقط من يدي. فقال البارون:

ـ انتبهي يابنتي!

كنتُ في أوج انزعاجي. انحنيتُ واعتذرت. لم أستطع أن أمتنع عن النظر إلى البارون خلسةً لكي أرى ماإذا كان غاضباً. أريتُه اللوحة التي لم ينظر إليها: فقد كانت عيناه مثبتة عليّ. لم تكن نظرة لوم، كانت بالأحرى نظرة فضول، فشعرتُ بالخجل.

قال:

ـ هذه اللوحة أجمل بكثير من تلك التي وضعتِها في مخدع النوم يا مامها.

تابع النظر إليّ، فخطفتُ نظرة من وجهه، ولم يحوّل بصره عني. بل أردف قائلاً:

ـ لقد غدت الكتابة بخط اليد عادة بالية. عليكِ أن تنزعي هذا الشيء المعلّق في المخدع، وأن تضعي هذه في مكانه.

لم يكن لدى مامها من خيار: عليها أن تتبع رغبة البارون. بل إنها نجحت في أن تجعله يصدّق أنها تقبل فكرته. بعد أن علّقتُ والخادمة اللوحة ثم طوينا خط اليد، طلبت إليّ مامها أن أقدّم الشاي للبارون. إذا مانُظر إلينا من علٍ فقد كنا نشكّل مثلثاً: مامها والبارون وأنا. ولكنّ مامها والبارون هما من كانا يديران الحديث. كنتُ أجالسهما فقط. كما أحسستُ بأني في غير مكاني كحمامة في وكرٍ للصقور. ولكني شعرتُ أنني قادرة على الترويح عن زبائن مامها، إن كانوا أرستقراطيين مثل البارون، أو حتى الرئيس. أما بالنسبة إلى مدير المسرح في هذا الحفل، فبالكاد نظر إليّ. لن أقول إني كنتُ قادرةً على مرافقة البارون. ولكني سأكرر مرة أخرى إن العناية فرضت نفسها عليّ: لم أكن سوى قروية خارجة من قرية الصيادين. بقليل من المهارة تستطيع هاتسومومو أن تمنعني من البروز في عيني رجال جيون. فمن الممكن ألا أرى البارون مرة ثانية، وألا ألتقي بالرئيس أبداً. وإذا حكمت مامها على قضيتي بالإخفاق؟ وإذا سئمت مني ككيمونو تلبسه مرتين أو ثلاث مرات، ثم ترميه، رُغمَ أنه بدا لها جميلاً في واجهة البائع؟ انحنى البارون، الرجل العصبي، وقد لاحظتُ ذلك بسرعة، على طاولة مامها لكي يحكّ بقعة عليها. لقد ذكّرني بأبي في آخر مرة رأيته فيها حين كان يحكّ بأظافره القذارة المختبئة في شق الخشب. تساءلتُ ماذا كان سيقول لو يراني في هذا الكيمونو الرائع، وأمامي بارون، وأجمل جيشاوات اليابان إلى يميني. لم أكن أستحقّ هذه الجواهر. رأيتُ نفسي لابسةً

WWW.REWITY.COM

الحرير الرائع. تملّكني الخوف. وإذا اختفيت وقد سحقني كل هذا الجمال؟ ثمة شيء مؤلم ومَرَضيّ في الجمال.

16

ذات ظهيرة، ذهبتُ ومامها لنشتري زينة للشعر في حي بونتوشو، إذ لم تكن مامها تحب الزينة الموجودة في جيون. كنا نجتاز جادة شيجو عندما توقفت. كان قاطر قديم يتهادى على النهر. ظننتُ أن مامها كانت قلقةً من الدخان الأسود الذي كان يبصقه. ولكن بعد لحظات، التفتت إليّ بتعبير لم أصل إلى معرفة كنهه. سألتها:

ـ ماذا هناك يامامها ـ سان؟

ـ كما قلتُ لكِ بنفسي، إن صديقتكِ الصغيرة بومبكين حصلت على سعفة المتدربات، ويبدو أن بإمكانها أن تحصل عليها مرة ثانية.

كان المقصود جائزة تُخصص إلى المتدربة التي تجمع أفضل أرباح الشهر. عرفٌ يبدو غريباً، ولكنه سهل التفسير: إن حثّ المتدربات الصبايا على كسب أرباح هامة يؤهلهنّ ليكنّ جيشاوات يربحن كثيراً من المال، ويصبحن الأكثر تقديراً في جيون لأن ثروتهنّ الجيدة تفيد الجميع.

غالباً ماقالت لي مامها إن بومبكين ستتعب لكي تصبح من تلك الجيشاوات اللواتي يجمعن زبونين مخلصين أو ثلاثة ولكنهم قليلو الثروة. لوحة حزينة. فرحتُ لأن بومبكين تصرفت على غير المتوقّع، ولكني قلقتُ على نفسي. لقد أصبحت بومبكين من الجيشاوات المتدربات الأشهر في جيون، في حين إني مازلت أرتع في الظل.

وعندما فكرتُ بما لهذه النتائج من تأثير على مستقبلي؛ نما لديّ انطباع بأن المشهد أخذ يعتم.

وأنا واقفة على هذا الجسر أخذتُ أفكّر بنجاح بومبكين. الأمر الأغرب أنها استطاعت تجاوز رايها، الصبية التي حصدت جوائز الأشهر الماضية. كانت أم رايها جيشا مشهورة، وكان والدها من أغنى عائلات اليابان. وعندما كنتُ ألتقي بها أحسّ ماتحسّ به سمكة الغجوم عندما تمرّ بها سمكة سلمون. فكيف تمكّنت بومبكين من التغلب عليها؟ لقد ساعدتها هاتسومومو كثيراً منذ اليوم الأول، وجعلتها تشتغل حتى أخذت المسكينة تنحُلُ وفقدت استدارتها. بذلت بومبكين جهوداً، عظيم، ولكن كيف بزّت رايها؟

قالت مامها:

ـ لا، لا تحزني. يجب أن تفرحي!

ـ نعم، إني أبدو أنانية.

ـ ليس هذا ما أقصده. سوف تدفع بومبكين وهاتسومومو ثمن هذه الجائزة غالياً. بعد خمس سنوات، سيكون الجميع قد نسوا بومبكين.

ـ سيذكرها الجميع على أنها الفتاة التي فازت على رايها.

ـ لم تفز على رايها. فمهما كسبت بومبكين من مال في الشهر الماضي، ستبقى رايها الجيشا المتدربة الأكثر مرغوبية في جيون. تعالي لكي أفسّر لكِ ذلك.

أخذتني إلى صالون للشاي في بونتوشو، وجلسنا إلى إحدى الطاولات

* * *

قالت مامها: يمكن للجيشا أن ترتّب أمورها، بحيث إن أختها الصغرى تكسب مالاً أكثر من بقية المتدربات إذا كانت مستعدة لتعريض سمعتها للخطر. وهذا مرتبط بالطريقة التي تُسعَّر بها «أتعاب الأزهار» أو «الأوهانا». في القرن الماضي ، عندما كانت

WWW.REWITY.COM

إحدى الجيشاوات تصل إلى أحد الاحتفالات، تقوم معلمة البيت بحرق قضيب من البخور يبقى ساعةً حتى ينتهي - ويسمى هذا «أوهانا»، أو «زهرة». كانت أتعاب الجيشا تحسب بعدد قضبان البخور المستهلكة عند ذهابها.

سعر «الأوهانا» كان دائماً يحدده مكتب التسجيل في جيون. عندما كنتُ متدربةً كان «الأوهانا» يكلف ثلاث ينّات، ما يعادل ثمن زجاجتين من الساكي تقريباً. قد يبدو ذلك كثيراً، ولكن الجيشا غير المعروفة والتي تكسب «أوهانا» في الساعة ستكون حياتها صعبة. فقد تمضي سهرتها أمام المنقل منتظرةً ارتباطاً. وحتى عندما تعمل، فمن الممكن ألا تكسب سوى عشر ينّات في السهرة، وهذا لا يكفي لتسديد ديونها. ونظراً لسيول الأموال التي تتدفق في جيون؛ فإن هذه الجيشا لن تكون إلا حشرة تتسلى بنتف من لحم الجثة إذا ما قورنت بهاتسومومو أو مامها، اللبوتين الهائلتين اللتين تجهزان على الحيوان: ليس لأنهما مرتبطتان كل مساء فحسب، بل لأن تعرفتهما مرتفعة أكثر بكثير.

فهاتسومومو كانت تطلب «أوهانا» كل ربع ساعة، أما مامها فقد كانت الأغلى بينهنّ جميعاً، إذ كانت تتقاضى «أوهانا» كل خمس دقائق.

بالطبع لا تحتفظ الجيشاوات بمجموع أرباحهن، فبيوتات الشاي حيث يعملن، لها نسبة مئوية، ونسبة مئوية أخرى أقل منها تذهب إلى جمعية الجيشاوات. كما يدفعن جزءاً لملبسهنّ، ويمكن أن يدفعن أخيراً جزءاً آخر للأوكيا الذي يمسك حساباتهنّ وينظّم ارتباطاتهنّ. وفي النهاية، يبقى للجيشا نظرياً أكثر بقليل من نصف ما تكسبه. وهذا، رُغمَ كل شيء، مبلغ عظيم إذا ما قورن بدخل إحدى الجيشاوات غير المعروفات اللواتي يغصن في البؤس يوماً بعد يوم.

وبعد، فإن جيشا مثل هاتسومومو يمكن أن توهم الآخرين بأن أختها الصغرى تكسب أرباحاً هائلة، في حين أنها لا شيء.

بدايةً، إن الجيشا المشهورة مرغوبةٌ في جميع الاحتفالات، حيث

يمكن ألا تبقى في بعضها أكثر من خمس دقائق. وزبائنها مستعدون لدفع أتعابها بمجرّد أن تمر لتحيتهم. عملياً، عندما يأتون إلى جيون في المرة القادمة، فقد تجالسهم لبعض الوقت ويُسعَدون بصحبتها. أما المتدربة، فلا يمكنها أن تتصرف كذلك لأن غايتها هي أن تجلب لنفسها الزبائن. حتى سن الثامنة عشرة، ومادامت لم تصبح جيشا بعد، فإنها تتحاشى الذهاب من حفل إلى آخر، بل تبقى في كل بيتٍ من بيوتات الشاي أكثر من ساعة، ثم تتصل بأوكيّاها لتعرف أين صارت أختها الكبرى. وهكذا يمكنها أن تذهب إلى بيت آخر للشاي، وأن تلتقي برجال آخرين. أختها الكبرى تمرّ بما يقارب العشرين حفلاً، في حين أن المتدربة المسكينة لا تتجاوز في مرورها أكثر من أربع إلى خمس بيوتات. كانت هاتسومومو تتصرف بشكل مختلف: لقد كانت تأخذ بومبكين معها أينما حلّت.

حتى سن السادسة عشرة تتقاضى المتدرّبة نصف «أوهانا» في الساعة. وعندما كانت بومبكين تمر بالحفل خمس دقائق يدفع لها المضيف كما لو أنها بقيت ساعة كاملة. فلا أحد يظن أنها ستبقى خمس دقائق فقط. لا يرى الرجال مانعاً في ذلك ليوم أو يومين. ولكن، بعد ذلك، قد يتساءلون لماذا هي مستعجلة هكذا؟ ولماذا لا تبقى أختها الصغرى ساعةً كما تقضي العادة؟ كانت أرباح بومبكين مرتفعة، فقد كانت تكسب ثلاث «أوهانات» في الساعة، ولكنها كانت تدفع من سمعتها مثل هاتسومومو.

* * *

قالت مامها:

- موقف هاتسومومو يثبت أنها يائسة. إنها ستفعل كل شيء لكي توهم الآخرين بأن بومبكين ناجحة. وأنتِ تعرفين لماذا، أليس كذلك؟

- لا، لا أعرف يا مامها!

- إنها تريد أن تبدو بومبكين ناجحة لكي تتبنّاها السيدة نيتا. وإذا ما أصبحت ابنة الأوكيّا، فسيكون مستقبلها مؤمّناً كمستقبل

WWW.REWITY.COM

هاتسومومو. ففي النهاية، بومبكين هي أخت هاتسومومو الصغرى ولا يمكن للأم أن تطردها. وإذا ما تبنّتها فلن تستطيعي الإفلات من هاتسومومو...

أحسستُ بإحساس المحيط عندما تحرمه غيومٌ كبرى من الإحساس بدفء الشمس.

أضافت مامها:

ـ لقد وددتُ أن تمشي طريقكِ بسرعة، ولكنّ هاتسومومو وضعت لنا العراقيل في طريقنا.

ـ نعم، بكل تأكيد!

ـ على الأقل أنتِ تنتظرين أن تسلّي الرجال كما ينبغي، وحظّكِ كبير عندما التقيتِ بالبارون. بدون شك، ما كنتُ لأجد طريقةً أخرى لمعارضة هاتسومومو في الأسابيع القادمة لو...

توقفت، فقلت:

ـ سيدتي!

ـ أوه، لا بأس يا سايوري. سأكون حمقاء حقاً عندما أطلعكِ على أفكاري.

جرحني كلامها، ولا بدّ أنها أدركت ذلك، فقالت:

ـ أنت تعيشين مع هاتسومومو تحت السقف نفسه، أليس كذلك؟ وكل ماسأقوله لكِ قد يصل إليها.

ـ لستُ أدري ما جنيتُه لكي أستحقّ منكِ حكماً كهذا يا مامها ـ سان. ولكني أعتذر مهما كان الأمر. ومع ذلك، فهل تعتقدين حقاً أني سأنقل لهاتسومومو كل ما تقولينه لي؟

ـ لستُ قلقةً من ناحيتك. فالفئران لا تأكل بعضها البعض لأنها توقظ القط بمرورها أمامه. هاتسومومو لديها المصدر كما تعرفين. يجب أن تثقي بي تماماً يا سايوري.

ـ نعم، يا سيدتي!

قلتُ ذلك لأني لم أعرف ماذا أقول غيره.

قالت مامها وهي تنحني نحوي:

ـ سأبوح لكِ بسر. سوف نحتفل بارتباط بعد أسبوعين في مكان لن تجده هاتسومومو أبداً.

ـ هل لي أن أعرف أين؟

ـ بالطبع لا! حتى إني لن أقول لكِ متى. استعدي. هذا كل ما في الأمر. وستعرفين ما يجب أن تعرفيه عندما يحين الأوان.

* * *

لدى عودتي إلى الأوكيّا بعد الظهر، استشرتُ كتابي خفيةً في غرفتي. كان ثمة عدة تواريخ ممكنة في الأسبوعين القادمين: الأربعاء القادم يوم مؤاتٍ للسفر غرباً. ولربما كانت مامها تنوي أن تأخذني إلى خارج كيوتو. يوم آخر ممكن: يوم الإثنين من الأسبوع التالي وكان «تايان»، أي أفضل يوم في الأسبوع البوذي الذي يحوي ستة أيام. وأخيراً كانت تباشير يوم الأحد من الأسبوع التالي هي الأكثر غرابة: «مزيج من التأثيرات الحسنة والسيئة يمكنها أن تحرف مسار قدرك». لقد أحبطني هذا التوقع أيما إحباط.

يوم الأربعاء، لم تصلني أخبار من مامها. وبعد عدة أيام استدعتني إليها، في يوم سيء بحسب الكتاب، من أجل مناقشة تغيير في درس حفل الشاي. مرّ أسبوع بلا أخبار عنها. وذات يوم أحد عند الظهر، سمعتُ باب الأوكيّا يفتح. وضعتُ الشاميزن على الحاجز حيث كنتُ أتمرّن منذ نحو ساعة وهرعتُ إلى المدخل. توقّعتُ أن أرى إحدى خادمات مامها، وإذا به مراسل الصيدلية يحمل بعض النباتات لعلاج التهاب مفاصل تاتي. أتت إحدى الخادمات العجائز لاستلام النباتات. كنتُ سأعود إلى العزف عندما حاول المراسل أن يلفت انتباهي، فأراني خلسةً ورقةً صغيرة كانت في يده. كانت الخادمة ستغلق الباب، لكنه قال لي: «اعذريني على مضايقتك، أيتها الآنسة، ولكن هل يمكنكِ أن ترمي هذه الورقة؟». وجدت الخادمة ذلك

WWW.REWITY.COM

غريباً، ولكني أخذتُ الورقة وتظاهرتُ برميها في جناح الخادمات. لقد كانت بطاقة وقّعتها مامها.

«اطلبي من تاتي الإذن بالخروج، قولي لها إني محتاجة إليكِ، وتعالي عند الساعة الواحدة على أبعد تقدير. تصرّفي بحيث لا يعرف أحدٌ إلى أين تذهبين».

لا بدّ أن مامها كان لديها أسبابها الوجيهة لتتصرّف بهذه السرية. كانت الأم تتناول الغداء مع صديقة لها. وكانت هاتسومومو وبومبكين في أحد الاستقبالات، فلم يكن في الأوكيا إلا تاتي والخادمات وأنا. صعدتُ إلى تاتي مباشرة، وكانت تضع غطاءً قطنياً كبيراً على فوتونها استعداداً للقيلولة. أصغت إليّ وهي ترتعش في قميص نومها. وعندما علمت أن مامها تريد حضوري، اكتفت بالإشارة بيدها لي بأن أذهب، ثم غاصت تحت الغطاء مستعجلةً النوم.

* * *

كانت مامها قد عملت ذاك الصباح، وعندما وصلتُ لم تكن قد عادت بعد. قادتني خادمتها إلى الدريسينغ لكي تساعدني على وضع مكياجي. ثم أتتني بالأوبي والكيمونو اللذين أعدّتهما مامها لي. لقد صرتُ معتادةً على ارتداء كيمونوهات مامها. مع ذلك، كان من النادر أن تعير إحدى الجيشاوات كيمونوهات من مجموعتها الشخصية. في جيون، يمكن لصديقتين أن تتبادلا كيمونو في إحدى السهرات، ولكنّ قليلاً من الجيشاوات يبدين من الكياسة بهذا القدر مع فتاة صغيرة. لقد كانت مامها تخصص لي من وقتها وطاقتها. لم تعد تلبس هذه الكيمونوهات ذات الأكمام الواسعة، وفي كل مرة تخرجها من مخزونها. هل كانت طامعةً في مكافأة؟ غالباً ما طرحتُ على نفسي هذا السؤال.

لم تكن مامها قد أعارتني كيمونو بهذا الجمال. كان من الحرير البرتقالي مع رسم لمساقط ماء، وتحت هذه المساقط التي تبدأ من الركبة إلى الفتحة السفلية ظهرت صخور بنّية. وعلى مستوى

الكعبين تُشَاهَد غابة كثيفة مطرّزة بخيوط مبرنقة. لم أعرف آنذاك أن أهالي جيون كانوا يعرفون هذا الكيمونو. ومن سيراني ألبسه سرعان ما سيفكر بمامها. إنها إذ سمحت لي بارتدائه؛ فقد قاسمتني نجاحها.

بعد أن ربط لي السيد إيتشودا أوبيّ الحريري الصدئي الكستنائي والمعرّق بخيوط مذهّبة، وضعتُ اللمسات الأخيرة على مكياجي وشكلتُ الزينة في شعري. وضعتُ منديل الرئيس في كمي كما دأبتُ أن أفعل غالباً. نظرتُ إلى نفسي في المرآة الكبيرة فاغرة الفم، فقد فعلت مامها كل شيء لكي يلاحظ الآخرون وجودي. والشيء الأكثر مفاجأةً أنها لبست كيمونو محتشماً أصفر غامق مع تكسيرات رمادية شاحبة. وكان على أوبيها رسم لماسات سوداء على أرضية كحلية. بدت مامها تبرق كلؤلؤة. ومع ذلك، عندما كانت النساء يحيينا في الشارع فقد كنّ ينظرن إليّ أنا.

استقلّينا ريكشو إلى معبد جيون. لقد قادني خلال نصف ساعة في جزء من كيوتو لم أكن أعرفه. في الطريق قالت لي مامها إننا ذاهبتان لحضور مباراة في السومو بوصفنا مدعوتين من إيوامورا كين ، مؤسس إيوامورا إليكتريك في أوساكا، وبمحض المصادفة، هو نفسه من صنع جهاز التدفئة الذي قتل غراني. الذراع الأيمن لإيوامورا، نابو توشيكازو، وهو مدير الشركة سيكون حاضراً أيضاً. كان نابو محبّاً متحمّساً للسومو، ولقد شارك في تنظيم مسابقة اليوم.

قالت لي مامها:

ـ اعلمي أن لنابو مظهراً قد يصدمكِ. وستكوّنين عنه انطباعاً كبيراً وأنتِ تدّعين أنكِ لم تلاحظي شيئاً.

نظرت إليّ نظرةٌ تدلّ أنها لاتنتظر مني أقلّ من ذلك. أما بالنسبة لهاتسومومو، فليس من احتمال لحضورها لأن التذاكر قد بيعت منذ عدة أسابيع.

نزلنا من الريكشو أمام حرم جامعة كيوتو، ومشينا في ممر من

WWW.REWITY.COM

التراب المرصوص وعلى جانبيه أشجار السرو. من كلا الجانبين رأينا أبنية على الطراز الغربي مع نوافذ ذات مربعات صغيرة وعليها درف من الخشب المطلي. لأول مرة أفهم أن جيون كانت حيي... في الواقع، لم أحسّ أنني في مكاني في الجامعة. حولنا كان الناس من الشبان ذوي البشرة الناعمة، وشعورهم مفروقة في الوسط ويرتدون الشيّال. لا بدّ أننا بدونا غريبتين في أعينهم لأنهم كانوا يتوقّفون لينظروا إلينا. وبعضهم كان يتبادل النكات. اجتزنا شبكاً حديدياً حيث كان يتدلّك رجال مسنّون مع بعض النساء ومنهنّ جيشاوات. قليلةٌ هي الأمكنة في كيوتو التي يمكن فيها إقامة مباراة للسومو في الداخل، وإحدى هذه الأمكنة صالة المعارض القديمة في الجامعة. لقد هُدِم هذا البناء منذ ذلك الحين، ولكنه آنذاك، برز بين تلك الابنية ذات الطراز الغربي، مثل عجوز يرتدي الكيمونو وسط مجموعة من رجال الأعمال الأنيقين. كان بناءً على شكل علبة، له سقف لا يبدو ثخيناً كطنجرة ذات غطاء مخالف. فالأبواب ضخمة ملتوية على صناديقها. ذلك الجانب المائل ذكّرني ببيتي السكران، مما أحزنني لبضع دقائق.

بينما كنا نصعد درج البناء، رأيتُ جيشاوين تجتازان الباحة المرصوفة بالحصى، فهززتُ رأسي لهما. ردتا لي التحية. قالت إحداهنّ للأخرى شيئاً ما. وجدتُ ذلك غريباً، ونظرتُ إليهما بانتباه أكبر. لقد هبط قلبي عندما عرفت إحداهما: إنها كورين، صديقة هاتسومومو! حييتها من جديد واجتهدتُ في التبسُّم لها. لفتت المرأتان رأسيهما، فقلتُ لمامها:

ـ لقد رأيتُ تواً إحدى صديقات هاتسومومو يا مامها ـ سان!

ـ لا أعرف أن لهاتسومومو صديقات.

ـ إنها كورين. إنها هناك، أعني لقد كانت هناك، منذ دقيقة خلت.

ـ أعرف كورين. ولماذا يقلقكِ حضورها بهذا الشكل؟ ماذا يمكنها أن تفعل؟

WWW.REWITY.COM

لم أعرف ماذا أجيب على كلامها. ولكن بما أن مامها لم تكن قلقة، فقد كففتُ عن القلق.

كانت قاعة المعارض عالية السقف جداً، وضوء قوي يسطع في أرجائها. رفعتُ بصري ونظرتُ إلى النوافذ العالية ذات الستائر المفتوحة. في هذا الفضاء الرحب كان يرنّ صوت الحضور. في الخارج كان يُنضج كاتو الأرز بالميزو، فتصل رائحته إلى داخل الصالة. في الوسط ارتفعت منصة مربعة سيتجابه فوقها المتصارعون، وفوقها سقف على طراز سقوف معابد الشنتو. كان أحد الكهّان يدور حول الحلبة، ولسانه يلهج بالصلوات محرّكاً عصاه المقدّسة المزينة بقصاصات مطوية من الورق.

توقفنا عند الصف الثالث. خلعنا أحذيتنا ومشينا على التاتاميات في ممرٍ خشبي ضيق. كان مضيفانا في هذا الصف ولكوني لا أعرفهما فلم أرَهما. أشار أحد الرجال بيده لمامها. نابو! لقد فهمتُ الآن لماذا نبّهتني مامها: حتى من هذه المسافة، بدا جلده كالشمع المذاب. لا بدّ أنه تعرّض لحروق خطيرة. فضّلتُ ألا أتصوّر العذابات التي عاناها. ولقد استغربتُ معرفته بكورين. كنتُ أخشى أن أقوم بفعل أخرق عندما يقدّمونني إليه. لحقتُ بمامها، وأنا أركّز انتباهي إلى الرجل الجالس إلى جانب نابو على التاتامي نفسها. كان رجلاً في قمة الأناقة في كيمونوه ذي الخطوط الرفيعة. ما إن وقع بصري عليه حتى أحسستُ بهدوء داخلي. كان يتكلم مع أحدهم في صف آخر. لم أرَ إلا مؤخرة رأسه، ولكنه رجل مألوف بالنسبة إليّ. أدركتُ أنه لم يكن في مكانه في هذه الصالة. وفجأةً رأيته وهو يلتفت نحوي في شوارع قريتنا... السيد تاناكا!

لاح أنه تغير تغيراً كبيراً وملّس شعره الأشيب. لقد فاجأتني أناقة حركته. لماذا كانت رؤيته تهدئني؟ إن مجرد رؤيته يجب أن تشوشني: لم أعد أعرف بما أحسستُ. إذا كنت أكره أحداً ما، فإنه هو! يجب ألا أنسى ذلك. لن أَجْثُوَ إلى جانبه وأصرخ مستغربةً:«أوه السيد تاناكا! كم يشرفني أن أراك ثانيةً! ما الذي أتى بك إلى كيوتو؟» كنت سأريه عواطفي الحقيقية، ولتذهب الكياسات إلى الشيطان. في

الواقع قلّما فكرت بالسيد تاناكا في هذه السنوات الأخيرة. ولكن عليَّ أنا نفسي أن أكون غير لطيفة معه، وأن أطفح كأسه وأنا أقدم له الساكي. اضطررتُ للابتسام له، حسنٌ. ولكني سأبتسم له مثل هاتسومومو، ثم سأقول: «السيد تاناكا تبدو غريباً!» سوف أصدمه. وأنا أقترب من التاتاميات حيث يجلسُ، يجب أن أثوب إلى رشدي: حقاً بدا غريباً! وصلت مامها إلى أمام مضيفينا، وجثت لكي تحيّي. التفت الرجل ورأيت وجهه لأول مرة: وجه واسعٌ مع وجنتين بارزتين، وجفنان يلتقيان بصورة جميلة عند زاويتي عينيه! نما لدي انطباع بأن كل شيء صمت من حولي، كما لو كان هو الريح وأنا غيمةٌ صغيرةٌ تحملها عند هبوبها.

بدا هذا الرجل مألوفاً عندي دون أدنى شك، ربما كان مألوفاً أكثر من صورتي في المرآة. فهو ليس السيد تاناكا، بل إنه الرئيس!

لقد رأيت الرئيس لبضع دقائق في حياتي. ولكن منذ ذلك الحين أمضيتُ ساعات وساعات على تذكّره. كان هذا الرجل أغنيةً لم أسمع منها إلا مقتطفات، فحفظتها عن ظهر قلب من فرط ترديدي لها. ومع ذلك، فقد تغيرت العلامات الموسيقية قليلاً مع مرور السنين: ففي ذاكرتي هناك جبين أكبر وشعر أشيب أنعم من هذا. عشتُ لحظة تردد وأنا أراه: هل هذا حقاً هو الرئيس؟ ولكني أحسستُ بالهدوء، ولم أستطع الشك في أني وجدته.

سلّمت مامها على الرجلين، وانتظرتُ دوري. وإذا بُحَّ صوتي وأنا أكلّمه؟ كان نابو، الرجل ذو الوجه الشمعي، ينظر إليّ، ولكني لم أتأكّدْ من أن الرئيس قد لا حظ وجودي. جلست مامها ومسّدت كيمونوها على ركبتيها. رأيتُ الرئيس ينظر إليّ بفضول، فتدفّق الدم إلى رأسي وتجمدت قدماي.

قالت مامها:

- الرئيس إيوامورا... المدير العام نابو، أقدّم إليكما أختي الصغيرة سايوري.

لا بدّ أنكَ سمعتَ بإيوامورا كين، مؤسس إيوامورا إليكتريك، وبنابو توشيكازو. ما من شراكة أهم من شراكتهما. نابو وإيوامورا كانا الشجرة وجذورها، المعبد وبوابته. أنا نفسي، ابنة الأربعة عشر ربيعاً سمعتُ بهما. ولكن لم يخطر ببالي قطّ أن إيوامورا كين كان الرجل الذي التقيته على ضفة نهر شيراكاوا. جثوتُ وانحنيتُ نحوهما قائلةً لهما المقطع المعتاد عن كوني مبتدئة، وعن التسامح الذي أرجوه منهما، إلخ. بدأ نابو حديثاً مع جاره. أما الرئيس فكانت يده تطوّق كأسه الفارغة التي كانت على صينية بجانبه. حدّثته مامها. تناولتُ إبريق الشاي وأنا أترك كمي ينزلق نحو مرفقي قبل أن أسكب له. ياللعجب! كان الرئيس ينظر إلى ذراعي. أثار فضولي فنظرتُ إلى حيث ينظر، فوجدتُ إلى ذراعي، من الجهة الداخلية، بريقَ لؤلؤةٍ ملساء، ربما كان ذلك بسبب الإنارة الخافتة المنبعثة من الصالة. أولَ مرةٍ في حياتي أحسّ بالنشوة من جزءٍ من جسدي. أبقى الرئيس عينيه مثبّتتين على ذراعي، ولم أخفِه مادام ينعِم النظر إليه! صمتت مامها لأن الرئيس كفَّ عن الإصغاء إليها، وأخذ ينظر إلى ذراعي، كما فكّرتُ. ثم فهمتُ.

كان إبريق الشاي فارغاً! والأدهى من ذلك أنه كان فارغاً منذ أن أمسكتُ به عن الصينية.

وأنا التي ظننتُ نفسي نجمةً! همهمتُ بضع كلمات من باب الاعتذار، ثم أعدتُ الإبريق إلى الصينية. ضحكت مامها، وقالت:

- انظر إلى أية درجة بلغ تصميم هذه الفتاة! فلو وُجِدَت في هذا الإبريق قطرة واحدة لنجحت في سكبها لك.

- كيمونو أختكِ الصغرى رائع. ولكني رأيتكِ تلبسينه يا مامها عندما كنتِ متدرّبة.

WWW.REWITY.COM

لو كان لديّ ذرة شك حول هوية هذا الرجل لزالت الآن. آه، يالهذه الرقة في صوته!

ـ هذا ممكن. ولكنّ الرئيس رآني ألبس كيمونوهات كثيرة على مرّ السنين. فلا أستطيع أن أصدّق أنه يتذكّر كل واحد منها.

ـ تعرفين أني لستُ كالآخرين. الجمال يؤثّر بي. أما عندما يتعلّق الأمر بمصارعي السومو، فلا أستطيع التمييز.

مالت عليّ مامها، وكان الرئيس بيننا، ثم قالت بصوتٍ خافت:

ـ يريد الرئيس أن يقول فقط إنه لا يحب السومو.

قال:

ـ إذا كنتِ تريدين أن تثيري حفيظة نابو نحوي...

ـ إن نابو ـ سان يعرف هذا منذ سنوات أيها الرئيس!

ـ هذا لا يمنع. هل هذا أول احتكاك لكِ مع السومو يا سايوري؟

لم أكن أنتظر إلا سانحةً للحديث معه. ولكن قبل أن أفتح فمي، سمعتُ «بوم» هائلة ارتجّت لها جدران البناء. لفتنا رؤوسنا من المفاجأة. صمت الجمهور، ولم يكن هذا إلا صوت انغلاق أحد الأبواب الضخمة. سمعنا أنين المفصّلات: انغلق الباب الثاني ببطء وهو يرسم قوساً عندما دفعه مصارعان. لم يكن نابو ينظر إلى جهتي، فاستغللتُ الفرصة ونظرتُ إلى آثار الحروق البشعة على خدّه ورقبته وأذنه، ثم لاحظتُ أن كُمَّ سترته كان فارغاً. فقد استأثر الرئيس بانتباهي حتى الآن. كان كمه مطوياً طيّتين ومربوطاً عند الكتف بدبوس فضي كبير.

عندما كان نابو شاباً وملازماً في البحرية اليابانية، أُصيب إصابةً خطيرة بسبب القصف. كان ذلك في العام 1910 بالقرب من سيؤول في الفترة التي كانت فيها كورية تحت السيطرة اليابانية. عندما التقيته، كنتُ ما أزال أجهل ماضيه البطولي رُغمَ أن اليابان بأسرها كانت تعرفه. لو لم يشارك نابو الرئيس ويصبح أخيراً مديراً

عاماً لإيوامورا إليكتريك لربما نُسِيَتْ بطولاته الحربية. لقد جعلت إصابته الفظيعة من نجاحاته في ميدان الأعمال أكثر تميّزاً.

لستُ ضليعةً في التاريخ، إذ كانوا يعلموننا في المدرسة تاريخ الفن فقط، ولكني أعرف أن اليابان استولت على الأرض الكورية في نهاية الحرب الروسية اليابانية. وبعد عدة سنوات، قررت أن تضم كورية إلى الإمبراطورية المتوسّعة، الأمر الذي لم يسرّ الكوريين على ما يبدو. ذهب نابو إلى هناك مع قوات قليلة لكي يسيطر على البلاد. ذات يوم، في الأصيل، قام وقائده بتفتيش على إحدى القرى بالقرب من سيؤول. وعندما كانا عائدين إلى المكان الذي تركا فيه حصانيهما وقعا في كمين، وصَفَرَتْ قذيفة. أراد القائد أن ينزل في الحفرة ولكنه كان عجوزاً. تقدَّم بسرعة أوزة قطبية على إحدى الصخور، وقبل ثانيتين من انفجار القذيفة كان مايزال يبحث عن نقطة ارتكاز لكي ينزل في الحفرة. ارتمى نابو على القائد لكي ينقذه، ولكن العجوز فهم هذه الحركة خطأً، فأراد أن يخرج من الحفرة. نجح في إخراج رأسه، فحاول نابو أن ينزله ولكن القذيفة انفجرت وقتلت القائد وجرحت نابو جرحاً بليغاً. في نهاية تلك السنة، بُتِرَتْ ذراع نابو اليسرى.

عندما رأيتُ كمه أول مرة مغلقاً بدبوس، حوّلتُ بصري عنه رغماً عني. فقد كانت تلك أول مرة أرى فيها شخصاً بُتِر أحد أعضائه، رُغمَ أني رأيتُ في طفولتي أحد معاوني السيد تاناكا وقد بتر طرف إصبعه ذات صباح وهو ينظّف السمك. بالنسبة إلى نابو، فمعظم الناس لا يعطون أهمية لذراعه المبتورة مقارنةً بجراحه الأخرى. من الصعوبة بمكان وصف شكل جلده، وبكل تأكيد إن القيام بهذا أمر فظيع. سأكتفي بتكرار ما قالته إحدى الجيشاوات عنه:«كلما رأيتُ وجهه فكرتُ بالبطاطا الحلوة المشوية على الجمر والمغطاة بالقذارة».

بعد انغلاق الباب، التفتُّ إلى الرئيس لكي أردّ على سؤاله. وبوصفي متدرّبة، كان لديّ الحق في أن أبقى صامتةً كسرطان، ولكن كيف لي أن أترك فرصة كهذه تفرّ مني! فإذا ما تركتُ لديه

WWW.REWITY.COM

انطباعاً ولو خفيفاً كالأثر الذي تتركه قدم طفل صغير في الغبار، فذلك أفضل من لا شيء. قلت:

ـ لقد سألني الرئيس ما إذا كنتُ قد رأيتُ في حياتي مباراة في السومو. لا، إنها المرة الأولى، وسأكون ممتنّةً للرئيس على الشروح التي يتكرّم عليّ بها.

تدخّل نابو قائلاً:

ـ إذا كنت تريدين أن تعرفي شيئاً عن السومو، فعليكِ أن تسأليني أنا. ما اسمكِ أيتها المتدرّبة؟ لم أسمعه جيداً بسبب الضجيج.

حوّلتُ نظري عن الرئيس بصعوبة تعادل صعوبة اضطرار طفل على ترك قطعة الحلوى، وقلت:

ـ أدعى سايوري، يا سيدي!

ـ أنتِ أخت مامها الصغرى، فلماذا لا تسمّين «مام» شيءٍ ما؟ أليس هذا أحد تقاليدكنّ السخيفة؟

ـ بلى يا سيدي! ولكن العرّاف رأى أن جميع مشتقات «مام» ستكون ضارّة لي.

قال نابو باحتقار:

ـ العرّاف! هل هو الذي يختار لكنّ أسماءكنّ؟

قالت مامها:

ـ أنا التي اخترته. العرّاف لا يختار الأسماء، بل يقول لنا فقط إن كانت تناسبنا.

ـ ستكبرين ذات يومٍ يا مامها، وستكفّين عن سماع هؤلاء المشعوذين.

قال الرئيس:

ـ كفى، كفى! يا نابو ـ سان. من يسمعك يظن أن ما من أحد أكثر حداثةً منك. وأنا لم أر في حياتي رجلاً يؤمن بالقضاء والقدر أكثر منك!

ـ لكل شخص قدره، ولكن لماذا نذهب إلى كاهن ليكشفه لنا؟ فهل أذهب إلى نادل مطعم لكي أعرف ما إذا كنتُ جائعاً جداً؟ على أية حال، إن «سايوري» اسم جميل جداً، ولكن الاسم الجميل لا يعني فتاةً جميلة.

بدا أن كلامه يعني تعليقاً من نوع: «أيةَ فتاة قبيحة اتخذتِ أختاً صغيرةً لكِ يا مامها». ولكن نابو أردف قائلاً كلاماً أثلج صدري:

ـ إننا أمام حالة فيها الاسم والفتاة متناسبان. أعتقد أنها أجمل منكِ يا مامها!

ـ لا أعتقد أن أية امرأة تحبّ أن تسمع أن هناك من هي أجمل منها يانابو ـ سان!

ـ وعلى الأخص أنتِ، أليس كذلك؟ حسن، من الأفضل لكِ أن تعتادي على هذا. إن لها عينين رائعتين. التفتي نحوي يا سايوري لكي أراهما جيداً.

بصعوبةٍ استطعتُ النظر إلى التاتامي، نظراً لأن نابو كان يريد رؤية عينيّ. وإذا نظرتُ إليه مباشرةً، فقد أبدو مستفزّةً. تركت نظري يتيه لحظةً، كقدم تتردّد قليلاً قبل أن تدوس على الجليد، واستقرّ على منطقة الرقبة. لو كنتُ أستطيع أن أمتنع عن النظر لما تردّدتُ، لأن لرأس نابو شكل نصف جسم علوي من الصلصال مقطوع. لم أزَل أجهل كيف تشوّه جسمه، ولكن عندما كنتُ أطرح على نفسي هذا السؤال، أحسّ بالثقل.

قال:

ـ قلّما رأيتُ مثل هذا البريق في عينين!

في هذه اللحظة فُتح بابٌ ودخل رجلٌ من الخارج، يرتدي كيمونو تقليدياً وقبعة سوداء مربعة كشخص خرج تواً من رسم في القصر الإمبراطوري. نزل في الممر الرئيس تتبعه ثلّةٌ من المصارعين ضخام الجثة اضطرّوا للانحناء لكي يستطيعوا المرور من الباب.

سأل نابو:

www.rewity.com ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

ـ ماذا تعرفين عن السومو أيتها الصبية؟

ـ أعرف أن المصارعين ضخام الجثة كالحيتان، إن في جيون رجلاً كان في صباه مصارع سومو.

ـ لا بدّ أنكِ تقصدين أواجيومي. إنه جالس هناك.

أشار نابو بيده إلى الصف الذي جلس فيه أواجيومي. كان يضحك وكورين جالسة إلى جانبه. لا بدّ أنها رأتني، لأنها وجّهت إليّ ابتسامة، ثم مالت على أواجيومي لكي تحدّثه، فنظر المصارع القديم نحونا.

قال نابو:

ـ لم يكن قطّ مصارعاً جيداً، بل كان يحب الارتماء على خصومه بكتفه أولاً، ذاك الغبي، لم ينفعه ذلك في شيءٍ إلا أنه كسر له عظم ترقوته عدة مرات.

الآن، صار المصارعون جميعاً في الصالة، يقفون حول المنصة. أذيعت أسماؤهم الواحد تلو الآخر، ثم صعدوا إلى الحلبة، وشكّلوا دائرة أمام الجمهور. وعندما خرجوا من الصالة تاركين الحلبة للمصارعين الخصوم، قال لي نابو:

ـ الحبل المستدير على الأرض يدل على حدود الحلبة. فالمصارع الذي يخرج عن الحبل، أو يلمس المنصة بغير قدميه، يُعدّ خاسراً للمباراة. يبدو ذلك سهلاً، ولكن حاولي أن ترمي أحدهم من فوق الحبل!

ـ قد أستطيع الوصول إلى خلفه مع مطقطقات خشبية، فيخاف مني ويخرج من الحلبة.

ـ كوني جديّة!

كانت دعابتي هامسةً، وتلك هي المرة الأولى التي أحاول فيها أن أمازح رجلاً. أحسستُ بنفسي مضحكةً، ولم أدرِ ما أفعل. ثم مال الرئيس عليّ، وقال بصوتٍ خافت:

ـ ليس السومو مجالاً للمزاح عند نابو ـ سان.

قال نابو:

ـ هناك ثلاثة أشياء لا أمزح فيها: السومو والحرب والأعمال.

قالت مامها:

ـ ها قد مزحتَ، إنكَ تناقض نفسك يا نابو ـ سان!

ـ لو كنتِ في ساحة معركة، أو في اجتماع للأعمال فهل ستفهمين ما يحدث؟

لم أفهم إلى أين يريد أن يذهب، ولكني فهمتُ من نبرة صوته أنه كان يريد أن أقول له: لا. فقلتُ:

ـ لا، بالطبع لا.

ـ حسنٌ، هو كذلك! ولا تنتظري أن تفهمي مباراة في السومو. يمكنكِ أن تضحكي لنكتة مامها، أو أن تصغي إليّ وتتابعين المباراة.

قال الرئيس بصوتٍ خافت:

ـ منذ سنوات وهو يحاول أن يشرح لي قواعد لعبة السومو، ولكنني تلميذ سيّء.

ـ الرئيس شخص ذكي. وإذا لم يستطع أن يفهم قواعد هذه الرياضة، فهذا يعني أنها لا تهمّه. ولو أنه لم يرعَ هذه البطولة لما أتى إلى هنا. لقد أبدى كثيراً من الكرم.

بعد أن استُعرض المصارعون على الحلبة، تمّ طقسان، طقسٌ لكل «يوكوزونا». واليوكوزونا هو الترتيب الأعلى لمصارعي السومو، يعادل مرتبة مامها في جيون كما شرح لي نابو. لم أملك أي سبب للشك في كلامه. على كل حال، لو أن مامها بقيت، للدخول إلى الاحتفال، الوقتَ الذي يبقاه «اليوكوزونا» للدخول إلى الحلبة لما دعاها أحدٌ بعد ذلك. كان اليوكوزونا الآخر رجلاً قصير القامة ووجهه مدهش، لم يكن منتفخاً قطّ، بل كان مقطوعاً وكأنه قُدَّ من حجر، وفكّه مربّع كمقدمة قارب صيد. هلّلَ له الجمهور بقوةٍ وجب عليّ أن أغلق لها أذنيّ. كان اسمه مياجياما. فإذا كنت تفهم في السومو ستفهم لماذا هللوا له.

قال نابو:

WWW.REWITY.COM

ـ لم أرَ في حياتي مصارع سومو مثله.

قبل أن تبدأ المباراة، عدّد المقدّم الجوائز التي حصل عليها الفائز. إحدى هذه الجوائز عبارة عن مبلغ كبيرٍ من المال قدّمه نابو توشيكازو، المدير العام لإيوامورا إليكتريك. بدا نابو كثير الغيظ لسماع هذا الكلام. وقال:

ـ ياله من سخيف! هذا ليس مالي، بل مال إيوامورا إليكتريك! تقبّل اعتذاراتي أيها الرئيس! سأنادي أحدهم ليصحّح للمقدّم خطأه.

ـ ليس هناك من خطأ يا نابو بالنظر إلى الديون الكبيرة التي لكَ عليّ، إن هذا أقل ما يمكن أن أفعله.

ـ الرئيس كريم جداً. إني كثير الامتنان له.

هنا مدّ كأس الساكي للرئيس، وملأه له، وشرب الإثنان في آن واحد.

دخل المصارعون الأوائل إلى الحلبة. ظننتُ أن المباراة ستبدأ، ولكنهما قاما بطقوس متعددة دامت أكثر من خمس دقائق. نثرا الملح على المنصة، وقرفصا، ثم انحنيا جانباً، ورفعا ساقاً في الهواء، ثم جعلاها تسقط على الأرض محدثة صوتاً قوياً. وبين وقتٍ وآخر كانا يتواجهان وهما ما يزالان مقرفصين ويتبادلان نظرات نارية. ظننتُ لعدة مرات أنهما سيتضاربان، ولكن في كل مرة كان أحدهم ينهض ويلمّ حفنة من الملح عن الأرض.

وقع هذا في اللحظة التي لم أكن أتوقعها. ارتميا أحدهما على الآخر، وتماسكا بثيابهما القماشية. في لحظةٍ، دفع أحدهما الآخر ففقد توازنه، وهكذا انتهت المباراة. صفق الجمهور وهتف. هزّ نابو رأسه قائلاً: «يالها من تقنية بائسة!».

طوال المباريات التالية، غالباً ما أحسستُ أن إحدى أذنيّ كانت متصلة بدماغي، والأخرى بقلبي: جهة الدماغ «نابو» الذي كان يقول لي أشياء مهمة؛ وجهة القلب «الرئيس» الذي كان يتكلّم مع مامها، فجعلني صوته أحلم.

WWW.REWITY.COM

مرت ساعة. ثم رأيت شيئاً ما كثير الألوان من ناحية أواجيومي: زهرة من الحرير البرتقالي في شعر امرأة جثت. ظننتُ أنها كورين وقد غيرت كيمونوها. وإذا بها ليست كورين، بل هاتسومومو!

فمجرد رؤيتها في وقت لم أتوقّعه، هو تفريغ كهربائي! لا بدّ أنها ستجد وسيلة لإهانتي، حتى في هذه الصالة الواسعة وبين مئات البشر. إنها مسألة وقت. الأمر سيان عندي أن تجعلني مضحكةً أمام أناسٍ كثيرين، ولكن رحماكِ! ليس أمام الرئيس! أحسستُ بالنار في حلقي، حتى إني لم أعد أستطيع التظاهر بالإصغاء لنابو، فقد قال لي أمراً عن المصارعين اللذين يصعدان إلى الحلبة. نظرتُ إلى مامها، فنظرت نظرةً خاطفة إلى هاتسومومو، وقالت:

ـ اعذرني أيها الرئيس! إذ يجب عليّ أن أتغيّب للحظات، وكذلك سايوري.

انتظرت حتى أنهى نابو قصته، ثم خرجنا من الصالة.

قلت:

ـ أوه يا مامها ـ سان، إن هذه المرأة شيطان!

ـ لقد ذهبت كورين منذ أكثر من نصف ساعة. لا بدّ أنها ذهبت لتخبر هاتسومومو أن تأتي. لا بدّ أنكِ امتدحتِ إلى درجة أن تحمّلت هاتسومومو هذا العناء لكي تعذّبكِ فقط.

ـ لا أطيق أن تسخر مني أمام... أمام كثير من الناس .

ـ ولكن إذا فعلتِ شيئاً تراه مضحكاً فستترككِ بسلام، ألا تظنين ذلك؟

ـ لا ترغميني على أن أغدو مضحكةً، أرجوكِ يا مامها ـ سان.

كنا نجتاز الفناء، وسنصعد درج البناء حيث كان المرحاض، ولكن مامها أخذتني إلى مكان أبعد. مررنا في ممر مسقوف. وعندما صرنا بعيدتين عن كل أذن فضولية، قالت لي:

ـ نابو ـ سان والرئيس هما من أفضل زبائني، وذلك منذ عدة

سنوات. الله يعلم كم يبدو نابو قاسياً مع الأشخاص الذين لا يحبهم! ولكنه مخلص لأصدقائه إخلاص خادم في العصور الوسطى لسيده. حقاً إنه رجل جدير بالثقة! وهل تظنين أن هاتسومومو تقدّر مثل هذه المزايا؟ لا، لقد أطلقت على نابو اسم «السيد سحلية»، «مامها ـ سان، لقد رأيتكِ أمس مع السيد سحلية! أوه لديكِ دمامل في أنحاء جسمكِ كلها، لا بدّ أنه تمسّح بكِ!». لا أريد ان أعرف رأيكِ بنابو ـ سان الآن. مع الزمن ستدركين بأن هذا الرجل هو الطيبة عينها. وإذا اكتشفت هاتسومومو أنه يعجبكِ؛ فستترككِ بسلام.

لم أعرف بم أردّ عليها. بل لم أكن واثقة من أني فهمتُ ماترمي إليه مامها. أضافت:

ـ لقد حدّثكِ نابو ـ سان طوال الظهيرة عن السومو، كنتِ تبدين بعيني مشاهد خارجي، أفضل أصدقائه. ولكن عليكِ أن تبدي اهتماماً ملحوظاً بحيث تعتقد هاتسومومو أنك تحت تأثيره. سوف يمتّعها ذلك. بكل تأكيد هي تريد أن تراكِ باقية في جيون فقط لمعرفة تتمة القصة.

قلت:

ـ ولكن، يامامها ـ سان! كيف أجعلها تصدّق أنه يعجبني؟

ـ إذا لم تستطيعي ذلك، فهذا يعني أني مدرّسة سيئة.

عدنا إلى الصالة، وقد بدأ نابو حديثاً من جديد مع أحد جيرانه، ولم أستطع مقاطعته. تظاهرتُ بمراقبة مصارعي السومو الذين يتأهبون للتصارع. بدأ الجمهور يتحرّك، ولم يكن نابو الوحيد الذي يتكلم. كم تمنّيتُ أن ألتفت نحو الرئيس، وأقول له:«أتذكر أنك قدّمتَ الحلوى لمراهِقة تبكي منذ عدة سنوات؟»، ولكن بالطبع لم أستطع أن أفعل ذلك. وإذا رأتني هاتسومومو أكلمه بتأثّر، فسيكون لفعلي نتائج مأساوية عليّ.

لم يلبث نابو أن وجّه إليّ كلامه قائلاً:

ـ هذه المباريات تافهة جداً، عندما سيصل مياجياما سيتغيّر الوضع.

WWW.REWITY.COM

تمسّكتُ بفرصة إبداء اهتمامي بكلامه، فقلتُ:

ـ ومع ذلك، فقد أعجبتني هذه المباريات، وشرح نابو ـ سان أفادني كثيراً! فقد ظننتُ أني شهدتُ أجمل المباريات.

ـ لا تكوني مضحكة! لا أحد من هؤلاء المصارعين يستحق أن يكون على الحلبة في مواجهة مياجياما!

نظرتُ من فوق كتف نابو، ولمحتُ هاتسومومو خلفنا بحوالى خمسة عشر صفاً إلى اليمين. كانت تتحدّث مع أواجيومي، ولم تظهر أنها تعيرني أدنى اهتمام. قلت:

ـ سأطرح سؤالاً قد يبدو غبياً، ولكن كيف لمصارع ضئيل الجسم مثل مياجياما أن يغلب الآخرين؟

من طريقة طرحي للسؤال، يمكن أن يُفهم أن ما من أمر يهمّني أكثر من هذا. أحسستُ بنفسي مضحكةً وأنا أبدو معجبةً بهذه الرياضة السوقية. ولكنّ أي ملاحظ خارجي لا بدّ أن يظنّ أني ونابو نتبادل أسراراً. مصادفة سعيدة: لقد التفتت هاتسومومو نحوي في تلك اللحظة. قال نابو:

ـ قد يبدو مياجياما نحيل الجسم لأن الآخرين ضخام، ومع ذلك فهو متمكّن في عمله. منذ عدة سنوات نُشر طوله ووزنه في الجريدة بدون خطأ، ومع ذلك فقد أحسّ بالإهانة لدرجة أنه طلب إلى أحد أصدقائه أن يضربه بلوح خشب على رأسه! ثم التهم البطاطا الحلوة، وجرع كثيراً من الماء، ثم ذهب إلى الجريدة ليثبت لهم أنهم كانوا مخطئين.

لو أن نابو حكى لي أية قصة فسأضحك! فقط لكي تراني هاتسومومو أضحك. ولكن كان مضحكاً حقاً تصور مياجياما وهو ينتظر لوح الخشب ليسقط على رأسه. تملّيتُ في هذه الصورة. أخذ نابو يضحك أيضاً. لا بدّ أن الآخرين عدّونا من أعزّ الأصدقاء. صفّقت هاتسومومو بيديها فرحاً.

بعد ذلك تخيّلتُ أن نابو هو الرئيس. وفي كل مرة كان يكلّمني كنتُ أنسى جانبه المشوّه، وأجتهد في إيجاده لطيفاً.

أقنعت نفسي بأن شفتيه هما شفتا الرئيس، وبأن كل نبرة من نبراته كانت تعكس حبه لي. توصلت إلى الاقتناع بأني لستُ في صالة المعارض، بل في صالون، أجالس الرئيس. لم أعرف قط حبوراً كهذا! بدوتُ كطلقة أُطلِقت في الهواء، ثم تجمّدت قبل أن تهوي، أحسستُ بنفسي أحلّق في لحظة من لحظات الخلود. لم أكن أرى حولي إلا الزخارف، ولم أحسّ إلا بنكهة كاتو الأرز اللذيذة. ظننتُ أن هذه الحالة يمكن أن تدوم إلى الأبد. ثم لاحظتُ ملاحظةً، قال بعدها نابو:

ـ ماذا تقولين؟ لا بدّ أنكِ جاهلة لتقولي مثل هذا الكلام!

غاضت ابتسامتي كما لو أن الخيوط التي كانت تمسك بها قد انقطعت. ونظر نابو مباشرةً إلى عينيّ. كانت هاتسومومو تجلس بعيداً، ولكنها كانت ترانا بدون أدنى شك. تملّكتني فكرةٌ واحدة: إذا رأتني أبكي أمام نابو، فستظنّ أني متعلّقة به. كان بإمكاني أن أعتذر، ولكن بدلاً من ذلك تخيّلتُ أن الرئيس هو من وجّه إليّ ذلك الكلام القاسي. أخذت شفتي ترتعش، وحنيتُ رأسي كفتاة صغيرة.

فاجأني نابو بقوله:

ـ هل جرحتكِ؟

لم أعانِ قطُّ من الإجهاش بالبكاء بطريقة مسرحية. واستمرّ نابو ينظر إليّ طويلاً، ثم قال:«أنتِ فتاة رائعة!». كان سيتابع، لكنّ مياجياما ظهر في تلك اللحظة، وتعالت ضوضاء بين الجمهور.

تظاهر مياجياما وخصمه سايهو طوال عدة دقائق على الحلبة. حملا الملح ونثراه على الحلبة، ثم أخذا يضربان الأرض بقدميهما كما يفعل مصارعو السومو عادةً. وكلما انحنى أحدهما باتجاه الآخر؛ تخيلتُ صخرتين توشكان أن تطوحا في الفراغ. كان مياجياما يبدو دائماً أكثر انحناءً من سايهو الأضخم والأثقل منه بكثير. وعندما تهاجما ظننتُ أن مياجياما المسكين سوف يتراجع. ولم أتصوّر أن بإمكان كائنٍ مَن كان أن يطرد سايهو من الحلبة.

اتخذا الوضعية ثماني أو تسع مرات، ولكن لم يهجم أحد منهما على الآخر. قال لي نابو:

ـ «هاتاكي كومي!»، سوف يقوم بـ«هاتاكي كومي»، انظري إلى عينيه!

لم يكن مياجياما ينظر إلى خصمه الذي لم يعجبه هذا التجاهل بكل تأكيد؛ فأخذ ينظر إلى خصمه نظرات متوحشة كحيوان مفترس. بدا فكّاه ضخمين! وكان لرأسه شكل الجبل. احمرّ وجهه غضباً، أما مياجياما، فتابع حركاته وكأن سايهو غير موجود.

قال نابو:

ـ لن يطول هذا الوضع.

بالفعل، ما إن اتخذا الوضعية حتى هجم سايهو. انحنى مياجياما إلى الأمام كما لو أنه كان سيرتمي على خصمه بكل ثقله. لكنه استخدم قوة سايهو لكي ينهض. في لحظة، رسم قوس دائرة، كباب ينفتح، وأحكم يده على نقرة سايهو. كان هذا منحنياً إلى الأمام كرجل سقط على الدرج، ثم دفعه مياجياما بعنف، فطار من فوق الحبل. بكل دهشةٍ رأيتُ هذا الجبل من اللحم يطير من فوق الحلبة ليستقر في الصف الأول. تباعد المشاهدون، ولكن رجلاً منهم وقف بعد أن تلقّى كتف سايهو في صدره.

بالكاد دام اللقاء ثانية واحدة. لا بدّ أن سايهو أحسّ بالمهانة بسبب خسارته: حيّا تحيةً أقصر من كل التحيات التي حدثت خلال ذلك النهار، ثم خرج من الصالة والجمهور يهلل للمنتصر.

قال لي نابو:

ـ هذه الحركة تسمى:«هاتاكي كومي».

قالت مامها وكأنها ساهمة:

ـ هذا رائع!

لم تتوسع في قولها أكثر. فسألها الرئيس:

WWW.REWITY.COM

- ما هو الرائع؟

- ما قام به مياجياما. لم أرَ في حياتي شبيهاً له.

- بلى، إن المصارعين يفعلون ذلك باستمرار.

- على أية حال، هذا يثير تفكيري...

* * *

التفتت إليّ مامها في الريكشو ونحن عائدتان إلى جيون. قالت:

- لقد أعطاني مصارعُ السومو هذا فكرةً! هاتسوممو ستطير هي أيضاً من فوق الحبل دون أن ينقذها أحد.

- ألديكِ خطةٌ ما؟ هيا يا مامها ـ سان، قوليها لي، أرجوكِ.

- أتعتقدين حقاً أني أستطيع أن أقولها لكِ؟ إني لن أقولها حتى لخادمتي! رتّبي أمورك فقط، بحيث يتابع نابو اهتمامه بك. الأمر كله متعلّق به، وبرجل آخر.

- من هو هذا الرجل الآخر؟

- لم تلتقي به بعد. ولكن لنكفَّ عن الكلام في هذا الموضوع! لقد قلتُ فيه الكثير. أنتِ محظوظة لالتقائك بنابو ـ سان، فقد يكون منقذك.

أحسستُ ببعض الضيق. إنْ وُجِدَ منقذٌ لي، فسيكون الرئيس، ولا أحد غيره.

18

بعد أن اكتشفتُ شخصية الرئيس أخذت أبحث عن مقالات عنه في مجلات قديمة. خلال أسبوع تمكنتُ من جمع مئات المقالات. نظرت إليّ تاتي مستغربةً وكأنها تقول لي:«لقد فقدتِ عقلكِ ياصغيرتي!» وجدتُ معلومات قليلة عن الرئيس. ومع ذلك فقد

تابعتُ جمع المجلات التي كانت تفيض عن النفايات. وذات يوم، عثرتُ على رزمة من المجلات القديمة خلف أحد بيوتات الشاي. ياله من انتصار! فقد كانوا يتكلمون عن إيوامورا إليكتريك في مجلة عمرها سنتان.

لقد احتفلت إيوامورا إليكتريك بعيدها العشرين في العام 1931. وقد تابعت المصادفة إدهاشي: فلقد التقيتُ بالرئيس في العام 1931. لو أني كنتُ أقرأ الصحافة في تلك الفترة لرأيتُ صورته في جميع المجلات! وبعد ان حصلتُ على التاريخ الدقيق أخذتُ أبحث عن المقالات في تلك الفترة بالذات، وفي معظمها كانت مجلات تتحدّث عن أعمال قديمة ورميت بعد وفاة غراني مقابل أوكيانا.

لقد ولد الرئيس في العام 1890، إذن بالكاد كان قد تجاوز الأربعين من عمره عندما التقيتُ به. آنذاك، فكرتُ، وكنتُ مخطئةً، أنه كان يدير شركة صغيرة. لم يكن لإيوامورا إليكتريك أهمية أوساكا إليكتريك، منافستها الرئيسة في غرب اليابان. ومع ذلك، كان الرئيس ونابو، الشريكان المشهوران في اليابان كلها، أشهر من مدراء الشركات الكبرى في اليابان. وكانت إيوامورا إليكتريك مؤهلة لأن تكون الأكثر تحديثاً ومصداقية.

وصل الرئيس إلى أوساكا في سن السابعة عشرة واشتغل في شركة صغيرة للأجهزة الكهربائية. ولم يلبث أن راقب تمديد الكهرباء في كثير من مصانع المنطقة. وشيئاً فشيئاً دخلت الكهرباء إلى البيوت والمكاتب. في المساء، كان يعمل في اختراعاته الصغيرة. لقد اخترع جهازاً يسمح بوضع حبابتين في غمد واحد. ولقد رفض رئيسه تسويق اختراعه. وبعد زواجه بقليل غادر هذه الشركة لكي يؤسس شركته الخاصة، وكان آنذاك في الثانية والعشرين من عمره.

في السنوات الأولى حقق أرباحاً ضئيلة. وفي العام 1914 حصلت شركته على عقد ضخم: كهربة بناء جديد لقاعدةٍ عسكرية في أوساكا. كان نابو قد بقي في الجيش، فقد منعته إصاباته من إيجاد وظيفة في مكان آخر. وبما أنه كلّف بالإشراف على الأعمال التي

www.rewity.com
ARAYAHEEN
www.rewity.com
ARAYAHEEN
WWW.REWITY.COM

تنفذها إيوامورا إليكتريك، فلقد ارتبط بعلاقة صداقة مع الرئيس الذي عرض عليه العمل معه، فقبل.

كلما علمت أشياء جديدة عن شراكتهما؛ كلما فهمت إلى أية درجة كانا متكاملين. فلقد شوهدت صورتهما نفسها في جميع المقالات تقريباً: الرئيس في بدلة أنيقة مكونة من ثلاث قطع، وفي يده غمده الكهربائي المشهور. بدا وكأنه يتساءل عن عمله! كان ينظر إلى الكاميرا نظرةً تهديد، وكأنه يلوح بالغمد الكهربائي أمامها. كان التناقض مع نابو واضحاً. فقد كان أقصر منه، ويقف إلى يمينه وقبضته على خاصرته. كان يرتدي سترةً وبنطالاً فيه أقلام ناعمة، ووجهه مغطى بالندبات ويبدو نعسان. بدا الرئيس، بشعره الأشيب قبل الأوان وبقامته الأطول، وكأنه والد نابو في حين أنه لايكبره إلا بسنتين. وبحسب المقالات، فالرئيس يدير الشركة ويسعى إلى تطويرها، ونابو يُعنى بالشؤون المالية، تلك المهمة الصعبة التي كان يتقنها. غالباً ما كان الرئيس يقول في مقابلاته:«لقد مرت شركتنا بلحظات صعبة. ولولا عبقرية نابو لأفلسنا مراراً». وفي بداية العشرينات، وجد نابو مجموعةً من المستثمرين وأنقذ الشركة من الإفلاس. فقال الرئيس مراراً:«في رقبتي دينٌ لنابو لن أستطيع سداده أبداً».

* * *

مرت عدة أسابيع، ثم تلقيت ورقةً من مامها تطلب إليَّ فيها أن أمرَّ بها بعد ظهر اليوم التالي. اعتدتُ أن ألبس الكيمونوهات الفاخرة اللتي كانت تعيرني إياها مامها. وفي ذلك اليوم، اختارت لي كيمونو حريرياً أحمر وأصفر مع رسم لأوراق الخريف. كنت سألبسه ولكني اكتشفتُ فيه مزقاً من الخلف تحت الإلية. كان مزقاً واسعاً يمكن أن تمرَّ منه إصبعان. لم تكن مامها قد عادت بعد، فذهبت لأري الكيمونو للخادمة، وقلت لها:

ـ أمرٌ مزعج يا تاتسومي ـ سان... فهذا الكيمونو لايمكن ارتداؤه.

ـ إنه بحاجة إلى رفو فقط يا آنستي. لقد استعارته المعلمة هذا الصباح من أحد أوكيّات الحي.

ـ لابدَّ أنها لاتعرف أنه مشقوق. وبسبب الشهرة لابد أنها ستظن...

ـ أوه، إنها تعرف أنه ممزقٌ. في الواقع إن اللباس الداخلي مشقوق هو الآخر في المكان نفسه.

كنت قد ارتديت اللباس الداخلي بلون الكريم، فمرّرت يدي من الخلف في أعلى فخذي، ووجدت الثقب. قالت لي تاتسومي:

ـ لقد قامت إحدى الجيشاوات المتدربات بعمل أخرق في السنة الماضية، فتعلق كيمونوها بمسمار، لكنَّ المعلمة تريد أن تلبسيه.

وجدت الأمر سخيفاً، لكني لبست الكيمونو. عادت مامها وبدت مستعجلةً للخروج من جديد. وبينما كانت تعيد مكياجها، سألتها تفسيراً لذلك. قالت:

ـ هناك رجلان سيُعَوَّل عليهما في حياتك كما قلت لك. لقد التقيت بنابو منذ ثلاثة أسابيع. وسوف تلتقين بالآخر بعد هذا الظهر. ولكي تتعرفين به؛ يلزمك كيمونو مشقوق. لقد أوحى لي مصارع السومو بفكرة عبقرية! إني مستعجلة لرؤية رأس هاتسومومو عندما ستعودين من عند الأموات! أتعرفين ماذا قالت لي منذ عدة أيام؟ إنها لن تشكرني أبداً كفايةً لكوني صحبتك إلى تلك المباراة. كان ذلك يعادل الانتقام وهي تراك تذبّلين عينيك للسيد سحلية. يمكنك أن تهتمّي به دون أن تضايقك. ربما أتت أحياناً إلى هذه السهرات، ولكن لكي تلقي نظرة فقط من باب الفضول. وكلما تكلمت عن نابو في حضورها كلما كان أفضل. وبعد، عليك ألا تذكري أبداً اسم الرجل الذي ستقابلينه اليوم.

أحزنني هذا الخبر، حتى لو أنني اجتهدتُ في إبداء الفرح العارم. لن يقيم رجلٌ أبداً علاقةً مع جيشا كانت عشيقة شريكه. ذات ظهيرة، منذ عدة أشهر خلت، سمعتُ حديثاً بين جيشاوين. كانت إحداهما تحاول مواساة الأخرى قائلةً: لقد علمت المرأة الشابة أن

WWW.REWITY.COM

«دانّاها» الجديد يشترك في الأعمال مع رجل أحلامها. لم أحسب قطُّ أن أمراً كهذا يمكن أن يحدث. سألتها:

ـ هل تريدين يا سيدتي أن يصبح نابو «دانّاي»؟

وضعت مامها فرشاة مكياجها، ونظرت إليّ نظرة قادرة على إيقاف قطار وهو في أوج سرعته، وقالت:

ـ نابو ـ سان رجل طيب، هل ستخجلين من اتخاذه «دانّا» لكِ؟

ـ لا يا سيدتي! ليس هذا ما قصدته، إني أتساءل فقط.

ـ حسنٌ جداً، في هذه الحالة، لديّ أمران سأقولهما لكِ. من ناحية، أنتِ فتاة في الرابعة عشرة من عمركِ ولا أحد يعرفك، وحظّكِ كبير جداً إذا ما أصبحتِ جيشا مرغوبة، بحيث إن رجلاً هاماً مثل نابو يفكّر بالاهتمام بكِ. ومن ناحية أخرى، ما من جيشا بدت جديرةً بأن تصبح عشيقته. فإذا كنتِ الأولى، فذلك فخر لكِ.

أحسستُ بالحرارة في خدّيّ، لقد كانت مامها على حق: سيكون حظي عظيماً إذا ما أثرت حتى اهتمام رجل مثل نابو. فإذا استعصى عليّ ذلك، ماذا أقول بالنسبة إلى الرئيس؟ منذ أن التقيته في مباراة السومو لم أعد ألامس الأرض، وهاقد أعادتني اليوم مامها إلى الواقع.

* * *

ارتديتُ ملابسي بسرعة، وصحبتني مامها إلى أول الشارع، إلى الأوكيّا الذي عاشت فيه. لقد غادرته لكي تستقلّ بنفسها منذ ست سنوات. فتحت لنا إحدى الخادمات الباب وهي تبدو مرتبكة. قالت:

ـ لقد اتصلنا بالمشفى، سيغادر الدكتور عمله اليوم عند الساعة الرابعة، والآن الساعة الثالثة والنصف تقريباً.

ـ سوف نتصل به قبل الذهاب يا كازوكو ـ سان، وأنا واثقة من أنه سينتظرني.

ـ آمل ذلك. إنه لأمر فظيع ترك هذا الفتاة المسكينة تنزف!

تساءلتُ بهلع:

ـ من التي تنزف؟

نظرت إليّ الخادمة وتنهّدت. قادتنا إلى الطابق الثاني ، إلى ممر كانت تجلس فيه ثلاث نساء شابات وطبّاخة طويلة ونحيلة ترتدي مريولاً منشّى. نظرن إليّ جميعاً نظرة حذر ماعدا الطبّاخة التي كانت تضع خرقة على كتفها وفي يدها سكين تشحذه، كان من تلك السكاكين التي تستخدم لقطع رؤوس الأسماك. أحسستُ بأني شريحة كبيرة من التونا سلّمها أحد البقّالين تواً. أنا إذاً من ستنزف. غمغمتُ:

ـ مامها ـ سان...

ـ أعرف ما ستقولين يا سايوري، ماكان مهماً، أنا نفسي لم يكن لديّ فكرة عنه. ألم تعدينني بأن تطيعيني عندما أصبحتِ أختي الصغرى؟

ـ لو أني كنتُ أعرف أنهم ينتزعون لي كبدي...

قالت الطباخة مقاطِعةً:

ـ لن ينتزعوا كبدكِ...

لم يطمئنّي هذا الكلام، لكنّ مامها تابعت قائلةً:

ـ سوف نجرحكِ جرحاً صغيراً يا سايوري لكي تتمكّني من الذهاب إلى المشفى ويكشف عليكِ طبيب معينّ، أتذكرين عندما حدّثتكِ عن رجل آخر؟ حسنٌ، إنه دكتور.

ـ ألا يمكنني أن أتظاهر بالتألم من معدتي؟

كنت أتكلم بجدّية كاملة، ولكنهن ظننّ أني أمزح لأنهن ضحكن جميعاً، ثم قالت مامها:

ـ إننا نعمل لمصلحتكِ يا سايوري. يجب أن تنزفي قليلاً حتى يقبل الدكتور الكشف عليكِ.

كانت الطبّاخة قد انتهت من شحذ السكين. أتت ووقفت أمامي،

WWW.REWITY.COM

كما لتعينني على إتمام مكياجي، لولا أنها تحمل سكيناً في يدها. أبعدت كازوكو، الخادمة العجوز التي فتحت لنا الباب، قبّتي بيديها، فتملّكني الرعب. لحسن حظي أن مامها تدخّلت:

- سوف نجرحها في ساقها.

صاحت كازوكو:

- لا، ليست الساق، إن الجرح في الرقبة أكثر إثارةً!

- استديري يا سايوري من فضلكِ، وأري كازوكو الشق في كيمونوكِ.

امتثلتُ لطلبها، فقالت:

- كيف نفسّر وجود شقّ في هذا المكان إذا كان الجرح في رقبتها وليس في فخذها ياكازوكو - سان؟

- ومالصلة بين الأمرين؟ إنها تلبس كيمونو ممزقاً وهي مجروحة في رقبتها!

قالت الطباخة:

- لقد بدأت كازوكو تثير أعصابي، أين تريدين أن أجرحها يامامها - سان؟

كان عليّ أن أحسّ بالارتياح، لكنّ ذلك لم يحدث.

أرسلت مامها إحدى الخادمات لتجلب قلم صباغ أحمر، من تلك التي تستخدم لتلوين الشفاه. أدخلته في شق الكيمونو ورسمت علامة على مؤخرة فخذي تحت إليتي، ثم قالت:

- اجرحي في هذا المكان.

فتحتُ فمي لأحتجّ، لكن مامها بادرتني:

- استلقي يا سايوري ولا تتحرّكي، وإذا ما أخّرتِنا أكثر، فسأغضب منكِ.

لم يكن لديّ أية رغبة في طاعتها، ولكن لم يكن لديّ من خيار. تمدّدتُ على الشرشف المفروش على الأرض، وأغمضتُ عينيّ. رفعت مامها ملابسي حتى الردفين. ثم قالت للطباخة:

- إذا لم يكن الجرح عميقاً ، يمكنكِ أن تعمّقيه. ابدأي بجرح خفيف.

بدأ السكين يقطع جلدي، فعضضتُ على شفتي وبدأت أصرخ. قطعت السكين جلدي فقالت مامها للطباخة:

- يجب أن تجرحيها جرحاً أعمق، ما فعلتِه مجرّد شجّة صغيرة.

قالت كازوكو للطبّاخة:

- إنه يشبه الفم، هذا الخط وسط البقعة الحمراء، كأنه شفتان، سيضحك منهما الدكتور.

وافقتها مامها ومحت أحمر الشفاه، لقد أكّدت لها الطبّاخة أنها ستعرف مكان الجرح. وبعد عدة لحظات عادت السكين تقطع جلدي.

لم أطق في حياتي منظر الدم. يوم التقيتُ بالسيد تاناكا أغمي عليّ بعد أن جرحت شفتي. فتصوّر ما أحسستُ به عندما التفتُّ ورأيتُ خيطاً من الدم يسيل على فخذي! مسحت مامها الدم بخرقة، فقدتُ الإحساس بما حدث بعد ذلك، ولم أعرف إن كنّ قد ساعدنني على الصعود إلى الريكشو، ولم أتذكّر الطريق. وعندما اقتربنا من المشفى، أمالت مامها رأسي من ناحية، ومن أخرى لكي أستعيدَ وعيي. ثم قالت لي:

- اسمعيني جيداً! لا بدّ أنكِ تعرفين أنه لا يجدر بالجيشا المتدرّبة أن تهتمّ بالرجال، بل أن تمارس تأثيراً على الجيشاوات، لأنهنّ هنّ من سيساعدنها في عملها. انسي ذلك! إن الأمر سيكون مختلفاً بالنسبة إليكِ. سيتعلّق مستقبلكِ برجلين، وستلتقين بواحد منهما بعد عدة دقائق، عليكِ أن تؤثري عليه، أتسمعينني؟

- نعم يا سيدتي!

- عندما يسألكِ كيف جرحتِ قولي له:«كنتُ في المرحاض، وحاولتُ أن أرفع كيمونوي فسقطتُ على شيء حاد». أنتِ لا تعرفين ماهو لأنكِ فقدتِ وعيكِ. يمكنكِ أن تضيفي التفصيلات التي تريدينها،

WWW.REWITY.COM

ولكن عليكِ أن تظهري تصرفاً طفولياً، وتظهري الهلع عندما سندخل إلى غرفته. أرِني!

أسندتُ رأسي إلى مسند المقعد، وأدرتُ عينيّ في محجريهما، ولم أكن ألعب. لم ترضَ مامها عن هذه النتيجة.

ـ لم أطلب إليكِ أن تتظاهري بالموت، بل بالرعب، هكذا...

بدت خائفة كما لو أنها لا تعرف أين تضع عينيها، كانت على وشك الإغماء. نجحتُ في افتعال منظر ظبية هلعة. رافقني سائق الريكشو إلى داخل المشفى. شدّت مامها ثيابي من هنا وهناك لكي أبدو أنيقة.

اجتزنا الباب الخشبي، وطلبنا مدير المشفى. قالت مامها إنه ينتظرنا. سبقتنا إحدى الممرضات في ممر طويل، وفتحت لنا باباً يفضي إلى غرفة مغبرّة. في الداخل كانت طاولة مستطيلة من الخشب، وحاجزٌ قابلٌ للطي أمام إحدى النوافذ. في أثناء الانتظار، نزعت مامها الخرقة عن فخذي ورمتها في سلة المهملات، ثم قالت بصوت شبه قاسٍ:

ـ لا تنسي يا سايوري! عليكِ أن تظهري بمظهر البريئة والخائفة. أسندي نفسك إلى الجدار واتخذي وضعية من هي على شفا الإغماء.

لم أجد أية صعوبة في التظاهر بهذه الحالة. بعد عدة لحظات، انفتح الباب وظهر الدكتور سرطان. بالطبع، لم يكن اسمه سرطان، ولكن عندما تراه لا بدّ لهذه الفكرة أن تخطر ببالكَ مباشرةً؛ فظهره مقوّس، ويداه تخرجان بطريقة كاريكاتورية. يبدو وكأنه تمرّن طويلاً على تقليد سرطان الماء. كان يقدّم كتفاً إلى الأمام كسرطان الماء عندما يمشي جانبياً، وكان طليق الشارب. بدا في أوج سعادته لرؤيته مامها، بالأحرى، كان مفاجأً أكثر منه مسروراً.

كان الدكتور سرطان رجلاً منظّماً ومنضبطاً. أدار القبضة قبل أن يغلق الباب لئلا يحدث ضجيجاً، ثم استند إليه ليتأكد من أنه انغلق جيداً. أخرج من جيب سترته علبة متطاولة وفتحها بحذر كما لو أنه

يخشى أن يُسقِط شيئاً ما منها. كانت تحوي نظارته. وبعد أن وضعها في مكان النظارة التي كانت على عينيه أعاد تلك إلى العلبة وهذه إلى جيبه. مسّد سترته بيديه، وأخيراً نظر إليّ، وهزّ رأسه هزّةً خفيفة. قالت له مامها:

ـ إني آسفة لإزعاجكَ يادكتور. ولكن أمام سايوري مستقبل كبير، وها هي ذي قد جرحت فخذها! وقد يندمل الجرح بصورة سيئة أو يتجرثم، فقلت لنفسي إنك خير شخص يمكن اللجوء إليه.

ـ بكل تأكيد. هل لي أن أرى الجرح؟

ـ سايوري يغمى عليها من منظر الجرح يا دكتور، من الأفضل أن ترى الجرح بنفسكَ. إنه في قفا الفخذ.

ـ فهمت، هل لكِ أن تطلبي إليها أن تتمدّد على الطاولة؟

لم أفهم لماذا لم يكن الدكتور سرطان يوجّه كلامه إليّ مباشرةً. ولكني أردتُ أن أكون مطيعة، كما إني انتظرتُ حتى تأمرني مامها بالتمدد. رفع الدكتور الكيمونو حتى خصري ووضع على جرحي قطعةً من القماش مبللةً بسائل رائحته كريهة. ثم قال:

ـ هل لكِ أن تتكرّمي وتقولي لي كيف جُرحتِ هذا الجرح ياسايوري ـ سان؟

أخذتُ نفساً عميقاً، واجتهدتُ في أن أبدو على وشك الإغماء، ثم قلتُ:

ـ هذا أمر صعب. لقد شربتُ كثيراً من الشاي بعد الظهر...

أكملت مامها:

ـ سايوري مبتدئة، جعلتها تقوم بدورة حول جيون لكي أقدّمها للناس. وبكل تأكيد أراد الجميع ان يقدموا الشاي لها.

ـ نعم، تصورتُ هذا.

غمغمتُ:

ـ فجأةً أحسستُ أن عليّ أن... فهمتَ ما أقصد...

WWW.REWITY.COM

- إنَّ شربَ كثيرٍ من الشاي يتطلّب تفريغاً ملحّاً للمثانة.

- نعم، شكراً... في الواقع، كان الأمر أسوأ من حاجة ملحّة.

قالت مامها:

- قولي للدكتور ماحدث فقط يا سايوري - سان!

- اعذرني يا دكتور! فقد كنتُ مستعجلةً جداً للذهاب إلى المرحاض... مستعجلة بحيث إنني عندما وصلتُ إليه... لا بدّ أني فقدتُ توازني وأنا أهمّ برفع كيمونوي. وفي أثناء سقوطي، ارتطمت ساقي بشيء حاد. لستُ أدري ماهو، فأغمي عليّ.

- من المستغرب أنكِ لم تفرّغي مثانتكِ وأنت فاقدة الوعي.

منذ البداية تمددتُ على بطني، ورأسي على بعد عدة سنتيمترات من الطاولة لكي أحافظ على مكياجي. لم يرَ الدكتور وجهي عندما كان يكلّمني. وبعد ملاحظته الأخيرة، ألقيتُ نظرةً خاطفةً إلى مامها من فوق كتفي، لحسن الحظ أنها تصرّفت بسرعة، فقالت:

- سايوري تريد أن تقول إنها فقدت التوازن وهي تنهض.

- فهمتُ، لقد حدث الجرح بسبب شيء حاد، لا بدّ أنكِ سقطتِ على قطعة زجاج أو معدن.

- لقد كانت قاطعةً جداً كسكين!

لم يضف الدكتور سرطان شيئاً. طهّر الجرح طويلاً كما لو أنه كان يريد أن يعرف إلى أية درجة كان مؤلماً. استخدم من جديد السائل كريه الرائحة لينظّف بقع الدم على طول ساقي. قال لي إنه يجب أن أضع المعجون على جرحي طوال عدة أيام. ثم سحب كيمونوي على ساقيّ. خلع نظارته بحذر شديد. ثم قال:

- إني آسف لأنكِ أتلفتِ مثل هذا الكيمونو الجميل. ولكني في قمة سعادتي للالتقاء بكِ. مامها - سان تعرف كم أحبّ أن أتعرف إلى أناس جدد.

- الفرح لي يادكتور!

- قد نلتقي ذات مساء في الإيشيريكي!

قالت مامها:

- سايوري مطلوبة جداً يادكتور أكثر مما تتصوّر، وإن لها مريدين كثراً. كما إني أتحاشى أن أظهرها كثيراً في الإيشيريكي. ربما رأيناكَ في بيت شاي شيراي؟

- نعم، إنها فكرة ممتازة.

قام من جديد بطقس النظارة لكي يستطيع أن يقرأ في دفتر ملاحظات صغير أخرجه من جيبه. ثم قال:

- أستطيع أن أكون هناك لنقل بعد غد. كلي أمل أن أراكِ.

أكّدت له مامها أننا سنمر. بعد ذلك ذهبنا.

* * *

في الريكشو التي كانت تعيدنا إلى جيون، قالت لي مامها إني كنتُ ممتازة، فقلت:

- لم أفعل شيئاً البتة يا مامها - سان!

- حقاً؟ إذاً، لم كل هذا العرق على جبين الدكتور؟

- لم أرَ إلا الطاولة.

- بينما راح ينظّف لكِ الجرح على ساقكِ كان العرق يتفصّد من جبينه كما لو أنه في الصيف، في حين أن الطقس بارد في الغرفة.

- هذا صحيح.

- أرأيتِ!

في الواقع، لم أكن قد رأيتُ جيداً، ولم أعرف لماذا أخذتني إلى الدكتور. لم أستطع أن أسألها: فقد رفضت سابقاً إطلاعي على خطّتها. كانت الريكشو تجتاز جسر جادة شيجو للدخول إلى جيون، عندما قالت لي:

- هذا الكيمونو يبرز عينيكِ يا سايوري. هذا الأحمر وهذا

www.rewity.com ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

الأصفر يمنح نظرتكِ بريقاً فضّياً. لماذا لم أفكّر به من قبل؟ لقد ابتعدنا أيها السائق! أنزلنا هنا، أرجوك!

ردّ السائق :

ـ لقد قلتِ لي إلى جيون توميناغا ـ شو ياسيدتي! لا أستطيع أن أضع عصيّ هنا، في وسط الجسر تماماً!

ـ إما أن تنزلنا هنا، أو تكمل طريقك إلى نهاية الجسر، ثم تعيدنا، وسيكون ذلك سخيفاً!

وضع السائق عصيّه في المكان الذي كنا فيه، ونزلتُ ومامها. زمّر بعض راكبي الدراجات وهم يتجاوزوننا غاضبين، فتجاهلتهم مامها. لقد كانت معتدّة بأهميتها! لم تكن تتصوّر أن تُلام لسبب بهذه التفاهة: إعاقة المرور! لقد تمهّلت تماماً وهي تدفع الأجر، إذ كانت تخرج المال من كيسها الحريري قطعةً بعد قطعة. ثم اجتزنا الجسر في الاتجاه المعاكس. قالت:

ـ سنذهب إلى عند أوشيدا كوسابورو، إنه رسّام عبقري، وسوف يُعجَب بعينيكِ. إنه يعيش في فوضى عارمة، وقد يغوص أحياناً في ذهول تام، لذا رتّبي أمركِ بحيث يُعجَب بعينيكِ.

مشينا في شوارع صغيرة، ثم في زقاق مسدود، في نهايته ظهرت بوابة لمعبد شنتو مصغّر لونه أحمر فاقع وهو محصور بين بنايتين. اجتزنا البوابة ومررنا أمام أجنحة صغيرة، ووصلنا إلى أسفل الدرج الحجري. صعدنا الدرجات تحت أوراق صارخة الألوان، وكنا في فصل الخريف. تحت هذا النفق من الأوراق كان الهواء بارداً كماء النبع. أحسستُ وكأني أدخل إلى عالم آخر. كنتُ أسمع أصواتاً تشبه أصوات الأمواج وهي تلامس الرمال: لاح هناك رجل ينظّف الدرجة الأخيرة بالماء وبمكنسة من الشعر بلون الشوكولا.

بادرته مامها:

ـ أوشيدا ـ سان! أليس لديكَ خادمة لكي تقوم بالتنظيف بنفسك!

كانت الشمس في عينيه، فخفضهما نحونا، ولكن لا بدّ أنه لم يرَ سوى أشكال آدمية تحت الأشجار. أما أنا فقد كنتُ أراه بوضوح، ورأيتُ له هيئة مضحكة. كان في زاوية فمه خالٌ كبير، حاجباه مشعّثان، حتى لظننتُ أن دودتين خرجتا من شعره وتوقّفتا فوق عينيه. كل شيء عنده كان يصطرع: شعره الأشيب وكيمونوه الذي يبدو أنه قد نام فيه.

ـ من هناك؟

ـ أوشيدا ـ سان! مازلتَ لا تعرف صوتي بعد هذه السنوات!

ـ إذا كنتِ تريدين إثارة غضبي، فستندمين كائناً من كنتِ! لست في مزاج يسمح لي بالانزعاج! سأضربكِ بهذه المكنسة إذا لم تقولي لي من أنتِ.

كان أوشيدا غاضباً إلى درجة أني لم أستغرب أن يقضم خاله من زاوية فمه ويبصقه في وجهنا. تابعت مامها صعود الدرجات الحجرية، وتبعتها محاولةً أن أبقى خلفها، فلْتتلقَّ هي المكنسة، وليس أنا!

قالت له وهي تتقدّم في الضوء:

ـ أهكذا تستقبل الضيوف يا أوشيدا ـ سان؟

نظر إليها وهو يرفّ بعينيه، ثم قال:

ـ أوه، هذه أنتِ. لم لا تعلني عن نفسك كجميع البشر؟ خذي هذه المكنسة ونظّفي بها الدرج. لن يدخل إلى عندي أحد قبل أن أشعل البخور. هناك فأر آخر ميت، وللغرفة رائحة المقبرة!

بدا ذلك مسلياً لمامها، انتظرت حتى غاب أوشيدا، ووضعت المكنسة إلى جذع شجرة، ثم قالت لي:

ـ ألديكِ خرّاج؟ عندما لا يستطيع أوشيدا أن يرسم يكون في مزاج كريه، يجب تفجيره كخرّاجٍ يُفقأ لكي يهدأ، إذا لم تعطيه مبرراً للهدوء، فسيبدأ الشرب وستسوء الأمور.

ـ هل هو يربّي الفئران؟ لقد سمعته يقول ثمة فأر آخر قد مات!

WWW.REWITY.COM

- رباه لا، إنه يرمي أعواد الحبر، فتأكلها الفئران وتموت مسمومة. لقد أهديته علبة ليضع فيها أقلام التخطيط، ولكنه لا يستخدمها.

انفتح الباب نصف فتحة، ظهر أوشيدا قليلاً، ثم غاب في المرسم من جديد. خلعنا حذائينا. كان المرسم مكوّناً من غرفة واحدة فسيحة جداً كغرفة الطعام في مزرعة، وكان البخور يحترق في إحدى الزوايا من طرف الغرفة الآخر، ولكنّ الجو لم يتطهَّرْ بعد من الرائحة الكريهة. ملأت رائحة الفأر الميت بلعومي، وفي المرسم فوضى أكبر من تلك التي تسود في غرفة هاتسومومو.

الفراشي في كل مكان، بعضها مكسور وبعضها الآخر مقضوم. رأيت لوحات كبيرة مع رسوم غير مكتملة بالأبيض والأسود. وفي وسط هذه الفوضى كان فوتون مغطّى بشرشف ملطّخ بالحبر. لا بدّ أن أوشيدا نفسه كان ملطّخاً بالحبر، التفتُّ لكي أتأكد، فصاح بي:

- إلامَ تنظرين؟

- أقدّم لكَ أختي الصغرى سايوري يا أوشيدا - سان! لقد مشت الطريق من جيون حتى هنا لكي تلتقي بكَ فقط.

لم تكن جيون بعيدة عنا! جثوتُ على التاتامي وبدأتُ طقسي المعتاد: انحنيت أمام أوشيدا وطلبتُ تسامحه، رُغمَ أني كنتُ متأكدة من أنه لم يسمع ما قالته مامها.

قال:

- كان النهار رائعاً حتى الغداء، ثم انظري ما حدث!

اجتاز الغرفة وتناول لوحة خشبية وقد ثبّت عليها رسمٌ أولي لامرأة مرئية من الظهر. كانت تحمل مظلة وتنظر جانباً. للأسف، فقد مرّ عليها هرٌ بعد أن مشى على بقعة من الحبر الصيني وترك آثاراً واضحة. كان ينام بهدوء متكوّراً عل كومة من الغسيل المتّسخ.

قال:

- لقد ربّيته لكي يقتل الفئران، وانظرا إلى النتيجة. كم أود أن أطرده!

WWW.REWITY.COM

- أوه، ولكن هذه البقع جميلة جداً. أعتقد أنها تعطي اللوحة سحراً جديداً، مارأيكِ يا سايوري؟

لم تكن لديّ أية رغبة في الكلام: يبدو أنه لم يحبّذ ملاحظة مامها، ثم فهمتُ أنها تريد فقأ الخرّاج، فقلت بحماسة:

- حقاً إنها جميلة، آثار دوسات الهر! لا بدّ أنه فنان!

قالت مامها:

- أعرف لماذا لم تحبّه، إنك تحسده على موهبته.

- أنا أغار منه؟ هذا الهر ليس فناناً، بل إنه شيطان.

- اعذرني يا أوشيدا - سان، لا بدّ أنك عل حق، ولكن قل لي: هل تنوي أن ترمي هذه اللوحة؟ إذا كانت هذه هي نيّتك، فإني أحبّ أن أقتنيها. إنها تناسب بيتي، أليس كذلك يا سايوري؟

بينما كانت تقول ذلك، شرع أوشيدا بنزع اللوحة عن الحامل، ثم قال:

- تعجبكِ، آه؟ في هذه الحالة سيكون لديكِ لوحتان.

مزق اللوحة إلى قسمين أعطاهما لمامها وهو يقول:

- هذه هي الأولى، وهذه هي الثانية. والآن اخرجا!

- يا للخسارة! لقد كانت أفضل لوحاتك!

- اخرجا!

- أوه يا أوشيدا - سان، إني لا أستطيع. لن أكون صديقة مخلصة إذا لم أرتّب لكَ مرسمكَ قبل أن أخرج.

هنا خرج أوشيدا من مرسمه ساخطاً، وقد ترك الباب مفتوحاً وراءه. ركل بقدمه المكنسة التي أسندتها مامها إلى جذع إحدى الأشجار، نزل الدرج لكنه انزلق وكاد أن يسقط. بقينا نصف ساعة نرتّب له الغرفة، ثم عاد بمزاج طيب، ولكن من دون انبساط. لم يكن يكفّ عن لعق الخال الذي على زاوية فمه، مما أكسبه هيئة ساهمة. لابدّ أنه ندم على تصرفه لأنه لم يجرؤ على النظر إلينا مباشرة. فإذا استمرّ هكذا، لن يرى عينيّ. قالت له مامها:

- ألا ترى سايوري جميلةً؟ هل نظرتَ إليها أصلاً؟

كانت محاولتها الأخيرة لكي تلفت انتباهه. لم يعرني إلا نظرة خاطفة، وكأنه يطرد قطة عن الطاولة. بدت مامها خائبة. لقد بدأ نور الظهيرة يخبو. نهضنا لنذهب. حيته مامها باقتضاب. عندما خرجنا، توقّفتُ لأتأمل الغروب بلونه الزهري البرتقالي، كأنه أجمل كيمونو أراه. مهما كان هذا الكيمونو رائعاً، فلن يعكس هذه البريق البرتقالي على يديك. كانت يداي مشعّتين على بريق الشمس الآفلة. رفعتهما أمام عينيّ وتأملتهما ملياً، وقلت:

- انظري يا مامها - سان!

ظَنَنْتُ أني أتكلّم عن شمس الأصيل، فنظرت بلا مبالاة. كان أوشيدا يقف جامداً على باب المرسم وهو مركز انتباهه. مرّر يده في شعره الأشيب. لم يكن ينظر إلى الشمس الغاربة ، بل كان ينظر إليّ.

هل تعرف رسم المرأة بالكيمونو ، مرسومة بالحبر، وهي تبدو في أوج سعادتها، وعيناها تلمعان؟ لقد ادّعى أوشيدا أني أوحيتُ له بتلك اللوحة. لم أصدّقه قطّ. فكيف لفتاة تنظر بغباء إلى يديها في غروب الشمس أن توحي بلوحة بهذه الروعة؟

19

في ظرف شهر التقيتُ بنابو والدكتور سرطان وأوشيدا كوزابورو. كجرادة في قفص، أحسستُ أخيراً بأني نجحتُ في الهرب. لأول مرة في حياتي أنام ليلاً دون أن يقال لي: في تاريخ جيون ستكونين كقطرة شاي تسقط على إحدى التاتاميات. كنتُ ماأزال لا أعرف خطةَ مامها بعد. ولم أفهم كيف ستجعل مناوراتُها مني جيشا مرغوبة، ولا كيف سيضعني النجاح على تماسّ مع الرئيس. ولكن في كل مساء، أنام ومنديله على خدي، وأسترجع

أيضاً وأيضاً لقائي به. كنتُ كجرس المعبد الذي يبقى يرنّ طويلاً بعد أن يُقرَع.

مرت عدة أسابيع دون أن أتلقّى أية أخبار من هؤلاء الرجال. وبدأنا نتساءل أنا ومامها. وذات صباح، اتصل سكرتير إيوامورا إليكتريك لكي يدعوني إلى حفل استقبال في المساء نفسه. أسعد هذا الخبر مامها: فقد ظنت أن الدعوة أتت من نابو. وكنت في أوج سعادتي لسبب آخر. فقد تمنّيتُ أن تكون الدعوة أتت من الرئيس. فيما بعد، وفي اليوم نفسه، قلتُ لتاتي، بحضور هاتسومومو، إني ذاهبة لقضاء السهرة مع نابو، وطلبتُ إليها أن تساعدني على اختيار الكيمونو. اندهشتُ كثيراً عندما رأيتُ هاتسومومو تساعدنا في اختيار الكيمومو. لو رآنا شخص غريب لظن أننا أبناء أسرة متحدة. لم تبادر هاتسومومو، في أية لحظة، إلى اتخاذ مواقف محتقِرة ولا إطلاق تعليقات جارحة، بل أبدت أفضل النصائح. كانت دهشة تاتي تعادل دهشتي. وقع اختارنا على كيمونو أخضر مغبر مع رسم لأوراق أشجار قرمزية ومفضّضة، وأوبي رمادي مخطّط بخطوط مذهّبة. وعدت هاتسومومو أن تمرّ للسلام علينا، أنا ونابو.

ذاك المساء، جثوتُ أمام باب ذلك الصالون في الإيشيريكي وأنا أقول لنفسي: لقد سعى القدر ليأتي بي إلى هنا في هذه اللحظة. سمعتُ ضحكات صماء، وتساءلتُ ما إذا كان الرئيس بين الحاضرين. فتحتُ الباب ورأيته يجلس إلى طرف الطاولة. كان نابو يدير ظهره إليّ، والرئيس يضحك. ضحكة جميلة! وجب عليّ أن أتماسك، وألا أردّ إليه الابتسامة بدوري. حييتُ مامها والجيشاوين، ثم الرجال الستة الموجودين. نهضتُ وجلستُ إلى جانب نابو. لا بدّ أني جلستُ قريباً جداً منه لأنه ضرب كأس الساكي بعنف على الطاولة وابتعد عني. اعتذرتُ، فتجاهلني. عقدت مامها حاجبيها، وبقيتُ غير مرتاحة طوال السهرة. بعد ذلك قالت لي مامها:

- نابو يغضب بسرعة. انتبهي في المستقبل ولا تزعجيه!

- اعذريني يا سيدتي! يبدو أني لا أعجبه بالقدر الذي تصوّرتِه...

WWW.REWITY.COM

- أوه، إنكِ تعجبينه! لو أنه لم يعجب برفقتكِ، لكان عليكِ أن تغادري السهرة باكيةً. أحياناً يكون وجهه محبباً كباب السجن، ولكنه رجل لطيف على طريقته، وستكون لكِ فرصة اكتشاف ذلك.

* * *

دعتني إيوامورا من جديد الى الإيشيريكي في ذلك الأسبوع، ثم عدة مرات في الأسابيع التالية، وليس دائماً بوجود مامها. طلبت إلي ألا أتأخر وألا أسأم، فكنتُ أحيي وأنسحب خلال ساعة كما لو أني كنتُ مدعوّة إلى حفل آخر. غالباً ما كانت هاتسومومو تقول لي عندما تراني أتأهب للذهاب إلى تلك السهرات إنها ستمرّ بي للسلام ولكنها لم تمر قطُ. وذات ظهيرة، وبينما لم أكن أفكر بها أعلمتني أن لديها وقتاً هذا المساء وأنها ستأتي.

جعلني ذلك عصبية بعض الشيء، كما تتصوّر ذلك. ولكن الموقف تعقّد أكثر عندما أتيتُ إلى الإيشيريكي ولم يكن نابو حاضراً. لم أحضر في حياتي احتفالاً فيه أشخاص قلائل، كانوا جيشاوين وأربعة رجال. وإذا أتت هاتسومومو ووجدتني أتكلّم مع الرئيس ونابو غائب؟ كنتُ ما أزال مترددة حول الموقف الذي سأتخذه وإذا بالباب يُفتح؛ وبهاتسومومو جاثية أمامه.

كان منقذي الوحيد أن أصطنع السأم، ربما أنقذني ذلك في تلك السهرة، ولكن لحسن حظي دخل نابو بعد بضع دقائق. أصبحت ابتسامة هاتسومومو أكثر صراحةً بعد أن رأت نابو يدخل إلى القاعة. ذكّرتني شفتاها بقطرتين كبيرتين من ألم تكوّرتا على ضفتي جرح. جلس نابو إلى الطاولة. سرعان ماذكّرتني هاتسومومو بصوت شبه أمومي بأن أسارع إلى تقديم الساكي له. ذهبتُ للجلوس إلى جانبه والظهور بمظهر الفرحة. في كل مرة كان يضحك، مثلاً، كنتُ ألتفتُ إليه وكأني لا أستطيع الامتناع عن ذلك. كانت هاتسومومو تبتهج، ولم تنتبه لنظرات الرجال الموجّهة إليها. لا بدّ أنها اعتادت كثيراً على أن تكون مثار إعجاب. بدا جمالها بارعاً ذلك المساء كحالها دوماً، ولم يكن الرجل الجالس إلى طرف الطاولة يفعل من شيء سوى التدخين والنظر إليها، حتى الرئيس

كان يرمقها ببعض النظرات بين الفينة والأخرى. في النهاية تساءلتُ: هل الجمال يُعمي الرجال إلى درجة أنهم يحسّون بأن القدر أسعدهم بتقاسم الحياة مع شيطان، يكفي أن يكون شيطاناً جميلاً؟ تخيّلتُ الرئيس قادماً ذات مساء إلى أوكيّانا لملاقاة هاتسومومو، سيكون لديه لبّادة في يده، وسيبتسم لي وأنا أفك له أزرار معطفه. لا أصدّق أن جمال هاتسومومو سيبهره إلى درجة أن ينسى قسوتها. ولكنّ شيئاً واحداً كان أكيداً: إذا عرفت هاتسومومو بمشاعري نحوه، فستحاول أن تغويه فقط لكي تعذّبني.

فجأةً بدا لي أنه من الملحّ أن تغادر هاتسومومو القاعة. أعرف أنها أتت لكي تراقب «تطوّر الموقف» كما كانت تقول. كما إني قررتُ إرضاءها. لامستُ رقبتي وشعري كما لو أني كنتُ قلقة على مظهري، ومرت يدي على زينة شعري سهواً، فخطر ببالي خاطر: انتظرتُ حتى ألقى أحدهم نكتة. ضحكتُ، صففتُ شعري، ثم ملتُ نحو نابو. كان بإمكان ترتيب شعري أن يبدو غريباً نظراً لأنه كان مثبّتاً بالشمع. ومع ذلك كان لديّ خطة: أنزع إحدى الشكلات المغروزة في شعري، أزهار من الحرير الأصفر والبرتقالي، وأتركها تسقط على ركبة نابو. كانت قاعدة الشكلة الخشبية مغروسة عميقاً في شعري. أخيراً نزعتها، ففرت الأزهار الحريرية على صدر نابو وسقطت على التاتامي بين ساقيه. لاحظ المدعوون ذلك، ولم يعرف أحد منهم ماالعمل. فكرتُ أن ألتقط شكلتي كفتاة صغيرة وأنا خجلة، ولكني لم أجرؤ على مدّ يدي بين فخذي نابو.

تناول الشكلة وأدارها ببطء بين أصابعه وهو يمسك بها من حاملها الخشبي، ثم قال:

- نادي لي الخادمة التي رافقتني إلى هنا، قولي لها إني أريد العلبة التي جلبتها معي.

فعلتُ ماطلبه إليّ نابو، وعند عودتي كان الجميع في حالة ترقّب، وما تزال الشكلة في يد نابو، والأزهار الحريرية مدلاّة فوق الطاولة. مددتُ إليه العلبة، فلم يأخذها، بل قال:

WWW.REWITY.COM

ـ كنتُ أريد أن أعطيكِ إياها فيما بعد، عندما تغادرين، ولكن يبدو أنه يجب عليّ أن أعطيك إياها الآن.

أشار إلى العلبة بهزّة من رأسه، وأشار إليّ أن أفتحها.

كان الأمر في غاية الإحراج، فالجميع كانوا ينظرون إليّ. في الداخل، ظهرتْ علبة خشبية صغيرة وفي داخلها مشط أنيق على سرير من الساتان. كانت هذه الزينة على شكل نصف قمر بلون أحمر قان، مع أزهار ملوّنة بعدة ألوان. قال نابو:

ـ إنه مشط قديم اشتريته أول أمس.

كان الرئيس ينظر بأسى إلى المشط الموضوع على الطاولة في علبته. في النهاية تنحنح، ثم قال بنبرة غريبة الحزن:

ـ لم أكن أعرفكَ بهذه الرقة يانابو ـ سان!

نهضت هاتسومومو عن الطاولة، فظننتُ أني تخلّصت منها، ولكني فوجئتُ بأنها أتت وجثت إلى جانبي. لم أعرف بماذا أفكر في هذا الموقف، حتى أدخلت المشط إلى العلبة وغرزته في شعري في أسفل كعيكتي ذات الفصين. مدّت يدها، فناولها نابو الشكلة ذات الأزهار الحريرية وأعادتها إلى شعري كأم تعتني بابنتها.

شكرتها بإيماءة من رأسي. قالت لنابو:

ـ أليست رائعة؟

تنهدت بتصنّع، وكأننا كنا نعيش لحظات من الرومانسية الحادة، ثم غادرت الاستقبال كما كنت أتمنى.

* * *

من نافل القول إن الرجال يختلفون فيما بينهم، اختلاف الحراج التي تزهر في أوقات مختلفة من السنة. إذا كان الرئيس ونابو قد أبديا اهتماماً بي في الأسابيع التي تلت مباراة السومو، فإن الدكتور سرطان وأوشيدا لم يبديا أي اهتمام طوال عدة أشهر. لم تيئس مامها بل قالت: سننتظر حتى يطلبونا، ليست المسألة إيجاد حجة

لرؤيتهما، ولكن إلى أجَلٍ. مامها نفسها لم تستطع تحمّل هذا التأخير: ذات ظهيرة، ذهبت للاستعلام عن أوشيدا.

بعد زيارتنا له بقليل عضّ غرير هرٌّ أوشيدا، فتسمم ومات بعد عدة أيام، فغرق صاحبه في الكحول من جديد. زارته مامها خلال عدة أيام متوالية لكي ترفع من معنوياته.

بعد أن استردّ شيئاً من مرحه، ألبستني أختي الكبرى كيمونو أزرق مع أشرطة متعددة الألوان مطرّزة من الأسفل. وضعت لي مكياجاً خفيفاً على النمط الغربي «من أجل إبراز الوجه» كما تقول. ثم أرسلتني إليه مع هر صغير أبيض اشترته بثمنٍ غالٍ. وجدته جميلاً، ولكنه لم يعجب أوشيدا كثيراً. بقي جالساً ينظر إليّ وهو يرفّ بعينيه ويحني رأسه إلى هذه الجهة ثم إلى الأخرى. بعد عدة أيام أفصح لي عن رغبته في أن أقف ليرسمني في مرسمه. حذّرتني مامها: عليّ ألا أكلّمه. أرسلتني إليه مع الخادمة تاتسومي التي أمضت الظهيرة وهي تغالب النعاس في زاوية مليئة بالتيارات الهوائية. طلب إليّ أن أقف في مكانٍ ما، مزج ألوانه بحركة مسعورة، رسم لدقيقتين، ثم أشار إليّ أن أغير مكاني.

ربما ذهبتَ إلى اليابان ورأيتَ اللوحات التي رسمها أوشيدا خلال الفترة التي كنتُ أقف فيها ليرسمني، وبخاصة، إحدى أندر اللوحات الزيتية الباقية من هذا الفنان، وهي موجودة الآن في قاعة المحاضرات في سوميتومو بنك في مدينة أوساكا. ربما فكّرتَ أن الوقوف أمامه للرسم هو تجربة هامة. في الواقع، كانت التجربة في غاية الإملال. ففي معظم الأوقات أبقى جالسة في وضعٍ غير مريح ساعةً كاملةً. أحسّ بالظمأ، ولم يكن يقدّم لي قطُ ما أشربه. وعندما كنتُ آتي بالشاي في كأس مقوى يضعه في زاوية بعيدة لئلا يكون في ساحة رؤيته. كنتُ أحترم تعليمات مامها ولا أتكلّم.

في تلك الظهيرة الشهيرة من منتصف شهر شباط، بدا من الأفضل لي أن أتكلم. كان أوشيدا جالساً أمامي ينظر إليّ وهو يلعق خاله. إلى جانبه كانت عدة علب للحبر وحجر تحبير مع حوض من الماء لم يكف سطحه عن التجمد. مرّغ أعواد الحبر في الماء

www.rewity.com ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

للحصول على اللون الرمادي المزرق الذي كان يريده، ولكنه لم يحصل عليه. خرج ليرمي الحبر على الثلج، ودام ذلك طوال بعد الظهر. ثارت ثائرته، ثم طردني. ولم أسمع أخباره طوال أسبوعين، ثم علمتُ أنه عاد إلى معاقرة الخمرة، فلامتني مامها.

* * *

أما بالنسبة إلى الدكتور سرطان فقد وعدنا بأنه سيراني ومامها في بيت شاي شيراي. بعد ستة أسابيع، لم يظهَرْ بعد، فبدأت مامها تحس بالقلق. مازلتُ لا أعرف خطتها لإنقاذي من هاتسومومو سوى أنها تعتمد على رجلين: نابو والدكتور سرطان. لم أكن أعرف ماتنتظره من أوشيدا، ولكنه لم يكن إلا قطعة ثانوية في لعبتها.

في نهاية شباط عثرت مامها على الدكتور سرطان في الإيشيريكي. كان قد بقي في أوساكا لافتتاح مشفى جديد هناك، وكان عبء العمل الكبير يقع على عاتقه. قال إنه يرغب في رؤيتي في بيت شاي شيراي اعتباراً من الأسبوع التالي.

اختارت مامها هذا البيت لكي تقينا شر زيارة غير متوقعة قد تقوم بها غريمتي. وأنا أستعدّ للذهاب إلى هذا الموعد مع الدكتور، كنتُ أخشى أن تجدنا هاتسومومو رُغمَ كل الاحتياطات.

أحسستُ بالارتياح وأنا أرى شيراي: إنه من الأمكنة التي لا تدخلها عدوتي. كان يشبه برعماً ضامراً على شجرة كاملة الازهرار. إذا كانت جيون قد فاضت بالأعمال طوال فترة الانهيار، فإن شيراي الذي ليس لديه بطبيعة الحال كثيرٌ من الزبائن، قد أقفر أكثر. ستقول من المستغرب أن يغشى دكتور مثل سرطان بيتاً للشاي كهذا. ذلك لأنه لم يكن كثير المال في فترة من حياته، فكان هذا البيت يناسبه أكثر، وفي النهاية أخذ يغشى بيت الإيشيريكي. ومع ذلك، فإن هذا لم يؤدِّ إلى القطيعة مع شيراي. عندما يتّخذ الرجل عشيقةً، فإنه لا يهجر زوجته.

ذلك المساء، في شيراي قدّمتُ الساكي، وروت مامها قصة. بقي

الدكتور سرطان جالساً ومرفقاه المدبّبان يتجهان إلى الخارج، يلكزنا بهما بين وقت وآخر من غير قصد، فيسارع إلى الاعتذار. إنه رجل صموت يمضي وقته ناظراً إلى الطاولة عبر نظارته المستديرة. وبين وقتٍ وآخر كان يزلق قطعاً من الساشيمي تحت شاربه. بدا كمراهق يخبّئ شيئاً ما تحت البساط. عندما عدتُ إلى الأوكيّا في ذلك المساء، ظننتُ أننا أخفقنا، فالرجل الذي لا يحس بالانبساط لا يعود إلى جيون. ولكننا سمعنا أخباراً عن الدكتور في الأسبوع التالي، ثم طوال الأسابيع التي تلَتْ.

* * *

سار كل شيء على ما يرام مع الدكتور سرطان، إلى أن أتى يومٌ اقترفتُ فيه حماقة، فكادت تودي بجهود مامها كلها. لا بدّ أن فتيات كثيرات أفسدن مستقبلهن برفضهنّ لما يُطلَب إليهنّ، أو لإزعاجهنّ رجلاً مهماً. أما أنا فقد أصبحتُ مذنبةً لهفوةٍ ارتكبتها دون أن أتنبّهَ إليها.

حدث ذلك في الأوكيّا، في يوم بارد، بعد الغداء. كنتُ جالسةً في الرواق أعزف على الشاميزن. مرت هاتسومومو من أمامي وهي ذاهبةً إلى المرحاض. لو كنتُ أنتعل حذاءً لهببتُ واقفةً في الممر الترابي وأفسحتُ لها الطريق. وقفتُ كيفما اتّفق ويداي وقدماي مجمّدة من البرد. لو تصرّفتُ بحركة أسرع لما اضطرت هاتسومومو إلى التحدّث معي، قالت وأنا أنهض:

ـ سفير ألمانيا في المدينة ولا تستطيع بومبكين تسليته لأنها منشغلة. اطلبي إلى مامها أن ترتّب أمورها بحيث تذهبين بدلاً من بومبكين.

ضحكت بعد كلامها، وكأنه ضربٌ من الجنون أن تتخيلني وأنا أجالس سفير ألمانيا، أو أقدم طبقاً من الدوّام للإمبراطور.

في تلك الفترة، كان سفير ألمانيا يثير ضجةً كبرى في جيون، فقد كنا في العام 1935، وفيه تشكّلت حكومة ألمانية جديدة. لم أكن قطُّ مولعة بالسياسة، ولكني أعلم أن اليابان كانت تبتعد عن الولايات

WWW.REWITY.COM

المتحدة، وتريد أن تؤثر على السفير الألماني. في جيون، كان الجميع يتساءل عمن يتشرّف بتسليته لدى زيارته القادمة.

بعد أن تركتني هاتسومومو كان عليّ أن أخفض رأسي وأنتحب بصوت عالٍ وقوي على حظي التعس مقارنةً بحظ بومبكين. ولكني فكّرتُ بمستقبلي المشرق: لقد نجحنا في إبقاء هاتسومومو بعيدةً عن مشروعاتنا. وددتُ أن أبتسم عندما كلمتني ولكني بقيتُ ساكنة، فخورة بأني لم أبدِ شيئاً. نظرت إليّ نظرةً مضحكة، وكان عليّ أن أفهم أنها كانت تشكّ في أمرٍ ما. ابتعدتُ عن طريقها، فمرّت، وانتهى الموضوع، على الأقل بالنسبة إليّ.

بعد عدة أيام، ذهبتُ لزيارة سرطان في بيت شاي شيراي مع مامها. وأنا أفتح الباب رأيتُ بومبكين تضع قدميها في زوريها. استغربتُ وجودها هناك، ثم ظهرت هاتسومومو، فعرفتُ أنها تجاوزتنا.

قالت هاتسومومو:

ـ مساء الخير يا مامها ـ سان، وانظروا من معها! متدرّبةٌ أحبها الدكتور كثيراً!

لا بدّ أن صدمة مامها كانت كصدمتي، ولكنها لم تبدِ ذلك، بل قالت:

ـ هاتسومومو ـ سان، كدتُ لا أعرفكِ! لقد كبرتِ كثيراً!

لم تكن هاتسومومو عجوزاً، فقد كانت في الثامنة والعشرين أو التاسعة والعشرين، إنما أرادت مامها أن تجرحها.

قالت هاتسومومو:

ـ لقد أتيتِ من أجل الدكتور على ما أتصور. ياله من رجلٍ مهم! كل أملي أن يسرّ برؤيتك!

بدت هاتسومومو في قمة الفرح، بينما لاح الحزن على محيا بومبكين.

خلعتُ ومامها حذاءينا دون أن ننبس بكلمة، فلم نكن نعرف

مانقول لا أنا ولا هي. في تلك السهرة، كان جو شيراي أخضر مزرقّاً بصورة خاصة وفاحت منه رائحة المكياج الزنخة. كان الحوّار الرطب يتقشّر في بعض الزوايا. كنتُ أدفع أي شيءٍ للمغادرة فوراً.

فتحنا باب الصالون وكانت معلمة البيت برفقة الدكتور. عادةً ما تبقى بضع دقائق بعد وصولنا لكي تحسب هذا الوقت للدكتور. أما ذلك المساء، فقد انسحبت فور دخولنا. تحاشت نظراتنا وهي خارجة. كان الدكتور سرطان يدير ظهره إلينا. ذهبنا إلى طاولته مباشرة، ثم بادرته مامها:

ـ تبدو تعباً أيها الدكتور. كيف حالك اليوم؟

لم يُجب سرطان. كان يدوّر كأس بيرته على الطاولة لكي يمضي وقته، رُغمَ أنه ليس رجلَ إضاعة وقت.

قال أخيراً:

ـ نعم، إني تعب. ولست أرغب كثيراً في الكلام.

شرب مابقي من البيرة، ونهض لكي يذهب. تبادلتُ ومامها نظرةً خاطفة. وقبل أن يخرج إلى الصالون التفتَ، وقال لنا:

ـ أنا لا أطيق الخيانة.

وخرج دون أن يغلق الباب خلفه. ذهبت مامها وأغلقته. جلست إلى الطاولة. مسّدت كيمونوها على ركبتيها، ثم قالت:

ـ ماذا فعلتِ لهاتسومومو يا سايوري؟

ـ بعد هذه الجهود كلها! لقد وعدتكِ ألا أفعل شيئاً يمكن أن يفسد عليّ مستقبلي.

ـ لقد رفضكِ الدكتور. لا بدّ أن لديه سبباً. ما هو؟ إنه سر. لكي نعرفه، لا بدّ أن نعرف ماذا قالت له هاتسومومو.

ـ هذا مستحيل!

ـ كانت بومبكين حاضرةً. اذهبي واسأليها.

WWW.REWITY.COM

لم أكن على ثقة بأن بومبكين ستتكلم، ولكني وعدتُ بالمحاولة، فبدت مامها راضية. نهضتُ لكي تذهب، وبقيتُ في مكاني. التفتت، ثم قالت:

ـ ماذا هناك؟

ـ لديّ سؤال سأطرحه عليكِ يا مامها ـ سان. تصرّ هاتسومومو أني أمضيتُ بعض الوقت مع الدكتور، وبلا شك هي تعرف لماذا. والدكتور سرطان يعرف لماذا، وكذلك أنتِ، وربما بومبكين أيضاً. أنا وحدي لا أعرف. هلاّ تكرّمتِ عليّ وقلتِ لي ماتنتظرين مني؟

بدت مامها آسفة لطرحي هذا السؤال. تنهّدت وجلست من جديد إلى الطاولة لكي تقول لي ما أود معرفته.

* * *

قالت:

ـ أوشيدا ـ سان يراكِ بعيني فنان، ولكن الدكتور يهتمّ بأمر آخر، وكذلك نابو. هل تعرفين ماذا يُقصد بـ«الأنقليس الوحيد»؟

قلت لها إنه ليس لديّ أدنى فكرة عن ذلك، فأضافت:

ـ الرجال لديهم نوعٌ من... أخيراً، من الأنقليس، والنساء لا يملكنه. وهذا الشيء يوجد...

ـ أعتقد أني فهمت، ولكني لم أكن أعرف أنه يسمّى أنقليس.

ـ إنه ليس أنقليساً حقيقياً، ولكن هذه التسمية تجعل الأمور أسهل للشرح. إذاً، هذا الأنقليس يمضي حياته بحثاً عن عش. والنساء لديهنّ كهف يحبّ الرجال أن يلتجئوا إليه. يسيل الدم من هذا الكهف كل شهر عندما «تمرّ الغيوم أمام القمر»، كما يقال.

كنت في سن تؤهلني لفهم ما قصدته مامها بقولها «تمرّ الغيوم أمام القمر» لأني خبرتُ هذه الظاهرة منذ عدة سنوات. في المرة الأولى، أحسستُ بالرعب، كما لو أني تنخّعتُ فوجدتُ قطعاً من دماغي في المنديل. ظننتُ أني مهدّدة بالموت، حتى أتى اليوم الذي

رأتني فيه تاتي أغسل خرقةً مدمّاة، فقالت لي إن هذا النزف من علامات الأنوثة.

تابعت مامها:

ـ ربما لا تعرفين أن الأنقليسات غيورون جداً على كهوفهم. فعندما يجدون كهفاً يحبونه يبحثون في داخله لبعض الوقت لكي يطمئنوا إلى أنه... كهف جميل، بلا شك. وعندما يقتنعون به يبصقون فيه، أتفهمين؟

لو أن مامها عرضت عليّ الأمور بصورة مكشوفة لصدمتني، ولكني ما كنت لأبذل كثيراً من الجهد لكي أفهم. وبعد عدة سنوات، اكتشفتُ أن أخت مامها الكبرى قد شرحت لها هذا الشرح عينه.

أضافت وكأن كل ما قالته لي حتى الآن مايزال عادياً:

ـ ها إنّا نصل إلى باب القضية التي قد تبدو إليكِ غريبةً. الرجال «يحبّون» هذا، بل يحبونه جداً، حتى إن هناك رجالاً لا يفعلون شيئاً سوى البحث عن كهوف مختلفة لتبيت أنقليساتهم فيها. وكهف المرأة غالٍ عند الرجل بقدر ما يستعصي على الأنقليسات الأخرى. أتفهمين؟ هذا يسمى «الميزواج».

ـ ما هو «الميزواج»؟

ـ هو عندما يخترق الرجل كهف المرأة لأول مرة.

«ميزو» تعني الماء، و«آج» تعني رفع أو وضع. ففي «الميزواج» هناك فكرة رفع الماء، أو وضع شيءٍ ما على الماء. اسألي ثلاث جيشاوات عن أصل كلمة «ميزواج» تحصلي على ثلاث أفكار عنه. عندما أنهت مامها حديثها كنت في غاية الحيرة، رُغمَ أني تظاهرتُ بالفهم.

قالت:

ـ أنتِ تخمنين لماذا يأتي الدكتور إلى جيون على ما أتصور. إنه يكسب كثيراً من المشفى. وخلاف مساعدة أسرته فإنه يصرف

WWW.REWITY.COM

أمواله على «الميزواج». اعلمي يا سايوري ـ سان أنكِ بالضبط الفتاة التي يرغبها. إني أعرف ذلك تماماً.

قبل أن آتي إلى جيون بعام واحد، دفع الدكتور سرطان مبلغاً كبيراً جداً كثمنٍ لـ«ميزواج» مامها. ما بين سبعة إلى ثمانية آلاف ين. قد يبدو ذلك مضحكاً اليوم، أما في تلك الأيام فقد كان المبلغ كبيراً حتى بالنسبة إلى امرأة مثل الأم التي لا تفكر إلا بالمال، ولا تدّخر جهدها في جمعه. لماذا بلغ «ميزواج» مامها هذا المبلغ؟ من ناحية، كانت مامها مشهورة؛ كما إن رجلين زايدا على «ميزواجها»: الدكتور سرطان، ورجل أعمال يدعى فوجيكادو. عادةً، لا يدخل الرجال في مباراة كهذه في جيون. فهم جميعاً يعرفون بعضهم ويفضّلون التسويات الودية. ولكن كان فوجيكادو يعيش في الريف، وقلّما كان يأتي إلى كيوتو، فلم يكن يعبأ كثيراً بإغضاب الدكتور سرطان الذي كان يفتخر بأن دمه أزرق، وأنه يكره محدثي النعمة من أمثال فوجيكادو، رُغمَ أنه هو نفسه كان محدث نعمة.

في أثناء مباراة السومو لاحظت مامها أني أعجبتُ نابو، ذاك الرجل الذي نجح في الانطلاق من الصفر مثل فوجيكادو. فقرّرتْ أن تثير معركةً بين الدكتور سرطان ونابو، لاقتناعها بأن الدكتور سيكره نابو. ولأن هاتسومومو تلاحقني بنواياها الخبيثة، فقد لا يبلغ «ميزواجي» المبالغ الجنونية. ولكن، إذا رأى هذان الرجلان أني فتاة جذّابة، فقد يزايدان للحصول على «ميزواجي». وهذا سيسمح لي بوفاء ديوني كما لو أني متدرّبة مشهورة، الأمر الذي سيُفقد هاتسومومو صوابها كما تقول مامها. فهي التي سُرّت لأن نابو أعجب بي، لم يَدُرْ في خلدها أن هذا الافتتان يرفع من ثمن «ميزواجي».

من المؤكد أنه كان يجب علينا أن نكسب من جديد رضى الدكتور سرطان. وقد يدفع نابو ما يريده من «ميزواجي»، إذا كان ذلك يهمه. لم أعرف ذلك، ولكن مامها طمأنتني بأن الرجل لا يقيم علاقةً مع متدرّبة في الخامسة عشرة من عمرها إذا لم يكن يفكر في «ميزواجها». قالت لي:

WWW.REWITY.COM

ـ تأكّدي أنه ليس حديثكِ هو ما يهمّه.

جرحتني هذه الملاحظة، ولكني بذلتُ جهدي لإخفائها.

20

فيما بعد، فهمتُ أن حديثي مع مامها كان بالنسبة إليّ فرصةً للوعي. لقد كنتُ أجهل ما «الميزواج»، لأني ساذجة. وفيما بعد، فهمتُ لماذا يُمضي رجلٌ مثل الدكتور سرطان معظم وقته في جيون، وينفق هذه المبالغ من المال. ما إن يعرف المرء هذه الأمور، فإنه لا ينساها أبداً. بعد ذلك، تغيّرت نظرتي إلى الدكتور سرطان.

ذلك المساء، انتظرتُ في غرفتي أن تعود هاتسومومو وبومبكين إلى الأوكيّا. حوالى الساعة الواحدة صباحاً، سمعتهما تصعدان الدرج. كنتُ أعرف أن بوميكين تعبة، فقد راحتْ يداها تصفقان الدرجات بتثاقل، وأحياناً كانت تصعد الدرج على أربع، ككلب. وقبل أن تغلقا الباب، نادت هاتسومومو إحدى الخادمات، وطلبت زجاجة من البيرة. ثم استدركت:

ـ لا، انتظري، هاتي زجاجتين، فأنا أريد أن تشرب بومبكين معي.

ـ أوه، أرجوكِ ياهاتسومومو! لا رغبة لي في ذلك.

ـ ستقرئين لي بينما أشرب بيرتي، وهذا كما لو أن لديكِ زجاجة. إني أكره البخلاء، إنهم يغيظونني!

نزلت الخادمة الدرج، وبعد أن عادت، سمعتُ الأكواب تتصادم على صينية.

خلال ربع الساعة التالية، ألصقتُ أذني إلى باب غرفتي، وسمعتُ بومبكين تقرأ مقالاً عن ممثل جديد للكابوكي. أخيراً، سمعتُ هاتسومومو تخرج من غرفتها، وتمشي بتثاقل على سفرة الدرج، ثم تفتح باب المرحاض. صرخت:

- ألا ترغبين في زبدية من المعكرونة الشريطية يا بومبكين؟

- لا يا سيدتي!

- اذهبي وجِدِيْ بائع المعكرونة الشريطية، واشتري من أجلكِ أيضاً لئلا آكل بمفردي.

أطلقت بومبكين زفرةً، ثم نزلت الدرج. سمعتُ هاتسومومو تعود إلى غرفتها، ثم نزلتُ بدوري على رؤوس أصابع قدميّ. لو لم تكن تعبة لما وجدتها، كانت تمشي بسرعة حلزون، فلحقتُ بها. بدت متوجّسةً من رؤيتي، وسألتني لماذا أتيتُ، فقلت لها:

- إني بحاجة إلى مساعدتك!

- أوه، يا شيو - شان، وكانت الوحيدة التي بقيت تناديني هكذا، ليس لديّ وقت! إني أبحث عن معكرونة لهاتسومومو، وهي تريد أن آكل معها. إني أخشى أن أتقيّأ فوقها.

- أوه يا بومبكين المسكينة! إنكِ كقطعة ثلج آخذة بالذوبان.

بدا وجهها شاحباً من التعب، وثقل ملابسها يشدّها إلى الأرض. طلبتُ إليها أن تجلس، وذهبتُ لشراء المعكرونة بدلاً عنها. كانت منهكةً إلى درجة أنها لم ترفض، ناولتني النقود، وجلست على أحد المقاعد بجانب نهر شيراكاوا.

بحثتُ قليلاً حتى وجدتُ بائعاً للمعكرونة، فاشتريتُ زبديتين ساخنتين. وجدتُ بومبكين نائمةً بعمق ورأسها ملقى إلى الخلف، وفمها مفتوح، وكأنها تريد أن تستقبل قطرات المطر. قاربت الساعة الثانية صباحاً، وصادفتُ بعض المارة. وقفت مجموعة من الرجال ينظرون إليها ضاحكين، فقد بدا منظرها غريباً وهي تغطّ في نومها على مقعدها وسط الشارع في منتصف الليل وهي ترتدي كامل لباسها كجيشا متدرّبة.

وضعتُ الزبديتين جانباً، وأيقظتها بكل هدوء ممكن، ثم قلتُ لها:

- لديّ دالّة عليك يا بومبكين، ولكني أخشى ألا ترغبين في مساعدتي.

- لا أرغب في أي شيء، على أية حال.

- في بداية السهرة، كنتِ مع هاتسومومو في بيت شاي شيراي. لقد سمعتِ حديثها مع الدكتور. ما قالته له يمكن أن يضرّ بمستقبلي، لا بدّ أنها قالت له أموراً ملفّقة لأنه رفض أن يكلّمني بعد ذلك.

رُغمَ كرهي لهاتسومومو، وتَوْقي لمعرفة ما قالته للدكتور، فقد ندمتُ لأني أثرتُ هذه المسألة مع بومبكين التي بدت في قمة التعاسة! لكزتُها بيدي لأشجعها على الكلام، فانفجرت باكية.

قالت وهي تبحث عن منديل في أوبيها:

- لا أعرف يا شيو - شان. ليس لديّ أية فكرة.

- ولا فكرة عمّا تنوي هاتسومومو أن تفعله؟ من يعرف إذاً؟

- ليس ذلك، لم أكن أعرف أن كائناً بشرياً يمكن أن يكون شريراً إلى هذا الحد! إنها تفعل أشياءً لمجرّد إيذاء الناس. والأدهى من ذلك، أنها تظن أني معجبةٌ بها، وأني أحلم بأن أكون مثلها. ولكني أكرهها. لم أكره في حياتي أحداً مثلها!

كان منديل بومبكين الأصفر قد تلطخ بالكريم الأبيض، وقطعة الثلج التي كانت على وشك الذوبان، لم تعد إلا مستنقعاً صغيراً. قلت لها:

- اسمعيني يا بومبكين، لو كان لدي خيار لما طرحتُ عليك السؤال. ولكني لاأريد أن أعود خادمةً، وهذا ما سيحصل لي إذا ماتصرفت هاتسومومو بحرية، وهي لم تتوقف إلا عندما أصير تحت رحمتها كصرصورٍ تحت حذائها. لابد أنها ستسحقني كحشرةٍ إذا لم تساعديني على الهرب منها!

وجدت بومبكين هذا التشبيه مسلياً، فأخذت تضحك بقوة. وبينما كانت بين الضحك والدموع، أخذتُ منديلها وسعيت إلى إعادة توزيع الكريم الأبيض على وجهها بصورة متناسقة. تأثرت باستعادة

www.rewity.com ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

صديقتي القديمة إلى أن غامت عيناي، فتعانقنا، وقلت لها:

ـ أوه يا بومبكين مكياجك ليس جميلاً.

ـ لا بأس ساقول لهاتسومومو أنَّ سكّيراً مرَّرَ منديلاً على وجهي في الشارع، ولم أكن أستطيع أن أفعل شيئاً لأني كنت أحمل زبدية المعكرونة في كلتا يدي.

ظننتُ أنها ستصمت، لكنها تنهدت بقوة، وأضافت:

ـ أريد أن أساعدك يا شيو، ولكن هاتسومومو ستأتي للبحث عني إذا ما تأخرت كثيراً. وإذا وجدتنا معاً...

ـ ليس لديَّ إلا سؤالان أو ثلاثة لأسألكِ إياها يا بومبكين. قولي لي كيف عرفت هاتسومومو أني أمضي وقتاً مع الدكتور سرطان في بيت شاي شيراي؟

ـ أوه هذا! لقد أرادت استفزازك منذ بضعة أيام بشأن موضوع السفير الألماني، ولكنك بقيت باردةً كالرخام! ففكرت أنك ومامها تدبِّران أمراً ما. ذهبتُ إلى أواجيومي في مكتب التسجيل، وسألَتْه في أي بيت شاي تعملين في المدة الأخيرة. وعندما علمت أنك ذهبت إلى شيراي، ابتسمت ابتسامة شريرة. وفي المساء نفسه ذهبنا إلى هناك أملاً في رؤية الدكتور. ذهبنا مرتين قبل أن نجدكما.

كان هناك قلة من الرجال الأغنياء يغشَون الشيراي، وسرعان مافكرت هاتسومومو بالدكتور سرطان. ونظراً لأنه معروفٌ في جيون بوصفه هاوياً «للميزواج»، فإنها خمّنت ما تدبره مامها. سألتها:

ـ مالذي قالته له في ذلك المساء؟ فقد رفض الدكتور أن يخبرنا.

ـ لقد تناقشا لبعض الوقت، ثم تظاهرت هاتسومومو بأنها تذكرت قصة وحكتها له «هناك متدربةٌ تدعى سايوري في أوكيايَ...» عندما سمع الدكتور اسمك انتفض فجأةً كما لو أن دبوراً لسعه. قال:«أتعرفينها؟»، فردت هاتسومومو :«بكل تأكيد أنا

أعرفها يادكتور، إنها تعيش في أوكيّاي!»، ثم قالت شيئاً ما نسيته، وأضافت:«ما كان يجدر بي أن أتكلّم عن سايوري، فقد وعدتها بألا أفشي سرها».

ارتعشتُ وأنا أسمع ذلك. إذ لابد أن هاتسومومو اختلقت حكاية بشعة. سألتها:

ـ ما هو هذا السر يا بومبكين؟

ـ قالت له إن شاباً يسكن مقابل الأوكيّا، وإن الأم صارمة جداً فيما يخص العشاق الصغار. أوضحت له أنكِ تحبّين ذلك الصبي، وأن ذلك لايزعجها لأن الأم، برأيها، تبالغ في القسوة. أضافت أنها كانت تعيرك حتى غرفتها بين وقت وآخر عندما تكون الأم في الخارج. ثم صرّحت:«أوه يا دكتور، ما كان يجدر أن أقول لك هذا! تصوَّر أن تسمع الأم بذلك، ولن تعرف السوء الذي سيلحق بي من جراء إفشائي لسر سايوري!» أكدَّ لها الدكتور على امتنانه، ووعدها بكتمان الخبر.

لابد أن هاتسومومو كانت في أوج سعادتها لهذه الخسة. هل قالت شيئاً آخر؟ أكدت لي بومبكين أن لا. شكرتها بحرارة على مساعدتي، ولمتها لكونها أمّةً لهاتسومومو منذ سنوات. قالت:

ـ للأمر حسنته. منذ عدة أيام قررت الأم أن تتبناني. أنا التي لطالما حلمت بمكانٍ أمضي حياتي فيه. من الممكن أن يتحقق حلمي.

جعلني هذا الخبر مريضةً لكني لم أبدِ شيئاً. مهما فرحت من أجل بومبكين، فقد كنت أفكر بمامها التي فعلت كلَّ ما بوسعها لكي تتبناني الأم.

* * *

في اليوم التالي رويتُ ما حدث لمامها، فاشمأزّت من قصة العشيق الصغير. لقد فهمتُ المناورة، ولكنّها رأت من المفيد أن تشرح لي خطة هاتسومومو: لقد أفهمَتْ سرطان أن أنقليس رجل آخر قد زار «كهفي».

WWW.REWITY.COM

ذهلت مامها حين علمت بخبر التبنّي. قالت:

ـ برأيي، لدينا بضعة أشهر قبل أن يتم الأمر. هذا، إذن، الوقت المناسب لـ«ميزواجكِ»، سواء أكنتِ مستعدة أم لا.

* * *

في ذلك الأسبوع، قصدت مامها بائع الحلوى واشترت لي قالباً من كاتو الأرز، أو «الإيكوبو»، وهو كلمة تعني:«حفرة صغيرة» باللغة اليابانية. إننا نسمّي هذا الكاتو «إيكوبو» لأن له حفرة صغيرة في الأعلى مع دائرة حمراء صغيرة في وسطها. بعض الناس يجدون هذا «الإيكوبو» واضح الإيحاء. أما أنا، فلطالما وجدته يشبه وسادةً مقعّرةً بعض الشيء. كما لو أن امرأةً نامت عليها وتركت آثار أحمر الشفاه وسطها.

عندما تكون الجيشا المتدربة مستعدّةً لـ«ميزواجها»، فإنها تعمد إلى توزيع «الإيكوبو» لزبائنها. معظمهنّ يوزّعن دستةً من هذا الكاتو على الأقل، وغالباً مايكون أكثر من ذلك. أما أنا، فلم أقدّم أكثر من اثنين: واحداً لنابو، والآخر للدكتور أملاً في أن يعود هذا إلى مشاعره الطيبة. أخذتُ أحسُّ بالندم لأني لم أقدّم واحداً للرئيس. ولكن بدا لي هذا الأمر مقرفاً! وأحسستُ بالارتياح لتركه خارج هذا كله.

لم أحسّ بأية صعوبة بتقديم «الإيكوبو» إلى نابو: فقد رتّبت معلمة الإيشيريكي الأمور، بحيث يأتي في إحدى الأماسي باكراً بعض الشيء. وجدتُه ومامها في إحدى الغرف المطلّة على الباحة في الطابق الأول. شكرته على اهتمامه بي: فقد خصّني ببالغ لطفه في ستة الأشهر الأخيرة. لم يكن يدعوني إلى حفلات فقط، بل إنه قدّم لي هدايا عديدة غير المشط القديم. بعد أن شكرته على جمائله معي، قدّمتُ له علبة «الإيكوبو» المغلّفة بورق خام مربوط بخيوط. أخذها، فشكرتُه ومامها على لطفه، وانحنيتُ انحناءات كثيرة حتى أحسستُ بالدوار. كان الحفل قصيراً. حمل نابو العلبة. خلال السهرة كنتُ

مدعوةً إلى حفل أقامَه هو فلم يلمّح قطُّ «للإيكوبو». أظن أن تلك الهدية لم تُرحه.

بالمقابل، لم تجرِ الأمور بسهولة مع الدكتور سرطان. لقد طلبت مامها إلى معلمات بيوتات الشاي الكبرى أن يخبروها عند قدوم الدكتور. انتظرنا بضعة أيام. وذات مساء، علمت مامها أنه أتى إلى الياشينو. هرعتُ إلى بيت أختي الكبرى لأغيّر ملابسي، ثم قصدنا الياشينو وفي يدي علبة «الإيكوبو» مغلّفةً بمربع حريري.

كان الياشينو بيت شاي حديث البناء على الطراز الغربي؛ غرفه جميلةٌ مع عوارض من الخشب الداكن. أُدخلتُ إلى صالون غريب: بدلاً من التاتاميات والطاولات المحاطة بالوسائد كان هناك أرضية من خشب الجوز مغطاة بسجادة فارسية وعليها طاولة منخفضة ومقاعد منجّدة. لم أفكّر لحظة أن أجلس على مثل هذه المقاعد. جثوتُ على السجادة بانتظار مامها، رُغمَ أن الأرض كانت قاسيةً جداً تحت ركبتيّ. عندما أتت بعد نصف ساعة، كنتُ ماأزال على الوضعية نفسها. قالت:

ـ ماذا تفعلين؟ هذا ليس صالوناً على النمط الياباني! اجلسي على أحد هذه المقاعد، ورتّبي أمركِ بحيث تبدين على راحتكِ.

أطعتُها. جلستُ مقابلي ولم تبدُ قطُّ على راحتها.

كان الدكتور يحضر حفلاً في صالون آخر، وكانت مامها تسلّيه منذ بعض الوقت.

قالت لي:

ـ لقد قدّمتُ له ليترات كثيرة من البيرة، حتى اضطرّ إلى الذهاب إلى المرحاض. عندما يخرج سأعترضه في الممر، وأطلب إليه أن يأتي إلى هذه الغرفة لحظة، فتعطيه «الإيكوبو». لا أعرف كيف سيتصرّف، ولكن ستكون هذه فرصتنا الاخيرة لإصلاح ما فسد بسبب وشاية هاتسومومو.

خرجت مامها من الغرفة. انتظرتُ ساعةً وأنا جالسة على

WWW.REWITY.COM

المقعد. أحسستُ بالحر، وتوفّزت أعصابي. خشيتُ أن يسيء تعرقي إلى مكياجي. تمنيتُ ألا أبدو مشعثة كفوتون أمضي عليه أحدهم ليلته! بحثتُ عن وسيلة أشغل نفسي بها، فلم أجد شيئاً، فرُحتُ أنظر إلى نفسي في المرآة.

أخيراً سمعتُ أصواتاً، ثم طَرَقاً على الباب. فتحتْ مامها الباب، وقالت:

ـ لحظة واحدة فقط، من فضلك يادكتور!

كان واقفاً قاسيَ السحنة في الممر قليل الإنارة. كان يتفحّصها من خلف نظّارته، ولم أعرف ما أفعل. لو أنني على إحدى التاتاميات لحييته. جثوت على السجادة، وانحنيتُ كثيراً رُغمَ أن مامها منعتني من فعل ذلك. لا أعتقد أن الدكتور أعارني أية نظرة. قال:

ـ أفضّل أن أعود إلى الاحتفال، أرجو أن تعذريني!

ـ لقد حملت سايوري شيئاً لكَ. تفضّل بالانتظار قليلاً!

أشارت إليه أن يدخل إلى الغرفة، وحرصت أن يجلس على أحد المقاعد. بعد ذلك، نسيت التوصيات التي أمرتني بها لأننا جثونا، نحن الاثنتين، على السجادة أمام الدكتور سرطان. لا بدّ أنه رأى نفسه شخصاً في غاية الأهمية لأن امرأتين في كامل أناقتهما تجثوان عند قدميه.

قلت له:

ـ آسفةٌ لأني لم أركَ خلال الفترة الأخيرة. لقد بدأ الحر، أظن أن فصلاً كاملاً قد مرّ!

لم يردّ، بل اكتفى بالنظر إليّ. فتابعتُ:

ـ تفضّل بقبول هذا «الإيكوبو» مني يا دكتور!

حييته، ثم وضعتُ العلبة في متناول يده. وضع يديه على ركبتيه، وكأنه يقول لي إنه لا يريد أن يأخذ الهدية. سألني:

ـ لماذا تريدين أن تعطيني هذه؟

تدخّلت مامها قائلةً:

WWW.REWITY.COM

ـ إني آسفة يا دكتور! لقد جعلتُ سايوري تظن أنك ستقدّر عالياً مبادرتها إلى إعطائكَ هذا «الإيكوبو». آمل ألا أكون قد أخطأت الظن؟

ـ إذا كنتِ قد أخطأتِ، فلأنكِ لا تعرفين هذه الفتاة كفايةً. إني أكنّ لكِ بالغ الاحترام يا مامها، ولكن ليس إلى درجة فرض سايوري عليّ.

ـ اعذرني يا سيدي! فقد كنتُ أجهل أنكَ في هذه الحال، كما ظننتُ أنها تعجبك.

ـ عظيم، إن الأمور قد توضّحت الآن، سأعود إلى الاحتفال.

ـ هل أهانتكَ سايوري يادكتور؟ لقد تغيّر الموقف بسرعة كبيرة!

ـ لقد أهانتني، نعم. وقد قلتُ لكِ إني أكره أن يُسخَر مني.

ـ هل كذبتِ على الدكتور يا سايوري ـ سان؟ هذا تصرّفٌ سيء جداً! ماذا قلتِ له؟

قلت بأبرأ مايمكن:

ـ لا أعرف. آه، نعم، لقد قلتُ له إن الطقس بدأ يصبح حاراً في الأسبوع الماضي، في حين أنه ليس حاراً جداً...

نظرت إليّ نظرةً موّنبةً، فأغضيتُ. قالت له:

ـ قل لي قبل أن تذهب يادكتور، هل هناك سوء تفاهم؟ إن سايوري فتاة شريفة. وهي ليست من الفتيات اللواتي يحكين أي كلام لرجل كان لطيفاً معهنّ.

ـ أنصحكِ بسؤال أحد الشبان في حيّكم.

ـ إذاً، تلك هي المشكلة! لا بدّ أنكَ تحدّثتَ مع هاتسومومو.

ـ لا أعرف في ما يعنيكِ هذا!

ـ إنها تحكي هذه القصة في جيون كلها، وهي ملفّقة جداً. فما إن حصلت سايوري على دور مهم في «رقصات العاصمة القديمة»، حتى تنطّحت هاتسومومو إلى إيذائها.

كانت «رقصات العاصمة القديمة» هي الحدث المسرحي السنوي في جيون. وستُعرض على الرقصات بعد ستة أسابيع، في بداية نيسان. ولقد وزّعت الأدوار قبل عدة أشهر. وقد كنتُ في قمة سعادتي لأن أحد الأدوار أنيط بي، فقد أوحت لهم بذلك إحدى مدرساتي. للأسف، كان يكفي أن ألعب أحد هذه الأدوار حتى أُثير حفيظة هاتسومومو.

نظر إليّ الدكتور. اجتهدتُ في أن أَبْدُوَ فتاةً عُهِد إليها بدورٍ هام في باليه. أضافت مامها:

ـ إني آسفة لأن اقول لكَ يا دكتور إن هاتسومومو كاذبة. والجميع يعرفون ذلك. من الأفضل عدم الركون لكلامها.

ـ لا أعرف أن هاتسومومو كاذبة. على أية حال، إنها أول مرة أسمع ذلك.

ـ لا أحد يجرؤ أن يقول لكَ شيئاً كهذا، فالناس يخافون من أن يسمعهم أحدٌ ما. هناك كثيرٌ من الجيشاوات ضميرهنّ غير مرتاح. لن يدنّ هاتسومومو أبداً، فهنّ يخشين أن يعود ذلك عليهنّ بالسوء. وبعد، سواءٌ أكنتُ أكذب عليكَ، أو أن هاتسومومو اختلقت هذا الخبر، عليكَ أن تقدر بمن تثق أكثر يا دكتور!

ـ لا أرى لماذا تكذب هاتسومومو لمجرّد أن تأخذ سايوري دوراً في الباليه!

ـ لا بدّ أنكَ تعرف بومبكين، أخت هاتسومومو الصغرى. كانت هاتسومومو تأمل أن تحصل لها على أحد الأدوار الرئيسة، ولكن سايوري هي التي حصلت عليه. أما بالنسبة إليّ، فقد أنيط بي الدور الذي كانت تريده هاتسومومو! ولكنّ هذا كله قليل الأهمية يا دكتور. إذا كنت تشكّ في استقامة سايوري، سأفهم أنكَ لن تقبل «الإيكوبو» الذي تقدّمه لك.

نظر إليّ الدكتور أكثر من دقيقة، ثم قال أخيراً:

ـ سأطلب إلى أحد أطباء المشفى أن يفحصها.

ـ أحب أن أكون متعاونةً معكَ، ولكن لا أستطيع أن أفرض أمراً كهذا على سايوري. حتى الآن، لم تبدِ أي اهتمام بـ«ميزواجها». لو أن استقامتها في موضع تساؤل، لأهدت «الإيكوبو» لكثيرٍ من الناس، وإني على ثقة بأن كلام هاتسومومو سيجعل معظمهم غير مبالٍ.

لا بدّ أن هذا الكلام كان له تأثير كبير على الدكتور، إذ لم يتحرّك من مجلسه، بل قال:

ـ لا أعرف ماذا أفعل. لأول مرة أجد نفسي في موقف كهذا.

ـ اقبل هذا «الإيكوبو» من سايوري، أرجوك يا دكتور، ولننسَ خسةَ هاتسومومو!

ـ عدد من الفتيات يدبّرن «ميزواجاً» في وقت من الشهر يستطيع فيه الرجل أن يُخدَع. أنا طبيب، ولن تخدعني بسهولة.

ـ ولكننا لا نحاول خداعَكَ!

بقي سرطان جالساً بضعَ دقائق أخرى، ثم نهض وكتفاه مقوّسان، ومرفقاه مدبّبان إلى الخارج. انحنيتُ إلى الأمام لتحيته، ولم أستطع أن أرى إذا كان قد أخذ «الإيكوبو». ولكن عندما ذهب ومامها، رأيت أن العلبة لم تعد موجودةً على الطاولة.

• • •

دور في رقصات الربيع! ظننتُ أن مامها اختلقت هذه القصة لكي تفسّر موقف هاتسومومو. ولكن تصوّر مقدار دهشتي عندما علمتُ أن الخبر صحيح! أو أن مامها كانت تأمل أن أحصل على الدور قبل نهاية الأسبوع.

في ذلك العهد، في الثلاثينات، كان يوجد في جيون ثمانمئة جيشا. و«رقصات العاصمة القديمة» لم تكن تقدّم أكثر من ستين دوراً. وكانت المنافسة الوحشية التي تنجم عن ذلك تفسد كثيراً من الصداقات. تلك السنة، حصلت مامها على الدور الذي كانت ترغب فيه هاتسومومو. كانت أختي الكبرى إحدى الجيشاوات القليلات اللائي

WWW.REWITY.COM

حصلن على أحد الأدوار الرئيسة. كانت هاتسومومو تحلم في أن ترى بومبكين على المسرح. وكان ذلك مستغرباً! فحتى لو أن بومبكين حصلت على جائزة أفضل جيشا متدربة وعلى ثناءات أخرى، فإنها لم تبرع قطُ في فن الرقص.

قبل عدة أيام من تقديمي «الإيكوبو» للدكتور، سقطت إحدى الجيشاوات المتدرّبات في السابعة عشرة من عمرها على الدرج وجرحت في ساقها، وهي من المرشحات للرقص الإفرادي. أثار هذا الحادث فرح كثيرٍ من الجيشاوات المتدربات اللواتي أصبحن مرشحات لهذه الرقصة. أنا من ورثت الدور. في سن الخامسة عشرة، لم أكن بعد قد رقصتُ على المسرح قط. وكنتُ أحس بالقدرة على ذلك. فقد أمضيتُ سهرات وسهرات في الأوكيا أتدرّب على الرقص وتاتي تعزف على الشاميزن. كان مستواي ممتازاً. ولو لم تكن مامها مصرّةً على إخفائي، بسبب هاتسومومو، لربما كنتُ قد رقصتُ منذ السنة السابقة.

عُهد إليّ بالدور في منتصف آذار. بقي لي شهر للتدرّب. كانت المرأة التي تعلّمني الرقص قاسية، وغالباً ما جعلتني أتدرّب بعد الظهر بمفردي. علمت الأم بالخبر قبل العرض بعدة أيام في أثناء مباراة في الماء ـ جونغ. فقد حرصت هاتسومومو ألا تبلغها. عادت إلى الأوكيا وسألتني إن كانوا قد أناطوا بي الدور فعلاً. فأكدت لها الخبر. ذهبت غاضبةً كما لو أن كلبها تاكو قد أضاف بضعة أرقام إلى دفتر حساباتها.

كانت هاتسومومو حانقة، ولكن مامها فرحت لذلك. فلقد أتانا الوقت المناسب لإلقاء هاتسومومو خارج الحلبة. كما قالت لي.

21

بعد ثمانية أيام، مرّت بي مامها أثناء التمرين وهي غاضبة،

فالبارون سيقيم احتفالاً في نهاية الأسبوع القادم لمصمم كيمونوهات يدعى آراشينو. كان البارون يمتلك إحدى أجمل مجموعات الكيمونوهات في اليابان، معظمها قديم، ولكنه كان يشتري أحياناً كيمونوهات من مصممين حديثين. وبما أنه اشترى كيمونو من آراشينو، فقد دعا بعض الأصدقاء لكي يحتفل بهذه المناسبة.

قالت مامها:

ـ في البداية، لم أستطع تذكّره، ولكني مالبثتُ أن تذكرته، إنه أحد أعز أصدقاء نابو! أتعرفين ماذا يعني هذا؟! سأقنع البارون أن يدعو نابو والدكتور، سوف يتكارهان ويرفعان المزاد عندما سيعرفان أنهما يتنافسان على «ميزواجك»!

كنتُ منهكةً، ومع ذلك فقد صفّقتُ بيديّ وهنّأتُ مامها على هذه الفكرة الممتازة. قد تنجح في إقناع البارون بدعوة الرجلين اللذين قد يقبلان الدعوة. سيقبلها نابو لأن للبارون أسهماً في إيوامارا إليكتريك؛ وسيقبلها سرطان لأنه يعدّ نفسه أرستقراطياً رُغمَ أنه لايوجد سوى نبيل واحد بين أجداده، ويرى أن من واجبه أن يقبل أية دعوة تأتي من البارون. المهم هو معرفة ما إذا كان البارون سيدعو هذين الرجلين. فهو لا يحب نابو، قلةٌ من الرجال يحبّونه. أما بالنسبة إلى الدكتور، فالبارون لم يلتقِ به قطُ، كأنه يدعو رجلاً صادفه في الشارع.

وبعد، فقد كان لمامها قدرة غريبة على الإقناع. نُظّم حفل الاستقبال، ودعت أختي الكبرى معلمتي للرقص كي تأذن لي يوم السبت لأتمكّن من الذهاب إلى الحفل. سيبدأ الحفل بعد الظهر، وسيستمر حتى ما بعد العشاء. سنصل أنا ومامها في أوج الحفل. في الساعة الثالثة، استقلّينا ريكشو أوصلتنا إلى بيت البارون. كانت مزرعته تقع في الشمال الشرقي من المدينة في سفح الهضبة. تلك هي زيارتي الأولى لمكانٍ بهذه الروعة، فما رأيته أذهلني. فكّر بهمّ التفصيل عند مصمم الكيمونوهات، فقد حُمّل الهمّ نفسه إلى فن العمارة الداخلية، إلى الديكور وهندسة الحديقة. الجسم الرئيس

www.rewity.com ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

للبناء بناه جد البارون، أما الحدائق التي بدتْ كقطعة واسعة من البروكار فيها تدرّجٌ للون الأخضر، فقد بناها أبوه. كان البيت والحدائق يشكلون كلاً منسجماً منذ أن عمد أخو البارون الأكبر، قبل اغتياله بعام، إلى تجفيف البحيرة لينشئ بحيرةً أخرى أبعد منها. كما إنه أنشأ حديقة من الطحالب مبلّطة تقع بين البيت والجناح الذي كانوا يتأملون القمر منه. راحت بجعات سوداء تدرج شامخة عند البحيرة. سرعان ما أحسستُ بخَرَقي، أنا الصبية التي ترتدي الكيمونو.

سنبدأ بإعداد حفل الشاي، وسيلحق بنا الرجال عندما يصبحون جاهزين. بدلاً من أن نجلس في جناح تقليدي للشاي، صعدنا إلى أحد القوارب الذي كان مربوطاً إلى حافة البحيرة. كان القارب يشبه، بشكله المستطيل، صالوناً عائماً، فيه مقاعد خشبية من كل جهة، في أحد أطرافه وُجد جناح صغير فيه تاتاميات، وله سقف وجدران حقيقية، وستائر ورقية مفتوحة ليدخل الهواء. وفي الوسط حفرة مربّعة مليئة بالرمل تستخدم كمنقل. أشعلت فيه مامها قطعاً من فحم الخشب لتسخين الماء في إبريق فولاذي جميل. حاولتُ أن أكون مفيدةً، فأحضرتُ الأدوات اللازمة للحفل. كنتُ متوترة الأعصاب عندما وضعت مامها الإبريق على الفحم، وقالت:

ـ أنتِ فتاة ذكية يا سايوري! لن أقول لكِ كم سيسوء مستقبلكِ إذا كفّ كلٌ من الدكتور سرطان ونابو عن الاهتمام بكِ. ولكن قليلاً من الغيرة لا يضر. وأنا واثقة من قدرتكِ على ذلك.

لم أؤكد ذلك، ولكني سأحاول، فلا خيار أمامي.

مرت نصف ساعة قبل أن يخرج البارون وضيوفه الستة من البناء ويتجهون نحو القارب. توقّفوا في الطريق لكي يتأملوا الهضاب. أقلعوا. أخذنا البارون إلى وسط البحيرة، وكان يحرّك الصالون العائم بعصا طويلة. أعدت مامها الشاي، فقدمت كوباً لكل ضيف.

بعد ذلك، تنزهنا في الحدائق مع السادة لكي نتوقف أمام زورق

تجسير فسيح. نثرت الخادمات الوسائد على أرضه ووضعن زجاجات الساكي على صوانٍ. جلستُ إلى جانب الدكتور سرطان وبحثتُ عما أقوله له. بدأ هو الكلام حين التفت إليّ، وسألني:

ـ هل اندمل الجرح في فخذك؟

كان جرحي يعود إلى شهر تشرين الثاني، ونحن في آذار. وخلال هذا الفاصل الزمني، رأيتُ الدكتور سرطان عشرات المرات. فلِمَ يسأل عن جرحي بعد هذه المدة الطويلة وأمام هؤلاء المدعوين جميعاً؟ لم يكن لدي من فكرة! لحسن الحظ أن أحداً لم يسمعه، كما إني أجبته بصوتٍ خافت:

ـ شكراً على اهتمامك يادكتور، فبفضلك شفي جرحي بسرعة.

ـ آمل ألا تكون الندبة بشعة.

ـ لا، إنها حدبة صغيرة جداً.

كان بمقدوري أن أنهي الحديث، بأن أقدم له كأساً من الساكي، أو أن أتكلم في موضوع آخر، ولكنه كان يداعب إبهامه، وهو من الناس الذين يقتصدون في حركاتهم، فإذا كان يداعب إبهامه وهو يفكّر بفخذي، فلماذا أغيّر الحديث؟! أضفت:

ـ في الواقع، إنها ليست ندبة. أحياناً عندما أكون في الحمام، وأمرّر إصبعي عليها أحس بنتوء خفيف. مثل هذا، ومثّلتُ له بمفصل سبابتي.

مددتُ السبابة نحو الدكتور لكي يتلمّس النتوء بنفسه. أدنى يده مني بتردد، وفي لحظةٍ بحثت عيناه عن عينيّ، ثم لامس مفصل إصبعي، وتمتم:

ـ إن جرحاً بهذا الحجم يجب أن يندمل دون أن يترك أثراً.

ـ ربما لم تكن الندبة بالحجم الذي قلته. فبشرة فخذي حساسة جداً، وأصغر قطرة مطر تجعلني أرتعش!

كان هذا كله مضحكاً، فقد أدركتُ ذلك. فحدبة صغيرة على فخذي لا تبدو أكبر لأن بشرتي حسّاسة! ومنذ كم من الوقت لم تسقط

WWW.REWITY.COM

قطرة مطر على ساقي؟ ومع ذلك فقد كان الدكتور سرطان يفترسني بعينيه. كان ذلك يثير اشمئزازي وافتتاني في آنٍ معاً. تنحنح وسألني:

ـ وهل تدرّبتِ؟

ـ تدرّبتُ؟!

ـ لقد فقدتِ توازنكِ بينما كنتِ أوه... تفهمين مقصدي . يجب ألا يتكرر هذا . كما إني آمل أن تكوني قد قمتِ ببعض التمرينات، هل لكِ أن تصفيها لي؟

انتصب، وأغمض عينيه، فلن يكتفي بجواب مقتضَب. قلتُ:

ـ ستجدني حمقاء، ولكن كلّ مساء...

صمتُّ. وطال الصمت. بقيت عينا الدكتور مغمضتين كزغلول ينتظر طعامه. تابعتُ:

ـ كل مساء، قبل الدخول إلى الحمّام كنتُ أتدرّب على الاحتفاظ بتوازني في أوضاع مختلفة. أحياناً كان الهواء البارد يجعلني أرتعش عندما يلامس جسدي العاري. ولكني كنتُ أبقى على هذه الأوضاع من خمس إلى عشر دقائق.

تنحنح، وكانت تلك علامة حسنة بالنسبة إليّ، فأضفت:

ـ أحاول أن أبقى متوازنةً على قدم واحدة، ثم على الأخرى، ولكن المشكلة أن...

كان البارون يتحدّث إلى أصدقائه في الناحية الأخرى من زورق التجسير. لا بدّ أنه أنهى كلامه، ففي اللحظة التي كنتُ أقول فيها بصوتٍ عالٍ وواضح:

ـ ...عندما لا أرتدي قطعة من ملابسي واحدة...

وضعتُ يدي على فمي، ولكن قبل أن أجد مهرباً مقبولاً، خاطبنا البارون مازحاً:

ـ أيتها السماء! لا أعرف عما تتحدّثان، أنتما الاثنين، ولكن يبدو لي كلامكما في غاية الأهمية.

انفجر الرجال ضاحكين. هبّ الدكتور إلى نجدتي قائلاً:

ـ أتتني سايوري ـ سان في العام الماضي لكي أدواي جرحاً أصابها في الساق، لقد سقطت فجُرحت. وقد طلبتُ إليها أن تتدرّب على الاحتفاظ بتوازنها.

أضافت مامها:

ـ لقد تدرّبت عليها. يجب التدرّب على ارتداء الكيمونو.

هتف أحد الرجال:

ـ في هذه الحالة انزعي كيمونوكِ.

وضحك الجميع. فقال البارون:

ـ نعم أنا موافق. لم أفهم قطّ لماذا تسعى النساء إلى ارتداء الكيمونو! لا أجمل من امرأة عارية!

قال نابو:

ـ ما عدا امرأة ترتدي كيمونو من تصميم آراشينو!

ردّ البارون:

ـ حتى كيمونو آراشينو لا يمكنه أن يكون بجمال جسد المرأة.

حاول أن يضع كأسه على المنصة أمامه، فانقلب. لم يخطر في بالي قطّ أنه يمكن أن يشرب بهذا القدر! تابع كلامه قائلاً:

ـ لا تفسّروا كلامي تفسيراً سيئاً، فآراشينو واضح الموهبة، وأنا معجب بكيمونوهاته. ولكن إذا ماخيّرتموني بين امرأة عارية وكيمونو، فلن أتردّد!

ردّ نابو:

ـ لن يخيّرك أحد. ولكني أودّ أن يحدّثنا آراشينو عن آخر ابتكاراته.

لم يُتح لمصمم الأزياء الكلام، لأن البارون الذي كان يعبّ آخر جرعة من الساكي كاد أن يختنق وهو يسارع إلى مقاطعته قائلاً:

WWW.REWITY.COM

- أم م ، انتظر لحظة، الرجال جميعاً يحبون أن يروا امرأة عارية، وأنتَ ألا تحبّ ذلك يانابو؟

- بكل تأكيد، ولكن يهمني أيضاً أن يتكلم آراشينو عن آخر ابتكاراته.

- وهذا يهمني أيضاً. ولكنَّ هناك شيئاً يفتنني، خذ رجلين مختلفين جداً وسترى أنهما يتشابهان في العمق. ولا يمكنك أن تكون فوق هذا يا نابو - سان. إننا نعرف حقيقة الأمر، أليس كذلك؟ مامن رجل بيننا لا يدفع غالياً مقابل أن يرى سايوري تستحمُّ. تلك هي إحدى أمنياتي. فلا تقل لي إنك لا تتمنى ذلك أيضاً!

قالت مامها:

- مسكينة سايوري! ماهي إلا متدربة. لربما استطعنا توفير هذا الحديث عليها.

أجاب البارون:

- بالطبع لا! كلما بكُرت في رؤية العالم كما هو كان ذلك أفضل. يتظاهر الرجال بأنهم مهتمون بشيء آخر، ولكن صدقيني ياسايوري، إنهم لايهتمون إلا بذلك! هذه الظهيرة حَلُم رجال هذه الحضرة جميعاً بأن يروك عاريةً. فما قولك في ذلك؟

كنت جالسةً ويداي على ركبتيَّ. أراقب أخشاب القارب، وأجاهد في أن أبدو متحفظةً، لكنَّ يجب عليَّ أن أرد على البارون، ولاسيما أن الجميع كانوا صامتين. وفرَّ عليَّ نابو هذا العناء، فوضع كأس الساكي، ونهض، ثم قال:

- اعذرني أيها البارون! إني لاأعرف أين المرحاض.

كانت تلك طريقةً ليطلب إليَّ أن أرافقه.

وأنا أيضاً لا أعرف أين المرحاض، ولكني لم أكن لأفوت فرصةً كهذه لكي أفارق الجماعة. نهضت، فبادرت إحدى الخادمات بإرشادي إلى الطريق. درنا حول البحيرة، ونابو يمشي خلفي.

عندما وصلنا إلى البيت، مشينا في ممرٍ طويل كسوته الخشبية

فاتحة. من جانب كانت نوافذ، ومن الجانب الآخر كانت واجهات زجاجية تخترقها الشمس. كنت سأرافق نابو إلى آخر الممر حين توقف أمام إحدى الواجهات التي عُرضت فيها سيوفٌ قديمة. وبدلاً من أن يتأمل هذه السيوف، نقر على جدار الواجهة، وتنهد بقوةٍ. لقد كان غاضباً، وكنت محرجة. لم أكن أعرف كيف أشكره لمبادرته إلى نجدتي. أمام الواجهة التالية، وكانت تعرض صور «نتسوكي» منحوتةً في العاج، سألته إن كان يحب التحف القديمة، فقال:

- التحف القديمة مثل البارون؟ بالطبع لا!

لم يكن البارون طاعناً في السن، ونابو يكبره كثيراً، ولكنه كان يراه من بقايا العهد الإقطاعي. قلتُ:

- اعذرني. لقد كنت أقصد القطع القديمة الموجودة في الواجهة.

- عندما أنظر إلى هذه السيوف، فإنها تذكّرني بالبارون. وعندما أنظر إلى هذه «النتسوكي»، كذلك تذكرني بالبارون. لقد انتشلنا هذا الرجل من أزمة مالية، وأنا مدينٌ له بالكثير، ولكني لاأقبل أن يستولي على أفكاري. هل يجيب هذا على سؤالك؟

انحنيت أمامه. ابتعد بخطىً كبيرة باتجاه المرحاض. كان مسرعاً بحيث إني لم أستطع الوصول إلى الباب قبله.

عدنا إلى ضفة البحيرة. وانتهى الاستقبال، فأحسست بالارتياح. ثلاثة رجالٍ بقوا للعشاء. سارعتُ ومامها إلى مرافقة الآخرين نحو الشبك الحديدي. كان سائقوهم ينتظرونهم في زقاق قريب. حيينا آخر ضيف، وعدنا، فكانت إحدى خادمات البارون بانتظارنا لترافقنا حتى البيت.

• • •

أمضيت ومامها الساعة التالية في جناح الخادمات. تعشّينا طعاماً لذيذاً وبخاصةٍ الـ«التاي نو أوزو جيري»، وهو عبارةٌ عن شرائح رقيقة من سمك المرجان مقدمةً في أطباقٍ على شكل أوراق

WWW.REWITY.COM

الأشجار. ومع هذا السمك حساءً «بونزو». كنت سأمضي وقتاً لطيفاً لو لم تكن مامها مكفهرَّة الوجه. قضمت قطعتين أو ثلاث قطع من السمك، ثم غرقت في تأملٍ للنهار المنصرم. لابد أنها كانت تحب العودة إلى ضفة البحيرة لتطلق العنان لغضبها.

انضممنا إلى البارون وضيوفه، وكانوا ما يزالون جالسين إلى الطاولة في القاعة التي كان يسميها البارون «قاعة الموائد الصغيرة»، والتي تتسع لخمس وعشرين ضيفاً. بقي على العشاء السيد آراشينو ونابو وسرطان. كانوا يأكلون في صمت مطبق، وقد تَغَتَّعَ السكرُ البارونَ حتى بدت عيناه تتقطران في محجريهما.

بدأت مامها الحديث. مرَّر الدكتور سرطان فوطةً على شاربه بعناية، ثم اعتذر، فقد كان يريد الذهاب إلى المرحاض. رافقته في الممر الذي مشيت فيه مع نابو، وكان الظلام قد خيم. المصابيح السقفية تمدُّ الواجهات بالضوء، بالكاد كنت أرى القطع داخلها. توقف الدكتور أمام واجهة السيوف. حنى رأسه من زوايا مختلفة لكي يرى بصورة أفضل، ثم قال لي:

ـ أنت تعرفين البيت جيداً.

ـ أوه لا ياسيدي! إني تائهةٌ في هذا البيت الواسع. لقد رافقت نابو إلى المرحاض منذ بعض الوقت، لذا فأنا أعرف طريقه.

ـ لابد أن هذه التحف لم تلفت نظره. فرجلٌ مثل نابو لايمكن له أن يقدر هذه الأشياء الراقية.

لم أعرف بما أجيبه، لكنه نظر إليَّ بإلحاح، ثم قال:

ـ ليست لديك خبرةٌ كبيرة في الناس. لكن مع الزمن ستتعلمين كيف تحذرين شخصاً يتواقح ويقبل دعوة رجل مثل البارون، ثم يشتمه تحت سقفه، كما فعل نابو بعد الظهر.

انحنيت عندما تأكدت من أنه لم يعد لديه مايضيفه، وتابعت طريقي أمامه إلى المرحاض.

عدنا إلى قاعة الولائم، وكان الرجال يتحدثون حديثاً صاخباً،

WWW.REWITY.COM

وذلك بفضل مامها التي كانت صامتةً وفعالةً في آن واحد. كانت تجلس متراجعة عن الطاولة، وتقدم الساكي. غالباً ما كانت تقول لي إن دور الجيشا يقوم على تحريك الحساء، فضربةٌ أو ضربتان من القضيب تكفيان لتبديد الميزو من الطبق.

تفرع الحديث حول الكيمونوهات. ثم نزلنا إلى القبو حيث متحف البارون الذي جلس على مقعدٍ طويل القوائم وسط القاعة، وغرز مرفقيه على ركبتيه، وترك مامها تؤدي الزيارة، وبقيتْ عيناه زائغتين. فاز الكيمونو الذي وضع عليه رسم مدينة كوبي بالإجماع، وكوبي تقع في سفح الهضبة وتنزل إلى البحر. بدأ الرسم عند الأكتاف مع سماء زرقاء وغيوم. ومنحدر الهضبة يتبدد عند الركبتين، وبعد ذلك يُشكل الكيمونو ذيلاً أزرق وأخضر كالبحر. كما تُشاهد أمواجٌ مذهبة وقوارب صغيرة. قال البارون:

ـ عليك يا مامها أن تلبسي هذا الكيمونو في عيد الربيع الذي سأحتفل به في هاكوني الأسبوع القادم. سيكون ممتازاً، أليس كذلك؟

ـ أحب ذلك كثيراً أيها البارون، ولكني أخشى ألا أستطيع الحضور هذه السنة. أظن أني قلت لك ذلك منذ عدة أيام.

لم يكن البارون سعيداً، استنفر حاجباه كجنديين يتأهبان لصد عدوٍ، ثم سألني:

ـ كيف هذا؟ ما هو الموعد الذي لايمكنك أن تلغيه من أجلي؟

ـ أحب أن آتي ولكن هذا غير ممكن هذه السنة، فلدي موعد مع الطبيب.

ـ مع الطبيب؟ وماذا بعد؟ يمكن لهذا الطبيب أن يراك في يوم آخر! اتصلي به غداً لإلغاء الموعد. يجب أن تحضري في حفل استقبالي ككل سنةٍ.

ـ أرجوك أن تعذرني أيها البارون، فقد أخذت هذا الموعد منذ عدة أسابيع وبموافقتك. إني مضطرة للذهاب.

ـ لا أذكر أني أعطيتك موافقتي! وبعد، أنتِ تتصرفين وكأنه يجب عليك أن تجهضي...

تبع ذلك صمت مشحون. أعادت مامها كُمَيها إلى مكانيهما، ولم يُسمع لحظتها إلا صوت تنفس آراشينو الصافر. التفت نابو الذي لم يُعِرْ انتباهه لهذا الحديث لكي يرى ردة فعل البارون.

قال البارون:

ـ حسنٌ، لا بدّ أني نسيت، والآن أنتم تتكلمون، لا يمكن أن يكون لدينا بارونات يجرونِ في كل مكان، أليس كذلك؟ وبعد، فقد وَجَبَ عليكِ يا مامها أن تذكّريني بذلك على انفراد.

ـ أنا آسفة أيها البارون!

ـ لا يمكنكِ أن تأتي إلى هاكوني، عظيم، لن يلوم كلٌّ منا الآخر. وأنتم الآخرون؟ تعالوا! إني أقيم احتفالاً كل سنة، عندما يزهر الكرز.

كان الدكتور وآراشينو مرتبطَين، ونابو لم يُجب. وعندما ضغط عليه البارون ليعطي رأيه قال:

ـ أتعتقد حقاً أني سأذهب حتى هاكوني لكي أرى الكرز يُزهر؟

ـ أوه، ماالكرز إلا ذريعة لإقامة احتفال. ولكن لابأس، سيكون رئيسكَ هناك. إنه يأتي كل سنة.

اضطربتُ لسماع الحديث عن الرئيس. غالباً ما فكّرتُ فيه في هذه الظهيرة. أحسستُ أن سرّي سيُفشى ذات يوم.

قال البارون:

ـ أنا حزينٌ لأن أحداً منكم لن يحضر. كنا نُمضي وقتاً ممتعاً قبل أن تأتي مامها وتقول كلاماً كان حرياً بها ألا تقوله. هذه عقوبتكِ يا مامها: أنتِ لم تعودي مدعوةً إلى استقبالي هذه السنة. وسترسلين سايوري بدلاً عنكِ.

ظننتُ أن البارون يمزح. ثم فكرتُ كم هو ممتع أن أتنزّه مع

الرئيس على عشب إحدى المزارع بدون نابو، وبدون سرطان، وبدون مامها!

قالت مامها:

ـ فكرةٌ جيدة أيها البارون. ولكن للأسف سايوري لن تستطيع المجيء لأن لديها تدريب.

ـ كيف ذلك؟ سوف تأتي! لماذا يجب عليكِ أن ترفضي كل ما أطلبه إليكِ؟

بدا مغتاظاً جداً. فقد سَكِرَ وأخذ اللعاب يسيل من فمه. حاول أن يمسحه بظاهر يده، ولكنه انتشر على لحيته السوداء. تابع:

ـ إذاً، لن أستطيع أن أطلب إليكِ شيئاً بعد الآن؟ أريد أن تأتي سايوري إلى هاكوني. يكفي أن تقولي: «نعم أيها البارون»، وينتهي الأمر.

ـ نعم أيها البارون!

ـ حسنٌ.

انتصب على كرسيه العالي، وتناول منديلاً من جيبه ومسح وجهه.

حزنتُ على مامها، ولكن كم أثارتني فكرة حضور حفل استقبال البارون! كلما فكرتُ فيه وأنا في الريكشو التي أقلّتنا إلى جيون، صعدت الدموع إلى عينيّ. كم خشيتُ أن تلاحظها مامها! ولكنها كانت تنظر إلى الطريق بإمعان. لم تتكلّم طوال الطريق. وعندما وصلنا إلى جيون، التفتت إليّ وقالت:

ـ عِديني أن تنتبهي جيداً في هاكوني يا سايوري!

ـ نعم يا سيدتي!

ـ المتدرّبة التي تقترب من يوم «ميزواجها»، هي كالطبق الذي يقدّم إلى المائدة. ما من رجل يرغب في الأكل منه إذا ما شكّ أن رجلاً آخر أكل منه.

www.rewity.com ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

لم أستطع النظر إلى عينيها بعد أن قالت لي ذلك. كنتُ أعرف أنها تقصد البارون.

22

في ذلك العهد، كنتُ أجهل أين تقع هاكوني، في شرق اليابان، بعيداً جداً عن كيوتو. طوال الأسبوع، كنتُ أتلذّذ بكوني مهمةً، فأنا ضيفة البارون! عندما جلستُ في المقصورة من الدرجة الثانية وجدتُ عناءً في إخفاء تأثّري. جلس السيد إيتشودا، مُلبِس مامها، من جهة الممر ليمنع عني الفضوليين. تظاهرتُ بقراءة مجلة، ولكني كنتُ أقلّب صفحاتها فقط، ومن طرف عيني، كنتُ أنظر إلى الناس وهم يمرون في الممر، فكانوا يتباطؤون للنظر إليّ، فقدّرتُ علامات الاهتمام هذه. وصلنا إلى شيزووكا عند الظهر. وبانتظار قطار هاكوني، أحسستُ ببعض الضيق. فالصورة التي كنتُ أطردها منذ الصباح ما فتئت تلحّ عليّ: رأيتُ نفسي على رصيف آخر مع السيد بيكو يومَ انتُزعنا من بيتنا أنا وأختي. منذ بضع سنوات، وأنا أحاول طرد صورة ساتسو وأبي وأمي وبيتنا السكران من أفكاري. لقد عشتُ وأنا أضع غِمامات على عينيّ. ويوماً بعد يوم، كنتُ أرى جيون ولا شيء آخر، حتى وصلتُ إلى حدّ الاعتقاد أنها مركز العالم. وعندما وجدتُ نفسي خارج كيوتو، فكرتُ أن معظم الناس لا يعرفون شيئاً عن ذلك الحي. لم أستطع الامتناع عن التفكير في حياتي الماضية. الألم شيءٌ غريب لأننا نقف عاجزين إزاءه. بالنسبة إليّ، إنه يذكّرني بنافذةٍ تنفتح على هواها، فتبرد القاعة ولا نستطيع إلا أن نرتعش، ولكن النافذة تنفتح في كل مرة أقل من المرة السابقة، وهكذا يتآكل الألم.

في صباح اليوم التالي، أتت سيارة لتأخذني من الفندق الذي كانت غرفتي فيه تطلّ على جبل فوجي. وصلتُ إلى بيت البارون

الصيفي. تقع تلك المزرعة في غابة على ضفة بحيرة. سارت السيارة في طريق دائري، ونزلتُ أمام البيت مرتديةً الزي الكامل لمتدرّبةٍ من كيوتو. نظر إليّ الضيوف، وكانت بينهم ما يقارب عشر نساء، بعضهنّ يلبسن كيمونوهات، والأخريات يلبسن فساتين على الزي الغربي. معظمهنّ كنّ جيشاوات من كيوتو، فقد كنا على بعد ساعتين بالقطار من العاصمة. بدا البارون آتياً من جولة في الغابة مع بعض مدعويه. هتف:

ـ هذا ماكنا ننتظره! انظروا إلى هذه الأعجوبة! إنها سايوري من جيون. وذات يوم ستصبح: «سايوري العظيمة من جيون». عيناها رائعتان، وانتظروا لتروا مشيتها! لقد دعوتكِ يا سايوري لكي يشاهدك ضيوفي. كما إن عليكِ مسؤولية كبرى، أن تتنزّهي في كل مكان في البيت، على ضفة البحيرة، وفي الغابة، في كل مكان! والآن، هيا إلى العمل!

بدأت أقوم بجولة حول المزرعة كما طلب البارون. مررت بجانب أشجار الكرز المزهرة، انحنيتُ هنا وهناك أمام الضيوف وأنا أبحث خلسةً عن الرئيس. كنتُ أمشي ببطء، فعند كلّ خطوتين أو ثلاث خطوات، كان يستوقفني أحد الرجال، ويهتف: «جيشا متدرّبة من كيوتو! ياعدل السماء!» مُخرِجاً آلة التصوير، ثم يطلب من أحدهم أن يصوّرنا معاً، أو يمشي معي حتى الجناح الذي يمكن منه تأمل القمر، على ضفة البحيرة، لكي يتمكّن أصدقاؤه من النظر إليّ، كما كان سيفعل لو كانت معه مخلوقة تنتمي إلى ما قبل التاريخ اصطادها في شبكته. لقد أخطرتني مامها مسبقاً: سيُعجَب الضيوف بلباسكِ، إذ لا شيء يشبه لباس جيشا متدرّبة من جيون. فجيشاوات كيوتو متحررات، لذا فهنّ يلبسن فساتين على النمط الغربي.

بدا ذلك الاحتفال وكأنه لن ينتهي. حوالى منتصف الظهيرة، فقدتُ عملياً كلّ أملٍ في رؤية الرئيس. دخلتُ إلى البيت بحثاً عن مكان أستريح فيه عندما أحسستُ فجأةً أنّ قواي قد خارت؛ إنه هناك! كان خارجاً من الصالون ليودّع رجلاً على العتبة، ثم التفت إليّ وقال:

WWW.REWITY.COM

ـ سايوري! كيف فعل البارون لكي يجذبكِ إلى هنا؟ حتى إني أجهل أنكما تعرفان بعضكما البعض!

عانيت كثيراً في تحويل عينيّ عن وجهه. وعندما استطعتُ أخيراً، انحنيتُ وقلتُ له:

ـ لقد أرسلتني مامها ـ سان إلى هنا بدلاً عنها. سعادتي لا توصف لرؤية الرئيس!

ـ وأنا أيضاً سعيد برؤيتكِ. ساريكِ الهدية التي حملتها للبارون، ستقولين لي رأيكِ فيها. تدغدغني رغبةٌ في أن أذهب دون أن أقدمها له.

تبعته إلى صالونٍ فيه تاتاميات وكأنه طائرة ورقية في طرف خيط. كنتُ في هاكوني بعيدةً عن عالمي الأليف مع رجلٍ فكّرتُ فيه مرات في اليوم منذ عدة سنوات! كان يمشي أمامي، فأعجبتُ بمشيته في بدلته الصوفية. بدت لي عضلة ربلته وتجويف عموده الفقري كفلقة بين جذري شجرة. تناول غرضاً عن الطاولة وناولني إياه، بدا كأنه قطعة ذهبية منحوتة. كان علبة مكياج، من صنع أراتا كونروكو، تعود إلى عصر إيدو. ظهرتْ على شكل وسادة صغيرة من اللّك المذهّب مع طيور كركي سوداء ووعول تتقافز. كانت آية في الجمال! حبستُ أنفاسي وأنا انظر إليها. قال:

ـ هل تظنين أنها ستعجبه؟ لقد وجدتها في الأسبوع الماضي. سرعان ما فكّرتُ أن أهديها للبارون، ولكن...

ـ كيف يمكن أن تظن أنها لن تعجبه، أيها الرئيس؟

ـ أوه، هذا الرجل يمتلك كمّاً هائلاً من الأشياء الثمينة! لربما عدّ هديتي عملاً من الدرجة الثالثة.

أكّدتُ للرئيس بأنه مخطئ، وأعدتُ له العلبة. غلّفها بغلافٍ حريري، وأومأ إليّ أن أتبعه. في الممر، ساعدته على انتعال حذائه، مُرْشِدَةً قدمه برؤوس أصابعي. تخيّلتُ أننا أمضينا الظهيرة معاً، وأن سهرةً طويلةً ما تزال أمامنا. أوقعني هذا الخاطر في لجّة من

WWW.REWITY.COM

الحبور، فنسيتُ ما حولي! لم يبدِ الرئيس أي نفاد صبرٍ، وبالمقابل، أردتُ تماماً أن أعطي وقتاً مجنوناً لانتعال «أوكوبي».

سلكتُ والرئيس درباً يؤدي إلى البحيرة. وجدنا البارون جالساً تحت شجرة كرز برفقة ثلاث جيشاوات من كيوتو. نهضن، وعانى البارون في النهوض، فقد ظهرت بقع حمراء على وجهه من فرط الشراب.

قال:

ـ أيها الرئيس! أنا سعيد لوجودكَ هنا! شركتكَ تزدهر أكثر فأكثر على ما يبدو. هل أخبرتكَ سايوري أن نابو حضر حفل الاستقبال الذي أقمته الأسبوع الماضي؟

ـ نابو هو الذي أخبرني. لقد أمتعكَ بحديثه على ما أتصوّر.

ـ بكل تأكيد. نابو رجل طيب قصير ومسلٍّ، أليس كذلك؟

لم أفهم ما رمى إليه البارون بكلامه، فهو أقصر من نابو. بدا أن الرئيس لم يقدّر الملاحظة، فرفّ أجفانه.

أردف البارون:

ـ أقصد...

قاطعه الرئيس قائلاً:

ـ لقد أتيتُ لأشكركَ وأودّعكَ. ولكن أولاً، أريد أن أقدّم لكَ هذه الهدية.

قدّم العلبة للبارون الذي كان أثمل من أن يستطيع فتح الغلاف الحريري، فطلب إلى إحدى الجيشاوات أن تفتحه. ثم قال:

ـ ما أجملها! أليس كذلك أيتها السيدات؟ انظرن! هل ستكون هذه العلبة أجمل من الصبية التي ترافقكَ؟ هل تعرف سايوري، أيها الرئيس؟ سأعرّفكَ بها.

ـ أوه، إننا نعرف بعضنا.

ـ نعم؟ أتعرفها ما يكفي لأحسدك؟

كان البارون الوحيد الذي ضحك على دعابته. ثم قال:

ـ هذه العلبة الرائعة تذكّرني بهدية سأقدّمها لكِ يا سايوري. ولكني سأقدّمها بعد أن تنصرف هذه الجيشاوات، وإلا فإنهن سيطلبن هدايا مثلك.

ـ البارون رجل في غاية الطيبة، ولا أريد أن أزعجه.

ـ أرى أن مامها علّمتكِ أن تقولي لا لكل شيء! لاقيني في المدخل بعد ذهاب الضيوف. أقنعها أن تبقى أيها الرئيس!

لو لم يكن البارون في غاية السكر لكان بكل تأكيد رافق الرئيس بنفسه. تودّع الرجلان، فرافقتُ الرئيس حتى سيارته. وعندما فتح له سائقه الباب، انحنيتُ وشكرته على لطفه. ولحظة صعوده إلى السيارة توقّف وقال:

ـ سايوري!

بدا وكأنه لا يعرف كيف يبدأ كلامه، لكنه قال:

ـ هل حدّثتكِ مامها عن البارون؟

ـ قليلاً يا سيدي! ولكن لا أعرف ما ترمي إليه.

ـ هل مامها أخت كبرى فطِنة؟ هل أطلعتكِ على الأمور التي يجب أن تعرفيها؟

ـ نعم، نعم، أيها الرئيس. لقد كانت لي دوماً نِعم الناصحة.

ـ حسنٌ، لو كنتُ في مكانكِ لأخذتُ حذري عندما يقول لي رجلٌ إنه يريد شيئاً ما مني.

لم أعرف ماذا أجيبه، ولكني قلتُ إن البارون كان طيباً إذ فكّر بي. فقال:

ـ نعم، جيد جداً. لا أشكّ في ذلك. ولكن انتبهي إلى نفسك.

احتضنني بنظرة عاصفة قبل أن يدخل إلى سيارته.

أمضيتُ الساعة التالية في التنزّه مع الضيوف القلائل الذين بقوا وأنا أتذكّر كلام الرئيس. بدلاً من أن أقلق من تحذيره لي، فرحت: لقد

كلّمني الرئيس طوال ساعات! وكنتُ أسعد من أن أفكّر بموعدي مع البارون. فكّرتُ به عندما وجدتُ نفسي وحيدةً في المدخل عند الأصيل. جلستُ على تاتامي في الصالون، ورحتُ أتأمّل الخضرة من النافذة الزجاجية.

مرت عشر دقائق، ثم ظهر البارون في الردهة، فتملّكني القلق مذ رأيته: كان يرتدي ثوب الحمام، ويجفّف شعر لحيته الأسود بمنشفة. لا بدّ أنه خارج من الحمام. نهضتُ وانحنيتُ أمامه، فقال:

ـ لستُ في وعيي يا سايوري. لقد أفرطتُ في الشرب.

حقاً لقد شرب كثيراً من الساكي. لكنه قال:

ـ لقد نسيتُ أنكِ تنتظريني! أرجو أن تسامحيني عندما سترين الهدية التي أخبّئها لكِ.

مشى في الممر مبتعداً وهو ينتظر أن أتبعه إلى داخل البيت. لم أتحرّك وأنا أفكّر بما قالته لي مامها: المتدرّبة التي تقترب من يوم «ميزواجها» هي كالطبق الذي يقدّم إلى المائدة. مامن رجل يرغب في الأكل منه إذا ما شكّ أن رجلاً آخر أكل منه.

توقّف، وقال:

ـ تعالي!

ـ لا أستطيع أيها البارون. اسمح لي أن أنتظركَ هنا، أرجوك.

ـ لدي شيء سأعطيكِ أياه. ادخلي معي إلى البيت، ولا تكوني حمقاء!

ـ سامحني أيها البارون على حماقتي!

ـ غداً ستعودين إلى تحت رقابة مامها. أما هنا فلا أحد يراقبك.

لو كان لديّ حبةٌ من الحس السليم، لشكرتُ البارون على دعوته لي، ولقلتُ له:«سامحني على سوء فهم لطفكَ، ولكني بحاجةٍ إلى سيارتك للعودة إلى الفندق». ولكن تملّكني انطباع بأني أعيش في الخيال وكنتُ كالمشلولة.

تابع قائلاً:

WWW.REWITY.COM

ـ تعالي معي! أريد أن ألبس ثيابي. هل شربتِ كثيراً من الساكي بعد الظهر؟

طال صمتٌ، كان وجهي خلاله بلا تعابير. قلتُ أخيراً:

ـ لا يا سيدي!

ـ هذا لا يفاجئني. سأعطيكِ كل ما تريدين. تعالي!

ـ أرجوكَ، أيها البارون، إنهم ينتظرونني في الفندق.

ـ ينتظرونكِ؟ من ينتظرك؟

لم أُجب. فقال:

ـ سألتكِ: من ينتظركِ؟ لا أفهم لماذا تتصرّفين على هذا النحو. لكِ عندي هدية، هل تفضّلين أن أجلبها لكِ؟

ـ آسفة!

تفحّصني بثبات، ثم قال:

ـ انتظريني هنا.

غاب دقيقتين، ثم عاد حاملاً علبة جميلةً مغلّفةً بورقٍ حريري. إنها كيمونو. قال:

ـ هي ذي، بما أنكِ تتصرّفين كغبية، فقد ذهبتُ بنفسي وجلبتُ لكِ الهدية. أيطمئنكِ هذا؟

كررتُ أسفي له، فقال:

ـ رأيتُ كم أعجبكِ هذا الكيمونو في المرة الماضية، لذا أقدّمه لكِ.

وضع العلبة على الطاولة، ثم فكّ الخيط الذي كان يربطها. ظننتُ أنه الكيمونو الذي عليه رَسْم مدينة كوبي. تمنيتُ ذلك وخشيته في آنٍ واحد، فماذا سأفعل بكيمونو بهذا الجمال؟ وكيف سأعترف لمامها بأن البارون هو الذي أهدانيه. فتح العلبة.

ظهر قماش فاخر أزرق بلون الليل مع خيوط مبرنقة وتطريزات

مفضّضة. بسط الكيمونو أمام ناظري. لا بدّ أنه كان في المتحف. فقد صُنع خصيصاً لابنة أخ آخر شوغون، توكوغاوا يوشينوبو في العام 1860، وكان عليه رسم مفضّض يمثّل طيوراً في سماءٍ ليلية، وفي الأسفل منظر غامض فيه أشجار وصخور. قال البارون:

ـ ستأتين معي لكي تجرّبيه. لا تكوني غبية! أنا أعرف كيف أربط لكِ الأوبي. وسألبسكِ ثيابكِ من جديد، ولن يعلم أحدٌ بشيء.

كنتُ مستعدّةً لمقايضة الكيمونو الذي سيعطيني إيّاه البارون بوسيلة للخروج من ذلك المأزق. ولكن كان لذلك الرجل سلطة كبيرة! حتى مامها كان عليها أن تستجيب لرغباته! فكيف لي أن أقاوم؟ أحسستُ بأنه بدأ يفقد صبره. فقد بدا في غاية الطيبة معي منذ البداية، وأحياناً كان يدعني أحضر إحدى ولائمه، وقد دعاني إلى حفل استقباله في مزرعته في كيوتو. وها هو الآن يبدو معطاءً، إذ يقدّم لي هذا الكيمونو.

وصلتُ إلى الخاتمة التي لا مناص منها: يجب أن أطيعه وأتحمّلَ النتائج مهما كانت. أخفضتُ بصري خَجَلى نحو التاتاميات، ثم، رأيتُ البارون وأنا في حالة من الذهول، يمسك بي من يدي ويقودني في الممر الطويل المؤدي إلى داخل البيت. ظهرت إحدى الخادمات وهي خارجة من إحدى الغرف. لم ينبس بكلمة، بل قادني إلى صالون كبير فيه تاتاميات، ومرايا كبيرة تغطي الجدار بأكمله، كانت تلك الغرفة هي الدريسينغ. ومقابله كانت خزائن الملابس مغلقة كلها.

أخذت يداي ترتجفان من الخوف. لم يُبدِ البارون أنه لاحظ ارتعاشي. أجلسني أمام المرآة، وأدنى يدي من شفتيه. ظننتُ أنه سيقبّلها، ولكنه مرّر ظاهرها على شعر لحيته الناعم. ثم قام بفعل وجدته غريباً: شمّر كمّي، كاشفاً معصمي، وشم داخله. وخزتني لحيته، ولكني لم أحسّ بذلك حقاً، فقد كنتُ كالمخدّرة، المضطربة، المرعوبة. أخرجني البارون من هذا الخدر، وقف خلفي ومرّر يديه تحت صدري لكي يفكّ «أوبيجيمي»، الخيط الذي يثبّت أوبيّ في مكانه.

WWW.REWITY.COM

لحظة قرأتُ نية البارون؛ أصابني الرعب: فهو يعرّيني. حاولتُ أن أحتجَّ، ولكن لم يخرج أي صوت من فمي. قال بضع كلمات ليهدّئني. حاولتُ أن أمنعه بيديّ، فدفعهما، ونجح في فكّ «أوبيجيمي». بعد ذلك، تراجع ودأب وقتاً طويلاً على عقدة أوبيّ بين لوحَي كتفي.

توسّلتُ إليه، بصوت ضعيف خرج جافاً من حلقي، ألا يفكّه. وحاولتُ مراراً أن أتكلّم، لكنني عييتُ عن الكلام. حاول أن يبسط الأوبي الطويل وهو يُدني يديه من خصري ويبعدهما. سقط منديل الرئيس على التاتامي، وتكوّم الأوبي على الأرض، وفكّ «الداتيجيم»، وهو شريط من القماش ملفوف على خصري تحت الاوبي. أحسستُ بكيمونوي يرفرف حول جسدي، إحساس مرعب، فلممته إلى جسمي بكلتا يديّ، فباعدهما البارون. لم أعد أطيق أن أنظر إلى نفسي في المرآة. أغمضتُ عينيّ لحظةً نضا عني الكيمونو في حفيف رهيب للحرير.

يبدو أن البارون وصل إلى الهدف الذي سعى إليه. على الأقل، فقد توقّف عن تعريتي. أحسستُ بيديه على خصري، تداعبان نسيج لباسي الداخلي. فتحتُ عينيّ من جديد. كان يقف خلفي ، يستاف شعري وعنقي. ينظر بثبات إلى الشريط الذي يلتفّ حول لباسي الداخلي. في كل مرة كنتُ أحسّ بيديه تتحركان، فأحاول إيقافهما بقوة أفكاري. أخذت أصابعه تسرح وتمرح على بطني وكأنها عناكب. انزلقت تحت حزامي . حاولت أن أوقف زحفها، ولكنه أبعد يديّ كما فعل آنفاً. أخيراً استسلم الشريط وتهاوى على الأرض. خارت ساقاي. عندما أخذ يفكّ أربطة لباسي الداخلي أحسستُ أن الغرفة غاصت في جو من الضباب الكثيف. اضطررت إلى الامتناع من جديد عن مقاومة يديه.

قال:

ـ لا تقلقي يا سايوري! لن أسيء أليكِ، كل ما أريده هو أن ألقي نظرة، أفهمتِ؟ لا ضير في ذلك. أي رجل يفعل ذلك.

بعض شعرات لحيته كانت تخز أذني. أدرتُ رأسي، ففهم البارون أن ذلك موافقة: غدت يداه أكثر جرأةً. فتح كيمونوي، وأحسستُ بأصابعه على أضلاعي محاولاً أن يفكّ أربطة لباسي الداخلي الأخيرة. بعد عدة ثوانٍ أفلح. ارتعشتُ لفكرة ما يمكن أن يراه. تابعتُ حركاته في المرآة ورأسي ما يزال مائلاً. صار لباسي الداخلي مفتوحاً على عريي.

نشطت يدا البارون على ردفيّ، وهاجمتا «كوشيماكيّ». ذلك الصباح، كنتُ قد شددتُ «كوشيماكيّ» أكثر من المعتاد، فعانى البارون في فكّه. شدّ القماش مرتين أو ثلاث مرات، فاستسلم، ثم نزع الكوشيماكي بحركةٍ واحدة من تحت لباسي الداخلي. عندما انزلق الحرير على جلدي، رحتُ أبكي. مددتَ يدي إلى الكوشيماكي. فأبعده البارون عن متناولها، ثم رماه على الأرض. وببطءٍ من يرفع غطاءً عن طفل نائم، فتح البارون لباسي الداخلي وهو يحبس أنفاسه وكأنه يكتشف أمراً عظيماً. أحسستُ بحلقي يحرقني، وأوشكتُ على البكاء. كنتُ لا أطيق فكرة أن يراني البارون باكيةً وعاريةً في آنٍ معاً. حبستُ دموعي وأنا أنظر إلى المرآة. نما لدي انطباع بأن الزمن قد توقّف. ما رأيتُ نفسي عاريةً قطّ قبل تلك اللحظة. كنتُ ما أزال ألبس تابيّ، ولكن أحسستُ أنني أكثر عرياً، ولباسي الداخلي مفتوح مما لو كنتُ في الحمام. كان نظره يتوقّف، هنا وهناك، على صورتي في المرآة. فتح اللباس الداخلي ليرى خصري أكثر، ثم أخفض بصره إلى الأسفل، نحو المنطقة الداكنة التي ظهرت على عانتي منذ بضع سنوات. بقي نظره مثبّتاً لبعض الوقت على هذه العانة، ثم صعد ببطء إلى بطني وأضلاعي وإلى الهالتين البنيّتين خوخيّتي اللون، إلى الأولى أولاً، ثم إلى الأخرى. ترك البارون اللباس من الناحية التي كانت ماتزال تغطّي نهدي الأيمن. غابت يده على ظهري، وانزلق ثوب حمّامه عن كتفيه. لم أفهم ما كان يفعله. اليوم أعرف، ولكني لا أريد ان أتخيّله. أحرق نفَسه نقرتي بإيقاع حاد. بعد ذلك، لم أعد أرى شيئاً. صارت المرآة ضباباً: رحتُ أبكي.

هدأت أنفاس البارون. كنت خائفة، وجلدي يحرقني ويتقصّد

WWW.REWITY.COM
ARAYAHEENA

عرقاً. ترك الطرف الآخر من لباسي الداخلي، فأحسست بتيّار هوائي بارد. ألفيتني وحيدةً في الغرفة، فقد خرج البارون دون أن أتنبّه له. قرفصت باضطراب على الأرض لأجمع ثيابي كطفل جائع ظفر ببقايا طعام.

كانت يداي ترتعشان. لبستُ ملابسي بأفضل ما أمكن، بعد لباسي الداخلي، وبعد أن ربطتُ الشريط القماشي الذي يثبّته. لم أستطع إتمام اللبس بمفردي. انتظرتُ أمام المرآة الكبرى وكان مكياجي بحاجة إلى إصلاح جذري، وهذا ما أقلقني. لو لزم الأمر لانتظرت ساعة في تلك الغرفة. عاد البارون بعد عدة دقائق، وحزام ثوب حمامه معقود على بطنه المنتفخ. ساعدني على ارتداء الكيمونو دون أدنى كلمة، ثم عقد «الداتيجيم» بالسهولة نفسها التي يعقده بها السيد إيتشودا. بينما كان يمسك أوبيّ بيده وهو مطوي عدة طيات، أحسستُ بالضيق. انفرض سبب هذا الضيق عليّ كما يبلل الماء القماش: لقد فعلتُ أمراً زرياً. لم أكن أريد أن أبكي أمام البارون ولكني لم أستطع كبح دموعي. ومع ذلك، لم ينظر إليّ البارون منذ أن عاد إلى الغرفة. ولكي أجعل الأمر محتملاً، قلتُ لنفسي: إني بيتٌ يقف بجرأة تحت المطر، والماء يتقطّر على واجهتي. لا بدّ أن البارون رآني أبكي، فقد خرج من الغرفة، ليعود مسرعاً حاملاً منديلاً طرّزت عليه الأحرف الأولى من اسمه. طلب إليّ أن أحتفظ به، ولكني ما إن استخدمته، حتى تركته على الطاولة.

رافقني من جديد في الردهة، ثم ابتعد دون أن يتكلّم.

أتى أحد الخدم حاملاً الكيمونو الملفوف بورق حريري. ناولني إياه وهو ينحني، ثم شيّعني حتى سيارة البارون. في طريق العودة إلى الفندق، بكيت بهدوء على المقعد الخلفي، لكن السائق تظاهر بأنه لم يرَ شيئاً. لم أكن أبكي على ماحدث، بل كنتُ خائفة، وتساءلتُ كيف سيتصرّف السيد إيتشودا عندما يرى مكياجي في تلك الحال. ثم إنه سيخلع عني ملابسي ويرى عُقدة أوبيّ السيئة. سيفتح العلبة ويرى الكيمونو الفاخر، هدية البارون لجيشا متدرّبة. قبل أن أنزل من السيارة، مسحتُ وجهي بمنديل الرئيس، ولكن هذا لم يصلح الأمر.

نظر إليّ السيد إيتشودا نظرة خاطفة وهو يحكّ ذقنه، وكأنه يحاول أن يخمّن ما حدث لي. فكّ أوبيّ في غرفة في الطابق الأول، ثم سألني:

ـ هل عرّاكِ البارون؟

ـ إني آسفة لما حدث.

ـ لقد عرّاكِ ثم نظر إليكِ في المرآة، ولكنه لم يستفد منكِ ولم يلمسكِ ولم ينم فوقكِ، أليس كذلك؟

ـ لا يا سيدي!

قال إيتشودا وهو يُرسل بصره بعيداً أمامه:

ـ في هذه الحالة، لا بأس.

لم نتبادل بعد ذلك أية كلمة.

في صباح اليوم التالي، لم أكن بعد قد أبللتُ من انفعالاتي عندما دخل القطار إلى محطة كيوتو. صفحة الماء ماتزال ترتعش بعد أن ألقي الحجر في البركة. صعدتُ والسيد إيتشودا درج المحطة، وفجأةً توقّفتُ فاغرة الفم.

لقد رأيتُ إعلانات «رقصات المدينة القديمة» يحميها زجاج داخلي. لا بدّ أن هذه الإعلانات قد وزّعت أمس بينما كنتُ أتنزّه في مزرعة البارون وأنا أحلم برؤية الرئيس. كل سنة كنا نرقص على موضوع مختلف «الفصول الأربعة في كيوتو»، «أماكن مشهورة في حكايات الهايك»، وهذه السنة كانت:«نور الفجر الساطع» . كان إعلان أوشيدا كازابورو، منذ العام 1919 وهو يرسم إعلانات الرقصات، يمثّل جيشا متدرّبة تلبس كيمونو برتقالياً وأخضر، واقفة على جسر خشبي. كنتُ منهكة بعد تلك الرحلة الطويلة، فقد نمتُ نوماً

WWW.REWITY.COM

سيئاً في القطار. بقيتُ زمناً طويلاً ساهمةً مسمَّرةً أمام هذا الإعلان.

كنتُ معجبةً باللون الأخضر وبلون الخلفية الذهبي، ثم رأيتُ الفتاة في الكيمونو. كانت تنظر إلى الشمس بعينيها الزرقاوين - الرماديتين. تشبثتُ بالدرابزين لئلا أسقط، فقد كانت الفتاة التي رسمها أوشيدا: أنا!

في الطريق من المحطة إلى الأوكيا دلني إيتشودا على جميع الإعلانات المزجّجة في المدينة. طلب إلى سائق الريكشو أن يقوم بدورة لكي يريني جداراً كاملاً مغطّى بالإعلانات في البناء القديم لمخازن دايمارو. لم تكن صورتي المنتشرة في جميع أنحاء المدينة بالإثارة التي تصورتها. لم أتوقّف عن التفكير في فتاة البوستر الجميلة وهي واقفة أمام مرآة بينما يقوم رجلٌ أكبر منها بفكّ أوبيها. ومع ذلك فقد توقّعت أن أسمع مدائح في الأيام التالية. لم ألبث أن فهمتُ أن هذا النوع من الشرف له ثمنه. منذ أن حصلت لي مامها على ذلك الدور سمعتُ كثيراً من التعليقات المزعجة. بعد قصة البوستر أخذت الأمور تسوء. ففي صباح اليوم التالي، عمدت جيشا متدرّبة إلى تحويل بصرها عني عندما حييتها وقد كانت علاقتي معها طيبة في الأسبوع السابق.

أما مامها فقد ذهبتُ إلى زيارتها في بيتها. كانت أختي الكبرى فخورة جداً حتى لظُنّ أنها هي فتاة البوستر! لم تحبّذ ذهابي إلى هاكوني، ولكن بدا أن نجاحي قد همّها مثل السابق، بل أكثر. لبعض الوقت خشيتُ أن تعدّ اتصالي الشنيع مع البارون خيانة. وشككتُ في أن يكون إيتشودا قد قال لها الحقيقة. لم تذكر مامها الموضوع قطّ. أما أنا، فقد حاذرتُ الحديث عنه.

• • •

بعد أسبوعين بدأ موسم رقصات الباليه. في اليوم الأول في بلكون مسرح كابورنجو كدتُ أطير من الفرح: فقد أخبرتني مامها أن الرئيس ونابو من بين الحضور! بينما كنتُ أضع مكياجي وضعتُ منديل الرئيس في لباسي الداخلي، على اللحم. كان شعري ملتصقاً

على رأسي بعصبة حريرية لأني كنتُ سأضع عدة أنواع من الشعور المستعارة. عندما نظرتُ إلى وجهي في المرآة وشعري مشدود؛ لم أعرف نفسي. وجدت خدّيَّ وقد نفرا أكثر. وأنا أنظر إلى وجهي مستغربةً، فهمتُ أن لا شيء أبسط من ذلك في الحياة.

بعد ساعة، كنت خلف الستارة مع بقية المتدربات أنتظر رقص باليه الافتتاح. كنا نلبس جميعاً كيمونو أصفر وأحمر مع أوبي برتقالي وذهبي من أجل تصوير ضوء الشمس بكامل فروقاته اللونية. بدأت الموسيقى: ضربة أولى على الطبول ، ونقرة حادة على الشاميزن. دخلنا إلى المسرح كصفّ من اللآلئ وأذرعنا ممدودة أمامنا ومراوحنا مفتوحة في أيدينا. لم أعرف ذلك الانطباع قطّ: أن أشكّل جزءاً من مجموعة.

بعد اللوحة الأولى، أسرعت إلى الطابق الأول لكي أبدّل كيمونوي. سأظهر وحيدةً في لوحة:«نور الفجر على الأمواج». إنها قصة فتاة تستحمّ صباحاً في المحيط وتقع في حبّ دلفين. كنتُ أرتدي كيمونو زهرياً مع رسم لأمواج رمادية. كان في يدي أشرطة حريرية زرقاء لتصوّر تموّجات المياه. كانت إحدى الجيشاوات، اسمها أوميو، تجسّد دور الأمير الدلفين. وجيشاوات أخريات يلعبن أدوار الرياح والنور والشمس، وعدة متدرّبات يلعبن أدوار الدلافين ويلبسن كيمونوهات رمادية وزرقاء: ينادين أميرهنّ لكي يرجع إليهنّ.

كان تغيير الملابس يتم بسرعة. بقي لي بضع دقائق لكي ألقي نظرةً في الصالة. مشيتُ مع صوت الطبل، ووقفتُ في أحد الممرين قليلي الإنارة وهما ينتشران على طول حفرتي الأوركسترا في كل جانب من جوانب المسرح. كانت عدة متدرّبات أخريات وجيشاوات ينظرن من الشقوق المفتوحة في الأبواب السحابة. حذوتُ حذوهنّ. نجحتُ في رؤية الرئيس ونابو. كانا جالسين جنباً إلى جنب. لقد ترك الرئيس أفضل مكان لنابو الذي ينظر إلى المسرح بتركيز. وما أدهشني أن الرئيس كان غافياً. بدأت الموسيقى. إنه باليه مامها.

WWW.REWITY.COM

ركضتُ إلى الطرف الآخر للممر حيث يُشاهد المسرح عبر ثقوب الباب.

تركت في نفسي تلك الدقائق القليلة التي رأيتُ فيها مامها ترقص ذكرى لا تنسى. معظم الرقصات في مدرسة إنوي تروي قصةً. وكان ذلك الباليه مستوحى من قصيدة صينية، يروي قصة أحد رجال البلاط وإقامته علاقة طويلة مع إحدى نساء البلاط. في أحد الأمسيات تختبئ زوجة الرجل في أحد أنحاء القصر لترى أين يمضي زوجها لياليه. وذات صباح، وهي كامنة في الأحراج، ترى زوجها خارجاً من عند عشيقته.

بالنسبة لباليهاتنا الربيعية، فقد نقلنا الحدث إلى اليابان دون تغيير القصة. لعبت مامها دور الزوجة التي تموت من البرد وقلبها منفطر. جسّدت الجيشا كاناكو دور زوجها رجل البلاط. وصلتُ لحظة كان الرجل يودّع عشيقته. كان الديكور رائعاً، ونور الفجر الخفيف، والشاميزن وهو يرسل أصواته بإيقاع بطيء كخفقات قلب بعيدة. رقص رجل البلاط ليشكر عشيقته على الليلة التي أمضياها معاً. ثم دنا من الشمس المشرقة غائصاً في حرارتها لكي يفيد زوجته. بدأت مامها باليه حزنها اللامنتهي في طرف المسرح وهي غائبة عن نظر العاشقين. هل كانت تلك موهبة مامها أم القصة؟ لم أكن أعرف. ولكني أحسستُ وأنا أنظر إليها بالحزن يغمرني، فقد رأيتُ نفسي ضحية هذه الخيانة الفظيعة. في نهاية الباليه، غمر نور الشمس المسرح. توجهت مامها إلى غيضة لكي تمثّل نهايتها. لا أستطيع أن أقول لكَ ما حدث بعدها. لقد كنتُ متأثرة إلى درجة أني لم أعد أستطيع احتمال المزيد. كما إنه كان عليّ أن أدخل.

بينما كنتُ أنتظر في الكواليس، أحسستُ وكأن البناء كله يجثم على صدري. لطالما منحني الحزن شعوراً بالثقل. كانت الراقصات الجيدات يلبسن جوارب بيضاء لكي يشعرن بحواف الخشبة تحت أرجلهن. وقفتُ في بداية المسرح وأنا أجاهد في منح نفسي القوة على الرقص، لم أحسّ بحواف الخشبة فحسب، بل وبألياف جواربي. أخيراً، سمعت ضرب الطبول، والشاميزن وحفيف الكيمونوهات:

مرت الراقصات بجانبي ليدخلن إلى المسرح. بعد ذلك لم أعد أذكر شيئاً. لا بدّ أني رفعتُ ذراعي وحنيتُ ساقيّ، وكان ذلك الوضع الذي يجب أن أدخل فيه إلى المسرح. أذكر فقط أني نظرتُ مبهوتةً إلى يديّ: لقد كانتا تتحركان بثقة وجمال، وكأنهما تتحركان بإرادة خاصة. تمرّنت على هذه الرقصة عشرات المرات. ولا بدّ أن ذلك كان كافياً. لقد رقصتُ بلا صعوبة وبلا تهيّب.

عند كل حركةٍ، كنتُ أغوص أكثر في الحالة التي وضعتني فيها مامها. فكرتُ برجل البلاط الذي يعود إلى زوجته حتى أتت اللحظة التي غمرني فيها الحزن. لدينا قدرة كبيرة على الإيحاء الذاتي، نحن البشر. وعندما أتذكّر مامها في رقصة الزوجة المخدوعة، لا أستطيع الامتناعِ عن الإحساس بالحزن الشديد كما تحسّ برائحة التفاحة التي تُقطع أمامك.

* * *

ذات ظهيرة، بعد العرض ما قبل الأخير، كنتُ ومامها نتناقش نقاشاً طويلاً مع إحدى الجيشاوات. لم نحسب أننا سنلتقي بأي شخص كان ونحن خارجات من المسرح، وكانت الساحة خاوية. ومع ذلك، عندما وصلنا إلى الشارع، خرج أحد السائقين مرتدياً لباسه التقليدي من عربة توقّفت وفتح الباب الخلفي. كنا ومامها سنتجاوز تلك العربة حين ظهر نابو منها. صاحت مامها:

ـ نابو ـ سان! بدأتُ أظن أنك لا تريد صحبة سايوري! إننا نرغب في سماع أخبارك منذ بداية الشهر...

ـ أتجرؤان على القول إنكما انتظرتما! إني أنتظر أمام المسرح منذ ساعة!

ـ هل رأيتَ العرض؟ ستصبح سايوري مشهورة.

ـ لم «أرَ» العرض مرة ثانية. لقد خرجتُ منذ ساعة، وأجريتُ اتصالاً هاتفياً، ثم أرسلتُ سائقي لجلب بعض الأشياء من المدينة.

نقر نابو على الزجاج فجفل السائق المسكين الذي أنزل الزجاج، وناول نابو كيساً عليه اسم محل في كيوتو. كان كيساً من

WWW.REWITY.COM

الورق المفضّض من تلك التي تعطى للزبائن في المحلات في بلدان الغرب. التفت نحوي، فحييته وقلت له كم هي سعادتي لرؤيته!

قال:

ـ أنتِ راقصة ممتازة يا سايوري. إني لا أقدّم هدايا بلا سبب ـ لم أصدّق كلمة مما قاله. لذا ربما لا تقدّرني مامها وجيشاوات أخريات من جيون مثل زبائنهنّ الآخرين.

صاحت به مامها:

ـ من قال لك مثل هذا الكلام يا نابو ـ سان؟

ـ أعرف حق المعرفة ما تحببنه أنتنّ الجيشاوات. أنتن على استعداد لتحمّل حماقات الرجل مادام يقدّم لكنّ الهدايا.

ناولني العلبة الصغيرة، فقلت له:

ـ على أية حماقات يجب عليّ أن أتعوّد يا نابو ـ سان؟

كنت أمزح طبعاً، ولكن يبدو أنه أخذ كلامي على محمل الجد، فقال:

ـ لقد قلتُ تواً إني مختلف عن الآخرين! فلماذا لا تصدّق الجيشاوات ما يقال لهنّ؟ إذا كنتِ تريدين هذه العلبة، فما عليكِ إلا أن تأخذيها قبل ان أغيّر رأيي.

شكرته، وأخذت العلبة. طرق من جديد على زجاج السيارة. هبّ السائق من مقعده وطار إلى فتح الباب.

انحنينا، وبقينا على انحناءتنا حتى غابت السيارة في المنعطف. أخذتني مامها إلى حدائق كابورنجو. جلسنا على مقعد حجري أمام بركة فيها سراطين. نظرنا في الكيس. كان فيه علبة صغيرة مغلّفة بورق مذهّب، وطبع عليها رمز أشهر صائغ في المدينة. كان شريط أحمر يلتفّ حولها. فتحته. وفي الداخل وجدت ياقوتة بحجم نواة الدراق تلمع تحت أشعة الشمس كقطرة دم كبيرة. دورتها بين أصابعي. كان البريق ينتقل من وجه إلى آخر، فطرتُ من الفرح.

WWW.REWITY.COM

قالت مامها:

ـ افرحي، ولكن احتفظي برباطة جأشك. ستقدّم لك جواهر أخرى خلال حياتك، يا سايوري، جواهر كثيرة برأيي. ولكن لن تأتيكِ سانحةٌ كهذه أبداً: عودي إلى البيت، واعطي هذه الياقوتة للأم.

لوّن ذلك الحجر الرائع والنور الذي يصدره يدي باللون الزهري. أعطيه للأم، تلك المرأة صفراء العينين وحمراء الأجفان! كان ذلك كأني أتملّق لضبع. ولكن لم يكن لديّ من خيار: عليّ طاعة مامها.

تابعت:

ـ عندما ستعطيها إياها، بالغي في لطفك وقولي لها:«أيتها الأم! إني أجد هذه الحلية جميلةً جداً ويشرفني أن تقبليها. كم سببت لك من المتاعب في الماضي!» ولاتضيفي شيئاً وإلا ستحاذرك.

بعد ساعة، كنت في غرفتي أدوّر قلمَ حبرٍ عليٍ حجر تحبير لكي أكتب كلمة شكر لنابو. كان مزاجي متعكراً، فبدلاً من تقديم الحجر لمامها، أراني أقدمها كارهةً للأم. كنت أحب نابو كثيراً، وأجد من المؤسف أن هديةً بهذه النعومة ستذهب إلى يديّ تلك المرأة. لو أن الياقوتة كانت هديةً من الرئيس لما انفصلت عنها قطّ. وبعد ذلك، أنهيت كلمة الشكر، وذهبت إلى الأم في غرفتها. كانت جالسةً في الظلمة تداعب كلبها وتدخن.

قالت لي:

ـ ماذا تريدين؟ كنت سأطلب الشاي.

ـ سامحيني على إزعاجك أيتها الأم، في الظهيرة، وعندما خرجنا من المسرح أنا ومامها كان السيد نابو توشيكازو في انتظاري...

ـ تريدين أن تقولي بانتظار مامها ـ سان.

ـ لا أعرف أيتها الأم. ولكنه أهداني هديةً، هديةً جميلةً جداً، رائعةً بالنسبة إلي.

كنت سأقول للأم إنه ليشرفني أن أقدمها لها، ولكنها لم تكن تسمعني. وضعت غليونها على الطاولة وأخذت العلبة بيدها. حاولت أن أكلمها من جديد لكنها قلبت العلبة وسقطت الياقوتة في يدها اللئيمة. سألتني:

ـ ما هذا؟

ـ إنها هدية السيد نابو. نابو توشيكازو من إيوامورا إلكتريك.

ـ أتظنين أني لاأعرف من هو نابو توشيكازو؟

وقفت الأم واتجهت نحو النافذة. رفعت الستارة الورقية ونظرت إلى الحجر في الشمس. فعلت الشيء نفسه الذي قمت به تواً: دورت الياقوتة بين أصابعها، ونظرت إلى النور وهو يتنقل من وجه إلى وجه. أغلقت الستارة من جديد، وعادت إلى الجلوس. قالت لي:

ـ لابدَّ أنك أسأتِ الفهم. هل طلب إليك نابو أن تعطي الياقوتة إلى مامها؟

ـ لقد كانت مامها معي عندما أعطاني إياها.

لم تعرف الأم بماذا تفكر. لقد اختنق دماغها كتقاطع خنقه ازدحام السير. وضعت الياقوتة على الطاولة، وراحت تسحب من غليونها، فكانت كل غمامة بيضاء تشبه فكرةً مضطربةً تطير من رأسها. قالت أخيراً:

ـ وهكذا، فإن نابو توشيكازو يهتم بأمرك؟

ـ يشرفني أن أتمتع باهتمامه منذ بعض الوقت، نعم.

وضعت الأم غليونها على الطاولة، كما لتقول لي إن الحديث سيتخذ طابعاً جدياً. قالت:

ـ لم أراقبك مراقبةً كافية. إذا كان لديك أصدقاء صغار، فآن الآوان لتخبريني.

ـ لم يكن لديَّ قطُ أصدقاء صغار أيتها الأم!

لاأعرف إن كانت قد صدقتني، ولكنها أذنت لي بالخروج. لم

تتح لي الفرصة لتقديم الياقوتة إليها. ما العمل! ألقيت نظرةً خاطفة على الحجر التي كانت على الطاولة. لابد أن الأم ظنت أني سأطلب إليها إعادة الهدية إليَّ: فغطتها بيدها.

* * *

بعد عدة أيام، ظهراً، أتت مامها إلى الأوكيا، وقالت لي: إن المزاد على «ميزواجي» قد بدأ. فقد أرسلت معلمة الإيشكيري إليها خبراً بذلك هذا الصباح. أضافت:

ـ لن يكون الأمر سيئاً. سأذهب إلى طوكيو بعد الظهر، ولن تكوني في حاجة إليَّ. إذا ارتفع المزاد، فستعرفين: ستحدث أمورٌ معينة.

ـ أية أمور؟

ـ كل أنواع الأمور.

ثم ذهبت، حتى دون أن تشرب الشاي.

بقيتُ في طوكيو ثلاثة أيام. في البداية، كان قلبي يسرع في الخفقان كلما توجهت نحوي إحدى الخادمات. ولكن مرَّ يومان دون أي خبرٍ منها. وفي اليوم الثالث، في المدخل، أخبرتني تاتي أن الأم تريد أن تراني. وأنها تنتظرني في الطابق الأول.

وضعت رجلي على الدرجة الأولى عندما سمعت باباً يُفتح، ثم رأيت بومبكين تُهرع على الدرج. نزلت كما يفيض الماء من دلو، وأخذت رجلاها تطيران على الدرجات. في منتصف الطريق انفتل إصبعها على الدرابزين، فأحست بالألم. وقفتُ في أسفل الدرج لكي تعتصر إصبعها في المنطقة التي تؤلمها. سألت:

ـ أين هاتسومومو؟ يجب أن أكلمها.

أجابتها تاتي:

ـ لقد تألمت كثيراً على مايبدو. هل من المفيد حقاً أن تذهبي لتري هاتسومومو لكي تؤذيك أكثر؟

www.rewity.com ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

بدت بومبكين تتألم ليس بسبب إصبعها فقط. سألتها عن الأمر، فلم تجب، بل اندفعت نحو الباب وخرجت.

عندما دخلت إلى الغرفة، كانت الأم جالسةً إلى الطاولة منهمكةً بملء غليونها. غيرت رأيها ووضعته على الطاولة. على الرف حيث كانت تضع دفتر حساباتها، كانت توجد ساعة جدارية على النمط الغربي في علبة زجاجية. نظرت إلى الساعة عدة مرات دون أن تكلمني، فقلت لها أخيراً:

- إني آسفةٌ لإزعاجك أيتها الأم! ولكن قيل لي إنك تريدين رؤيتي.

- لقد تأخر الدكتور وسوف ننتظره.

ظننت أنها تتكلم عن الدكتور سرطان. بلا شك قد يأتي إلى الأوكيا ليتناقش في التفاصيل العملية المتعلقة «بميزواجي». لم أكن أتوقع ذلك، وأحسست بثقلٍ في معدتي. انشغلت الأم بمداعبة تاكو. سرعان ما ضجر الكلب من حنانها، فزمجر.

أخيراً، سمعت الخادمات يستبقلن أحدهم في المدخل. نزلت الأم وعادت برجلٍ. لم يكن الدكتور سرطان، بل طبيبٌ أقل منه سناً وشعره أشيب، يحمل حقيبةً جلدية في يده. قالت الأم:

- هي ذي الفتاة.

انحنيت أمام الطبيب الشاب الذي انحنى لي بدوره، ثم قال:

- أين سنذهب يا سيدتي؟

قالت الأم إن الغرفة التي نحن فيها تفي بالغرض، ثم أغلقت الباب بطريقةٍ لا تبشّر بالخير. فَكَّتْ أوبيّ، ثم طوته على الطاولة. أنزلت كيمونوي على ذراعيّ، ثم خلعته.

علّقته على مشجب في زاوية الغرفة. ألفيتني واقفة وسط الغرفة بلباسي الداخلي الأصفر. حاولت الاحتفاظ بهدوئي. حلّت الأم الأربطة التي تثبّت لباسي الداخلي، فحاولتُ أن أمنعها بمضايقة حركاتها، لكنها أبعدت يديّ كما فعل البارون، فانتابني شعور

بغيض. بعد أن حلّت الحزام القماشي، زلقت يديها تحت لباسي الداخلي، وانقضّت على «الكوشيماكي»، أيضاً كما فعل البارون في هاكوني. طار صوابي، ولكن، بدلاً من أن تفتح لباسي، أغلقته وأمرتني أن أتمدّد على التاتاميات.

جثا الطبيب إلى جانبي. وبعد أن اعتذر أبعد طرفَيْ لباسي ليكشف ساقيّ. كانت مامها قد كلّمتني قليلاً عن الطقوس المرافقة «للميزواج». ولكني سأتعلّم المزيد منها على مايبدو. هل وصل المزاد إلى نهايته؟ وسرطان؟ ونابو؟ ألن تحبط الأم مشروعات مامها فيما يخصّني؟ أبعد الطبيب ساقيّ وزلق يده بين فخذيّ، يد طويلة وناعمة كيد الرئيس. أحسستُ بالذلّ وأنا مكشوفة هكذا. وضعتُ يديّ على وجهي، كنتُ سأغلق فخذيّ لكني امتنعت. في الواقع كدتُ أطيل محنتي وأنا أجعل مهمة الطبيب أصعب. بقيت ممدّدةً مغمضة العينين حابسة النفس. أحسستُ بما لا بدّ أن تاكو أحسّ به عندما اختنق بدبّوس، فأبقت تاتي فكّيه متباعدين، وأدخلت الأم يدها في فمه. في لحظة معينة، وضع الدكتور يديه بين ساقيّ ثم أخرجهما وأغلق لباسي الداخلي. وعندما فتحتُ عينيّ، كان يمسح يديه بخرقة.

قال:

- لم تمس.

- عظيم. هل سيكون هناك كثيرٌ من الدم؟

- لاينبغي أن تنزف أبداً، لقد مارست فحصاً بصرياً.

- أقصد خلال «الميزواج».

- لست أدري. الكمية المعتادة بلا شك.

بعدما ذهب الطبيب الأشيب، ساعدتني الأم على ارتداء ملابسي. أمرتني أن أجلس إلى الطاولة، ثم أمسكت بشحمة أذني وجذبتها بقوةٍ حتى صرخت. أبقت رأسي بجانب رأسها، ثم قالت:

- أنت قطعةٌ جميلة أيتها الصغيرة. لقد أسأتُ تقديرك. إن ما

WWW.REWITY.COM

يفرحني أن شيئاً لم يحصل، ولكني سأراقبك عن كثب في المستقبل. سيدفع الرجال ثمنك. هل تسمعينني؟

ـ نعم يا سيدتي!

كنت سأقول نعم لأي شيء كان، فقد كانت تشدُّ أذني بقوة!

ـ إذا ما أعطيت رجلاً مجاناً ما يجب أن يدفع ثمنه، تكونين قد سرقت الأوكيًا. وعندها ستكونين مدينةً لي بالمال الذي سآخذه منك. وأنا لاأتحدث عن هذا فقط!

أحدثت بيدها الحرّة صوتاً مزعجاً وهي تفرك أصابعها في راحتها، ثم قالت:

ـ سيدفع الرجال ثمن هذا. ولكنهم سيدفعون أيضاً ثمن الثرثرة معك. إذا ما خرجت من الأوكيًا، فلن يكون ذلك إلا من أجل التحدث إلى رجلٍ...

ختمت كلامها وهي تشدني أكثر من أذني، ثم أفلتتها.

بقيتُ وقتاً طويلاً حتى استرددت أنفاسي. وعندما أحسست أني قادرةٌ على الكلام من جديد، قلتُ:

ـ لم أفعل ما يغضبك أيتها الأم!

ـ ليس بعد، لا. وسوف تتابعين سلوكك الجيد إذا كنت فتاةً ذكية.

أردت أن أنسحب، فقالت لي أن أبقى. نفضت غليونها في المنفضة حتى أفرغته. ملأته من جديد وأشعلته، ثم قالت:

ـ لقد اتخذت قراراً. وضعك في الأوكيًا سيتغير.

أخافني هذا الخبر. كنت سأتكلم، لكن الأم منعتني، وقالت:

ـ أنتِ وأنا سوف نقيم حفلاً صغيراً في الأسبوع القادم. بعد ذلك ستصبحين ابنتي كما لو أني أنجبتك. لقد اتخذت قراري بتبنيك. ذات يوم ستصبح هذا الأوكيًا لكِ.

لم أجد ما أقوله. إني أحتفظ بذكرى غائمة عن الدقائق التالية.

تابعت الأم كلامها. قالت إني، بوصفي ابنة الأوكيًا، فسوف أقيم في غرفة هاتسومومو وبومبكين الكبرى، وهما ستسكنان في الغرفة الصغيرة التي أشغلها حالياً. سمعتها بأذن، ثم فكرتُ بأمر خطير: حين أصبح ابنة الأوكيًا فلن أستطيع تحمّل ظلم هاتسومومو ! كان ذلك هدف مامها منذ البداية، ولكني لم أظن لحظةً واحدة أن هذا سيحصل. تابعت الأم جلدي بأوامرها الأخلاقية. نظرتُ إلى شفتها المتدلّية وعينيها الصفراوين. ربما كانت امرأة كريهة، ولكن بوصفي ابنة هذه المرأة الكريهة، قد أجد نفسي مرفوعة على رافعة، بعيدةً عن متناول هاتسومومو .

فُتح الباب: وظهرت هاتسومومو . سألتها الأم:

ـ ماذا تريدين؟ أنا مشغولة.

صرخت بي هاتسومومو :

ـ اخرجي من هنا. أريد أن أتحدّث مع الأم .

ـ إذا كنتِ تريدين أن تتكلّمي معي، فاطلبي من سايوري أن تتفضّل وتخرج.

قالت لي هاتسومومو بنبرة ساخرة:

ـ «هل تتفضّلين بالخروج؟»

تجرّأتُ لأول مرة في حياتي، ورددت لها بالمثل:

ـ سأخرج إذا أرادت الأم.

ـ هل تتفضّلين أيتها الأم وتقولي للغبية الصغيرة أن تتركنا لوحدنا؟

ـ كفي عن هذه الحماقات! ادخلي وقولي لي ماذا تريدين.

لم يعجب هذا هاتسومومو، ولكنها دخلت وجلست بيني وبين الأم. كانت قريبة مني ما يكفي لأشم عطرها. قالت:

WWW.REWITY.COM

ـ أتتني المسكينة بومبكين وحالها مقلوبة. وعدتها أن أكلّمكِ. إنها تدّعي أنكِ غيرتِ رأيكِ، وهذا ما بدا لي غير محتمل.

ـ لا أعرف إلى ما تلمّح. أنا لم أعد عن أي قرارٍ من قراراتي اتخذتُه في الأيام الأخيرة.

ـ هذا ماقلته لها. إنكِ لا ترجعين عن كلامك. ولكن، برأيي، إذا قلتِ لها ذلك بنفسك فستطمئنينها.

ـ أقول لها ماذا؟

ـ إنكِ ماتزالين راغبةً في تبنّيها.

ـ كيف لها أن تفكّر هذا التفكير؟ أنا لم أنوِ قطّ ان أتبنّاها!

آلمني ذلك. فقد عدتُ ورأيتُ بومبكين على الدرج، يائسةً، ولم أستغرب حالها. كفّت هاتسومومو عن التبسّم، فقد ضربتها كلمات الأم وكأنها حجارة. نظرت إليّ نظرة كراهية، وقالت:

ـ الأمر صحيح إذاً! أنتِ تنوين أن تتبنيها، «هي»! لقد قلتِ إنكِ ستتبنّين بومبكين! هل نسيتِ أيتها الأم؟ أنتِ طلبتِ إليّ أن أزفّ إليها الخبر.

ـ ما قلتِه لبومبكين لا يهمني. ومن ناحيةٍ أخرى، أنتِ لم تهتمي بها بالقدر الذي كنتُ أتمناه. لقد أحسنت التصرف لبعض الوقت، ولكن في الفترة الأخيرة...

قالت هاتسومومو بلهجة روّعتني:

ـ لقد وعدتِني أيتها الأم.

ـ لا تكوني مضحكة! إني أتابع نجاحات سايوري منذ سنوات، وأنتِ تعرفين ذلك جيداً. فلماذا أتراجع وأتبنّى بومبكين؟

كنتُ أعرف أن الأم تكذب. بل كانت من الوقاحة بحيث سألتني:

ـ سايوري ـ سان، متى بحثتُ معكِ موضوع تبنّيكِ أول مرة؟ منذ عام على ما أظن.

هل رأيت في حياتك قطةً تعلّم صغيرها كيف يصطاد فأرةً

WWW.REWITY.COM

مسكينةً ويسلخها؟ أتاني هذا التشبيه عندما دعتني الأم إلى مجاراتها. لم يسعني أن أقول كاذبةً:«أوه، نعم أيتها الأم، غالباً ما كلّمتِني عن ذلك!» فأصبح امرأةً عجوزاً صفراء العينين في غرفة خضراء مزرقّة مع دفاتر حساباتها. لم أستطع أن أقف إلى جانب الأم أو هاتسومومو. أبقيت بصري مخفضاً إلى التاتامي لئلا أرى أياً منهما. قلتُ إني لا أذكر.

احمرّت هاتسومومو غضباً. نهضت واتجهت نحو الباب، فأوقفتها الأم قائلةً:

ـ بعد أسبوع، ستصبح سايوري ابنتي، في هذه الفترة، عليكِ أن تتعلّمي كيف تعاملينها باحترام. اطلبي شاياً لي ولها في طريقكِ.

انحنت هاتسومومو احتراماً، وخرجت من الغرفة.

تمتمتُ:

ـ إني آسفة أيتها الأم بشأن كل ماحدث. لقد أخطأت هاتسومومو عندما قالت إنكِ تنوين تبنّي بومبكين، لا أشكّ في ذلك، ولكن هل لي أن أسألكِ... هل من الممكن أن تتبنّينا نحن الاثنتين، بومبكين وأنا؟

ـ ألأن لديكِ حسّ الأعمال الآن؟ هل تريدين أن تعلّميني كيف أدير الأوكيا؟

بعد بضع دقائق، وصلت إحدى الخادمات حاملةً صينية عليها إبريق شاي وكوب، كوب واحد. لم يبدُ أن الأم اهتمّت للأمر. قدمتُ لها الشاي، فشربته وهي ترمقني بعينيها الصفراوين.

24

في اليوم التالي عادت مامها إلى المدينة. أخبرتها أن الأم تريد أن تتبنّاني. اكتفت بهزّ رأسها رضىً. كنتُ أتوقّع فرحاً أكبر. سألتها إن كانت الأمور قد سارت على مايرام، فقالت:

ـ لقد انتهى المزاد بسعر مدهش. ما إن عرفته حتى أيقنتُ أن السيدة نيتا سوف تتبنّاكِ. لا يمكنني أن آمل أفضل من ذلك.

هذا ماقالته على الأقل. ولكن الحقيقة التي سأكتشفها على مر السنوات كانت مختلفةً تماماً. من ناحية لم يجر المزاد بين نابو والدكتور سرطان ، بل بين نابو والبارون. لا بدّ أن مامها امتصّت الصدمة، وهذا يفسّر برودتها نحوي في الأسابيع التالية، وآثرَت الاحتفاظ بالحقيقة لنفسها.

شارك نابو في المزاد لبعض الوقت. وفي الأيام الأوائل زاد حتى بعدوانية من أجل «ميزواجي»، ثم انسحب بعد أن وصل السعر حتى ثمانية آلاف ين. بالطبع لم ينسحب بسبب السعر، فإمكانه أن يزيد على أي شخصٍ كان إذا أراد. المشكلة هي الفائدة القليلة التي كان يعلّقها على «ميزواجي». فبعض اليابانيين، المهووسين «بالميزواج» يكرّسون وقتهم ومالهم على هذا الهوس. لم يكن نابو منهم. كانت مامها قد قالت لي: لا يقيم الرجل علاقةً مع فتاة في الخامسة عشرة من عمرها إذا لم يكن يطمح إلى الظفر «بميزواجها». برأيها، لم يكن حديثي هو ما أبقاه. ربما. ولكن أيضا ليس «ميزواجي» هو ما كان يجذبه.

أما بالنسبة إلى الدكتور سرطان، فمما لا شكّ فيه أنه يفضّل «السيبّوكو»(*) على أن يدع رجلاً مثل نابو يحصل على «ميزواجي». بعد عدة أيام، ومن غير علمي، زاد عليّ شخص آخر غير نابو. وقد حرصت معلمة الإيشيريكي ألا تقول له: لأنها كانت تريد أن ترفع المزاد. كما قالت له بالهاتف:«لديّ أخبار من أوساكا يادكتور، لقد قُدّم عرض بخمسة آلاف ين». بكل تأكيد كان لديها أخبار من أوساكا، ولكن ليس بخصوص المزاد، فمعلّمة الإيشيريكي لا تحب الكذب. كان الدكتور سرطان يفكّر بنابو حتى لو تعلق الأمر بالبارون.

(*) السيبّوكو: الانتحار ببقر البطن بالسيف، وتلك طريقة أوجدها الساموراي اليابانيون. م.

أما بالنسبة إلى البارون، فلم يكن يجهل هوية خصمه، ولكن هذا لم يكن يهمّه كثيراً. كان يريد هذا «الميزواج». وعندما علم أنه قد لا يفوز به حرد كطفلٍ صغير. بعد عدة أسابيع روت لي إحدى الجيشاوات حديثاً دار بينها وبينه في تلك اللحظة. قال لها:«أتعرفين ماذا جرى لي؟ أحاول لن أحصل على «ميزواج معينّ، ولكن ثمة طبيب ينافسني. ثمة رجل، رجل واحد، يستطيع أن يستكشف هذه المنطقة العذراء: أنا! ولكن كيف التوصّل إلى ذلك؟ يبدو أن هذا الدكتور لا يعرف أن مالاً حقيقياً سيدفع».

ارتفع المزاد. أشاع البارون أنه سينسحب. لم يكن الرقم بعيداً عن سحق الرقم القياسي التاريخي. أرادت معلّمة الإيشيريكي أن تتدخل في الموضوع بخداع البارون كما خدعت الدكتور سرطان، قالت له على الهاتف :«إن الرجل الآخر قدّم مبلغاً مرتفعاً جداً». ثم أضافت:«إنه ليس من النوع الذي يتجاوز ذلك». قد يفكّر بعضهم بذلك، ولكن ليس معلّمة الإيشيريكي. فقد كانت تعرف أنه بعد عرض البارون، مهما بلغ، فإن الدكتور سرطان سيزيد.

دفع الدكتور سرطان ثمن «ميزواجي» أحد عشر ألف ين. لقد حطّم الرقم في جيون، وربما في جميع أحياء الجيشاوات في اليابان. في تلك الفترة، كانت ساعة الجيشا تعادل أربع ينّات، وسعر أغلى كيمونو كان يبلغ ألفاً وخمسمئة ين. إن مبلغاً كهذا كان يعادل الدخل السنوي لفلاح.

أعترف أني لم أكن أعرف قيمة المال. معظم الجيشاوات كنّ يتباهين بأنهن لا يحملن سيولة وأنهنّ يقترضن من كل مكان. أنا أعيش هكذا في نيويورك. أشتري من المحلات التي يعرفونني فيها. والبائعات لطيفات جداً وهنّ يسجّلن ما اشتريه. في نهاية الشهر تُرسَل إليّ الفواتير، فتمرّ مساعدتي للتسديد. لا أستطيع أن أقول لكَ كم أنفق ولا سعر زجاجة عطر. أنا لستُ مؤهلة للكلام عن المال. وبعد، سأروي لكَ كلام أحد الأصدقاء وكان يعرف عما يتحدّث: لقد كان وزيراً للمال في اليابان في الستينات. قال: غالباً ما يفقد المال من قيمته بين سنة وأخرى. وإن «ميزواج» مامها في عام 1929 قد

WWW.REWITY.COM

كلّف أغلى من «ميزواجي» في العام 1935، حتى لو دُفع فيه أحد عشر ألف ين و«ميزواجها» سبعة أو ثمانية آلاف.

ومع ذلك، لم يهتمّ بهذه التفصيلات عندما بلغ «ميزواجي» هذا السعر. بالنسبة للجميع، فقد حطّمتُ رقماً جديداً سأبقى أحمله حتى العام 1951 سنة «ميزواج» كاتسوميو، إحدى أهم جيشاوات هذا القرن. وبالنسبة لصديقي الوزير تبقى مامها صاحبة الرقم القياسي حتى الستينات. كائناً من كانت صاحبة الرقم القياسي: مامها أو كاتسوميو أو حتى ماميميتسو في العام 1989 أو أنا، فإن الأم لم تكبح فرحتها عندما بُلّغت بالمبلغ.

لهذا السبب تبنّتني بكل تأكيد. والمال الذي سأكسبه من «ميزواجي» سيكون كافياً لتسديد ديوني. ولو لم تتبنّني الأم لكان جزء من المال سيعود إليّ، وذلك أمر غير مقبول من طرفها. عندما أصبحتُ ابنة الأوكيّا انعدمت ديوني. وبالمقابل، فإن فوائدي كلها الحالية والقادمة ستصبح من أملاك الأوكيّا.

تمّ التبنّي في الأسبوع التالي، وكنتُ قد غيّرتُ اسمي الأول، والآن سأغيّر اسم شهرتي. الصغيرة ساكاموتو شيو التي كانت تعيش في البيت السكران فوق الجرف الصخري أصبح اسمها من الآن فصاعداً: نيتا سايوري.

* * *

يُعدّ «الميزواج» من اللحظات الفاصلة في حياة الجيشا. تمّ «ميزواجي» في العام 1935 في بداية شهر تموز، وكنتُ في الخامسة عشرة من عمري. بدأ الأمر بعد الظهر. شربتُ والدكتور سرطان الساكي في احتفال. لمَ الاحتفال؟ لأن الدكتور سرطان يبقى رجلاً مهماً في حياتي: ذلك الذي قام «بميزواجي»، رُغمَ أن هذا لم يعطه أيّ تميُّز. أقيم الحفل في بيت شاي إيشيريكي بحضور الأم ومامها وتاتي كما حضرت معلّمة الإيشيريكي أيضاً، والسيد بيكو، مُلْبِسي. فالمُلبِس يحضر باستمرار كل الاحتفالات التي لها علاقة بالجيشا. كنتُ أرتدي لباس المتدرّبة التقليدي: كيمونو تقليدي من الأوكيّا

ولباس داخلي أحمر، لون البداية في كل شيء. طلبت إليّ مامها بأن أبدو قاسية، وهذا لم يكن صعباً، فقد كنتُ قلقةً وأنا أمشي في ممر الإيشيريكي!

بعد الاحتفال، ذهبنا جميعاً لتناول الغداء في مطعم الكيتشو. كان ذلك أيضاً طقساً رسمياً. تكلّمتُ قليلاً، وأكلتُ أقل. لا بدّ أن الدكتور سرطان كان يفكّر بما سيأتي من الأحداث. ومع ذلك، قلما رأيت رجلاً يضجر بهذه السرعة. بقي بصري خفيضاً طوال الغداء لكي أبدو بريئة، ولكن كلما نظرتُ إلى الدكتور سرطان؛ رأيته ينظر إلى الطاولة عبر نظّارته كرجل في اجتماع أعمال.

عند انتهاء الغداء، استقلّيتُ ريكشو مع السيد بيكو حتى فندق جميل في حديقة معبد نانزن ـ جي. كان السيد بيكو قد أتى صباحاً ليرتّب أموري في غرفة مجاورة. ساعدني علي نزع كيمونوي، وألبسني آخر أبسط منه. لم تكن عقدة الأوبي تتطلّب أية حشوة، فقد تثبّط هذه من عزيمة الدكتور سرطان. عقد بيكو الأوبي بطريقة تمكّن من فكّه بسهولة، ما إن أصبحتُ جاهزة، حتى اعتراني الخوف. صحبني إلى غرفتي. طلب إليّ أن أجثو أمام الباب في الداخل حيث سأنتظر الدكتور سرطان. ثم مضى. أحسستُ بالرعب، وكأنما سيُبتر لي عضو حيوي من جسمي.

لم يلبث الدكتور سرطان أن أتى. طلب إليّ أن أطلب له الساكي. ثم أبدى رغبته في الاستحمام، كان هناك حمّام في الغرفة. لا بدّ أنه كان يتوقّع أن أساعده على خلع ملابسه، لأنه رمقني بنظرة مضحكة. ولكن كانت يداي باردتين جداً، وأحسستُ بنفسي خرقاء إلى درجة أني غير قادرة على فعل ذلك. عاد بعد عدة دقائق يرتدي ثوب الحمام. فتح الأبواب الجرارة المفضية إلى الحديقة. جلسنا على شرفتنا الخشبية الصغيرة، واحتسينا الساكي. سمعنا زعيق الجراد وصوت النهر الذي كان يتهادى في النور المنعكس. سال بعض الساكي على كيمونوي، لكن الدكتور سرطان لم يلاحظ ذلك. لم يبدُ أنه كان يلاحظ شيئاً مهمّاً ما خلا تلك السمكة التي تقفز فوق البركة، والتي أشار إليها بإصبعه، كما لو أنه لم يرَ مثلها في حياته.

WWW.REWITY.COM
ARAYAHEENA

بينما كنا على الشرفة، أتت إحدى الخادمات ووضعت فوتونين على الأرض جنباً إلى جنب.

عاد الدكتور سرطان إلى الغرفة وتركني على الشرفة. جلستُ بطريقة أستطيع معها أن أسترق النظر إليه من طرف عيني. أخرج من حقيبته فوطتين، ووضعهما على الطاولة. دفعهما من جهة، ثم من الأخرى لكي تكونان مصفوفتين تماماً. كرّر العملية مع الوسائد على أحد الفوتونات. بعد ذلك، وقف أمام النافذة منتظراً أن أنهض وأتبعه.

فكّ أوبيّ وطلب إليّ أن أتمدّد بصورة مريحة على أحد الفوتونات. أحسستُ بالخوف وبالغرابة! كيف لي أن أحسّ بالراحة في تمددي؟ استلقيتُ على ظهري، وزلقتُ وسادة تحت رقبتي. فتح الدكتور سرطان كيمونوي وتمهّل في حلّ الأربطة المتعدّدة للألبسة الأخرى التي كنتُ ألبسها. بعد ذلك وضع يديه على ساقيّ لكي يساعدني على الاسترخاء التام. دام هذا الطقس بعض الوقت. تناول الفوطتين اللتين وضعهما على الطاولة. طلب إليّ أن أرفع حوضي ووضعهما تحت إليتيّ ثم قال:

ـ هذا لامتصاص الدم.

كثير من الدم يسيل عند «الميزواج». ولكنَّ أحداً لم يخبرني لماذا. بكل تأكيد كنتُ سأبقى هادئة، بل أشكر الدكتور على تفكيره في جلب الفوطتين، ولكني قلت بصوتٍ حاد لأن حلقي كان جافاً:«أي دم؟». قال لي الدكتور سرطان إن غشاء البكارة، ولم يكن لدي أية فكرة عما يمكن أن يكونه، ينزف لحظة تمزّقه. أعطاني معلومات أخرى، ولا بدّ أن ذلك أقلقني: انتصبتُ على فوتوني، فضغط الدكتور سرطان على كتفي لكي يعيدني إلى وضعية التمدّد.

لا بدّ لحديث كهذا أن يقتل رغبة الرجل. لكن الدكتور سرطان لم يتأثّر به. أنهى حديثه، ثم قال:

ـ هذه هي المرة الثانية التي أجمع فيها دمك. أتريدين أن أريكِ؟

WWW.REWITY.COM

كان الدكتور سرطان قد وصل مع حقيبة سفر جلدية وعلبة خشبية صغيرة. توجّه نحو خزانة الملابس، دسّ يده في جيب بنطاله المعلّق في الخزانة. أخرج منه حلقةً مع مفتاح. أدخل المفتاح في قفل العلبة. وضعها على الفوتون، فتحها كما يفعل وسيطٌ تجاري يعرض بضاعته. في الداخل، من كل جانب، كانت عدة رفوف عليها قوارير زجاجية صغيرة مغلقة بسدادات فلينية ومثبّتة بسيور. وعلى الرف السفلي وجدت أدوات صغيرة: مقصات، وملاقط صغيرة. وكانت هذه القوارير، ومنها مايقارب الخمسين، تحوي شيئاً ما، لا أعرف ماهو. وعلى الرف العلوي الأيمن، كانت قارورتان فارغتان. ذهب الدكتور سرطان لجلب المصباح عن الطاولة. كانت كل قارورة تحمل لصاقة كُتب عليها اسم جيشا. رأيتُ اسم مامها، واسم مامكيشي العظيمة، وأسماء أخرى أعرفها منها اسم كورين، صديقة هاتسومومو .

قال الدكتور سرطان وهو يفتح إحدى القوارير:

ـ هذه لكِ.

كان قد كتب اسمي خطأً، إذ لم يستخدم الحرف الصحيح لكتابة «ري» في سايوري. في الداخل كان ثمة شيءٌ متغضّن، كخوخة مملّحة، لونه كستنائي. نزع الدكتور السدادة وأخرجه بملقط. قال:

ـ هذه قطعة قطن مبللة بدمك، وهي تعود إلى اليوم الذي جُرحتِ فيه. عادةً، أنا لا أحتفظ بدم مرضاي، ولكن... ولكنكِ أعجبتني كثيراً. بعد أن حصلتُ على دمكِ، قررتُ أن أفوز بـ«ميزواجك». أنتِ بالنسبة إليّ من النوع النادر الذي جمعتُ دمه أول مرة على أثر جرح، وثاني مرة عن طريق «الميزواج».

أخفيتُ اشمئزازي، بينما كان الدكتور سرطان يريني بضع قوارير أخرى منها قارورة مامها. كانت تحوي قطعة من القماش الأبيض المتيبّس وعليها لطخ من الصدأ. بدا أنه قد جمع كل العيّنات الفاتنة، أما أنا... فكنتُ أنظر إليها من باب التهذيب، ولكن عندما لم يكن ينظر إليّ، كنتُ أحوّل بصري عنها.

أغلق العلبة، وأبعدها على الفوتون. نزع نظّارته، وطواها، ثم وضعها على الطاولة. لقد أزفت اللحظة. أبعد فخذيّ، ثم جثا بينهما، فأخذ قلبي يدقّ بسرعة جنونية. حلّ حزام ثوب حمّامه، فأغمضت عينيّ، وكدتُ أضع يدي على فمي، ولكني عدلت لئلا أعطي انطباعاً سيئاً. فوضعتُ يدي بهدوء إلى جانب رأسي.

دخلت يداه إلى داخلي، فكان ذلك أكره مما فعله الدكتور الشاب الأشيب منذ عدة أسابيع. انحنى عليّ، حاولتُ أن أصنع حاجزاً عقلياً بيننا، ولكنّ ذلك لم يمنعني من الإحساس بأنقليسه يصطدم بفخذي. بقي المصباح مشتعلاً، فأخذتُ أنظر إلى الظلال على السقف باحثة عن شكل موجٍ يسمح لي بالهروب بأفكاري. دفع الدكتور بقوة! تراجع رأسي على الوسادة! لم أعرف ماذا أفعل بيديّ، فأمسكتُ بالوسادة، وأغمضتُ أجفاني. أحسستُ أن أحدهم يتحرّك فوقي وفي داخلي. يبدو أني نزفتُ كثيراً: فقد انتشرت رائحة حديد في الهواء. تذكّرتُ أن الدكتور دفع غالياً ثمن هذه اللحظات. تمنّيتُ أن يقدّر الأمر أكثر مني. تصوّرتُ وكأنه أدخل مبرداً إلى باب كهفي حتى نزفت.

أخيراً، بدا أن الأنقليس الوحيد قد حدّد أرضه. سقط الدكتور فوقي وهو يتصبّب عرقاً. كرهتُ هذا التشوّش. تظاهرتُ بأني أعاني في التنفس أملاً في أن يخرج. بقي فوقي زمناً طويلاً ثم نهض، جثا، وكان من جديد بقوة واضحة. مسح بفوطة. ربط حزام ثوب حمامه، وضع نظارته دون أن يلاحظ وجود نقطة دم صغيرة على إحدى زجاجتيها. مسح داخل فخذيّ بفوطة وبقليل من القطن كما فعل في المشفى. بالنسبة إليّ، لقد مضى أصعب ما في الامر. كنتُ ممدّدةً وساقاي متباعدتان. ورُغمَ كل شيء أحسست باستغراب وأنا أرى الدكتور يفتح العلبة ويُخرج مقصاً. قطع جزءاً من الفوطة الملطّخة بالدم تحت فخذي، ثم دسّها في القارورة التي كانت تحمل اسمي مع قطعة من القطن مبللة وحمراء. انحنى عليّ وقال:«شكراً جزيلاً!» بصعوبة رددت عليه وأنا ممدّدة على الفوتون. ولكن ماهمّه، فقد نهض بقفزة واحدة، وغاب في الحمام.

سرّع القلق من دقات قلبي. انتهى الأمر، وعدتُ إلى التنفس بصورة طبيعية. كنتُ كمريضة أجري لها عمل جراحي. لقد أحسستُ بالارتياح وابتسمت. كان في هذا المشروع شيءٌ ما مضحك! كلما فكرت به ضحكت. ضحكتُ سراً، فقد كان الدكتور سرطان في الغرفة المجاورة. أضحكتني فكرة أن مستقبلاً مختلفاً انفتح أمامي فقط لهذا السبب. تخيلت معلمة الإيشيريكي وهي تتصل هاتفياً إلى نابو والبارون لتخبرهما أن المزاد قد ارتفع. فكرتُ بالمال الذي دُفع والعناء الذي حصل. بدا لي الأمر مستغرباً مع نابو: بدأتُ أعده صديقاً لي. لم أشأ حتى أن أتصور كيف كان الأمر سيتم مع البارون.

بينما كان الدكتور في الحمام، دققتُ باب السيد بيكو. أتت خادمةٌ وغيرت الشرشف. ساعدني بيكو على ارتداء قميص للنوم. وفيما بعد، بينما كان سرطان نائماً، أخذتُ حمامي. كانت مامها قد طلبت إليّ أن أبقى صاحية طوال الليل، فلربما استيقظ الدكتور واحتاج لأمرٍ ما. حاولتُ ألا أنام، لكني لم أستطع الامتناع عن الإغفاء بين وقت وآخر. نجحتُ في أن أستيقظ باكراً وأبدو جاهزة قبل أن يراني.

بعد الفطور، شيّعتُ الدكتور إلى باب الفندق. ساعدته على انتعال حذائه. قبل أن يخرج مباشرةً، شكرني على تلك السهرة، وناولني علبة. هل كانت جوهرة أم قطعةً من الفوطة المدمّاة؟ عدتُ إلى الغرفة وجمعت شجاعتي وفتحتها. كانت علبة تحوي نباتات طبية صينية. لم أعرف ما فائدتها. أخبرت السيد بيكو عن أمرها، فأجابني بأن أعد منقوعا منها وأشربه يومياً لئلا أحمل. قال:«انتبهي ألا تفسدي هذه النباتات لأنها غالية، ولكن لا تبالغي بالاهتمام بها فهي، على أية حال، أرخص من كلفة عملية إجهاض».

* * *

إنه لأمرٌ غريبٌ وعصيٌّ على التفسير! ولكني لم أعد أرى الأشياء بعد «ميزواجي» كما كنت أراها قبله. فبومبكين التي لم تكن قد مرّت

WWW.REWITY.COM

بعد بتلك التجربة، بدت لي غرةُ وطفولية، رُغمَ أنها كانت أكبر مني سناً. الأم وتاتي وهاتسومومو ومامها مررن جميعاً بتلك التجربة. فجأةً، وعيت أني أشاركهن بهذا الشيء. بعد «الميزواج»، تسرّح المتدرّبة شعرها بطريقة مختلفة. تضع شريطاً أحمر عند قاعدة كعيكتها المشقوقة، ولا تعود تضع قطعة من القماش بين الفصين. طوال أسابيع، تملّكني شيء واحد: لون الأشرطة في تسريحات المتدرّبات. لم أعد أهتمّ إلا بذلك ، إذ كنت أراقب الفتيات في الشوارع وفي ردهات المدرسة. شعرتُ باحترام خاص للفتيات اللائي عرفن تجربة «الميزواج». أحسستُ بالانعتاق بالنسبة إلى المتدرّبات اللواتي مازلن عذراوات.

بتّ متأكّدةً من أن جميع المتدرّبات غدون مختلفات بعد «ميزواجهنّ». بالنسبة إليّ ذهبت الأمور إلى أبعد من ذلك، فقد تغيرت حياتي اليومية. في الواقع صارت الأم تنظر إليّ بعين أخرى، فهي من النوع الذي لا يهتمّ بالأشياء إلا بحسب سعرها. في الشارع كانت تتحوّل إلى عدّادة:«هو ذا يوكيو الصغير! لقد كلّفت حماقاته أختَه مئة ين في السنة الماضية! وهذه إيشيميتسو! لا بدّ أنها فرحة لأن «دانّاها» يعطيها مبالغ طائلة». إذا مشت الأم على ضفة نهر شيراكاوا في يوم ربيعي بهيج، فهل كانت تتأمل أغصان الأشجار على صفحة الماء؟ لا، إلا إذا كانت تنوي أن تبيع أخشاب أشجار الكرز.

قبل «ميزواجي»، لم تكن تهتمّ إذا ما أعاقت هاتسومومو تقدّمي. أما الآن، وبعد أن أدركت أن بإمكاني أن أقدّم لها كثيراً من المال؛ وضعت حداً لمضايقات هاتسومومو دون أن يكون هناك ضرورة للتدخل. لا أعرف كيف تتصرّف، ولكن لا بدّ أنها تقول لها:

«إذا كانت تصرّفاتكِ يا هاتسومومو ستحرج سايوري، أو ستجلب خسارة للأوكيا فأنتِ من سيدفع»! منذ أن مرضت أمي أصبحت حياتي صعبة. أما الآن، وإلى أجل، فقد تحسّنت أموري. غالباً ماكنتُ تعبةً، خائبةً. في الواقع كنتُ أحس بالتعب باستمرار.

النساء اللواتي يكسبن قوتهنّ في جيون نادراً ما تتاح لهن الفرصة للاسترخاء. والآن، أي ارتياح أحسّ به بعد أن صرت لا أخشى هاتسومومو! في الأوكيّا صارت الحياة مريحةً تقريباً. فلكوني ابنة متبنّاة صرت آكل متى أشاء، وأختار كيمونوي أولاً، ولا أنتظر بومبكين أن تختار أولاً. بعد اختيار الكيمونو الذي سألبسه، تخيطه تاتي على اتساعه، ثم تلفق القبة على اللباس الداخلي، كل هذا قبل أن تهتمّ بهاتسومومو. صارت نظرات الحقد والكراهية التي ترمقني بها عدوتي لا تهمّني. ولكن في كل مرة تبدو فيها بومبكين منشغلةً عني، أو تحوّل وجهها عني عندما تلقاني، فإنها كانت تجرحني. لقد كنت أفكر باستمرار أن صداقتنا ستتمتّن لو كنا في ظروف أخرى، ولكني لم أعد أفكر بذلك.

• • •

بعد «ميزواجي» خرج الدكتور سرطان من حياتي تقريباً. أقول تقريباً لأني كنتُ أصادفه أحياناً في بعض الاحتفالات حتى لو كنا، مامها وأنا، لم نعد نغشى شيراي. ومن ناحية أخرى، لم أرَ البارون قطُ. لم أكن أعرف بالضبط الدور الذي لعبه في صفقة «ميزواجي»، ولكني فهمتُ لماذا كانت مامها تحول دون التقائنا. لا يعادل انزعاجي من البارون، إلا انزعاج مامها مني. لم أشتق لا للبارون ولا للدكتور سرطان.

وبعد، ثمة رجل تعصف بي الرغبة لرؤيته: الرئيس، عرفتَه. لقد بقي خارج مرامي مامها. لذا لم يكن هناك أي مبرر لتتغيّر علاقتي معه أو لانقطاعها بعد «ميزواجي». ومع ذلك أحسستُ بالارتياح عندما علمتُ بعد ثلاثة أسابيع أن إيوامورا إليكتريك قد اتصلت، وأنها تريد حضوري إلى إحدى السهرات. عند وصولي في ذلك المساء، التقيتُ بالرئيس وبنابو. في الماضي كنتُ سأجلس إلى جانب نابو بكل تأكيد، ولكن بما أن الأم تبنّتني، فلم أعد في حاجة لعدّ نابو مخلّصاً لي. حدث أني وجدتُ مكاناً شاغراً بجانب الرئيس، فجلستُ فيه وقلبي يخفق. بدا حميماً جداً. قدّمتُ له الساكي. وقبل أن

WWW.REWITY.COM

يشرب، رفع قدحه ليشكرني. ومع ذلك، لم يعرني أية نظرة طوال السهرة. وبالمقابل، كان نابو يرمقني بنظرة سيئة في كل مرة كنتُ ألتفت نحوه. أعرف شعور النقص هذا، لذا سرعان ما ذهبتُ وجلستُ إلى جانبه، وحرصت على ألا أتجاهله بعد ذلك.

بعد شهر قلت له إني سأذهب إلى هيروشيما لحضور حفل استقبال، وذلك بفضل مامها. لم أكن واثقةً من أنه سمعني. ولكن في اليوم التالي، وأنا عائدة من المدرسة، وجدت حقيبة خشبية للسفر جديدة هي هدية نابو. كانت أجمل بكثير من تلك التي استعرتها من تاتي لحضور حفل استقبال البارون في هاكوني. وأنا التي فكرتُ بإبعاد نابو لأنه لم يلعب أي دور في خطة مامها! أحسست بالخجل، وكتبتُ له رسالة شكر. أكدتُ له بأني متحرّقة لإبداء امتناني له، وهذا ماسأفعله في الأسبوع القادم في حفل استقبال إيوامورا إليكتريك.

ولكن حدث أمر من أغرب الأمور. فقبل الحفل بعدة ساعات، تلقيتُ الرسالة التالية: لم يعودوا في حاجة إليّ أخيراً. ظَنَنْتُ يوكو التي تتلقّى الهواتف في الأوكيّا أن الحفل قد ألغي. مهما يكن من أمر، كان عليّ أن أذهب إلى الإيشيريكي في ذلك المساء، وقد طُلب حضوري إلى حفلٍ آخر. لحظة جثوت أمام الباب، انفتح باب صالون مجاور وظهرت جيشا أخرى تدعى كاتسوي. وقبل أن تغلق الباب، بدا لي أني سمعتُ ضحكة الرئيس. انزعجتُ. نهضتُ، ولحقت بكاتسوي قبل أن تغادر بيت الشاي. قلتُ لها:

- اعذري تطفلي، ولكن ألم تكوني في حفل استقبال إيوامورا إليكتريك؟

- بلى، ولقد تسلّينا كثيراً! هناك على الأقل خمس وعشرون جيشا وأكثر من خمسين رجل.

- هل الرئيس إيوامورا ونابو - سان هنا؟

- نابو لا. إنه مريض منذ الصباح، ولقد اعتذر عن عدم المجيء. ولكن لمَ تسالين؟

قلت جواباً لم أعد أذكره. وذهبت كاتسوي.

WWW.REWITY.COM

حتى الآن كنتُ أظن أن الرئيس يحبّذ حضوري أكثر من نابو. تساءلتُ ما إذا كان ذلك مجرّد وهم. وإذا كان نابو هو الوحيد الذي يهتم بي؟

25

لقد ربحت مامها رهانها. ولم أكن سوى استثمار لديها. كما إنها عرّفتني خلال السنوات التالية على أفضل زبائنها، وعلى جيشاوات جيون. في تلك الفترة، بالكاد كنا خارجين من عصر الانهيار. كانت الولائم التي على ذوقها نادرة. وبعد، كنا منشغلات جداً بالاحتفالات في بيوتات الشاي، والرحلات إلى الريف التي في أثنائها كنا نسبح ونقوم بنزهات سياحية ونحضر مسرحيات للكابوكي. كنا في الصيف، وكنا مسترخين. في الاحتفالات يتسلى الجميع حتى الجيشاوات اللواتي يفترض بهن أن يشتغلن. أحياناً، كنا نتنزّه بالقارب في نهر كامو مع مجموعة من الزبائن. يشربون الساكي، ويبللون أقدامهم بالماء. كنتُ أقلّ عمراً من أن أشارك في هذه الأفراح. وغالباً ما أقوم بكسر قوالب الجليد من أجل الفواكه، ومع ذلك فإنني أظلّ مبتهجةً.

في بعض الأماسي كان رجال الأعمال الأغنياء، أو الأرستقراطيون ينظمون احتفالاتٍ مع جيشاواتٍ في مجموعات صغيرة. ويمضون السهرة في الرقص والغناء والشراب مع الجيشاوات حتى وقتٍ متأخر من الليل. أذكر حفل استقبالٍ خاص. في نهاية تلك السهرة، أعطتنا زوجة المضيف مغلفاً لكل منا، مع إكرامية كبيرة. أعطت مامها مغلفين، وطلبت إليها أن تعطي واحداً لتوميزورو، وهي جيشا غادرت باكراً «لأن رأسها يؤلمها» كما قالت المرأة. وتوميزورو، التي هي عشيقة زوجها، كانت تمضي

الليلة في جناح آخر من البيت، رغم معرفة الزوجة بذلك كما نعرفه جميعاً.

في الاحتفالات الكبيرة في جيون، كنا نقابل فنانين مشهورين: رسامين وكتّاباً وممثلي كابوكي، ونعيش لحظاتٍ سعيدة أحياناً. وبعد، فإن معظم حفلات الاستقبال تطول، وغالباً ما يكون المضيف مديراً لشركة صغيرة، وضيف الشرف موظفاً مرفّعاً حديثاً، أو مورّداً. وقد تتبرع إحدى الجيشاوات وتعطيني درساً، فتقول إن دوري، بوصفي متدربةً، لايقوم على إثارة الإعجاب فحسب، بل على سماع الأحاديث بصمتٍ لكي أصبح فصيحةً. ومع ذلك لم أكن أرغب بسماع أحاديث تافهة. مثلاً: كان رجلٌ يلتفت إلى الجيشا الجالسة إلى يساره، ويقول: «الطقس حارٌ جداً بالنسبة إلى هذا الفصل، ألا ترين ذلك؟» فتجيبه الجيشا: «أوه نعم، الطقس حارٌ حقاً»! بعد ذلك، تلعب معه لعبة من يشرب أكثر، أو تجعل المدعوين يغنون في جوقة. ما يلبث الرجل أن يثمل حتى لايدرك أنه لم يتسلَّ كما كان يأمل. من جهتي، طالما عددت ذلك ضياعاً للوقت. إذا جاء رجلٌ إلى جيون ليمضي وقتاً سعيداً، ويلعب بالحجر أو الورق أو المقص، فحريٌّ به أن يبقى في بيته، برأيي، ويلعبَ مع أولاده أو أحفاده الذين قد يكونون أذكى من تينك الجيشاوات البلهاوات اللواتي معهنّ يخونه حظه ويسقط في جوارهنّ.

ومع ذلك، كنتُ أمضي أحياناً سهراتٍ مع جيشاوات ذكيات مثل مامها. باتصالي بها تعلّمت أشياء كثيرة. فعندما يقول لها رجلٌ: «الطقس حارٌ جداً ألا ترين ذلك؟»، يكون لديها اثنا عشر جواباً ممكناً. فإذا كان الزبون عجوزاً وشهوانياً، تجيبه: «حارٌ؟ قد يكون ذلك بسبب النساء الجميلات من حولك!»، وإذا كان رجلَ أعمال شاباً ووقحاً، فإنها توقفه عند حده قائلةً: «إنك هنا مع ست جيشاوات من أجمل جيشاوات جيون، ولاتجد حديثاً أفضل من الكلام عن الطقس»!

ذات يوم، نظرت إلى مامها وكانت جاثية بجانب شاب لا يتجاوز العشرين من عمره. كان حاضراً في الحفل لأن والده هو

المضيف، ولا يعرف ماذا يقول، أو كيف يتصرّف مع الجيشاوات. لابدّ أنه كان خجولاً. ومع ذلك فقد التفت صوب مامها، وقال لها بشجاعة:

«الطقس حار، أليس كذلك»؟ قالت وهي تخفض بصرها: «أنت على حق، الطقس حار جداً. لو أنكَ رأيتني وأنا خارجة اليوم من الحمام! على العموم، إني أحسّ بالانتعاش عندما أكون عارية. أما هذا الصباح، فقد كانت بشرتي رطبة، على فخذيّ وبطني وسائر جسدي»!

وضع الشاب المسكين قدح الساكي على الطاولة بيد مرتعشة. من المؤكد أنه لم ينسَ تلك السهرة قطّ!

لماذا كانت تلك الاحتفالات مضجرةً جداً؟ أرى سببين لذلك: لم يكن السبب أنّ فتاةً صغيرةً باعها أهلها إلى أحد الأوكيَات، وتلقّت تعليم الجيشا منذ نعومة أظفارها، ستبدو ذكية أو أن لديها كلاماً مهماً تقوله. فهذه الحقيقة تنطبق على الرجال أيضاً. ليس لأن رجلاً كسب مايكفيه من المال ليأتي وينفقه في جيون كما يحلو له، هو مضحك أو مهم، فمعظم الرجال اعتادوا أن يعاملوا باحترام. سيجلسون وأيديهم على ركبهم ويعقدون حواجبهم ويفكرون أن هذا يكفي. ذات يوم، أمضت مامها ساعةً وهي تحكي قصة لرجل لايعيرها أية نظرة، بل كان يراقب المدعوين الآخرين وهي تتكلم. بكل غرابة أحسّ بالرضى عنها، فصار يطلبها كلما أتى إلى جيون.

* * *

بالإضافة إلى هذه الاحتفالات والرحلات، كنتُ أتابع دروسي، وأرقص على المسرح في معظم الأحيان. بعد سنتين، لم أعد متدرّبةً وصرتُ جيشا. كان ذلك طوال عام 1938 وكنتُ في الثامنة عشرة من عمري. أن تصبح المتدرّبة جيشا يعني أن «تغيّر قبّتها». المتدرّبة ترتدي قبّةً حمراء، أما الجيشا فقبّتها بيضاء. وبعد، إذا رأيت متدرّبةً وجيشا تمشيان جنباً إلى جنب في الشارع، فإن القبة هي آخر شيء يمكن أن تلاحظه. المتدرّبة بكيمونوها ذي الأكمام الطويلة، وأوبيها

www.rewity.com ^RAYAHEEN^
WWW.REWITY.COM

الشاحط، تشبه دمية يابانية، أما الجيشا بلباسها الأبسط، فلها هيئة امرأة.

يوم غيّرتُ قبّتي كان من أسعد أيام الأم. لم أفهم السبب مباشرةً. أعرف الآن بماذا كانت تفكّر. فالجيشا، بعكس المتدرّبة، تستطيع أن تقوم بأفعال أخرى غير تقديم الشاي إذا قام اتفاق بشروط مقبولة. نظراً لمخالطتي مامها وشعبيتي في جيون، فقد كان للأم كل الأسباب لكي تحتفل، والاحتفال بالنسبة إليها مرتبط دائماً بالمال.

منذ أن عشت في نيويورك فهمتُ مايقصده الغربيون بكلمة جيشا. في أثناء الاحتفالات الراقية، تقدَّم إليّ صبية ترتدي ملابس أنيقة وتضع مجوهرات. عندما تعرف أني كنتُ جيشا في كيوتو، توجّه إليّ ابتسامة مبتسرة ولا تعود تعرف ماذا تقول! والشخص الذي عرّفنا ببعضنا يتسلّم الحديث، فبعد كل هذه السنوات، ماأزال أتكلّم الإنكليزية بصورة سيئة جداً. للأسف،في تلك المرحلة، من العبث محاولة التواصل لأن المرأة تفكر:«يا إلهي! إني أتحدّث إلى عاهرة!» بعد عدة دقائق، يأتي فارسها، وهو رجل غني يكبرها بثلاثين أو أربعين سنة. غالباً ماأتساءل: كيف يمكنها أن تغطي وجهها هكذا؟ إنها امرأة أنفق عليها المال، مثلي، في الماضي.

بلا شك، ثمة أشياء كثيرة أجهلها عن هذه النسوة المتأنقات. وبعد، غالباً ما ينمو لدي الانطباع أنه لولا عشاقهن الأغنياء، أو أزواجهن الأغنياء، فإن عدداً منهنَّ يجب أن يكافحن من أجل البقاء، وما كان لديهن مثل هذا الاعتداد بأنفسهنَّ. ينطبق الحكم على جيشا من الطبقة العليا. من المستحسن الذهاب من احتفالٍ إلى احتفال وإثارة إعجاب الرجال، ولكنها إذا أرادت أن تصبح نجمةً في الرقص، فإنها ترتبط كلياً بـ«دانّاها». حتى مامها التي أصبحت مشهورةً بعد تلك الحملة الدعائية؛ كانت ستتراجع في سلم الجيشاوات لولم يغطِّ البارون النفقات المتعلقة بعملها.

بعد ثلاثة أسابيع من تغييري للقَبّة، كنت أتناول غذاءً سريعاً في الصالون عندما أتت الأم وجلست مقابلي. مكثت لبعض الوقت تسحب

من غليونها. كنت أقرأ وأنا آكل، ولكني قطعت قراءتي من باب التهذيب، رُغمَ أن الأم لايبدو أن لديها أشياء مهمة لتقولها لي. بعد بضع دقائق، وضعت الغليون وقالت: «لاينبغي لك أن تأكلي من هذا الفجل المملح، فقد يؤذي أسنانك. انظري كيف هي حال أسناني».

وهكذا كانت الأم تظن أن سبب البقع على أسنانها هو الخضار المملحة! بعد أن أرتني داخل فمها، أمسكت بالغليون وسحبت منه. قلت لها:

ـ تاتي تحب كثيراً الفجل المملح ياسيدتي، وأسنانها في حالٍ جيدة.

ـ ما أهمية أن يكون لها أسنان جيدة، أو لايكون؟ فليس لها علاقةٌ بالفم الجميل الصغير. قولي للطباخة ألا تعطيك بعد الآن فجلاً مملحاً. أخيراً أنا لم آتِ إلى هنا لأعطيك درساً عن الخضار بالخل، بل لأقول لك إنه في الشهر القادم في مثل هذا التاريخ سيكون لك «دانّا».

ـ «دانّا»؟ عمري ثمانية عشر عاماً فقط...

ـ لم تحصل هاتسومومو على دانّا إلا في العشرين، وبالطبع لم يدم ذلك. حريّ بك أن تفرحي!

ـ إني فرحة. ولكن الاهتمام بـ«دانّا» سيأخذ مني وقتاً. ترى مامها أنه يجب عليّ أولاً أن أكون معروفةً لمدة سنتين أو ثلاث.

ـ مامها! لأنها موهوبةٌ في الأعمال، ربما! عندما أريد أن أعرف في أية لحظة يجب أن أضحك في احتفالٍ؛ سأذهب وأسألها.

اليوم، تنهض الفتيات عن الطاولة ويصرخن في وجوه أمهاتهنَّ، حتى في اليابان. أما في أيامي، فقد كنّا ننحني ونقول:«نعم ياسيدتي!»، ثم نعتذر. وهذا ما فعلته. قالت الأم:

ـ دعيني أهتم بأعمالك. سنكون أغبياء إذا ما رفضنا عرض نابو توشيكازو.

كاد قلبي يتوقف. وبعد، من المؤكد أن نابو كان سيعرض نفسه

WWW.REWITY.COM

ذات يوم ليكون «دانّا» لي. فقد قدم عرضاً لـ«ميزواجي» قبل عدة سنوات. ومنذ ذلك الحين ما من رجلٍ طلب صحبتي مثله. لقد توقعت هذا الاحتمال دون أن أصدقه. يوم التقيت بنابو قال لي كتاب نجومي: «مزيجٌ من تأثيراتٍ جيدة وسيئة يمكنه أن يحول مجرى قدرك». ومنذ ذلك الحين كنت أفكر فيه يومياً تقريباً. تأثيراتٌ جيدة وسيئة... إنها مامها وهاتسومومو؛ تبنيّ و«ميزواجي». الرئيس ونابو. أنا لاأقول إني لم أحب نابو، كنت أحبه كثيراً، ولكن أن أصبح عشيقته؛ فهذا سيحرمني من الرئيس نهائياً.

لابدَّ أن الأم رأت في هذا الخبر صدمةً لي، مهما كانت ردة فِعْلي فقد أزعجتها. ولكن قبل أن تتمكن من الكلام، سمعنا صوتاً مخنوقاً في الممر. ظهرت هاتسومومو وفي يدها زبدية أرز، وذلك فعلٌ ينم عن قلة تهذيب، إذ كان عليها أن تنهيه على الطاولة. بلعت اللقمة، ثم انفجرت ضاحكةً وقالت:

ـ أتريدين أن أختنق أيتها الأم؟

يبدو أنها سمعت حديثنا.

أضافت:

ـ وهكذا سيكون لسايوري العظيمة «دانّا»، وهو نابو. أليس ذلك رائعاً؟

ـ إذا كان لديك كلام مهم، قوليه!

ـ نعم، لدي كلام مهم!

أتت وجلست إلى الطاولة، ثم قالت:

ـ ربما لم تدركي يا سايوري ـ سان! ولكن عندما يكون لإحدى الجيشاوات «دانّا» فقد تحمل. و«الدانّا» لايحبّ أن تلد عشيقته طفلاً ليس منه. فعليك أن تنتبهي انتباهاً مضاعفاً مع نابو. لأنه سيعرف مباشرةً إن كان طفله أم لا: يكفي أن تكون للطفل يدان كجميع البشر!

ضحكت هاتسومومو على دعابتها الصغيرة، فقالت الأم:

ـ عليك أن تبتري ذراعك ياهاتسومومو، إذا كان ذلك سيسمح لك بالنجاح مثل نابو توشيكازو.

ـ بلا شك، هذا سيساعدني أيضاً على أن يكون لي وجه كهذا!

قالت ذلك وهي ترفع زبدية الأرز لكي نستطيع أن نرى ما بداخلها.

كانت تأكل الأرز مخلوطاً بالأزوكي، فبدا وكأنه جلدٌ مغطى بالتجاعيد.

• • •

بعد الظهر، أصابني صداع. قصدتُ بيتَ مامها، جلستُ إلى طاولتها وشربتُ منقوع الشعير المجمّد، فقد كنا في الصيف، وحاولتُ ألا أبدي حالتي النفسية السيئة. منذ سنوات، لم يكن لي سوى هدف واحد: أن أجعل من الرئيس «دانّاي». إذا كانت حياتي ستختصر إلى نابو، ومشاهد رقص، وسلسلة من السهرات في جيون؛ فما فائدة كل هذه الجهود المبذولة؟

لم أكن قد عرضتُ بعد سبب زيارتي. وضعتُ كأسي على الطاولة. لم أجرؤ على الكلام خشية أن يبحّ صوتي. صمتُّ بضع ثوانٍ أخرى لكي أهدأ. جرضتُ ريقي، ثم قلت:

ـ قالت لي الأم إنه سيكون لي «دانّا» في الشهر القادم.

ـ نعم، أعرف. سيكون نابو توشيكازو.

خشيتُ من جديد أن أنفجر باكيةً، لكن مامها أضافت:

ـ نابو ـ سان رجل بالغ الطيبة، وهو يحبكِ كثيراً.

ـ نعم يا مامها ـ سان! ولكن كيف أقول... ولكنه ليس طلبي.

ـ وأخيراً ياسايوري، لطالما عاملكِ نابو بلطف!

ـ ليس اللطف هو ما أريده يا مامها ـ سان!

ـ حسنٌ، الناس جميعاً يرغبون في اللطف. لربما تريدين شيئاً آخر غير اللطف. وهذا ما لا يحقّ للجيشا أن تطمع فيه.

WWW.REWITY.COM

كانت على حق. انفجرتُ باكيةً. وضعتُ رأسي على الطاولة وبكيتُ طويلاً. انتظرتْ مامها حتى هدأتُ، ثم سألتني:

ـ ماذا تريدين يا سايوري؟

ـ شيئاً آخر!

ـ ربما كان نابو غير جميل المنظر، ولكن...

ـ ليس الأمر كذلك يا مامها ـ سان! نابو رجل رائع. في الحقيقة إنني...

ـ تريدين أن يكون لك نصيب شيزوي نفسه، أليس كذلك؟

عُدَّت شيزوي أسعد امرأة في جيون رُغمَ كونها جيشا غير مرغوبة كثيراً. منذ ثلاثين سنة وهي عشيقة صيدلي. لم يكن غنياً، ولم تكن جميلة، ولكن لم يوجد من هو أسعد منهما في كيوتو كلِّها. لقد حزرت مامها ما أقصده كعادتها دائماً. قالت:

ـ أنتِ في الثامنة عشرة يا سايوري. لا أنتِ ولا أنا نستطيع أن نعرف قدرنا. ليس هناك سوى أقدار استثنائية، وأحياناً تكون الحياة مجرّد صراع يومي طويل.

ـ ولكنها قاسية جداً يامامها ـ سان!

ـ نعم هي قاسية جداً ولكن لا أحد يهرب من قدره.

ـ أوه، لا أريد أن أهرب من قدري. فنابو رجل. وحريٌّ بي أن أشعر بالامتنان له، ولكن... ثمة أشياء كثيرة حلمتُ بها!

ـ وتخشين ألا تتحقق إذا ما لمسكِ نابو؟ ماذا تتوقعين من حياة الجيشا يا سايوري؟ إننا لا نصبح جيشاوات لنتمتّع بالحياة، بل لأنه ليس لدينا من خيار آخر.

ـ أوه، يا مامها ـ سان، هل كنتُ حقاً غبية عندما أملتُ أنه ذات يوم، ربما....

ـ تتخيل الفتيات أموراً تافهة! الآمال هي كالشكلات التي توضع في الشعر. لدى الفتيات الكثير منها. وعندما يصبحن عجائز، يكفي أن يضعنها لكي يصبحن مضحكات.

ضبطتُ انفعالاتي هذه المرة. ونجحت في كبح دموعي إلا الدمعتين اللتين تكوّرتا في زاويتَيْ عينيّ كالصمغ على شجرة. قلت لها:

ـ هل تشعرين بعواطف عميقة نحو البارون يا مامها ـ سان؟

ـ لقد كان البارون «دانّا» طيباً.

ـ بالتأكيد، ولكن هل تشعرين بعواطف نحوه بوصفه رجلاً؟ بعض الجيشاوات لديهنّ عواطف تجاه «دانّاهنّ»، أليس كذلك؟

ـ العلاقة التي أقيمها مع البارون تناسبه وتفيدني. وإذا كان هناك حب بيننا... والحب يعني الغيرة. قد يتحوّل هذا النوع من الحب إلى كراهية. لا أستطيع الاعتماد على رجل قوي. لقد صارعتُ طويلاً حتى وجدتُ لنفسي مكاناً في جيون، ولكن إذا قرر رجل قوي أن يدمّرني، فسيستطيع ذلك! إذا أردتِ النجاح يا سايوري، فتأكدي من أن تبقى مشاعر الرجال تحت «سيطرتك». البارون رجل لا يطاق أحياناً، ولكن لديه كثير من المال، وهو لا يتردد في إنفاقه. ومن نعمة السماء عليّ أنه لا يريد أطفالاً. سيكون نابو تحدياً بالنسبة إليكِ، ولن أفاجأ إذا توقّع منكِ أموراً كثيرة. لم يكن للبارون هذه المتطلبات قطُّ.

ـ ولكن يا مامها ـ سان، عواطفكِ أنتِ... ألم يكن هناك قطُّ رجل يـ...

كنتُ أتساءل ما إذا عرفتْ جنون الحب يوماً. كان انزعاجها واضحاً. انتصبت ويداها على ركبتيها. كانت ستزجرني كما ظننتُ، فاعتذرتُ عن تطفلي، فاسترخت، ثم قالت:

ـ أنتِ ونابو لديكما «آن» يا سايوري. ولن تستطيعي الفرار منه.

كانت محقّة. فالـ«آن» علاقة قدرية تدوم مدى الحياة. واليوم، يؤمن الناس بالاختيار الحر. في أيامنا، كنا نعدّ أنفسنا كقطع من الصلصال التي تحتفظ ببصمات كل من لمسها. لقد طُبعت بصمات نابو عميقاً في داخلي أكثر من بصمات آخرين كثيرين. هل سيكتمل

WWW.REWITY.COM

قدري معه؟ من المستحيل معرفة ذلك، ولكني كنتُ أحسّ دائماً بهذه العلاقة القدرية بيننا. سيشكّل نابو جزءاً من حياتي باستمرار. في الثامنة عشرة من عمري كنتُ قد فهمتُ أموراً كثيرة، ولكن هل الدرس الأسوأ سيأتي؟ هل يجب عليّ أن أتخلّى عن أحلامي؟

قالت مامها:

ـ عودي إلى الأوكيّا يا سايوري، وجهزي نفسكِ للسهرة. ليس أفضل من العمل للتغلّب على خيبة الأمل.

رفعتُ عينيّ نحوها استعداداً لصياغة طلب أخير، فتراجعتُ لمّا رأيتُ تعبير وجهها. لا أعرف بماذا كانت تفكر. بدت تحملق في الفراغ. والوجه البيضوي بدا متشنجاً بفعل التوتر الداخلي. أطلقت زفرةً قوية، وبمرارةٍ أخفضت بصرها صوب كأس الشاي.

* * *

تفتخر المرأة التي تمتلك بيتاً فخماً بموجوداته كلها. ولكن ما إن تلتهم النيران البيت، تراها تأخذ شيئين أو ثلاثة مما تريد أن تنقذه. في الأيام التي تلت حديثي مع مامها، نما لديّ انطباع بأن حياتي تبدو دخاناً. بدا لي أن لاشيء يستحق الاهتمام بعد أن يصبح نابو «دانّاي». ذات مساء حزين في الإيشيريكي، تبدّى لي طفلٌ تائهٌ في الغابة تحت الثلج. نظرتُ إلى الرجال الشّيب الذين ينبغي لي أن أسلّيهم: كانوا أشجاراً مغطاة بالثلج! استبدّ بي الرعب، وأحسستُ لبضع لحظات أني آخر مخلوق حي على وجه الأرض.

كانت السهرات مع العسكر هي الوحيدة التي تعيد قليلاً من المعنى لحياتي. في العام 1938، كنا نسمع يومياً بلاغات عن الحرب في منشورية. كل مساء، كانت أشياء صغيرة تذكّرنا بأن قواتنا كانت تقاتل في الطرف الآخر من البحر: فطور الشمس المشرقة، على سبيل المثال. طبق أرز مع خوخة مملحة في وسطه تذكّر بالعلم الياباني. منذ عدة أجيال وضباط البحرية والجيش البري يأتون إلى جيون ليتسلّوا. واليوم يقولون، إن هذه السهرات تمنحهم الشجاعة. لا بدّ أن الجنود كانوا يقولون هذا الكلام نفسه لجميع النساء اللاتي كن

يسمعنهم. وأسهمتُ في المجهود الحربي، أنا الفتاة الصغيرة التي تربّت على شاطئ البحر! لم تطرد هذه الاحتفالات حزني، ولكنها سمحت لي بأن أعده: سوداوية أنانية.

* * *

مرت عدة أسابيع. وذات مساء، في مدخل الإيشيريكي قالت لي مامها إنها ستعلن نتيجة رهانها. فقد كانت الأم ومامها قد تراهنتا على أنني سأستطيع، أو لن أستطيع، أن أسدد جميع ديوني قبل سن العشرين، وقد سددتها جميعاً وأنا في الثامنة عشرة. قالت لي مامها: «لقد غيّرتِ قبّتكِ، ولم يعد هناك من مبرر للانتظار أكثر».

برأيي، كانت الحقيقة أعقد من ذلك بكثير. فقد كانت مامها تعرف أن الأم تكره تسديد ديونها، وأنها غير مستعدةٍ لذلك مادام الرهان يكبر. ستتزايد أرباحي بمجرّد أن يكون لي «دانّا». وسيثير هذا الدخل غيرة الأم. ورأت مامها أنه من الأفضل لها أن تستعيد أموالها بأسرع وقت ممكن. وستتمكن فيما بعد من الاهتمام بأرباحي المقبلة.

بعد يومين، طُلبتُ للنزول إلى صالون الأوكيّا حيث وجدتُ الأم ومامها جالستين إلى الطاولة وجهاً لوجه. كان الصيف، وكانتا تتحدّثان عن الحرارة. إلى جانب مامها جلست امرأة شعرها أشيب هي السيدة أوكادا وكنتُ أعرفها، فهي تدير الأوكيّا الذي تربّت فيه مامها وتدير حساباته مقابل نسبة مئوية قليلة تأخذها على الدخل. لم أرها قط بهذه الهيئة الجدية. كانت تنظر إلى الطاولة مادام الحديث لا يعنيها.

قالت لي الأم:

ـ ها قد أتيتِ. لقد تلطّفت أختكِ الكبرى وزارتنا، واصطحبت معها السيدة أوكادا، وتقتضي اللياقة أن تنضمّي إلينا.

بدأت السيدة أوكادا الكلام، وعيناها ماتزالان تنظران إلى غطاء الطاولة. قالت:

ـ لا أعرف ما إذا كانت مامها قد أخبرتكِ على الهاتف يا سيدة

WWW.REWITY.COM

نيتا. ولكننا هنا في موعد عمل أكثر منه زيارة مجاملة. سايوري ليست مضطرة للانضمام إلينا، فلديها مشاغل على ما أتصوّر.

ـ لا أريدها أن تكون قليلة الذوق. ستجالسنا بضع الدقائق التي ستشرّفاننا بحضوركما خلالها.

جلستُ إلى جانب الأم. أتت الخادمة وقدمت الشاي. بعد ذلك، قالت ماميها:

ـ يجب عليكِ أن تفتخري بنجاح ابنتكِ يا سيدة نيتا. إنه نجاح تجاوز توقّعاتنا كلها. ألا توافقينني؟

ـ وما أدراني بتوقّعاتكِ يا ماميها ـ سان؟

ضحكت الأم بعد ذلك ضحكتها الرنانة، ثم نظرت إلينا الواحدة تلو الأخرى لترى مدى تأثير ملاحظتها اللمّاحة علينا. لم يضحك أحد. وضعت السيدة أوكادا نظارتها، ثم تنحنحت. قالت الأم:

ـ فيما يخص توقّعاتي أنا، ماتزال سايوري بعيدة عن تحقيقها.

ـ عندما تحدّثنا في موضوعها منذ بضع سنوات، أذكر أنّ رأيكِ فيها سيّء. بل كنتِ ترفضين فكرة أن أهتمّ بعملها.

ـ لم أكن واثقةً أن من الحكمة وضع مستقبل سايوري في يدي شخصٍ من خارج الأوكيّا. آمل أن تسامحيني. فلدينا هاتسومومو كما تعرفين.

ـ أوه الرحمة ياسيدة نيتا! كانت هاتسومومو ستخنق الفتاة المسكينة بدلاً من أن تعلمها المهنة!

ـ أوافقكِ على أن هاتسومومو قد تكون صعبةً، ولكن مع فتاة غير عادية مثل سايوري يجب اتخاذ القرارات الصحيحة في الوقت الصحيح كهذا الاتفاق الذي اتفقنا عليه يا ماميها ـ سان. أتصور أنكما هنا من أجل إجراء الحسابات.

ـ لقد تكرّمت السيدة أوكادا وأتت بالأرقام على الورق، وسأكون ممتنةً لك لو تفحصتها.

رفعت السيدو أوكادا نظارتها، وأخرجت دفتر حسابات من أحد الأكياس. بقيت وماميها صامتتين، بينما كانت تفتح الدفتر على الطاولة، وتشرح للأم عن كل عمودٍ من أعمدة الأرقام. قالت الأم مستغربةً:

ـ أهذا مجموع أرباح سايوري في السنة الماضية؟ إنها أكبر من دخول أوكيّانا؟! مستحيل!

ـ نعم هذه الأرقام كبيرة، ولكنها دقيقة على ما أعتقد. فهي ما نقلها إليّ مكتب تسجيل جيون.

صرّت الأم أسنانها وضحكت، لكي تداري اضطرابها بكل تأكيد، ثم قالت:

ـ ربما كان عليَّ أن أراقبَ الحسابات أكثر.

بعد حوالى عشر دقائق، اتفقت المرأتان على المبلغ الذي ربحته منذ بداية عملي. أخرجت السيدة أوكادا من الكيس محسباً صغيراً وأجرت بعض الحسابات مسجلةً بعض الأرقام على صفحةٍ بيضاء من دفتر الحسابات. وفي النهاية كتبت الرقم النهائي. وضعت تحته خط، وقالت:

ـ هذا هو المبلغ الذي يحق لماميها ـ سان أن تقبضه.

ـ نظراً للطيبة التي أدتها نحو سايوري تستحق ماميها ـ سان أكثر من هذا. للأسف، بحسب اتفاقنا، فقد تعهدت أن تقلص أرباحها إلى النصف حتى تسدد سايوري ديونها. وبما أن الديون قد سددت، فستقبض ماميها النصف الآخر كباقٍ من الحساب كله.

ـ ظننتُ أن ماميها ستأخذ نصف تعرفتها المعتادة، ولكن ستكون قد دفعت الضعف أخيراً. ولهذا قبلت أن تتجشم هذا العناء. لو لم تسدد سايوري ديونها، لما كان من حق ماميها أن تقبض نصف المبلغ. ولكن سايوري نجحت، فعلى ماميها أن تقبض الضعف.

ـ أخيراً هل تظنين أني أقبلُ مثل هذا الاتفاق ياسيدة أوكادا؟! أهل جيون جميعاً يعرفون إلى أية درجةٍ أحرص على المال. لقد

www.rewity.com ^RAYAHEEN^
www.rewity.com ^RAYAHEEN^
WWW.REWITY.COM

كانت مامها مفيدةً جداً لسايوري. وأنا لاأستطيع أن أدفع الضعف، ولكني سأضيف عشرة في المئة وذلك عرضٌ كريم برأيي؛ لأن أوكيّانا لايستطيع أن يلقيَ بالمال من النوافذ.

ما كان لأحدٍ قطُّ أن يشكك في كلام معلمة أوكيّا، أية معلمة أوكيّا ما عدا الأم التي قررت أن تكذب. ران صمتٌ، قالت بعده السيدة أوكادا:

ـ إنك تضعينني في موقفٍ حرج يا سيدة نيتا. إني أتذكر جيداً ما قالته لي مامها.

ـ هذا طبيعي. مامها تتذكر شيئاً، وأنا أتذكر شيئاً آخر. يلزمنا شخصٌ ثالث ليحسم الأمر بيننا. ولحسن الحظ لدينا هذا الشخص. صحيحٌ أن سايوري كانت طفلةً، في تلك الفترة، ولكنها تتذكر الأرقام.

ـ لاأشك في ذلك ياسيدة نيتا. ولكن لسايوري فوائد في الصفقة فهي في النهاية ابنة الأوكيّا الوحيدة.

قالت مامها التي لم تتكلم منذ بعض الوقت:

ـ نعم، ولكنها فتاةٌ مستقيمة، وبرأيي كلامها صحيحٌ إذا قبلت السيدة نيتا رأيها.

ـ بكل تأكيد سأقبل رأيها. إذاً يا سايوري، مالأمر؟

لو خُيِّرتُ بين أن أنزلق من جديد عن السطح وأكسر يدي، أو أجيب على سؤالهما، لاخترت الحل الأول بلا تردد. من بين جميع نساء جيون كانت الأم ومامها الوحيدتين اللتين أثرتا على حياتي، وها أنا ذا سوف أُغضب إحداهما. كنت أتذكر تماماً الاتفاق الذي وقعتاه، ولكن من ناحية أخرى، كان يجب عليَّ أن أتابع حياتي في الأوكيّا مع الأم. وبعد، فلقد ربتني مامها وساندتني وساعدتني، ولا يمكنني أن أقف مع الأم ضدها. حثتني الأم قائلةً:

ـ إيه؟

ـ أذكر أن مامها قبلت أن تقبض نصف الأرباح التي تستحقها

فقط. ولكنك قبلتِ أن تعطيها الضعف في نهاية الحساب. أنا آسفةٌ أيتها الأم، ولكن هذا ما أتذكره.

ران الصمت من جديد، ثم قالت الأم:

ـ أنا لم أعد صغيرةً! وليست تلك أول مرة تخونني فيها ذاكرتي.

قالت السيدة أوكادا:

ـ لدينا جميعاً هذه المشكلة بين وقت وآخر. ولكن ألم تقدمي عشرة في المئة كمبلغ إضافي لمامها؟ إنها عشرة في المئة على ضعف المبلغ الذي قبلتِ أن تدفعيه في الأصل على ما أفترض.

زفرت الأم قائلةً:

ـ آه لو أستطيع أن أفعل هذا الأمر.

ـ ولكنك اقترحته منذ خمس دقائق فقط. أظن أنك لم تغيري رأيك.

كانت السيدة أوكادا قد كفت عن النظر إلى غطاء الطاولة؛ لتنظر إلى الأم، ثم لتقول:

ـ لنتوقف هنا اليوم. وسنلتقي في يوم آخر، لكي نضع الرقم النهائي.

صدر عن الأم تعبيرُ ضجرٍ، ولكنها قبلت بهزةٍ خفيفةٍ من رأسها، وشكرت ضيفتينا على قدومهما.

قالت السيدة أوكادا وهي تضع محسبها داخل الكيس:

ـ لابدَّ أنك سعيدةٌ، لأن يكون لسايوري «دانًا» قريباً، فما يزال عمرها ثمانية عشر عاماً! إنها صغيرةٌ على اتخاذ مثل هذه الخطوة.

قالت الأم:

ـ برأيي، كانت مامها قادرةً على ذلك عندما كانت في سنها.

قالت مامها:

ـ ثمانية عشر عاماً سنٌّ قليل على معظم الفتيات. وبعد، فإني

WWW.REWITY.COM

واثقةً من أن السيدة نيتا قد اتخذت القرار الصحيح بشأن سايوري.

سحبت الأم من غليونها وهي تنظر إلى مامها لبعض الوقت، ثم قالت:

ـ لديَّ نصيحةٌ أسديها إليك يا مامها، اكتفي بتعليم سايوري كيف تدور عينيها، الأمر الذي تجيده تماماً، أما بشأن قرارات الأعمال؛ فاتركيها لي.

ـ لم أتنطح قطُّ إلى مناقشة الأعمال معك يا سيدة نيتا! لقد اتخذت قراراً حكيماً، وأنا مقتنعةٌ به. ولكن هل لي أن أسألك؟ هل صحيحٌ أن نابو توشيكازو قدّم العرض الأفضل؟

ـ إنه العرض الوحيد الذي حصلنا عليه، كذلك هو الأفضل.

ـ العرض الوحيد؟ للأسف... إن الأسعار ترتفع عندما يتنافس الرجال، ألا توافقينني الرأي؟

ـ دعيني أُديرُ أعمال سايوري يا مامها ـ سان. لدي خبرةٌ في الحصول على أفضل سعر من نابو توشيكازو.

ـ أحبذ أن أعرفها، إذا لم يكن ذلك يزعجك.

وضعت الأم غليونها على الطاولة. ظننتُ أنها ستزجر مامها، ولكنها قالت:

ـ نعم، سأقولها لكِ مادمنا فتحنا الموضوع، ولربما استطعتِ مساعدتي. فكّرتُ أن نابو توشيكازو سيصبح أكثر كرماً عندما يعرف أن إيوامورا إليكتريك هي التي صنعت المبرّد الذي قتل غراني. فما رأيكِ؟

ـ أوه، إن معرفتي قليلة جداً في الأعمال يا سيدة نيتا.

ـ يمكنكما أن تزلقا هذا في حديثكما عندما تريانه في المرة القادمة، أنتِ وسايوري. فليعلم، أي مقلب أعطاني. وإني على ثقة بأنه سوف يعوض علينا خسارتنا.

ـ نعم، إنها فكرة صائبة. ولكن لديَّ انطباعٌ بأن رجلاً آخر يتوق إلى صحبة سايوري.

ـ مئة ين. مئة ين سيأتي من هذا الرجل أو ذاك.

ـ نعم في معظم الأحيان. ولكن الرجل الذي أقصده هو الجنرال توتوري جونوسوكي...

بعد ذلك، فقدتُ خيط الحديث. كانت مامها تحاول أن تجد لي «دانّا» آخر! لم أتوقّع ذلك. هل غيّرت رأيها وقررت أن تساعدني، أم أنها تشكرني لأني وقفتُ معها؟ ربما كان لديها خطتها الخاصة بي. كنتُ أجيل هذه الأفكار في رأسي عندما لكزتني الأم بأنبوب غليونها، قائلةً:

ـ إيه ؟

ـ سيدتي؟

ـ سألتكِ إن كنتِ تعرفين الجنرال!

ـ لقد التقيته مرتين أو ثلاث مرات. غالباً ما يأتي إلى جيون.

لا أعرف لماذا أجبتها هكذا. في الحقيقة، كنتُ أراه في معظم الأحيان. كان يأتي أسبوعياً إلى جيون مدعواً من عدة مضيفين. هو قصير القامة، أقصر مني في الواقع. ولكنه لم يكن من نوع الرجال الذين يُنسونَ بسرعة، وهل تنسى سبطانة بندقية وُجّهت إليك؟ كان يقوم بحركات عصبية، ويدخن سيجارة بعد سيجارة. لم أره إلا عبر سحائب من دخان. ذات مساء أفرط في الشراب، وحدّثني طويلاً عن مختلف الرتب العسكرية. لم أستطع حفظها، فضحك مني كثيراً. كانت رتبته «شو ـ جو»، أي: «جنرال صغير»، أو: «جنرال مع نجمة». وأنا، لغبائي، استهنتُ بالأمر. لا بدّ أنه قلّل من شأن رتبته من باب التواضع.

قالت مامها للأم إنه رُقّيَ من جديد: أصبح مسؤولاً عن تموين الجيش. وتلك مهمة قريبة جداً من مهمة ربة المنزل عندما تذهب إلى السوق. على سبيل المثال: إذا نقص حجر تحبير في الجيش، فعلى الجنرال أن يؤمنها بثمن رخيص.

WWW.REWITY.COM

- عمل جديد يسمح له باتخاذ عشيقة لأول مرة في حياته. وأنا واثقة تقريباً من أنه يهتم بسايوري.

- وبعد؟ العسكري لا يهتم بالجيشا مثل الأرستقراطي، أو رجل الأعمال.

- ربما كان كلامُكِ صحيحاً يا سيدة نيتا، ولكن قد يكون الجنرال مفيداً لأوكيّاكِ.

- كلام فارغ! لستُ في حاجة إلى مساعدة أحد لإدارة الأوكيّا. ما يلزمني هو دخل كبير ومنتظم، وهذا لا يستطيع رجلٌ عسكري أن يؤمّنه.

- إننا مميَّزون هنا في جيون، ولكن إذا ما استمرّت الحرب، فسوف نعاني من التقنين.

- إذا استمرت الحرب، نعم، ولكنها ستنتهي خلال ستة أشهر.

- وعندما ستنتهي الحرب، سيكون للعسكريين نفوذ أكبر. لا تنسي يا سيدة نيتا أن الجنرال مسؤول عن تموين الجيش كله. ما من أحد غيره في اليابان قادر على أن يؤمّن لكِ كل ماتحتاجينه، سواءً انتهت الحرب، أم استمرّت. إنه هو من يقرّر سير البضائع.

تغيّر موقف الأم عندما حدّثتها مامها عن الجنرال! أخذت تفكر وتحسب في ذهنها ما يمكن للجنرال أن يجلبه للأوكيّا! ألقت نظرةً خاطفة على إبريق الشاي وهي تقول كما تصورتها:«أجد الشاي بسهولة، الآن، رُغمَ أن سعرها قفز...». بعد ذلك دسّت يدها في أوبيها. وجَسّتْ كيس التبغ الحريري لكي تعرف كم بقي لديها من التبغ.

* * *

في الأسبوع التالي، قامت الأم بجولات في جيون كلها، واتصلت هاتفياً لكي تجمع أكثر معلومات ممكنة عن الجنرال توتوري. لقد شغلتها هذه المهمة كلياً. بالكاد كانت تسمعني عندما أكلمها. راحت الأفكار تتزاحم في رأسها، وكأنها قطار يجر عربات كثيرة.

في تلك الأثناء، ظللتُ أرى نابو كلما أتى إلى جيون. رأيتُ من صالحي أن يعتقد أن شيئاً لم يتغيّر. لا بدّ أنه كان يفكّر أننا سنصبح عشاقاً ابتداءً من منتصف تموز. مَرَّ تموز، ولم يصبح «دانّاي». في الأسابيع التالية فاجأته عدة مرات وهو ينظر إليّ بحيرة. ذات مساء، حيّا معلمة الإيشيريكي تحية شبه مهينة: بهزّة خفيفة من رأسه وهو يمر من أمامها مسرعاً. لطالما عدّت تلك المرأة نابو زبوناً جيداً. نظرت إليّ نظرة قلق ومفاجأة في آنٍ معاً. عندما دخلتُ إلى القاعة التي كان نابو يقيم فيها حفل استقباله، لا حظتُ لديه تعابير غضب: الفك المتشنّج والساكي الذي شربه دفعةً واحدة. لم أستطع أن ألومه على شعوره هذا. لا بدّ أنه عدّني بلا قلب لتجاهلي إياه بعد كل جمائله معي. انتابني حزن كبير، ثم أجفلني صوت ارتطام كأس الساكي على الطاولة. رفعتُ عينيّ، فكان نابو ينظر إليّ وحولنا، كان المدعوون يضحكون ويسمرون. وهو ينظر إليّ تائهاً في أفكاره، مثلي تماماً. كنا كقطعتي فحم مبلّلتين في منقل.

في أيلول 1938، شربتُ والجنرال توتوري الساكي معاً في احتفال في الإيشيريكي. كنتُ في الثامنة عشرة من عمري، وقد شاركتُ سابقاً مرتين في هذا النوع من الاحتفالات: مرة مع مامها، عندما أصبحت أختي الكبرى؛ ومرة مع الدكتور سرطان قبل «ميزواجي». في الأسابيع التالية، هنّأ الجميع الأم لأنها هيّأت مثل هذا الائتلاف المبارك.

في المساء، بعد الاحتفال، ذهبت بحسب تعليمات الجنرال إلى فندق صغير في شمال شرق كيوتو. لم يكن لهذا الفندق، «سورويا» إلا ثلاث غرف. أحسست بالانقباض لوجودي في مثل هذا المكان الكريه. فقد اعتدتُ على الفخامة! فاحت من الغرفة رائحة العفونة،

www.rewity.com ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

وكانت التاتاميات رطبةً إلى درجة أنها تنش عندما أسير فوقها. في إحدى الزوايا وعلى الأرض؛ رأيت كومةً صغيرةً من الحوار المحتوت. سمعت رجلاً يقرأ مقالاً في جريدة بصوت عال في غرفة مجاورة. جثوت على الأرض بجانب الباب وكنت ماأزال منزعجةً. ولكني أحسست بارتياح حقيقي عندما وصل الجنرال. حييته. أشعل المذياع، ثم جلس ليشرب البيرة.

بعد لحظة، نزل إلى الطابق الأرضي ليستحم، ثم عاد، وخلع ثوب الحمام، وتنزه في الغرفة كامل العري. كان له بطنٌ صغيرٌ منتفخ، وتحته جزةٌ كبيرةٌ من الشعر الأسود. لم أكن قد رأيت في حياتي رجلاً عارياً. بدت لي مؤخرته الرخوة مضحكةً. وعندما التفت وقع بصري على المكان الذي يفترض أن يوجد فيه «أنقليسه». كان شيءٌ ما يتدلى من هناك، ظهر عندما تمدد الجنرال على ظهره وطلب إليّ أن أخلع ملابسي. كان رجلاً ضئيلاً جداً لايبدو عليه القلق، وبخاصة عندما كان يعطيني الأوامر. قلقت وأنا أقترب منه: فهل سأجد وسيلةً لارضائه؟ ولكن ماعليّ إلا أن أتبع تعليماته. كان قد مرَّ ثلاثة أعوام على «ميزواجي». وكنت قد نسيت الخوف الذي شعرت به عندما نام الدكتور فوقي. الآن أتذكره، ولكني منزعجةً أكثر مني قلقة. ترك الجنرال المذياع مشعلاً وكذلك الأنوار جميعاً كما لو أنه يريد أن يتأكد من أني سأكره تماماً تلك الغرفة البغيضة وبقع الرطوبة في السقف.

مرت الشهور وتبخر ضيقي. وتحولت لقاءاتي مع الجنرال إلى روتين بغيض: موعدان في الأسبوع. وكنت أتساءل أحياناً عما سيكون الأمر مع الرئيس. قلت لنفسي ربما كان مثل الدكتور والجنرال. حدث أمرٌ جعلني أغيّر رأيي. فقد بدأ رجلٌ يدعى يازودا أكيرا يأتي إلى جيون بانتظام. لقد تحدثوا عنه في الجرائد: فقد اخترع نظاماً جديداً لإنارة الدراجات. لم يكن يغشى الإيشريكي، إذ ليس لديه القدرة على ذلك بكل تأكيد، بل كان يقصد بيتاً صغيراً للشاي اسمه تاتي ماتسو في حي توميناكا ـ شو غير بعيد عن أوكيّانا. تعرفت إليه في إحدى الولائم في ربيع 1939، وكنت إذ ذاك

في التاسعة عشرة. كان أقل عمراً من بقية الزبائن! بكل تأكيد لم يتجاوز السنوات الثلاثين من العمر. لاحظت وجوده منذ أن دخل إلى القاعة، فلديه أبهةُ الرئيس نفسها. بدا لي جذاباً جداً عندما جلس على تلك الوسادة، وكمّا قميصه مشمّران إلى فوق مرفقيه، ووضع سترته خلفه على التاتامي. خلال بضع لحظات، لاحظت وجود رجلٍ عجوز إلى جانبه كان يتناول قطعةً من التوفو المشوية، ويضعها في فمه المفتوح واسعاً. جعلني ذلك أفكر بباب فتح لتدخل منه سلحفاةٌ. وبالمقابل أسعدتني رؤية يازودا ـ سان وهو يزلق قطعةً من لحم العجل بين شفتيه الشهوانيتين. بدت حركته أنيقةً وذراعه بارزة العضلات.

درت على المدعوين، وعندما وصلت إليه قدمت نفسي، فقال:

ـ أرجو أن تسامحيني.

ـ أسامحك؟ ماذا فعلت؟

ـ لقد كنت قليل التهذيب، إذ لم أكف عن النظر إليك.

دسست يدي في أوبيّ، وبحثت عن حامل البطاقات المصنوع من البروكار. أخرجتُ بطاقةً، وناولته إياها خلسةً. تحملُ الجيشاوات دائماً بطاقات كرجال الأعمال. وكانت بطاقاتي أصغر بمرتين من البطاقات الاعتيادية. كانت من ورق الأرز الثخين وعليها اسمي «سايوري» و«جيون» مكتوبان في الأعلى. كنا في الربيع، كذلك كانت بطاقاتي مزينةً برسم لشجرة خوخ. أعجب يازودا ببطاقاتي لبعض الوقت، ثم دسها في جيب قميصه. برأيي، ما من حديثٍ كان سيبدو أفصح من هذا التبادل الصامت. انحنيتُ، أمامه ثم جلستُ أمام جاره.

بدءاً من ذلك اليوم صار يازودا ـ سان يطلبني كل إسبوع إلى التاتي ماتسو، لم أكن أستطيع الذهاب إلى هناك بالقدر الذي تمناه. بعد ثلاثة أشهر من لقائنا، وذات ظهيرةٍ، قدّم لي كيمونو. أحسستُ بفرح غامر رُغمَ أنه ليس كيمونو من النوع المُمتاز، بل كان الحرير عادياً، أما الرسم؛ فأزهار وفراشات، رسمٌ عادي. أراد يازودا ـ

WWW.REWITY.COM

سان أن ألبسه ذات مساءٍ أكون فيه على موعدٍ معه. وعدته بذلك. عندما عدت إلى الأوكيّا مع الكيمونو، رأتني الأم أصعد الدرج وبيدي العلبة، فأخذتها وفتحتها، ثم ندت عنها تكشيرةُ احتقار. قالت إنها لاتريد أن تراني لابسةً مثل هذا الكيمونو البشع. في اليوم التالي باعته.

عندما اكتشفت ما فعلته، قلت لها بجرأةٍ إن هذا الكيمونو أُهدي إليّ «أنا» وليس إلى الأوكيّا، وإنها لاتملك الحق في بيعه فقالت:

ـ كان لكِ، حسنٌ، ولكنكِ ابنة الأوكيّا. ما يعود إليه يعود إليك والعكس صحيح.

كنتُ مهتاجةً إلى درجة أني لم أستطع النظر إليها. أما بالنسبة إلى يازودا ـ سان الذي تمنى أن يراني في الكيمونو، فقد طمأنته بأقصى ماستطعت. فالكيمونو الذي عليه رسم أزهارٍ وفراشات لن أستطيع ارتداءه إلا في الربيع وكنا في الصيف. لذا، وجب عليه أن ينتظر عاماً تقريباً قبل أن يراني ألبسه. لم يبدُ عليه الغضبُ، بل قال وهو ينظر إليّ بعينيه الثاقبتين:

ـ ماالسنة؟ سأنتظر أكثر. الأهم هو سبب الانتظار.

كنا وحيدين في القاعة. وضع كأس بيرته على الطاولة بطريقةٍ جعلتني أحمرّ خجلاً. أمسك بيدي ليبقيها في يديه بعض الوقت كما ظننتُ. لكنه فاجأني بأن أدناها من شفتيه، وقبّل راحتي بشغف. سرت رعشة في جسدي كله. كنت فتاةً وديعةً: فحتى الآن، أنا مطيعة دائماً للأم ومامها، ولهاتسومومو عندما لا يكون لديّ خيار. ولكني كنتُ أشعر بهذه الرغبة نحو يازودا، وبذلك الغضب نحو الأم! ضاربة بعرض الحائط ممنوعاتها، ضربتُ موعداً ليازودا في التاتي ماتسو في منتصف الليل، ثم مضيت.

وصلتُ إلى بيت الشاي قبيل منتصف الليل. بحثتُ عن إحدى الخادمات، ووعدتها بمبلغ كبير من المال إذا ما حرصت على ألا يزعجنا أحد، أنا ويازودا عندما سنشغل أحد الصالونات بعد نصف ساعة. كنتُ قابعةً في الظلام عندما فتحت الخادمة الباب، وأدخلت

يازودا. أسقط قبعته على التاتاميات، ثم أوقفني حتى قبل أن يُغلَق الباب. شعرت برغبة عارمة في ضغط جسدي إلى جسده! كنتُ كمن يأكل بعد طولِ جوعٍ. ضغط جسدي إلى جسده بقوة، وفعلتُ مثله. لم أصدّم لرؤية يديه تُغوصان في فتحات ملابسي بحثاً عن جسدي. كانت لحظاتٌ غريبة كتلك التي عشتها مع الجنرال، ولكنّ أحاسيسي ليست نفسها. فلقاءاتي مع الجنرال أشبه بذلك الطفل الذي يبلغ قمة الشجرة ليقطف بضع أوراق استمالته بعد جهود خائبة. كان عليّ أن أقوم بحركات محددة وأن أتحمّل الضيق لكي أصل إلى غايتي في النهاية. أما مع يازودا فقد كنتُ كطفل يصعد إلى قمة راكضاً. بعد ربع ساعة، كنا ممدّدين جنباً إلى جنب على التاتامي ونحن نلهث. أبعد طرف قميصه، ثم وضع يدي على بطنه لكي أحسّ بتنفسه. لم أكن قطّ قريبةً من إنسان بهذا القدر رُغمَ أننا لم نتبادل كلمةً واحدة.

عند ذلك، فرضت حقيقةً نفسها عليّ: أن أكون ممدّدة على فوتون جامدةً من أجل لذة الدكتور أو الجنرال شيءً، وأن أتمدّد إلى جانب الرئيس شيءٌ آخر تماماً.

* * *

كثيرٌ من الجيشاوات تتغيّر حياتهنّ بعد أن يتّخذن «دانّا». أما أنا فلم أجد أي اختلاف. إذ استمرّيتُ في الخروج في جيون مساءً. وبعد الظهر، كنتُ أقوم أحياناً برحلات كان بعضها غريباً: فقد رافقتُ رجلاً إلى المشفى ليعود أخاه. لم تحدث التغيرات التي توخّيتها: أن ينفق «دانّاي» على عروض الرقص، كذلك الهدايا الفاخرة وعطل الاسترخاء.

لقد كانت الأم محقّة، فالعسكري لا يجد الوقت ليدلّل الجيشا كما يفعل رجل الأعمال أو الأرستقراطي.

إذا كان الجنرال قد أحدث بعض التغيير في حياتي؛ فقد استفاد الأوكيّا من حسناته، ولقد غطّى نفقاتي، كما يفعل «الدانّات» ودروسي ورسوم تسجيلي السنوي ونفقات طبّابتي و... ما لا أعرف من أمور أخرى، وجواربي طبعاً. وبعد، فإن منصبه ـ بوصفه مديراً

WWW.REWITY.COM

للتموين ـ كان يعطيه سلطة كما قالت مامها؛ كان فبإمكانه أن يصنع لنا ما لا يستطيع صنعه أي «دانّا» آخر. مرضت تاتي في آذار 1939، وخفنا على حياتها ولم يقدّم لنا الأطباء أية معونة. اتصل الجنرال هاتفياً، وفي اليوم التالي، أتى طبيب كبير من مشفى كاميجيو العسكري ووصف لتاتي دواءً شفاها. لم أرقص على مسارح طوكيو، ولم يقدّم لي الجنرال جواهر. ومع ذلك، أوكيانا لم ينقصه شيء. فقد كان توتوري يرسل إلينا الشاي والسكر والشوكولا بانتظام، وتلك مواد غدت نادرة حتى في جيون. لقد أخطأت الأم إذ ظنّت أن الحرب ستنتهي بعد ستة أشهر. لو قال أحدٌ لنا ذلك لما صدّقناه آنذاك، ولكن الأسوأ لم يأتِ بعد.

* * *

طوال الخريف الذي أصبح فيه الجنرال «دانّاي»، كفّ نابو عن دعوتي إلى سهراته. ما لبثتُ أن ظننتُ أنه لم يعد يغشى الإيشيريكي. لم أجد لذلك سوى سبب واحد: أن يتحاشاني. ظنت معلمة الإيشيريكي الظن نفسه. في رأس السنة أرسلتُ إلى نابو بطاقة كما فعلتُ مع زبائني جميعاً، فلم يجبني. يمكنني الآن أن أقول لك بسهولة كم شهراً بقيتُ دون سماع أخباره! عشتُ قلقةً، فقد شعرت أني كنتُ رجلاً عاملني بطيبةٍ باستمرار، رجلاً كنتُ أعدّه صديقاً. والأسوأ من ذلك، إني بلا نابو لم أعد أدعى إلى احتفالات الإيوامورا إليكتريك، أي لم يكن لديّ أية فرصة لرؤية الرئيس.

الرئيس الذي كان يغشى الإيشيريكي، بينما لم يكن نابو يقصده. ذات يوم، رأيته يعنّف أحد معاونيه في الممر بحركات صاخبة. لم أجرؤ على مقاطعته. وفي مساء آخر، كانت إحدى المتدرّبات وتدعى ناوتسو، ترافقه بقلق إلى المرحاض عندما رآني. ترك ناوتسو وأتى يكلّمني. تبادلنا عبارات المجاملة المعتادة. رأيتُ في ابتسامته ذلك الاعتزاز الذي غالباً ما يحسّ به الرجال تجاه أبنائهم. قلتُ له قبل أن يغيب:

ـ أيها الرئيس! إذا ما احتجتِ يوماً إلى جيشا أخرى...

كانت تلك طريقة مباشرة جداً للتكلّم معه. شعرتُ بالارتياح، لكنه لم يغضب، بل سمعته يقول:

ـ إنها لفكرة ممتازة يا سايوري. سأطلب أن تحضري.

مرت عدة أسابيع ولم يدعُني.

ذات مساء من آذار، في وقت متأخر، مررتُ إلى احتفال أقامه حاكم محافظة كيوتو في بيت شاي شونجو. كان الرئيس حاضراً، يلعب لعبة من يشرب أكثر، وخسر. كان يبدو منهكاً، يرتدي القميص وربطة عنقه محلولة. كان الحاكم قد خسر معظم الجولات، ولكنه قاوم الكحول أكثر من الرئيس الذي قال لي:

ـ إني سعيد جداً لرؤيتكِ ياسايوري. ساعديني، إني في وضع مزرٍ.

لما رأيتُ وجهه الجميل أحمر قليلاً، وكمّي قميصه مشمّرين إلى ما فوق مرفقيه، تذكّرتُ يازودا في تلك السهرة الشهيرة في التاتي ماتسو. في لحظة، بدا لي أنه لا يوجد في القاعة إلا أنا والرئيس. وبسبب حال السكر الخفيف التي كان فيها؛ فبإمكاني أن أميل عليه، سيأخذني بين ذراعيه، وسأضغط شفتيّ على شفتيه. خفتُ: وإذا قرأ أفكاري؟ إذا كان قد فهم، فإنه لم يبدِ شيئاً. من أجل مساعدته في اللعبة التي التزم بها؛ تآمرتُ مع جيشا أخرى على الإبطاء من اللعب. بدا ممتنّاً لي. انتهت اللعبة وأتى ليجلس بجانبي. حدّثني طويلاً وهو يشرب الماء لكي يخفف من تأثير الكحول. أخرج منديلاً من جيبه، نفس الذي أخبئه في أوبيّ. مسح به جبينه، ثم مسّد شعره بيده، وقال لي:

ـ هل رأيتِ صديقكِ القديم نابو؟

ـ لا أعرف أخباره أيها الرئيس، يبدو أنه غاضب.

نظر إلى منديله وهو يطويه، ثم قال:

ـ الصداقة شيء ثمين يا سايوري. لا يجوز تخريب الصداقة أبداً.

WWW.REWITY.COM

فكرت بهذا الحديث في الأسابيع التالية. وذات يوم، في نهاية نيسان، كنتُ في المسرح أضع المكياج من أجل مسرحية «رقصات العاصمة القديمة» حين أتت إليَّ متدرّبة بالكاد أعرفها. وضعتُ فرشاتي منتظرةً أن تطلب مني حسنة، فأوكيانا ما يزال يمتلك المواد التي أهملتها الأوكيات الأخرى. ولكنها قالت لي:

- آسفة لإزعاجك، يا سايوري - سان. أنا أدعى تاكازورو، وأتساءل إذا كان بإمكانك أن تساعديني. أعرف أنكِ كنتِ على صلة وثيقة بنابو - سان.

منذ أشهر وأنا أتساءل عنه، أشهر وأنا أحس بالذنب نحوه، وسمعتُ اسمه في اللحظة التي لم أكن أتوقّعها! جعلني كلامها كنافذة طال إغلاقها بسبب العاصفة، ثم فُتحت لاستقبال أول دفقة ريح. قلت:

- يجب أن نتساعد كلما استطعنا يا تاكازورو. إذا كان الأمر يتعلّق بنابو، فأنا مستعدّة لمساعدتك. هل أموره على مايرام؟

- نعم، إنه بخير يا سيدتي، على ما أعتقد. إنه يغشى بيت شاي آوازومي، في شرقي ليون، أتعرفينه؟

- نعم أعرفه، ولكني لا أعرف أن نابو - سان يقصده.

- إنه يأتي إلى هناك في معظم الأحيان، ولكن هل لي أن أسالك يا سايوري - سان؟ أنتِ تعرفينه منذ زمن طويل، و... نابو رجل لطيف، أليس كذلك؟

- لماذا تسألينني يا تاكازورو؟ إذا كنتِ قد أمضيتِ أوقاتاً معه فعليكِ أن تعرفي إذا كان لطيفاً أم لا!

- لا بدّ أني بدوتُ غبيةً في نظرك، ولكني حائرة فعلاً! إنه يطلب مني أن أهتمّ به كلما قدم إلى جيون. وأختي الكبرى تقول لي إنه أفضل الزبائن. ولكنها غضبت مني لأني بكيتُ أمامه بضع مرات. أعرف أنه ما كان ينبغي لي أن أفعل ذلك، ولكني لا أستطيع أن أعدها بعدم تكراره!

WWW.REWITY.COM

- إنه قاسٍ معكِ، أليس كذلك؟

بدلاً من تجيبني، زمّت المسكينة شفتيها على بعضهما، وامتلأت عيناها بالدموع، وبدت لي وكأنها تنظر إليّ من خلف بركتين من الماء. قلتُ لها:

- أحياناً، لا يدرك نابو - سان أن كلامه جارح، ولكن لا بدّ أنه يحبّكِ يا تاكازورو، وإلا فلماذا يطلب حضورك؟

- برأيي، إنه يطلبني لأنه في حاجة إلى شخص يصبّ عليه غضبه. ذات يوم، قال لي إن رائحة شعري زكية، ثم أضاف:«هذه المرة»!

- من المستغرب أن تريه باستمرار، فمنذ أشهر لم أعثر له على أثر.

- أوه، لا تسعي إلى رؤيته يا سايوري - سان! فهو لا يكفّ عن تكرار أني لست بطيبتك! وذلك في كل مناسبة. فإذا رآكِ من جديد، سيجدني أكثر سوءاً. أعرف أنه لا يجب عليّ أن أزعجكِ بمشكلاتي ياسيدتي، ولكن... فكّرتُ أن بإمكانكِ أن تعلّميني كيف أعجبه. إنه يحب الأحاديث العاطفية، ولكني لا أعرف عما أكلّمه. يبدو أني لستُ ذكية.

في كيوتو، يقولون هذا النوع من الأحاديث من باب المجاملة، ولكني واثقة من أن تلك المسكينة لم تكن كاذبة. لا أستغرب أن يكون نابو قد استخدمها كما يستخدم النمر الشجرة لينشب فيها أظافره. لم أعرف أية نصيحة أسديها إليها، فذكرتُ لها كتاباً تاريخياً لتقرأ منه مقطعاً في كل مرة. كنتُ أنا نفسي أفعل ذلك بين الفينة والأخرى، فبعض الرجال لا يحبّون أكثر من أن يجلسوا وأعينهم نصف مغمضة ليسمعوا حديث امرأة تحكي لهم قصة. لم أعرف كيف سيتصرّف نابو، ولكن تاكازورو شكرتني على هذه الفكرة.

* * *

والآن، بعد أن عرفت أين أجد نابو، قررتُ أن أذهب لرؤيته. سأتأسف على إغضابه. والأسوأ: قد لا أرى الرئيس أبداً إذا انقطعتُ

عن رؤية نابو. فكرتُ أني، إذ أراه، سيكون لدي فرصة لإعادة صداقتي. للأسف! لا أستطيع أن أذهب إلى آوازومي دون أن أكون مدعوة، فأنا لم يكن لديّ علاقات منتظمة مع هذا البيت. أخيراً، وجدتُ حلاً: سأمرّ من أمام آوازومي، كلما أمكنني ذلك ليلاً، فلعلّي أعثر على نابو. أعرف عاداته ما يكفيني لتقدير الساعة التي يمكن أن يصل فيها.

فرضتُ على نفسي هذا النظام طوال أكثر من شهرين. وذات مساء، رأيته ينزل من ليموزين في أحد الأزقة. عرفته من الكم المثبّت بدبابيس إلى كتفه، فهيئته معروفة عن غيره. مشيتُ باتجاهه. مدّ له سائقه فوطة. وقفتُ في ضوء أحد المصابيح، وأطلقتُ صيحة فرح، فنظر باتجاهي كما تمنّيتُ، وقال:

ـ آه، نسيتُ إلى أية درجة يمكن لإحدى الجيشاوات أن تكون جميلة!

تكلّم بطلاقة إلى درجة أني تساءلتُ ما إذا كان قد عرفني، قلتُ له:

ـ لديكَ صوت صديقي العزيز نابو ـ سان يا سيدي. ولكنْ، هل هي مصادفة؟ لأننا لانراه كثيراً في جيون!

أغلق السائق الباب، وبقينا واقفين دون كلام حتى ابتعدت السيارة، فأضفت:

ـ يا لفرحتي برؤية نابو ـ سان مرة أخرى! ولكن حظي كبير أنه ليس في الضوء.

ـ أحياناً، أستغرب كلامكِ يا سايوري. لا بدّ أن مامها علّمتكِ هذه الطريقة. أو ربما يطلب إلى الجيشاوات جميعهنّ أن يتصرّفن بهذه الطريقة.

ـ نابو ـ سان في الظل، وهكذا إني لا أرى تعابير وجهه الغاضبة.

ـ آه، أتظنين أني غاضب!

WWW.REWITY.COM

ـ كيف لي أن أفكر بغير ذلك عندما يغيب عني صديق عزيز لعدة أشهر؟ بلا شك ستقول لي إنكَ منشغل جداً ولا تستطيع القدوم إلى الإيشيريكي.

ـ لأن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً؟

ـ إنكَ تأتي غالباً إلى جيون. لا تسألني كيف عرفتُ ذلك، سأقوله لكَ إذا قبلتَ أن تمشي معي قليلاً.

ـ موافق، لأنها سهرة جميلة.

ـ لا تقل هذا يا نابو ـ سان! كنتُ أفضّل أن تقول: «لم أركِ منذ زمن طويل، وسأكون في قمة سعادتي عندما أمشي بضع خطوات معكِ»!

ـ سأمشي بضع خطوات معكِ، ومن الآن وحتى أمشيها، فكّري كما يحلو لكِ.

قبلتُ بهزة من رأسي. مشينا باتجاه حديقة مارورياما. سألته:

ـ إذا كان نابو ـ سان لا يريد أن أظنه غاضباً، فلماذا يتصرّف كفهدٍ لم يأكل منذ عدة أيام؟ من غير المستبعَد أنكَ تعذّب المسكينة تاكازورو!

ـ هكذا إذاً، لقد أتت إليكِ. إنها مزعجة...

ـ إذا كنتَ لا تحبّها، فلماذا تطلبها كلما أتيتَ إلى جيون؟

ـ لم أطلب رؤيتها قطُّ! ولا مرة واحدة! إن أختها الكبرى هي التي تفرضها عليّ. تجعلني أفكر بكِ، وهذا مزعج. ولكن ستستفيدين من أنكِ صادفتِني لكي تلوميني على عدم حبي لها!

ـ في الواقع يا نابو ـ سان، أنا لم «أصادفكَ». فمنذ عدة أسابيع وأنا أمرّ من أمام بيت الشاي أملاً في رؤيتك.

جعله كلامي يفكّر. مشينا صامتَين بضع دقائق، ثم قال لي:

ـ لا غرابة في ذلك، فأنتِ فتاة دسّاسة!

ـ ماذا يمكنني أن أفعل غير ذلك يا نابو ـ سان؟ فكرتُ أنكَ

اختفيتَ. ومن الممكن ألا أراكَ أبداً لو لم تأتني تاكازورو، شاكيةً باكيةً، لتقول لي إنكَ تعاملها معاملةً سيئة.

- بلا شك كنتُ عنيفاً معها، ولكنها ليست بذكائك، ولا بجمالك. ثم، حقاً، أنا ألومكِ.

- ماذا فعلتُ لكي يلومني صديق عزيز إلى هذا الحد؟

توقّف والتفت إليّ والحزنُ بادٍ عليه. شعرتُ بحنان مفاجئ نحوه، قليلون هم الرجال الذين أوحوا لي بهذا الشعور في حياتي. لقد اشتقتُ إليه بعد أن خنته. وبعد، فقد كان حنانني مشوباً بالشفقة. قال:

- بعد عدة أبحاث توصّلتُ إلى معرفة هوية «دانّاكِ».

- لو أنكِ سألتني لأجبتك.

- لا أصدّقك! أنتنّ الجيشاوات لا تتكلّمن. لقد سألتُ عشرات الجيشاوات في جيون عمن هو «دانّاكِ»، فادّعين أنهنّ لا يعرفنه. لو أني لم أطلب إلى ميشيزونو أن تهتمّ بي ذات مساء لما عرفت قط.

كانت ميشيزونو في الخمسين من عمرها آنذاك. وهذه المرأة هي أسطورة في جيون. لم تكن جميلة، ولكنها كانت تستطيع أن تُضحك نابو بمجرّد أن تزمّ أنفها. أضاف نابو:

- لعبنا لعبة من يشرب أكثر، وربحتُ. في النهاية سكرت المسكينة ميشيزونو تماماً، ولو أني سألتها أي سؤال لأجابتني.

- يا للجهود المبذولة!

- أوه، لا. إنها جميلة المعشر. ولكن أتريدين أن أقول لكِ؟ لقد فقدتُ احترامي لكِ منذ أن علمتُ أن «دانّاكِ» رجل ضئيل الجسم يرتدي البزة العسكرية، ولا أحد يحترمه.

- يعتقد نابو - سان أن لدي إمكانية اختيار «دانّاي». الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أختاره هو كيمونوي، وأيضاً...

- أتعرفين لماذا لهذا الرجل منصب في الإدارة؟ لأنه لا يستطيع

أن يلعب دوراً أهم. فأنا أعرف الجيش جيداً يا سايوري. لا يعرف رؤساؤه أين يضعونه. لو ارتبطتِ بمتسوّل لكان أفضل لكِ! لقد أحببتكِ كثيراً يا سايوري، ولكن...

- إذاً لم يعد نابو - سان يحبّني؟

- ليس لدي أي ميل نحو الغبيات.

- فظيعٌ ماتقوله! أتريد أن تبكيني يا نابو - سان؟ هل أنا غبية لأنكَ لا تستطيع أن تحبّ «دانّاي»؟!

- لا أعرف نساءً أكثر منكنّ استفزازاً، أنتنّ الجيشاوات! أنتنّ تمضين جلّ أوقاتكنّ على استشارة كتب نجومكنّ: «أوه، لا أستطيع اليوم أن أمشي نحو الشرق، فسيجلب ذلك لي المصائب!»، ولكن عندما يتعلّق الأمر بعمل جوهري يغيّر مجرى حياتكنّ؛ فإنكنّ تفعلن أي شيء!

- إننا لا نفعل أي شيء، بل إننا نقبل ما لا نستطيع تغييره.

- حقاً؟ لقد علمتُ أشياء كثيرة في ذلك المساء عندما جعلتُ ميشيزونو تشرب. أنتِ ابنة الأوكيّا يا سايوري! لا تقولي لي إنه ليس لديكِ حرية الاختيار. من واجبك أن تستخدمي نفوذكِ، إلا إذا كنتِ لا تريدين أن تديري بطنكِ في الهواء كما تفعل سمكة ميتة في نهر.

- أريد أن أصدّق أن الحياة ليست نهراً يجرّنا إلى حيث يريد وبطننا في الهواء.

- إذا كانت الحياة نهراً، فلكِ الحرية في أن تسبحي هنا أو هناك. سينقسم النهر أكثر فأكثر، وستصطدمين بعدة حواجز، أما إذا ناضلتِ وكافحتِ واستخدمتِ الأوراق التي بين يديكِ...

- كذلك يجب امتلاك بعض الفوائد.

- يكفي أن تنظري حولك! أنا مثلاً. أنا لا أرمي شيئاً حتى نواة دراقة قديمة. وإذا ما أتى وقت رميها، فإني أتأكد من أني سأرميها على الشخص الذي أكرهه!

- أتنصحني أن أرمي نويات الدراق يا نابو - سان؟

www.rewity.com ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

ـ لا تضحكي! أنتِ تعرفين تماماً ما أقصده. إننا نتشابه كثيراً يا سايوري. أعرف أنهنّ يُسَمّونني «السيد سحلية»، وهاهي مخلوقة رائعة: أنتِ، كم كانَ عمركِ عندما رأيتكِ أول مرة في مباراة السومو؟ أربعة عشر عاماً؟ لقد عرفتُ منذ ذلك الحين أنكِ فتاة مليئة بالمواهب.

ـ لطالما فكّرتُ أن نابو ـ سان يقدّرني تقديراً عالياً.

ـ ربما كنتِ على حق. كنتُ أفكّر أنكِ مختلفة عن الأخريات ياسايوري. ولكنكِ تديرين ظهركِ لقدركِ. أتربطين مصيركِ بمصير الجنرال! سأكون أكثر اهتماماً بكِ، تعرفين. ومجرّد التفكير بذلك يجعلني مجنوناً! سيخرج هذا الجنرال من حياتك دون أن يترك فيها أية ذكرى مميزة. أهكذا تريدين أن تفسدي شبابكِ؟ المرأة التي تتصرّف كغبية هي غبية، أليس كذلك؟

من فرط استهلاك القماش تظهر لُحمته. لقد أثر فيَّ حديث نابو أيما تأثير! لم أعد أستطيع حفظ ماء وجهي. لحسن الحظ أني كنتُ في الظل. كان نابو سيحتقرني أكثر لو أنه رأى العناء الذي أحسست به. لا بدّ أن صمتي كشفني. وضع يده على كتفي وجعلني أخطو بضع خطوات في الضوء. نظر إلى عينيّ، ثم زفر بعمق. قال بعد لحظة:

ـ لماذا لديّ انطباع بأنكِ أكبر سناً يا سايوري؟ أحياناً، أنسى أنكِ ماتزالين صبية. ستقولين إني كنتُ قاسياً معكِ.

ـ نابو ـ سان هو كما هو...

ـ إني لا أتحمّل خيبة الأمل يا سايوري. يجب أن تعرفي ذلك. أن تخونيني لأنكِ صغيرة جداً، أو لأنكِ لستِ الفتاة التي كنتُ أظنها...لقد خنتني، أليس كذلك؟

ـ إنك ترعبني بقولك كلاماً من هذا القبيل يا نابو ـ سان. هل سأكون قادرةً يوماً على أن أحقق التوافق مع الصورة التي وضعتها لي؟

ـ أية صورة؟ أريدكِ أن تجتازي الحياة بعينين مفتوحتين!

كوني على مستوى قدَرك! استفيدي من كل لحظة في حياتكِ لكي تنجزيه. لا يمكن الطلب إلى امرأة مثل تاكازورو التصرّف بمثل هذه الشجاعة وهذا الوضوح، ولكن...

ـ ألم يعاملني نابو ـ سان كغبية طوال السهرة؟

ـ يجب ألا تصدّقي كل ما أقوله لكِ إذا كنتُ غاضباً، أنتِ تعرفين ذلك جيداً.

ـ إذاً لم يعد نابو ـ سان غاضباً مني؟ هل سيأتي للقائي في الإيشيريكي؟ لديَّ بعض الوقت هذا المساء. يمكنني أن أتبع نابو ـ سان إذا طلب ذلك.

درنا حول مجمّع البيوت، وجدنا أنفسنا أمام مدخل بيت الشاي. قال:

ـ أنا لا أطلب إليكِ.

فتح الباب. لم أستطع الامتناع عن إطلاق زفرة كبيرة، قلتُ زفرة كبيرة، لأنه يحتوي كثيراً من الزفرات الصغيرة والإحباط والحزن والخيبة. ومشاعر أخرى لا أستطيع معرفتها. قلت:

ـ أحياناً أعاني كثيراً في فهمكِ يا نابو ـ سان.

ـ ومع ذلك، فأنا سهل الفهم، ياسايوري. إني مرعوب من تحميلي أشياء لا أستطيعها.

قبل أن أستطيع الرد، دخل إلى بيت الشاي، وأغلق الباب خلفي.

27

طوال صيف عام 1939، كنتُ أعمل كمجنونة: استقبالات، عروض رقص، مواعيد مع الجنرال. في الصباح، كنتُ أجد عنتاً في الاستيقاظ، بدوتُ كسطل مليءٍ بالمسامير. ولكني كنتُ أنسى تعبي

www.rewity.com ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

وسط الظهيرة. أتساءل بكم تعود عليّ هذه الجهود وأنا أعتقد أن لا أحد سيخبرني. ذات ظهيرة، دعتني الأم إلى غرفتها. قالت لي إني كسبتُ في الأشهر الستة الاخيرة أكثر من هاتسومومو وبومبكين مجتمعتَين. بقيتُ فاغرة الفم، فأضافت:

ـ لقد آن الأوان لكي تتبادلا الغرفتين.

لم يسعدني هذا الخبر كما يمكن أن تتصوّر. ففي السنوات الأخيرة تعايشتُ أنا وهاتسومومو بأن تتجنّب كلّ واحدةٍ منا الأخرى. ومع ذلك، كنتُ أتوقّع أن يستيقظ النمر في أية لحظة. لن تفكر هاتسومومو أنها ستتبادل غرفتها معي، بل إن غرفتها ستؤْخَذ منها.

رأيتُ مامها في ذلك المساء، أطلعتها على قرار الأم، وعلى مخاوفي: ألن تهاجمني هاتسومومو من جديد؟ فقالت:

ـ سيكون ذلك جيداً، يجب أن يسيل دمٌ حتى تقرّ تلك المرأة بهزيمتها. فلنعطها الفرصة لكي تعذّب نفسها للمرة الأخيرة.

في صباح اليوم التالي، باكراً، أتت تاتي إلى الطابق الأول لتقول لنا طرق الانتقال. قادتني إلى غرفة هاتسومومو، وقالت لي إن تلك الزاوية في الداخل، وإلى اليسار ستكون زاويتي من الآن فصاعداً. ثم أتت ببمومبكين وهاتسومومو إلى غرفتي الصغيرة، ودلتهما أين تسكنان. سنسكن في غرفتينا الجديدتين بعد أن ننقل أمتعتنا.

تنطحتُ لتلك المهمة منذ بداية الظهيرة وأخذت أنقل أمتعتي في الممر من غرفة إلى أخرى. أود أن أقول إني استطعت جمع مجموعة من التحف الفنية كما فعلت مامها عندما كانت في عمري. للأسف! لقد قسا الزمان علينا. فقد منعت الحكومة العسكرية بيع أدوات التجميل لأنها عدّتها أشياء زائدة. ولكن كنا نمتلك مستحضرات فاخرة في جيون التي كانت لعبة الرجال الأقوياء المدللة. ومع ذلك لم تكن الهدايا الفخمة من سمة ذلك العصر. كما إني لم أجمع على مر تلك

السنين الطويلة إلا بضع أحجار تحبير، وزبادي من السيراميك ومجموعة من الصور المطبوعة لمناظر هامة، ومنظار مجسد من الفضة أعطاني إياه ممثل الكابوكي أونوي نيوويغورو نقلت كل هذه الأشياء مع مكياجي ولباسي الداخلي وكتبي ومجلاتي إلى الزواية التي خصصت لي. في مساء اليوم التالي، لم تكن هاتسومومو وبومبكين قد نقلتا بعد أمتعتهما. وفي اليوم الثالث، وأنا عائدة من دروسي، قررت أن أطلب مساعدة تاتي إذ كانت المراهم والقوارير الأخرى العائدة لهاتسومومو ماتزال تملأ طاولة مكياجي.

عندما وصلت إلى أعلى الدرج فوجئت برؤية بابي غرفتينا، غرفتي وغرفة هاتسومومو، مفتوحين على اتساعهما. وعلى أرض الممر علبة كريم أبيض مكسورة. ثمة شيءٌ ليس على مايرام. هذا ما رأيته عندما دخلت إلى غرفتي. كانت هاتسومومو جالسةً على طاولتي الصغيرة تقرأ دفتراً سجلت فيه أفكاري.

تعترف الجيشاوات اعترافاً صامتاً، ولايذكرن أبداً الرجال الذين يعاشرونهن. وسوف تفاجَأ إن قلت لك إنه ذات يوم من تلك الأيام وكنت ماأزال متدربةً، دخلت إلى محلٍ واشتريت دفتراً جميلاً لأبدأ كتابة يومياتي. لم أسجل الأشياء التي لاتقولها الجيشا. بل اكتفيت بتسجيل مشاعري وأفكاري. وعندما كنت أتكلم عن رجل ما، فإني أعطيه اسماً رمزياً. سمّيتُ نابو يسمى «س.تسو» في يومياتي: فقد كان أحياناً يعبر عن احتقاره بقول «تسو». أما بالنسبة للرئيس فقد سميته «س.هاا». ذات يوم زفر زفرة ارتياح وقال «هاا». كنت قد تخيلت أنه سيستيقظ بين ذراعي، ويقول «هاا». كذلك كان هذا التعجب يؤثر فيّ أيما تأثير. لم أفكر يوماً أن أحداً سيقرأ ماكتبت.

قالت هاتسومومو :

ـ سايوري! إني سعيدةٌ جداً لرؤيتك، متشوقةٌ لأقول لكِ كم أحب يومياتك! فبعض المقاطع مهمةٌ «جداً» وأسلوبك أخاذ، أما خطكِ فمتواضع، ولكن...

ـ هل قرأتِ ماكتبته في الصفحة الأولى؟

WWW.REWITY.COM

- لاأظن. فَلْنَرَ «سري» حسنٌ، هذا مثالٌ يوضح ما قلته لك بشأن خطك.

- تفضلي، وضعي هذا الدفتر على الطاولة يا هاتسومومو! واخرجي من غرفتي إذا سمحت.

- حسنٌ يا سايوري! كنت أريد فقط أن أساعدك! لماذا سميتِ نابو توشيكازو «س.تسو» مثلاً؟ هذا الاسم لايناسبه أبداً! كان عليك أن تسميه «س.غضون» أو «س.أكتع» يمكنك أن تغيري إذا أردت دون أن تقولي إني أنا صاحبة الفكرة.

- لاأعرف ماذا تقصدين ياهاتسومومو . لم أكتب شيئاً عن نابو.

زفرت هاتسومومو كما لتقول لي إني كاذبةٌ أشرةٌ. أخذت تقلب صفحات اليوميات، ثم قالت:

- إذا كنت لاتتكلمين عن نابو، فإلى من تلمحين لمّا تقولين: «عندما تقابل إحدى الجيشاوات «س.تسو»، فإنه يحمر غضباً. أنا أنظر إليه أطول وقتٍ أريده فهو يحب ذلك كثيراً. ولا يضيرني مظهره الجسدي وكونه أكتع.» لا شكَ، إنك تعرفين ليم نابو وعليك أن تعرفيهما ببعض! وفكري بما يمكن أن يقولا لبعضهما البعض!.

شعرتُ بالإشمئزاز ليس لأن أسراري افتُضحت فحسب، بل لأني بدوت غبيةً... إذا كان عليَّ أن ألعن أحداً، فيجب أن ألعن نفسي لأني استبقيت هذه اليوميات ولأني وضعتها في مكانٍ طالته يد هاتسومومو . فالتاجر الذي يترك بضاعته خارجاً لايحق له لوم العاصفة التي تتلفها.

ذهبت إلى الطاولة لآخذ دفتر يومياتي من يدي هاتسومومو ولكنها ضمته إلى صدرها، ووقفت. وباليد الأخرى أخذت القدح الذي كانت تشرب منه، فشممت رائحة الساكي وأنا قريبة منها. كانت ثملة. قالت لي وهي تتجه نحو الباب:

- تريدين أن تأخذي اليوميات، وسوف أعيدها لك يا سايوري. المشكلة أني لم أنته بعد من قراءتها، وأني سآخذها إلى غرفتي. إلا

إذا كنت تفضلين أن أريها للأم. أنا متأكدة أنها ستقدر عالياً المقاطع التي كتبتها عنها!

قلتُ إن علبة كريم كانت راقدةً على أرض الممر مكسورةً، وعندما تكسر هاتسومومو شيئاً، لا تتجشم عناء مناداة الخادمات. ولمّا خرجت من غرفتي، حدث لها ما كانت تستحقه. لاشك أنها نسيت العلبة المكسورة، فقد كانت متعتعةً من السكر. مشت فوق الزجاج المكسّر، فأطلقت صرخةً. نظرت إلى قدمها، ثم صرخت بصوتٍ قوي، ولكنها تابعت طريقها.

شعرت بالهلع عندما دخلت إلى غرفتها. فكرت أن أذهب إليها، وأنتزع اليوميات من يديها، ثم تذكرت فكرة مامها في أثناء مباراة السومو: إن الانقضاض على الخصم هو أقل الأمور ذكاءً. من الأفضل الانتظار حتى تسترخي هاتسومومو وتظن أنها كسبت، عندها سآخذ اليوميات في الوقت الذي لاتتوقعه. بدت لي هذه الفكرة ممتازة، ثم قلت لنفسي: قد تخبئها! ذهبت إلى أمام بابها وهمست:

- اعذريني يا هاتسومومو - سان لتطفلي. هل أستطيع أن أدخل؟

- لا.

فتحت الباب، وكانت الغرفة في فوضى عارمة. فقد وضعت أشياءها في كل مكان بانتظار نقلها. كانت اليوميات على الطاولة وهاتسومومو تضغط فوطةً على قدمها. كيف سأحول انتباهها؟ لاأدري، ولكن بكل تأكيد لن أخرج من الغرفة من دون يومياتي.

كانت هاتسومومو تتصرف كجرذ، ولكنها لم تكن غبية. لو أنها لم تشرب لما حاولت حتى أن تلعب، ولكن نظراً لحالة السكر الشديد قطعت الأرض بنظري: أكوام من الثياب إلى جانب قوارير العطر، وأشياء أخرى منثورة على الأرض. كان باب الخزانة مفتوحاً، وفي الداخل الصندوق الصغير الذي تضع فيه مجوهراتها الموجودة على التاتامي لأنها جربتها وتركتها هناك. شيءٌ ما لفت انتباهي بوضوحٍ كنجمةٍ وحيدة وسط السماء السوداء.

WWW.REWITY.COM

لقد كان مشبكها ذو الزمردة، ذلك المشبك الذي اتهمتني بأني سرقته لها في تلك الليلة التي ضبطتُها فيها مع عشيقها منذ عدة سنوات. لم أفكر قطُ أني سأجده. ذهبت إلى الخزانة، وانحنيتُ، وأخذت المشبك. قالت:

- يا لها من فكرة جيدة! اسرقي لي حلية! ولن تعوضيها لي بالمال السائل إني أقبل ذلك.

- أنا سعيدة لأنك لاتمانعين. ولكن، كم يجب أن أدفع لك ثمن هذه الحلية؟.

اقتربت منها، ووضعت المشبك تحت أنفها، فغاضت ابتسامتها المشرقة. كانت تحت تأثير الصدمة، فممدت يدي وخطفت يومياتي عن الطاولة.

لم أعرف كيف ستتصرف هاتسومومو . خرجتُ وأغلقت الباب خلفي. فكرت أن أري الأم ما وجدته، ولكني لم أستطع أن أذهب إليها ومعي دفتر يومياتي. فتحت باب الخزانة التي توضع فيها كيمونوهات الفصل، ووضعت الدفتر بين ثوبين مغلفين بورق الحرير. دام ذلك ثلاث ثوان، ولكن في كل لحظة كنت أتوقع أن تفتح هاتسومومو باب الغرفة وتراني. بعد أن أغلقت باب الخزانة، أسرعتُ إلى غرفتي. فتحت أدراج طاولة ماكياجي وأغلقتها بصوت مسموع، بحيث تظن هاتسومومو بأني خبأت يومياتي فيها.

خرجت إلى الممر، وكانت تقف في إطار الباب، وابتسامةٌ ترقص على شفاهها كما لو أن ذلك الموقف أعجبها كثيراً.

حاولت أن أبدو منشغلةً، وذلك ليس صعباً عليَّ. ذهبت إلى غرفة الأم ووضعت المشبك أمامها على الطاولة. دفعت المجلة التي كانت تقرؤها، ثم رفعت المشبك إلى النور، وقالت بإعجاب:

- إنها قطعةٌ جميلة، ولكن لايُستفاد منها كثيراً في السوق السوداء. فهذا النوع من المجوهرات لايباع بثمنٍ غالٍ.

- أنا واثقة من أن هاتسومومو ستدفع ثمنه غالياً. أتذكرين ذلك المشبك الذي يفترض أني سرقته لها منذ عدة سنوات؟ ذلك الذي

أضيف إلى ديوني؟ حسنٌ، هذا هو. لقد وجدته تواً في خزانتها بجانب علبة مجوهراتها.

لحقت بي هاتسومومو، ووقفت خلفي، قائلةً:

- أنتِ تعلمين أيتها الأم، أعتقد أن سايوري على حق، فهذا هو المشبك الذي أضعته! أو على الأقل، إنه يشبهه. لم أفكّر أني سأراه ثانية!

- طبعاً من الصعب أن يجد المرء أشياءه عندما يثمل من الصباح حتى المساء. كان عليكِ أن تنظري في علبة مجوهراتك.

وضعت الأم المشبك على الطاولة، وتابعت النظر بقسوة إلى هاتسومومو التي قالت:

- لقد وجدته في غرفتها أيتها الأم. لقد كانت تخبّئه في درج طاولة مكياجها.

- ولماذا فتّشتِ في درجها؟

- لم أكن أنوي أن أقول لكِ أيتها الأم، ولكن سايوري تركت دفتراً على الطاولة، حاولتُ أن أسدي لها خدمة وأخبّئه، كان عليَّ أن أحمله إليكِ مباشرةً، أعرف ذلك، ولكن... إنها تكتب يومياتها. لقد أرتنيها السنة الماضية. لقد كتبت أشياء فضائحية عن عدة رجال، كما إن هناك مقاطع عنكِ أيتها الأم.

فكرتُ أن أنفي هذا الكلام، ولكن ذلك ليس مهمّاً، فقد ظهرت هاتسومومو في موقف سيء، ومهما قالت لن يغيّر فيه شيئاً. قبل عشر سنوات، عندما كانت هي التي تدخل المال إلى الأوكيا، كان بإمكانها أن تتهمني بأية تهمة، كأن تقول إني أكلتُ تاتاميات غرفتها، وبالتالي فإنّ الأم ستضيف إلى ديوني ثمن التاتاميات الجديدة. لحسن الحظ أن الأحوال تغيّرت: عمل هاتسومومو المزدهر وصل إلى نهايته، بينما عملي بالكاد قد بدأ. فأنا ابنة الأوكيا، وجيشاه الرئيسة. برأيي، لم تكن الأم مهتمة حتى بمعرفة من تقول الحقيقة. قلت:

www.rewity.com ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

- تلك اليوميات ليس لها وجود أيتها الأم!

- بلى! سآتي بها، عندئذ، وبينما تقرؤها الأم، يمكنكِ أن تقولي إني قد اختلقتُ كلامي.

توجهت هاتسومومو نحو غرفتي، والأم على أعقابها. بدت أرض الممر بحال مزرية. لم تكسر هاتسومومو علبة الكريم الأبيض، وتمشي عليه فحسب، بل إنها تركت بقعاً منه، ومن دم على أرض الممر في الطابق الأول، وعلى التاتاميات في غرفتها وغرفة الأم وغرفتي. كانت جاثيةً أمام طاولة مكياجي، وعندما دخلت أغلقت الدروج بغضب. سألتني الأم:

- ما قصة هذه اليوميات التي تتكلّم عنها؟

- إذا كان لها وجود فستجدها هاتسومومو .

وضعت غريمتي يديها على ركبتيها، وضحكت كما لو أن ماحدث لم يكن إلا لعبة. فاجأتها الأم بقولها:

- ستدفعين لسايوري ثمن المشبك الذي اتهمتِها بأنها سرقته منكِ يا هاتسومومو. كما إني لا أريد أن أرى تاتاميات مدمّاة في هذا الأوكيًا. سوف نستبدلها على حسابك. سيكلّفكِ هذا النهار غالياً ومازلنا في منتصفه. هل يجب عليّ أن أنتظر قبل أن أحسب المجموع؟

لا أعرف إذا كانت هاتسومومو تسمع الأم. فقد كانت منشغلةً بالنظر إليّ. وكانت نظرتها غريبة.

* * *

لو أني سئلتُ آنذاك: في أية لحظة انقلب مؤشر القوة في علاقاتي مع هاتسومومو؛ لأجبت: بعد «ميزواجي». فقد وضعتني تلك المرحلة من حياتي خارج متناول عدوتي. وبعد، كان بإمكاننا أن نتعايش بسلام حتى سنٍّ متقدّمة لو لم تحدث أحداث هامة. لهذا، فإن سقوط هاتسومومو يعود إلى اليوم الذي قرأت فيه يومياتي، والذي وجدتُ فيه المشبك الذي اتهمتني بسرقته.

ولكي أوضّح حديثي سأسوق إليك حكمةً قالها لي الأميرال ياماموتو إيزوروكو ذات مساء في الإيشيريكي. لن أدّعي أني كنتُ صديقة الأميرال الحميمة، فقد كان يُعَدّ أباً للبحرية الإمبراطورية اليابانية، ولكن تميّزتُ بأني حضرتُ معه عدة احتفالات. لقد كان قصير القامة، كإصبع ديناميت... كانت الاحتفالات تنشط دوماً بعد وصوله. ذلك المساء، كان يلعب لعبة من يشرب أكثر مع رجل آخر، وقد شارفت اللعبة على نهايتها، والرهان فيها أن من يخسر عليه أن يشتري واقياً ذكرياً من الصيدلية القريبة؛ لأن ذلك محرج. كسب الأميرال، فهنّأه الجمع بصوت عالٍ وتصفيق.

قال أحد أتباعه:

- لحسن الحظ أنكَ ربحتَ أيها الأميرال. تصوّر حالَ الصيدلي المسكين عندما يرى الأميرال أمامه وجهاً لوجه!

وجد المدعوون ذلك مضحكاً جداً، وقال الأميرال إنه لم يشكّ لحظةً في الفوز. فقالت إحدى الجيشاوات:

- أوه، الناس جميعاً يخسرون، حتى أنت يا أميرال!

- هذا صحيح تماماً بالنسبة إلى الآخرين، أما بالنسبة إليّ، فلا.

لا بدّ أن بعض الحضور عدّه وقحاً، أما أنا فلا. فالأميرال من أولئك الرجال المعتادين على الفوز. سألته إحدى الجيشاوات عن سرّه، فقال:

- لا أسعى أبداً إلى هزيمة خصمي، بل إلى زعزعة ثقته بنفسه. فالعقل الذي يغزوه الشك لا يستطيع التركيز على إيجاد أفضل الوسائل للانتصار. يتساوى رجلان عندما يكونان على الدرجة نفسها من الثقة بالنفس.

آنذاك، لم أفهم ذلك الكلام، ولكن بعد أن تنازعتُ وهاتسومومو حول يومياتي، فقد غزا الشكّ روحها كما قال الأميرال. لقد فهمت أن الأم لن تقف معها أبداً ضدي. فهي ككيمونو ملقىً في الخارج، لن تستطيع مقاومة العواصف الهوجاء.

لو أني قلتُ ذلك لمامها؛ لانتفضت ضد وجهة نظري بلا شك.

WWW.REWITY.COM

فقد كانت رؤيتها لهاتسومومو تختلف عن نظرتي، برأيها: إنّ هاتسومومو امرأة هدّامة لنفسها، يكفي أن نحرّكها حتى تسعى بنفسها إلى حتفها. ربما كانت مامها على حق، لا أدري. على أية حال، لقد غدت هاتسومومو امرأة مزاجية، تفرط في الشراب، ولا تتحكّم بتصرّفاتها العنيفة. حتى أصبحت حياتها تتفكّك، لطالما استخدمت القسوة لغاية محدّدة كمصارع السومو الذي يستلُّ سيفه لا ليضرب به كيفما اتفق، بل ليضرب عدوّه. في تلك المرحلة من حياتها، لم تدرك بالضبط من هم أعداؤها. فقد كانت تعمد أحياناً إلى جرح بومبكين، أو توجيه ملاحظات مهينة للرجال الذين تسلّيهم في السهرات. ثمة شيء آخر: إنها لم تعد جميلة. صار لبشرتها مظهر شمعي، وانتفخ وجهها، أو إني رأيتها هكذا. عندما تغزو الحشرات شجرةً جميلة، فإن جذعها يفقد بهاءَه.

* * *

النمر المجروح حيوان خطر. كذلك اتخذت مامها قرارها: سوف نتعقّب هاتسومومو مساءً ولعدة أسابيع. أرادت أختي الكبرى أن تُبقي عينها عليها: فقد تذهب لرؤية نابو، وتطلعه على الملاحظات التي كتبتُها عنه، وعلى عواطفي الخبيئة عن «س.ها»، وسيعرف نابو مباشرةً أن الرئيس هو المقصود. وبعد، لقد أرادت مامها أن تجعل حياة هاتسومومو مستحيلة. قالت لي:

ـ عندما نريد أن نكسر لوحاً خشبياً لا يكفي ضربه من وسطه، بل يجب الصعود فوقه حتى ينوء وينقسم إلى قسمين.

وهكذا كانت مامها تأتي في الغسق إلى أوكيّانا، إذا لم يكن لديها التزامات، وتنتظر حتى تخرج هاتسومومو لكي تتعقّب أثرها. لم يكن باستطاعتنا، أنا ومامها، أن نقوم بالمطاردة معاً باستمرار، فكانت واحدةٌ منا على الأقل تقوم بالمهمة يومياً في جزء من السهرة. في المرة الأولى، تظاهرت هاتسومومو بأنها تستمتع بهذه اللعبة ، وفي نهاية السهرة الرابعة، نظرت إلينا نظرة شانئة، فلقد لاقت مصاعب في أن تبدو سعيدة مع الرجال الذين يفترض بها أن تسلّيهم.

في المساء الثاني من الأسبوع التالي، استدارت وأتت إلينا مباشرةً. قالت:

ـ يبدو أن الكلاب تتبع أسيادها! وأنتما تلحقان بي إلى كل مكان، هل تريدان أن أعاملكما ككلبتين؟ سأريكما ما أفعله مع الكلبات التي لا أحبها.

تراجعت يدها لتصفع مامها على صدغها، فأطلقتُ صرخةً مدوية، مما أحبط هاتسومومو. رمقتني بعينين لامعتين غضباً، ثم خمد غضبها، واستدارت مبتعدةً. جميع المارة في الشارع لاحظوا ماحدث.

اقترب بعضهم وسألوا مامها عن حالها، فطمأنتهم بأنها بخير، ثم قالت بصوت حزين:

ـ مسكينة هاتسومومو ! الطبيب على حق! أظن أنها فقدت عقلها.

ما من طبيبٍ قال هذا القول، ولكن كان لكلام مامها تأثير كبير. سرعان ما سرت شائعة في جيون أن أحد الأطباء وصف هاتسومومو بأنها غير متوازنة.

* * *

طوال سنوات عديدة بقيت هاتسومومو مقرّبةً جداً من ممثّل الكابوكي باندو شوجيرو، وكان شوجيرو «أونّا ـ غاتا»: لا يلعب إلا أدوار النساء. ذات يوم، وفي إحدى المقابلات أعلن أن جمال هاتسومومو نادر وأنه يقلّد حركاتها الناعمة على المسرح. وكلما أتى إلى المدينة كانت هاتسومومو تزوره.

ذات مساء، علمتُ أن شوجيرو سيقيم احتفالاً بعد العرض في بيت شاي بونتوشو، في الضفة الأخرى من نهر شيراكاوا. عرفتُ هذا الخبر وأنا أعدّ الشاي في أحد الاحتفالات المقامة من أجل ضباط البحرية الآتين في إجازة. بعد الاحتفال، أسرعتُ إلى الأوكيّا، لكن هاتسومومو كانت قد ذهبت. فهي تقوم بما كنتُ أقوم به منذ عدة سنوات: تذهب باكراً لئلا يلحق بها أحد. تحرّقتُ لإخبار مامها

WWW.REWITY.COM

بالخبر، فأسرعتُ إليها. أخبرتني خادمتها بأنها ذهبت منذ نصف ساعة لكي «تصلّي». عرفت مباشرةً ما تقصده: لقد ذهبت إلى المعبد الصغير في شرقي جيون لكي تصلّي أمام «الجيزو» الثلاثة التي أقامتها هناك. و«الجيزو» يحمي نفس الطفل التائه. كانت تلك التماثيل ترمز إلى الأطفال الثلاثة الذين أجهضتهم مامها بطلب من البارون. لو كنتُ في ظروف أخرى لذهبتُ بكل تأكيد إليها، ولكن لم يكن بمقدوري أن أزعجها في لحظة كهذه. وثمة أمر آخر: ربما هي لا تريد أن أعرف أنها في ذلك المكان. انتظرتها في الصالون. قدّمت لي تاتسومي كأساً من الشاي. أخيراً، عادت مامها منهكةً. بما أنها لم تكن تريد أن نبحث في الموضوع الذي يشغلني، تحدّثنا عن «مهرجان القرون»، كان على مامها أن تلعب دور الليدي مورازاكي شيكيبو مؤلفة «يقال عن جنجي». أخيراً، رفعت مامها عينيها عن كأس الشاي، فقلت لها عما عرفته في الظهيرة، فقالت:

ـ عظيم! ستسترخي هاتسومومو معتقدةً أننا لن نقلقها. ونظراً للاهتمام الذي سيعيرها إياه شوجيرو؛ ستظن أنها ولدت من جديد. في تلك اللحظة، سنصل كرائحة كريهة قادمة من الزقاق، ونفسد سهرتها.

لقد عاملتني هاتسومومو بقسوة فظيعة طوال السنوات الماضية، فكنتُ أكرهها. كذلك كان عليّ أن أستمتع بهذا الأسلوب، ولكن، وبغرابة شديدة، إن التآمر عليها لإيذائها لم يجلب لي أي فرح. أتذكر ذات صباح، عندما كنت طفلةً أسبح في المستنقع، أحسستُ فجأةً بألم ممضٍ في كتفي. لقد لسعني دبور وحاول أن يُخرج إبرته من جلديَ، فصرختُ. أخرج أحد الأولاد الدبور من كتفي. كان يحمله من جناحيه فوق إحدى الصخور، لأننا كنا نبحث عن أفضل طريقةٍ لقتله. آلمتني تلك اللسعة أشدّ الألم، ولم أكن أكنّ أي استلطاف للدبور، ومع ذلك فقد اعتراني إحساس بالفراغ في صدري لمجرّد أن هذا المخلوق سيلقى موتاً زؤاماً. أحسستُ الإحساس نفسه تجاه هاتسومومو . طوال تلك السهرة التي تعقّبناها فيها في جيون، حتى عادت إلى الأوكيا مهزومة، شعرتُ وكأننا كنا نعذّبها.

ذاك المساء، في التاسعة اجتزنا النهر لنصل إلى البونتوشو. بعكس جيون التي هي عبارة عن مجمّعات عديدة من البيوت، فإن هذا الحي عبارة عن ممر طويل على طول ضفة النهر. كان الفصل خريفاً، والطقس بارداً، ومع ذلك فقد أقام شوجيرو الاحتفال في الهواء الطلق في زورق التجسير الواسع المجاور لبيت الشاي. لم ينتبه أحدٌ لوصولنا. كانت مصابيح ورقية تنير الشرفة. وفي الجهة المقابلة، كانت أنوار أحد المطاعم ترسل ضياءً مذهّباً على صفحة الماء. الضيوف جميعاً يصغون إلى شوجيرو وهو يروي قصةً بصوته الشجي. بدت هاتسومومو محبطةً عندما رأتنا! بدت كإجاصة فاسدة: إذ ظهرت بقع الحزن وسط وجهها الفَرِح.

جلست مامها على إحدى التاتاميات إلى جانب هاتسومومو ، الأمر الذي وجدته قاسياً عليها. اتخذتُ مكاني في الجهة الأخرى من الزورق، إلى يمين رجل مسنٍّ يبدو لطيفاً، ظهر أنه تاشيبانا زنساكو، وهو موسيقي مشهور. كان يعزف على «الكوتو»، ولطالما اقتنيتُ أسطوانات له. اكتشفتُ في ذلك المساء أن تاشيبانا أعمى. كنتُ سأبادر إلى التخلّي عن انتقامي لكي أتناقش مع هذا الرجل الجذّاب. ما كدنا نبدأ الكلام، حتى انفجر الجميع ضاحكين.

كان شوجيرو ممثّلاً إيمائياً فذّاً، طويلَ القامة، فارعاً كغصن صفصاف، ذا وجه طويل قادر على اتّخاذ التعبيرات الأكثر بلاهةً. فبإمكانه أن يوهم ثلّةً من القرود أنه واحدٌ منها. حالياً، راح يقلّد جيشا في الخمسين من عمرها تجلس إلى جانبه، ويعطي عنها صورة كاملة؛ بحركاته المخنّثة وتكشيرته وطريقته في تدوير عينيه. مكثتُ مذهولةً راغبةً في الضحك، فقد وجدته مضحكاً أكثر مما هو على المسرح. مال عليَّ تاشيبانا، وسألني:

ـ ماذا يفعل؟

ـ إنه يقلّد جيشا مسنة تجلس إلى جانبه.

ـ أوه، لا بدّ أنها إيشيواري!

WWW.REWITY.COM

ربتَ عليَّ بظاهر يده لكي يتأكد من حيازته على كامل انتباهي، ثم قال وهو يرفع بنصره تحت الطاولة لئلا يراه أحد:

ـ مدير مسرح ميناميزا.

في اليابان، يعني رفع البنصر عشيقاً أو عشيقةً. قال لي تاشيبانا إن الجيشا المسنّة هي عشيقة مدير المسرح. وكان المدير حاضراً، وضحك ضحكات أقوى من الآخرين.

وضع شوجيرو إصبعه في أنفه، فانفجر الجميع ضاحكين، وطقطق الزورق. لم أكن أعرف حتى تلك اللحظة أن إيشيواري مولعةٌ بتنظيف أنفها بإصبعها علناً. احمرّت خجلاً، وخبّأت وجهها خلف كمّها. ضحك الجميع بتهذيب، في حين أن هاتسومومو وحدها وجدت تلك الحركة مضحكةً جداً. بدأ شوجيرو الذي أفرط في شرب الساكي يتجاوز حدوده ليغدو قاسياً. قال له مدير المسرح:

ـ هيا يا شوجيرو ـ سان، احتفظ ببعض حيويتك لعرض الغد! ثم ألا ترى أنكَ تجلس إلى جانب إحدى أعظم راقصات جيون؟ بإمكاننا أن نطلب إليها أن ترقص. وكان يقصد مامها.

فقال شوجيرو:

ـ أوه، لا. لا أرغب في رؤية امرأة ترقص!

فقد كان يرغب في أن يبقى نجماً. أضاف:

ـ ثم إني لا أتسلّى جيداً.

قال مدير المسرح بجدية هذه المرة:

ـ مامها العظيمة هنا، ويمكنها أن ترقص لنا. ولن نفوّت هذه الفرصة يا شوجيرو ـ سان!

أيّدته بضع جيشاوات، فاقتنع شوجيرو: طلب إلى مامها بصوتٍ حَرِد كصوت طفل أن ترقص، فاغتاظت هاتسومومو . قدّمت الساكي لشوجيرو، فقدّم إليها الساكي بدوره. تبادلا نظرة، كأنما يقولان إن الحضور يفسدون عليهما سهرتهما.

WWW.REWITY.COM

أُرسلت إحدى الخادمات لتأتي بشاميزن. دوزنته إحدى الجيشاوات وتأهّبت للعزف. استغرق الأمر بضع دقائق. وقفت مامها أمام الستارة، وقدّمت عدة مقطوعات راقصة. برأي الجميع، كانت مامها امرأة جميلة، لكن جمالها لا يعادل جمال هاتسومومو . لا أستطيع أن أقول ما الذي فتن شوجيرو، أهو الساكي الذي أفرط في شربه، أم إن رقص مامها أعجبه حقاً؟ لقد كان هو نفسه راقصاً ممتازاً.

عادت مامها إلينا. لم يغادرها شوجيرو بعينيه، طلب إليها أن تجلس إلى جانبه، ففعلت، فقدّم لها كأساً من الساكي، وأدار ظهره لهاتسومومو، كما لو أنها معجبة عادية. زمّت شفتيها، وتقلّصت عيناها إلى النصف. أما مامها، فلم أرَها في حياتي في مثل هذا الإعجاب بأحد: كانت تلتهم شوجيرو بعينيها وهي تحكّ قاعدة رقبتها كما لو أنها كانت منزعجةً من الاحمرار الذي ظهر في تلك المنطقة. فعلت ذلك بطريقة مقنعة جداً، مما جعل الآخرين يعتقدون أنها احمرّت حقاً!

سألت إحدى الجيشاوات شوجيرو إن كان لديه أخبار عن باجيرو ـ سان، فقال بلهجة درامية:

ـ لقد تركني باجيرو ـ سان!

لم أفهم إلامَ كان يلمّح شوجيرو، فقال لي تاشيبانا بهمس إن «باجيروسان» ما هو إلا الممثّل الإنكليزي بازل راثادون، وكنتُ لا أعرف ذلك الممثّل آنذاك. قبل عدة سنوات عرض شوجيرو مسرحية كابوكي في لندن، فأُعجب بازل راثادون بالمسرحية أيما إعجاب، وبمساعدة أحد المترجمين ارتبط الممثّلان بصداقة متينة. قد يُعجَب باجيرو بمامها أو بهاتسومومو، ولكن هذا لا يمنعه من أن يكون شاذّاً جنسياً. فعندما عاد من إنكلترا، أعلن أن قلبه قد انفطر إلى الأبد، لأن باجيرو لا يهوى الرجال. بعد ذلك صار يسخر من نفسه. قالت له جيشا:

ـ يحزنني أن أشهد نهاية قصة حب!

ضحك الجميع باستثناء هاتسومومو التي تابعت النظر بحقدٍ إلى شوجيرو الذي قال:

ـ سوف أريكم الفارق بيني وبين باجيرو ـ سان.

نهض وطلب إلى مامها أن تتبعه. أخذها إلى الطرف الآخر من الزورق ليكون لديهما متّسع، ثم قال:

ـ هذا أنا عندما أمثّل.

انتقل من جهة إلى أخرى من الزورق بخطى وئيدة وهو يحرّك مروحته المطوية بحركةٍ رشيقة من معصمه. أضاف:

ـ والآن، سوف أقلّد باجيرو ـ سان.

أمسك بمامها وأدناها من الأرض في تمثيلٍ لمشهدِ احتضانٍ حار. ذُهلت مامها عندما أوسع وجهها تقبيلاً! استمتع الحاضرون جميعاً، وصفّقوا ما عدا هاتسومومو .

سألني تاشيبانا بصوتٍ خافت:

ـ ماذا يفعل؟

لم أظن أن أحداً سمع سؤاله، ولكنّ هاتسومومو انبرت للردّ:

ـ إنه يجعل نفسه مضحكةً!

قال شوجيرو:

ـ أوه، يا هاتسومومو! الغيرة تنهشك، أليس كذلك؟

قالت مامها:

ـ بالتأكيد هي غيورة! يجب أن تتصالحا أمامنا. هيا ياشوجيرو، لا تكن خجولاً! قبّلها كما قبّلتني، ذلك هو العدل.

بعد عدة محاولات فاشلة، نجح شوجيرو في إنهاض هاتسومومو. حملها بين ذراعيه وقبّلها، ثم رفع رأسه وهو يصرخ ويده على فمه، فلقد عضّته. لم تكن عضّة قوية لتدميه، ولكنها كافية لتصدمه. وقفت قبالته وعيناها تقدحان شرراً وشفتاها مزمومتان. تراجعت يدها وصفعته. لا بدّ أنها أخطأت هدفها لأن

يدها أصابت صدغه. لقد أفرطت في الشراب بكل تأكيد. سألني تاشيبانا:

ـ ماذا حصل؟

في الصمت المطبق، سُمع صوته واضحاً. لم أجب، ومع ذلك، فقد سمع تاشيبانا صراخ شوجيرو، وأنفاس هاتسومومو اللاهثة، لا بدّ أنه حزر ما حصل. قالت مامها بصوت هادئ تردّد في الصمت المحيط:

ـ أرجوكِ يا هاتسومومو ـ سان، حاولي أن تهدئي.

لم أعرف ما إذا كان لكلام مامها تأثير عكسي، أم إن هاتسومومو فقدت صوابها، إذ إنها انقضّت على شوجيرو وأوسعته ضرباً. بلا ريب، كانت تهذي، فقد بدا المشهد أبعد مايكون عن الواقع. سارع مدير المسرح إلى هاتسومومو لكي يوقفها، وانسحبت مامها. وبعد دقيقة، عادت ومعها معلمة بيت الشاي. كان مدير المسرح يمسك بهاتسومومو من الخلف. ظننتُ أن الأزمة قد انتهت، لكن شوجيرو صرخ بهاتسومومو، بحيث إن صوته تردّد في الجهة المقابلة:

ـ متوحّشة! لقد عضّتني!

ماكنت لأعرف كيف كانت هذه المحنة ستنتهي لولا تدخّل معلمة الأوكيا. هدّأت شوجيرو ببضع كلمات وهي تشير إلى مدير المسرح أن يبعد هاتسومومو . علمتُ فيما بعد أنه لم يكتفِ بأخذها إلى بيت الشاي، بل رماها خارجاً.

* * *

لم تعد هاتسومومو إلى الأوكيا تلك الليلة. وعندما عادت في اليوم التالي، كانت تفوح منها رائحة القيء، وكان شعرها مشعثاً. أُرسِلت إلى غرفة الأم، وأمضت عندها وقتاً طويلاً.

ـ بعد عدة أيام، غادرت الأوكيا وهي ترتدي كيمونو بسيطاً من القطن أعطتها إياه الأم. وشعرها مرخيٌ على كتفيها، وتلك المرة

WWW.REWITY.COM

الأولى التي أراها من غير كعيكةٍ، وتحمل في يدها حقيبةً تحوي أمتعتها وجواهرها. خرجت دون أن تودعنا. لم تذهب برضاها، بل إن الأم طردتها. وبحسب رأي مامها: كانت الأم تسعى إلى التخلص منها منذ عدة سنوات. وسواءً أكان الأمر كذلك أم لا؛ فلا بدَّ أن الأم فرحت لأنها تخلَّصت من فم عليها أن تطعمه. كما إن هاتسومومو لم تعد تكسب المال كما في السابق. بالإضافة إلى ذلك، لم تكن الظروف الحياتية بهذه القسوة قط.

لو لم تكن معروفةً بخُلُقِها السيء، لتمكن أي أوكيّا آخر أن يتبناها حتى بعد فعلتها مع شوجيرو. للأسف، فهي مستعدةٌ دوماً لإخراج مخالبها. وكان أهل جيون جميعاً يعرفون ذلك.

لا أعرف بالضبط ما حصل لها. فبعد الحرب بثلاث سنوات، قيل لي إنها كانت تعيش من عملها كمومس في حي مياغاوا ـ شو. في المساء الذي علمتُ فيه هذا الخبر، في أحد الاحتفالات، أعلن أحد الرجال، إنها لو كانت مومساً، فسيجدها ويعطيها عملاً. وشرع في البحث عنها، لكنه لم يجدها. لابد أن الكحول قتلها، وذلك هو قدرُ كثيرٍ من الجيشاوات.

كنا قد اعتدنا على التعايش مع هاتسومومو كما يعتاد المرء على معايشة ساقٍ متقلصة. وبعد اختفائها، فهمنا إلى أية درجةٍ كان وجودها يزعجنا. مرَّ وقتٌ لابأس به قبل أن تشفى جراحاتنا منها. كانت تمثل تهديداً حتى وهي نائمة، وكانت الخادمات يعرفن أنها ستعذبهن بطريقة بأخرى طوال النهار. كن يعشن في حالةٍ من التوتر الدائم كما لو أنهن يمشين فوق زجاجٍ مهددٍ بالكسر في أية لحظة. أما بالنسبة إلى بومبكين، فقد أصبحت مستقلةً عن أختها الكبرى، وهي تعيش حالةً من التّيه غريبة.

كنتُ أعيشُ الأوكيّا منذ عدة سنوات خلت. ورُغمَ ذلك، لم أتخلص من الانعكاسات السلبية التي سببتها لي هاتسومومو إلا بعد عدة أشهر. كلما نظر إليَّ رجلٌ نظرةً غريبة؛ أتساءل ما إذا كانت قد قالت له كلاماً مروِّعاً عني، وذلك بعد أن ذهبت بوقتٍ طويل. وكلما صعدتُ درج الأوكيّا؛ أُبقي عيني مخفضتين خشية أن تكون على

السفرة تنتظر أن تعاملني بسوءٍ. كم من مرةٍ وضعت قدمي على هذه الدرجة الأخيرة، رافعةً عيني لأتأكَّدَ من أنها لم تعد موجودةً! لقد ذهبت، كنتُ أعرف ذلك. ومع ذلك، فقد بدا الممر مسكوناً بها. لقد مرت عشرات السنين وأنا أفكر أحياناً، عندما أرفع البروكار الذي يغطي مرآتي، أنني سأراها هناك وهي تبتسم لي ابتسامةً خبيثة.

28

في اليابان، يُشير «وادي الظلمات» أو «كورو تاني» إلى الفترة التي تبدأ من أزمة 1929 حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. عاش الشعب في قلقٍ في تلك الفترة كأطفالٍ تغطيهم الموجةُ. أما نحن، جيشاوات جيون، فلم نقاسِ تلك الحرمانات. إذا كان اليابانيون قد عاشوا سنوات الثلاثينات في وادي الظلمات، ففي جيون كان ثمة بعض الشمس. إنه لمن العبث ذكر السبب بكل تأكيد. فالنساء اللواتي كن عشيقاتٍ لوكلاء الوزارة وضباط البحرية يتمتعن بفوائد عظيمة، وأفادت منها الأخريات. كانت جيون تشبه بحيرةً لجبلٍ عالٍ يغذيها ذوبان الثلوج، والماء يتجدد بصورةٍ أسرع في بعض النقاط، ولكن البحيرةَ تبقى مليئة. بفضل الجنرال توتوري كان أوكيّانا إحدى تلك النقاط التي يغذيها الماء الطازج باستمرار. لكنَّ الأمور أخذت تسوء سنةً بعد سنة. وبعد، لقد كان لدينا الثياب والشاي والمواد الغذائية حتى منتصف الحرب. بل كانت تؤمن لنا منتجات الرفاهية: أدوات التجميل والشوكولا، وكان بإمكاننا أن نحتفظ بهذه الأشياء ونعيش وأبوابنا مغلقة، لكن روحاً من المساعدة كانت تخيم على جيون. وكانت الأم تعطي قسماً كبيراً مما كان يأتينا بطيب خاطر. ليس لأنها كانت كريمة، بل لأننا كنا عناكب في شبكةٍ واحدة. بين وقتٍ وآخر كان الناس يطلبون مساعدتنا، فنساعدهم مااستطعنا إلى ذلك سبيلاً. في خريف عام 1941 مثلاً، أوقفت المليشيا إحدى الخادمات وهي تحمل علبةً تحوي بطاقات تموين أكثر بعشر مرات مما يحق

WWW.REWITY.COM

لأوكيّاها أن يملكها. وجهتها إلينا معلمته، فآويناها حتى أصبح أوكيّاها يستطيع إرسالها إلى الريف. كانت أوكيّات جيون كلها تخزن بطاقات التموين، فكلما كان الأوكيّا غنياً؛ امتلك بطاقاتٍ أكثر. كانت تلك النساء ترسل إلينا خادمتهن لأن الجنرال توتوري أعطى أمراً للمليشيا بألا تقترب منا. في بحيرة الجبل العالي، تلك التي كانتها جيون، كنا نكبرُ في المياه الأقل برودةً.

* * *

وتابعت الظلمات امتدادها على اليابان. وأتت اللحظةُ التي سُحبَ فيها ذلك النور الضئيل الذي نجحنا في إبقائه. تمّ ذلك في كانون الأول من العام 1942، ظهيرة أحد الأيام. كنتُ أتناول فطوري، أقصدُ أول وجبةٍ لي في النهار، لأني كنتُ قد ساعدتُ خادمات على تحضير مؤن رأس السنة عندما سمعتُ صوت رجلٍ في المدخل. تابعت تناول طعامي، وأنا أظن أنه أحد الصبيان وقد أتى ليسلمنا بعض الأغراض. بعد بضعة ثوان، أتت خادمةٌ لتقول إن أحد رجال المليشيا يريد أن يرى الأم، فقلت:

ـ أحد رجال المليشيا؟ قولي له إن الأم ليست هنا.

ـ هذا ما فعلته ياسيدتي! فأكد أنه سيكلمك في هذه الحالة.

عندما عدتُ إلى الردهة، كان الشرطي يخلع حذاءه العسكري. لو كانت أية امرأة يابانية في مكاني لارتاحت لرؤية مسدّسه في حامله، ولكننا عشنا متميّزات، وعلى الشرطي أن يبدو أكثر مجاملةً من بقية الضيوف لئلا يخيفنا، ولكونه خلع حذاءه... فكانت تلك طريقته ليفهمنا أنه سيدخل البيت شئنا أم أبينا.

انحنيتُ وحييته. اكتفى بالنظر إليّ كما ليفهمني أنه سيستجوبني فيما بعد. رفع جوربيه، وأنزل خوذته، وسأل أين مزرعة الخضار. ذهب إليها مباشرة دون أن يستأذن. آنذاك، حوّل معظم اليابانيين حدائقهم إلى مزارع خضار، جميعاً، ماخلا أشخاص قلائل مثلنا. فقد كان يزوّدنا الجنرال توتوري منها مايكفينا عناء التعب في الحديقة. كنا نستمتع بطحالبنا وأزهارنا

ونباتات البونزاي، وهي أشجار قيقب مصغّرة. عندما رأى العسكري قطعاً من التراب مجمّدة؛ ظنّ أننا قد زرعنا اليقطين، أو البطاطا الحلوة بين نباتات الزينة. أخذته إلى الحديقة دون أن أنبس بكلمة. جثا، وأخذ بعض التراب بين أصابعه، لا بدّ أنه كان يريد التأكد من أن هذه الأرض قد قُلبت قبل أن تُبذَر.

بحثتُ بلا جدوى عن كلام أقوله، ألفيتني أقول أول ما خطر ببالي:

ـ ألا تذكّرك هذه الطبقة الرقيقة من الثلج تحت التربة بزبد المحيط؟

لم يُجب. نهض وسألني أي خضارٍ نزرع. فقلت:

ـ لم يكن لدينا الفرصة لزراعة أي شيء يا سيدي! والآن، الأرض قاسية جداً، وباردةٌ جداً.

ـ جمعية الجوار لم تخطئ بصددكم!

خلع خوذته، وأخرج ورقة من جيبه، وأخذ يقرأ قائمة الأعمال الشائنة التي قام بها أوكيّانا. لم أعد أذكر تلك الجُنَح كلها: تخزين الملابس، عدم تسليم الأدوات المعدنية إلى الجيش، الإفراط في استخدام البطاقات التموينية. كنا ككل أوكيّات جيون، وأظنّ أن جريمتنا كانت في أن الحظ حالفنا أكثر من غيرنا، وبقينا على قيد الحياة، وفي صحة جيدة.

من حسن حظي أن الأم دخلت في تلك اللحظة. لم يبدُ عليها أنها فوجئت برؤية رجل ميليشيا في الأوكيّا. عاملته بكثير من اللطف. لم أرها في حياتي تعامل أحداً بهذه الطريقة. أخذته إلى الصالون، وقدّمت له كأساً من شاينا المميّز. أغلقت عليهما الباب، ولكني سمعتهما يتناقشان طويلاً. بعد ذلك، خرجت لتأخذني جانباً، وتقول لي:

ـ لقد توارى الجنرال عن الأنظار منذ هذا الصباح. اذهبي وخبّئي الأشياء التي لدينا، وإلا سيأخذونها منذ صباح الغد.

* * *

www.rewity.com ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

في يورويدو كنتُ أسبح منذ بداية الربيع. يكون الطقس بارداً، ومع ذلك، أتمدّد على الصخور، وأجفف جسمي في الشمس التي كلّما اختفتْ خلف غيمة؛ أحسُّ بالهواء البارد يحيط بي ككفن. لحظة عرفتُ مصير الجنرال العاثر، ألمّ بي فجأةً ذلك الإحساس بالبرد. كنتُ كما لو أن الشمس احتجبت، أو كأنه حكم عليَّ بأن أقف مبلّلةً في الهواء الجليدي. في الأسبوع التالي، جُرِّد أوكيّانا من الأشياء التي صودرت من بقية الأسر طوال عدة سنوات: مخزون من الأطعمة والألبسة الداخلية. كنا نعطي الشاي لمامها لكي تستخدمه للحصول على بعض المزايا، والآن بعد أن أصبح مخزونها أفضل من مخزوننا؛ صارت هي التي تعطينا. في نهاية الشهر، صادرت جمعية الجوار معظم سيراميكنا، ولوحات أخرى لبيعها في «السوق الرمادية»، المختلفة عن السوق السوداء. ففي السوق السوداء يوجد الوقود وأصناف الأطعمة والأدوات المعدنية، وبخاصة المنتجات المقنّنة أو ممنوعة البيع. أما السوق الرمادية؛ فلها جانب أكثر براءةً، إذ نرى فيه ربّات المنازل يعرضن مقتنياتهنّ الأغلى ثمناً لكي يحصلن على المال. وبالمقابل، فإن ممتلكاتنا بيعت بتدابير ثأرية. ذهب حاصل البيع إلى أشخاص آخرين. لقد أتت مديرة جمعية الجوار، معلّمة أحد الأوكيّات المجاورة لتأخذ أشياءنا آسفةً! فقد أعطت الميليشيا أوامرها، وعلى الجميع التقيّد بها.

إذا كانت السنوات الأولى من الحرب مثيرةً كرحلةٍ بحرية، فقد فهمنا في العام 1943 أن الأمواج كانت أعلى بكثير من طاقة زوارقنا الهشّة. وأحسَّ عدد منا باليأس، فقد غدت الحياة صعبة، وأخذنا نتساءل حول نهاية الحرب. ما من أحد كان يبحث عن التسلية، ومعظم الناس كانوا يرفضون أن يمضوا أوقاتاً ممتعةً، وقد عُدَّ ذلك نقصاً في الوطنية. طوال تلك الفترة، لم أسمع سوى مزحةٍ واحدة أطلقتها ذات مساء الجيشا رايها. منذ عدة أشهر سرَت شائعةٌ بأن الحكومة ستغلق بيوتات الشاي في اليابان، وبتنا نفكّر أن هذا الأمر لن يتأخّر. ماذا سيحلّ بنا؟ اتخذ الحديث هذا المنحى الهزلي عندما قالت رايها مستغربةً:

WWW.REWITY.COM

ـ يجب عدم التفكير في أشياء مماثلة! ربما ليس هناك أسوأ من المستقبل إلا الماضي!

قد لا تجد هذا الكلام مضحكاً. أما نحن، فقد أضحكنا حتى سالت دموعنا. ستكفّ جيون قريباً عن كل نشاطٍ. وسيرسلوننا إلى المصانع. ولكي أعطيكَ فكرةً عن معنى الحياة في المصانع؛ سأقصّ عليكَ قصة كورين صديقة هاتسومومو .

في الخريف الماضي، لقيت كورين المصير الذي كنا نخشاه جميعاً. أحرقت إحدى خادمات أوكيّاها بعضَ الجرائد لكي تشعل النار لتسخين الحمام، ولكنها أحرقت الأوكيّا كلياً. أتت النيران على مجموعة الكيمونوهات، وانتهى الأمر بكورين في أحد المصانع ـ جنوب كيوتو ـ التي تصنع عدسات التقريب المستخدمة في القاذفات. كانت تزورنا بين الفينة والأخرى، وراعنا مقدار تغيّرها. ليس لأنها تزداد تعاسةً أكثر فأكثر فحسب، فقد عرفنا جميعاً هذه الحال في جيون، بل لأنها أصيبت أيضاً بسعال قوي، وعلت جلدها بقع كما لو أنها غطست في حمام من الحبر. لقد كان الفحم المستخدَم في المصانع من نوعية رديئة، فعند احتراقه يترك طبقةً من الهُباب على الأشياء، وعلى الأشخاص. لقد أرغمت المسكينة على العمل ضعف الأخريات، وعانت من سوء التغذية، فقد كانت تأكل مرةً واحدةً في اليوم: مرق لئيم تسبح فيه بضع ديدان من المعكرونة أو الأرز المجروش الممدّد بالماء والمعطّر بقشرة البطاطا.

تخيّل كم كانت فكرة ذهابنا للعمل في أحد هذه المصانع ترعبنا! كل صباح، عند استيقاظنا، كنا نشكر السماء لأن جيون ماتزال في حركة.

وذات يوم من أيام كانون الثاني من السنة التالية، كنت أقف في الطابور تحت الثلج لكي أشتري بعض الأرز، حين أطلّ البائع برأسه، وقال:

ـ لقد انتهى!

تبادلنا النظرات بحيرة. كان خدّري بسبب البرد أكبر من أن

أهتمَّ بما قاله البائع. لم أكن ألبس إلا شالاً كبيراً فوق لباسي الفلّاحي. ما من أحد عاد يلبس كيمونو في النهار. طردت إحدى الجيشاوات أمامي الثلجَ عن أجفانها، وسألت البائع عما يقصده بكلامه:

ـ هل انتهت الحرب؟

ـ لقد أعلنت الحكومة عن إغلاق بيوتات الشاي! وعليكنّ جميعاً أن تذهبن غداً صباحاً إلى مكتب التسجيل.

كان صوت مذياعه يتسلّل إلى الخارج. سمعنا الأخبار، ثم أغلق بابه وما عدنا نسمع إلا صوت تساقط الثلج. اعتلى اليأس وجوه الجيشاوات من حولي! وتساءلنا جميعاً السؤال نفسه: أي زبونٍ من زبائننا يستطيع أن يجنّبنا مغبّة الحياة في أحد المصانع؟

كان الجنرال توتوري مايزال «دانّاي» حتى السنة الماضية، ولكنه يعاشر جيشاوات أخريات. وجب عليَّ أن أذهب إليه أولاً. ورُغمَ أني لم ألبس لباس البرد، فقد وضعتُ البطاقات التموينية في جيب بنطال الفلاحة الذي ألبسه، وذهبتُ مشياً إلى شمال غرب كيوتو. سرت الشائعة بأن الجنرال كان يعيش في فندق سورويا، ذلك الذي بقيتُ ألقاه فيه مرتين في الأسبوع طوال عدة سنوات.

وصلتُ بعد ساعةٍ مخدَرةً ومغطّاة بالثلج. نظرت إليّ معلمة الفندق طويلاً، ثم مالت عليَّ وقالت، وهي مضطربة لأنها لم تتعرف إليّ:

ـ سايوري ـ سان... يا إلهي! لم أفكّر قطُّ أنه يمكنكِ أن تشبهي فلاحة!

أدخلتني، ولكنها رفضت أن تدخلني إلى الجنرال قبل أن تصعدني إلى الطابق الأول وتعيرني أحد كيمونوهاتها. وضعت لي بعض المكياج لراحة الجنرال، فقد خزّنت بعض المستحضرات.

عندما دخلتُ إلى غرفة الجنرال، وَجَدْتُه جالساً إلى طاولته يستمع إلى تمثيلية إذاعية. انحسر ثوب حمامه وكشف عن صدرٍ بارز العظام، وبعض الشعيرات الناعمة الشائبة. لا بدّ أنه تعرّض

لمحنٍ كثيرة خلال سنة: فقد اتُّهم بجرائم بشعة: كالإهمال، وانعدام الكفاءة، وسوء استخدام السلطة. ما من أحد كان يظنّ أنه سيفلت من السجن. حتى إن أحد المقالات اتهمه بالمسؤولية عن هزيمة البحرية الإمبراطورية في جنوب المحيط الهادي، إذ إنه لم يتحقّق من تزويد البحّارة بالطعام الكافي. وبعد، فإن بعض الرجال يتحمّلون الخصومة أكثر من الآخرين. لقد امتحنت السنةُ الأخيرة الجنرال. حتى وجهه بدا مقلوباً. لطالما فاحت منه رائحة الخضار المتبّلة، والآن كانت رائحته نفّاذة بشكل واضح. قلت له كاذبةً:

ـ تبدو بصحتكَ أيها الجنرال! إني سعيدة لرؤيتكَ من جديد!

أطفأ المذياع! وقال:

ـ لستِ أول من يمرّ بي. إني لا أستطيع فعل شيءٍ من أجلكِ ياسايوري!

ـ ولكني سارعتُ إليك. ولا أستطيع أن أصدّق أن أحداً سبقني!

ـ منذ أسبوع والجيشاوات التي أعرفهنّ جميعاً يتوافدن عليَّ. ولكن لم يعد لديَّ من أصدقاء في مناصب مرموقة. ثم إني لا أفهم لماذا تأتي جيشا من طبقة راقية مثلك لتطلب مساعدتي. كثيرون هم الرجال القادرون الذين يحبّونكِ!

ـ أن أكون محبوبة شيء، وأن يكون لي صديق حميم أستطيع الاعتماد عليه شيء آخر!

ـ صحيح، ولكن أي نوع من المساعدات تتوقّعين مني؟

ـ أرحّب بأية مساعدة أيها الجنرال! إننا نخاف جميعاً أن نذهب إلى المصانع. يبدو أنها الجحيم!

ـ الأوفر حظاً بيننا سيعرفون الجحيم، أما الأقل حظاً فلن يعيشوا ليشهدوا نهاية الحرب.

ـ لم أفهم!

ـ سوف نتعرّض للقصف، والمصانع هي أولى الأهداف. إذا كنتِ تريدين أن تعيشي إلى ما بعد الحرب، فجدي لنفسكِ مكاناً آمناً. لا أستطيع مساعدتكِ. لقد استنفدتُ علاقاتي السابقة كلها.

WWW.REWITY.COM

سأل عن صحة الأم وتاتي، ولم يلبث أن أنهى زيارتي. بعد عدة أشهر، فهمتُ لماذا لم يعد لديه أي نفوذ. كان لصاحبة سورويا ابنة، وقد استخدم الجنرال نفوذه لنقلها إلى شمال اليابان.

عدتُ إلى الأوكيا. كان عليَّ أن أتصرّف، ولكني لم أستطع التركيز. كاد صوابي يطير من الإرهاق. ذهبتُ إلى الشقة التي صارت تسكنها مامها، فقد أنهى البارون علاقته بها قبل عدة أشهر. كان بيتاً أصغر بكثير من السابق. كنت أطمح إلى فكرة منها تساعدني ولكنها بَدَتْ هي الأخرى مرعوبة. قالت وهي شاحبة، قلقة:

ـ لن يفعل البارون شيئاً من أجلي. أما بقية الرجال الذين أفكر بطلب المساعدة منهم، فلم أستطع الاجتماع بهم. تدبّري لنفسكِ حامياً يا سايوري في أسرع وقت ممكن.

منذ أربع سنوات لم تأتني أخبار عن نابو. واستبعدتُ طلبه. أما الرئيس... كنت سأجد أية حجة للكلام معه، ولكني ماطلبتُ منه مساعدةً قطّ. حتى لو أنه بدا حارّاً معي في ردهات بيوتات الشاي، فإنه لم يدعُني قطّ إلى احتفالاته، بل كان يدعو جيشاوات من منزلة أقل من منزلتي. كان ذلك يجرحني، ولكن ما العمل؟ حتى لو أراد الرئيس نفسه أن يساعدني، فإن خلافاته مع الحكومة العسكرية ستمنعه. لقد كانت له مشكلاته الكثيرة.

كذلك أمضيتُ نهاية الظهيرة بزيارة بيوتات الشاي في البرد القارس. أخذتُ أخبارَ رجالٍ لم أرَهم منذ عدة أسابيع، بل عدة أشهر. ولكن، لا أحد استطاع أن يفيدني عن مكانهم.

في المساء نفسه، أقيم احتفال وداع في الإيشيريكي. كان ممتعاً أن أرى كيف تتصرّف الجيشاوات. بدت بعضهنّ واهنات، أما الأخريات، فكنّ كتماثيل بوذا: هادئات، وديعات، وعلى وجوههنّ مسحة من الكآبة. لا أعرف كيف كان شكلي. ولكني أحسستُ أن لديّ معداداً بدلاً من دماغي. كنتُ منشغلةً بالقيام بكثير من الحسابات ووضع الخطط، وأنا أفكّر بالرجل الذي سأذهب إليه وكيف، إلى درجة أني بالكاد سمعتُ الخادمة وهي تقول لي إني مطلوبة إلى

صالونٍ آخر. ظننتُ أن مجموعة من الرجال تريد صحبتي. صعدتُ طابقين، وسرتُ في ممر طويل حتى صدر البيت. فتحت الخادمة باب صالون صغير فيه تاتاميات كنتُ أجهل وجودها، فرأيتُ نابو هناك جالساً إلى إحدى الطاولات.

قال قبل أن أتمكّن من الانحناء لتحيته:

ـ سايوري ـ سان! لقد خيّبتِ أملي!

ـ يا عدل السماء! نابو ـ سان! لم أتشرّف برؤيتكِ منذ أربع سنوات. وفي لحظةٍ أخيّب أملك. فبماذا يمكنني أن أؤلمكِ في لحظة؟

ـ ظننتُ أنكِ ستبقين صامتةً عندما ترينني.

ـ أنا مسمَّرة في مكاني!

ـ ادخلي، ودعي الخادمة تغلق الباب. ولكن اطلبي إليها أولاً أن تأتي بكوب جديد، وزجاجة بيرة جديدة. يجب أن نتبادل الأنخاب، أنا وأنتِ.

فعلتُ ما طلبَ مني، ثم جلستُ إلى طرف الطاولة، إلى يساره. كان ينظر إليَّ وكأنما كانت عيناه تلمسانني. احمرّيتُ كما لو أني تحت أشعة الشمس. نسيتُ كم هو مغرٍ للمرء أن يكون مثيراً للإعجاب!

قال:

ـ عظام وجهكِ بارزة بشكل ملحوظ. لا تقولي لي إنكِ جائعة، أنتِ أيضاً. لم أكن أتوقّع قطّ هذا الأمر منكِ أنتِ.

ـ نابو ـ سان يبدو نحيلاً أيضاً.

ـ لديَّ ما آكله، ولكن ليس لديّ الوقت للأكل.

ـ يسعدني أنك منشغل.

ـ آه صحيح؟ إذا مر الرجل بين الطلقات لكي يُبقي على حياته، فهل تفرحين لأن لديه مايشغله؟

ـ هل يشعر نابو ـ سان حقاً أن حياته مهدّدة؟

WWW.REWITY.COM

- لا أحد ينتظرني في زاوية الشارع لكي يقتلني، إذا كان ذلك ما يقلقك. ولكن إذا كانت إيوامورا إليكتريك هي حياتي، فأني أخشى أن أفقدها. والآن، قولي لي، ماذا حلّ بـ«دانّاكِ»؟

- إن حال الجنرال ليست أفضل، ولا أسوأ من حال كثيرين منا على ما أتصوّر. إنه للطفٌ منكَ أن تسألني!

- أنا لا أسعى لأن أكون لطيفاً.

- قلةٌ هم الأشخاص الذين يريدون له الخير. ولكن، لنغيّر الحديث! هل كنتَ تأتي كل مساء إلى الإيشيريكي يا نابو ـ سان؟ وهل كنتَ تجلس دوماً في هذه الغرفة المظلمة لئلا أراك؟

- إنه مكان مضحك، أليس كذلك؟ لا بدّ أنها الغرفة الوحيدة من بيت الشاي التي تطلّ على الشارع.

- هل يعرف نابو ـ سان هذا الصالون جيداً؟

- لا، فهذه أول مرة أستخدمه.

كشّرتُ تكشيرة عدم تصديق، فقال:

- فكّري كما تشائين يا سايوري! ولكني لم أضع قدمي في هذا الصالون قط. يبدو أن معلّمة الإيشيريكي تقترحه لزبائنها عندما يريدون أن يمضوا الليل. وعندما قلتُ لها سبب وجودي، تلطّفت عليّ ووضعته تحت تصرّفي.

- كل ماتقوله غامض جداً. في ذهنكَ فكرةٌ ما إذاً، هل لي أن أعرفها؟

- أسمع وقع أقدام الخادمة. سأقول لكِ بعد أن تذهب.

فُتح الباب، ووضعت الخادمة البيرة على الطاولة. كان ذلك الشراب من علائم الرفاهية في تلك الفترة. أية متعة في رؤية ذلك السائل المذهّب وهو يصعد في الكأس! خرجت الخادمة، فرفعنا كأسينا، وقال نابو:

- سأشرب نخب «دانّاكِ»!

وضعتُ كأسي، وقلتُ:

- قليلةٌ هي أسباب الاستمتاع في هذا الوقت يا نابو ـ سان، ولكن عندما تشرب نخب «دانّاي» فإنك تجعلني ألوذ بالصمت.

- كان عليّ أن أكون أكثر تحديداً. سأشرب نخب حماقة «دانّاكِ»! لقد قلتُ لكِ منذ أربع سنوات إن هذا الرجل عاجز، ولقد تبيّن أن كلامي صحيح، أليس كذلك؟

- في الواقع، لم يعد «دانّاي».

- هذا ماقلته. حتى لو كان مايزال «دانّاك»، فلايمكنه أن يفعل شيئاً من أجلك، أليس كذلك؟ أعرف أن جيون سوف تغلق أبوابها، والناس يعيشون في رعب. لقد اتصلت بي إلى مكتبي إحدى الجيشاوات، ولن أقول لكِ اسمها، لتطلب مني عملاً في إيوامورا إليكتريك!

- هل لي أن أعرف ماذا قلتَ لها؟

- ليس لديّ عمل لأي شخصٍ كان، تماماً إذا كان لديّ عمل لي أنا. حتى الرئيس سيفقد عمله، وسيدخل السجن إذا لم يمتثل لتعليمات الحكومة. لقد أقنعهم بأنه ليس لدينا مصانع لصنع الطلقات والحراب، والآن يريدون أن نصنع لهم القاذفات! إننا نبيع أدوات كهربائية! ماذا يتصوّر هؤلاء الناس؟

- على نابو ـ سان أن يخفض صوته.

- هل من الممكن أن يسمعني جنرالك؟

- بمناسبة الحديث عن الجنرال، لقد زرته اليوم.

- حظكِ طيبٌ أنه مايزال على قيد الحياة.

- هل كان مريضاً؟

- لا، ولكنْ سينتهي به الأمر إلى قتل نفسه في أحد الأيام، إذا وجد لديه الشجاعة.

- أرجوك يا نابو ـ سان!

WWW.REWITY.COM

ـ لم يساعدكِ، أليس كذلك؟

ـ قال إنه استخدم كل ما كان لديه من نفوذ.

ـ لا بد أن المحصلة كانت متواضعة. ولكن لماذا لم يستخدم نفوذه لأجلكِ؟

ـ لم أره منذ أكثر من عام.

ـ منذ أكثر من أربعة أعوام لم تريني، ومع ذلك استخدمتُ نفوذي كله من أجلك. لماذا لم تأتني؟

ـ ظننتُ أنكَ غاضب مني. انظر اللهجة التي تتكلّم بها يا نابو ـ سان! كيف كان لي أن ألتمس مساعدتك؟

ـ كيف كان بإمكانكِ ألا تلتمسي مساعدتي! يمكنني أن أجنّبك العمل في أحد المصانع. إني أملك فردوساً صغيراً، ولقد احتفظتُ به لكِ يا سايوري. ولكنكِ لن تريه إلا إذا انصعتِ لرغباتي، واعترفتِ بأخطائك. لقد اتّخذتِ قراراً غبياً منذ أربع سنوات، وأنا ألومكِ عليه! كان من الممكن أن نموت دون أن نلتقي، وربما لم أكن قد وجدتُ الفرصة للاهتمام بكِ. لقد أضعتِ أفضل سنواتكِ مع رجل سخيف لن يسدّد دَينه لوطنه، فكيف سيسدّده لكِ أنتِ. ها هو يتابع حياته الوضيعة وكأنه لم يُسئ عملاً.

يمكنك أن تتصور في أية حالةٍ تركني حديثه! كان نابو من أولئك الرجال الذين يلوحون بتهديداتهم كما يلوحون بالحجارة. وأنا التي اتخذت قراري بألا أبكيَ مهما قال لي، فهمتُ في النهاية أنه أراد أن يُبكيني. وكان ذلك سهلاً كما لو أنه أفلتَ ورقةً من بين أصابعه. بكيتُ لأسبابٍ كثيرة، فلديَّ ما يحزنني! بكيتُ على نفسي وعلى نابو وعلينا نحن الاثنين وعلى مستقبلنا الغامض وعلى الجنرال توتوري وعلى كورين التي أصبحت رمادية اللون وحزينةً في ذلك المصنع. ثم فعلتُ ما طلبه نابو مني. ابتعدت عن الطاولة بحثاً عن فسحةٍ، ثم انحنيتُ كثيراً نحو الأرض وقلتُ:

ـ سامحني لأني كنتُ غبيةً جداً.

ـ أوه، انهضي! يكفي أن تقولي لي إنكِ لن تفعلي هذا الخطأ مرةً ثانية.

ـ لن أفعله مرةً ثانية.

ـ كل الوقت الذي أمضيته مع ذلك الرجل، كان وقتاً ضائعاً! ولقد قلتُ لكِ ذلك! وربما كان ذلك بمثابة درسٍ بالنسبة إليك، دعي مصيركِ يتحقق في المستقبل.

ـ سوف أخضع لقدري يا نابو ـ سان!

ـ قرارك يجعلني في قمة سعادتي. وأية وجهةٍ سيتخذ قدركِ؟

ـ إنه يقول لي: في خطٍ مستقيم إلى الرجل الذي يدير إيوامورا إليكتريك.

كنتُ أقصد الرئيس. قال نابو:

ـ نعم. ولنشرب الآن.

بللتُ شفتيَّ في كأسي، كنتُ عصبيةً أكثر مني عطشانةً. حدثني نابو عن الملجأ الذي وجده لي: بيتُ صديقه آراشينو إيزامو، الرجل الذي كان يصنع الكيمونوهات، أتذكره؟ لقد كان ضيف الشرف عند البارون في ذلك الاستقبال مع سرطان ونابو. كان بيت السيد آراشينو ومشغله موجدين على ضفة نهر كامو على بعد خمسة كيلومترات من جيون. كان السيد آراشينو يصنع كيمونوهاتٍ جميلة على طراز يوزِن ويعمل مع زوجته وابنته. لكنّ الحكومة طلبت صانعي الكيمونوهات لكي يصنعوا المظلات، فقد اعتادوا على الاشتغال بالحرير. وذلك عملٌ سأتعلمه بسرعة كما قال نابو. ثم إن أسرة آراشينو ستسعد كثيراً بمساعدتي. وسيتخذ نابو الإجراءات الضرورية مع السلطات. كتب عنوان السيد آراشينو على ورقةٍ صغيرة وأعطاني إياه.

عبّرتُ عن امتناني له عدة مرات. وفي كل مرةٍ كان يبدو أسعد

WWW.REWITY.COM

من المرة السابقة. كنتُ سأقترح عليه أن نمشيَ في الخارج عندما نظر إلى ساعته وأفرغ كأسه، وقال:

ـ لاأعرف متى سنلتقي مرةً أخرى ياسايوري، ولا في أية حالٍ سيكون العالم عندما نلتقي. ربما نرى الأهوال، ولكن في كل مرةٍ سأحتاج إلى تذكر أن هناك جمالاً ولطافةً في هذا العالم، فسأفكر فيكِ.

ـ كان عليكَ أن تكونَ شاعراً يانابو ـ سان!

ـ ليسَ لديَّ شيءٌ من الشاعر، وأنتِ تعرفين ذلك.

ـ هل ستذهب؟ كنتُ أتمنى لو نستطيع أن نمشي قليلاً.

ـ إنَّ الطقسَ باردٌ جداً! رافقيني إلى الباب، وسنودِّع بعضنا بعضاً في الأسفل.

نزلتُ الدرج خلفهُ. قرفصتُ في مدخل بيت الشاي لمساعدته على انتعال حذائه. دسستُ قدميَّ في «الجيتا»، وهي حذاءٌ خشبي انتعله في الثلج. رافقتُ نابو حتى الشارع. قبل الحرب، كانت تنتظره سيارة، أما الآن، وحدهم كبار الموظفين يمتلكون عربةً، لأنَّ من المستحيل إيجاد الوقود. اقترحتُ عليه أن نمشيَ حتى الترامواي فقال:

ـ أفضلُ أن أكونَ لوحدي. إني على موعد مع الرجل الذي يوزع منتجاتنا في كيوتو، وثمة أشياءُ كثيرةٌ في رأسي.

ـ كنتُ أفضّلُ كلمات وداعكَ الأولى يانابو ـ سان، تلك التي قلتها لي فوق.

ـ في هذه الحالة، ابقي في الأعلى في المرة القادمة.

انحنيتُ وحييته. معظم الرجال كانوا سيعودون، أما نابو فقد مشى ببطءٍ في الثلج، وانعطف في جادة شيجو واختفى. أخذتُ أضغط داخل يديَّ الورقة الصغيرة التي كتب عليها عنوان آراشينو. لماذا كنتُ عصبيةً جداً؟ لماذا كنتُ خائفة؟ نظرتُ إلى الثلج المتساقط حولي، وتابعتُ بعينيَّ آثار أقدام نابو حتى زاوية الشارع، ففهمتُ ما

يقلقني. متى سأرى نابو ثانيةً؟ ومتى سأرى الرئيس؟ أو حتى جيون؟ ذات مرة، انتزعتُ من بيتي، بكل تأكيدٍ كانت تلك الذكرى للسنوات المظلمة هي التي ولّدت لديَّ ذلك الشعور بالوحدة.

29

قد تعتقد أن كثيراً من المعجبين، غير نابو، مدّوا لي أيديهم. ولكنّ الجيشا التي تعيش في الفاقة؛ تختلف كثيراً عن الجوهرة الساقطة في الشارع والتي يسارع الجميع إلى تلقّفها. في الأسابيع الأخيرة، سعت كل جيشاوات جيون، وأعدادهنّ بالمئات، إلى إيجاد مكانٍ آمن. وقلّةٌ منهنّ استطعن الالتجاء بعيداً عن القنابل. وكل يوم كنتُ آتي فيه إلى بيت آراشينو؛ أحسّ بتعاظم ديني نحو نابو.

فكّرت بالفرصة التي وافتني في الربيع التالي عندما علمتُ أن رايها قد قُتلت في أثناء قصف كيوتو. قالت: «ليس هناك ما هو أسوأ من المستقبل إلا الماضي». لقد كانت هي وأمها جيشاوات من الطبقة الراقية، كما إن والدها كان من كبار التجّار. فإذا كان لجيشا أن تعيش إلى مابعد الحرب، يجب أن تكون رايها. لحظة موتها، كانت تقرأ قصةً لأحد أبناء أخيها في مزرعة والدها في دينينشوفو، أحد أحياء كيوتو. لا بدّ أنها حسبت نفسها في مأمنٍ كما لو أنها في كيوتو. الغارة الجوية نفسها قتلت مصارع السومو مياجياما. وقد عاشا هو ورايها حياة يسر.

أما بومبكين التي حسبتها ضاعت، فقد وفّرتها الحرب، رُغمَ أن مصنع التجهيزات العسكرية الذي كانت تشتغل فيه في ضواحي أوساكا قُصف خمس أو ست مرات. أيقنتُ في تلك السنة أن القدر عصيٌّ على التوقّع. كذلك بقيت مامها التي كانت تعمل في مشفى فوكوي كفتاة صالة. أما خادمتها تاتسومي، فقد قتلت في القنبلة الرهيبة التي ألقيت على ناغازاكي. ومُلبسها إيتشودا قُتِلَ بسبب أزمة

www.rewity.com ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

قلبية أصابته لدى سماع إحدى صفّارات الإنذار. وعمل السيد بيكو في قاعدة بحرية في أوساكا وخرج حياً من الحرب. كذلك عاش الجنرال توتوري في فندق سورويا حتى وفاته في أواسط الخمسينات. في بداية احتلال الحلفاء انتحر البارون، إذ رمى نفسه في بركته بعد أن صودرت أملاكه، وجُرِّد من لقبه. لا بدّ أنه فضّل الموت على الحياة بلا تميّز.

أما الأم، فلم أشكّ لحظةً أنها ستبقى على قيد الحياة. ونظراً لموهبتها الفطرية في الاستفادة من عذابات الآخرين، فقد ضاربت في السوق الرمادية وكأنها تعمل في ذلك طوال حياتها. لقد خرجت من الحرب غنيةً، لأنها اشترت ثم باعت ممتلكات المواطنين. في كل مرة كان آراشينو يبيع كيمونو من مجموعته للحصول على بعض المال، كان يطلب إليّ أن أتّصل بالأم لكي تشتريه وتحتفظ به من أجله. كيمونوهات كثيرة بيعت في كيوتو مرت بين أيديها. لا بدّ أن السيد آراشينو اعتقد أنها ستضع مصلحتها جانباً وتحتفظ بالكيمونوهات عدة سنوات حتى يستطيع شراءها من جديد. للأسف! فقد بدت أنها لم تعرف قطُ من اشتراها منها، أو هكذا ادّعت.

* * *

عاملتني أسرة آراشينو معاملةً طيبة طوال سنوات الحرب. في النهار، كنا نصنع المظلات، وفي الليل، كنتُ أنام مع ابنتهم وحفيدهم في الورشة. كان الفحم قليلاً جداً، فرُحنا نحرق أوراق الجرائد، وكلّ ما هو قابل لاحتراق لكي نتدفأ. وكان الطعام نادراً، فصرنا نأكل مواداً لا تُصدَّق: مثل بقايا بذور الصويا التي تقدَّم عادةً للمواشي، وطبق فظيع من «النوكابان»، وهو نخالة أرزٍ مقلية في دقيق القمح يشبه جلداً قديماً جافاً، بل ربما طعم الجلد أفضل برأيي. في مناسبات قليلة جداً، كنا نأكل البطاطا أو البطاطا الحلوة، أو لحم الحوت المجفّف، أو مرق الفقمة، أو السردين الذي كان يستَخدَم كسماد. نحل جسمي نحولاً كارثياً إلى درجة أن أحداً في جيون لن يعرفني. وأحياناً كان حفيد آراشينو جونتارو يبكي لأنه لا يجد ما يأكله، فكان جدّه يبيع كيمونو من مجموعته. كنا نسمّي تلك الحياة

في اليابان «حياة البصل»: نزع قشرة من البصلة، والبكاء بسبب ذلك.

ذات مساء من ربيع عام 1944، وقد كنتُ أعيش عند آراشينو منذ ثلاث أو أربع سنوات، شهدنا أول غارة جوية، فقد بدت السماء صافية والنجوم ساطعة. كنا نرى القاذفات تمرّ هادرةً من فوق رؤوسنا، والنيازك تندفع من الأرض وتنفجر بالقرب منها. كنا نخاف سماع الهدير المرعب ورؤية كيوتو وهي تشتعل. في تلك الظروف، أصبحنا مهدّدين بالزوال رُغمَ نجاتنا من القصف. ولكون كيوتو أضعف من جناح فراشة، فقد دُمّرت دونما أمل في إعادة بنائها، بعكس أوساكا وطوكيو وكثير من المدن الأخرى. كانت القاذفات تمرّ في السماء وتتابع طريقها، ليس في ذلك المساء فحسب، بل في كل مساء. غالباً ما رأينا السماء تلتهب فوق أوساكا، والرماد يرفرف في الهواء كأوراق ميتة رُغمَ أننا كنا على بعد أكثر من خمسين كيلومتراً عنها. كنت أتساءل عما يكون قد حلّ بساتسو حيثما كانت، وفهمتُ أمراً: منذ أن هربت فكرتُ لا شعورياً أن أقدارنا ستلتقي من جديد في النهاية. اعتقدتُ أنها ستكاتبني إلى أوكيًا نيتا، أو أنها ستأتي للبحث عني في كيوتو. ذات مساء، وأنا أتنزّه على ضفة النهر مع جونتارو الصغير، نلتقط الحصى لنرميها في النهر، قلتُ لنفسي فجأةً إن ساتسو لن تعود أبداً! فأنا التي عشتُ في ظروف قاسية عرفتُ أن من المستحيل الذهاب إلى مدينة بعيدة. وإذا أتت ساتسو إلى كيوتو والتقينا في الشارع، فلن نتعرّف إلى بعضنا البعض. أما بالنسبة إلى الرسالة... فقد وجدتُ نفسي كثيرة السذاجة. لماذا لم يخطر ببالي من قبل أن ساتسو لا تعرف أني أسكن في أوكيًا نيتا؟ لن تستطيع أن تراسلني إلا إذا اتصلت بالسيد تاناكا، وهذا ما لن تفعله. بينما كان جونتارو يلقى الحصى؛ قرفصتُ ورشقتُ وجهي بالماء وأنا أبتسم له. تظاهرتُ بأني أبترد فلم يلاحظ شيئاً.

الحرب، كالريح العاتية، تمنعنا من أن نذهب إلى حيث نريد، وتعرّينا وتتركنا أمام أنفسنا كما نحن، وليس كما نفكّر في أن نكون. فمثلاً، بعد أن فقدت ابنة آراشينو زوجَها ركّزت اهتمامها

WWW.REWITY.COM

على ابنها وعلى صناعة المظلات. لذلك نحل جسمها نحولاً مخيفاً. وبعد نهاية الحرب، تعلّقت به تعلّقَ غريق بعوّامة.

وبعد أن خبرت تلك الحرب، كثيرة هي الحقائق التي نُسِفت: تحت هذه المظاهر الأنيقة، ورُغمَ موهبتي في الرقص وفي القص، كانت حياتي عادية إلى أبعد حد. كانت غايتي منذ عشر سنوات أن أجذب الرئيس، ويوماً بعد يوم، كنتُ أنظر من نوافذ المشغل إلى نهر كامو وهو يجري. أحياناً كنتُ أرمي زهرة في الماء، أو قشة، وأنا أعرف أنها ستذهب حتى أوساكا قبل أن تضيع في البحر. تمنّيتُ أن يراها الرئيس وهي تمر تحت نافذته وهو جالس إلى مكتبه. ثم وافتني فكرة حزينة: قد يرى الرئيس هذه الزهرة، وقد تجعله حالماً، ولكن هل سيفكّر فيّ أنا؟ لقد أبدى لي كثيراً من الطيبة، ولكنه رجل طيب وكريم. هل أجرى مطابقةً بين المراهِقة التي أنقذها والجيشا سايوري؟ إذا كان قد فعل ذلك، فإنه لم يبيّن شيئاً.

فهمتُ أني لن أرى أختي أبداً. ذات صباح، أدركتُ أمراً أسوأ من ذلك بكثير كنتُ قد فكّرتُ فيه طوال الليل. ماذا لو أمضيتُ حياتي كلها دون أن يهتمّ بي الرئيس؟ في اليوم التالي، قرأت كتاب نجومي بعناية، أملاً في أن أجد فيه إشارةً لحدث مهم. كنتُ منهكةً! حتى السيد آراشينو لاحظ ذلك: فقد أرسلني لشراء إبر من محل البزازة، وفي طريق العودة، كادت إحدى الشاحنات العسكرية أن تطيح بي عند غروب الشمس. كانت تلك أول مرة في حياتي ألامس الموت. لقد نصحني كتابي في اليوم التالي بعدم الذهاب في اتجاه الجرذ، وهو جهة محل البزازة. كنتُ فقط قد بحثتُ عن إشارات تخص الرئيس، ولم أسجّل هذا التحذير. فهمتُ يومذاك أنه يجب ألا يركّز المرء تفكيره فيما لا يوجد. وإذا أمضيتُ حياتي في انتظار رجل لن يأتي، لأقول لنفسي في نهاية المطاف إني لم استفد من شيء! أكلّ هذا لأني فكّرتُ بالرئيس حتى في أسوأ الأوقات؟ ولكن إذا كففتُ عن التفكير فيه، فكيف سأعيش؟ نما لديّ انطباعٌ بإني كنتُ كراقصة تتدرّب على باليه منذ الأزل دون أن يُعرَض على الجمهور أبداً.

* * *

بالنسبة إلينا، انتهت الحرب في آب 1945، كل من عاش في اليابان في تلك الفترة سيقول لكَ: لقد كانت اللحظة الأكثر كآبة في تلك الرحلة المظلمة. لم يخسر بلدُنا الحربَ فحسب، بل تدمّر، ولم يكن ذلك بسبب القنابل مهما كانت رهيبة. عندما يخسر بلدك الحرب ويغزوكَ جيشٌ أجنبي ينتابكَ إحساس بأنكَ تقاد إلى عمود الإعدام ويداكَ مغلولتان خلف ظهرك، وينمو لديكَ انطباع بأنكَ تنتظر راكعاً أن يقطع السيف رأسكَ. طوال سنة كاملة لم أسمع ضحكةً واحدةً ما خلا ضحكات جونتارو الصغير، وعندما كان يضحك، ينهره جدّه. لقد لاحظتُ شيئاً: لأطفال الحرب جانبٌ جدّيٌّ، فقد كبروا في فترة كئيبة.

في ربيع 1946، فهمنا جميعاً أنه ينبغي لنا أن نعايش هذه الهزيمة. ظنَّ بعضهم أن اليابان سيولد من رماده من جديد. وتبيّنَ لنا أن رُهاباتنا حول أن الغزاة الأمريكيين سوف يغتصبوننا ويقتلوننا لم يكن لها أساس، بل إن بعضهم كان جذاباً بالنسبة إلى معظمنا. ذات يوم، مرت إحدى كتائبهم بجانبنا في الشاحنات، فنظرتُ إليهم مع بعض نساء الجيران. في جيون، كنتُ أعدّ نفسي مختلفةً عن بقية النسوة، وغريبة عن عالمهن لذا قلّما تساءلتُ عن نمط حياتهن. أما الآن، فقد كنتُ هناك ألبس لباس فلاحة، وشعري سائب، ولم أستحمّ منذ عدة أيام، إذ لم يكن لدينا من المازوت ما يسخّن الماء أكثر من عدة دقائق أسبوعياً. بالنسبة إلى هؤلاء الأمريكيين، فأنا يابانية كبقية اليابانيات. وبعد، فيمَ كنتُ مختلفةً عن بقية النسوة؟ فهل يبقى النبات الذي فقَدَ أوراقه وقشرته وجذوره شجرةً؟ قلتُ لنفسي: «إني فلاحة ولم أعد جيشا». كان ذلك اليباس في جلدي يرعبني. ولئلا أفكّر في هذا الوضع، كنت أنظر إلى الشاحنات من جديد. ألم يكونوا هؤلاء هم الأمريكيين الذي علّمونا أن نكرههم، والذين قصفوا مدننا بالقنابل المرعبة؟ إنهم الآن يمرّون من أمامنا بالشاحنات، ويلقون السكاكر على الأطفال.

* * *

بعد عامٍ من استسلام اليابان، طُلِب إلى آراشينو العودة إلى

WWW.REWITY.COM

صنع الكيمونوهات. كنتُ أعرف كيف ألبس هذه الثياب، لا كيف أصنعها. كذلك طُلب إليّ أن أراقب قدور الصباغ وهي تغلي في أرض ملحقة بالمشغل، وكان عملاً شاقاً. بما أنه لم يكن لدينا مازوت، فقد استخدمنا «التادون» وهو هباب الفحم يُجمَع من القطران، فعندما يشتعل هذا الوقود يُصدِر رائحةً كريهة.

علّمتني زوجة السيد آراشينو أيةَ أوراق وسوق وقشرة يجب أن أجمع لصنع الصباغ بنفسي، وكان ذلك بمثابة ترقيةً بالنسبة إليّ. لقد كان الأمر كذلك لو لم تتلف يدي إحدى هذه النباتات التي لم أعرف قطُ اسمها. فيداي، يدا الراقصة الناعمتان، اللتان كنتُ أدهنهما بالكريم، تقشّرتا وانصبغتا باللون البنفسجي. طوال تلك الفترة، ولأني وحيدةٌ، كان لي علاقة مع صانع تاتاميات اسمه إينوي. كنتُ أراه جميلاً بعينيه الناعمتين وبشرته الجميلة وشفتيه الشهوانيتين، وكنا نلتقي عدة ليالٍ في الأسبوع ولمدة شهر في الملحق. ذات مساءٍ استعَرَت النار كثيراً تحت القدور، فكَرتُ كم صارت يداي تالفتين! وعندما رآهما إينوي رفض أن أتابع لمسه!

لكي يجعل السيد آراشينو جلدي يتشكّل من جديد، عهد إليّ بمهمة جديدة طوال الصيف: قطف أزهار الأوفاريقون التي يُصبَغ بمائها الحرير قبل أن ينشّى، ثم يُصبغ. تنمو هذه الأزهار على ضفاف المستنقعات والبحيرات في فصل الأمطار. حسبتُ ذلك القطاف ممتعاً، فخرجتُ ذات صباح من شهر تموز ومعي كيس على ظهري لأستمتع بذلك النهار الجميل. مالبثتُ أن اكتشفتُ أن هذه الأزهار في غاية الذكاء، إذ يبدو أنها تتعاون مع حشرات اليابان كلها، وكلّما قطفتُ قبضة منها؛ حامت حولي كتائب من القراد والبعوض. ذات يوم، مشيتُ على ضفدع كبير! وبعد أن أمضيتُ أسبوعاً مضنياً في قطف الأوفاريقون، انتُدبتُ إلى مهمة أخرى أجمل من تلك بكثير: عصر الأزهار واستخراج العصير منها. ولكن، آه، لو شممتَ رائحة عصير الأوفاريقون! سرعان ماعدتُ إلى قدور الصباغة!

عملتُ عملاً شاقاً في تلك السنوات، وفي كل مساء، قبل أن أنام،

كنتُ أفكّر بجيون، فقد افتتحت من جديد بيوتات الشاي في اليابان كلها بعد عدة أشهر من الاستسلام. وبعد، لم يكن بإمكاني أن أعود إلى جيون إلا إذا طلبت الأم ذلك. لقد كانت تكسب كثيراً من بيع الكيمونوهات والأدوات الفنية والسيوف للأمريكيين. وهي لم تغادر المزرعة التي ابتنتها في غرب كيوتو وأقامت فيها مع تاتي.

أما أنا، فقد تابعتُ عملي مع آل آراشينو.

قد تظنّ أني لا بدّ أن أذهب إلى جيون، لرؤية الأم وتاتي، وهي لا تبعد عني أكثر من عدة كيلومترات. لم أزرهما إلا مرةً واحدةً خلال خمس سنوات، ذات ظهيرة ربيعية، بعد سنة من انتهاء الحرب. بينما كنتُ عائدةً من مشفى محافظة كاميجيو، بعد أن جلبتُ الدواء لجونتارو، مشيتُ في جادة كاواراماشي حتى جادة شيجو، ثم اجتزتُ الجسر المؤدّي إلى جيون. كم آلمني أن أرى العائلات الفقيرة تخيّم على ضفة النهر!

في جيون، عرفتُ عدة جيشاوات، وهن لم يعرفنني بكل تأكيد. لم أحييهنّ، فقد أردتُ أن أرى هذا الحي بعيني أجنبية. وبعد، لم أرَ جيون، بل تهتُ في ذكرياتي. وفكرتُ، وأنا أسير على ضفة نهر شيراكاوا، في تلك الظهيرة التي تنزهتُ فيها مع مامها، وصلتُ إلى المقعد الذي جلستُ عليه مع بومبكين، وفي يدينا زبديتان من المعكرونة، في ذلك المساء الذي طلبتُ فيه مساعدتها. غير بعيدٍ عن ذلك المقعد وصلتُ إلى الزقاق الذي أنّبني فيه نابو على اتخاذ الجنرال كَـ«دانّا». ومن هناك، ذهبتُ إلى زاوية جادة شيجو، حيث قلّبَ أحدُ الشبان علباً لاضطرابه عندما رأني. في تلك الأماكن المختلفة، حسبتُ نفسي على المسرح بعد وقتٍ طويل من نهاية العرض. مشيتُ حتى أوكيّانا، نظرتُ بحزنٍ إلى القفل الكبير على الباب. لقد كنتُ مسجونةً هناك، وأردتُ الخروج! ثم تغيرت حياتي، وها أنا الآن منفيةٌ أريد أن أعود، ومع ذلك، فقد كنتُ بالغةً وحرّةً في أن أغادر جيون إلى الأبد إذا أحببت.

* * *

www.rewity.com ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

ذات ظهيرةٍ باردة من شهر تشرين الثاني، بعد ثلاثة أعوام من نهاية الحرب، كنتُ أدفئ يديَّ فوق قدور الصباغة، عندما أتت السيدة آراشينو لتقول لي إن لدي زيارة. فهمتُ من تعبيرها أن الزائر ليس من القرية. لكَ أن تتخيل مقدار مفاجأتي عندما وصلتُ إلى أعلى الدرج ورأيتُ نابو! كان جالساً في المشغل مع السيد آراشينو، وفي يده كأسُ شاي فارغ كما لو أنه قد أتى منذ بعض الوقت ليتحدث. نهض السيد آراشينو عندما رأني، وقال:

ـ سأعود إلى العمل يا نابو ـ سان! يمكنكما أن تتحدثا معاً، أنا سعيدٌ لأنك أتيتَ لرؤيتي.

ـ لاتخطئ يا آراشينو! لقد أتيتُ لرؤية سايوري.

وجدتُ كلامه مهيناً، لكنَّ السيد آراشينو ضحك، ثم خرج وأغلق باب المشغل خلفه.

قلتُ لنابو:

ـ كنتُ أظن أن لا شيءَ بقي على حاله. ولكن لابدَّ أني أخطأت، فنابو ـ سان لم يتغير.

ـ ولن أتغير أبداً! ولكني لم آتِ إلى هنا للثرثرة، أريدُ أن أعرف ماالذي لايسير على ما يرام.

ـ كل شيءٍ على مايرام. ألم يتلقَ نابو ـ سان رسائلي؟

ـ رسائلكِ! وكأنها قصائد! تتكلمين عن «صوت الماء الكريستالي» وتفاهاتٍ أخرى من هذا النوع.

ـ لن أكاتبكَ بعد الآن أبداً يا نابو ـ سان!

ـ أحسن! إذا كنتِ سترسلين لي رسائل من هذا النوع! لماذا لاتقولين لي الأشياء التي يهمني أن أعرفها: إن كنتِ ستعودين قريباً إلى جيون، مثلاً. كل شهر كنتُ أتصل بالإيشيريكي لأستعلم عن أخبارك، فكانت المعلمة تجد أعذاراً لتبرير غيابك. خشيتُ أن تكوني مريضة. إنكِ نحيلةٌ بكل تأكيد، ولكنكِ تبدين في صحةٍ جيدة، فما الذي يمنعكِ من العودة!

WWW.REWITY.COM

ـ لا يمر يومٌ دون أن أفكر بجيون.

ـ لقد عادت صديقتك مامها منذ سنة. حتى ميشيزونو، رُغمَ كبر سنها، فقد حضرت إعادة الافتتاح. ولكن لم يستطع أحد أن يقول لي لماذا لاتعود سايوري.

ـ لستُ أنا من يقرر، بل الأم. إني أنتظر أن تعيدَ فتح الأوكيَا، فأنا راغبةٌ كثيراً في العودة إلى جيون.

ـ إذاً اتصلي بالأم، وقولي لها إنَّ آوانَ العودةِ قد حان. منذُ ستة أشهر وأنا أنتظر! ألم تفهمي ماقلته لكِ في رسائلي؟

ـ أنكَ كنتَ تريد أن تراني.

ـ عندما أقول إني أريد رؤيتكِ، أتوقع أن تحزمي أمتعتكِ وتعودي فوراً! أنا لاأفهم لماذا يجب عليكِ أن تنتظري مشيئةَ أمك! تكون غبية إذا لم تفهم أنه يجب أن تعودي!

ـ عيوبها كثيرة، ولكني أؤكد لكَ أنها ليست غبية. ويمكن لنابو ـ سان حتى أن يُعجب بها إذا عرفها. إنها تدير أعمالاً ممتازة ببيع التذكارات للجنود الأمريكيين.

ـ لن يبقى الجنود هنا إلى الأبد. قولي لها إن صديقك نابو يريد أن تعودي إلى جيون.

قال ذلك، وألقى علبةً صغيرة على التاتامي ولم يضف شيئاً. ارتشف الشاي وهو ينظر إليَّ، فقلتُ له:

ـ ماهذا يا نابو ـ سان؟

ـ هدية، افتحيها.

ـ دعني أولاً أعطيكَ الهديةَ التي أحملها لكَ.

ذهبتُ إلى الصندوق الذي وضعت فيه أمتعتي، وأخرجتُ مروحةً. منذ زمنٍ طويل، كنتُ أريد أن أعطيها لنابو. إنَّ تقديم مروحةٍ لشخصٍ جنَّبكَ العمل في المصنع يبدو جحوداً. ومع ذلك، فإن مراوح الراقصة هي أشياء مقدسة. لقد أعطتني هذه المروحة

معلمتي عندما وصلتُ إلى مستوى «الشيشو» في رقصات مدرسة إينوي. إذاً، لها قيمةٌ خاصة، وأنا لاأعرف أية جيشا ظهرت من غير مروحتها، لذا قررتُ أن أهديها لنابو.

غلّفتُ المروحة في غلافٍ قطني، وناولته إياها. فتحها، فبدا حائراً، لقد توقعتُ ذلك، فشرحتُ له لماذا أقدمها إليه. قال:

ـ هذا لطفٌ منكِ، ولكني لاأستحقُ هديةً كهذه، قدميها لشخصٍ يقدرُ الرقص أكثر مني.

ـ لاأستطيع أن أقدمها لأحدٍ سواك. إنها جزءٌ مني أُعطيكَ إياه يانابو ـ سان.

ـ إذاً، أنا فخورٌ بها وسأقدرها. والآن افتحي العلبة التي حملتها إليكِ.

فعلتُ ما قاله لي. وفي العلبة المغلفة بعدة طبقات من أوراق الجرائد. لقد كانت حجراً بحجم قبضة اليد. وقفتُ حائرةً كما وقف نابو أمام مروحتي. عندما نظرتُ إليها عن كثب؛ رأيتُ قطعةً من البيتون.

ـ لقد جمعتها من حصى مصنعنا في أوساكا. مصنعان من مصانعنا دُمّرا، ومن الممكن أن تنهار شركتنا. لقد أعطيتني جزءاً منكِ؛ وها إني أعطيكِ جزءاً مني.

ـ إذا كانت هذه جزءاً من نابو ـ سان، فسأقدرها.

ـ أنا لم أعطها إليكِ لكي تقدريها. إنها قطعة بيتون! أريدُ أن تساعديني لأصنع منها جوهرةً كبيرة سأقدمها لكِ.

ـ إذا كان نابو ـ سان يستطيع أن يحقق هذه المعجزة، فليشرح لي كيف العمل لنصبح غنيين!

ـ ستؤدين عملاً من أجلي في جيون. إذا مرت الأمور كما أتمنى، فستقفُ شركتنا على قدميها بعد عام. عندما ستعيدين لي قطعة البيتون هذه ستحصلين على جوهرةٍ بدلاً منها، ويكون الآوان قد حان لأصبح «دانّاكِ».

WWW.REWITY.COM

جمدتني هذه الفكرة، ولكني لم أُبْدِ شيئاً، بل قلتُ:

ـ أنتَ غامض يا نابو ـ سان! أأنا يمكنني أن أؤدي عملاً ينقذُ شركتكَ؟

ـ إنها مهمةٌ مخيفة كما تعرفينها. قبل سنتين من إغلاقِ بيوتات الشاي، كان يتردد رجلٌ يدعى ساتو إلى جيون إلى احتفالات الحاكم. أريدُ أن تسهري مع هذا الرجل، وتروّحي عنه.

ضحكتُ، وسألته:

ـ لماذا سيكون ذلكَ مخيفاً؟ فمهما كره نابو ـ سان هذا الرجل، أنا على ثقة أني عرفتُ أسوأ منه!

ـ لو تذكّرته لعرفتِ لماذا هو مخيف. إنه مستفز ويتصرّف كخنزير. يجلس دائماً مقابلك لكي ينظر إليك، وإذا تكلم، فلا يتكلم إلا عنك. وفي معظم الأحيان يكتفي بالجلوس، ولربما قرأتِ مقالات عنه في الصحف في الشهر الماضي، لقد عُيِّنَ حديثاً وكيلاً لوزير المالية.

ـ ياعدل السماء! لا بدّ أنه ذكي!

ـ إن من يحملون هذا اللقب يقارب عددهم الخمسة عشر. إني أتساءل عن فائدته، ما خلا شرب الساكي! إنها لمأساة أن يتعلق مستقبل شركتنا برجل مثله! ما أقسى أن نعيش في مثل هذا العصر ياسايوري!

ـ لا يجدر بكَ أن تقول سايوري يا نابو ـ سان.

ـ لماذا؟ لا أحد يسمعني.

ـ المسألة ليست هنا، بل إنها حالتكَ النفسية. حاول أن ترى الأمور بطريقة متفائلة.

ـ لماذا؟ لم تكن شركتنا في مثل هذا الوضع قط! طوال مدة الحرب رفض الرئيس أن يستجيب لمطالب الحكومة. وعندما قبل التعاون، كانت الحرب قد انتهت تقريباً. من بين جميع الأشياء التي صنعناها لهم ما من شيء واحد، أتسمعينني؟ ما من شيء واحد خدم المعركة! ولكنّ ذلك لم يمنع الأمريكيين من فرض الضريبة على

إيوامورا إليكتريك «يالزيباتسو»، مثلها مثل ميتسوبيشي. هذا سخف! إن تشبيهنا بهم كتشبيه العصفور بالأسد! والأسوأ من ذلك: إذا لم نقنعهم بنيّتنا الطيبة، فسوف يحجزون على الشركة، وسيستخدمون ممتلكاتها وأموالها في بناء البلاد! توصلنا إلى هذا منذ خمسة عشر يوماً، ثم عيّنوا ساتو وسيطاً. لقد رأى الأمريكيون أنه من الذكاء تعيين رجل ياباني، ولكن الكلب أفضل منه!

توقف قليلاً ثم سألني:

ـ ماذا حلّ بيديكِ؟

منذ بداية حديثنا وأنا أحاول أن أخبئ يديّ قدر استطاعتي، لكنه رآهما أخيراً. فأجبت:

ـ لقد تكرّم السيد آراشينو عليّ وجعلني أعمل في الصباغة.

ـ أرجو أن يكون قادراً على إزالة هذه البقع. لا يمكنكِ أن تعودي إلى جيون ويداكِ في هذه الحالة!

ـ أوه، يداي ليستا المشكلة. إني لستُ متأكدةً أبداً من العودة إلى جيون يا نابو ـ سان. سأعمل ما بوسعي لإقناع الأم، فالأمر بيدها. وعلى أية حال، هناك جيشاوات أخريات...

ـ لا يوجد جيشاوات أخريات! اسمعيني. في أحد الأيام، صحبتُ وكيل الوزارة ساتو إلى أحد بيوتات الشاي مع ستة أشخاص آخرين فلم يفتح فمه طوال أكثر من ساعة، ثم تنحنح وقال:«ليس هذا هو الإيشيريكي!» فأجبته:«لا، هذا ليس الإيشيريكي!»، فزمجر كخنزير وأضاف:«سايوري تعمل في الإيشيريكي». فقلت له:«لا يا سيدي الوزير، لو كانت في جيون لأتت للاهتمام بنا هنا، ولكني قلتُ لك إنها ليست في جيون!» ثم تناول كأس الساكي...

ـ تمنيتُ لو كنتَ أكثر لطافةً معه!

ـ بالطبع لا! إني أتحمّله نصف ساعة، وبعد ذلك لا أعود أجيب على أسئلته، ولهذا أريدكِ أن تأتي! ولا تقولي لي إن القرار لا يخصّك. أنتِ مدينة لي، وأنتِ تعرفين ذلك، ثم إني أحب أن أراكِ...

ـ وأنا أيضاً أحبّ أن أراكَ يا نابو ـ سان.

ـ تعالي، ولكن لا يكونَنَّ عندكِ أي وهم!

ـ لقد أفقدتني هذه الحرب أوهامي كلها، إذا كان نابو ـ سان يفكّر بشيء محدد.

ـ لا تأملي أن أصبح «دانّاكِ» خلال شهر، هذا كل ما في الأمر. مادمتُ لم أوقف إيوامورا إليكتريك على قدميها، فأنا عاجز عن تقديم عرضٍ كهذا. إني قلق على مستقبل شركتي. وبعد، فأن رؤيتك أعادت إليّ الأمل.

ـ أنتَ لطيف حقاً يا نابو ـ سان!

ـ لا تكوني مضحكة، فأنا لا أحاول أن أتملّقكِ. قدركِ مربوط بقدري، ولكني لن أصبح «دانّاكِ» مالم تنهض إيوامورا إليكتريك. ربما كتب لشركتي أن تنهض كما كتب لنا أن نلتقي.

خلال السنتين الأخيرتين من الحرب، كففتُ عن التساؤل ما إذا كانت أمور معينة ستحدث أم لا. غالباً ماقلتُ لنساء الجيران إني غير متأكدة من العودة إلى جيون، ولكن في الواقع، كنت أعرف دائماً أني سأعود إليها، لكنني أحسستُ أن قدري سيكتمل هناك. طوال سنوات المنفى جمّدتُ الماء في شخصيتي، إذ لم يكن وسيلتي الوحيدة لتحمُّل الواقع. وعندما تكلّم نابو عن قدَرِنا، أذاب الثلج، وأحيا رغباتي من جديد! قلتُ:

ـ إذا كنتَ تلمّح إلى وكيل الوزارة يا نابو ـ سان، ربما كان من الواجب دعوة الرئيس إلى هذه السهرات.

ـ الرئيس مشغول جداً.

ـ ولكن إذا كان على وكيل الوزارة أن يلعب دوراً مصيرياً في مستقبل الشركة...

ـ اهتمّي بالمجيء، وأنا سأهتمّ بالباقي. وسأكون حزيناً جداً ـ إذا لم تعودي إلى جيون في نهاية الشهر على أقصى تقدير.

نهض لكي يذهب، عليه أن يكون في أوساكا قبل الليل. شيّعته

www.rewity.com RAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

إلى الباب، وساعدته على انتعال حذائه، وارتداء معطفه، ووضعتُ له قبعته، فنظر إليّ طويلاً. ظننتُ أنه سيقول لي إني جميلة جداً، فذلك نوع الكلام الذي يقوله عادةً بعد طول تملٍ، لكنه قال:

ـ يا عدل السماء! إن لكِ هيئة فلاحة يا سايوري!

عقد حاجبيه، ثم استدار.

30

في ذلك المساء، وبينما كان آل آراشينو نياماً، كتبتُ للأم على ضوء «التادون» الذي كان يحترق تحت قدور الصباغة. هل كان لرسالتي التأثير المرغوب، أم إن الأم قررت أن تعيد فتح الأوكيَا؟ لستُ أدري.

ولكن بعد أسبوع، دقّت عجوز على باب آراشينو. فتحتُ، وإذ تاتي بالباب. بدت وجنتاها غائرتين وسقط بعض أسنانها. كانت بشرتها الرمادية أشبه بالساشيمي عندما يُترَك في طبق طوال الليل. ولكني رأيتها شجاعةً قوية تحمل كيسَ فحم في يدها، وطعاماً في اليد الأخرى. ناولتهما إلى آل آراشينو لشكرِهم على لطافتهم معي.

في اليوم التالي انهمرت دموعي وأنا أودّعهم. عدتُ إلى جيون حيث أعدنا أنا والأم وتاتي الأوكيَا إلى وضعه. عندما تجوّلت في الغرف المتعدّدة، خطر ببالي: إن الأوكيَا يعاقبنا على تركه طوال هذه السنوات. أمضينا خمسة أيام أو ستة من أجل تقسيم العمل فقط: إزالة الغبار الذي كان يشكّل طبقة ثخينة على التلبيس، ورفع الجرذان الميتة في البئر، وتنظيف غرفة الأم في الطابق الأعلى، فقد انتزعت العصافير قش التاتاميات لتصنع لنفسها أعشاشاً في مخدع النوم. فاجأتني الأم عندما اشتغلت مثلنا، ربما لأن عدَدنا قليلٌ، فقد كنا نستطيع استخدام طبّاخة وخادمة فقط. وبعد، فقد صار لدينا صبية في الأوكيَا، إنها إيستوكو، ابنة المزارع الذي عاشت عنده الأم

وتاتي. عمرها تسع سنوات، مثلي عندما أتيتُ إلى كيوتو. كانت تخاف مني كما كنتُ أخاف من هاتسومومو، رُغمَ أني أبتسم لها كلما صادفتها. كانت طويلة القامة ونحيلة، شعرها أسود فاحم يتطاير عندما تركض، ووجهها ضيّقٌ كحبة الأرزّ. ذات يوم، ستُلقى في المستنقع، وستتفتّح ناعمةً لذيذةً، جاهزةً للاستهلاك.

* * *

بعد أن صار الأوكيَا قابلاً للسكن من جديد، درتُ في جيون لأقدّم احتراماتي. مررتُ بمامها التي كانت تسكن في غرفة فوق صيدلية بالقرب من معبد جيون. منذ عودتها في السنة السابقة، لم تستطع أن تتخذ «دانًا»، ولا أن تؤمّن مسكناً أرحب. لقد صُدمت لرؤيتي، قالت إن خديّ غائران. وأنا أيضاً ذُهلتُ لمنظرها. لقد احتفظ وجهها ببيضويته الجميلة، ولكن عروق رقبتها برزت، والأكثر من هذا: بدتْ شفتاها متقدّمتين كشفتي عجوز. أخذت أسنانها تتعرّى في أثناء الحرب وصارت تؤلمها.

تحدّثنا طويلاً عما إذا كانت ستُقدَّم «رقصات العاصمة القديمة» في تلك السنة؟ فذلك العرض لم يُقدَّم منذ عدة سنوات. سَألَتْ مامها:

ـ ولم لا؟ يمكن أن يكون الموضوع:«رقصة السيل»!

هل ذهبتَ يوماً إلى إحد المنابع الكبريتية لتسبح في المياه الحارّة؟ لقد صارت بعض المومسات جيشاوات ويمتّعونكَ، ومن هنا أتت دعابة مامها؛ «فرقصة السيل» مشهد تعرٍّ. تتظاهر الراقصة أنها تغوص في ماء أكثر فأكثر عمقاً، فترفع كيمونوها لئلا يتبلّل. وعندما يرى الرجال مايريدون أن يروه، يتدافعون بمرافقهم ويشربون الساكي. أضافت مامها:

ـ جيون تغصّ بالجنود الأمريكيين. من الأفضل لكِ أن تتكلّمي الإنكليزية من أن تجيدي الرقص. على كلّ حال، لقد تحوّل مسرح كابورنجو إلى «كيابارى».

ـ كانت تلك المرة الأولى التي أسمع بها تلك الكلمة. إنها مشتقّة من الإنكليزية «كاباريه» وسرعان ماعرفت معناها. منذ وجودي

WWW.REWITY.COM

عند آل آراشينو، علمتُ باحتفالات صاخبة جداً كان يقيمها الجنود الأمريكيون. ولكني صُدمتُ في تلك الظهيرة لدى وصولي إلى أحد بيوتات الشاي، وبدلاً من أن أرى صفاً منتظماً من الأحذية، رأيتُ فوضى من الأحذية العسكرية الضخمة، كل واحد منها كان أضخم من تاكو، كلب الأم. في المدخل، رأيتُ جندياً في لباسه الداخلي يقبع تحت أحد الأسرّة وجيشاوان تحاولان جذبه من هناك! كم كان الشعر الأسود كثيفاً على صدره وساعديه وظهره! فكلُّ مافيه يشبه الحيوان. يبدو أنه فقد ملابسه وهو يلعب لعبة من يشرب أكثر. وفي النهاية، قادته المرأتان. مشوا في الممر، ودخلوا إلى الصالون. سمعتُ ضحكاته وصفيره وهو يغلق الباب.

بعد أسبوع من عودتي، صارت الجيشا التي في داخلي مستعدّةً للظهور من جديد. أمضيتُ نهاراً في إنجاز أشغالي. ذهبتُ إلى المزيّن والمنجّم. غطّستُ يديّ في الماء لأحلّ بقايا الصباغ العالقة، ثم درتُ في جيون بحثاً عن مستحضرات المكياج المختلفة.

قريباً سيصبح عمري ثلاثين عاماً، ولن ألبس الأبيض بعد الآن إلا في مناسبات قليلة. وقفت نصف ساعة أمام المرآة، وجرّبتُ ألواناً مختلفةً من المساحيق لكي أغطي نحول وجهي. أتى السيد بيكو ليُلبسني. حضرت إتسوكو استعداداتي كما كنتُ أفعل في الماضي مع هاتسومومو . طمأنني الإعجاب الذي قرأته في عينيها إلى أنني مازلتُ أشبه الجيشا.

في ذلك المساء، كانت جيون مغطّاة بطبقة جميلة من الثلج، رقيقة إلى درجة أن أية هبة ريح كانت تكنس الأسطحة. وضعتُ شالاً، وحملتُ مظلة، وكنت غير معروفة كثيراً كحالي عندما أتيتُ إلى جيون بثياب الفلاحة. عرفتُ جيشا واحدة من كل اثنتين. تلك اللواتي كنّ في جيون قبل الحرب؛ كنّ ينحنين عند مروري، أما الأخريات، فإنهنّ يكتفين بهزةٍ صغيرة من رؤوسهنّ.

رأيتُ كثيراً من الجنود في الشوارع. وصلتُ إلى الإيشيريكي وبعض الخوف يعتريني. عند المدخل رأيتُ صفاً من الأحذية السوداء الملمّعة، أحذية الضباط، فاستغربتُ الهدوء المخيم على بيت

الشاي أكثر مما كان قبل الحرب. لم يكن نابو قد وصل، على الأقل، لم يُوجَد شيءٌ ما يدلّ على حضوره. أدخلوني إلى صالون كبير في الطابق الأرضي، وقيل لي إنه لن يتأخر في القدوم.

نظرياً، كان عليّ أن أنتظر في جناح الخادمات: سأكون قد دفّأتُ يديّ وشربتُ الشاي. مامن جيشا تحبّ أن يراها رجلٌ بلا عمل، ولكني انتظرتُ نابو طائعةً، وتلك هي ميزتي في أن أمضي بضع دقائق وحيدةً في ذلك الصالون الجميل. لقد حُرمتُ من الجمال طوال خمس سنوات. يا لها من غرفة رائعةً! وهذا الحرير الشاحب على الجدران! أحسستُ بالدفء والطمأنينة.

تمنّيتُ أن أرى نابو وحيداً، ولكني سمعت خطى رجل آخر معه في الممر: لقد اصطحب نابو وكيل الوزارة معه. لا يهمني إذا رآني نابو أنتظر، ولكني لا أريد أن يراني وكيل الوزارة وحيدةً فذهبتُ إلى غرفة مجاورة وخالية، وسمعتُ نابو يلعب دور المضيف الكامل. سأل ضيفه:

ـ أليس صالوناً رائعاً يا سيدي الوزير؟

همهمةٌ.

ـ لقد طلبتُ هذا الصالون خصّيصاً من أجلك. هل رأيتَ هذا الرسم لروح زِن؟ حقاً إنها شيء مهم، أليس كذلك؟

صمتٌ طويل، ومن جديد صوت نابو:

ـ نعم، إنها سهرة جميلة، هل ذقْتَ يوماً ساكي الإيشيريكي؟ إن له نكهة خاصة.

استؤنفت الأمور هكذا، وكان ارتياح نابو في هذا الجو كارتياح الفيل في تقليد فراشة. خرجتُ إلى الممر، وفتحتُ باب صالونهما، فانفرجت أسارير نابو.

نظرتُ إلى الوزير بعد أن قدّمتُ نفسي وجلستُ إلى الطاولة. لم أعرفه رُغمَ ادّعائه أنه أمضى بضع ساعات يرمقني بنظراته. كيف لي أن أنساه؟ كانت ذقنه ملتصقة بصدره. هزّ رأسه باتجاهي، وذكر

WWW.REWITY.COM

اسمه، وبعد ذلك لم يكفّ عن إصدار الهمهمات: على ما يبدو، كانت تلك طريقته في الرد على جميع الأسئلة.

قسرتُ نفسي على فتح الحديث إلى أن أنقذتنا إحدى الخادمات عندما أتت بالساكي. ملأتُ كأس الوزير، فأفرغها بين شفتيه البارزتين كما في قناة، ثم أطبقهما دون أن أراه يبلع شيئاً، وبعد ثانيتين مدّ لي كأسه من جديد.

شرب خلال ربع ساعة بوتيرة سريعة، وكنتُ أروي له القصص وأمازحه وأسأله وأحاول أن أجعله يسترخي، الأمر الذي بدا عاجزاً عن فعله. لم يكن يردّ على أسئلتي إلا بمقاطع صغيرة. عرضتُ عليه أن نلعب لعبة من يشرب أكثر، وسألته إن كان يحب الغناء. أطول حديث بيننا كان عندما سألني إن كنتُ أرقص، فقلت:

ـ نعم، إني أرقص! فهل يرغب الوزير في أن أرقص له؟

ـ لا.

وانتهى الأمر.

لم يكن يحبّ أن يكون على تماسٍّ بصري مع الناس، وبالمقابل فقد تفحّص طعامه بعناية عندما حملت إحدى الخادمات العشاء له ولنابو. حمل قطعة من الطعام ووضعها أمام عينيه ناظراً إليها من الزوايا كافة، فإذا لم يعرف نوعها، يسألني ما هذا؟ فأقول «هذه قطعة من البطاطا الحلوة مسلوقة بسكر مرق الصويا»، أقول له ذلك عندما يريني مكعباً أصفر، وقد يكون ذلك كبد الحوت! فكل ما يهمّه هو أن يحصل على جواب دقيق. وعندما أراني شريحة من لحم العجل المتبّلة بالخل؛ أردتُ أن أستفزّه قليلاً، فقلت:

ـ إنها قطعة من جلد متبّل، وهي من خواص هذا البيت، يصنعونه من جلد الفيل، ولربما عليّ أن أقول إنها من خرطوم الفيل المتبّل.

ـ من خرطوم الفيل؟

ـ هيا يا سيدي الوزير، أنتَ ترى جيداً أني أمزح! إنها قطعة من

لحم العجل. لماذا تنظر إلى طعامك بهذا الحذر؟ أتظن أنهم يقدّمون لكَ لحم كلب، أو ما يشبهه؟

ـ لقد أكلتُ لحم كلب، أتعرفين؟

ـ هذا طريف! ولكننا لا نقدّم لحم الكلب هذا المساء، فكفّ عن مراقبة طبقك بهذا الشك!

بعد ذلك، لعبنا من يشرب أكثر، وكان نابو يكره هذه اللعبة، فأخذ يحتجّ، عقدتُ حاجبيّ، فاستسلم. لا بدّ أننا تركنا الوزير يفرط قليلاً في الشرب: أخذت عيناه تدوران في محجريهما كعوّامة في البحر، ثم نهض واتجه نحو زاوية الغرفة. سأله نابو:

ـ إلى أين تنوي أن تذهب يا سيدي الوزير؟

تجشّأ الوزير، وكان جواباً بليغاً، لأنه كان على وشك أن يتقيّأ.

سارعتُ ونابو إلى مساعدته، ولكنه كان قد وضع يده على فمه. فتحنا الأبواب المطلّة على الحديقة وتركناه يتقيّأ على الثلج. منظر رجل يتقيّأ في أماكن النزهة تلك منظر مقرف، ولكنه لم يكن أول من فعل هذا. كنا، نحن الجيشاوات نأخذ الرجال ليتقيّؤوا في المرحاض، ولكننا كنا نلجأ أحياناً إلى طريقة أسرع، فعندما نقول لإحدى الخادمات إن رجلاً ذهب إلى الحديقة؛ يدركن مباشرةً ما معنى ذلك، فيسرعنَ إلى التنظيف.

فعلنا، أنا ونابو، وسعنا للإمساك بالوزير، لأنه كان يتقيّأ في الثلج جاثياً على ركبتيه على عتبة الحديقة. ورُغمَ ذلك كان رأسه متقدماً، فخشيتُ عليه أن يسقط في قيئه، ولكنه انهار على بطنه كعجل مذبوح. تبادلتُ ونابو نظرة حائرةً، فقد رَقَدَ الوزير على الثلج كغصن مكسور. قلت:

ـ لم أتوقّع أن يكون ضيفكَ مضحكاً إلى هذا الحد يانابو ـ سان!

ـ لقد قتلناه. برأيي، إنه يستحق ذلك. ياله من رجل مزعج!

ـ أهكذا تتصرّف مع ضيوفكَ المرموقين؟ اذهب معه في جولة إلى الخارج، فالبرد ينعشه!

www.rewity.com
ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

ـ إنه يرقد في الثلج، ألا يكفيه هذا البرد؟

ـ نابو ـ سان!

يبدو أن استغرابي كان كافياً لكي ينزل إلى الحديقة بجواربه ليحاول إنعاش الوزير. أسرعتُ إلى إحضار إحدى الخادمات، إذ لم أعرف كيف سيتاح لنابو أن يرفعه بيدٍ واحدة. طلبتُ جوارب للرجلين، ثم طلبت إلى الخادمة أن تنظّف الحديقة بعد ذهابنا.

عدتُ إلى الغرفة، فرأيتُ الرجلين جالسين إلى الطاولة. لك أن تتصوّر حال الوزير والرائحة التي كانت تفوح منه! ترتّب عليّ أن أخلِعه جوربيه، ثم ابتعدتُ عنه إلى أقصى ما يمكن. بعد ذلك سقط على التاتاميات، وغاب عن الوعي. سألتُ نابو:

ـ أتعتقد أنه يسمعنا؟

ـ إنه لا يسمعنا حتى لو كان واعياً. ياله من قميء!

ـ لا تتكلّم بصوت قوي! أتعتقد أنه استمتع؟ أكنتَ تظنّ أنكَ ستمضي ليلةً كهذه؟

ـ المسألة ليست هنا، المهم هو الفكرة التي كوّنها الوزير عن هذه السهرة.

ـ إذاً، لدينا حظوظ في أن نعيدها في الأسبوع القادم.

ـ إذا كان الوزير قد أمضى أوقاتاً طيبة، فأنا على استعداد لإعادتها.

ـ وتضع نفسكَ من جديد في حالةٍ مشابهة؟ انظر إلى نفسكَ يانابو ـ سان، تبدو حانقاً، أما بالنسبة إلى الوزير، فيكفي أن تنظر إليه لتعرف أنه لم يمضِ سهرةً جميلة.

ـ مع الوزير، لا يمكن الاستمتاع بشيء...

ـ قد يستمتع أكثر في جو أكثر احتفاليةً، ألا ترى ذلك؟

ـ اصطحبي عدة جيشاوات في المرة القادمة إذا كنتِ ترين أن ذلك يساعده. سنعود في الأسبوع القادم، ويمكنكِ أن تدعي أختكِ الكبرى.

WWW.REWITY.COM

ـ مامها امرأة كثيرة المواهب، ولكن الوزير متعِبٌ جداً! يلزمنا جيشا راعدة تسلّي الناس جميعاً! أتعرف وأنا الآن أفكّر في ذلك، أرى أنه يلزمنا ضيفٌ آخر.

ـ لا أفهم السبب.

ـ إذا كان الوزير لن يفعل سوى الشرب، والنظر إليّ، وإغاظتك، فلن نستمتع. لربما وجب عليكَ أن تستدعي الرئيس في المرة القادمة.

قد تتساءل ما إذا كانت هذه الفكرة في رأسي منذ بداية السهرة. الجواب هو: لا. وحين عدتُ إلى جيون، لم آمل إلا بشيء واحد: أن أرى الرئيس. ولكن لم يصل ذلك إلى حدّ أن أجلس إلى جانبه وأميل عليه، وأوشوشه كلاماً في أذنه، وأشمّ رائحته. إذا كانت تلك اللحظات هي المتعة الوحيدة التي أعدتها لي الحياة، فعليّ أن أعرفها بسرعة، وأقتصر على منبع النور هذا، وأتعود على الظلمات. ربما وجب عليّ أن أكتفي بنابو. لم أكن غبيةً إلى حد الاعتقاد أن بإمكاني أن أهربَ من قدري، على أني لن أهجرَ كل أملٍ. أجاب نابو:

ـ لقد فكرتُ باصطحاب الرئيس، فهو يؤثر كثيراً على الوزير، ولكني لاأعرف ياسايوري، فهو مشغولٌ جداً كما قلتُ لكِ.

قام الوزير الممدد على التاتامي بحركةٍ مفاجئة كأنه وخز. استطاع أن ينهض، ويجلس إلى الطاولة. أحس نابو بالاشمئزاز من منظر قميصه الملطّخ! طلب إليّ أن أستدعيَ إحدى الخادمات لتأتي بخرقةٍ مبللة. بعد أن نظّفتْ سترة الوزير وخرجت، قال نابو مستغرباً:

ـ أيةَ سهرةٍ جميلة أمضينا ياسيدي الوزير! في المرة القادمة سوف نستمتع أكثر، لأنه سيكون بإمكانك التقيؤ، ليس عليّ وحدي فقط، بَلْ على الرئيس أيضاً وجيشاوين أو ثلاث أُخريات!

سررتُ لأن نابو لفظ اسم الرئيس، لكني كتمتُ سروري. قال الوزير:

ـ أحبُ هذه الجيشا ولاأريد أحداً سواها.

ـ نادِها باسمها: سايوري، وإلا فلن تعود. والآن، انهض ياسيدي الوزير! فقد آن الأوان لكي أصحبك إلى بيتك.

شيعتهما حتى المدخل، وساعدتهما على انتعال حذائيهما وارتداء معطفيهما. نظرتُ إليهما وهما يخرجان تحت الثلج. كان الوزير يعاني كثيراً في المشي، وكاد أن يصطدمَ في البوابة لو لم يأخذه نابو من مرفقه ويقوده إلى الريكشو.

* * *

فيما بعد، وفي السهرة نفسها، مررتُ باحتفالٍ أقامه ضباط أمريكيون مع مامها. عندما وصلنا، كان مترجمهم ثملاً ولم يفدهم في شيء. تعرّف الضباط جميعاً إلى مامها، وفوجئتُ عندما رأيتهم جميعاً يدندنون ويحركون سواعدهم طالبين إليها أن ترقص. ظننتُ أننا سنجلسُ وننظر إليها، ولكن ما إن أخذت ترقص حتى نهض بعضهم وأخذوا يتمايلون حولها. لو أني عرفتُ ذلك مسبقاً لأحسستُ بالخوف بكل تأكيد، ولكنَّ هذا المشهد جعلني أنفجرُ ضاحكةً، فمنذُ زمنٍ طويل لم أستمتع هكذا. وبعد أن انتهت مامها عزفنا على الشامیزن، كلٌ منا بدورها، بينما أخذ الضباط الأمريكيون يرقصون حول الطاولة. وكلما توقّفنا عن العزف، كانوا يسارعون إلى أماكنهم، وآخرُ واحدٍ منهم يجلس؛ عليه أن ينفذ شرطاً: يجب أن يشرب كأساً من الساكي.

كان غريباً أن أستمتع إلى هذا الحد مع أناسٍ لايتكلمون لغتي نفسها، قلتُ ذلك لمامها، فقد أمضيتُ بداية السهرة مع نابو والوزير، وهما يابانيان، ومع ذلك ضجرنا. طلبت مامها بعض التفصيلات قائلةً:

ـ ثلاثةُ أشخاصٍ لايكفون.

بعد ذلك، رويتُ لها ماجرى في سهرتنا، وبخاصةٍ أن أحد الشخصين هو نابو بوجهه المكفهر. قلتُ:

ـ لقد اقترحتُ عليه أن يصحب الرئيس معه في المرة القادمة، وأنه يلزمنا جيشا أخرى، ألا ترين ذلك؟ نريدُ امرأةً تعملُ مهرجة.

ـ نعم، لربما مررتُ...

بقيتُ حائرةً: فمامها ليست من النوع الذي يقوم بالتهريج! أردتُ أن أوضح فكرتي، فبدتْ أنها عرفت بما أفكر، وقالت:

ـ نعم، يهمني أن أكون هناك... وإذا كنتِ تريدينَ شخصاً مضحكاً؛ فعليك دعوة بومبكين، رفيقتك القديمة.

منذ عودتي إلى جيون، عاودتني ذكرياتٌ متعلقة ببومبكين. لقد فكرتُ بها منذ اللحظة التي دخلتُ بها إلى الأوكيًا. كنتُ أراها واقفةً في المدخل وهي تحييني ـ يومَ أغلقت جيون أبوابها ـ بهزةٍ مقتضبةٍ من رأسها، وذلك هو نوع المجاملة الذي يجب أن يوجه إلى ابنة الأوكيًا. لم أكف عن التفكير فيها طوال فترة التنظيف. وذات يوم، بينما كنا ننظف التلبيس، تذكرتها وهي تعزفُ على الشاميزن فيَ الممر. بدا لي المكان الفارغ الذي اعتادت أن تعزف فيه موسوماً بحزنٍ لاينتهي. سنوات كثيرة مرّت على طفولتنا! وكان من السهل محو هذه الذكريات كلها، ولكني لم أستطع قطُ أن أرضخ لفكرة أن صداقتنا انتهت. برأيي، كانت الخصومة المصطنعة، التي أحدثتها هاتسومومو بيننا، السببَ في ذلك. وكان تبنّيَ آخر ضربة وُجّهت إلى هذه العلاقة. ومع ذلك، فقد عددتُ نفسي مسؤولةً جزئياً عن حميمية بومبكين، فهي لم تُبدِ لي إلا الطيبة، ووجبَ عليّ أن أجد وسيلةً لشكرها.

من المستغرب أني لم أفكّر بإيجاد بومبكين قبل أن توحي لي مامها بذلك. سيكون لقاؤنا غريباً. فكّرتُ بهذه المسألة طوال السهرة وخلصتُ إلى أنها ستكون ممتنّةً لنا لإدخالها في وسط أرقى قليلاً من وسط الأمريكيين. فلديَّ سبب آخر: بعد هذه السنوات كلها، لماذا لا نعيد صداقتنا؟

* * *

كنتُ أجهل كل شيء عن حياة بومبكين ما عدا أنها عادت إلى جيون. كذلك توجّهتُ إلى تاتي التي تلقّت منها رسالةً منذ بضع سنوات خلت، تناشدها فيها بأن تعيد اعتمادها عندما يفتتح الأوكيًا

WWW.REWITY.COM

أبوابه من جديد، فقد كانت تظنّ أنها لن تجد أبداً نفسها في أي مكان آخر. وربما انصاعت تاتي لرغبة الأم التي رفضت لأن بومبكين استثمارٌ سيء. قالت لي تاتي:

ـ إنها تعيش في أوكيّا صغير في حي هانامي ـ شو، وهو مكان حزين. ولكن لا تشفقي عليها ولا تدعيها إلى هنا، فالأم لا تريد أن تراها. ومن ناحية أخرى، ليس ذكاءً منكِ أن تعيدي صداقتكِ معها.

ـ لطالما أحسستُ أني مسؤولة عما حدث بيني وبينها.

ـ لم يحدث شيء بينكما! فبومبكين أخفقت وأنتِ نجحتِ. على أية حال إنها تعمل جيداً جداً في هذه الأيام، فالأمريكيون يحبونها كثيراً. هي سوقية، وهم يحبّون السوقية.

تلك الظهيرة، اجتزتُ جادة شيجو، ووصلتُ إلى هانامي ـ شو ووجدتُ الأوكيّا الصغير الذي حدّثتني عنه تاتي، الأوكيّا الذي أحرقته كورين في أثناء الحرب. لقد أتلفت النار جزء الأوكيّا الذي تعيش فيه بومبكين. كانت الواجهة سوداء، وثقوب السطح مسدودة بألواح خشبية. إن بيتاً كهذا كان الوحيد الذي سيبقى سالماً لو أنه في طوكيو أو أوساكا. أما في كيوتو، فكان يشكّل لطخة.

رافقتني خادمة شابة إلى صالون استقبال تفوح منه رائحة رماد مبلل. بعد قليل، عادت وقدّمت لي كأساً من الشاي. مرت ربع ساعة قبل أن تفتح بومبكين الباب السحّاب. منعني ظلام الردهة من تبينُ ملامحها، ولكنّ مجرّد حضورها دبّ الدفء في قلبي. وقفتُ، وذهبتُ باتجاهها لكي أعانقها، فما كان منها إلا أن سارت بضع خطوات باتجاهي، ثم جلست عل كعبيها وحيتني تحيةً متقشّفة كما لو أنها كانت تحيي الأم. صدمني تصرّفها، فجمدتُ في مكاني. لكني قلت لها:

ـ هيه، بومبكين، هذه أنا!

بقيت عيناها مخفضتين كخادمة تنتظر الأوامر. شعرتُ بخيبة أمل فظيعة، فعدت إلى الطاولة.

في أثناء الحرب، احتفظت بومبكين بوجهها الطفلي، مع مسحة حزن. لقد تغيّرت كثيراً خلال ثلاث سنوات. بعد إغلاق مصانع التجهيزات العسكرية عملت سنتين في أوساكا كمومس، وهذا ما كنتُ أجهله آنذاك. لقد احتفظت باستدارة وجهها، ولكنها فقدت وجنتيها، ولقد منحها ذلك النحول أناقةً فاجأتني. لم تبلغ بومبكين جمالَ هاتسومومو ، بل صار لها وجه امرأة. قلت لها:

ـ لا بدّ أنك قد عشتِ لحظات قاسية يا بومبكين، ولكني أراكِ جميلةً جداً.

لم تجبني، بل اكتفت بهزّ رأسها قليلاً لتقول لي إنها سمعتني. هنأتها على نجاحها مع الأمريكيين، وسألتها عن حياتها منذ نهاية الحرب. بقيت باردةً كالرخام، فبدأتُ أندم على قدومي إليها.

أخيراً، وبعد صمت غريب، قالت:

ـ إذا كنتِ قد أتيتِ للثرثرة يا سايوري، فاعلمي أن ليس لدي ما أقوله لكِ.

ـ لقد رأيتُ نابو توشيكازو منذ بعض الوقت. وسيأتي إلى جيون برفقة صديق له، ففكرتُ أن بإمكانكِ أن تساعدينا على إمتاع ذلك الصديق.

ـ ولكن، لا بدّ أنكِ غيرتِ رأيكِ بعد أن رأيتِني الآن!

ـ أبداً! لا أعرف لماذا تتكلّمين هكذا. إن نابو توشيكازو والرئيس، إيواميورا كين، أقصد...الرئيس إيواميورا، يحبان صحبتكِ. هذا هو الأمر بكل بساطة.

بقيت جالسةً بصمت وعيناها مثبّتتان على التاتامي. قالت أخيراً:

ـ أعرف أن لا شيء في الحياة أبسط من ذلك. أعرف أنكِ ترينني غبية...

ـ بومبكين!

ـ ... ولكني أفكّر أن لديكِ سبباً آخر لم تقوليه لي.

WWW.REWITY.COM

هزت رأسها هزّةً خفيفةً لم أستطع تفسيرها. هل ستعتذر عما قالته تواً؟ هل ستنسحب؟ همستُ:

ـ لديّ سبب آخر. آمل أن نستطيع، بعد هذه السنوات كلها، أن نعود صديقتين. لقد تجاوزنا، أنا وأنتِ، مصاعب كثيرة... ومن الطبيعي أن نلتقي من جديد.

لم تعلّق، فقلتُ:

ـ سيستقبل الرئيس إيوامورا ونابو الوزيرَ يوم السبت القادم في الإيشيريكي، وسأكون سعيدة بحضورك.

كنتُ قد حملتُ إليها علبة شاي. أخرجتها من غلافها الحريري، ووضعتها على الطاولة. نهضتُ، واجتهدتُ في إيجاد كلمة رقيقة أقولها لها قبل أن أذهب. بدت لي كثيرة الحيرة! فخرجتُ دون أن أقول شيئاً.

31

لم أرَ الرئيس منذ خمس سنوات، ولكني كنت أقرأ عنه أحياناً بعض المقالات. فقد كان على خلافات مع الحكومة العسكرية خلال السنوات الأخيرة من الحرب، كما اختلف مع سلطات الاحتلال التي أرادت الحجز على الشركة. ربما ترك ذلك أثراً في نفسه، فبدا متوتراً ومغموماً في صورة على صحيفة يومينوري اليومية. كان يرفّ عينيه كجار السيد آراشينو الذي غالباً ما يرفع رأسه نحو السماء لمراقبة الطائرات القاذفة. لدى اقتراب نهاية الأسبوع، لم أكن متأكدةً من أن نابو سيصحب معه الرئيس. ما كان لي إلا أن آمل.

صباح السبت، استيقظتُ باكراً. رفعت ستارة نافذتي الورقية وكان البَرَدُ يقرع الأباجور. في الشارع، رأيتُ خادمةً شابةً تنهض بعد أن تزحلقت على البلاط المتجمّد. كان يوماً كئيباً، بالكاد تجرّأتُ

على فتح كتابي. عند الظهر انخفضت درجة الحرارة أكثر، وصارت أنفاسي تشكّل بخاراً وأنا أتناول غدائي، ومازال البَرَدُ يصفع النافذة.

في المساء، ألغي عددٌ من السهرات بسبب الجليد. وعند حلول الظلام، اتصلت تاتي بالإيشيريكي: هل احتفال الإيوامورا مايزال قائماً؟ لم تستطع معلمة البيت أن تقول لها ما إذا كان نابو سيأتي، أم لا، لأن الهاتف بين أوساكا وكيوتو لم يعد يعمل. استحممتُ، ولبستُ، وتأبّطتُ ذراع السيد بيكو إلى الإيشيريكي، فقد استعار حذاءاً مطاطياً من أخيه الذي يعمل مُلبِساً في حي بونتوشو.

كان الإيشيريكي مقلوباً رأساً على عقب عند وصولي، فقد انفجرت إحدى قنوات الصرف في جناح الخادمات، فانهمكن في إصلاح العطل. صعدتُ الدرج بمفردي، ووصلتُ إلى الصالون الذي أمضيتُ فيه السهرة مع نابو والوزير في الأسبوع الماضي. لم أتوقّع أن أرى فيه أحداً، فعلى نابو والرئيس أن يقطعا طريقاً طويلاً من أوساكا إلى هنا، وكذلك مامها التي تغيّبت عن كيوتو، ستجد عناءً كبيراً في العودة بسبب الطقس السيء. قبل أن أفتح الباب، بقيتُ جاثيةً للحظة ويدي على قلبي لكي أهدّئ من روعي. كان الصمت مطبقاً في الممر، ولم تتسرّب أية نأمة عبر الباب المغلق! بكل تأكيد، لا أحد في الغرفة. يالخيبة أملي! كنتُ سأنهض وأذهب، ولكني قرّرتُ أن أفتح الباب، فلعلّ وعسى. وهناك، رأيته جالساً إلى الطاولة وفي يده مجلة، كان الرئيس! نظر إليّ من فوق نظارته. لم أتوقّع حضوره، إلى درجة أني عجزتُ عن الكلام عندما رأيته. نجحتُ بعد دقيقة، فقلت:

ـ يا عدل السماء! الرئيس! من تركك لوحدك؟ ستغضب معلّمة الإيشيريكي كثيراً.

ـ هي التي تركتني.

وأغلق المجلة. ثم أضاف:

ـ إني أتساءل عما حلّ بها.

WWW.REWITY.COM

ـ ليس لديك ما تشربه، سوف أجلب لكَ بعض الساكي.

ـ هذا ما قالته لي المعلّمة قبل أن تذهب، وأنتِ لن تعودي أيضاً، وسوف أقرأ هذه المجلة طوال السهرة. أفضل أن تبقي إلى جانبي.

خلع نظارته، ودسّها في جيبه، ونظر إليّ.

وقفتُ لأذهب إليه. فجأةً بدا لي الصالون الكبير ذو الجدران المغطاة بالحرير صغيراً بسبب اتّقاد أشواقي. فرؤية الرئيس بعد هذه السنوات الطويلة أحيت ألماً في نفسي. كنتُ قد فكّرتُ بالسعادة وإذا بي ألقى الحزن. في بعض اللحظات خشيتُ أن تجعل الحرب الرئيسَ يشيخ كما شاخت تاتي. ما إن دخلت إلى الصالون، حتى رأيت الرئيس متغضّناً أكثر مما عهدته، وبخاصة في زاويتَيْ عينيه. وبدأ الجلد يتجعّد حول فمه، مما أكسب فكّه المربّع شمماً. اختلستُ إليه نظرةً خاطفةً وأنا أجلس إلى الطاولة، فرأيته مايزال يرمقني بنظرته الخالية من التعبير. كنتُ سأفتح الحديث، لكنه تكلّم أولاً:

ـ ما تزالين جميلةً ياسايوري!

ـ أوه، أيها الرئيس! لن أصدّق بعد الآن كلمةً مما تقول لي. لقد أمضيتُ أمام المرآة نصف ساعة لكي أعيد بعض الحجم لوجنتي.

ـ لا بدّ أنكِ لاقيتِ، مثلي، أموراً أسوأ من النحول خلال السنوات الأخيرة.

ـ إذا سمحتَ لي أيها الرئيس، سأدخل في الموضوع، لقد حدّثني نابو ـ سان عن المصاعب التي تلاقيها شركتكما...

ـ لا تتكلّمي في هذا الشأن، يمكننا أن نتجاوز المحنة. يكفي أن نتخيّل ما ستكونه الحياة إذا تحقّقت أحلامنا كلها.

ابتسم لي ابتسامة حزينة، ابتسامةً في غاية الرقة! لقد شكّلت شفتاه قوساً كاملاً. ثم قال:

ـ هذه فرصتكِ لاستخدام سحرك وتغيير الموضوع.

لم يكن لديّ الوقت للإجابة، فقد فُتح الباب ودخلت مامها وبومبكين، ولم أكن أعتقد أنها ستأتي. من البدهي أن مامها وصلت

من ناغويا مباشرة، ولا بدّ أنها سارعت إلى الإيشيريكي وهي تظن أنها متأخرة. حيّت الرئيس، وشكرته على خدمةٍ أدّاها لها في الأسبوع السابق، ثم سألت عن الوزير ونابو.

قالت بعد ذلك، وكأنها تحدّث نفسها:

ـ يا له من نهار عجيب! لقد بقينا عالقين في القطار لمدة ساعة قبل الدخول إلى محطة كيوتو بقليل، حتى قام شابّان بكسر نافذة القطار ثم قفزا منه وأظن أن أحدهما قد جُرح. ثم أصل إلى الإيشيريكي، وهاهو كل شيءٍ خاوٍ، ووجدتُ بومبكين المسكينة تائهة في الممرات. أنتَ تعرف بومبكين أليس كذلك أيها الرئيس؟

كانت ترتدي كيمونو رائعاً، رمادياً وعليه نقاط مذهّبة تحت الخصر: قطاربُ مطرّزة على خلفية من الجبال، وسواقٍ ينيرها القمر. كان كيمونوها أجمل من كيموني وكيمونو مامها. بدا الرئيس مبهوراً به، فطلب إلى بومبكين أن تدور لكي يتمكّن من التمعّن فيه. قامت ودارت على نفسها بحياء.

قالت:

ـ قلتُ لنفسي إنهم سيمنعونني من الدخول إلى الإيشيريكي بالكيمونوهات التي ألبسها عادةً، فكيمونوهات أوكيّاي ليست جميلةً جداً رُغمَ أنها تعجب الأمريكيين.

قالت مامها:

ـ لو لم تكوني في غاية الصراحة يا بومبكين، لظننا أنكِ لا تلبسين إلا كيمونوهات كهذا.

ـ أتمزحين؟ لم ألبس قطّ كيمونو بهذا الجمال! لقد استعرته من أحد الأوكيّات في زاوية الشارع. لن تصدقوا إذا قلتُ لكم كم يطلبون أَجْرَهُ لسهرةٍ واحدة! على كل حال ، ليس لديّ ما أدفعه، فما أهمية ذلك؟

وجد الرئيس كلامها مضحكاً، فما من جيشا تتكلّم أمام رجل

www.rewity.com ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

عن هذه الأمور الصغيرة، كثمن الكيمونو. كانت مامها ستتدخل، لكن بومبكين لم تترك لها الوقت، إذ قالت:

ـ كنت أظنّ أننا ننتظر شخصية مرموقةً؟

ـ تقصدين السيد الموجود هنا، أليس الرئيس شخصية مرموقةً برأيك؟

ـ عليه هو أن يعرف ذلك، وليس عليّ أنا أن أقول له.

نظر الرئيس إلى مامها، وقد عقد حاجبيه استغراباً. لكن بومبكين أضافت:

ـ لقد حدّثتني سايوري عن شخص آخر.

قال الرئيس:

ـ إنه ساتو نوريتاكا، الوكيل الجديد لوزارة المالية.

ـ أعرفه، إنه يشبه خنزيراً كبيراً.

ضحك الجميع، ثم قالت مامها:

ـ حقاً يا بومبكين، أنتِ تقولين هذا الكلام!

بعد ذلك انفتح الباب ودخل نابو ومعه الوزير. بدا وجهاهما أحمرين بفعل البرد. تبعتهما خادمةٌ تحمل صينية عليها الساكي والمكسّرات. كان نابو يلفّ ذراعه حول جسمه. ضرب بقدميه على الأرض لكي يتدفأ. دار الوزير حوله بخطى ثقيلة، وبعد أن وصل إلى الطاولة همهم باتّجاه بومبكين، وأومأ برأسه إليها كي تبتعد ليتمكّن من الجلوس إلى جانبي. جرى التعارف، ثم قالت بومبكين:

ـ أراهن أنكَ نسيتني أيها الوزير! ولكني أعرف عنكَ أشياء كثيرة.

سكب الوزير كأساً من الساكي في فمه، وقد قدّمته له، ثم نظر إلى بومبكين نظرة تقترب من الامتعاض. قالت مامها:

ـ ماذا تعرفين عنه؟ هاتي أسمعينا!

ـ للوزير أخت صغرى تزوّجت من عمدة طوكيو. والوزير كسر يده وهو يلعب الكاراتيه.

بدت المفاجأة على وجهه، فاستنتجتُ أنها تقول الحقيقة.

ـ وأعرف أيضاً فتاةً كان الوزير يعاشرها اسمها ناو إيتسوكو، وقد اشتغلنا معاً في مصنع قرب أوساكا. وقد قالت لي إيتسوكو إنكما قمتما بـ«أنتَ تعرف ماذا» سوياً عدة مرات.

ظننتُ أن الوزير سيغضب، ولكني لمحتُ أساريره تنفرج، وعينيه تلمعان اعتزازاً، ثم قال وهو ينظر إلى نابو نظرةً متحفّظة:

ـ لقد كانت إيتسوكو فتاة جميلة!

ـ لم أكن أعرف أنك تثير الإعجاب أيها الوزير.

رُغمَ أن ملاحظة نابو رنّت كعبارة مجاملة، لكنه لم يستطع أن يخفي اشمئزازه. نظر إليّ الرئيس نظرةَ مَنْ وجد كل ماحدث مسلياً.

بعد بضع لحظات، فُتح الباب ودخلت ثلاث خادمات يحملن العشاء للسادة. كنتُ جائعةً، ووجب عليّ أن أحوّل بصري عن الكريم الذي نثر عليه جوز الجينكو بيلوبا المقدّم في أكواب صغيرة من البورسلين الجميل. عادت الخادمات بأطباق من السمك المشوي مقدّم على شوك الصنوبر. لا بدّ أن نابو لاحظ كم كنتُ جائعة، فأصرّ على أن أتذوق الطعام من طبقه. بعد ذلك، قدّم الرئيس قطعة من السمك لمامها، ثم لبومبكين التي رفضت قائلةً:

ـ لن ألمس هذا السمك ماحييت! بل إني لن أنظر إليه!

ـ لماذا؟

ـ إذا قلت لكم السبب، فستسخرون مني.

ألحّ نابو قائلاً:

ـ هيا، تكلّمي يابومبكين!

ـ لماذا عليّ أن أقول لكم السبب؟ إنها قصة طويلة، ولن يصدّقها أحد، على أية حال.

ـ قلتُ لها:

ـ كاذبة!

WWW.REWITY.COM

لم أكن أتّهم بومبكين بالكذب. قبل إغلاق جيون، كنا نلعب لعبة اسمها «كاذبة»: كل منا يروي قصتين تكون واحدة منهما صحيحة، ويحاول اللاعبون الآخرون أن يكتشفوا الصحيحةَ بينهما. وعلى من يخطئ أن ينفّذ شرطاً: يشرب كأساً من الساكي.

قالت بومبكين:

ـ أنا لا ألعب!

قالت مامها:

ـ يكفي أن تحكي لنا قصة السمك.

بدا أن بومبكين لم تكن متحمّسة للكلام، ولكن عندما نظرتُ إليها، أنا ومامها نظرةً قاسية بدأت الكلام:

ـ حسنٌ، هاكم قصتي: لقد ولدتُ في سابورو، وذات يوم أتى أحد الصيادين بسمكة تتكلم.

تبادلت النظر أنا ومامها وانفجرنا ضاحكتين.

ـ اضحكا ماطاب لكما، ولكني صادقة!

قال الرئيس:

ـ أكملي يا بومبكين، إننا نسمعك!

ـ مدّد الصياد السمكة على الطاولة لكي ينظّفها، فأصدرت أصواتاً تشبه صوت الإنسان. وعندما لم يفهم الصياد لغتها، استدعى أصدقاءه، فلم يفهموا أيضاً. بعد قليل، أخذت السمكة تحتضر، فقد مر زمن على خروجها من الماء، فقرّر الصيادون أن يُجهزوا عليها، وفي تلك اللحظة شقّ رجل عجوز طريقه بين الجمع، وقال إنه فهم ما قالته السمكة لأنه يتكلّم اللغة الروسية.

انفجرنا ضاحكين، أما الوزير فقد أصدر همهمات ، وبعد أن هدأنا، أضافت بومبكين:

ـ أعرف أنكم لا تصدّقون، ولكني صادقة!

قال الرئيس:

ـ أريد أن أعرف ماقالته السمكة.

WWW.REWITY.COM

ـ كانت ميتة تقريباً، تكلّمت همساً، فانحنى العجوز عليها، ووضع أذنه على شفتيها.

ـ ليس للسمك شفتان!

ـ حسنٌ، على... على فمها، وهمست السمكة: «قل لهم أن يفرّغوني. لم يعد لي أي مبرر للحياة. إن السمكة، التي ماتت هناك منذ لحظات، هي زوجتي».

قالت مامها:

ـ هكذا إذاً، فإن الأسماك تتزوّج، ولها زوجات وأزواج!

قلت:

ـ كان ذلك قبل الحرب، أما اليوم، فإنها تشق طريقها في البحار بحثاً عن عمل.

قالت بومبكين:

ـ لقد حدث ذلك قبل الحرب، حتى قبل ولادة أمي.

سأل نابو:

ـ إذاً، كيف عرفتِ فيما إذا كان كلامها صحيحاً؟ فالسمكة لم تقل لكِ إن زوجتها قد ماتت!

ـ لقد ماتت السمكة على الطاولة! فكيف لها أن تقول لي ذلك؟ على أية حال، أنا لا أتكلم الروسية.

قلت لها باستغراب:

ـ إذاً، تعتقدين يا بومبكين أن سمكة الرئيس تتكلّم!

ـ لم أقل ذلك، ولكنها تشبه السمكة الروسية تماماً.

سأل الرئيس:

ـ كيف لك أن تعرفي ما تشبه السمكة ما دامت قد سبقت ولادتكِ، بل وولادة أمكِ؟

ـ أتعرفون رأس رئيس الوزراء؟ ومع ذلك فلم تلتقوا به قَطُّ! هذا

إذا كان عليكم أن تقابلوه. سوف أورد مثالاً أفضل: أنتم تعرفون رأس الإمبراطور، ولكنكم لم تتشرّفوا يوماً بمقابلته!

قال نابو:

ـ لقد تشرّف الرئيس بذلك يا بومبكين.

ـ أنتم تعرفون ما أقصده: الناس جميعاً يعرفون الإمبراطور.

تدخّل نابو:

ـ هناك صور للإمبراطور، بينما لم تستطيعي أن تري صوراً لتلك السمكة!

ـ تلك السمكة مشهورة في قريتنا، ولقد وصفتها لي أمي، وكما قلت لكم :«إنها تشبه ذلك الشيء هناك على الطاولة»!

قال الرئيس:

ـ لحسن الحظ أنه يوجد أشخاص مثلكِ يا بومبكين! وإلا كنا سنحسّ بالملل.

ـ تلكم كانت قصتي، ولن أحكي غيرها. وإذا كنتم ستلعبون بـ«الكاذبة» فهيا!

قالت مامها:

ـ سأبدأ أنا: ذات يوم، وكنت في السادسة من عمري، ذهبت لجلب الماء من البئر في أوكيّانا، سمعتُ رجلاً يسعل، وكان الصوت آتياً من البئر. أيقظتُ معلمة الأوكيّا، فخرجت وسمعت الصوت أيضاً. أتينا بمصباح إلى فتحة البئر، ولكننا لم نرَ أحداً، ومع ذلك فقد سمعنا سعال الرجل حتى وقت متأخر من الليل، ثم توقف نهائياً.

قال نابو:

ـ القصة الحقيقية هي تلك التي لم تحكِها بعد.

تابعت مامها:

ـ ومع ذلك، عليك أن تسمعها. ذات يوم، ذهبتُ إلى احتفال عند أكيتا مازايشي في أوساكا مع عدة جيشاوات.

كان أكيتا رجل أعمال معروف جمع ثروة طائلة قبل الحرب.

ـ غنينا وشربنا طوال ساعات، ثم نام أكيتا ـ سان على التاتاميات. أدخلتنا إحدى الجيشاوات إلى قاعة مجاورة، وفتحت صندوقاً مليئاً بالكتب الجنسية، وبالمطبوعات الحجرية، ومنها لهيروشيجي...

قالت بومبكين:

ـ لم يصنع هيرو مطبوعات جنسية قَطُّ.

قال الرئيس:

ـ بلى يا بومبكين! لديّ عدة مطبوعات حجرية جنسية لهيرو شيجي.

أضافت مامها:

ـ وكان هناك صور لأوروبيين، رجال ونساء، سمان جداً، وبكرات للأفلام.

ـ أنا أعرف أكيتا مازايشي جيداً، وما كان له أن يجمع صوراً جنسية، القصة الأخرى هي الصحيحة.

قال نابو:

ـ إيه أيها الرئيس! أتصدّق أن بالإمكان سماع رجل يسعل في البئر؟

ـ ليس لي أن أصدّقه. يكفي أن تقول مامها إن ذلك صحيح.

مال الرئيس وبومبكين إلى تصديق قصة رجل البئر، ونابو والرئيس إلى قصة الأفلام الجنسية. أما أنا، فقد كنتُ قد سمعتُ هاتين القصتين سابقاً، وأعرف أن قصة السعال في البئر هي الصحيحة. شرب الوزير كأس الساكي لأنه خسر. قطّب نابو حاجبيه فطلبنا إليه أن يأخذ دوره، فقال:

ـ لن ألعب هذه اللعبة.

قالت مامها:

WWW.REWITY.COM

ـ بلى، وإلا ستشرب كأساً من الساكي في كل مرة!

ـ أتريدون قصتين؟ حسنٌ، إليكم الأولى: كان عندي كلب صغير أبيض اسمه كوبو، وذات يوم ، وأنا عائد إلى البيت وجدتُ لونه قد صار أزرق.

قالت بومبكين:

ـ أنا أصدّقك، لا بدّ أن الشيطان هو من فعل ذلك.

نظر نابو إلى بومبكين وهو غير مصدّق، ثم أضاف:

ـ القصة حدثت في اليوم التالي، فقد وجدت لونه أحمر.

ـ إنها الشياطين بدون شك، فالشياطين يحبون اللون الأحمر لأنه لون الدم.

بدا نابو مغتاظاً، ولكنه تابع:

ـ إليكم قصتي الثانية: ذات صباح من الأسبوع الماضي، وصلتُ باكراً جداً إلى مكتبي، بحيث إن سكرتيرتي لم تكن قد وصلت. فأي القصتين صحيحة؟

لم يختر أحد قصة الكلب إلا بومبكين، فشربت كأساً من الساكي. قلتُ كأساً، ولم أقل قدحاً، لأن الوزير صبه لها ببطء حتى طفح فانحنت لكي تشفط الساكي. وقبل أن تمسك بالكأس رأيتها قلقةً، فهي قليلة التحمّل للكحول. قالت بعد أن أنهت الكأس:

ـ لا أستطيع أن أصدّق أن قصة الكلب غير صحيحة.

بدا وكأنها تعاني في النطق وهي تضيف سائلةً:

ـ كيف استطعتَ أن تختلق قصة كهذه؟

ـ كيف استطعتُ أن أختلق مثل هذه القصة؟ السؤال هو: كيف استطعتِ أنتِ أن تصدّقيها؟ فالكلاب لا تصبح زرقاء ولا حمراء، والشياطين ليس لها وجود!

وأتى دوري:

ـ هاكم قصتي الأولى: ذات مساء، منذ عدة سنوات، سكر ممثل الكابوكي يويغورو وصارحني قائلاً إنه لطالما وجدني جميلة.

قالت بومبكين:

ـ هذه القصة ليست صحيحة، فأنا أعرف يويغورو.

ـ أنا لا أشكّ في كلامه، ولكنه أكّد لي أنه يراني جميلة، ومنذ ذلك المساء وهو يراسلني بين وقتٍ وآخر، وفي زاوية الرسالة كان يلصق دوماً خصلةً من شعره الأسود المجعّد.

ضحك الرئيس، أما نابو فقد انتصب على تاتاميته غاضباً وقال:

ـ حقاً إن شبّان الكابوكي هؤلاء أناس مزعجون!

قالت بومبكين:

ـ لم أفهم، كيف تكون خصلة من الشعر «مجعّدة»؟

ومع ذلك، فقد بدا أنها فهمت.

صمت الجميع منتظرين قصتي الثانية. كنتُ أفكر فيها منذ البداية، ولكني كنتُ متوترة الأعصاب لروايتها، وغير متأكدة قطُ من أنها فكرة صائبة. قلت:

ـ ذات يوم، كنتُ حزينةً جداً، وكان عمري إذ ذاك يقارب الثانية عشرة. ذهبتُ إلى ضفة نهر شيراكاوا وأخذت أبكي.

بدا الأمر وكأني أمدّ يدي للرئيس. لم يُلحَظ ماهو مشبوه في قصتي، ولكنه سيفهم أنها موجّهة إليه، على الأقل، هذا ما أمِلته. وكأني أقاسمه سراً. أحسستُ بالحر أكثر فأكثر واختلستُ نظرةً سريعةً إليه ظناً مني أنه ينظر إليّ. حتى لم يكن ينظر إليّ! أحسستُ أني مضحِكة كفتاة صغيرة تتخذ أوضاعاً مبتذلة وهي تظنّ أن الشارع خالٍ.

بدأ صبر الحاضرين ينفد. وقالت لي مامها:

ـ إيه؟ أكملي!

www.rewity.com ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

غمغمت بومبكين بكلمات غير مفهومة. أضفت:

ـ سأقصّ عليكم قصة أخرى. أتذكرون الجيشا أوكايشي؟ لقد ماتت عرضاً في أثناء الحرب. قالت لي منذ سنين خلت إنها تخشى أن يسقط صندوق ما على رأسها ويقتلها، وهكذا ماتت، فقد سقط على رأسها صندوق حديدي من أحد الطوابق وقتلها.

أحسست بالاضطراب، فقد أدركتُ في تلك اللحظة أن كلا قصتيّ مختلَقتان جزئياً، وبعد، لم أحسّ بأي خجل، فالجميع يغشّون في هذه اللعبة. اختار الرئيس قصة يويغورو، فقلت له إنها القصة الأفضل، أما بومبكين والوزير، فقد شرب كلٌ منهما كأساً من الساكي.

أتى دور الرئيس:

ـ لستُ ماهراً في هذا النوع من الألعاب، فأنا غير معتاد على الكذب مثل الجيشاوات.

صاحت مامها معنِّفةً بلطفٍ:

ـ أيها الرئيس!

فقال:

ـ أنا قلق على بومبكين، كذلك سأتكلّم بحيث إنها لا تخطئ، فأنا أخشى عليها من الانهيار إذا ما شربت كأساً آخر من الساكي.

بالفعل، فقد صارت تجد صعوبة في فتح عينيها، ولم أكن متأكدة من أنها سمعت الرئيس قبل أن يلفظ اسمها.

ـ اسمعي يا بومبكين، إليكِ قصتي الأولى: أتيتُ هذا المساء لرؤية أصدقائي في الإيشيريكي. والقصة الثانية: منذ ثلاثة أيام دخلت سمكةٌ إلى مكتبي وهي تمشي. لا، إنسي هذه، فأنتِ قد تصدّقين أن السمكة يمكن أن تمشي. لديّ قصة أخرى: منذ ثلاثة أيام، فتحتُ درج مكتبي فقفز رجل صغير على ركبتيّ، كان يرتدي بدلةً، ثم أنشأ يغني ويرقص. أيّهما الصحيحة؟

ـ تعرف تماماً أني لن أصدق أن رجلاً خرج من درجك.

WWW.REWITY.COM

ـ اختاري قصةً، أيهما الصحيحة؟

قالت مامها:

ـ عليكَ أن تشرب كاساً من الساكي من أجل ذلك يا أيها الرئيس.

عندما سمعت بومبكين هذا الكلام، ظنّت أنها لم تختر الجواب الصحيح، فشربت نصف كأسها. بدت لي على وشك الإغماء. الرئيس هو أول من لاحظ ذلك، فأخذ الكأس من يدها. ثم قال:

ـ أنتِ لستِ قناةً يا بومبكين!

نظرت إليه نظرة غائمة، فسألها إن كانت قد سمعته فأجاب نابو:

ـ لا بدّ أنها سمعتكَ، ولكنها لا تراك.

قال الرئيس:

ـ تعالي يا بومبكين! سأرافقك إلى بيتك، وسوف أجرّكِ إذا اقتضى الأمر.

خرجا من الغرفة وهو يسندها، فبقيتُ وحيدةً مع نابو والوزير. قال نابو:

ـ إيه يا سيدي الوزير، هل أمضيتَ سهرةً جميلة؟

قال وهو يهزّ رأسه عدة مرات:

ـ سهرة جميلة جداً!

بعد ذلك، مدّ لي كأسه لكي أملأه له فانتزعه نابو من يده.

32

ـ طوال ذلك الشتاء والربيع، ظل نابو يصحب الوزير إلى جيون مرةً أو مرتين في الأسبوع. وبسبب الوقت الذي كانا يمضيانه معاً،

أمكن الاعتقاد بأن الوزير سيفهم مشاعر نابو تجاهه: مشاعر كسَارة الثلج نحو قالب من الثلج. ولكنه، إن أدرك ذلك، فإنه لم يُظهره. لم يلاحظ الوزير أشياء هامة، وكان انتباهه يصحو فقط عندما أكون جالسةً إلى جانبه أملأ له كأس الساكي. كان هذا العمل يجعل حياتي صعبةً أحياناً. إذا اهتممتُ بالوزير اهتماماً زائداً بعض الشيء، فإن نابو يغتاظ، ويحمر الجزء الأقل احتراقاً من وجهه تحت تأثير الغضب. كذلك، فإنّ وجود مامها والرئيس وبومبكين ضروريّ بالنسبة إليّ لأنهم كانوا يلطّفون الجو.

لقد أعادت معاشرة إيوامورا كين الحياة إليّ، إذ لم أرَه في حياتي بهذا المقدار. وبعد، فإن الصورة التي كنتُ قد أبدعتُها في المساء على فوتوني لم تكن قريبةً من الواقع. فحاجباه أكثر كثافةً مما تخيلت، كانا كفرشاتين صغيرتين، وفمه أكثر تعبيراً من ذكراي عنه، بدا معبّراً إلى درجة أنه كان يكابد في إخفاء مشاعره. إذا وُجِد شيءٌ يعذّبه ولا يريد أن يظهره، فإنه يضغط على شفتيه. وإذا كان تائهاً في أفكاره، فإنه يدوّر في يد، بلا كلل كأسَ الساكي، ويظهر غُضنان عميقان على زاويتي فمه. كنت أستفيد من لحظات شروده تلك لكي أتأمله، لقد أعجبتني هيئته الغامضة وهذه الغضون الواضحة، فهي دليل على جدّيته. ذات مساء، روت مامها قصةً طويلة، فتركتُ نفسي أنساق في هوايتي: النظر إلى الرئيس، ثم أحجم مخافة أن أثير شكوك أحد الحاضرين. لحسن الحظ، كان الوزير ثملاً إلى درجة أنه لم يلاحظ شيئاً. أما نابو، فكان يمضغ طعامه، دون أن ينظر إلى مامها أو إليّ. أما بومبكين، فبدا وكأنها لاحظت كل شيء. وعندما نظرتُ إليها، كانت تبتسم لي ابتسامه لا أعرف لها تفسيراً.

* * *

ذات مساء، في نهاية شهر شباط، أصيبت بومبكين بالزكام ولم تستطع أن توافينا إلى الإيشيريكي، وتأخر الرئيس في ذلك المساء، وسلّيتُ ومامها الوزيرَ ونابو طوال ساعة. قررنا أن نرقص لتزجية

WWW.REWITY.COM

وقتنا أكثر منه لتسليتهما. فنابو غير مولعٍ بالرقص، أما الوزير، فإنه لا يهتمّ بشيء.

رقصت مامها على عدة مقطوعات صغيرة راقصة، ورافقتُها على الشاميزن، ثم قلبنا الأدوار. لحظةَ أخذتُ مكاني لتنفيذ أول رقصة، انحنيتُ إلى الأمام ومروحتي في يدي تلامس الأرض وذراعي ممدودةٌ جانباً، فُتح الباب ودخل الرئيس. حييناه وانتظرنا أن يجلس. أي سرور انتابني لرؤيته! لقد رآني سابقاً على المسرح، ولكنها أول مرة يراني فيها أرقص أمامه في مكان حميم. كنتُ سأمثّل «الأوراق المرتعشة»، ولكني عدلت. سأرقص «المطر العنيف»، في هذه الرقصة تتأثر امرأة شابة لأن عشيقها يخلع سترة كيمونوه لكي يحميها من المطر: ينتمي الرجل إلى عالم خارق، يذوب جسدُه عند ملامسة الماء. غالباً ما قيل لي إني أجسّد عذابات العاشقة. كنتُ أهوي ببطء على ركبتيّ دون أن يرتعش ساقاي. في مدرسة إينوي للرقص، يُعدُّ تعبير الوجه بأهمية تعبير الذراعين والساقين. كذلك، فعليّ أن أتحكّم بنطري الذي كان يجذبه الرئيس كمغناطيس. ولكي أمنحَ رقصتي قوةً دراميةً تخيلتُ أن نابو أصبح «دانّاي»، وغصتُ في ذلك الإحساس، وصار كلُّ شيءٍ ثقيلاً من حولي كما لو أن لؤلؤاً زجاجياً تساقط من شرفةٍ وكما لو أن التاتاميات تحولت إلى رصاص. في القصة التي كنتُ أمثلها؛ هناك امرأةٌ شابة تعاني من فقدِ حبيبها الخارق، فألمي هو الذي عبّرتُ عنه. لقد كنتُ محرومةً من الرجل الذي أتمسكُ به. كما فكرتُ بأختي، وبمرارة ذلك الفراق النهائي. في نهاية الرقصة، أنهكني الحزنُ، ولكني لم أكن أتوقع أن أرى الرئيس في تلك الحالة.

كان جالساً إلى زواية الطاولة. لم يره أحدٌ سواي. بدا مستغرباً، ثمَّ ارتعش فمه، ولمعت عيناه بالدمع. نظر إلى الباب وتظاهر بحكّ أنفه، ومرر إصبعه على زواية عينه، ومسح على أجفانه وكأنها مصدر ألمه. هزّني ألمه! وفقدتُ رشدي. عدتُ إلى الطاولة، وأخذت مامها تتحدث إلى نابو. وبعد بضع دقائق، قاطعهما الرئيس قائلاً:

- أين بومبكين هذا المساء؟

- إنها مريضة أيها الرئيس!

- كيف ذلك؟ هل تقصدين أنها لن تأتي.

- لا، لن تأتي. وذلك أفضل لأنها مصابةٌ بالزكام.

عادت مامها إلى حديثها. نظرَ الرئيس إلى ساعته، ثمَّ أعلن بصوتٍ متأسفٍ جداً:

- اعذريني يا مامها! أنا أيضاً لستُ على مايرام هذا المساء.

في اللحظة التي كان فيها الرئيس يغلق الباب، لاحظ نابو ملاحظةً روحية، فضحكت مامها، أما أنا فلقد خطرت ببالي فكرةٌ أثارت شجوني: لقد حاولتُ في رقصتي أن أعبّرَ عن ألم الغياب.

بلا شكٍ لقد أصبحتُ تعيسةً عندما فعلتُ ذلك، كما إني أثّرتُ في الرئيس. هل كان معقولاً أن يفكر ببومبكين التي كانت غائبة؟ هل أبكته فكرة مرضها؟ لا! لابدَّ أني أثرتُ فيه ألماً دفيناً، ومشاعر معقدة، لذا سارع إلى السؤال عن بومبكين فور انتهاء الرقصة. وعندما علم أنها لن تأتي ذهب. لن أفاجأ إذا هام الرئيس بمامها، ولكن ببومبكين؟ كيف له أن يهيم بفتاةٍ كهذه... قليلة الرقي؟

أية امرأةٍ عاقلة كانت ستفقدُ أي أملٍ في هذه المرحلة. ذهبتُ لرؤية مُنجمي، وبحثتُ في كتابي عن علامةٍ تحثني على الانسحاب. إننا، نحنُ اليابانيين، نجتازُ عقداً من الزمن غريباً، نرى أحلامنا تتكسر. كذلك لم أكن لأفاجأ عندما يغادرني كلُ أملٍ. فقد ظنَّ كثيرٌ من اليابانين أن البلاد ستقف على رجليها في النهايةً، وذلك شيءٌ لن يحدث إذا ما استمرينا في العيش في خيبة الأمل، وفي الأنقاض والماضي. كلما قرأتُ مقالاً مشجعاً في جريدة، مثلاً قصةَ صانع قطع منفصلة للدراجة عادَ إلى عمله بعد انتهاء الحرب، كنتُ أحسُ بالطمأنينة. إذا نجحت أمتنا في الصعود من وادي الظلمات، فلماذا لا أخرج أنا من ركودي؟

* * *

WWW.REWITY.COM

في شهر آذار، وطوال فصل الربيع، كنتُ ومامها مشغولتين جداً بعرض «رقصات العاصمة القديمة» لأول مرة منذ الحرب. وكذلك كان نابو والرئيس مشغولين جداً في تلك الأشهر، ولم يصحبا الوزير إلا مرتين، ثم مرةً واحدةً. وذات مرة، في الأسبوع الأول من حزيران، طُلبتُ إلى الإيشيريكي من أجل إيوامورا إليكتريك في بداية السهرة. كنتُ مرتبطةً بالتزام منذ عدة أسابيع ولا أستطيع الإخلال به، فوصلتُ إلى الإيشيريكي متأخرة نصف ساعة، وفوجئتُ بحضور الوزير ونابو فقط.

بدا نابو هائجاً، ظننتُ أنه يلومني لأنني تركته طوال هذا الوقت وحيداً مع ساتو. كان يوقّع بأصابعه على الطاولة وهو منزعج، والوزير واقف أمام النافذة ينظر إلى الحديقة.

قال نابو، وأنا أجلس إلى الطاولة:

- يكفي يا سيدي الوزير! لقد نظرتَ كفايةً إلى الأحراج وهي تنمو! هل سنبقى طوال السهرة ننتظر أن تتفضّل وتعود إلى الطاولة؟

احتار الوزير وهزّ برأسه معتذراً، ثم عاد ليجلس إلى جانبنا على وسادة. لطالما عانيتُ في إيجاد حديث أفتحه معه، أما في ذلك المساء، فقد بدا الأمر سهلاً لأني لم أرَه منذ عدة أسابيع! قلتُ له:

- سيدي الوزير، أنتَ لم تعد تحبّني!

أصلح جلسته لكي يبدو مفاجَأً وقال:

- إيه؟

- منذ أكثر من شهر لم ترَني! هل هذا لأن نابو - سان شرير، ولم يصحبكَ كما كان يجدر به أن يفعل؟

- نابو - سان ليس شريراً!

ثم صفر عدة مرات من أنفه، قبل أن يضيف:

- بل لقد بالغتُ في طلب ذلك منه.

ـ يحرمكَ من جيون طوال شهر؟ بلى، إنه شرير، فهناك أمورٌ كثيرة لم نقم بها!

قال نابو:

ـ كشرب الساكي مثلاً!

ـ ولكنَّ نابو متذمّرٌ هذا المساء! هل سيبقى هكذا طوال السهرة؟ وبعد، أين الرئيس ومامها وبومبكين؟ ألن يأتوا؟

ـ الرئيس مشغول هذا المساء، ولا أعرف أين الأخريات، فهذه مشكلتكِ أنتِ!

بعد عدة دقائق، أحضرت خادمتان العشاء للرجلين. حاولتُ أن أجاريهما وهما يأكلان، كما حاولت أن أحثَّ نابو على الكلام، ولكنه لا يحبُّ كثرة الكلام، ثم حاولتُ أن أفتح حديثاً مع الوزير ولكنّ سحب كلمةٍ من فم هذه السمكة المشوية كان أسهل عليَّ من سحب كلمةٍ من فمه. انتهى بي الأمر إلى أن أناجي نفسي حتى أحسستُ أني أثرثر. بعد ذلك، قدمتُ لهما الساكي، فشرب نابو قليلاً، أما الوزير فكان يمدّ لي كأسه بنهم، حتى بدأت عيناه تحمرّان.

وضع نابو كأسه على الطاولة بتصميم، ثم مسح فمه بفوطةٍ وقال:

ـ كفى شرباً هذا المساء أيها الوزير! لقد حان الوقت لتعود إلى بيتك.

ـ أشعر وكأن ضيفنا بالكاد بدأ يتمتّع يا نابو ـ سان!

ـ لقد تمتّع ما يكفي. لنعِده إلى بيته باكراً ولو مرةً واحدة! هيا أيها الوزير، وستسرُّ منكَ زوجتك!

ـ أنا لستُ متزوّجاً.

ولكنه كان قد همّ بلبس جواربه استعداداً للرحيل.

شيعتهما إلى الباب، وساعدتُ نابو على انتعال حذائه.

كانت سيارات الأجرة قليلة بسبب تقنين الوقود. أشارت إحدى

الخادمات لريكشو، وساعدتُ الوزير على الصعود إليها. استغربتُ أنه لم يقل إلى اللقاء هذه المرة. بقي نابو في الممر ينظر إلى الليل بوجهٍ مكفهرّ كما لو أنه يرى غيوماً تتكدّس في تلك السماء الصافية. قلت له بعد أن ذهب ضيفه:

ـ ماذا يجري مع الوزير يا نابو ـ سان؟

نظر إليّ نظرة ازدراء، ثم عاد إلى بيت الشاي. لحقت به إلى الصالون، فوجدته يضرب بكأسه على الطاولة. ظننتُ أنه يريد أن يشرب، فقدّمتُ له الساكي. تجاهلني، وقد فرغتِ الزجاجة على أية حال. انتظرت طويلاً وأنا أظنّ أن لديه ماسيقوله لي، ولكن في النهاية، أنا من تكلّم:

ـ لديكَ غضنٌ كبير بين عينيكَ يا نابو ـ سان!

استرخى قليلاً، فزال الغضن، ثم قال:

ـ تعرفين أني لم أعد شاباً.

ـ ماذا تقصد؟

ـ بعض الغضون أصبحت نهائية، ولن تزول لأنكِ تطلبين زوالها.

ـ ثمة غضون جيدة وغضون سيئة، لا تنسَ ذلك يا نابو ـ سان!

ـ وأنتِ أيضاً، لم تعودي شابةً، تعرفين ذلك.

ـ والآن، تشتمني! إن مزاجكَ سَيِّءٌ أكثر مما كنتُ أظن. لماذا لم يبْقَ كحول؟ إنكَ في حاجة إلى كأس.

ـ أنا لا أشتمك، بل أؤكد حقيقة.

ـ هناك غضون جيدة وغضون سيئة، كما هناك وقائع هامة ووقائع تافهة.

وجدتُ خادمةً، فطلبتُ إليها أن تأتي بصينية عليها الويسكي والماء وأخطبوط مجفف لقضمه، فبالكاد لمس نابو عشاءه. وصل

www.rewity.com ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

العشاء، فقدمت له الويسكي وأضفت الماء ووضعته أمامه. قلت له:

ـ ها هو، عُدَّهُ دواءً واشربه!

شرب جرعةً، جرعة صغيرةً جداً، فقلتُ بإصرار:

ـ اشرب الكأس كلها!

ـ سأشرب بإيقاعي أنا!

ـ عندما يصف طبيبٌ دواءً لمريض، فعليه أن يتناوله. والآن اشربها!

أفرغ كأسه دون أن ينظر إليّ، فسكبتُ له أخرى، وقلتُ له أن يشربها فقال:

ـ أنتِ لستِ طبيباً، وسأشرب على إيقاعي أنا.

ـ هيا يانابو ـ سان! كلما فتحتَ فمكَ؛ تدهورتْ حالك. وكلما اشتد المرض؛ ضاعفت الجرعة.

ـ لن أشرب، إني أخاف أن أشرب بمفردي.

ـ عظيم جداً، سأشرب معك.

وضعتُ قطعاً من الثلج في إحدى الكؤوس، ناولتها له ليملأها لي. أخذ كأسي وهو يبتسم ابتسامةً خبيثةً، ثم صبّ فيها ضعف ما صببتُ في كأسه، وأضاف دفقة ماء. تناولتُ كأسه وأفرغتها في السلطانية الموضوعةِ وسط الطاولة، ثم ملأتها بمقدار ما ملأ لي كأسي من الويسكي، وأضفتُ دفقة صغيرةً كعقوبة له.

بينما كنا نشرب، كنتُ مقطّبة، وبإمكاني أيضاً أن أشرب ماء القناة. أفرحَتْه تقطيبتي، فقلتُ له:

ـ لا أفهم ما وضعكما أنتَ والوزير في حالة كهذه.

ـ لا تكلّميني عن هذا الرجل! لقد بدأتُ أنساه، وها أنتِ تذكّرينني به! أتعرفين ماذا قال لي منذ قليل؟

ـ نابو ـ سان! أنا هنا لكي أرفع من معنوياتك، وسأجعلكَ تشرب شئتَ أم أبيت. منذ أشهر وأنتَ ترى الوزير يثمل، والآن أتى دورك.

نظر إليّ نظرةً سيئةً. أمسك بكأسه كمحكوم يُساق إلى كتيبة الإعدام. تأمّل السائل العنبري قبل أن يشربه. وضع كأسه على الطاولة، ثم دعك عينيه كما ليرى بطريقة أفضل. ثم قال:

ـ لدي ما أقوله لكِ يا سايوري، وعليكِ أن تحفظيه على أية حال. في الأسبوع الماضي تحدّثتُ أنا والوزير قليلاً مع معلّمة الإيشيريكي، وسألناها إذا كان بإمكان الوزير أن يصبح «دانَاكِ».

ـ الوزير! أنا لا أفهم يا نابو ـ سان. أهذا ماتريده؟

ـ بالطبع لا! ولكنّ الوزير ساعدنا مساعدةً عظيمة، ولم يكن لديّ من خيار. فحكومة الاحتلال ستصدر قريباً الحكم النهائي ضد إيوامورا إليكتريك وسيُحجَزُ على الشركة، وينتهي بنا الأمر أنا والرئيس إلى أن نصبح بنّاءَيْن! ولن يعود في مقدورنا أبداً أن نعود إلى عالم الأعمال. ومع ذلك، فقد قال لهم الوزير أن يعيدوا فتح قضيتنا، وأقنعهم أنه عاملنا بظلم، وتلك هي الحقيقة.

ـ ورُغمَ كل هذا، نابو ـ سان يشتم الوزير، يبدو لي أنه...

ـ يستحقّ أن يُشتم! أنا لا أحبّ هذا الرجل يا سايوري. وكونه ساعدني، فذلك لا يغيّر من الأمر شيئاً.

ـ فهمت. سوف أُوهَبُ للوزير لأنه...

ـ لن توهبي إلى الوزير! وعلى أية حال، ليس لديه الوسائل ليكون «دانّاكِ». فقط جعلته يعتقد أن إيوامورا إليكتريك ستدفع، وهذا ما لن نفعله بكل تأكيد. منذ البداية، كنتُ أعرف أن ليس لديه أية فرصة. ولقد خاب أمله كثيراً. خلال جزء من الثانية أشفقتُ عليه.

ما قاله نابو لم يكن مضحكاً، ومع ذلك لم أستطع الامتناع عن الضحك. فقد تصوّرت الوزير ينحني فوقي بفكّه المتقدّم.

ـ أهكذا تجدين كلامي مضحكاً؟

ـ اعذرني يا نابو ـ سان! ولكنّ تصوُّر الوزير...

ـ لا أريد أن أتصوّر الوزير! لقد كانت المفاوضات مع معلّمة الإيشيريكي صعبة بحضوره.

WWW.REWITY.COM

أعددتُ كأساً آخر من الويسكي لنابو وواحداً لي، وهو آخر ماكنتُ أرغب فيه. لقد أخذت الأمور تتضح. رفع كأسه، فوجب عليّ أن أشرب معه، ثم مسح فمه بفوطته، وتمتم:

ـ الحياة في هذا العصر صعبةٌ جداً يا سايوري!

ـ كنتُ أظن أننا نشرب لنرفع من معنوياتنا يا نابو ـ سان!

ـ إننا نعرف بعضنا، أنا وأنتِ، منذ زمن طويل جداً، خمسة عشر عاماً، صحيح؟ لا، لا تجيبي. لدي كلام سأبوح لكِ به، فاسمعيني بصمت. منذ زمن طويل وأنا أريد أن أقول لكِ. ولقد آن الأوان. اسمعيني لأني لن أعيد كلامي: أنا لا أحبّ الجيشاوات كثيراً، ولكني لطالما وجدتكِ فوق التقويم.

انتظرت أن يكمل كلامه، لكنه لم يضف شيئاً، فسألته:

ـ أهذا ما كان نابو ـ سان يريد قوله؟

ـ أنتِ لا تفهمين. كان عليّ أن أفعل ألف شيء من أجلكِ! أن أشتري لكِ ألف جوهرة!

ـ لقد قدّمتَ لي جوهرة، ولطالما كنتَ لطيفاً معي، في حين أنكِ لستَ كذلك مع البقية.

ـ كان عليّ أن أغمركِ بالهدايا! ولكنْ عليّ أن أقول لكِ شيئاً آخر أعاني في شرحه لكِ. اسمعي: لقد تصرّفتُ معكِ كغبي. لقد ضحكتِ لفكرة أن يكون الوزير «دانّاكِ»، ولكن انظري إليّ: ما أنا إلا أكتع، وجلدي ما هو إلا، كيف يسمّونني، السيد سحلية؟

ـ لا تقل هذا يانابو ـ سان...

ـ يجب أن أقوله! لقد انتظرت سنوات! كان عليّ أن أصبر طوال الوقت الذي استغرقته التسوية التافهة مع الجنرال. في كل مرةٍ كنتُ أتخيّلكِ معه... أوه، لا أريد حتى التفكير بذلك. وهذا الوزير السخيف يريد أن يصبح «دانّاكِ»! أتعرفين ما قاله لي هذا المساء؟ إنه الأسوأ! بعد أن عرف أنه لن يكون «دانّاكِ»، بقي جالساً نصف ساعة ككومة قمامة، ثم قال: «لقد وعدتَني أن أصبح «دانّا» سايوري»، وأنا لم

أعده بشيء! أجبته:«لقد فعلنا أقصى ما نستطيع يا سيدي الوزير، ولكن أخفقنا». فطلب إليّ شيئاً مقيتاً: «ألا يمكنكَ أن تسوّي الأمر ولو مرةً واحدةً فقط»؟ هدرت في وجهه:«أسوّي ماذا؟ أن تصبح «دانّا» سايوري مرة واحدة! ليلةً واحدةً؟»، فأجاب نعم بهزّة من رأسه! فقلت له: «اسمعني جيداً يا سيدي الوزير، لقد كان الأمر عسيراً في أن نذهب ونرى معلمة الإيشيريكي وأن نقترح عليها أن يكون رجلٌ مثلك «دانّا» لسايوري، امرأة من هذه الطبقة! لقد قبلتُ فقط لأني أعرف أن ذلك لن يكون، ولكن إذا كنتَ تظن...

ـ لم تقل ذلك!

ـ بالطبع قلته! «ولكن إذا كنتَ تظن أني أستطيع أن أمكّنكَ مما تريد ولو جزءاً من الثانية...على أية حال، هي ليست ملكي، ولا أستطيع أن أعطيكَها. فكيف تفكّر أني سأطلب إليها أمراً كهذا!».

ـ كلي أمل ألا يكون الوزير قد أساء فهم ذلك يانابو ـ سان، بعد كل ما فعله من أجل إيوامورا إليكتريك.

ـ لا تظني أني ناكر للجميل. لقد ساعدَنا الوزير لأن عمله يقوم على مساعدة الناس. لقد عاملته معاملةً جيدة مؤخّراً، وسأبقى أعامله هكذا. أتخلّى عما أنتظره منذ أكثر من عشر سنوات، ولصالحه! تصوّري لو أني أتيتكِ مقدّماً طلبه! وأنكِ ستجيبينني: «حسنٌ يانابو ـ سان، سأفعل هذا من أجلك»!

ـ أرجوك قل لي كيف أردّ على طلبٍ كهذا؟

ـ قولي لي بكل بساطة إنكِ لن تفعلي شيئاً من هذا القبيل أبداً.

ـ إني مدينةٌ لكَ بالكثير يانابو ـ سان! فإذا طلبتَ مني خدمةً لا أستطيع أن أرفضها بسهولة.

ـ هذا جديد! هل تغيّرتِ إلى هذا الحد يا سايوري، أم أني لم أكن أعرفكِ جيداً؟

ـ لطالما فكّرتُ أن نابو ـ سان له فيّ رأي رفيع الشأن.

WWW.REWITY.COM

ـ أنا لا أسيء الحكم على الناس. إذا لم تكوني المرأة التي أظنها، فالعالم المحيط بي ليس كما أظنه. هل تستطيعين حقاً أن تفكّري بتسليم نفسكِ إلى رجل مثل الوزير؟ ألا ترين أن هناك أشياءً يمكن القيام بها وأخرى لا يمكن القيام بها؟ أم أنكِ عشتِ في جيون أكثر مما يجب؟

ـ أوه يا نابو ـ سان... منذ سنوات لم أرَكَ بهذا الهياج...

بكل تأكيد لم يكن ذلك ما يجب أن أقوله: لقد احمرّ من الغضب وضرب الكأس على الطاولة ضربةً قوية جعلتها تنكسر وتدحرجت قطع الثلج على الغطاء. أدار يده، فرأيت خطاً من الدم يسيل من راحته.

ـ أوه يا نابو ـ سان!

ـ أجيبيني!

ـ لا أستطيع أن أفكّر بهذا الآن، سأذهب وآتي بشيء أنظّف به يدك.

ـ أتهبين نفسكِ للوزير حتى لو أني أنا من طلب إليكِ ذلك؟ إذا كنت قادرةً على فعل شيء من هذا القبيل، فغادري هذه القاعة حالاً، ولا تكلّميني أبداً!

كيف وصلنا إلى هذه الحال؟ مهما يكن الأمر، فليس أمامي سوى جوابٍ واحدٍ. كنتُ أريد أن أعتني بيده، فقد أخذ دمه يتقطّر على الطاولة. كان ينظر إليّ متفرّساً، فلم أجرؤ على الإيتاء بحركة لكني قلت:

ـ لن أفعل شيئاً كهذا.

ظننتُ أن ردّي سيهدّئ من روعه. خطأ، فقد تابع النظر إليّ نظرات شرّيرة، ثم قال أخيراً:

ـ في المرة القادمة أجيبيني دون أن أضطرّ إلى جرح يدي!

هرعتُ للبحث عن معلّمة البيت، فوصلت مع عدة خادمات ومعهنّ إناء مليء بالماء وفوط. رفض نابو أن تستدعي الطبيب إذ

WWW.REWITY.COM

إنَّ الجرح ليس غائراً كما ظننت. بعد ذهاب المعلّمة، بقي صامتاً صمتاً غريباً. حاولت فتح حديث معه ولكن بلا جدوى، فقلت:

ـ في البداية، لم أنجح في تهدئتك، والآن أخفق في حملك على الكلام. هل يجب عليّ أن أسقيكَ أكثر أم إن الكحول هو السبب؟ ـ لقد شربنا ما فيه الكفاية يا سايوري، وقد آن الأوان أن تجلبي لي ذلك الحجر.

ـ أي حجر؟

ـ الحجر الذي أعطيتكِ إياه في الخريف الماضي. اذهبي وهاتيه!

جمّدني هذا الأمر، فنابو يريد أن يصبح «دانّايَ».

ـ لقد شربتُ كثيراً، ولاأعرف إن كنتُ أستطيع المشي! هل يتكرم نابو سان وينتظر إلى المرة القادمة؟

ـ ستأتين به هذا المساء! وإلا فلماذا بقيتُ بعد ذهاب الوزير؟ اذهبي وهاتي الحجر، وسأنتظركِ هنا!

فكّرتُ أن أرسلَ إحدى الخادمات بدلاً عني لتأتي بقطعة الإسمنت. ولكني لن أستطيع أن أشرح لها أين وضعتها. مشيتُ في الممر وانتعلتُ حذائي، ثم أخذتُ أجر قدميَّ في شوارع جيون، على الأقل هكذا كان انطباعي، بسبب حالة السُكر المتقدمة التي كنتُ فيها.

وصلتُ إلى الأوكيَا وصعدتُ إلى غرفتي. تناولتُ قطعة الإسمنت عن أحد رفوف خزانتي، وكانت مغلّفةً بعلبةٍ حريرية. أسقطتُ العلبة، ولم ألتقطها دون أن أعرف لماذا. خرجتُ من غرفتي، فوجدتُ تاتي بانتظاري على السفرة، إذ يبدو أنها سمعت خُطاي عند صعودي. سألتني لماذا أحملُ الحجر بيدي، فقلتُ:

ـ سوف أعطيها لنابو ـ سان. امنعيني من الذهاب إليه ياتاتي أرجوكِ!

ـ أنتِ ثملةٌ يا سايوري! ماذا جرى لكِ؟

ـ عليّ أن أُعيدَ إليه هذا الحجر. وكأني بهذا أوقّع على قرار موتي. امنعيني أرجوك...

ـ ثملةٌ ومتباكية! أنتِ أسوأ من هاتسومومو! لايمكنكِ أن تخرجي وأنتِ في هذه الحال.

ـ إذاً، اتصلي بالإيشيريكي، واطلبي منهم أن يخبروا نابو ـ سان أني لن أستطيع المجيء. أتريدين؟

ـ لماذا ينتظر نابو ـ سان أن تأخذي إليه هذا الحجر.

ـ لاأستطيع أن أقولَ لكِ. لاأستطيع...

ـ لابأس. ولكن إذا كانَ ينتظركِ، فلا بدَّ أن تعودي إليه.

أمسكتْ بي تاتي من ذراعي وقادتني إلى غرفتي. جففت دموعي بفوطةٍ، وأعادت إصلاح مكياجي على ضوء مصباحٍ كهربائي. كنتُ خائرة القوى تماماً. أمسكت بذقني لتمنع رأسي منَ السقوط جانباً، ثمَّ أمسكتهُ بيديها لتفهمني أن عليَّ ألا أتحرك.

ـ أتمنى ألا أراكِ ثانيةً في هذه الحال أبداً ياسايوري! الله وحده يعرف ماحلَّ بكِ.

ـ أنا غبية يا تاتي!

ـ لقد تصرفتِ بغباء، نعم، أرجو ألا تكوني قد أفسدتِ ارتباط نابو بكِ، لأن ذلك سيُغضِبُ الأم.

ـ ليس بعد. ولكن إذا كان لديكِ طريقة تستطيع أن تفكَّ ارتباطه بي...

ـ لايجدرُ بكِ أن تقولي مثل هذا الكلام.

أنهت مكياجي دون أن تضيفَ كلمةً واحدة.

عدتُ إلى الإيشيريكي وأنا أحملُ قطعة الإسمنت بيديَّ. لاأعرفُ ما إذا كانت ثقيلةً حقاً، أم إن الكحولَ أثقلَ ذراعيَّ، ولكني وصلتُ خائرة القوى تماماً إلى الصالون حيث كان نابو ينتظرني. هل سأتمكن من ضبط نفسي إذا لمحَ ولو قليلاً إلى أن أصبح عشيقته؟

وضعتُ الحجر على الطاولة، فتناوله بيده المعصوبة. ثمَّ قال:

ـ أتمنى لو أني لم أعدكِ بجوهرةٍ بكبرِ هذا الحجر. أنا لستُ

WWW.REWITY.COM

كثيرَ الغنى، كما إن بعضَ الأمور التي كانت مستحيلةً بالأمس غدت واردةً اليوم.

انحنيتُ وحاولتُ ألا أبدوَ تعيسةً. لم يكن نابو في حاجةٍ إلى توضيح فكرته.

33

في ذلكَ المساء، كنتُ ممددةً على فوتوني والغرفةُ تترنح من حولي. قررتُ أن أكونَ بدأب صيادٍ يصطادُ السمكَ بشبكته بلا كللٍ. في كل مرةٍ كانت تخطرُ ببالي أفكارٌ تتعلق بالرئيس كنتُ أطردها فكرةً إثرَ أخرى، حتى لم يبقَ منها فكرة. نظرياً كان ذلك أسلوباً ممتازاً. عملياً لم يفدني في شيء. عندما تتولد فكرةٌ متعلقةٌ بالرئيس لا أستطيع أبداً أن أجتثها، إذ سرعان ما تأخذ حجمها وسرعتها الجنونية، وتقودني تحديداً إلى حيثُ لا أريد. قلتُ لنفسي مراراً: أنا لاأفكرُ بالرئيس، بل بنابو. تخيلتُ نفسي وأنا ألتقي بنابو في مكانٍ ما في كيوتو. سرعان ما فسدت الأمور: كنتُ أرى نفسي في مكانٍ حلمتُ فيه بأني ألتقي بالرئيس. فكرةُ الرجل المحبوب تأسرني من جديد.

حاولتُ أن أنساه طوال عدة أسابيع. أحياناً، لمَّا أنجح في عدم التفكير فيه لعدة ساعات؛ أرى وكأن حفرةً بلا قرار قد انفغرت في داخلي. انعدمت شهيّتي، ولم أعد أستطيع أن أبلع حتى الحساء الذي كانت تحمله إليّ إيتسوكو الصغيرة في آخر المساء. في المرات القليلة التي استطعتُ فيها تركيز أفكاري على نابو؛ أحسست أني مخدَّرةٌ وكأني فقدت أحاسيسي كلها. وعندما أضع مكياجي؛ أحسّ برأسي يتهاوى ككيمونو معلّق على عصا، فتقول لي تاتي: «لقد صرتِ طيفاً». كنتُ أذهب إلى احتفالات وولائم، ولكني أبقى جالسةً بصمت ويداي على ركبتيّ.

كنتُ أعرف أن نابو يريد أن يصبح «دانّاي» وأنتظر سماع هذا الخبر يومياً، ولكنّ الأيام مرت دون أن يظهر. ذات ظهيرةٍ من شهر حزيران، بعد نحو شهر من إعادة الحجر إليه، دخلت الأم إلى الصالون ووجدتني أتناول طعامي. أرتني مقالاً في جريدة عنوانه: «إيوامورا إليكتريك تتلقى قرضاً من ميتسوبيشي». ظننتُ أني سأقرأ أخباراً عن نابو والرئيس، ولكني لم أجد إلا معلومات معقّدة: الشركة تعود إلى السوق تحت رعاية سلطات الاحتلال. صار بإمكانها من جديد أن توقّع عقوداً، وتقترض المال، ثم كانت عدة فقرات عن القرض ومعدّلات الفائدة. كذلك تم الحديث عن الموافقة على قرض إلى الشركة من قبل بنك ميتسوبيشي في اليوم السابق. كان مقالاً وعراً ومليئاً بالأرقام والمصطلحات المالية. وبعد أن انتهيت من قراءته، نظرتُ إلى الأم التي كانت جالسة في مواجهتي، فقالت:

ـ لقد دار الحظ في صالح إيوامورا إليكتريك. لماذا لم تقولي لي شيئاً؟

ـ بالكاد فهمتُ ما قرأته تواً!

ـ من غير المستغرب أن يظهر نابو توشيكازو في الآونة الأخيرة! إنه يعرض أن يصبح «دانّاكِ». فكرتُ في إبعاده. من يقبل «دانّا» مستقبله غير واضح؟ أفهم لماذا أنتِ ساهمة منذ شهر. اطمئني، هذه المرة سيصبح «دانّاكِ»!

أبقيت عينيّ على غطاء المائدة كفتاة حسنة التربية. كنتُ غير متحمّسة، فقالت لي الأم:

ـ لا تكوني بليدةً عندما أكلّمكِ عن وضع رجل مثل نابو في سريرك! ربما أنتِ مريضة، سوف أرسلكِ إلى الطبيب فور عودتكِ من أماني.

الأماني الوحيدة التي سمعتُ بها هي جزيرة صغيرة قريبة من أوكيناوا. لم أصدّق أن هذا المكان هو ما كانت تقصده الأم. تبيّن أن معلّمة الإيشيريكي قد تلقّت هاتفاً من إيوامورا إليكتريك في الصباح نفسه، مفاده أن مامها وبومبكين وأنا وجيشا رابعة، لا تذكر الأم

اسمها، مدعوات لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في أماني، وأننا سننطلق بعد ظهر يوم الجمعة. قلت:

ـ هذا سخف... نهاية الأسبوع في أماني! إن الطريق إليها بالزورق يستغرق نهاراً.

ـ لا، لقد استأجرت الشركة طائرة.

تراجعتُ وكأن دبوراً لسعني فأنساني همومي كلها. قلت:

ـ لا أستطيع أبداً أن أركب الطائرة!

ـ إذا ما وجدتِ نفسكِ في طائرة ستقلع فستكونين مجبرةً على الطيران!

يبدو أنها وجدت نفسها مضحكةً لأنها ضحكت إحدى ضحكاتها الرنانة.

* * *

كان الوقود نادراً، ولم يكن بإمكاننا ركوب الطائرة بشكلٍ لائق. كذلك قرّرتُ ألا أقلق. دام ذلك حتى اليوم التالي. ثم تحدّثتُ مع معلّمة الأيشيريكي، فقالت: هناك ضباط أمريكيون متمركزون في جزيرة أوكيناوا يستقلّون الطائرة إلى أوساكا عدة مرات أسبوعياً. تأتي الطائرة فارغةً، ثم تعود بالضبّاط بعد عدة أيام. وسنستفيد من هذه الطائرة الفارغة المسافرة إلى أوكيناوا. ستكون فرصةً للتعرّف إلى أماني. ومن ناحية أخرى، سوف نمضي العطلة الأسبوعية في نبع مياه حارة دون أن نخاف على حياتنا. آخر ماقالته لي معلمة الإيشيريكي: «أنا مسرورة بأنكنّ أنتنّ من سيستقلّ الطائرة وليس أنا»!

صباح الجمعة، استقلّينا القطار إلى أوساكا. بالإضافة إلى السيد بيكو الذي رافقنا حتى المطار واهتمّ بحقائبنا، حوت مجموعتنا الصغيرة أربع جيشاوات: مامها وبومبكين وجيشا أكبر سناً تدعى شيزوي وأنا. لقد أتت هذه من حي بونتوشو. كان شعرها أشيب وتضع نظارة ثخينةً تجعلها أكبر سناً. والأسوأ من هذا: كانت

www.rewity.com ARAYAHEEN
WWW.REWITY.COM

ذقنها مشقوقةٌ في وسطها مشكّلةً نهدين. أمضت الجزء الأكبر من الرحلة في النظر من النافذة. وبين وقت وآخر، كانت تفتح سحّاب حقيبة يدها وتخرج سكاكر وهي تنظر إلينا باحتقار.

ذهبنا من محطة أوساكا إلى المطار في باص صغير قذر جداً يستخدم الفحم كوقود. دامت الرحلة ساعةً، أنزلونا بعدها أمام طائرة مفضّضة لها مروحة على كل جناح. لقد أقلقتني العجلة الصغيرة التي يرتكز عليها ذيل الطائرة أيما قلق. صعدنا على متنها، فمالت جانباً بشكل خطير حتى ظننتُ أنها انكسرت.

وجدنا الرجال جالسين في آخر الطائرة يتكلّمون عن الأعمال. بالإضافة إلى نابو والرئيس كان هناك رجل مسن، عرفتُ فيما بعد أنه المدير الفرعي لبنك ميتسوبيشي، وإلى جانبه جلس شاب في الثلاثين من عمره له ذقن كذقن شيزوي ونظارته بثخانة نظارتها. كانت شيزوي عشيقة مدير البنك منذ زمن طويل وهذا الشاب هو ابنهما.

جلسنا في مقدمة الطائرة وقد تركنا الرجال لحديثهم الممل. هدرت الطائرة وارتعدت. نظرت عبر النافذة، فرأيت المروحة الكبيرة ترتجف، ثم أخذت شفراتها تدور بأقصى سرعة على بعد إصبعين من وجهي، وكانت هذه السيوف الفضية تشق الهواء بطنين مرعب. هل ستشقّ بطن الطائرة وتشقّني نصفين؟ لقد أجلستني مامها بجانب النافذة ظناً منها أن ذلك سيهدّئ من روعي بعد أن نطير. وعندما رأت تلك المروحة الرهيبة تدور بسرعةٍ جنونية؛ رفضت أن تبادلني مكانها. هدرت المحركات وتقدّمت الطائرة وهي ترتجّ هنا وهناك. أزّت المحركات ومال الجناح إلى الخلف، فسمعنا صوتاً أصمّ، وبدأنا نرتفع في الهواء. وبعد أن صارت الأرض بعيدة جداً عنا، قيل لي إننا سنجتاز سبعمئة كيلومتر وإن الرحلة ستستمرّ أربع ساعات! عندما سمعتُ ذلك، صعد الدمع إلى عينيّ فانفجر صحبي ضاحكين.

سحبتُ الستائر وحاولت أن أهدأ بقراءة إحدى المجلات. بعد نصف ساعة، وبعد أن نامت مامها بجانبي، اقترب نابو في الممر وسألني بصوت خافت لئلا تستيقظ مامها:

- هل أنتِ بخير ياسايوري؟

- لم يهتمّ بي نابو - سان بهذا الشكل قطُّ، لا بدّ أن مزاجه رائق.

- لم يكن المستقبل قطُّ بهذا الإشراق.

تحرّكت مامها في مقعدها، فسكت نابو. ذهب في الممر إلى المرحاض، وقبل أن يفتح الباب ألقى نظرةً إلى الرجال الجالسين في آخر الطائرة. خلال لحظة، بدا لي ثلاثة أرباع نظره، ثم نظره كله وقع عليّ. وماذا لو رآني قلقةً؟ ذلك احتمال قليل، إنه لا يعرفني جيداً. ولكن، كيف له أن يفهمني؟ في حضوره، لم أكن قطّ على مايرام. زبونٌ واحد من زبائني عرفني باسمي عندما كنتُ طفلةً صغيرة: شيو، هو الرئيس. كانت تلك أول مرة أفكّر بذلك. كيف كان نابو سيتصرّف لو أنه رآني أبكي على ذاك الجدار في تلك الظهيرة؟ بلا شك، كان سيتابع طريقه، وكان ذلك أسهل بالنسبة إليّ! ما كنتُ سأهيم بالرئيس طوال هذه الليالي، أو أقف في محلات التجميل لأشم رائحة التالك التي تذكّرني برائحة بشرته، ولمّا ركبني الوهم ورحتُ أتخيّل نفسي في أماكن مختلفة. إذا ما سألتني لماذا كنتُ أشتهي هذا الرجل لأجبتك: لماذا الكاكي الناضج لذيذ إلى هذا الحد؟ ولماذا يصدر الخشب دخاناً عندما يحترق؟

لماذا لم أستطيع الامتناع عن التفكير بالرئيس؟

لا بدّ أن ألمي ظهر على وجهي. فُتح باب المرحاض وانطفأ النور، لم يكتشف نابو حالتي النفسية! أرحتُ رأسي على النافذة، متظاهرةً بالنوم. فتحتُ عينيّ بعد أن مرّ. كان رأسي قد أزاح الستارة، فنظرتُ إلى الخارج لأول مرة بعد الإقلاع، فرأيتُ في النور المنعكسَ المحيطَ بلونه الكحلي المعرّق بالزمرّد كالشكلات التي تضعها مامها في شعرها. ما ظننتُ أن هناك بقعاً خضراء في البحر. ففي يورويدو، ومن أعلى الجرف الصخري كان يبدو لي البحر رمادياً، أما هنا فقد كان محدوداً بخط مستقيم كخيط من الصوف يفصله عن السماء. أنعشني ذلك المنظر، حتى القرص الغائم للمروحة بدا جميلاً، ولاح الجناح المفضّض زاهياً! لقد رأيتُ هذه

WWW.REWITY.COM

الرموز مرسومة على القاذفات الأمريكية. من الغريب أن نكون في تلك الطائرة لو فكرنا بحال العالم قبل خمس سنوات. فهم ونحن أعداء تطاحنًا في حرب ضروس. أما الآن؟ لقد تخلّينا عن ماضينا، وذلك أمر كنتُ أفهمه تماماً، وقد فعلته بنفسي. آه لو أستطيع فقط أن أتخلّى عن مستقبلي...

خطرت ببالي صورة مخيفة: رأيتُ نفسي أقطع الصلة القدرية مع نابو، ورأيته يسقط في المحيط.

لم تكن تلك فكرةً في الهواء ولا حلم يقظةٍ استيقظ فجأةً. لقد فهمتُ كيف يجب أن أتصرّف. لن ألقي بنابو في البحر حقاً، وإنما فهمتُ كيف يجب أن أفعل لأضع حداً لصلتي به. فما أردت أن أفسد علاقتي معه، ولكن يبقى نابو عقبةً كأداء في طريق مساعيّ لكسب قلب الرئيس، في هذه الحالة سأستطيع أن أخرجه على طوره. كما حدث ذلك المساء في الإيشيريكي، عندما استطعتُ أن أجعله يجرح يده. إذا استطعتُ أن أهب نفسي لرجل مثل الوزير، فلن يكلّمني بعد ذلك أبداً.

عندما فكّرتُ بذلك، أصابتني الحمى وأخذ جسمي ينضح عرقاً. من حسن حظي أن مامها نائمة إلى جانبي، وإلا فإنّها ستتساءل عما يحدث عندما تراني ألهث والعرق يتصبّب من جبيني. ولكن هل سأستطيع أن أفعل ذلك حقاً؟ أنا لا أتكلّم عن إغواء الوزير، فذلك أمر سهل عليّ سهولة الذهاب إلى طبيب لأخذ لقاح. سأشيح بوجهي طوال مدة العملية، وسينتهي الأمر بسرعة. ولكنْ، هل أستطيع أن أواجه نابو؟ أية طريقةٍ شنيعة للرد على جمائله! إنه «دانّا» أحسَد عليه مقارنةً بالزبائن الآخرين. ولكن، هل أستطيع أن أعيش وجوداً أرى فيه آمالي كلها تندحر؟ وإلى الأبد؟ منذ أسابيع وأنا أحاول أن أقنع نفسي بأني سأستطيع ذلك، ولكن هل سأستطيع؟ لقد توصّلتُ إلى فهم قسوة هاتسومومو وخبث غراني. حتى بومبكين التي بالكاد بلغت الثلاثين من عمرها، فإنها تعيش حياة خائبة. أملي، وحده هو من وفّره لي، فهل سأقترف فعلاً منكراً لكي أتابع حلمي؟ ليست المسألة هي إغواء الوزير، بل خيانة نابو.

طوال بقية الرحلة، أخذتُ أقلّب هذه الأفكار في رأسي. لم أصدّق قطّ أني سأستطيع أن أتآمر هكذا وأحسب وأخطّط. كما في لعبة الغو، توقّعتُ عدة أحداثٍ مسبقاً: سأنفرد بالوزير في الفندق، لا ليس في الفندق، في مكان آخر، وسأرتّب الأمور بحيث يفاجئنا نابو، وربما يكفي أن يخبره أحد. تخيّل كم كنتُ منهكةً في آخر الرحلة! لابدّ أني بدوت قلقةً وأنا أنزل من الطائرة، لأن مامها لم تكفّ عن طمأنتي بعد انتهاء الرحلة، إذ قالت لي إن كل شيء على ما يرام.

وصلنا إلى الفندق قبل مغيب الشمس بساعة. أعجب الآخرون بالغرفة التي سننزل فيها، وتظاهرتُ بأني في قمة الفرح، بينما كنتُ مضطربة! كانت تلك الغرفة أوسع من أي صالون في الإيشيريكي، وقد فُرِشَتْ على الطراز الياباني، تاتاميات وتلبيس للجدران. وهناك شرفة مزجّجة تطلّ على الحديقة الاستوائية، كانت بعض الأوراق فيها أطول مني! وممر مغطّى يجتاز الحديقة ليصل إلى أحد الأنهار.

أخرجنا أمتعتنا واستعدّينا للاستحمام. قدّم لنا الفندق حواجز قابلة للطي، تعرّينا خلفها ولبسنا ثياب الحمّام القطنية. مشينا في الممرات المغطّاة بين النباتات حتى وصلنا إلى حوض واسع فيه مياه حارّة في الطرف الآخر من الفندق. كان مدخل الرجال مفصولاً عن مدخل النساء بحاجز، كذلك هي الأدواش المبلّطة. ولكن ما إن نطفو على مياه النبع الحار، بعيداً عن الحاجز، حتى يلتقي الرجال بالنساء. لم يكفّ مدير البنك عن استفزازنا، أنا ومامها. كان يطلب إلينا أن نلتقط حصاة أو قشة عند طرف الحوض، فقد أراد أن يرى عرينا. في تلك الأثناء، كان ابنه يتحدّث باستفاضة مع بومبكين. ولم يكن ذلك مستغرباً، فقد بدت مؤخرتها الضخمة طافيةً على سطح الماء بلا اكتراث.

ربما استغربتَ أن نسبح معاً وأن ننام في الغرفة نفسها. ذلك أن الجيشاوات قد يفعلن ذلك ببراءة مع زبائنهنّ المفضّلين، على الأقل في أيامنا. والجيشا التي تحرص على سمعتها، كانت تحاذر أن تُضبَط مع رجل إلا إذا كان «دانّاها». أما أن نسبح كمجموعة في نبع للمياه الحارة، تستر مياهه العكرة أجسامنا، فذلك أمر مختلف.

WWW.REWITY.COM

أما بالنسبة إلى النوم في غرفة واحدة، لأننا ندعو ذلك «زاكوني» في اللغة اليابانية، والكلمة تعني: «النوم كالأسماك». تخيّل أسماك الإسقمري وهي في سلة.

قلت إن السباحة معاً أمر بريء، ولكن هذا لا يمنع أن تتوه يدٌ بين وقتٍ وآخر. فكّرت بذلك وأنا أغوص في تلك المياه. لو كان نابو سيفعل ذلك، فسيقترب مني، وسنتكلّم قليلاً ثم يعمد إلى لمس ردفي أو أي جزء من جسدي. سأطلق صرخةً فيضحك، ثم ينتهي كل شيء. ولكنه لم يكن مستفزّاً، بل أمضى نحو ربع ساعة في الحوض وهو يتحدّث مع الرئيس. كان يجلس على صخرة ورجلاه في الماء وعلى وسطه انعقدت منشفة مبللة، يحكّ جدعته وهو سارح في أفكاره. غابت الشمس خلف الأفق وانخفضت الأنوار. لأول مرة أراه عارياً، كانت ندبته تصل إلى كتفه. وكان كتفه الآخر جميلاً، أملس كبيضة. أفكّر بخيانته! سيفكّر أن ذلك بسبب جسمه. إنه لن يعرف السبب الحقيقي أبداً. لم أكن أطيق فكرة خيانته أو فقدان صداقته. ولستُ متأكّدة من قدرتي على الانتقال إلى حيّز التنفيذ.

* * *

صباح اليوم التالي، وبعد الفطور، أخذنا نتنزّه في الغابة الاستوائية حتى الصخور الشاطئية. وصلنا إلى حيث يصب النهر في البحر مشكّلاً شلالاً صغيراً ساحراً. مكثنا على الصخور لبعض الوقت نتأمّل ذلك المنظر الجميل. وعندما أردنا الذهاب، وجد الرئيس عناءً في مغادرة ذلك السحر. في طريق العودة، مشيتُ إلى جانب نابو. لم أرَه قطُ بتلك السعادة. قبيل الظهر قمنا بجولة في الجزيرة في شاحنةٍ عسكرية، فيها مقاعد في الخلف. رأينا أشجارَ الموز والأناناس على نباتات منخفضة، وطيوراً غريبة. بسبب الجبال، بدا المحيط كغطاء مجعّد لونه فيروزي وفيه بقع زرقاء غامقة.

بعد الظهر، تنزّهنا في ممرات القرية الترابية. رأينا بناءً قديماً من الخشب له سطح مائل من القش. درنا حوله وفتحنا الباب، فصفعت الشمس الغبار في داخله. زرت ذلك البناء دون أفكار محدّدة. وافتني الفكرة وأنا خارجةٌ منه. انتابتني الحمّى من جديد.

تصوّرت نفسي ممدّدة على الأرض مع الوزير وينفتح الباب: ويصدمنا شعاع الشمس، ولا يمكننا أن نختبئ في أي مكان، ويرانا نابو. بلا شكّ ذلك هو المكان الذي حلمتُ بأن أنفّذ مخطّطي فيه. تدافعت الأفكار في رأسي وكأنها حبات أرزٍ تسقط من كيس ممزّق.

بينما كنا نصعد الهضبة لنعود إلى فندقنا؛ بقيتُ في الخلف لأتناول منديلاً من كمي. كان الطقس حاراً جداً على تلك الطريق، والشمس تسفعنا بقوة. لستُ الوحيدة التي تعرّقت، بل نابو أيضاً، عاد ولحق بي وسألني إن كنتُ على ما يرام. لم أستطع الرد عليه. وددتُ أن يعزو ذلك إلى التعب. قال:

ـ تبدين تعبة طوال الرحلة يا سايوري! ربما كان عليكِ أن تبقي في كيوتو.

ـ ولكن ما كنتُ سأرى هذه الجزيرة الرائعة.

ـ بلا شك، لأول مرة تبعدين عن مدينتك كل هذه المسافة. أوكيناوا تبعد عن كيوتو بُعْد أوكايدو عنها.

كان الآخرون قد اختفوا خلف أحد المنحنيات. لمحتُ سطوح الفندق فوق النباتات الكثيفة. أردت أن أردّ عليه، لكنّ فكرةً أوقفتني: هذا الرجل لم يكن يفهمني، فكيوتو ليست «مدينتي»، بالمعنى الذي كان يقصده: المكان الذي نشأت فيه، والذي لن أنطلق منه أبداً. في تلك اللحظة بالضبط، قررتُ أن أنتقل إلى الفعل. سأخون نابو رُغمَ أنه احتضنني بنظرةٍ ولهى. أعدت المنديل إلى كمي بيدين مرتعشتين، ثم تابعنا طريقنا بصمت.

عندما وصلنا إلى الصالون الكبير، كان الرئيس ومامها قد بدأا دوراً في لعبة الغو ضد مدير البنك، وأخذت شيزوي وابنها ينظران إليهم. كانت الأبواب الزجاجية مفتوحة، وكان الوزير منبطحاً قبالة الحديقة مستنداً على مرفقيه يقشّر قطعةً من قصب السكر حملها معه من رحلته. خشيتُ أن يفتح نابو حديثاً معي، بيد أنه ذهب وجلس بالقرب من مامها. كيف لي أن أجذب الوزير إلى داخل المسرح؟ ثم كيف أستدرج نابو لكي يفاجئنا؟ وماذا إذا طلبتُ إلى بومبكين أن

WWW.REWITY.COM

تتنزّه مع نابو؟ فصديقتي القديمة ليست كثيرة الاحتشام، وهي ستقبل أن تساعدني بلا شك. كان عليّ أن أشرح لها أن تصحب نابو إلى المسرح القديم وتدخله.

جلستُ أتأمل الأوراق المرقّشة بالشمس، كم كنتُ أحبّ لو أستطيع التمتّع بهذا المنظر! ألم أكن مولعة بالافتتان بكل ما هو جميل؟ وبعد، فإن مخاوفي لن تمنعني من تنفيذ مشروعي. عليّ أن أبعد الوزير عن الفندق بسرية تامة. بعد أن طلبتُ إلى إحدى الخادمات جلسةً معدَّةً لوقت الحاجة، أخذ كأساً من البيرة وهو ينقر بعصويه قطعاً من السمك المملّح، وعلى الأصح جوف الحبّار المجفّف. قد يبدو ذلك مقرفاً، ولكننا نجد جوف الحبّار المجفّف في عدد كبير من المطاعم في اليابان. لقد كان هذا طبق والدي المفضّل. أنا لم أنجح قطُّ في هضمه، بل إني لم أستطع أن أنظر إلى الوزير وهو يأكله. قلت له:

- أتريد أن أجد لكَ شيئاً أشهى من هذا يا سيدي الوزير؟

- لا، لستُ جائعاً.

لماذا يأكل إذاً؟ كانت مامها ونابو قد خرجا من الباب الخلفي وهما غارقان في حديث طويل. أما البقية، وبينهم بومبكين، فقد كانوا حول طاولة الغو. لا بدّ أن الرئيس قد قدّم البيدق غير المناسب، فانفجر الجميع ضاحكين. تلك هي اللحظة المناسبة:

- إذا لم تكن جائعاً يا سيدي الوزير، فبإمكاننا أن نزور الفندق معاً، إني أرغب في ذلك منذ وصولنا، ولكن لم تُتَح لي الفرصة.

لم أنتظر جوابه، بل نهضتُ وخرجتُ من الغرفة. أحسستُ بالارتياح عندما رأيته يتبعني. مشيتُ بضع خطوات في الممر المغطّى. توقّفتُ عندما لم أرَ أحداً يتعبني.

- اعذرني أيها الوزير! ولكن ألا ترغب في أن نقوم معاً بجولةٍ في القرية؟

أربكه هذا العرض، فأضفتُ:

- بقي لدينا ساعة قبل الغداء، وثمة مكانٌ أودّ أن أراه.

قال بعد صمت طويل:

- يجب أن أذهب إلى المرحاض أولاً.

- عظيم! اذهب إلى المرحاض، ثم انتظرني هنا، فسوف نذهب في نزهة، ولا تتحرّك قبل أن أعود.

راقت له تلك الفكرة على ما يبدو. توجّه صوب المرحاض، فعدتُ إلى الصالون في حالة مشوّشة. عندما فتحتُ الباب، بالكاد أحسستُ بالجدار تحت أصابعي.

لم تكن بومبكين على الطاولة، فقد راحت تبحث عن شيء ما في حقيبتها. حاولتُ أن أكلّمها، ولكن لم يخرج من فمي أي صوت. تنحنحتُ وقلت:

- اعذريني يا بومبكين! هل تستطيعين أن تعطيني دقيقة من وقتك؟

بدت غير مستعجلة لترك حقيبتها والكلام معي، ولكنها نهضت أخيراً ولحقت بي إلى الممر. مشيتُ معها عدة خطوات، ثم قلتُ:

- أنا في حاجة إلى خدمة يا بومبكين.

توقّعتُ أن تقول لي إنها سعيدة جداً في إسدائها، لكنها اكتفت بالنظر إليّ. تابعت:

- أرجو ألا أزعجكِ بأن أطلب...

- أنا أسمعك.

- سنذهب أنا والوزير لنقوم بنزهة صغيرة، وسأصحبه إلى المسرح القديم و...

- لماذا؟

- لكي نتمكّن من الانفراد ببعضنا.

تساءلت غير مصدِّقة:

- الوزير؟

- سأشرح لكِ فيما بعد، ولكن أرجو أن تأخذي نابو إلى هناك

www.rewity.com ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

وأن ... سيبدو لكِ ذلك غريباً يا بومبكين، ولكني أريد أن تضبطانا هناك.

ـ كيف ذلك، أن نضبطكما؟

ـ أريد أن تجدي حجةً لتأخذي نابو إلى هناك، ثم تفتحي الباب وتفاجئينا.

كانت قد رأت الوزير ينتظرني في الممر بين النباتات. نظرت إليّ، ثم سألتني:

ـ ماذا تحيكين يا سايوري؟

ـ ليس لديّ الوقت لأشرح لكِ، ولكن الأمر في غاية الأهمية، وبه يتعلّق مستقبلي. انتبهي، يجب أن يكون نابو، وليس الرئيس أو أي شخصٍ آخر. وسأقدّر لكِ فعلتكِ.

نظرت إليّ، ثم قالت:

ـ وهكذا قد آن الأوان لتطلبي خدمة من بومبكين، أليس كذلك؟

لم أكن متأكدة من فهم فكرتها، ولكن بدلاً من أن توَضح فكرتها، عادت على أعقابها.

* * *

لم أكن واثقةً من أن بومبكين ستساعدني أم لا، ولكن في تلك المرحلة، لم أكن أستطيع إلا أن أضع خطتي موضع التنفيذ وأنا أتمنّى أن تذهب بومبكين ونابو في نزهة. لحقت بالوزير في الممر، ثم سلكنا طريق القرية.

عندما وصلنا إلى منعطف في الطرق، تذكّرتُ يوم جرحتني مامها في فخذي، وأخذتني إلى الدكتور سرطان. أحسستُ بخطر في تلك الظهيرة، خطر لا أعرف كنهه. والآن كنتُ أحسّ بالخطر نفسه. أخذ وجهي يلتهب تحت الشمس وكأني قد اقتربتُ كثيراً من «الهيباشي». رفعتُ عيني إلى الوزير، فرأيتُ العرق يسيل من ذقنه إلى رقبته. إذا سار كل شيء كما هو مخطّط له؛ فسوف يضغط قريباً

هذه الرقبة على رقبتي. عندما تصوّرتُ ذلك، أخرجتُ مروحتي من أوبيّ وأخذت أحرّكها حتى آلمني ذراعي، محاولة أن نبترد أنا والوزير. كنتُ أكلّمه طوال الطريق. وصلنا إلى أمام المسرح ذي السطح القشي، فبدا الرجل في حيرةٍ من أمره. تنحنح، ثم نظر إلى السماء، فقلت له:

ـ لو ندخل إلى الداخل أيها الوزير!

بدا وكأنه لم يعرف كيف يفسّر ذلك. سرت بمحاذاة البناء، فتبعني. صعدت الدرج وفتحت الباب، فلم يتردّد سوى لحظة قبل أن يدخل. لو أنه عاشر جيون طوال حياته لفهم ما في رأسي. إن الجيشا التي تقود رجلاً إلى مكان منعزل تضحّي بسمعتها، والجيشا التي تنتمي إلى طبقة عليا مثلي لا تفعل ذلك إلا لسبب. ومع ذلك، فقد بقي مسمّراً وسط المسرح في بقعة الضوء كرجل ينتظر الباص. أغلقتُ مروحتي ووضعتها في أوبيّ. كانت يداي ترتعشان وأنا أتساءل: هل سأحقق مشروعي؟ مجرد فعل إغلاق الباب أفرغني من حيويتي. وجدنا أنفسنا في شبه ظلام، إذ كان نور خفيف يتسرّب من تحت السقف. بقي الوزير واقفاً جامداً، وعيناه مثبّتتان على كومة من التاتاميات في زاوية المسرح. قلت:

ـ سيدي الوزير!

رنّ صوتي في أرجاء المسرح، فأضفت بصوت أخفض:

ـ ظننتُ أني فهمتُ أنكَ تحدّثتَ مع معلّمة الإيشيريكي، هل أنا مخطئة؟

زفر بعمق، ولم يتكلّم.

ـ سأقصّ عليك قصة إحدى الجيشاوات، واسمها كازويو. لم تعد تعيش في جيون، ولكني عرفتها جيداً في وقتٍ مضى. تعرّف رجلٌ مهمٌ، مثلك يا سيدي الوزير، بكازويو واهتمّ برفقتها، إلى درجة أنه كان يأتي إلى جيون كل مساء من أجلها. بعد عدة أسابيع، أراد أن يصبح «دانّاها»، لكنّ معلّمة بيت الشاي قالت إن ذلك

WWW.REWITY.COM

مستحيل، فخاب أمل الرجل أيما خيبة. وذات مساء، صحبته كازويو إلى مكان مهجور لكي يكونا وحيدَين، مكانٍ كهذا المسرح الفارغ. قالت له إن... رُغمَ أنه لا يستطيع أن يصبح «دانّاها»...

أضاء وجه الوزير كوادٍ غمرته الشمس، وخطا خطوة نحوي. خطوة خرقاء. أحسستُ بدمي يخفق في أذنيّ. لم أستطع الامتناع عن إدارة رأسي وإغماض عينيّ. وعندما فتحتهما كان الوزير بجانبي. أحسستُ بجلده الدّهني والرطب على خدّي. ضغط جسمه علي جسمي ثم طوقني بذراعيه لكي يمدّدني على الأرض، فأوقفته قائلةً:

ـ المسرح مغبر جداً، هات لي تاتامي!

فاقترح:

ـ لنذهب إلى هناك.

إذا ما تمدّدنا على التاتاميات، فلن يرانا نابو. حتى تلك اللحظة قلت لنفسي إن حدثاً عرضياً قد يمنعنا من إتمام مشروعي على الوجه الصحيح. والآن واجهني الواقع المرير. بدا الزمن بطيئاً، وبدت قدماي وكأنهما قدما شخص آخر عندما أخرجتهما من زوريّ المبرنق ودستُ على التاتامي.

خلع حذاءه بسرعة وضمّني. انقضّت يداه على عقدة أوبيّ. لا أعرف ما يدور في ذهنه. بكل تأكيد، لن أخلع كيمونوي! وضعتُ يديّ على يديه. عندما ارتديتُ ملابسي في الصباح، لبست لباساً داخلياً رمادياً لا أحبّه، وذلك تحسّباً لأي احتمال. واخترتُ كيمونو أزرق ورمادياً مع شفّ من الحرير وأوبيّ فضيّ اللون. قصّرت «الكوشيماشي» برفعه إلى مستوى خصري. وهكذا لن يعاني الوزير في شقّ طريقه إليّ إذا ما قرّرتُ أخيراً أن أغويه.

أفلتُ من احتضانه، فنظر إليّ نظرةً حائرة تدلّ على اعتقاده أني أمنعه من لمسي. أحسّ بالارتياح عندما رآني أتمدّد على التاتامي، ولم يكن تاتامي حقيقياً، بل فراشاً من القش، أحسستُ بقساوة الأرض من تحته. رفعت كيمونوي ولباسي الداخلي بيدي، فبانت ساقاي حتى الركبتين. نام الوزير فوقي وهو ما يزال بلباسه. دخلت

عقدة أوبيّ في ظهري، فانقلبتُ جانباً، وأدرتُ رأسي لكي أحافظ على تسريحتي.

كنا في وضع غير مريح، ولكن قلة الراحة هذه هي لا شيء إذا ما قورنت بالانزعاج والقلق اللذين أحسستُ بهما. تساءلتُ ما إذا كنتُ حقاً بكامل وعيي عندما وضعتُ نفسي في موقف كهذا. رفع الوزير جسمه مستنداً على مرفقه، ومدّ يده تحت كيمونوي فخدش فخذيّ بأظافره الطويلة. بحركةٍ غريزية، وضعتُ يدي تحت كتفيه ودفعته... ثم تصورتُ حياتي مع نابو بوصفه «دانّاي»، فإذا بها حياة خالية من الفرح. أعدتُ يدي إلي التاتامي، أما يدا الوزير فبدتا كعنكبوتين تتقدّمان أكثر فأكثر بين فخذيّ. حاولتُ أن أهرب في أفكاري، نظرتُ إلى الباب، عساه ينفتح قبل أن يتابع الوزير. للأسف! فقد سمعتُ طقّة حزامه وانسحاب سحّاب بنطاله. بعد ثانية، كان يشقّ طريقه ويدخل إلى داخلي، أحسستُ من جديد أني في الخامسة عشرة من عمري، وأني مع الدكتور سرطان. سمعت صوت أنّاتي. استند الوزير إلى ساعديه، ووجهه فوق وجهي، وبزاوية عيني لمحتُ فكّيه الضخمين كفكّي حيوان. وكانت شفته السفلى كوعاء مليءٍ باللعاب، لعاب رمادي اللون، أكان ذاك بسبب أمعاء الحبّار؟ لستُ أدري. ولكنه ذكّرني بالبقايا الدبقة التي تبقى على الطاولة بعد تنظيف الأسماك.

عندما ارتديتُ ملابسي في الصباح، دسستُ في أوبيّ عدة أوراق نشّاف. لم أفكر باستخدامها قبل أن يمسح الوزير، هذا إذا ما قرّرتُ أن أنتقل إلى التنفيذ. قلتُ لنفسي سوف أحتاج إليها لكي أمسح وجهي عندما يسيل لعابه عليه. كان يسمّرني إلى الأرض، ولم أستطع أن أمدّ يدي إلى ظهري لكي أسحب الأوراق. صدرت مني أنّاتٌ صغيرة، فظن الوزير أنها علائم إثارة فصار أكثر حماسة. بركة اللعاب أخذت تنوس نوساناً خطيراً على حافة شفته. والغريب أنها لم تسقط. أحسستُ وكأني داخل قارب تهزّه الأمواج. أحسستُ بألم في قلبي. أخذ الوزير يهدر ، يرتجف. ثم تجمّد، وسال اللعاب على رقبتي.

WWW.REWITY.COM

أردتُ أن آخذ ورقة الأرز من أوبيّ، لكنه انهار فوقي وراح يلهث لهاثَ من قطع الماراتون. كنتُ سأدفعه عني، عندما سمعتُ خربشةً في الخارج. اشمئزازي الهائل قتل فيّ أي إدراكٍ آخر. وعندما تذكّرتُ نابو انقبض قلبي. خربشة أخرى، أحدهم يرقى الدرجات الحجرية. يبدو أن الوزير لم يكن لديه أية فكرة عمّا سيحدث. رفع رأسه والتفت إلى الباب كما لو أنه توقّع أن يرى عصفوراً.

انفتح الباب وغمرت الغرفةَ حزمةٌ من أشعة الشمس. أغمضتُ عينيّ انبهاراً، ولكني ميّزتُ شخصين: بومبكين برفقة رجل. ولكنه لم يكن نابو. لماذا فعلتْ ذلك؟ لقد أتت بومبكين بالرئيس.

بعد أن فُتِحَ الباب، بقيتُ مرتعشةً مخدّرةً بفعل الصدمة. ابتعد الوزير، أو ربما أنا أبعدته. أذكر أني بكيتُ، وسألته إن كان قد رأى الرئيس مثلي. كان هذا يقفُ في الظل، ولم أستطع أن أرى التعبير على وجهه. ومع ذلك، عندما انغلق الباب من جديد، بدا لي مصدوماً، ولكن لم يكن ذلك سوى انطباع. فعندما يلفنا الحزنُ، حتى الأشجار المزهرة تبدو لنا متألمة. بعد ذلك الظهور في باب المسرح، انعكس حزني على كل ما يحيط بي.

لأني صحبتُ الوزير إلى هذا المكان لكي أُعَرِّضَ نفسي للخطر، أحسستُ بالإثارة بالإضافة إلى القلق والخوف والقرف. ولحظة انفتح الباب، أحسستُ بالإعتزاز كشعورٍ من سيقدمُ على الغطس من مكانٍ شاهق، فأنا لم أتخذ قط قراراً بهذه الجرأة لتغيير مجرى حياتي. كنتُ كطفلٍ على حافة ريفٍ صخريٍّ شاهق لايصدقُ أنَّ موجةً يمكنها أن تصل إليه وتحمله معها.

بعد أن هدأت فوضى الانفعالات هذه، عدتُ إلى نفسي. كنتُ

WWW.REWITY.COM

ممددةً على الأرض ومامها محنية عليّ. لم أعد في المسرح القديم، بل في الفندق، في غرفةٍ مظلمة، على التاتامي. لا أذكر أني غادرت المسرح. لابدَّ أني كنتُ في حالةٍ غير طبيعية. قالت لي مامها إني ذهبتُ لرؤية مدير الفندق، وسألته أين أستطيع أن أستريح. وعندما رأى حالي السيئة، ذهب إليها وأخبرها.

لحسن الحظ أن مامها بدت مستعدةً لتصديق أني كنتُ حقاً مريضة. بعد ساعة عدتُ إلى الغرفة المشتركة. وصلت بومبكين إلى الممر المغطى ورأتني. ثمَّ توقفت، ولكن بدلاً من أن تأتي وتعتذر كما توقعت، فقد التفت إليَّ ببطءٍ كأفعى رأت فأراً. قلتُ لها:

ـ لقد قلتُ لكِ يا بومبكين أن تصحبي نابو وليس الرئيس.

ـ نعم، يجب أن تفاجئي، عندما لايجري كلُّ شيءٍ كما ترغبين بالضبط!

ـ كما أرغب؟ ماكان سيحصلُ أسوأ مما حصل! هل أسأتِ فهم ماطلبته إليكِ؟

ـ أنتِ تحسبينني حقاً غبية.

بقيتُ واجمةً، مسمّرةً لمدة دقيقة دون أن أقول شيئاً. ثم أضفت:

ـ كنتُ أعدّكِ صديقتي.

ـ وأنا أيضاً ظننتُ أنكِ صديقتي في فترةٍ ما من حياتي.

ـ يبدو أنكِ تعاتبينني يابومبكين كما لو أنني أسأتُ إليكِ.

ـ أوه لا، أنتِ لن تقومي أبداً بفعلٍ كهذا! ليس أنتِ، ليس مس نيتا سايوري، المرأة الكاملة! لقد فرضتِ نفسكِ بوصفكِ ابنةً للأوكيّا بدلاً مني، ولكن هذا لا يؤخذ بالحسبان! هل نسيتِ ياسايوري؟ بعد أن تعرضتُ لخطرٍ جسيم في هذه القصة مع الدكتور، سحبتِ الغطاء نحوكِ. لقد أخذتِ مني حقي! منذ البداية، وأنا أتساءلُ لماذا تريدين أن أشاركَ في هذه السهرات مع الوزير. أسفتُ لأنه وجب عليكِ أن تنتظري حتى اليوم لكي تستخدميني.

- ولكن يابومبكين، كان بإمكانك أن ترفضي مساعدتي! فلماذا أخذتِ الرئيس؟

انتصبت ونفخت صدرها، ثم قالت:

- أعرفُ أنكِ تحبينهُ. وعندما لاينظرُ إليكِ أحدٌ، فإنكِ تفترسينه بعينيكِ!

في حومةِ غضبها، عضت شفتها فرأيتُ احمراراً على أسنانها. لقد أرادت أن تؤذيني بأقسى طريقةٍ ممكنة. قالت:

- لقد حرمتني من مستقبلٍ مزهر ياسايوري! وبدوري سأريكِ ماسيكون.

توسع منخراها وشَوَّهَ الحقدُ وجهها كما لو أن روح هاتسومومو القابعة فيها ظهرت أخيراً.

* * *

أمضيتُ سهرةً رهيبة. كان رفاقي يشربون ويضحكون، وتظاهرتُ بالاستمتاع معهم. لابدَّ أن لوني كان أحمر، لأن مامها كانت تلمسُ رقبتي بين وقتٍ وآخر لترى إذا كنتُ محمومةً. كنتُ جالسةً بعيدةً عن الرئيس، أتحاشى نظرته. قبل أن آوي إلى فراشي، التقيتُ به في الممر حيث كان عائداً إلى الغرفة. كان عليَّ أن أبتعد عن طريقه، ولكني كنتُ كثيرة الخجل! سرَّعتُ من خُطاي وحنيتُ له رأسي قليلاً دون أن أبذل أي جهدٍ لإخفاء هلعي.

بعد أن نام الجميع، خرجتُ من الفندق وأنا في غيبوبة. وجدتُ نفسي على حافة الصخور الشاطئية أنظرُ في الظلام وأسمعُ الأمواج. بدا لي ارتطام الأمواجِ العنيف بالصخور وكأنه انتحابٌ مرير. رأيتُ القسوة في كل شيء، كما لو أن الأشجار والرياح والصخور التي أقف عليها تتحالفُ مع عدوتي هاتسومومو . وبدا لي عزيفُ الريح وحفيفُ الأوراقِ وكأنها تسخرُ مني. هل اتخذ قدري منحىً لارجوع عنه؟ أخرجتُ منديل الرئيس من كمي ومددتُ ذراعي في الفراغ. أردتُ رَمْيَهُ في الظلام عندما فكرتُ بألواح الموت التي أرسلها إليَّ

السيد تاناكا منذ عدة سنوات. يجب دائماً الاحتفاظ بذكرى عن الأعزاء الذين رحلوا. كانت ألواح الموتِ في الأوكيّا هي كلُّ ما بقي لي من طفولتي، ومنديلُ الرئيس سيكون كل ماسيبقى لي من حياتي كامرأة.

* * *

بعد عودتنا إلى كيوتو، طفوتُ فوق آلامي عدة أيام، وقد انشغلتُ بكثير من النشاطات. كنتُ أضع مكياجي وألبس وأمضي سهراتي في بيوتات الشاي، كدأبي سابقاً. قالت لي مامها: لاشيء كالعمل يستطيع التغلّب على خيبة الأمل. للأسف! لم يحسّن العمل من حالتي النفسية في شيء. وكلما وجدتُ نفسي في الإيشيريكي، كنتُ أفكّر بنابو: سيستدعيني بين يوم وآخر ليبلغني أنه سيصبح «دانّاي». وبعد، فقد كان كثير الانشغال في الأشهر الأخيرة، وما ظننتُ أني سأسمع أخباره قبل أسبوع أو أسبوعين. للأسف! صباح يوم الأربعاء، اتصلت إيوامورا إليكتريك بالإيشيريكي، وطلبت حضوري في مساء اليوم نفسه.

لبست ثيابي متأخرةً قدر الإمكان في بداية السهرة. لبستُ كيمونو من الشف الحريري الأصفر ولباساً داخلياً أخضر وأوبي كحلياً معرّقاً بخيوط مذهّبة. قالت لي تاتي: جميلة، فقلتُ لنفسي: منهارة. فأحياناً أغادر الأوكيّا وأنا قليلة الرضى عن هندامي، ولكن على العموم، كانت أية كلمة تطمئنني مثل: اللباس الداخلي الكاكي يبرز زرقة عينيّ، أكثر من الرمادي. في ذلك المساء، بدا وجهي طيفياً رُغمَ استخدامي لمكياجٍ غربي، كما كنتُ أفعل غالباً. حتى تسريحتي بدت عرجاء. طلبتُ إلى السيد بيكو أن يشدّ عقدة أوبيّ لترتفع ملابسي كلها.

كان موعدي الأول في وليمة أقامها عقيد أمريكي على شرف حاكم كيوتو الجديد. أقيمت الوليمة في مزرعة آل سوميتومو القديمة التي أصبحت مقر القيادة العامة للفرقة السابعة في الجيش الأمريكي. اجتزتُ الشبك الحديدي، فلاحظتُ تغيراتٍ كبيرةً: بلاطات الحديقة القديمة المطلية باللون الأبيض، ولوحات باللغة الإنكليزية

www.rewity.com ARAYAHEEN
WWW.REWITY.COM

معلّقة على جذوع الأشجار، ولم أكن أقرأ الإنكليزية. وعندما انتهى الحفل، مضيتُ إلى الإيشيريكي. قادتني إحدى الخادمات إلى الصالون الذي انتظرني فيه نابو يومَ أغلقت جيون أبوابها. ذاك المساء قال لي إنه سينقذني من ويلات الحرب. بلا شك، من الطبيعي أن نلتقي في هذا المكان لكي نحتفل بأنه سيصبح «دانَاي»، رُغمَ أني لا أرى ما يبرّرُ الاحتفال. اخترتُ مكاني إلى الطاولة بحيث يستطيع أن يقدّم لي الساكي بيده اليمنى، لأنه سيقدّم لي كأساً بعد أن يقول لي إنه أصبح «دانَاي». ستكون سهرةً رائعةً بالنسبة إليه، ولن أفسدها عليه.

أضفى النور المتسرّب واللمعان الأحمر الغامق للجدران بلون الشاي جواً بهياً. كنتُ قد نسيتُ الرائحة الخاصة لهذه القاعة: مزيج من الغبار وزيت التربنتين الذي استُخدِمَ لتلميع تلبيس الجدران. هذه الروائح أحيت ذكرياتي. رأيتُ نفسي مع نابو في هذا الصالون منذ سنوات خلَت، وعادتني نتفٌ من تلك السهرة. كانت جوارب نابو مثقّبة، وإصبع قدمه الطويل والنحيل، وظفره المقصوص بعناية، يتجاوز أحد هذه الثقوب. ها قد مرت خمس سنوات فقط على تلك الذكرى، ومع ذلك فقد تهيّأ لي أن دهراً كاملاً قد مضى، وقد مات كثيرٌ من معارفي. هل عدتُ إلى جيون لأعيش هذه الحياة؟ لقد كانت مامها على حق عندما قالت: لاتصبح المرأة جيشا بإرادتها، بل لأن ليس لديها من خيار. لو أن أمي بقيت حية لكنتُ أنا نفسي قد أصبحتُ زوجةً وأماً في قرية الصيادين تلك، ولكانت كيوتو بالنسبة إليّ مدينةً بعيدة، مدينةً تصل إليها أسماكنا بالقطار. هل كانت حياتي ستكون أصعب؟ قال لي نابو يوما: «أنا سهل الفهم ياسايوري! ولا أحبّ أن أرى أمامي أشياء لا استطيع امتلاكها». ربما كنتُ أشبهه. منذ خمسة عشر عاماً وأنا أحلم بالرئيس، وها إني لن أحصل عليه أبداً.

بعد أن انتظرتُ نابو ربع ساعة، رحت أتساءل إن كان سيأتي. أرحتُ رأسي على الطاولة لكي أسترخي، فمنذ ثلاثة أيام لم أنم إلا قليلاً. وبدلاً من أن أغفو تثاقلتُ عبر ألمي، وبدا لي أني حلمتُ حلماً

WWW.REWITY.COM

مدهشاً. ظننتُ أني سمعتُ أصوات طبول في البعيد، ثم صفيرَ طرّادةِ ماءٍ. أحسستُ وكأنَّ يدَ الرئيس على كتفي. رفعتُ رأسي لأرى من يلمسني، فرأيتُ الرئيس منحنياً عليّ! كان القرع صوتَ خطواته، والصفيرُ صوتَ انسحاب الباب في مجراه. كانت إحدى الخادمات تقف خلفه. حييته واعتذرتُ لأني نمت. كنتُ في أوج اضطرابي، وتساءلتُ إن كنتُ حقاً قد استيقظت.

لم أكن أحلمُ! جلس الرئيس على أريكة. وضعت الخادمة الساكي على الطاولة. خطرت لي تلك الفكرة المخيفة: ماذا لو أتى الرئيس ليقول لي إن نابو تعرّض لحادث؟ كنتُ سأطرح السؤال عليه عندما مدت معلّمة الإيشيريكي رأسها إلى داخل القاعة، وقالت:

ـ منذ أشهر لم نراكَ هنا أيها الرئيس!

كانت المعلّمة دائمة اللطف مع زبائنها. وبعد، فقد بدت منشغلة البال، لا بدّ أنها قلقة على نابو مثلي تماماً. قدّمتُ الساكي للرئيس، ثم جلست إلى الطاولة. حمل الرئيس كأسه إلى شفتيه، فأوقفت المعلّمة يده ومنعته من الشرب. مالت عليه وشمّت رائحة المشروب، ثم قالت:

ـ لا أفهم لماذا تفضّل هذا النوع من الساكي على الأنواع الأخرى أيها الرئيس! لقد أتانا نوع أفضل منه بكثير بعد هذا الظهر، ونابو ـ سان سيحبّه كثيراً عندما سيصل.

ـ لا أشكّ في أن نابو يقدّر الأشياء الجيدة، ولكنه لن يأتي هذا المساء.

أخافني هذا الخبر، ولكني أبقيت عينيّ مخفضة. يبدو أن الخبر فاجأ المعلّمة أيضاً، لأنها غيّرت الحديث سائلةً:

ـ ألا ترى سايوري رائعة هذا المساء يا رئيس؟

ـ سايوري رائعة دائماً! ولكن هذا يذكّرني أن... سوف أريكما شيئاً.

وضع على الطاولة علبةً صغيرة مغلّفةً بحرير أزرق. فتحها، فظهرت لفّةٌ واسعة وقصيرة أخذ يفرشها. كانت لفّةً مشقّقة تمثّل عدة لوحات للبلاط الإمبراطوري: مشاهد منمنمة ألوانها صارخة. وطول هذه اللفّات يبلغ عدة أمتار، تعطي منظراً بانورامياً للقصر الإمبراطوري. مرّ الرئيس سريعاً على مشاهد شراب، وأرستقراطيين يلعبون بكرة القدم وكيمونوهاتهم مرفوعة على سيقانهم. ثم توقّف عند امرأة شابة ترتدي كيمونو مذهّباً. كانت جاثيةً على الأرض في مدخل شقة الإمبراطور. سأل الرئيس:

ـ ماذا تقولين في هذا؟

أجابت المعلّمة:

ـ إنها لوحة رائعة. أين وجدها الرئيس؟

ـ إني أملكها منذ عدة سنوات. ولكن انظري إلى هذه المرأة. بسببها اشتريتُ اللوحة. ألا تلاحظين شيئاً خاصّاً؟

تفحّصت المعلّمة الصورة، ثم أدناها مني. عندما رسم الفنّان هذه المرأة الشابة، التي لا يتعدّى حجمها أبداً حجم قطعة نقدية، لم يغفل أي تفصيل. رأيتُ عينيها. كانتا شاحبتين، رماديتين وزرقاوين. لقد ذكّرتني بلوحات أوشيدا عندما استخدمني كموديل. احمرّيتُ خجلاً وقلتُ إنها صورة رائعة. تأملتها المعلّمة بضع ثوانٍ، ثم قالت:

ـ سوف أترككما. سأرسل لكما الساكي الجديد الذي حدّثتك عنه، أم أنتظر نابو عندما سيأتي في المرة القادمة؟

ـ لا تكلّفي نفسكِ هذا العناء، سنكتفي بالساكي الموجود هنا.

ـ نابو ـ سان هو...إنه بخير، أليس كذلك؟

ـ نعم، نعم، إنه بأتمّ الصحة.

أراحني الجواب وأقلقني في آنٍ معاً. إذا لم يكن الرئيس قد أتى ليخبرني عن نابو، فقد أتى من أجل أمر آخر، بلا شك ليوبّخني على

فعلتي الشنعاء في أماني. منذ عودتي وأنا أفضّل ألا أفكر بما يمكن أن يكون قد رآه: الوزير ببنطاله المنزل، وساقيّ العاريتين، وكيمونوي المرفوع...

عندما غادرت المعلّمة الغرفة، أتاني صوت انغلاق الباب كسيف يُستلّ من غمده.

بدأت الكلام بصوت غير واثق:

ـ أحبّ أن أقول: أيها الرئيس أن تصرّفي في أماني....

ـ أعرف بماذا تفكّرين يا سايوري. ولكني لم آتِ إلى هنا لأطلب أعذاراً. ابقي جالسةً بهدوء، فسوف أحدّثكِ عن أمرٍ حدث منذ عدة سنوات.

نجحت أخيراً في أن أنطق:

ـ أيها الرئيس! أنا حقاً منزعجة، اعذرني، ولكني...

ـ اسمعيني. لن تلبثي أن تفهمي لماذا أقصّ عليكِ هذه القصة. أتذكرين مطعم تسوميو؟ لقد أغلق في بداية الثلاثينات، ولكن...لايهم. كنتِ صغيرةً في تلك الفترة. ذات يوم، منذ عدة سنوات، عشر سنوات بالضبط، ذهبتُ لأتناول غدائي في ذلك المطعم مع شركائي. كانت برفقتي جيشا تدعى إيزوكو، تسكن في بونتوشو.

إيزوكو؟ لم أكن قد نسيتُ ذلك الاسم.

ـ كانت تلك الجيشا مشهورة جداً في تلك الفترة. انتهينا من الغداء باكراً، اقترحتُ أن نقوم بنزهة على ضفة نهر شيراكاوا قبل الذهاب إلى المسرح.

أخرجتُ منديل الرئيس من أوبيّ، وضعته على الطاولة ومسّدته بحيث تبدو مشبّكته، لقد حال لونه على مرّ السنوات، وسقطت لطخة صفراء على زاويته. عرفه الرئيس، فسألني:

ـ من أين حصلتِ عليه؟

ـ أيها الرئيس! لقد تساءلتُ كثيراً إذا كنتَ تعرف أني أنا تلك

WWW.REWITY.COM

الفتاة التي واسيتَها. لقد أعطيتَني منديلكَ في تلك الظهيرة وأنت ذاهبٌ لمشاهدة مسرحية «شيباراكو». وكذلك أعطيتني قطعةً نقدية...

ـ وهكذا مازلتِ تعرفين أني أنا من قدّم لكِ الحلوى؟

ـ لقد عرفتُ الرئيس منذ أن رأيته من جديد في مباراة السومو. في الحقيقة، إنه يفاجئني بأنه مايزال يذكرني.

ـ كان عليكِ أن تنظري أكثر في مرآتك، يا سايوري! لا سيّما عندما تلمع عيناكِ بالدمع، لأنهما حينئذٍ تصبحان...لا أستطيع الشرح. إني أمضي ساعاتٍ مع رجال أعمال لا يقولون لي الحقيقة أبداً. وها إني أرى فتاةً لم أرَها قطّ وتصارحني!

صمتَ قليلاً، ثم أضاف:

ـ ألم تتساءلي قطُّ لماذا أصبحت مامها أختكِ الكبرى؟

ـ مامها! لا أفهم ما علاقة مامها بهذا كله!

ـ ألا تعرفين حقاً؟

ـ ماذا ينبغي لي أن أعرف أيها الرئيس؟

ـ لقد طلبتُ إلى مامها أن تضمّكِ بجناحها يا سايوري! أكّدتُ لها أني رأيتُ فتاةً بارعة الجمال عيناها رماديتان، وطلبتُ إليها أن تهتمّ بكِ، إذا ما من مرةً صادفتكِ في جيون. قلتُ لها إني سأغطّي مصاريفها إذا لزم الأمر. ولقد التقت بكِ بعد عدة أشهر. وبحسب ما نقلته إليّ، ماكنتِ لتصبحي جيشا لولا مساعدتها.

يستحيل أن أصف ما أحسستُ به في تلك اللحظة. لطالما ظننتُ أن مامها اختارتني لهدفٍ محدَّد هو التخلّص من هاتسومومو . إذاً، لقد شملتني برعايتها بطلبٍ من الرئيس. يجب عليّ أن أتذكّر جميع التعليقات التي وجّهتها إليّ طوال هذه السنوات، وأن أجد لها دلالات جديدة. ليست صورة مامها هي التي تغيّرت فحسب، بل صورتي أيضاً. لقد أحسستُ أني امرأة جديدة. نظرتُ إلى يديّ، يديّ اللتين صنعهما الرئيس. ابتعدتُ عن الطاولة لكي أحييه وأعبّر له عن عرفاني، ولكن قبل أن أفعل ذلك، لم أستطع إلا أن اقول:

ـ سامحني أيها الرئيس! ولكني أحببتُ كثيراً أن تقول لي ذلك منذ سنوات! لا أستطيع أن أقول لكَ كم كان ذلك مهمّاً بالنسبة إليّ.

ـ لديّ سبب لعدم فعل ذلك يا سايوري، وللإلحاح على مامها بألا تقول لكِ شيئاً. وذاك السبب هو نابو.

شحب لوني، فقد فهمتُ إلى أين يريد الرئيس أن يصل. قلت:

ـ لم أكن جديرة بطيبتكَ في عطلة الأسبوع الماضي، أيها الرئيس!

ـ لقد فكّرتُ طويلاً بما حدث في أماني يا سايوري!

أحسستُ أنه ينظر إليّ، فلم أستطع النظر إليه. أضاف قائلاً:

ـ ثمة شيء أريد أن أكلّمكِ عنه. منذ الصباح، وأنا أتساءل كيف أباشر هذا الموضوع. أنا لا أكفّ عن التفكير في أمرٍ حدث منذ عدة سنوات. كان عليّ أن أعبر بطريقةٍ أخرى، ولكن...أتمنى أن تفهمي ما أحاول أن أقوله:

«عندما أنشأتُ إيوامورا إليكتريك، التقيتُ برجل يدعى إيكيدا يعمل عند أحد مورّدينا، في الطرف الآخر من المدينة. لم يكن له من مثيل في حل مشكلات التمديدات الكهربائية. وكان يحدث أن نطلبه أو أن نستأجر خدماته لمدة نهار. وذات يوم، وأنا عائد إلى البيت ، التقيت به عند الصيدلي. بدا لي سعيداً جداً، وقال لي:«لقد استقلتُ من عملي»! سألته لماذا، فقال: «لقد آن أوان الاستقالة فاستقلت»! تعاقدتُ معه مباشرة. وبعد عدة أسابيع، طرحت عليه السؤال من جديد: لماذا استقلت؟ فردّ قائلاً: «يا سيد إيوامورا، لقد حلمتُ طوال سنوات أن أعمل لديك. ولكنكَ لم تطلب ذلك قطّ. كنتَ تدعوني عندما تعترضكَ مشكلة، وينتهي الأمر عند هذا الحد. وذات يوم، فهمتُ أنكَ لن تأخذ عاملاً من أحد المورّدين دون أن تفسد علاقاتكَ معه. وكان عليّ أن أترك عملي لكي تتعاقد معي، فاستقلت».

ـ كنتُ أعرف أن الرئيس ينتظر تعليقاً من قبلي، فلم أجرؤ على الكلام. تابع قائلاً:

www.rewity.com
RAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

- وانفرادكِ بالوزير ذكّرني بإيكيدا مستقبلاً. سأقول لكِ لما أقمتُ هذه المقاربة. ذلك بسبب ملاحظةِ بومبكين ونحن عائدين إلى الفندق. لقد غضبتُ منها غضباً شديداً، وطلبتُ إليها أن تقول لي لماذا فعلت ذلك. حكت لي أنكِ كنتِ تريدين أن تصطحب نابو. لم أفهم مباشرةً. ولكن، بعد أن فكّرت، اتّضح كل شيء.

تمتمتُ بتردّد:

- أرجوكَ أيها الرئيس! لقد اقترفتُ خطأً جسيماً.

- قبل أن تضيفي أية كلمة، أريد ان أعرف لماذا فعلتِ ذلك. لربما أردتِ أن تسدي «خدمةً» لإيوامورا إليكتريك، إلا إذا كان عليكِ دينٌ للوزير وأنا لا أعرف عنه شيئاً.

هززتُ رأسي، فصمت الرئيس.

قلتُ بعد قليل:

- إني خجلةٌ أيها الرئيس! ولكن لدي أسبابي الخاصة لفعل ذلك.

ران صمتٌ طويل، ثم زفر الرئيس، ومدّ إليّ كأس الساكي. قدّمته له وكأني في الخيال، فقد شرب الكاس دفعةً واحدةً، وأبقى الساكي في فمه، ثم جرعه. قال:

- حسنٌ يا سايوري! سأقول لكِ لماذا أطرح عليكِ هذا السؤال. لن تفهمي لماذا أتيتُ إلى هنا هذا المساء، ولا لماذا عاملتكِ بهذه الطريقة منذ سنوات عديدة إذا لم تفهمي جيداً طبيعة علاقتي مع نابو. أعرف أنه رجل صعب، ولكنه عبقري، إنه بالنسبة إليَ عزيز جداً، ومفيد جداً في آن واحد.

لم أكن أعرف ماذا أفعل ولا ماذا أقول. كذلك أمسكتُ بزجاجة الساكي لكي أسكب له فلم يرفع كأسه، وهذا ما فسّرته علامة سيئة.

- ذات يوم في أحد الاحتفالات، وكنتُ أعرفكِ منذ وقت قصير، قدّم إليكِ نابو مشطاً أمام الجميع. فهمتُ في تلك اللحظة أنه يحبكِ. بكل تأكيد، كان هناك دلائل أخرى على تعلقه بكِ ولكن وَجَبَ عليَّ أن أخفيَها. عندما فهمتُ مشاعره ورأيت الطريقة التي ينظر إليكِ بها...

عرفتُ أنه ليس بإمكاني أن آخذ منه المرأة التي يحبها. ومع ذلك، بقيتُ دائمَ الانشغال بكِ، وأخذ عذابي يتعاظم أكثر فأكثر مع مرور السنين عندما كنتُ أسمع نابو يتحدث عنكِ بشغف.

صمت قليلاً، ثم سألني:

- أتسمعينني ياسايوري؟

- بكل تأكيد أيها الرئيس!

- لستُ مضطراً لأن أقول لكِ هذا، ولكن لنابو دينٌ كبيرٌ في عنقي. أنا الذي أنشأتُ الشركة، وأنا صاحبها. ولكن في البدايات عرفت إيوامورا إليكتريك مشكلاتٍ خطيرةً في التمويل، ووصلنا إلى حافة الإفلاس. أردتُ الاحتفاظ بأغلبية الحصص، ورفضتُ أن أستمع لنابو عندما أصرّ على إطلاق نداءٍ للمستثمرين. اقتنعتُ معه في النهاية، ولكن ذلك أوجد هوةً بيننا، حتى إنه حاول أن يستقيل طوال عدة أشهر، وكدتُ أن أقبل استقالته، ولكنه هو من كان محقاً، فلولاه لكنتُ قد فقدتُ شركتي. فكيف لي أن أبرِّئَ ذمتي من دينٍ كهذا؟ لهذا أخفيتُ على نابو مشاعري نحوكِ عندما عرفتُ أنه يحبكِ. لقد قسا عليه القدرُ كثيراً يا سايوري.

لقد كنتُ جيشا منذ إثني عشر عاماً ولم أستطع قطُّ أن أقتنع بأن الرئيس يحبني، فكيف إذا عرفتُ أنه أخفى عواطفه لكي يظفر بي نابو...

أضاف قائلاً:

- أنا لا ألعبُ بلا مبالاة القلوب. لو أني أبديت مشاعري لتخلى عنكِ مباشرةً.

منذ ثمانية عشر عاماً وأنا أحلمُ بأن يصارحني الرئيس بلواعج صدره دون أن أصدق أن ذلك سيحصل في الواقع. وها هو يقول لي ما كنتُ أتمنى أن أسمعه، ويضيف إن نابو مقدّرٌ عليَّ. إنّ ما سعيتُ إليه دائماً سيفرُّ مني. على الأقل كان بإمكاني أن أقول له إني أحبه، فقلت:

WWW.REWITY.COM

ـ سامحني على صراحتي.

حاولتُ أن أتابع، ثم توقفت، لا ريبَ أني كَبَتُّ عقدةً من الانفعالات تقبعُ في أعماقي. ولكني تابعت:

ـ أنا أكنُّ كثيراً من الحنان لنابو، ولكن ما قمتُ به في أماني...

وَجَبَ عليَّ أن أنتظر أن يهدأ الحريقُ في حلقي قبل أن أكمل:

ـ إنَّ مشاعري نحوكَ هي التي أملت عليَّ تصرفي في أماني. منذ ذلك اليوم المشهود على ضفة النهر، لم يكن لديَّ سوى رغبةٍ واحدة هي الاقتراب منكَ.

نما لدي انطباعٌ بأن حرارة جسمي كلها تصعدُ إلى وجهي. ظننتُ أني سأرتفعُ في الهواء كالرماد الذي تبصقه النار. حاولتُ أن أتعلق بتفصيلٍ مادي، بلطخةٍ على غطاء الطاولة مثلاً، ولكن اختلط كل شيءٍ أمام عينيَّ.

قال لي:

ـ انظري إليَّ ياسايوري!

كنتُ أريدُ أن أطيعهُ، ولكني لم أستطع.

ـ أمرُكِ غريب! أذكرُ فتاةً صغيرة نظرت إليَّ في عينيَّ، والآن وهي امرأةٌ ألا تستطيع أن تفعل ذلك؟

بلا شك، كان النظرُ إلى الرئيس سهلاً، ولكن لو أني وقفتُ وحيدةً على المسرح أمام سكان كيوتو جميعاً، فلن أكونَ خجولةً كما أنا الآن. كنا جالِسَيْنْ على زواية الطاولة متقاربين جداً! قريبين إلى درجة أني رأيتُ الدائرة السوداء التي تحيطُ ببؤبُئِهِ بعد أن جفَّفتُ دموعي أخيراً، ونظرتُ إليه. هل يجب أن أحييه باحترام، وأقدمَ له كأساً من الساكي؟ أيةُ حركةٍ كانت عاجزةً عن محو التوتر بيننا. دفع زجاجة الساكي والكأس جانباً، ومدَّ يده نحوي وأمسكَ بقبتي وجذبني نحوه. فجأةً صار وجهه قريباً جداً من وجهي! أحسستُ بحرارة جسمه. لم أفهم ماكان يحدثُ لي، مالعمل؟ ماذا أقول؟ لقد قبّلني الرئيس.

WWW.REWITY.COM

قد يفاجئكَ ذلك، ولكنَّ أحداً لم يقبّلني قطُّ بالمعنى الحقيقي للكلمة. عندما كان الجنرال توتوري «دانّاي» ويقوم بضغط شفتيه على شفتيّ؛ فإنه يفعل ذلك بلا إحساس. وحتى إيزودا أكيرا، الرجل الذي قدّم لي كيمونو، والذي أغويته ذات مساء في بيت الشاي تاتيماتسو، قبّلني نحو عشر مرات، ولكن على وجهي ورقبتي، وليس على شفتيّ. وهذه القبلة، الأولى في حياتي، منحتني شعوراً بالحميمية. لقد أعطاني الرئيس شيئاً لم يعطني إياه أي رجلٍ آخر. كان للسانه طعمٌ مدهش، طعمٌ محلّى. أحسستُ بكتفيّ يرتخيان، وببطني يرتعش. وبشكلٍ غريب، ذكّرتني تلك القبلة بمشاهد متعدّدة: البخار الذي يتصاعد من طنجرة البخار عندما ترفع الطبّاخة الغطاء عنها في أوكيّانا؛ وذاك الزقاق الصغير في بونتوشو والمليء بالمعجبين حيث أقام كيشيزابورو آخر عرض للكابوكي. بكل تأكيد، كان بإمكاني أن أرى مشاهد أخرى. لقد انفجر سدٌّ في عقلي، فحرّر الذكريات الدفينة. ابتعد الرئيس عني قليلاً تاركاً يداً على رقبتي. كان قريباً جداً مني حتى رأيتُ بعض اللعاب على شفته، وشممتُ رائحة قبلتنا!

سألت:

ـ لماذا أيها الرئيس؟

ـ ماذا تريدين أن تعرفي؟

ـ لماذا قبّلتني؟ وقد كنتَ تتكلّم عن إعطاء الفرصة لنابو.

ـ لقد تخلّى عنكِ نابو يا سايوري! ولم آخذ منه شيئاً.

في غمرة انفعالي، لم أعد أفهم. لكنَّ الرئيس تابع:

ـ عندما فاجأتكِ مع الوزير، كان لكِ تلك النظرة التي رأيتها منذ عشرين سنةً خلت على ضفة نهر شيراگاوا. كنتِ يائسةً، على وشك الغرق. قالت لي بومبكين إنكِ رتّبتِ هذا اللقاء المنفرد من أجل شريكي، فقرّرتُ أن أحكي لنابو كل شيء. كانت ردّة فعله عنيفةً جداً! وقلتُ لنفسي إن هذا الرجل لا يستحقكِ إذا كان عاجزاً عن الصفح عنك.

* * *

في السنة الخامسة أو السادسة من عمري، في يورويدو، كان هناك صبي يدعى جيسوكي صعد إلى أعلى شجرة على ضفة المستنقع لكي يقفز في الماء. قلنا له ألا يقفز، ولكنه خاف من النزول، إذ يوجد هناك صخور تحت الشجرة. ركضتُ إلى الغابة لأخبر والده ياماشيتا، فلحق بي وصعد الهضبة ببطءٍ حتى تساءلتُ إن كان يقدّر حقاً الخطر الذي يتعرّض له ابنه. وصل إلى تحت الشجرة في اللحظة التي ألقى ابنه فيها نفسه فتلقّاه بسهولة كبالونٍ خفيف أُرسل إليه. أوقفه على قدميه، فصرخنا فرحاً. غمز جيسوكي بعينيه، وسالت دموع على أجفانه.

فهمتُ الآن ما أحسّ به جيسوكي. كنتُ سأنسحق على الصخور، فمدّ الرئيس ذراعيه وتلقّفني. ياللارتياح! لقد رأيتُ الرئيس ينحني عليّ من بين دموعي ويحتضنني بذراعيه. وضع شفتيه على المثلث اللحمي عند زاوية رقبتي، فأحسستُ بأنفاسه، وبرغبته التي عيل صبرها. أذكر مشهداً جرى منذ عدة سنوات في الأوكيًا عندما فاجأتُ إحدى الخادمات وهي منحنية على المغسلة، كانت تحاول أن تخفي الإجاصة التي في فمها، والتي سال عصيرها على رقبتها. كانت رغبةً لاتقاوم! ثم رجتني ألا أخبر الأم.

اليوم، وبعد أربعين عاماً، تبدو لي تلك الأمسية مع الرئيس أنها لحظة حياتي التي سكتت فيها كل الأصوات المؤلمة. منذ أن غادرتُ يورويدو وأنا قلقة على مستقبلي كما لو أن كل دورة جديدة لعجلة القدر ستضع عقبات جديدة أمامي. ومع ذلك، فقد كانت تلك المعركة اليومية وتلك الهموم هي التي أعطت معنىً لحياتي. عندما نخوض النهر ضد التيار، تتخذ كل خطوة قوة خاصة.

تغيرت حياتي بعد أن أصبح الرئيس «دانّاي». كما لو أني كنتُ

شجرة وهاهي جذورها تنغرس أخيراً في أرضٍ خصبة. لأول مرة في حياتي أحسّ أن قدري يميّزني. بعد أن عشتُ عدة أشهر من السعادة والهناء، استطعتُ أن ألتفت إلى ماضيّ وأرى كم تعذّبت. لهذا السبب استطعتُ أن أحكي قصتي. يتحدّث المرء عن الألم فقط، بعد أن يتجاوزه.

في الظهيرة نفسها التي شربتُ فيها أنا والرئيس الساكي في الإيشيريكي احتفالاً باتحادنا حدث أمر غريب. بينما كنتُ أشرب جرعةً من أصغر الكؤوس الثلاثة التي يجب علينا أن نتقاسمها، سقطت قطرة من الساكي من فمي وسالت على زاوية ذقني. كنتُ أرتدي كيمونو أسود من مقتنيات الأوكيًا، مع تنّين أحمر مطرّز باللونين الأحمر والذهبي. كان ذيل التنّين يبدأ من الفتحة السفلية ويلتف حول الكيمونو حتى مستوى فخذيّ. أذكر أني رأيتُ تلك القطرة تسقط على ذراعي وتتدحرج على الحرير الأحمر الذي يغطّي فخذي لتتوقّف عند أنياب التنّين المطرّز بخيوط فضية غليظة. قد ترى جيشاوات كثيرات في هذا الحادث نذير شؤم. أما بالنسبة إليّ فقد كانت قطرة الساكي تلك، التي سالت من وجهي، كدمعة تُصوّر قصة حياتي. لقد سقطت في الفراغ دون أن تستطيع التحكّم في قدرها. تدحرجت على طريق حريري لكي تقف بين أنياب التنّين. فكّرت بتويجات الزهرة التي رميتها في نهر كامو بالقرب من مشغل السيد آراشينو آملةً أن تمرّ تحت نافذة الرئيس. ولربما وصلته.

* * *

في أيام صباي كنتُ أحلم بأني عشيقة الرئيس فأرى حياتي رائعة. كانت تلك فكرة طفلية، احتفظتُ بها دائما في سن الرشد. وَجَبَ عليّ أن أكون أكثر واقعيةً. فلا يتخلّص أحدٌ من صنّارة دون أن يسيل دمه. لقد خبرتُ ذلك كثيراً. فعندما طردتُ نابو من حياتي، لم أخسر صديقاً فحسب، بل أُبعدتُ أنا نفسي من جيون.

وكان السبب واضحاً، فعليّ أن أتوقّع مسبقاً أن ذلك سيحصل. الرجل الذي كسب جائزة يشتهيها صديقه؛ يجد نفسه في مواجهة خيار صعب: إما أن يخبّئ هذه الجائزة عن صديقه إذا استطاع، أو

www.rewity.com ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

أن يشهد نهاية تلك الصداقة. كانت تلك هي المشكلة بيني وبين بومبكين، فقد أدّى تبنيّ إلى توجيه ضربة قاضية إلى صداقتنا. وجب على الرئيس أن يتباحث طوال عدة أشهر لكي يصبح «دانّاي». قبلت أخيراً أن أكفّ عن العمل كجيشا. ولم أكن أول جيشا تغادر جيون، فبعضهنّ يهرب، وبعضهنّ الآخر يتزوج، وبعضهنّ الثالث ينسحب لينشئ أوكيّا أو بيت شاي. بالنسبة إليّ، كنتُ في وضع وسط: أراد الرئيس أن أغادر جيون لكي يجنّبني لوم نابو، وبعد، فهو لن يتزوّجني لأنه متزوّج. كان الحل الأفضل الذي أتى به الرئيس هو أن أقيم في بيتي الخاص للشاي، بيت لن يغشاه نابو. ومع ذلك، لم تكن الأم تريد أن أغادر الأوكيّا، فعلاقتي مع الرئيس لن تدرّ عليها شيئاً إذا ما كففتُ عن الانتساب إلى عائلة نيتا. في النهاية، قبل الرئيس أن يدفع مبلغاً شهرياً كبيراً للأوكيّا مقابل أن تقبل الأم أن أنهي عملي. بقيت أسكن الأوكيّا، ولكني لم أعد أذهب إلى المدرسة ولا إلى بيوتات الشاي.

أردتُ أن أصبح جيشا لكي أغزو قلب الرئيس، وما كان عليّ أن أحسّ بأي حزن على مغادرة جيون. ومع ذلك، فقد عقدتُ على مرّ السنين علاقات صداقة مع جيشاوات وزبائن. حاولتُ أن أقيم صداقات مع نساء ولكن للأسف، فاللواتي يعملن في جيون لم يكن لديهنّ وقت للحياة الاجتماعية. وكلّما رأيتُ جيشاوين تحثّان الخطى إلى أحد الاحتفالات، كنتُ أحسدهما. ماحسدتهما على حياتهما العابرة، بل على الإثارة المسبقة التي لن أنساها: فكرة أن السهرة قد تهيّء لي مفاجأة سارّة.

غالباً ما كنتُ أزور مامها، كنا نشرب الشاي معاً عدة مرات أسبوعياً. بسبب كل ما فعلته من أجلي منذ طفولتي وحتى الآن، والدور الذي لعبته في حياتي بإيحاء من الرئيس، كنتُ مدينةً لها بدين عظيم. ذات يوم، وفي أحد المحلات رأيتُ لوحةً مرسومةً على الحرير من القرن الثامن عشر تمثّل امرأةً تعلّم الخط لفتاة صغيرة. كان وجه المرأة لطيفاً بيضوي الشكل، تنحني على الفتاة بكل حنان! سرعان مافكّرتُ بمامها. اشتريت اللوحة وأهديتها إليها. كان

الطقس ماطراً في تلك الظهيرة التي علّقت فيها اللوحة على جدار شقتها، في مكان مظلم. فوجئتُ بسماع الصخب في جادة هيغاشي، فتذكّرتُ، وقلبي منقبض، شقّتَها المطلّة على نهر شيراكاوا، والشلال الذي كنا نسمعه من النافذة المفتوحة. في تلك الأيام، بدت لي جيون كقماش قديم عليه رسم جميل. ولكنّ أشياء كثيرة تغيّرت! كانت مامها تعيش الآن في غرفة وحيدة، تاتامياتها بلون الشاي الحائل، تفوح منها رائحة النباتات الطبية، حتى إن رائحة خفيفة لعقار كانت تنبعث من كيمونوها.

بعد أن علّقت اللوحة على الجدار المظلم وأبدت إعجابها بها، عادت إلى الطاولة. جلست ويداها حول الكأس الساخن. نظرت إلى السائل الأصفر الشاحب أملاً في أن تجد فيه الكلمات التي كانت تبحث عنها. فوجئتُ برؤية العروق تنفر من ظاهر يديها، لقد شاخت. قالت أخيراً بصوت حزين:

ـ غريبٌ أن نرى مايخبّئه لنا المستقبل. كوني واقعيةً ياسايوري، لا تنتظري من الحياة أشياء كثيرة.

كانت على حق. لربما كانت الأمور أبسط بالنسبة إليّ لو لم أطلب صفح نابو. في النهاية، لم أطرح السؤال على مامها: كلّما سألتها عمّا إذا تكلّم نابو عني، كانت تطلق زفرة عميقة، وتنظر إليّ بحزن يضنيني. كأنها تقول لي: ألن تفهمي أنه لن يسامحكِ أبداً؟

* * *

بعد أن أصبحتُ عشيقة الرئيس بعام، في الربيع، اشترى بيتاً جميلاً في شمال كيوتو أسماه «إيشين ـ آن»، ويعني «تقاعد الحقيقة المباركة». اشتراه ليُسكن فيه الضيوف الذين تدعوهم الشركة، ولكن هو من استفاد منه أكثر. كنا نمضي سهراتنا فيه ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع، وأحياناً أكثر، في نهاية يوم عمل شاق. كان يستحمّ، كنتُ أحادثه، وبعد ذلك ينام. ولكنه، في معظم الأحيان، كان يصل عند غروب الشمس، فنتناول العشاء ونحن نتحدّث وننظر إلى الخادمات وهنّ يشعلن المصابيح في الحديقة.

WWW.REWITY.COM

عندما كان يعود إلى «إيشين - آن»، فيكلّمني عن نهاره في المكتب، أحسُّ بسعادةٍ غامرة وأنا أسمعه. وبعد، فقد كنتُ أعرف أنه يحكي لي تلك الأمور لأنه يريد أن يفرّغ روحه كما يفرّغ الماء من سطل. كذلك كنتُ أسمع رنّة صوته التي تأخذ بالهدوء كلما أمعن في الكلام. وفي الوقت المناسب، كنتُ أغيّر الحديث، فلا نعود نتكلّم عن أعماله، بل عما جرى معه صباحاً وهو ذاهب إلى المكتب، أو عن فيلم رأيناه هنا منذ عدة أيام. وأحياناً، كنتُ أحكي له قصةً قصّتها عليّ مامها التي تجيء إلى البيت بين وقت وآخر لتمضي السهرة عندنا. كانت خطتي أن أفرّغ روح الرئيس، وأسلّيه بحديث خفيف يكون له تأثير عليه كتأثير الماء على منشفة تيبّست بسبب بقائها معرّضةً للشمس لمدة طويلة. عندما يأتي، أغسل يديه بمنشفة ساخنة، كانت أصابعه قاسية كعصيّ، وبعد أن نتكلّم قليلاً تسترخي أصابعه وكأنها تنام.

وهكذا كانت تمضي أيامي: الاحتفاء بالرئيس مساءً، والاهتمام بأموري في النهار. ولكن في خريف عام 1952، قام الرئيس برحلة إلى الولايات المتحدة فرافقته. كانت إقامته الأولى في أمريكا، في الشتاء السابق، قد شجّعته، فقد رأى الازدهار كما قال. في تلك الحقبة لم يكن اليابانيون يحصلون على الكهرباء أكثر من ساعتين أو ثلاث ساعات في اليوم، في حين أن الأنوار تشعشع أربعاً وعشرين ساعةً على أربع وعشرين في المدن الأمريكية. لقد فرحنا بالأرصفة البيتونية الجديدة لمحطة كيوتو، حيث كانت خشبية في السابق. أما المحطات الأمريكية، فإنها من الرخام كما قال لي الرئيس. وفي المدن الصغيرة، نجد دور سينما بحجم مسرحنا الوطني. والمراحيض العامة ذات نظافة فائقة. وكل أسرة تمتلك ثلاجةً يعادل ثمنها الأجر الشهري لعامل صغير. في اليابان، تكلّف هذه الأجهزة خمسة عشر ضعفاً والأسر التي تملك هذا الجهاز قليلة.

إذاً، رافقتُ الرئيس في رحلته الثانية إلى أمريكا. ذهبتُ بالقطار إلى طوكيو، ومن هناك استقلّينا الطائرة حتى هاواي، حيث أمضينا ثلاثة ايام رائعة. اشترى لي مايوه سباحة لأول مرة في حياتي.

جلست بالمايوه على الشاطئ وشعري مسترسل على كتفيّ كبقية النساء. ذكّرتني هاواي بأماني. خشيتُ أن يتذكّرها الرئيس، ولكن إذا تذكّر، لا شيء يبدو عليه. من هاواي استقلينا الطائرة إلى نيويورك عن طريق لوس أنجلوس. رأيتُ أفلاماً أمريكية، ولكني لم أكن أصدّق حقاً وجود ناطحات السحاب هذه. وعندما نزلتُ أخيراً في غرفتي في ولدوروف أستوريا، تأملتُ تلك الأبراج الهائلة من حولي، وعندما رأيتُ هذه الشوارع النظيفة، نما لدي انطباعٌ بأني أكتشف عالماً كل شيءٍ فيه ممكن. وأعترف أني خشيتُ أن أحسَّ وكأني طفلةٌ تنتزع من حضن أمها. لأني لم أغادر اليابان قط، كنتُ مقتنعةً أن مكاناً مثل نيويورك قد يخيفني. ربما كانت حماسة الرئيس هي التي سمحت لي بالنظر إلى تلك الرحلة بهذه الروح المنفتحة. فقد استأجر غرفةً إضافية ليجري فيها لقاءاته مع رجال الأعمال. كل مساء، كان يأتي لينام معي في الجناح. غالباً ما كنتُ أستيقظُ في ذلك السرير المضحك، فأراه يجلس على مقعدٍ قرب النافذة، متأملاً بارك آفنيو في الجهة الأخرى. ذات ليلة، في الساعة الثانية صباحاً، أمسك بي من يدي وأخذني إلى النافذة ليريني رجلاً وامرأة في ثياب السهرة يتعانقان تحت نور المصباح في زواية الشارع.

طوال السنوات الثلاث التالية، رافقتُ الرئيس إلى الولايات المتحدة مرتين. أثناء عمله في النهار، كنا نذهبُ إلى المطاعم والمتاحف أنا وخادمتي. ونحضرُ عروض الباليه التي كانت تثيرُ إعجابي. ومن الغريب أن أحدَ المطاعم اليابانية النادرة في نيويورك كان يملكها رجلٌ عرفته في جيون قبل الحرب. وذات ظهيرةٍ، بعد الغداء مررتُ إلى الغرفةِ الداخلية، وتحادثتُ مع رجالٍ لم أكن قد رأيتهم منذُ سنوات: نائب رئيس «نيبون تلفون أند تلغراف»، والقنصل العام الجديد وعمدة كوبي السابق وأستاذ العلوم السياسية في جامعة كيوتو. أحسستُ وكأني عدتُ إلى جيون.

* * *

طوال صيف عام 1956، رتّب الرئيس الذي كان لديه ابنتان، ولم

WWW.REWITY.COM

يكن لديه ابن، زواجاً لابنته الكبرى مع رجلٍ يدعى نيشيوكا نينورو. أراد الرئيس أن يحمل السيد نيشيوكا اسمه ويصبح وريثه. وفي اللحظة الأخيرة، عدل السيد نيشيوكا عن رأيه، وأعلن للرئيس أنه لن يتزوج من ابنته. كان شاباً لامعاً، ولكنه مزاجيّ. طوال أسبوع، بقي الرئيس مغموماً، يغضبُ من أي أمرٍ، ولم أره في حياتي في مثل تلك الحالة.

لم يقل لي أحد لماذا غيّر ذلك الشاب رأيه حول الزواج، ولكني كنتُ أعرف سبب ذلك التحول. فطوال الصيف السابق قام أحد مؤسسي أكبر شركة تأمين في اليابان بطرد رئيس شركته الذي هو ابنه، وعينَ مكانه شاباً يافعاً، وهو ابنه غير الشرعي من إحدى جيشاوات طوكيو. أثارت تلك القصةُ فضيحةً آنذاك. فلقد كانت تلك الممارسات شائعةً في اليابان ولكن ليس على هذا المستوى، فهي غالباً ماتكون على مستوى بائع سكاكر أو بائع كيمونوهات. وصف مدير شركة التأمين ابنه البكر في الصحافة بأنه: «ولدٌ شريف، ولكن للأسف لايمكن أن تقارن مواهبه بمواهب...» وهنا ذكر ابنه غير الشرعي دون أن يذكر أي دليلٍ على صلة قرابتهما. وبعد، فقد كان الجميع يعرفون الحقيقة.

تخيل أنَّ نيشيوكا نينورو الذي قبل أن يصبح وريثاً للرئيس، قد عرفَ أن لهذا ابناً غير شرعي منذُ بعض الوقت. في هذه الحالة، فإنَّ رفضه للزواج مبررٌ. ورُغمَ تعلق الرئيس بابنتيه كان حزيناً لأنه لم يكن لديه ولد، وكان هذا الأسف معروفاً لدى العامة. فكان بالإمكان التفكير في أنه يحسُ بالتعلق بابنٍ غير شرعي، لدرجة أن يورثه شركته بعد وفاته. أما في ما يخص معرفة ماإذا كنتُ قد وهبتُ الرئيسَ ابناً أم لا... إذا كان نعم، فلن أتكلم عنهُ خشية أن يُعرفَ بوجوده، وهذا لن يكون في صالح أحد. من الأفضل أن أصمت حول هذا الموضوع، وأنا واثقة من أنكم ستفهمون.

* * *

بعد أن غيّر نيشيوكا نينورو رأيه حول الزواج بأسبوعٍ، قررتُ أن أبحثَ هذا الموضوع الدقيق مع الرئيس. كنا جالسين علىَ الشرفة

المطلة على حديقة «إيشين ـ آن». راح الرئيس يقلّب أفكاراً سوداء في رأسه دون أن ينبس بكلمةٍ منذ بداية السهرة. قلتُ له:

ـ هل قلتُ لكَ إني كنتُ في حالةٍ غريبة منذ بعض الوقت يادانّا ـ سانا؟

نظرتُ إليه، فلم أرَ ما يدل على أنه يسمعني، ومع ذلك تابعتُ قائلةً:

ـ أنا لا أكفُ عن التفكير ببيت شاي إيشيريكي. أشعر بالحنين لتلك السهرات.

تناولَ قطعةً من الثلج، ثم وضع ملعقته. أضفت:

ـ من غير الوارد أن أعود إلى العمل في جيون، ولكن كنتُ أقول لنفسي يادانّا ـ سانا... إن بيت شاي في نيويورك...

ـ إنها فكرةٌ غريبة! وليس لديكِ أي سببٍ لمغادرة اليابان.

ـ هناكَ رجال أعمالٍ وسياسيون يابانيون يتزايدون في نيويورك، ورجالٌ أعرف معظمهم منذُ سنوات. إن العيش في الولايات المتحدة سيكون بالنسبة إليَّ تغيراً جذرياً. ونظراً لأن دانّا ـ سانا سيمضي من وقته في أمريكا أكثر فأكثر...

وكان ذلكَ صحيحاً، فقد كلّمني عن افتتاح فرعٍ لإيوامورا إليكتريك في ذلك البلد.

ـ لاأرغبُ في التحدث في هذا الأمر الآن يا سايوري.

بلا شك، كان سيتحدثُ في أمرٍ آخر، ولكني تظاهرتُ بأني لم أسمعه.

ـ الأولاد الذين يتربون بين بلدين، غالباً ماتعترضهم مشكلات الهوية. كذلكَ فإن الأم التي تسافر مع ابنها إلى الولايات المتحدة لاتتخذ هذا القرار بسهولة.

ـ سايوري!...

ـ إنها لن تعودَ إلى بلدها أبداً.

WWW.REWITY.COM

لابدَّ أن الرئيس فهمَ أني أسمحُ له بأن يتخذ من نيشيوكا نينورو وريثاً له. فوجئ في البداية، ثمَّ لابد أنه فكر بأني سأهجرهُ، فقد ظهرت دمعةٌ في زواية عينه سارع إلى مسحها.

في آب من تلك السنة، استقريتُ في نيويورك وأنشأتُ بيتي للشاي، وكان بيتاً صغيراً يلتقي فيه رجال الأعمال والسياسيون اليابانيون المسافرون إلى الولايات المتحدة. أرادت الأم أن تعدَّ بيتي ملحقاً لأوكيًا نيتا. رفض الرئيس الكلام في هذا الموضوع. فللأمّ سلطةٌ عليَّ ما دمتُ في جيون. بذهابي قطعتُ كل صلةٍ لي بها. وأرسل الرئيس اثنين من محاسبيه إلى الأوكيًا لكي يتأكد من أن الأم ستعطيني كل ما أملكه حتى آخر ين.

* * *

أحسستُ بقلق غامض يوم انغلق باب شقتي في برج وولدورف خلفي للمرة الأولى. ولكنّ نيويورك مدينة مثيرة! وسرعان ما أحسستُ وكأني في بيتي، وربما أكثر من جيون. بالعودة إلى تلك الأيام، رأيتُ أن أيامي مع الرئيس هي الأجمل في حياتي. فمنذ البداية، لقد لاقى بيت الشاي الذي أنشأته في الطابق الثاني من نادٍ خاص مطلّ عل الآفنيو الخامس، نجاحاً كبيراً. عدة جيشاوات سافرن من جيون ليعملن معي، وكانت مامها تأتي أحياناً لزيارتي. واليوم أمضي وقتاً أقلّ في بيت الشاي، آتيه فقط عندما يكون أصدقائي أو معارفي القدامى في نيويورك. كان لديَّ مشاغل أخرى. ففي الصباح، أنضمّ إلى مجموعة من الفنانين والكتّاب من الحي ونتكلّم في أمور شتى كالشعر والموسيقى وتاريخ نيويورك. وفي معظم الأحيان أتناول الغداء مع أحد أصدقائي. وبعد الظهر، أجلس إلى طاولة مكياجي وأستعدّ للخروج، وقد أستقبل الضيوف عندي. عندما أرفع قماش البروكار على مرآتي، لا أستطيع الامتناع عن التفكير بذلك الكريم الأبيض الذي له رائحة الحليب، الذي كنتُ أضعه على وجهي في جيون. كم أحبّ أن أعود إلى هناك زائرة! ولكن جيون تغيّرت كثيراً! أخشى أن تشتتني تلك الزيارة. بعض أصدقائي يُروونني صوراً عن كيوتو اليوم. أرى أن جيون قد تقلّصت كحديقة لم

يعتنَ بها جيداً، فَنَمَتْ فيها النباتات الضارة. بعد موت الأم، منذ عدة سنوات، هُدم أوكيًا نيتا، وبُنِيَ مكانه بيت صغير من الإسمنت. هناك مكتبة في الطابق الأرضي، وشقق في الطابقين الأول والثاني.

في بداية الثلاثينات، كان هناك ثمانمئة جيشا، واليوم، بالكاد يبلغن الستين، مع نصف دستة من المتدرّبات. والعدد يتقلّص كل يوم. الزمن يتغيّر، ولا أحد يستطيع أن يفعل شيئاً. عندما أتى الرئيس إلى نيويورك للمرة الأخيرة، تنزّهنا في الحديقة العامة وتحدّثنا عن الماضي. توقّف في بداية أحد الطرق، وسط أشجار الصنوبر، وكان غالباً مايحدّثني عن بيت طفولته في أوساكا، في الشارع الذي زرع الصنوبر على جانبيه. نظرتُ إليه، أسند كلتا يديه إلى عصاه وهو مغمض العينين: كنتُ أعلم أنه يفكّر بماضيه، فقد تذكّر رائحته. تنهّد وقال:

ـ أحياناً، تبدو لي الأشياء صحيحةً في ذاكرتي أكثر مما هي في الواقع.

عندما كنتُ أصغر سناً، كنتُ أظنّ أن الهوى ينطفئ مع التقدّم في السن ككأس شاي متروك في غرفة يتبخّر محتواه شيئاً فشيئاً. بعد أن عدنا إلى الشقة ارتمى كل منا على الآخر كعاشقين شابّين! أحسستُ بنفسي منهكةً ومتجدّدة في آنٍ واحد. غصتُ في نوم عميق، وحلمتُ أني أحضر وليمةً في جيون. كان رجلٌ عجوز يشرحُ لي أن زوجته التي أحبّها كثيراً لم تمت حقاً: إن لحظات السعادة والمتعة التي تقاسماها بقيت حيةً في داخله. بينما كان يتكلّم، كنتُ أرشف حساءً لذيذاً. كنتُ ألاقي اللذة في كل رشفة وفكّرتُ أن جميع الرجال والنساء في حياتي، سواء أماتوا أم هجروني، لم يغيبوا إلى الأبد، بل يتابعون حياتهم في داخلي. أحسستُ وكأني أشربهم جميعاً: أختي ساتسو التي هربت وهجرتني عندما كنتُ صغيرة، أمي وأبي، السيد تاناكا ونظرته المقلوبة عن الطيبة، نابو الذي لا يستطيع أن يسامحني، وكذلك الرئيس. هذه القصعة كانت مليئة بكل من أحببتهم في حياتي، وبما أني أشرب محتواها، كانت كلمات ذلك الرجل تذهب إلى قلبي مباشرة. استيقظتُ ووجهي سابحٌ في العرق. أمسكتُ يد

www.rewity.com
ARAYAHEENA
WWW.REWITY.COM

الرئيس فطار صوابي: كيف لي أن أتابع حياتي بعد موته؟ كان هشاً جداً في نومه! لم أستطع الامتناع عن التفكير بأمي في يورويدو. ومع ذلك، بعد وفاته بعدة أشهر فهمتُ أنه يتركني كما تسقط الأوراق عن الشجرة في الخريف: حياته الطويلة ستصل إلى نهايتها الطبيعية.

لا أستطيع أن أقول لكَ ماالذي يقودنا في الحياة. ولكني كنتُ منقادةً أبداً نحو الرئيس. جرحتُ شفتي والتقيتُ بالسيد تاناكا، أمي ماتت، باعوني إلى أوكيّا. مسلسلٌ من الأحداث كتعرّجات نهر قبل أن يصبّ في المحيط. مات الرئيس، ولكنه بقي يتابع حياته في ذكرياتي. لقد عشتُ حياتي من جديد وأنا أقصّها عليك.

وأنا أجتاز بارك آفنيو، غالباً ما يصدمني الجانب الغريب في محيطي: سيارات الأجرة الصفراء التي تمرّ أمام عينيّ بكل سرعة مطلقةً أبواقها، هذه النساء وهنَّ يحملن حقائبهنّ اليدويّة، حائرات وهنّ يرين يابانية عجوزاً بالكيمونو في زاوية الشارع. ومع ذلك، هل كانت يورويدو ستيدو لي أقل غرابةً إذا ما عدتُ إليها الآن؟ في مراهقتي، كنتُ أفكّر أن حياتي ربما كانت أسهل لو أن السيد تاناكا لم ينتزعني من بيتي السكران. واليوم أعرف أن كوننا ليس واقعياً أكثر من الموجة التي تشرئبُّ على سطح البحر. مهما كانت صراعاتنا وانتصاراتنا، ومهما كانت الطريقة التي تؤثّر بها علينا، لن تلبث أن تذوب في لوحة مائية وتختفي كحبر انحَلّ على ورقة.

شكر

شخصية سايوري وقصة حياتها مختلقة، أما تفصيلات الحياة اليومية لجيشا في سنوات الثلاثينات والأربعينات قد ارتكزت على أحداث حقيقية. لقد ساعدتني كثيراً في أبحاثي مينكو إيوازاكي، إحدى أشهر جيشاوات جيون في سنوات الستينات والسبعينات. استقبلتني في بيتها في كيوتو في أيار عام 1992. نسفت أفكاري المسبقة حول حياة الجيشا. الأشخاص الذين أعرفهم الذين يعيشون في كيوتو، أو عاشوا فيها، قالوا لي إن أحداً لن يقول لي شيئاً. كنتُ قلقاً في الطائرة وأنا أعيد قراءة عبارات مختلفة، وصيغَ جملٍ يابانية. ماذا لو راحت مينكو تكلّمني عن المطر والطقس الجميل؟ لقد جعلتني أكتشف جيون في العمق مع زوجها جين وأختيها يايتشيو والمرحومة كومينو، وأجابت على أسئلتي حول حياة الجيشا بأدقّ التفصيلات. لقد أصبحت وبقيت صديقتي العزيزة وزارتنا في بوسطن مع أسرتها، وما أزال أحتفظ بذكرى طيبة عن إقامتها. أتذكر، أنا وزوجتي، ونحن نشاهد مباراة في التنس على التلفزيون مع هذه اليابانية ذات السنوات الأربعين، الجيشا السابقة، وهي إحدى أواخر الجيشاوات اللواتي تلقّين تربية تقليدية. يالها من لحظة عظيمة!

شكراً على كل شيءٍ يا مينكو!

التقيتُ بمينكو بفضل السيدة ناغورا، وهي امرأة حادة الذكاء،

WWW.REWITY.COM